أبو القاسم سعد الله

الحركة الوطنية الجزائرية

1900 - 1930

الجزء الثاني





الحركة الوطنية الجزائرية

الطبعة الرابعة (منقحة)

1992

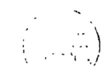
دار الغرب الإسلامي
ص.ب : 113/5787
بيروت - لبنان

الحركة الوطنية الجزائرية

تأليف

أبو القاسم سعد الله

الجزء الثاني





الاهداء

إلى أمي وأبي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

يسرني ان تصدر الطبعة الثالثة من هذا الكتاب بالجزائر التي هي موضوعه ، بعد ان صدرت طبعته الأولى في لبنان والثانية في مصر.

لقد صدرت الطبعة الثانية مليئة ـ للأسف ـ بالأخطاء ، كما افتقرت الى الثبت العام الذي احرص عليه في كل كتبي ، رغم الحاحي على المسؤولين في معهد البحوث والدراسات العربية بضرورة وضع ثبت للكتاب . ولذلك صححت ما في هذه الطبعة من أخطاء ووضعت الثبت بنفسي رغم ما فيه من مشقة وعناء . كما نقحت بعض العبارات واضفت بعض المعلومات التي يفترضها تطور البحث في التاريخ الوطني.

ولا بد ان اقول ان هناك مصادر كثيرة ظهرت منذ وضعت البيبليوغرافية الجديدة للطبعة الثانية خصوصاً بالعربية . وتشمل هذه المصادر.

1 ـ المذكرات ، مثل حياة كفاح لأحمد توفيق المدني ومذكرات مصالي الحاج ، وتشريح حرب لفرحات عباس ، وحياة وجهاد لمحمد الحسن الوزاني ، ومراسلات شكيب أرسلان وغيرها.

2 ـ الدراسات مثل الحركة الثورية الجزائرية لأحمد محساس ، وتاريخ الوطنية الجزائرية لمحفوظ قداش ، والشيوعية والوطنية في الجزائر لايمانويل سيفان ، وقد نشر بعض طلابنا أبحاثهم المتخصصة عن ظاهرة معينة للحركة الوطنية مثل دراسة يحيى بوعزيز عن دور عائلتي المقراني والحداد في ثورة 1871 ، ودراسة عبد الحميد زوزو عن دور المهاجرين الجزائريين في الحركة الوطنية بفرنسا بين الحربين.

3 ـ دراسات مساعدة للمؤرخ ، ومنها الصحف العربية (1847 ـ 1939) لمحمد ناصر والشعر الديني الجزائري الحديث لعبد اللّه ركيبي ، والشعر الجزائري

الحديث لصالح خرفي واطروحة محمد شفيق مصباح عن الأيديولوجية السياسية للحركة الوطنية الجزائرية ، يضاف الى ذلك بعض التراجم الهامة مثل دراسة محمد ناصر عن الشيخ ابي اليقظان ، ودراسة عمر بن قينة عن عبد الرحمن الديسي .

4 ـ اما الأبحاث والمقالات التي عالج اصحابها موضوعات تاريخية او مساعدة للمؤرخ فهي اكثر من ان تحصى في هذه المقدمة . ولعلنا نلجأ الى تصنيفها بلغاتها المختلفة (بالإضافة الى المصادر الأخرى) وادراجها في طبعات لاحقة من هذا الكتاب .

ان مواصلة الإطلاع على ما تصدره المطابع عن الحركة الوطنية الجزائرية ليست عملية سهلة ولكنها ضرورية . ذلك ان المعلومات تقابل ببعضها وتصحح وتتجدد وتتضح . ونكاد نقول أنه ليس في التاريخ معلومات قاطعة او نهائية . وعلى الباحث ان يظل يترصد هذه المعلومات ويصحح بها تأليفه ما دام على قيد الحياة . وهذا ما حاولناه في هذا الكتاب ، بل في جميع كتبنا .

ابو القاسم سعد اللّه

الجزائر : 3 يوليو 1982 .

مقدمة الطبعة الثانية

صدر هذا الجزء مستقلاً منذ 1969 على أساس أنه رسالة دكتوراه ذات موضوع محدد لا على أنه جزء من سلسلة الحركة الوطنية الجزائرية التي كانت حين كتابته مجرد مشروع . ولذلك لم أراع في تصميمه ربطه بما قبله أو بما بعده ، بل وضعت له مدخلاً (هو الفصل الأول منه) مهدت له لبدء الموضوع ، كما ضمنته اشارات تتجاوز سنة 1930 وهي نهاية الفترة المحدد له . ثم قمت بترجمته وقدمته للقراء مبتهجاً به غاية الابتهاج لأنه يسد في نظري فراغاً هائلاً في المكتبة التاريخية العربية ، ولم أشأ أن أغير من أصله شيئاً عندئذ رغم أن كثرة ما فيه من حواش ومصطلحات ومراجع قد يكون أثقله في نظر غير المتخصصين ، ومع ذلك لقي رواجاً لم أكن أبداً أفكر فيه .

وحين عدت إلى مشروعي القديم في كتابة سلسلة الحركة الوطنية كاملة في أربعة أجزاء (أنظر مقدمة الجزء الثالث) أصبح موقع الفترة التي يتناولها هذا الكتاب هو سنوات (1900 ـ 1930) ولذلك أعيد نشره هذه المرة مقروناً بعبارة « الجزء الثاني » ولو كنت انتهيت من كتابة الجزء الأول لجاز لي أن أحذف من الجزء الثاني المدخل الذي أشرت اليه لأنه يقع في فترة الجزء الأول . وما دام هذا لم يتم بعد فقد فضلت أبقاء المدخل في مكانه في الوقت الراهن حتى لا يبدأ القارىء بداية مبتورة .

وقد عدت إلى هذا الجزء بالتنقيح فصححت ما فيه من أخطاء تاريخية ومطبعية . بل وعدت بالنقد الى النص نفسه فشذبت وهذبت ما وسعتني المعرفة والذوق لأن العمل المترجم ليس كالعمل الموضوع ، وكانت الأمانة العلمية قد فرضت على أن أحافظ ما أمكن على الأصل ، ويمكن للقارىء أن يقارن بين أسلوبي كمترجم في الجزء الثاني وأسلوبي كمنشيء في الجزء الثالث من نفس السلسلة . وقد كشفت الأبحاث على أمور كنت أجهلها أو أخطات فيها عند كتابته منذ أكثر من عشر

سنوات ، ولذلك صححت كثيراً من الأسمـاء والتواريـخ وبعض الحقائق العـامة ، وأثريت هوامشه بمراجع وأفكار جـديدة ، وأضفت اليـه قائمـة موسعـة جديـدة من المصادر العربية لأن معظم مصادره في الأصل كانت باللغات الأجنبية ، كل ذلك رغبة مني في أن يكون عملاً جاداً مفيداً بقدر الامكان.

وإذا كان لي من شيء أنهي به هذه المقدمة فهو أملي ان أوفـق الى كتابة الجزء الأول حتى تستكمل سلسلة الحركة الوطنية حلقاتها ، وحتى يستطيع القارىء العربي التعرف على التيار الذي اختاره الشعب الجزائري بعزم وصلابة ضد الإحتلال الأجنبي من جهة ومن أجل حياة أفضل من جهة أخرى.

أبو القاسم سعد الله

معهد العلوم الإجتماعية ـ جامعة الجزائر

القاهرة في 6 أبريل 1976 .

مقدمة الترجمة

نادراً ما شعرت بالغبطة التي شعرت بها عندما انتهيت من ترجمة هذا الكتاب . ويرجع ذلك الى أنني منذ حصلت به على الدكتوراه في خريف 1965 ، قررت تعريبه ، ولكن حالت عوائق متعددة دون ذلك ، أهمها انشغالي بالتدريس في الخارج وعدم الاستقرار . وترجع غبطتي أيضاً إلى أن تعريب هذا العمل سيصلني بالقارىء العربي ، بعد أن أوصلني بالقارىء الأجنبي ، عن طريق فكرة عزيزة علي ، وهي الكشف عن تفاعلات الحركة الوطنية أثناء فترة هامة من تاريخ الجزائر الحديث.

ويجب أن أعترف بأني قد واجهت بعض الصعوبات في تحقيق الترجمة . وبعد التمعن انتهيت إلى تعريب جميع المراجع في الهوامش ، مع ملاحظة أني غالباً ما استعملت النطق الإنكليزي في تهجية الأسماء الأجنبية ، أما في قسم البيبليوغرافية فقد فضلت الابقاء على جميع المراجع كما هي حتى يسهل على القارىء المهتم الرجوع اليها في لغتها الأصلية . هذا بإستثناء المراجع العربية التي ظهرت في الأطروحة بالإنكليزية ، والتي أرجعتها هنا إلى لغتها الأصلية في قائمة خاصة . ومن جهة أخرى استعملت ، لتسهيل البحث ، طريقة الإختصار التي طبقتها في الأصل ، مثل اختصار أهم أسماء الدوريات الطويلة.

نواجه نحن مؤرخي العالم الثالث عقبة شاقة في كتابة تاريخ بلداننا . فالعاطفة مازالت تلعب دوراً أساسياً في تقييمنا للأشياء والحكم على الأحداث ، وهذه العاطفة قد تكون خطراً على الموضوعية والبحث المجرد . ولكننا من جهة أخرى نحس أن علينا مسؤولية انسانية نحو بلداننا في هذه المرحلة التاريخية التي تقف فاصلاً بين الإستعمار والتحرر ، بين العبودية والحرية . ومنذ بدأنا نتحرر واجهنا الإجابة على هذا السؤال : هل نقف من أعمال الاستعمار موقف المدافع أو المهاجم ، أو نقف منها موقفاً آخر لا يهتم لا بالدفاع ولا بالهجوم ولكن بالحقيقة وبالموضوعية ؟

وهنا أود أن أنبه إلى أني حبلت بفكرة هذا البحث منذ انفجار الثورة الجزائرية . ولم تكد الثورة تنتهي (1962) حتى كنت قد وضعت المخطط العام للفكرة وأوشكت على جمع المراجع . وقد كنت أحس من الأعماق اني قد اكتشفت كنزاً ثميناً في أكوام من الوحل ، وأنه كان علي أن أصارع كثيراً من المهاجمين قبل أن أكشف للناس عن حقيقة الكنز . ولعله من نافلة القول التأكيد على أن الباحث ، مهما بلغ من التجرد ، لا يستطيع أن ينفصل عن زمانه ومكانه ، عن مشاعره وميوله الثقافية والسياسية ، ولا سيما إذا كانت تلك المشاعر والميول قد ولدت نتيجة هزة قوية تاريخية في حياته . كما أرجو أن أنبه الى أن اقامتي الآن في الجزائر وزيارتي الأخيرة للمشرق العربي قد أتاحتا لي فرصة الإطلاع على معلومات هامة عن الوضوع لم تكن لدي عند كتابة الأطروحة ، ولكني لم أستخدمها في الترجمة.

لو كنت أعلم حين اخترت موضوع هذا الكتاب، أن ما سأقوم به سيكون أمراً نهائياً ، لما أقدمت عليه ، لأني على يقين من أن طاقة كل باحث مهما كانت ، ستظل محدودة بالزمان والمكان والوسائل . لذلك أكرر ما قلته ، في غير هذا المكان ، من أن ما حققته حتى الآن لا يعدو أن يكون محاولة للبحث في أصول وتطورات الحركة الوطنية ، ثم تقييمها تقييماً يستند على المصادر والوثائق ، التي أمكنني الإطلاع عليها في بلاد بعيدة جداً عن المركز الذي جرت فيه أحداث الكتاب . وليس البحث العلمي سوى جهد يضاف إلى جهد ، ولبنة تضاف إلى لبنة ، وبذلك يتضح الطريق إلى الحقيقة . وأني أرجو أن يكون جيل المؤرخين الطالع أكثر مني تثبتاً ، وأوفر سلاحاً ، وأسع رؤية ، في نشدان الحقيقة التاريخية . وإذا كان هذا العمل قد أسهم ، ولو بجزء ضئيل ، في هذا الحقل ، فإني لا شك انسان سعيد[1].

ابو القاسم سعد الله

الجزائر في 26 يوليو ، 1968

---

(1) من أراد زيادة الاطلاع على ظروف هذا العمل ، فليقرأ موضوع (في الجهاد الثقافي) ، المنشور في كتابنا (منطلقات فكرية) ، الدار العربية للكتاب - تونس - ليبيا ، 1976 .

مقدمة الأصل الانكليزي

هـذا الكتاب ليس دراسـة عن الحكم الفرنسي في الجـزائر ، ولكنـه دراسة تاريخية لحركة رد الفعل الجزائري الذي نتـج عن ذلك الحكم . وقـد دفعني الى اختيار هذا الموضوع بالذات عدة عوامل منها عـدم وجود دراسـة جادة عن الحـركة الوطنية الجزائرية ، وطريقة تناول الفرنسيين لتاريخ الجزائر كتابة وتفسيراً ، وأخيراً ظهور الجزائر الآن كعضو نشيط بين الدول النامية.

كلما أخبرت الناس في أمريكا عن موضوع هذا الكتـاب نظروا إليّ بتعجب قائلين : « جئت إلى هذا البلد لتتعلم عن بلادك ! » أن هذه القصة تذكرني بقصة أخرى . فالمثقفون الجزائريون بالفرنسية اعتادوا أن يقـولوا للمستمعين العـرب في الشرق : « اننا ضحايا الإستعمار الذي فرض علينا أن نتعلم لغته ونجهل لغتنا » . ومؤلف هذا الكتاب هو « ضحية » أخرى ، ولكن بطريقة مختلفة . فرغم أنه مثقف بالعربية ، التي كان عليه أن يهاجر لكي يتعلمها ، فإنه لم يدرس ولو مادة واحدة في تاريخ الجزائر . فهو ، كبقية الجزائريين ، لا يعرف عن ماضي الجزائر أكثر مما يعرف رجل الشارع الأمريكي أو الصيني . بل ان الجزائريين المثقفين بالفرنسية لم يدرسوا تاريخ الجزائر ، لأن الكتب الفرنسية المقررة اعتادت أن تبدأ بهذه العبارة « أن أجدادنا هم الغاليون . . » .

عندما كانت حرب الإستقلال الجزائرية في أوجها اعتاد الناس في أمريكا أن يسألوني : « لماذا أنتم أيها الجزائريون ثائرون ضد فرنسا ، ألم تحضر اليكم الحرية والحضارة ؟ » انه يبدو أن كثيراً من الناس ما يزالون يعتقدون ذلك في الحكم الفرنسي في الجزائر . فهم يعتقدون بأنه ما دامت الجزائر كانت قطعة من فرنسا فلا بد أنها قد تمتعت بكـل امتيازات الـديمقراطيـة والحضارة ، فلم يخـطر على بالهم أبـداً بأن الجزائريين ، بالرغم من أنهم كانوا « فرنسيين » ، كانوا يعيشون « رعايا » تحت قانون

خاص يدعى « قانون الانديجينا » (الأهالي) ، وأنه عندما تحقق الإستقلال كان أكثر من 92 ٪ من الجزائريين أميين ، رغم أن الجزائر قد بقيت تحت الحكم الفرنسي 132 سنة .

وقد يبدو للبعض بأن هذه الدراسة تعبر عن وجهة نظر واحدة وانها تنتقد الحكم الفرنسي في الجزائر بشدة . والحق أن ذلك ليس من نية ولا من هدف المؤلف . فاذا كانت تبدو كذلك ، فليس ذلك الا نتيجة لطبيعة المشكل وفذاذة الوضع . اننا نجد اليوم كثيراً من الكتاب الفرنسيين أنفسهم (مثل جوليان ، وأجرون ، ونوشي ، وتيليون ، ورروي ، وسارتر ، ولاكوست ، وجونسون الخ . . .) يأخذون نفس الموقف ، وان نظرة سريعة الى المصادر ستظهر بأن معظم المعلومات قد أخذ من مصادر فرنسية لم تستغل من قبل . وبالإضافة إلى ذلك فإن المؤلف مقتنع بأن الموضوعية ليست كلمة تأدب أو موقفاً محايداً ، ولكنها محاكمة وحكم قد يكونان ، في بعض الأحيان ، قاسيين جداً.

وقد اخترت فترة 1900 ـ 1930 لأنها غالباً ما أهملت ممن أرخوا للحركة الوطنية الجزائرية . وسيجد القارىء معلومات ضرورية تتناول هذه الحركة في القرن الماضي في فصل مدخلي طويل . وكقاعدة فإن كل فصل يبدأ بمدخل حقائقي عن السياسية الفرنسية في الفترة المعنية ، تليه دراسة مفصلة عن رد الفعل الجزائري لهذه السياسة ، وينتهي بخاتمة . وهكذا فإن الحركة الوطنية قد درست من خلال تعبيرها الثقافي ، ونضالها السياسي ، ونشاطاتها الإجتماعية ، ومقاومتها العسكرية . كما أن كل حزب سياسي أو هيئة اجتماعية قد درست على حدة ، وان تراجم شخصية قد أعدت للأفراد الذين أثروا على هذه الحركة .

وما دامت الحركة الوطنية الجزائرية قد تأثرت بالمذاهب المعاصرة ، فإن هذه الدراسة قد احتوت على مناقشة العلاقة بين الحركة الوطنية وأهم الأيديولوجيات المعاصرة. لذلك فإن جزءاً من هذا الكتاب قد خصص للجامعة الإسلامية، والشيوعية، والديمقراطية، بالإضافة الى القوات المركزية، والعالم العربي، في علاقتها جميعاً بالحركة الوطنية. ولكن المؤلف يعترف بأن هناك أشياء كثيرة ما زالت تنتظر البحث حول هذه العلاقة، والهدف الرئيسي من هذه المحاولة هنا هو الإشارة إلى أنه لا يمكن دراسة الحركة الوطنية الجزائرية بدون ربطها بالأحداث والمذاهب المعاصرة.

ورغم عدم وجود احصاءات حيوية عن الحركة الوطنية ، فإن المؤلف قد أعد بعض الإحصاءات عن الأحداث الهامة ، كما أعد قاموساً قصيراً بالكلمات العربية الـواردة في النص . ونظراً لعـدم وجـود وثـائق ضـروريـة عن الحـركـة في اللغـة الإنكليزية ، فإن المؤلف قد ترجم بعضها من العربية والفرنسية ووضعها في شكل ملاحق . وبالإضافة إلى ذلك فقد وضعت قائمة مختصـرة لأسماء المجـلات التي تحتوي عناوينها على أكثر من كلمة(*).

ان هذا العمل لا يتوقع أن يكون كاملًا لأن الطاقـة الإنسانيـة ، مهما كـانت مـواردها ، محدودة . فكثير من البحث ما زال ضرورياً لإزالة الغطاء عن معلومات أكثر حول هذه الحركة . وحين يتحقق ذلك فـإنه سيسمـح بامتحـان جديـد للمواد المستعملة في هذا الكتاب . ومن الملاحظ أن معظم المصادر المستعملة هنا هي مقالات ووثائق لم يتح فيما يبدو ، استغلالهـا من قبل . والـذي ألجأني الى هـذه الطريقة هو عدم البحث سابقاً في هذا الحقل . فما يزال هناك فراغ في المعلومات سيملأ بالرسائل والمذكرات والتراجم الشخصية لأولئك الذي شاركـوا في الحركـة الوطنية أو لاحظوها عن قرب ، وإذا كانت هناك أية مساهمة قد قام بها هذا الكتاب ، فإنها تتمثل في محاولة القاء الضوء على فترة كانت حتى الآن غامضة ، وعلى بلاد ظلت أكثر من قرن في عزلة مفروضة .

وان كان لا بد من كلمة أخيرة فإن من هذه الدراسة مدينة لكثير من الأشخاص والمعاهد . فهي مدينة بعمق للبروفيسور هارولدس . دويتش ، رئيس قسم الدراسات التاريخية بجامعة مينيسوتا ، الذي أشرف على دراستي مدة أربع سنوات ، وللسيد والسيدة روبيرل . ميلكا اللذين تفضلا بقراءة المخطوط وقـدما اقتـراحات بنـاءة ، ولموظفي مكتبة والتر بجامعة مينيسوتا الذين قدموا الى خدمة كبيرة من خلال « برنامج الإستعارة الداخلية بين المكتبات » . ثم ان الدراسة مدينة لأخي علي وخالي المرحوم الحفناوي هالي اللذين بعثا إليّ بوثائق ضرورية من الجزائر وفرنسا ، ولأساتذتي في جامعة مينيسوتا على نصائحهم وتشجيعاتهم .

أ . سعد الله مينيابوليس (مينيسوتا)

جوييه ، 1965

(*) انظر المختصر في آخر الكتاب .



أصول الحركة الوطنية الجزائرية إلى 1900

1/. سياسة فرنسا في الجزائر :

في 30 جانفي سنة 1830 ، قررت الحكومة الفرنسية ، التي كانت تحت رئاسة دي بولينياك ، أن تبعث حملة ضد الجزائر . وقد بررت هذه الحركة بعدة أسباب ، منها الانتقام من الجزائر التي أهان الداي حاكمها الشرف الفرنسي حين ضرب القنصل الفرنسي بمروحة أمام جمهور ديبلوماسي . ومنها وقف القرصنة وتخليص أوروبا من مصدر القلق والإضطراب . ولكي تقدم فرنسا حجتها بصفة نافذة ومؤثرة ، عمدت الى التركيز على السبب الأول بالنسبة الى الرأي العام الفرنسي ، بينما ركزت على السبب الثاني بالنسبة إلى الرأي العام الأوروبي .

ولكن هذه الأسباب لم تكن هي الوحيدة أو الرئيسية . فقد بقي على المؤرخين أن يشرحوها كاملة وبوضوح . ذلك أن من أهداف الحملة التي لم يذكرها الفرنسيون عندئذ ما يلي : (1) زيادة شعبية نظام الملك شارل العاشر غير المحبوب . (2) الفرار من دفع دين كانت الجزائر قد أعطته إلى فرنسا ، بدون فائدة ، عام 1797. ، بينما كانت فرنسا تعاني من الحصار الإنكليزي . (3) مزاحمة الدول الأوروبية الأخرى ، وخصوصاً بريطانيا ، على خلق امبراطورية جديدة[1].

وعلى أية حال فان الجيش الفرنسي قد نزل بقرب الجزائر العاصمة يوم 14 جوان ، سنة 1830 ، وبعد قتال مرير وخسائر فادحة من الطرفين ، استسلمت

(1) يكفي هنا أن نشير الى مصدرين فقط : أحدهما جزائري ، وهو فرحات عباس ، « الليل الاستعماري ، حرب وثورة الجزائر » ، م.ا. ، (باريس : جوليارد ، 1962) ، ص 24 ـ 46.. أما الآخر فهو فرنسي ، روبير أرون ، وآخرون ، « أصول حرب الجزائر » نصوص ووثائق معاصرة ، (باريس : فيارد ، 1962) ، ص 31 .

الحكومة في 5 جوييه ، من نفس العام[2] ، ثم أمضى كل من الداي رئيس الدولة الجزائرية والكونت دي بورمونت ، القائد الأعلى للجيش الفرنسي ، معاهدة ، تعرف بإتفاق الجزائر . وقد نصت مادة 5 من هذا الاتفاق على ما يلي : حرية العمل بالدين الإسلامي ، ضمان حرية جميع الطبقات والأديان ، والممتلكات والتجارة ، والصناعات ، واحترام كامل للمرأة الجزائرية . أما مادة 2 فقد نصت على احترام التقاليد الجزائرية ، وعلى أنه لن يؤذن للجنود الفرنسيين بدخول المساجد الجزائرية[3].

وهكذا وعدت فرنسا الجزائريين بحرية الدين ، واحترام المرأة ، والممتلكات ، والتقاليد التي لا شك أنها شملت اللغة والرموز الوطنية للبلاد باستثناء السيادة . ولكن بعض المؤرخين الفرنسيين يدعون بأن الجزائر قد سلمت « بدون شرط »[4] ، غاضين النظر عن الحقيقة وهي ان اتفاق الجزائر كان قد أمضاه ممثلهم .

وبالإضافة الى ذلك ، فان الفرنسيين قد قدموا أنفسهم الى الجزائريين على أنهم محررون ، لا منتصرون . ففي بيان بالعربية وزعه عملاء خاصون عشية النزول بالجزائر ، ادعى الفرنسيون بأن حركتهم كانت تستهدف القضاء على الداي « الطاغية » فقط ، وان كل الممتلكات ، وقضايا الأسرة ، والبلاد نفسها ستبقى في يد الجزائريين ، وان المساجد وأماكن العبادة ستحترم بصفة نافذة ، وان الفرنسيين « سيحررون » الجزائر من الطغيان التركي[5].

---

(2) أخبر دي صاد ، الذي كان عضواً في اللجنة الأفريقية ، المجلس الوطني الفرنسي عام 1834 بأن الجزائريين قد حاربوا الجيش الفرنسي بمائة وخمسين ألف رجل ، من غير جنود الداي ، انظر « م .و . » (29 أبريل ، 1834) . ولنذكر بأن العدد المشار اليه يتعلق فقط بمقاطعة الجزائر عندئذ ، ولا يشمل مقاطعتي وهران وقسنطينة .

(3) نيفيل باربور ، (محرر) ، « مدخل الى شمال - غرب أفريقيا » « المغرب » ، ط 2 (لندن : نشر جامعة أكسفورد ، 1962) ، ص 213 .

(4) أرون ، ص 31 .

(5) ان نص هذه الوثيقة الهامة منشور في أصله العربي ، مع ترجمة فرنسية حرفية بقلم م. بريسني ، في « ر.ا. » م 6 (1862) ، ص 153 - 156 . وقد أعطي الوثيقة الى المجلة الدكتور ليكليرك ، الذي حصل عليها من مكتبة أميان . والترجمة الفرنسية مسبوقة بمقدمة كتبها م.أ. بيربر وغر ، رئيس تحرير المجلة ، الذي قال بأن الوثيقة لم تنشر أبداً من قبل ، وفي الحقيقة ، فإن نسخة من هذا البيان كانت قد نشرت في الصحيفة الفرنسية « م.و. » (2 جوان ، 1830) كما نشرت الصحيفة الانكليزية «ذي =

وأثناء الفترة التي نتناولها (1830 ـ 1900) مرت فرنسا نفسها بعدة أنواع من نظم الحكم : شملت العودة الى الملكية (1815 ـ 1848) ، والجمهورية الثانية (1848 ـ 1852) ، والامبراطورية الثانية (1852 ـ 1870) ، والجمهورية الثالثة (1871 ـ 1940) . ولكن الجزائر كانت قد عاشت تحت نوعين فقط من نظم الحكم هما : النظام العسكري من 1830 إلى 1870 ، والنظام المدني منذئذ . ورغم عدم تجربتهم ، فقد وجد الفرنسيون أنفسهم وجهاً لوجه أمام شعب يختلف عنهم تماماً في اللغة ، والدين ، والتقاليد ، ودرجة الحضارة(6) . وهكذا بدأوا يحكمون بطريقة مباشرة نظراً لإنعدام ظل أية واسطة بينهم وبين الشعب . وبالإضافة الى ذلك ، فإنهم قد وجدوا أنفسهم أمام مقاومة شديدة ، عسكرياً وسياسياً من جميع أطراف الجزائر ، والنتيجة ، كما كانت متوقعاً ، هي الإضطراب والفوضى ، زادهما سوءا حدوث ثورة جوييه في فرنسا التي حدثت بعد أيام قليلة فقط من وصول أخبار « النصر » في الجزائر الى باريس .

ويسمي الفرنسيون الفترة الواقعة بين 1830 ـ و 1834 عهد التردد . وهذا يعني أنه بينما كانت باريس مشغولة بمؤامراتها الثورية ومناوراتها الديبلوماسية في أوروبا ، كان للجيش الفرنسي في الجزائر كامل الحرية في معالجة الوضع بالطريقة التي يراها مناسبة . وعندما وصلت إلى باريس أخبار الاصطدامات السياسية والعسكرية بين الجزائريين والجيش الفرنسي بواسطة حملة نظمتها جماعة جزائرية منفية وصحافة المعارضة الفرنسية ، أجابت باريس بإرسال لجنة تحقيق تعرف باللجنة الافريقية(7) . وبعد بحث طويل قدمت اللجنة الافريقية تقريراً استنكرت فيه تصرفات

ليفيربول ميركوري» ترجمة للنص الفرنسي (18 جوان ، 1830) . أنظر مقالنا « أول بيان فرنسي الى الشعب الجزائري » في مجلة (المعرفة) الجزائرية عدد مارس 1965 ، ص 5 ـ 13 .

(6) معظم المؤرخين الفرنسيين يعترفون بنقص المعلومات والكفاءة عند اداريهم الأولين ، ولكنهم يضعون اللوم على كاهل الجزائريين « غير الموثوق فيهم » . أنظر . ج . ايسكي ، « تاريخ الجزائر » ، ص 7 ، كما أشار اليه أرون ، ص 32 .

(7) عينت الحكومة هذه اللجنة عام 1833 . وسافرت اللجنة الى الجزائر في 28 أوت ، وعادت الى فرنسا في 19 نوفمبر من نفس العام . وقد زارت خلال جولتها الجزائر العاصمة ، متيجة ، البليدة ، وهران ، عنابة ، وأرزيو . أنظر عن اللجنة الأفريقية كتابنا « تاريخ الجزائر الحديث ، بداية الاحتلال » ، معهد الدراسات العربية ، (القاهرة، 1970) .

الجيش الفرنسي في الجزائر بهذه العبارات :

« لقد حطمنا . . ممتلكات المؤسسات الدينية . وجردنا السكان الذين وعدناهم بالإحترام . وأخذنا الممتلكات الخاصة بدون أي تعويض . . وذبحنا أناساً كانوا يحملون عهد الأمان . . وحاكمنا رجالاً يتمتعون بسمعة القديسين في بلادهم . . لأنهم كانوا شجعاناً لدرجة أنهم صارحونا بحالة مواطنيهم المنكوبين(8) » . ولكن اللجنة قد أوصت بالإبقاء على الجزائر « ملكا » لفرنسا ، وبإدارتها بواسطة حاكم عام عسكري .

وبناء على هذه التوصيات ، فإن الحكومة الفرنسية قد أصدرت قرارها المشهور في 22 جوييه سنة 1834 ، الذي اعترف بالإحتلال كحقيقة واقعة والذي نص على انشاء منصب حاكم عام عسكري ليدير « الممتلكات الفرنسية في أفريقيا الشمالية(9) » . وقد كان الجنرال درويت ديرلون هو أول حاكم عام للجزائر ، يساعده مجلس مكون من موظفين عسكريين ومدنيين .

وبينما أعلن قرار سنة 1834 ان الجزائر « أرض فرنسية » ، فانه قد قسمها إدارياً إلى ثلاث ولايات (ديبارتومان) تحت المراقبة المباشرة للحاكم العام . وكل ولاية كانت قد قسمت الى دوائر (أروندسمان) ، وبلديات (كومون) ، تماماً مثلما كان الحال في فرنسا . وبالإضافة إلى ذلك فان كل ولاية كانت تبعث بنائب الى المجلس الوطني الفرنسي . ان هذه الاجراءات الاندماجية كانت قد أصبحت شرعية بدستور سنة 1848 الذي نص على أن الجزائر كانت تشكل جزءاً مكملاً لفرنسا . ومن ناحية أخرى أكدت فرنسا للكولون الجدد تأييدها المعنوي والمادي(10) .

كلا الخطوتين : قرار سنة 1834 وتصريح دستور سنة 1848 كان حجر زاوية

---

(8) أشار الى ذلك عباس ، ص 76 ـ 77 . أنظر أيضاً تقرير دي صاد الى مجلس النواب في «م.و.» (29 أبريل ، 1834) .

(9) أرون ، ص 33 ـ 34 .

(10) نفس المصدر ، ص 42 ، كانت الجزائر ، قبل الاحتلال الفرنسي ، مقسمة الى ثلاث ولايات : وهران في الغرب ، وقسنطينة في الشرق ، وطيطري في الوسط ، وكان على رأس كل ولاية باي معيناً من طرف الداي ، رئيس الدولة ، أما مدينة الجزائر نفسها فقد كانت مقر الحكومة والعاصمة الوطنية لكامل القطر ، وقد ورث الفرنسيون نفس النظام وحافظوا عليه .

في العلاقات الجزائرية ـ الفرنسية . ذلك أن فرنسا قد خطتهما من غير احترام لاتفاق الجزائر ولبيان سنة 1830 ومن غير مشاورة الجزائريين[11]. وكلا التشريعين قد جعل الجزائر في الحقيقة « أرضاً شاغرة » مع كل ما يستلزم ذلك من ازالة ذاتيتها التاريخية وشخصيتها الوطنية كما أدى ذلك إلى حلها كدولة ، والى طرد حاكمها ، والى منع تطورها الطبيعي[12] .

وقد اتبع الفرنسيون سياسة الاحتلال الجزئي تحت أول حاكم عام عسكري . فقد حصنوا أهم المدن الساحلية ، كما ظهرت علامات الاستعمار والثقافة الفرنسية . أما ادارة الأرياف فقد اعتمد الفرنسيون فيها على المكاتب العربية (بيرو أراب) التي كان يرأس كلا منها ضابط فرنسي . ولكن سياسة الإحتلال الجزئي قد بدأت تترك المجال شيئاً فشيئاً لسياسة الاحتلال الكلي بإستعمال كل ما يمكن من الوسائل الضرورية لتحقيق هذا الهدف . وكان الجنرال بوجو ، الذي أصبح حاكماً عاماً للجزائر سنة 1840 ، هو الذي عهد اليه بتحقيق هذه السياسة الجديدة .

والحق أن الجنرال بوجو كان يقيم سياسته بصراحة على حسب النتائج التي تحققها[13] . فكل شيء يقف في طريق الوصول إلى هدفه كان يجب أن يزول مهما كانت قيمته . وكان بوجو ، الذي عمل في الجزائر من قبل ، يضع أمام عينيه هذه الفكرة حين أخبر زملاءه في المجلس الوطني (كان عندئذ نائباً أيضاً) سنة 1840 بأن الاحتلال الجزئي لا طائل تحته . ورأى بأن احتلال الجزائر يجب أن يكون بإستعمال

(11) يروي السياسي الجزائري حمدان خوجة بأنه ، حين احتج لدى القائد الفرنسي الجنرال كلوزيل ، الذي خلف الكونت دي بورمونت سنة 1830 ، ضد خرق فرنسا للاتفاق المشترك ، أجابه كلوزيل بأن فرنسا « غير مجبرة على احترام هذا الاتفاق ، لأنه لم يكن ، في نظرها ، سوى لعبة حرب » أشار إلى ذلك جورج ايفير ، « سي حمدان بن عثمان خوجة » في « ر.ا. » م 57 (1913) ، ص 138 .

(12) عباس ، ص 55 . ويشير المؤلف أيضاً الى أن الممثل الفرنسي في الأمم المتحدة ، م.هـ . الفاند ، قد قال ، مدافعاً عن موقف بلاده من المشكل الجزائري (سنة 1955) ، بأن : الجزائر هي فرنسا منذ 1834 ، مثل بريطاني منذ 1491 ، والالزاس منذ 1648 ، وكورسيكا منذ 1769 ، وصافوي منذ 1860 ، ص 30 .

(13) حين لامته الصحافة على تصرفاته العسكرية ضد الجزائريين عام 1845 ، رد بوجو : « لقد حرقنا كثيراً ، وخربنا كثيراً . . ولكن ما دمت مقتنعاً بأنني قد فعلت شيئاً لبلادي ، فإني أعتبر نفسي فوق ملامة الصحافة ، » أشار الى ذلك باربور ، ص 218 .

طريقة « الأرض المحترقة » . وبعد أن عين حاكماً عاماً ، أعطى بوجو جنوده الأوامر بأن يخلقوا جواً من الرعب تستحيل فيه الحياة المادية للجزائريين . لذلك اشتملت أوامره اليومية على التالي : حرق المحاصيل الزراعية ، وحجز النساء والأطفال اما كرهائن واما للبيع للحصول على الخيول ، وخنق قبائل كاملة في الكهوف ، ومناظر الرعب والهلع[14] .

وباستعمال العمليات العسكرية تحت شعار « الأرض المحترقة » نجح بوجو في اضعاف المقاومة الجزائرية التي كان يقودها الأمير عبد القادر، الذي أرغم على التسليم بعد عدة شهور فقط من مغادرة بوجو للجزائر عام 1847. ولكن بوجو لم يحتفل بسياسة الإحتلال الكامل فقط، ولكنه احتفل بسياسة «الإستعمار الرسمي» أيضاً.

فقبل بوجو كان يقوم بالاستعمار في الجزائر رواد مدنيون . أما بوجو فقد جعل الاستعمار مشروعاً عسكرياً بصفة رسمية . ولهذا الغرض شجع الزواج بين الجنود ، وهو المعروف « بزواج الطبول » حيث يأخذ الجندي سبعمائة فرنك ، وقطعة أرض وغير ذلك من المساعدات، والحق أن بوجو أراد أن يجعل من الجنود مستعمرين « كولون » . والجمهورية الثانية التي جعلت الجزائر « دستورياً » جزءا من فرنسا ، قد استمرت في سياسة بوجو الاستعمارية الرسمية ، ولكن بواسطة مدنيين . وبالإضافة الى ذلك فان الجمهورية الثانية قد قوت سياستها الاستعمارية بنفي المتهمين بمضادة الثورة (ثورة 1848) الى الجزائر حيث وجد هؤلاء « هدايا » من الأرض تنتظرهم . كما وجه الفرنسيون نداءات إلى الأجانب في أوروبا بالهجرة الى الجزائر[15] .

كتب نابوليون الثالث ذات مرة الى الجنرال ماكماهون الحاكم العام في الجزائر ، يقول له بأن الجزائر « مملكة عربية » ومستعمرة أوروبية ، ومعسكر فرنسي[16] . ان هذا القول قد حير المؤرخين المعاصرين والحاضرين . ماذا كان في

---

(14) انظر عباس ، ص 52 ـ 53 ، 63 ـ 74 وارون ، ص 35 ـ 36 .

(15) في عام 1905 كتب أناتول فرانس عن الاستعمار قائلاً بسخرية « أننا ، منذ سبعين سنة ، قد جردنا العرب (من أراضيهم) ، وطاردناهم ، واضطهدناهم لكي نعمر الجزائر بالايطاليين والاسبانيين » . أشار الى ذلك شارل هنري فافرو « الثورة الجزائرية » (باريس : بلون ، 1959 ، ص 20 ، أنظر بخصوص أنواع الأراضي التي اغتصبها الفرنسيون ، أرون ، ص 40 ـ 41 .

(16) فافرو ، ص 14 .

عقل نابوليون نحو الجزائر ؟ ليس هناك أحد يعرف حقاً[17] . وعلى أية حال ، فان نابليون قد عين الماريشال راندون حاكماً عاماً عسكرياً على الجزائر ، وقد بقي راندون في منصبه من 1851 الى 1858 ، وقاد حملات عسكرية كبيرة ضد المقاومة الجزائرية في القبائل وفي المناطق الصحراوية ، وفي سنة 1858 قرر نابليون أن « يدمج » الجزائر في فرنسا وذلك بخلق وزارة الجزائر والمستعمرات التي يرأسها ابن عمه جيروم . ولكن جيروم استقال من منصبه بعد سنة فقط .

وخلال هذه الأثناء أطلق نابوليون (سنة 1852) سراح الأمير عبد القادر بعد حوالي خمس سنوات من السجن[18] . وفي نفس الوقت كانت هناك مناقشة حادة في فرنسا حول صلاحية سياسة الاندماج في الجزائر ، وشيئاً فشيئاً أصبح نابليون قلقاً من الحالة ، لذلك قرر ، في سبتمبر 1860 ، أن يزور الجزائر لأول مرة . وعندما رجع من رحلته كان مقتنعاً بأن سياسة الاندماج لم تنجح . ونتيجة لذلك ألغى وزارة الجزائر والمستعمرات في نفس العام وأعاد الحاكم العسكري الى الجزائري وعين لذلك الجنرال بيليسي كحاكم عام .

وتحت تأثير أفكار الأمير عبد القادر واسماعيل عربان رأى نابوليون أن يخلق مملكة عربية في الجزائر[19] . ففي رسالة - برنامج بعث بها الى بيليسي (6 فيفري ، 1863) أمره فيها بوقف مصادرة الأراضي ، وإعلان المساواة الكاملة بين الجزائريين

---

(17) كانت سياسة نابليون ، قبل الثورة الجزائرية 1954 - 1962 ، تعتبر فكرة رومانتيكية . ومنذئذ ظهر اتجاه جديد بخصوصها . من بين الذين يأخذون بهذا الاتجاه شارل - روبير أجرون في مقاله ، « الجزائر الجزائرية تحت نابليون الثالث » في « بروف » (فيفري 1961) ص 3 - 13 .

(18) لاحقاً . ص 48 .

(19) يقول أرون بأن نابليون كان قد « انبهر » بنبالة الأمير عبد القادر الذي كان قد أطلق سراحه ، ص 42 - 43 . أما بخصوص تأثير أفكار عربان على نابليون فانظر أجرون ، « بروف » (فيفري ، 1961) ص 3 - 13 ، وارون ، ص 44 - 45 . أنظر كذلك شارل - أندري جوليان ، « تاريخ الجزائر المعاصرة » م.1. (باريس : بريس أو نيفير سيتير دي فرانس ، 1964) ، ص 423 كل هؤلاء الكتاب يتفقون على أن عربان قد لعب دوراً « حاسماً » في توجيه سياسة نابوليون نحو الجزائر . كان عربان يؤمن بسياسة « الجزائر للجزائريين » . وقد عبر عن ذلك في مختلف الكتيبات وفي رسائله الى نابوليون ، كما وقف ضد استعمار الأرض وأيد فكرة مد يد المساعدة الفرنسية للجزائر . ومما يذكر أن عربان كان مترجماً لنابوليون كما كان مترجماً في الجيش الفرنسي .

والفرنسيين، والتصريح بأن فرنسا لم تكن في الجزائر لاضطهاد أهلها ولكن لتجلب اليهم الحضارة ، والإخبار بأن الجزائر لم تكن مستعمرة ولكن مملكة عربية ، واعلامهم بأن نابليون كان أمبراطور العرب كما هو أمبراطور الفرنسيين[20] . ولكي يؤكد هذه السياسة أصدر نابليون القرار المعروف بساناتوس ـ كونسولت لسنة 1863 ، أوقف به استعمار الأراضي واعترف فيه بحق الجزائريين في التمتع دائماً بالأراضي التي كانت لهم بالتقاليد[21] .

ولما كان نابليون يتطلع الى رؤية نتائج سياسته معاينة ، فقد قرر أن يزور الجزائر مرة ثانية. وفي عام 1865 (من 3 ماي الى 7 جوان) زار أهم المدن والقرى في الجزائر حاملاً معه فكرة خلق «الكيان الجزائري» ولكن ماكماهون، الحاكم العام الجديد والكولون قد استقبلوه ببرودة وشك[22] . ولما رجع الى باريس بعث برسالة (20 جوان ، 1865) الى ماكماهون تتضمن ثماني وثمانين صفحة بعنوان « سياسة فرنسا في الجزائر » تناول فيها جميع الموضوعات العزيزة على الجزائريين وأصدقائهم[23] .

ولكن أطول تشريع عهدا قام به نابليون بخصوص الجزائر هو قراره المعروف بساناتوس ـ كونسولت لعام 1865 (14 جوييه) أي بعد حوالي شهر فقط من عودته الثانية من الجزائر ، وقد نص هذا التشريع بأن الجزائريين رعايا فرنسيون ولكنهم يخضعون لأحكام الشرع الاسلامي . فاذا طلب أحدهم الجنسية الفرنسية فانه يحصل عليها ، ولكن في هذه الحالة يصبح خاضعاً للقانون الفرنسي ، وهكذا فان الجزائريين قد أصبحوا فرنسيين من ناحية ورعايا فرنسيين من ناحية أخرى . وقرار 1865 قد أوضح بأن الجنسية الفرنسية غير متناسبة مع حالة المسلم الجزائري ما دام هذا يعيش بمقتضى الشرع الاسلامي . وقد قدر لهذا القرار أن يستمر ، مع بعض

---

(20) جوليان ، ص 424 ـ 425 .

(21) أرون ، ص 46 .

(22) جوليان ، ص 431 .

(23) يقول أرون بأن نابليون قد استدعى عربان لوضع صيغة الرسالة . كما يشير بكل وضوح الى معارضة الكولون لسياسة نابليون ، أنظر أرون ، ص 46 .

التعديلات سنة 1919 ، إلى سنة 1947[24] . لذلك كان على الحركة الوطنية الجزائرية أن تلجأ الى العنف لكي تتخلص من تشريع نابوليون التاريخي .

ولكن خطة نابوليون « لانهاء الاستعمار » وانشاء مملكة عربية ، وكيان جزائري ، والتوفيق ، قد فشلت تماماً . ويعزو بعض المؤرخين هذا الفشل الى عدم تعاون الحاكمين العامين في ذلك الوقت وهما بيليسي وماكماهون اللذين لم يكونا يثقان في عربان ، مستشار نابوليون ، ولا يشجعان سياسة نابوليون في الجزائر ، متآمرين على ذلك مع الكولون[25] . وهناك من المؤرخين من يلوم الكولون . فقد كتب الجنرال هانوتو ذات مرة يقول : « كل ما يحلم به الكولون هو اقامة بورجوازية اقطاعية ، يحميها الجيش ، ويقومون هم فيها بدور السادة ، أما الأهالي (الجزائريون) فيؤدون فيها دور العبيد[26] » . بل ان هناك من المؤرخين من يلوم نابليون نفسه على فشل سياسته . فهم يقولون بأن سياسته كانت غير واضحة . وبالاضافة الى ذلك فهم يلومونه على الاعتماد على موظفين غير موثوق بهم لتطبيق برنامجه في الجزائر[27] .

وقبل أن تشفى الجزائر من عهد النكبات (1866 ـ 1869) ، سقطت الامبراطورية الثانية [28] . وقد أعطى هذا الحادث للكولون أعظم فرصة للفرح كما أعطاهم حرية الحركة في الجزائر . فقد عاشوا ، حوادث الكومون الباريسي ، وأنشأوا من جهتهم لجنة الانقاذ الوطني وشرعوا في تطهير موظفي الامبراطورية المنهارة فطردوا الحاكم العام بالنيابة . و. أيستر هازي من قصره وذلك لسياسته اللبيرالية ، بينما استقال والي عمالة الجزائر خوفاً على حياته .

---

(24) نفس المصدر ، ص 47 وجوليان ، ص 433 .

(25) جوليان ص 423 ، وأرون ص 433 .

(26) أشار الى ذلك أرون ، ص 47 ـ 48 .

(27) نفس المصدر ، ص 46 وباربور ، ص 221 . ويلوم باربور أيضاً نابوليون ، « بطل مبدأ القوميات » ، على عدم اجراء استفتاء في الجزائر كما فعل في نيس وصافوي .

(28) أصيبت الجزائر في هذا الوقت بقلة الزرع ، والزلازل ، والكوليرا ، وتقدر الخسائر في الأرواح بثلاثمائة ألف نسمة ، وهناك بعض المؤرخين يلومون الحكومة الفرنسية على وقع هذه المصائب على السكان ، أنظر جوليان ، ص 439 .

أما باريس فقد أمطرت الجزائر بوابل من القرارات التي بلغت ثماني وخمسين قراراً في ظرف خسمة شهور[29] . من بينها قرار ينشىء منصب حاكم مدني (كما طلب الكولون) وآخر يلحق الجزائر مباشرة بفرنسا بواسطة دمج شؤونها في مختلف الوزارات بالحكومة الفرنسية في باريس . وبالإضافة الى ذلك هناك قرار كريميو الذي قضى بتجنيس يهود الجزائر جملة من غير منحهم أي خيار . وقد كان الجنرال ادميرال دي غيدون هو أول حاكم عام مدني رغم أنه كان عسكرياً .

وهكذا ، فان سياسة الاندماج ، والاستعمار . والالحاق كانت قد نظمت ، وأنعشت ، وأعطيت رسمياً بركات الحكومة في باريس ، وقد أعطت ثورة الجزائر عام 1871[30] عذراً للسلطات الفرنسية لمصادرة الأراضي وحشد الجزائريين في مناطق معينة اختيرت لهذا الغرض ، كما أعطتهم عذراً ليفرضوا على الجزائريين دفع ضريبة حرب باعتبارهم شعباً مهزوماً[31] .

وسياسة الاندماج التي اتبعتها الجمهورية الثالثة قد قسمت الجزائر داخلياً الى ثلاث ولايات في الشمال ومنطقة عسكرية في الجنوب . وقد قسمت كل ولاية الى نوعين من البلديات (كومون) : بلديات ذات سلطات كاملة حيث كان عدد الكولون كبيراً، وبلديات مختلطة حيث كان عددهم قليلاً. وكان النوع الأول يشبه ما كان يجري في فرنسا نفسها ، فينتخب الكولون رئيس بلديتهم ويقيمون بلدية منهم . وقد شارك بعض الجزائريين المسلمين المعينين من السلطات الفرنسية في هذه البلديات كمساعدين ومستشارين .

أما النوع الثاني من البلديات (وهي المختلطة) فقد كان تحت الرقابة المباشرة لاداريين فرنسيين يسميهم والي الولاية ويملكون كل السلطات لمعالجة أي موقف شخصياً وحالياً . ولهؤلاء الاداريين مساعدون ومستشارون جزائريون تسميهم السلطة الفرنسية أيضاً . وقد كان هؤلاء الاداريون مصدر شكوى متواصلة من الجزائريين، لأنهم كانوا يملكون قوة مطلقة . أما المكاتب العربية التي أخذ مكانها اداريون مدنيون

(29) أرون ، ص 49 .
(30) لاحقاً ، ص 52 .
(31) أنظر جوليان ، ص 493 ـ 495 .

في البلديات المختلطة تحت الجمهورية الثالثة ، فقد أصبحت مقصورة على المنطقة العسكرية في الجنوب (الصحراء) .

ومع هذه التنظيمات الاستعمارية والادارية في الجزائر ، فان الفرنسيين كانوا ما يزالون يواجهون مشكلة حادة ، وهي كيف ينجحون في سياسة الاندماج[32] فبعد مضي أكثر من عقد على التجربة تحت ادارة مدنية ، فان سياسة الاندماج كانت تبدو لكثير من الفرنسيين في ذلك الوقت فاشلة . وكانت هناك صرخات ضد هذه السياسة في المجلس الوطني ، وخصوصاً من النواب : جول فيري ، ميشلان ، وغوتي . أما الكولون ، الذين ازداد عددهم بعد سنة 1871[33] ، فقد كانوا ينادون من جهتهم بالحكم الذاتي في الجزائر وبحرية أكثر في مشاريعهم . وقد استنكر فيري أمام المجلس الوطني الاندماج بالعبارات التالية : « ان المستعمرات كالمعارك لا يمكن أن تدار من مكاتب احدى الوزارات» . ثم تأسف على أن « الكولون لم يتخلصوا من روح المنتصر[34] » .

وفي سنة 1887 اقترح جماعة من النواب الفرنسيين اعطاء الجنسية الفرنسية الى الجزائريين . فقد اقترح سنة 1889 جان جوريس ، الاشتراكي المعروف ، تحرير الجزائريين بمنحهم الجنسية الفرنسية ، دون طلبهم التخلي عن حالتهم الشخصية كمسلمين[35] . ففي خطبة له أمام المجلس الوطني طالب جوريس بتمثيل الجزائر في المجلس ، وزيادة الحقوق السياسية لشعبها قائلاً : « بعد نصف قرن فاننا نعالج جميع المشاكل الحيوية المتعلقة بهم (أي الجزائريين) مشاكل العائلة ، والملكية ، والضرائب ، والتربية ، ومع ذلك فليس فيهم من يسمح له بالاتيان هنا

---

(32) وهناك مشكل آخر وهو عداوة السامية ، التي كانت قد استوردت الى الجزائر من فرنسا . كان زعيم حركة عداوة السامية ماكس ريجس ، رئيس بلدية الجزائر العاصمة أواخر التسعينات من القرن الماضي ، أما بخصوص حركة عداوة السامية التي قادها الكولون ، فانظر فافرو ، ص 40 ـ 43 ، وعباس ، ص 94 ، وجوليان ، 29 ـ 30 ، ارون، ص 52 .

(33) كان هذا بسبب نقل بعض الآلاف من الالزاس واللورين بعد الحرب الفرنسية ـ الألمانية سنة 1870 ، كما أن قرار سنة 1889 قد جنس كل الأجانب المقيمين في الجزائر بالجنسية الفرنسية بصفة آلية ، أنظر أرون ، ص 50 ـ 51 .

(34) نفس المصدر ، ص 51 .

(35) عباس ، ص 88 .

(المجلس الوطني) . . للمطالبة بحقوقه[36] » .

ولكن كل هذه الصرخات الليبرالية كانت بلا جدوى . فقد ربح الكولون المعركة لما يملكونه من ضغط في المجلس الوطني وفي الدوائر المالية . وقد شاهدوا حلمهم يتحقق بقرار 23 أوت ، 1898 ، الذي أعطى للحاكم العام كل السلطات بخصوص المشاكل العسكرية والمدنية باستثناء العدل والتربية .

وبناء على هذا لقرار فقد أصبح يساعد الحاكم العام مجلس استشاري (مجلس الحكومة الأعلى) ونواب ماليون يضمون جزائريين مسلمين معروفين باخلاصهم لفرنسا ، وفرنسيون منتخبون لمعالجة المشاكل المالية ، ولكن ، لا يملكون حق التصويت ، وقد كللت هذه الاجراءات بقرار 19 ديسمبر ، 1900 الذي أنشأ الحكم الذاتي المالي للجزائر ، وهو الاجراء الذي نادى به الكولون ومؤيدوهم منذ وقت بعيد . وبالاضافة الى ذلك فان القرار الأخير قد أعطى للجزائر شخصيتها « الفرنسية » المدنية ، كما أعطاها ميزانيتها الخاصة التي يقترحها الحاكم العام ويناقشها النواب الماليون.

وهكذا ، فانه بمطلع القرن العشرين حقق الكولون حلمهم في انشاء حكم ذاتي كامل في الشوؤن المالية والمدنية للجزائر . وبناء على قانون ساناتوس - كونسولت لسنة 1865 ، فان الجزائريين لم يكونوا ، تحت النظام الجديد ، لا مواطنين فرنسيين ولا جزائريين وطنيين . فقد كانوا في نظر القانون الفرنسي رعايا ، وكانوا في نظر الكولون عبيداً ، « سلالة مقهورة » ، ولكنهم في نظر أنفسهم كانوا « لا شيء » . فماذا كان رد فعل الفرد الجزائري السياسي والعاطفي عن سياسة « اللاشيء » ؟ ان الجزء التالي من البحث سيحاول الاجابة على هذا السؤال .

---

(36) أشار إلى ذلك ارون ، ص 51 ـ 52 ، ولزيادة المعلومات عن رأي جوريس ، أنظر مقال شارل ـ روبير أجرون ، « جوريس والاشتراكيون الفرنسيون أمام المشكل الجزائري (من 1895 الى 1914) »، في «م. س.» (جانفي ، 1963) ، ص 3 ـ 29 .

2. رَدُّ الفعل السياسي والعاطفي :

عندما أمضت حكومة الداي الجزائرية اتفاق جوييه سنة 1830 مع القائد الفرنسي ، بدأت المقاومة الجزائرية . فقد نظم الجزائريون بزعامة حمدان خوجة أول حزب وطني سياسي ، يعرف « بلجنة المغاربة[37] » التي سنطلق عليها منذ الآن اسم حزب المقاومة . كان هذا الحزب مكوناً من الأعيان والبورجوازيين الجزائريين الذين كانوا على وعي بدورهم السياسي والوطني . وبالإضافة الى ذلك ، فان هذا الحزب كان مؤيداً من الشعب الذي عبر عن عواطفه بمؤتمرات تلقائية قرر خلالها ضرورة المقاومة ، وبأناشيد المداحين الذين كانوا يطوفون الأسواق والمقاهي ، منشدين الأغاني الوطنية ومنادين بطرد الفرنسيين[38] .

ولكن الباحث لا يستطيع أن يفهم معنى الحركة الوطنية الجزائرية في هذه المرحلة الا اذا عرف وقع الاحتلال على الجزائر ، وقبل أن نقدم الاتهامات التي وجهها حزب المقاومة ضد الفرنسيين ، دعنا نسمع ماذا يقول المؤرخون الفرنسيون أنفسهم عن تصرفات جيشهم في الجزائر . فالمؤرخ بوديكور ، الذي كان يكتب في السنوات الأولى من الامبراطورية الثانية ، يقول : « ان جندنا كانوا خجلين من أنفسهم عند عودتهم من الحملة (ضد بلاد القبائل) . . . فقط قطعوا 18,000 شجرة ، وحرقوا المنازل وقتلوا النساء ، والأطفال ، والشيوخ . وقد أثارت النساء المنكوبات بالخصوص رغبتهم في الثروة بعادة لبس الأقراط ، والخلاخل ، والأساور الفضية . وهذه الحلي ليس لها عرى كالحلي الفرنسية . فقد وضعت في شحمة آذان الفتيات منذ الصغر ، ولا يمكن ازالتها عندما يكبرن . ولكي يحصل جنودنا على هذه الحلي ، عمدوا الى قطع شحمة الآذان وتركها حية على تلك الحالة البشعة[39] .

ويصف المؤرخ الانكليزي ، نيفيل بربور ، وقع الحكم الفرنسي على الجزائر بالعبارات التالية : « ان بعض أحسن مساجدهم (أي الجزائريين) قد حول الى كنائس ، وأيام المواسم الاسلامية قد أبطلت شرعيتها ، وأراضي القبائل قد

(37) جوليان ، ص 95 .

(38) نفس المصدر ، ص 60 ـ 61 .

(39) « الحرب وحكومة الجزائر » (باريس ، 1853) ، كما أشار إليه باربور ، ص 44 .

صودرت ، وكل رمز وطني قد حطم[40] .

فإذا أضاف الانسان الى هذه الصورة وصف اللجنة الافريقية ، الذي سبقت الاشارة إليه، وإذا تذكر المرء سياسة « الأرض المحترقة » التي اتبعها الجنرال بوجو ، فإنه يفهم لماذا كان رد الفعل الجزائري على الحكم الفرنسي عنيفاً .

وحزب المقاومة ، الذي ظهر بعد التسليم الرسمي ، كان أول حركة ضد فرنسا . ذلك أن الفكرة الحديثة للكيان الوطني لم تكن مفهومة بوضوح لدى الجماهير الجزائرية . ولعل هذه الجماهير لم تسمع أبداً عن الثورة الفرنسية ، ولا عن شعاراتها القومية[41] . ولكن كان هناك بعض الجزائريين المتنورين الذين تابعوا أخبار هذه الثورة ، وحروب نابوليون ، وصرخات القومية في أوروبا . وقد خلق هؤلاء الجزائريون حزب المقاومة وعارضوا الاحتلال الفرنسي تحت شعار القومية ، تماماً كما عارض اليونانيون التسلط العثماني ، والبولنديون التسلط الروسي .

ومن بين رواد الحركة القومية الجزائرية حمدان خوجة . فقد ولد سنة 1773 من عائلة جزائرية متوسطة الحال ، ورأى كلا من والده وعمه يحتلان مراكز عالية في الخدمة المدنية الجزائرية وفي الحكومة . واتباعاً للتقاليد الجزائرية في وقته ، درس خوجة القانون على أبيه عثمان . وفي سنة 1784 صحب عمه في رحلة الى اسطنبول ، وخلال هذه الرحلة زار أهم مدن الشرق الأدنى والبلقان ، ثم ذهب إلى أوروبا الغربية (سنة 1820) وزار فرنسة ، حيث تعلم الفرنسية ورأى لويس فيليب مع عائلته .

وبناء على رأي أحد الكتاب ، فان خوجة قد بقي خارج الجزائر حوالي سبع عشرة سنة ، كان العالم خلالها يشهد أكبر انقلاب تاريخي (1800 ـ 1817)[42]. وبينما كان في أوروبا تعرف خوجة بنفسه على كل مشاكل الساعة العسكرية والسياسية

---

(40) نفس المصدر ، ص 43 ، أنظر أيضاً تقرير دي صاد في « م.و. » (29 أبريل ، 1834) . وقد اعترف دي صاد ، بأن الجيش الفرنسي قد استحوذ على ستين مسجداً لتسهيل مهمته ، من بينها عشرة « هدمت تماماً » .

(41) أقدم نص وجدناه لكاتب جزائري عن الثورة الفرنسية مكتوب سنة 1791 . أنظر « الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني ، لابن سحنون نشره السيد المهدي البوعبللي ، وزارة التعليم الأصلي ، الجزائر 1973 ص 224 ـ 226 .

(42) ايفير ، « ر.ا. » 57 (1913) ص 96 ـ 98 .

بين الدول الكبرى ، وشعارات القومية بين الأقليات المضطهدة ، وأفكار حركة التنوير الانسانية وقد أضاف خوجة الى هذه المبادىء معرفته بحقوق القوميات ، والحريات المدنية ، والمساواة بين الناس ، والتسامح[43] .

أي دور لعبه خوجة في قيادة حزب المقاومة ؟ لقد كان في الجزائر حين هاجمها الفرنسيون ، وأمضى الاتفاق المشترك . وبدأ الحزب تحت قيادته يعمل أولاً في الخفاء[44] . ولكي يحمي زعماء الحزب أنفسهم ، لجأوا حتى الى المشاركة في بعض النشاطات مع الفرنسيين ، مثل المساهمة في جهاز بلدية العاصمة . وفي أواخر سنة 1830 بعث الحزب أحمد بوضربة الى باريس لشرح قضية بلاده الى الحكومة الفرنسية[45] . وكان زعماء الحزب يراقبون بعناية وعن كثب حركات الجيش الفرنسي . وحين أصبح واضحاً لديهم بأن الفرنسيين كانوا يخرقون مواد الاتفاق ووعود البيان ، وأنهم كانوا قادمين ليبقوا ، أعلن حزب المقاومة معارضته المفتوحة للاحتلال .

وبالإضافة الى ذلك فان حزب المقاومة قد تشجع بشكاوي الشعب الجزائري . لذلك بعث الحزب بنداءات ، ومطالب ، وعرائض الى السلطات الفرنسية في الجزائر وفي فرنسا ، مذكراً لها بمواد الاتفاق ، ومطالباً بالجلاء الحالي للجيش الفرنسي ، وشارحاً مظالم الجزائريين المنجرة عن تصرفات الفرنسيين . من بين هذه العرائض واحدة تتكون من ثمانية عشر قسماً ، مطالبة بتسمية لجنة تحقيق . وقد بعث خوجة رسالة شخصية (10 جوييه ، 1833) إلى الملك لويس فيليب طالباً منه التدخل شخصياً ، ومذكراً له بأن « للجزائريين الحق أيضاً في التمتع بالحرية وكل الفرص التي تتمتع بها الأمم الأوروبية[46] » .

---

(43) نفس المصدر . كان لخوجة ولدان : علي وحسن ، وكلاهما كان قد نفي معه . وبالاضافة الى « المذكرات » و « المرآة » كتب خوجة كتباً أخرى في العلوم الاجتماعية ، وقد مات في اسطانبول سنة 1840 نقل ذلك محمد بن عبد الكريم ، أنظر كتابه « حمدان بن عثمان خوجة الجزائري دار الثقافة » ، بيروت 1972 ، ص 93 .

(44) ضم الحزب بالاضافة الى خوجة السادة : أحمد بوضربة ، حمدان آغا ، إبراهيم بن مصطفى ، وابن عمر .

(45) جوليان ، ص 73 .

(46) أشار الى ذلك ايفير في «ر.ا.» 57 (1913) ، ص 109 .

ونظراً للحملة التي قام بها حزب المقاومة ، فان الفرنسيين قد طردوا كل أعضائه من الجزائر ، متهمين اياهم « بالتآمر ضد حكمنا[47] » . وهكذا نقل الزعماء الجزائريون نشاطاتهم الى باريس ، حيث شعروا بأنهم يستطيعون التأثير على الحكومة ، والمجلس الوطني ، والصحافة . ومن هناك قاد حزب المقاومة حملة نشيطة من المؤتمرات الصحفية ، والاستجوابات ، والرسائل الشخصية ، والمشاورات ، وكتابة النشرات ، وتقديم العرائض الرسمية . وقد كان هدف الحزب من ذلك هو الحصول على جلاء الجيش الفرنسي من الجزائر والاعتراف بالكيان الجزائري ، بينما كانت وسائله تتمثل في استنكار تصرفات الجيش الفرنسي واتهام السلطات الفرنسية بخرق الاتفاق ، وتذكير فرنسا بأنها كانت على خطأ حين لم تعترف بمبدأ القوميات في الجزائر[48] .

ونتيجة لهذا الضغط ، عينت الحكومة الفرنسية في صيف 1833 ، اللجنة الافريقية ، التي أشرنا من قبل الى بعض المقتطفات من تقريرها ، وقد اغتنم حزب المقاومة فرصة هذا « النصر » وضاعف من نشاطاته بمهاجمته تصرفات الجيش الفرنسي في الجزائر . وسرعان ما نقل خوجة مطالب الجزائريين الى الملك لويس فيليب في رسالة يطلب منه فيها أن « يكون المؤيد والمدافع عن الجزائريين وأن يساعد على تحريرهم[49] » .

وبعد طرده من الجزائر ، كرس خوجة جهوده في تأليف كتابه « المرآة[50] » الذي أراد أن يوجهه الى الرأي العام والذي احتوى على اتهامات مباشرة ضد الفرنسيين في الجزائر . كما احتوى « المرآة » على برنامج وآمال الجزائريين في ذلك الوقت .

---

(47) جوليان ، ص 95 .

(48) من بين الصحف التي أيدت الجزائريين في ذلك الوقت « لوناسيونال » و« كوريي فرانسي » أنظر ايفير ، «ر.ا.» ، م 57 (1913) ، ص 107 . ويجب أن نتذكر بأن أول حزب معارضة جزائري كان قد اضطر الى العمل خارج الجزائر ، وسوف نلاحظ أن الأحزاب السياسية الجزائرية في القرن العشرين كانت أيضاً قد اضطرت الى العمل في الخارج . .

(49) نفس المصدر ، ص 109 .

(50) اكمل خوجة هذا الكتاب في أكتوبر ، 1833 ، وقد ترجمه في الحال الى الفرنسية السيد حسونة دغيز الطرابلسي المشار اليه بـ(هـ . د. أوريانتال) أنظر نفس المصدر ، ص 109 ـ 110 .

ولما كان « المرآة » موجها إلى الرأي العام ، فان خوجة قد كتب « المذكرات » التي كانت ، بالمقارنة الى « المرآة » معتدلة في نغمتها . وقد بعث بنسخة من كليهما الى اللجنة الافريقية مع رسالة (تاريخها ، باريس 26 أكتوبر 1833) تضم النقاط التالية : معرفته بالجزائر قبل وبعد الاحتلال قد جعلته خبيراً يوثق به . اطلاعه على النظم الأوروبية ، والأفكار الليبرالية ، ومبادىء القوميات قد أقنعته بأن النظام الحالي في الجزائر يجب أن ينتهي ، التعبير عن ثقته في الأمة الفرنسية « لكي تنظر بحب وعطف الى مواطني المنكوبين » ، توقعه بأن العدل والانسانية سينتصر ان في النهاية . وأخيراً طلب من اللجنة بأن توصي بتغيير النظام في الجزائر[51] .

ولسوء حظ الجزائريين فان اللجنة ، التي وضعوا فيها كل آمالهم لانتصار « العدل » و « الانسانية » ، بالاضافة الى القومية ، قد خيبتهم . ذلك أن اللجنة لم توافق على أي نقطة من برنامج حزب المقاومة . بالعكس ، فقد أوصت ، بعد أن اعترفت بسوء تصرف الجيش الفرنسي وبخرق الاتفاق الجزائري الفرنسي[52] ، بالحاق الجزائر بفرنسا الذي تم فعلاً بقرار جوييه 1834[53] .

ورغم فشلهم وخيبة آمالهم فان زعماء حزب المقاومة قد واصلوا نضالهم السياسي في المنفى من باريس ، اسطنبول ، تونس ، والمغرب ، أما خوجة فقد حوكم من أجل آرائه التي غبر عنها في « المرآة » . ذلك أن العناصر اليمينية في كل من الجزائر وباريس قد أثارت حملة ضده[54] وحتى توسلاته للحكومة الفرنسية بالتدخل لم تجب . وبعد أن حوكم مرة ثانية نفى خوجة نفسه في اسطنبول ، محطم

---

(51) أنظر هذه الرسالة في نفس المصدر ، ص 110 ـ 112 . أنظر أيضاً ملحق 3 .

(52) سابقاً . ص 16 .

(53) في « مذكراته » أنذر خوجة اللجنة بأن لا تعتمد على المعلومات التي تحصل عليها من الادارة الفرنسية ، التي خرقت الاتفاق المبرم ، ولا على المظهر وحده ، وقال يجب على اللجنة أن تمتحن أحوال الشعب عن طريق الاتصال المباشر ، نفس المصدر ، ص 124 ـ 125 .

(54) كتب أحد هذه العناصر كتيباً بعنوان « رفض كتاب سي حمدان » (باريس : 1834) ملأه بالهجوم على خوجة . وقد رد خوجة من جهته بكتاب عنوانه « الجواب على رفض كتاب عثمان خوجة » (باريس : 1834) ، نفس المصدر ، ص 121 ـ 122 .

القلب ، كبير السن ، خائب الأمل . وزيادة في سوء حظه طردت السلطات الفرنسية ابْنَهُ حسن من الجزائر متهمة اياه بالتآمر ضد الوجود الفرنسي[55] .

ومن الملاحظ أن مبدأ « الكيان الجزائري » كما عبر عنه خوجة ، كان أيديولوجية جديدة ليس بالنسبة للجزائر فقط ولكن أيضاً بالنسبة للعالم العربي ، ولعل العالم الاسلامي أيضاً . فإلى وقت الاحتلال الفرنسي كانت الجزائر ما تزال تعيش حياتها السهلة ، الشرقية ، المنغلقة . وفكرة « الأمة » كما أصبحت شائعة في أوروبا خلال القرن التاسع عشر ، كانت غريبة عن الجزائريين ، كما كانت غريبة لدى العالمين الاسلامي والعربي . وبالرغم من أن الجزائر كانت قد وجدت كدولة ذات سيادة منذ قرون ، فإنها كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحضارة الاسلامية ثقافياً واجتماعياً . ولذلك فان فكرة الكيان ، التي اكتسبت دفعاً جديداً منذ الثورة الفرنسية كانت جديدة عند الجزائريين .

ونظراً لإطلاعه الواسع على الأفكار الأوروبية ، فان خوجة قد التقط مبدأ الكيان وطبقه على الجزائر لأول مرة . فهو يصر على أن « الكيان الجزائري » له الحق في الوجود ، كما وجدت الكيانات اليونانية ، والبولندية ، والبلجيكية ، ورأيه هو أن الجزائريين لم يكونوا أقل تنويراً من معاصريهم الأوروبيين في تنظيم حكومة من اختيارهم الخاص وانتخاب أمير من أنفسهم لكي يحكمهم . فقد قال بأن الجزائر لها الحق في الوجود « كأمة حرة مستقلة[56] » .

وقد اعتقد خوجة بأن هذه الأمة الجزائرية والأمة الفرنسية لا يمكن أن تتعايشا في الجزائر . فهو يرى بأنه لا يوجد بينهما تشابه لأنهما تدينان بدينين مختلفين ، وتتكلمان لغتين مختلفتين ، وتلبسان ثياباً مختلفة ، وتمارسان تقاليد مختلفة[57] . ومن ناحية أخرى فهو يعتقد بأن الوطنية الجزائرية قد ولدت نتيجة للاحتلال الأجنبي .

---

(55) نفس المصدر ، وقع الطرد في 26 سبتمبر ، 1836 . كشف عبد الجليل التميمي عن وثائق جديدة تتعلق بحياة ونشاط خوجة . أنظر كتاب (بحوث ووثائق مغربية) ، تونس ، 1972 .

(56) ايفير ، «ر.ا.» م 57 (1913) ص 117 ـ 118 .

(57) نفس المصدر ، ص 111 ، أشار اليه المؤلف من رسالة خوجة الى اللجنة الأفريقية (باريس 26 أكتوبر ، 1833) ، إن المرء يلاحظ بسهولة جدة هذا الموضوع في بيئة شرقية مثل بيئة الجزائر .

ويؤكد بأن الجزائريين قد أثارتهم الشهامة التي يحركها الشعور بالعبودية بواسطة أمة أجنبية[58] . ومن رأيه أن الشيء الوحيد الذي تستطيع فرنسا أن تفعله في مثل تلك الظروف هو تأييد فكرة الكيان الجزائري ، كما فعلت مع اليونان وبلجيكا . وبناء على رأيه فان الجزائر مستعدة بدورها أن تمضي مع فرنسا معاهدة ذات امتياز خاص للأخيرة . كما يرى بأن نتيجة هذا « الموقف الليبرالي » ستكون اغراء الروس بالاعتراف بالكيان البولندي ، بل قد تساهم أيضاً في نشر روح إلتسامح التي تميز بها القرن التاسع عشر ، ما دامت الجزائر لا تعتنق نفس الدين الذي تعتنقه فرنسا[59] .

ومن جهة أخرى فان خوجة قد عبر عن اعجابه بالتجربة الليبرالية الأوروبية في وقته ، كما عبر عن تقديره للديمقراطية التي كانت تمارسها بعض الحكومات الأوروبية . فقد قص ذلك في كتابه « المرآة » حيث يقول : « لقد عشت في أوروبا وتذوقت ثمار الحضارة واني أعتبر نفسي أحد أولئك الذين يعجبون بالسياسة التي تمارسها بعض الحكومات[60] » لقد كانت هذه التجربة هي التي جعلت خوجة يستنكر بشدة تصرف الاحتلال الفرنسي لبلاده . فالاحتلال في نظره كان ضد المبادىء « الليبرالية ، كما كان ضد الحضارة . فهو يقول بمرارة بأنه بينما حصلت اليونان وبلجيكا على استقلالهما ، وبينما أثارت قضية بولندا رد فعل عاطفي في كل العواصم الأوروبية ، وبينما تحاول أنجلترا أن تحرر العبيد ، فان الجزائريين يرزحون تحت نير الحكم الاستبدادي مهددين بالفناء وبكل أنواع الحرب[61] » .

ولكن خوجة لم يكن مستعداً أن يجعل من المجتمع الجزائري مجتمعاً أوروبياً. فهو يعتقد في قيم الليبرالية الأوروبية ، ولكنه يعتقد أن هذه القيم لا يمكن ادخالها الى الجزائر بواسطة فرنسا . والطريقة الوحيدة التي تمكن الجزائر من الاستمتاع بالأفكار الأوروبية هي انتخاب أمير جزائري بواسطة الشعب . وبالرغم من رأيه المتحرر (إذا

---

(58) نفس المصدر ، ص 128 ، ان هذا الرأي يتفق مع رأي دي صاد ، الذي كان عضواً في اللجنة الأفريقية ، والذي قال عام 1834 بأنه كان لدى الجزائريين «عداوة مشتركة ضدنا» أنظر «م . و . » (29 أبريل ، 1834) .

(59) ايفير «ر . ا . » م 57 (1913) ، ص 118 .

(60) نفس المصدر ، ص 97 ـ 98 .

(61) نفس المصدر ، ص 113 . أنظر اتهاماته للاحتلال ص 133 ـ 135 .

أخذنا في الاعتبار البيئة المحافظة المسلمة) ، فان حوجة كان يعتقد أن شعبه كان أيضا « أمة متحضرة[62] » ، وان الاسلام لا يتنازع مع الحضارة الحديثة . فهو يقول « انني درست مبادىء الحرية الأوروبية التي تعتبر قاعدة الحكومة الديموقراطية والجمهورية ، وقد وجدت المبادىء تتشابه مع قوانيننا نحن . . فلو عرف الليبراليون الأوروبيون كيف يفهمون مبادىء قوانيننا وكم هي نظمنا ليبرالية ، اذن لمنحونا تأييدهم بدل معارضتنا[63] » .

وهكذا فإنه من الممكن أن يعتبر الباحث خوجة ، من الناحية الموضوعية والتاريخية ، ليس رائداً للوطنية الجزائرية فقط ، ولكن رائداً أيضاً لفكرة الجامعة الاسلامية والقومية العربية اللتين أصبحتا ، بعد عدة عقود ، حركتين قويتين . وبالإضافة الى ذلك ، فهو رائد في العالمين العربي والاسلامي « لعصر التنوير » الذي نتج عن الاتصالات الثقافية بين الشرق والغرب .

وبعد حل حزب المقاومة وطرد زعمائه متهمين بالتآمر ضد الفرنسيين ومحاولة « استرجاع الحكم الاسلامي » للجزائر[64] ، استمرت السلطات الفرنسية في حملتها لتصفية أو عزل العناصر الوطنية التي قد تنظم معارضة ضدها في الجزائر[65] .

وتحت هذه الظروف فان الحركة الوطنية لا يمكنها أن تمارس نشاطها علنياً ، لذلك كان عليها أن تختار بين الاتجاهات الثلاثة التالية :

1 ـ العمل في الخارج ، وقد سلك هذا الاتجاه ، بلا اختيار ، زعماء حزب المقاومة المعروفون .

2 ـ اللجوء الى الحركات العسكرية ، وقد سلك هذا الطريق الأمير عبد القادر وآخرون .

---

(62) نفس المصدر ، ص 133 .

(63) نفس المصدر ، ص 114 .

(64) نفس المصدر ، ص 102 .

(65) ان هذه الحملة قد شملت سجن وتصفية الزعماء الدينيين مثل مفتي الجزائر العاصمة ، الذي كان قد اتهم بالتآمر ، انظر نفس المصدر ، ص 100 . إن بعض السلطات الفرنسية قد اقترحت حتى تصفية السكان كلهم ، واقترح آخرون دفع السكان بالقوة نحو الصحراء ، وتجريدهم من أملاكهم ، نفس المصدر ، ص 129 .

3 ـ مواصلة نشاطها في الجزائر ولكن في الخفاء مستعملة التعبير غير المباشر ، وقد سلك هذا الطريق الجمعيات الدينية التي كانت موزعة في كل انحاء الجزائر ، ثم الأدب الشعبي .

وهكذا فان السلطات الفرنسية قد بقيت وجهاً لوجه مع الجماهير الجزائرية التي كانت تعتقد في الخرافات ، ومعزولة ، ومن غير قيادة .

في المقال الهام الذي كتبه عن المقاومة الجزائرية في الأدب الشعبي ، قال ج . ديبارمي الخبير الفرنسي بالحركة الثقافية في الجزائر « ان أية أمة ، حتى ولو احتلت عن طريق السلاح ، لا يمكن أن تهدد بالزوال الا اذا فقدت الثقة بنفسها[66] » . وقد وجد ديبارمي أن الأمة الجزائرية لم تفقد الثقة في نفسها ، ذلك أن غريزة البقاء عندها قد بقيت حية نشطة مستعملة الأدب الشعبي كوسيلة للتعبير عن نفسها . فالأدب الشعبي الجزائري قد مجد الماضي ، وأثار الفخر الوطني ، ولم يبحث فقط عن الاعتذارات للهزيمة ولكنه حول الهزيمة الى انتصار للشعب المحتل[67] . وقد كانت واسطة هذا الأدب هي شخصية « المداح » الذي كان يقف في الأسواق العامة والمقاهي منشداً أشعاره الحماسية أمام جمهور متعطش للسماع والهضم ، ولكنه جمهور مستسلم لارادة الله الذي سينقذه ذات يوم من « الرومي[68] » .

والى جانب الأدب الشعبي كانت هناك جمعيات دينية لعبت دوراً سياسياً هاماً في حياة الجزائر ، ولا سيما في القرن التاسع عشر ، بالإضافة الى دورها الاقتصادي ، والاجتماعي ، والثقافي . ورغم أن هذه الجمعيات في الظاهر كانت دينية ، فإنها ، في الحقيقة ، كانت عبارة عن أحزاب سياسية ، بالاضافة الى أن نظامها الغامض التصاعدي قد جعلها « جمعيات سرية » من الدرجة الأولى . فقد نظمت حملات دعاية سرية محكمة ضد الفرنسيين بواسطة اتصالات خفية . والحق

---

(66) «ردود الفعل الوطنية في الجزائر» في «س.ج.ا» م 37 (1932) ص 445 ـ 446 .

(67) نفس المصدر ، ص 446 .

(68) كانت فكرة القدرية مسيطرة على الجماهير الجزائرية بعد الاحتلال وقد استمرت ، مدعمة من الجهل والعزلة ، حتى ظهور حركة وطنية جديدة ومنظمة ، بدأت حملتها ، كما سترى بالنداء الى الوطنية والتعليم . وقد شجع الفرنسيون فكرة القدرية لأنها تبقى على الجماهير ساكنة مسالمة .

أن معظم الثورات الجزائرية التي وقعت خلال القرن التاسع عشر كانت قد أعدت ونظمت ونفذت بوحي منها . فالأمير عبد القادر نفسه كان ينتمي الى واحدة منها وهي الجمعية القادرية . ومن بين الجمعيات المشهورة التي لعبت دوراً سياسياً هاماً : الطيبية ، والدرقاوية ، والتيجانية ، والرحمانية[69] .

وبالرغم من هزيمتهم العسكرية وعزلتهم فان الجزائريين قد أبقوا على روح المقاومة حية آملين في الخلاص ذات يوم . وقد لاحظ كثير من الفرنسيين ذوي النظرة البعيدة هذه الروح ، بل ان بعضهم كانت لديه الشجاعة أن يخبر عنها مواطنيه . فالدكتور فيتال الذي كان عائشاً في قسنطينة قد أخبر صديقه اسماعيل عربان سنة 1861 بأن الجزائر ، رغم الهزيمة ، لم تفقد الأمل في استرجاع استقلالها . ثم كتب قائلاً : « ان سلطتنا (في الجزائر) ستزول كما زالت سلطة أسبانيا والبرتغال » . كما لاحظ بأن مثل الجنسية والاسلام تثير حماس الجزائريين كما لو كانت « كلمات سحرية[70] » .

وقد لوحظ من قبل أن نابليون الثالث تبنى ، على الأقل في فترة ما ، فكرة خلق « مملكة عربية » وجنسية جزائرية في هذا العهد ، كما لوحظ أيضاً أن نابليون كان قد وقع تحت تأثير مترجمه ومستشاره ، اسماعيل عربان الذي وجهه ذلك الاتجاه . وقد كتب نفس عربان ، الذي رأى حلمه في « الجزائر للجزائريين » ينهار بعد سقوط الامبراطورية الثانية ، هذه النبوءة الى صديقه ديشتال قبل وفاته عام 1884 : « رغم أننا أبعد ما نكون عن التقدم ، فإننا قد خسرنا كثيراً خلال الاثني عشر سنة (الماضية) ، فالمسلمون (الجزائريون) يبتعدون عنا يوماً بعد يوم ، وهم ينتظرون بثقة قدرية ساعة الثأر . اننا سندفع الثمن قريباً أو بعيداً ، بسبب الأغلاط التي نرتكبها[71] » .

---

(69) مارسيل ايميري ، « الجزائر في عهد الأمير عبد القادر » (مجموعة وثائق غير مطبوعة عن تاريخ الجزائر) ، م 4 (باريس : لاروس ، 1951)، ص 200 ـ 201 . أنظر أيضاً أندري نوشي « ميلاد الوطنية الجزائرية » ، 1914 ـ 1954 (باريس : دي مينوي ، 1962) ، ص 18 . .

(70) نوشي ، ص 15 ـ 16 .

(71) اشار الى ذلك أرون ، ص 50 .

وأثناء نفس العهد نادى س . بانيستير الانجليزي بتحرير الجزائر[72] . فقد قال بأن الفرنسين يجب أن يجلوا عنها تاركين الجزائريين يقررون بإرادتهم نوع الحكومة التي يختارونها ، وبناء على رأيه فـان كل مـا يمكن أن تفعله أوروبا ، وخصـوصاً فرنسا ، نحو الجزائر هو أن نؤيدها بحكمة وشرف ، لأن الجزائريين قـادرون على اصلاح أنفسهم بأنفسهم[73] .

ومن الملاحظ هنا أن حركة « الجزائر الفتاة » المستقبلة ستأخذ أفكارهـا من وجهات نظر الدكتور فيتال ، وخوجة ، وعربان ، وبانيستير .

ورغم عزلتهم ، فان الجزائريين كانوا يتابعون بشغف تطورات أحداث الشرق الأدنى ، بل ان بعضهم كان يتوقع الخلاص من ذلك الصوب . وسوف نلاحظ الدور الذي لعبه المهاجرون الجـزائريـون في الشرق الأدنى وعـلاقتهم بالحـركة الـوطنية الجزائرية . أما الآن فحسبنا أن نشير الى وقع أحداث الشرق الادنى على الجزائريين ولا سيما خلال النصف الثاني من القرن الماضي . ومن بين تلك الأحداث حرب القرم .

لقد كان لحرب القرم أصداء قوية في الجزائر ، فبواسطة الأدب الشعبي عبر الجزائريون عن فخرهم بالنصر العثماني ، وأنشدوا المدائح لله ، ولخليفة اسطنبول ، حامي الاسلام . فاذا أخذنا في الاعتبار تاريخ هذه العواطف (1854) فإنه يبدو لنا أن هذه الأفكار تمثل « جرثومة » حركة الجامعة الاسلامية[74] . كما تابع الجزائريون بنفس الشغف أخبار الاحتلال الفرنسي لتونس ، بل ان بعضهم قد لجأ الى استعمال « الشغب » ، مما شجع الفرنسيين على اتخاذ « اجراءات وقائيـة » لكي يمنعوا أي تمرد شعبي[75] .

---

(72) «نداء في صالح الجزائر وأفريقية الشمالية بقلم انجليزي» (باريس: 1883) . وفي الحقيقية فإن هذا الكتاب قد ظهر حوالي عام 1834 ، ولكن نشره من جديد في هذا التاريخ يعبر عن أهمية خاصة بالنسبة لمؤرخ الوطنية الجزائرية .

(73) ايفير ، «ر.ا.» ، م 57 (1913) ، ص 119 ـ 120 .

(74) ج. ديبارمي ، «العاطفة التركيـة في الجزائر» في «س.ج.ا.»، م 22 (1917) ، ص 10 ـ 15 . ولزيادة البحث عن رد الفعل الجزائري لحرب القرم في الأدب الشعبي ، انظر محمد بن شنب ، « حرب القرم والجزائريون » في « ر.ا. » (1907) . كما أشار اليه ديبارمي ، ص 10 .

(75) نوشي ، ص 19 ـ 20 .

كنا حتى الآن نتقصى آثار الحركة الوطنية الجزائرية منذ الاحتلال في أشكالها السياسية والعاطفية كما مثلها حزب المقاومة ، والجمعيات الدينية ، والأدب الشعبي ، وأخيراً عواطف الجامعة الاسلامية . ولكن الحركة الوطنية الجزائرية لم تكن دائماً كلها سياسية ، سلمية ، وعاطفية . فقد كان هناك :، في نفس الوقت ، الشكل العسكري للحركة الذي لم يكن أقل اثارة في ملامحه من غيره من الأشكال .

3. مقاومة الأمير عبد القادر

ان هذه الدراسة عن العلاقات الفرنسية ـ الجزائرية لم تجب حتى الآن على السؤال التالي : لو أن الفرنسيين لم يتصرفوا بالطريقة التي تصرفوا بها ، هل كان يمكن أن يكون رد الفعل الجزائري مختلفاً ؟ ولكن معظم المؤرخين يتفقون على أن « لو » لا تقدم حلولاً للمشاكل التاريخية ، بل انها قد تزيد في تعقيدها . غير أن « لو » قد تساعد على توضيح أحد الأوضاع أو على ربط ردود الفعل النفسية .

وعلى هذا الأساس فمن الممكن أن يقال بأنه كان لدى الفرنسيين عام 1830 اختياران : الأول ـ أن يثأروا « لشرفهم » (وهو سبب الحملة في دعواهم) ، تاركين الجزائريين يقررون بأنفسهم مصير بلادهم . الثاني ـ أن يتابعوا الاحتلال الى نهايته ، مستعملين كل وسيلة ممكنة لارغام الجزائريين على الاستسلام التام ، بقطع النظر عن المبادىء المثالية . وقد رأينا أن فرنسا أختارت الحل الثاني . وبذلك وجدت نفسها تخوض صراعاً جعلها في بعض الأحيان تضحي بمبادئها الخاصة . وتخلف وعودها ، ولا تبالي بالقيم الإنسانية .

ومن بين مشاهير الجزائريين الذين خاضوا صراعاً ضد فرنسا في القرن التاسع عشر الأمير عبد القادر . فقد كان عمره خمسة وعشرين عاماً عندما انتخب سنة 1832 لكي يقود الشعب في حرب تحريرية دامت حتى نهاية 1847 . كان والد الأمير ، الشيخ محي الدين ، علامة زمانه في اقليم وهران ، فهو الذي علم ابنه العلوم الاسلامية (التقليدية) المعروفة في ذلك الوقت ، بما في ذلك حفظ القرآن الكريم . وفي عام 1825 توجه الأب والابن الى مكة والمدينة للحج .

وفي طريقهما توقفا في مصر حيث استقبلهما محمد علي ، والي مصر بحفاوة . وبعد الحجة الأولى طافا بدمشق ، وبغداد ، والحجاز . وقبل عودتهما إلى

الجزائر سنة 1828 حجا للمرة الثانية . وحين عادا الى الجزائر ، عزل الشاب عبد القادر نفسه لكي يتفرغ لتحصيل العلم ، فقد درس بالإضافة الى العلوم العربية ، أفلاطون ، فيثاغورس وأرسطو ، مع تركيز خاص على التاريخ ، والجغرافيا ، والهندسة ، والنباتات الطبية ، وأثناء هذه الفترة جمع عبد القادر مكتبة هامة[76] .

وبعد انتخابه سلطاناً للجزائر سنة 1832 ، أخذ عبد القادر لقب أمير المؤمنين . وقد أصدر كثيراً من البيانات الى الجزائريين داعياً إياهم للطاعة والدفاع عن وطنهم ضد المعتدين ، وتوحيد أنفسهم ، واليقظة للأخطار التي تحيط بهم ، ومن بين تلك البيانات ما جاء في قوله : « انكم (أيها الجزائريون) قد أصبحتم الآن تحت رحمة رومي ، يقاضيكم رومي ، ويدير شؤونكم رومي . . ان الرومي قد انتهك مساجدكم ، وأخذ أحسن أراضيكم وأعطاها الى بني جنسه ، واشترى أعراض نسائكم . . ان يوم يقظتكم قد حان ، هلموا جميعاً عند سماع صوتي ، أيها المسلمون ان الله قد وضع سيفه الملتهب في يدي ، واننا جميعاً سنمضي الى الأمام ونروي حقول وطننا بدماء الكفار[77] » .

ونظراً لنجاحاته العسكرية ، أجبر الأمير فرنسا على الاعتراف بسيادته وامضاء معاهدة سلام معه . ذلك أن الممثل الفرنسي في اقليم وهران ، الجنرال ديميشال ، قد تفاوض مع الأمير في 26 فيفري 1834 على المعاهدة التي تحمل اسمه (معاهدة ديميشال) . وبناء على هذه المعاهدة فان فرنسا قد اعترفت بسيادة الأمير على غرب ووسط الجزائر ، بما في ذلك معظم ما كان يسمى باقليمي وهران والتيطري قبل قدوم الفرنسيين . وقد احتوت المعاهدة على مواد تتعلق بالتجارة ، والعملة ، وتبادل الأسرى . وبالإضافة الى ذلك فان فرنسا قد وافقت على امداد الأمير بالأسلحة وأن تتبادل معه القناصل[78] .

---

(76) من أجل ترجمة شخصية قصيرة عن عبد القادر ، أنظر أرنولد هوتنغر « العرب » مترجم من الألمانية (الى الانجليزية) ، نشر جامعة كاليفورنيا بلوس انجليس 1963 ، ص 169 ـ 171 .

(77) أشارت الى ذلك « التايمس » (لندن) عن « الأخبار » ، الصحيفة التي كانت تصدر عن الادارة الفرنسية في الجزائر (19 مارس ، 1846) ص 3 . وفي عام 1834 أعلن دي صاد ، الذي كان عضواً في اللجنة الأفريقية ، الى زملائه في المجلس النيابي بأن الأمير قد اعترف به « كل سكان الايالة (الجزائر) كزعيمهم الوحيد » أنظر « م . و . » (29 أبريل 1834) .

(78) عن حياة الأمير ومعاهدات فرنسا معه ، أنظر (حياة الأمير عبد القادر) تأليف شارل هنري تشرشل =

وفي جوييه ، 1834 ، أوصت اللجنة الافريقية ، كما أشرنا من قبل ، بالابقاء على « الممتلكات » الفرنسية . وفي الحال أصدرت الحكومة الفرنسية قرارها المشهور بالحاق الجزائر بفرنسا . وكانت هذه الحركة الفرنسية تعني زيادة العمليات العسكرية . لذلك عزل الجنرال ديميشال ، الذي أمضى معاهدة 1834 ، من منصبه عام 1835 وخلفه فيه الجنرال تريزل كقائد للقوات الفرنسية في اقليم وهران . وفي نفس الوقت فان الحاكم العام الجنرال درويت ديرلون ، الذي كان قد عين في منصبه بمقتضى قرار الالحاق ، قد عزل هو أيضاً وحل محله الجنرال كلوزيل الذي كان يفضل سياسة التوسع والاستعمار والذي كان ممقوتاً من الجزائريين لطرده زعماء حزب المقاومة غداة الإحتلال .

لقد كان الفرنسيون ينظرون بريبة خاصة الى جهود الأمير في توحيد البلاد وتدعيم قوته ببناء ادارة جديدة وتوسيع نفوذه . لذلك قرروا اعلان الحرب عليه رغم معاهدة السلام التي أمضوها معه . ولكن نتيجة هذا القرار كانت نكبة عليهم لأن الجنرال تريزل المذكور آنفا كان قد هزم هزيمة تامة في معركة المقطع (12 جوان 1835) . ومن أجل ذلك قرر الجنرال كلوزيل الانتقام بقوة فأرغم الأمير على التراجع .

ولكن فشل فرنسا عام 1836 في احتلال قسنطينة قد أجبرها على نشدان السلام مع الأمير ، فقد تفاوض كل من بروسار وبوجو (الذي كان ما يزال عندئذ جندياً) مع الأمير على معاهدة التافنة (20 ماي ، 1837) . وقد أكدت هذه المعاهدة اعتراف فرنسا بسيادة الأمير على غرب ووسط الجزائر ما عدا بعض المدن الساحلية التي بقيت تحت يد الفرنسيين ، كما نصت على تبادل القناصل وتنظيم التجارة بين الطرفين[79] .

= وترجمة أبو القاسم سعد الله ، نشر الدار التونسية للنشر ، تونس (1974 . ط. 2 ، الجزائر) ، 1982 .

(79) للاطلاع على وجهة النظر الفرنسية للعلاقات الدبلوماسية والعسكرية بين الجزائر وفرنسا ، أنظر ب بوايبه ، « احتلال الجزائر » في « مدخل الى الجزائر » (باريس : نشر مكتبة أمريكا والشرق ، 1957) ص 125 ـ 140 . وللاطلاع على وجهة نظر نقدية لمعاهدة التافنة ، أنظر ايميري ، ص 135 ـ 150 . وللاطلاع على وجهة نظر جديدة ولا سيما بخصوص معاهدة ديميشيل ، أنظر شارل روبير أجرون ، « المفاوضات الفرنسية ـ الجزائرية الأولى » في « بروف » (سبتمبر 1964) ، ص 44 ـ 50.

وبعد أن وجد الأمير نفسه في سلام من جديد واصل اصلاح ادارته ، وتنظيم حكومته ، وتقوية جيشه ، وتوسيع نفوذه . وان بعض الكتاب يصفون حكومة الأمير بأنها كانت : « بحق أول حكومة وطنية تمثيلية شعبية للجزائر منذ أربعة قرون[80] . وقد كانت ادارة الأمير قائمة على المساواة بين المواطنين وعلى نظام تصاعدي في مراكز قيادة المناطق على هذا النحو : المشائخ ، القياد ، الأغوات ، والخلفاء . ومن الواضح أن الأخير كان أعلى لقب ، يعادل في المفهوم الحديث بمنصب الحاكم العام لاقليم ما[81] .

ولكن أهم ظاهرة في ادارة الأمير كانت جهده في خلق جيش جديد حديث . وقد كان العمود الفقري لهذا الجيش هم الفلاحين الذين كانوا أميين وجهلة بالأسحلة الحديثة ومناورات الحرب . لذلك جعل الأمير الثقافة العسكرية اجبارية هادفاً من ورائها الى تخريج جيش مدرب باتقان ومنظم تنظيماً محكماً . وقد لوحظ من قبل أن معاهدتيه مع فرنسا قد أذنتا له بالحصول على الأسلحة منها . ويقول الأستاذ ايميري ، الذي درس عهد الأمير طويلاً ، بأنه قد وجد في الملفات الفرنسية « أكداساً من الوثائق » ، التي تدل على السيل المتواصل من الأسلحة والعتاد ، المرسل إلى الأمير من مرسيليا وأنجلترا[82] . ولهذا الغرض بنى الأمير عدة مخازن للأسلحة ، من أشهرها مخازن تاغدامت ، وبوغار ، وسعيدة .

ولكي يدعم مركزه الداخلي نظم الأمير حملة من المشاورات والاتصالات مع كل زعماء الرأي في الجزائر . فقد أرسل رسالة الى الباي أحمد حاكم قسنطينة ، الذي كان يحارب الفرنسيين بدوره ، طالباً منه الإنضمام إلى حركته لتوحيد النضال . وفي سنة 1838 ترأس الأمير مؤتمر الجزائر (أول مؤتمر من نوعه) الذي عقد في

---

(80) أنظر م باندا « الماركسية والثورة الجزائرية » في « ليبر ريفيو » (مارس - أبريل 1958) ، ص 37 .

(81) يقول المؤرخ الفرنسي ب بوابيه بأن ادارة الأمير كانت « جديدة » على الجزائر وأن فرنسا قد استعارت نظامه الاداري ، ص 134 .

(82) ايميري ، ص 263 . ويؤكد المؤلف أيضاً بأنه كان للجزائر كثير من الأسلحة التي كانت « تفوق » الأسلحة الفرنسية ، ويعلن بأن احتلال الجزائر كان « المشروع الاستعماري الوحيد » الذي لم يستطع فيه الأوروبيون أن يستفيدوا من تفوق حقيقي مادي وبنا على ايميري فان امتياز الفرنسيين الوحيد كان نظامهم العسكري .

بوخورشفة ، قرب مليانة . وقد قرر هذا المؤتمر ، الذي حضرته وفود من جميع أنحاء الجزائر ، توحيد القوى الوطنية ، والدفاع عن الحريات الانسانية ، وتدعيم الروح الشعبية القائمة على الاخوة والحفاظ على النفس[83] .

وفي 1840 وقف الجنرال بوجو الذي كان حينئذ نائباً في المجلس الوطني ، أمام زملائه وأخبرهم بأن سياسة الاحتلال الجزئي كانت بلا طائل ، وان فرنسا يجب أن تلجأ الى الاحتلال التام مستعملة طريقة الأرض المحترقة (على الطريقة الاسبانية) . ورغم معارضة بعض النواب فان بوجو قد فاز في اقتراحه حين حصل على مائة ألف جندي وتأييد الملك الفرنسي . ثم نال بوجو صلاحيات مطلقة حين عين كحاكم عام للجزائر خليفة للجنرال فاللي[84] وهكذا فان بوجو ، الذي كان قد أمضى معاهدة التافنة سنة 1837 ، عاد الآن الى الجزائر لخرق نفس المعاهدة باسم الاحتلال الكامل[85] .

ولما أصبح بوجو مؤيداً من حكومته ، وقائداً لمائة ألف جندي ، ومستعملاً سياسة الأرض المحترقة ، تمكن من مهاجمة قوى الأمير ، وتحطيم مخازن أسلحته ، ومطاردته الى المغرب ، ولكي يمنع تأييد المغرب للأمير ، هاجم بوجو الحدود المغربية (معركة وادي ايزلي ، 1844) بينما قنبل الأسطول الفرنسي طنجة وموغادور - (15 أوت ، 1844) وهكذا أرغم سلطان المغرب على طرد الأمير من بلاده واعلان الحياد بخصوص النزاع الجزائري الفرنسي .

---

(83) انظر باربور ، ص 217 . ليس لدينا الوثائق التي تخبرنا ما إذا كان هناك اتصال بين الأمير وزعماء حزب المقاومة المنفيين . إننا نعلم أن خوجة كان يدعو الى انتخاب « أمير » جزائري في برنامجه ، ونعلم أيضاً أن خوجة قد قام بمفاوضات بين فرنسا وأحمد باي و « لا هم لي سوى أن أرى بلادي المنكوبة أكثر سعادة » كما جاء في رسالته الى الملك الفرنسي (جوييه 15 ، 1833) ، أنظر ايفير ، «ر.ا.» م 57 (1913) ص 153 - 105 . فهل كان هناك أي اتصال بين الأمير وخوجة؟ أي « أمير » كان في ذهن خوجة : الأمير عبد القادر ، أو أحمد باي أو شخص آخر ؟ إن الوثائق التي بين أيدينا لا تجيب على هذا السؤال . حول هذه النقطة أنظر أيضاً التميمي (بحوث ووثائق) ففيه اثبات لعلاقة خوجة بكل من الأمير والباي .

(84) بوايي ، ص 135 .

(85) كان قد اتهم باضافة بنود سرية الى المعاهدة واخفائها عن السلطات الفرنسية . أنظر ايميري ، ص 135 - 150 .

وهنا وجد الأمير نفسه في موقف يائس تقريباً ، بعد أن دفعه حياد المغرب الى الصحراء من المغرب ، ومطاردة القوات الفرنسية له من الشمال والشرق . وزيادة في آلامه ، جاءته الأخبار بأن الفرنسيين ، تحت قيادة الدوق دومال، قد قبضوا على مدينته المتنقلة (الزمالة) التي كانت تضم حوالي خمسين ألف نسمة ، بما في ذلك نساء وعائلات جنوده (6 ماي ، 1843) . كما فقد الأمير قائده ابن علال الذي كان له بمثابة يده اليمنى ، في معركة ضد الفرنسيين (11 نوفمبر ، 1843)

وفجأة كان هناك خيط من أمل للأمير . ففي 1845 ثارت جبهة القبائل تحت زعامة بوبغلة وثارت وهران بقيادة جمعية طريقة الدرقاوة ، كما ثارت جهة الظهرة تحت زعامة بومعزة . ان هذه الثورات التلقائية المتجاوبة تعرف في تاريخ الوقائع الجزائرية باسم « ثورات الجمعيات (الطرق) الدينية » التي أغرقت الجزائر في « النار والدم »[86] . وقد اغتنم الأمير هذه الفرصة فاتصل بزعماء الثورات لتنسيق خططهم ، ثم هاجم هو الفرنسيين في سيدي إبراهيم وأسر منهم فرقة كاملة كان يقودها مونتانياك (23 ـ 25 سبتمبر ، 1845)[87] . ولما أحس الفرنسيون بإمكانية تحالف وتنسيق جهود الزعماء الجزائريين ، حاولوا افشال هذه الخطة بهجومهم على منطقة القبائل مستعملين فيها أيضاً طريقة الأرض المحترقة .

ونحن الآن نعرف أنه بعد هذه الحملة ضد بوبلغة أجاب الجنرال بوجو بجوابه المشهور على من لاموه من الصحفيين والانسانيين وأهل الرأي العام في فرنسا وأوروبا على سياسته في الجزائر . فقد قال : « لقد حرقنا كثيراً وخربنا كثيراً ، ومن الممكن أن أوصف بالبربرية ، ولكن ما دمت مقتنعاً بأني قد أديت عملاً مفيداً لوطني ، فاني

---

(86) بوابي ، ص 136 .

(87) نفس المصدر ، ص 173 . بعد هذا النصر كتبت المجلة البريطانية (بانش) بسخرية قائلة بأن عبد القادر هو « أسعد الناس حظاً في كونه غير محظوظ» اشارة مباشرة الى الدعاية الفرنسية المتكررة بأنه كان قد قتل ، « انه كالعملاق القديم . . الذي . . قيل مراراً ، بأنه قد قتل ؟ حدث عن القط ، لماذا تعد حياته لا شيء الى جانب حيوات عبد القادر ، أو على السهولة التي يستطيع بها دائماً أن يسقط (عن ظهر جواده) على قدمه ، كم من مرة ترك بلا جواد ، ومع ذلك ، وبحيلة ما ، فهو دائماً أكثر شدة عندما لا تبقى له قدم يقف عليها » . نقلت ذلك « التايمز » (لندن) ، (12 أكتوبر ، 1847) ، ص 8 .

أعتبر نفسي فوق ملامة الصحافة(88) .

ورغم انتصاره في معركة سيدي ابراهيم فان الأمير قد وجد نفسه مرة أخرى في موقف يائس . فقد نجح الفرنسيون في عزل بوبغلة في بلاد القبائل ، واضطروا بومعزة الى التسليم في الظهرة ، ثم ركزوا جهودهم على اجبار الأمير على نفس المصير ، مستعملين خمسين ألف جندي ضده(89) . وهكذا نجح الفرنسيون في منع تحالف كان من الممكن أن يقلب ميزان القوة لصالح الوطنيين . وقد تراجع الأمير مرة أخرى الى الحدود المغربية ، ولكن بلا جدوى ، فقد وجد نفسه محاطاً بالنار من المغرب (التي لم تعد محايدة) وبأسنة الرماح الفرنسية ، وبوحشية الصحراء من الجنوب . لذلك لم يجد بداً من التسليم الى الجنرال لامورسيير (23 ديسمبر ، 1847) على شرط أن يكون هو وأتباعه أحراراً في اختيار منفاهم(90) .

ولكن الفرنسيين لم يفوا بوعدهم ، فقد كان على الأمير أن يعاني من ألم السجن خمس سنوات . فبدل أن يسمح له بالذهاب الى الاسكندرية أو سورية ، كما اشترط ، أخذه الفرنسيون الى سجون مختلفة ، بما في ذلك قصر امبواز . وبعد أسابيع من تولي نابليون رئاسة الجمهورية الفرنسية الثانية ، بعث اليه الأمير برسالة (تاريخها 23 ديسمبر 1848) مذكراً له بوعد فرنسا ، وسجن الانكليز لنابليون الأول ، وسجنه (نابليون الثالث) هو نفسه بأمر لويس فيليب ، كما وصف له الأمير معاناته ومعاناة والدته المسنة (70 سنة) ، طالباً من الرئيس الفرنسي أن يستجيب الى رغبته في الذهاب الى مصر أو سورية(91) .

---

(88) أشار الى ذلك باربور ، ص 218 .

(89) « التايمز » (لندن)، (12 أكتوبر ، 1847) ، ص 8 .

(90) غادر بوجو الجزائر ، كحاكم عام ، في 5 جوان ، 1847 ، وخلفه في منصبه الدوق دومال الذي أعطى للأمير وعد فرنسا بأنه سيكون حراً في اختيار منفاه .

(91) إن نص هذه الرسالة هو (27 محرم ، 1265 هـ) ومنشور في «التايمز» (لندن) ، (28 ديسمبر ، 1848) ، ص 4 . وفي مقال بعنوان «بعبع في السجن» لامت مجلة «بانش» الفرنسيين على خلف وعدهم ، وقالت : « إن الفرنسيين لم يفوا بوعدهم ، واحتفظوا بعبد القادر . إننا نعتقد أن الاحتفاظ بأحدهما أسهل من الاحتفاظ بالآخر ولكنهم ، اذا استمروا على مخالفة وعودهم هكذا ، فإنهم سيجدون أنه من السهل عليهم في المستقبل أن يحتفظوا بوعدهم لأنهم لن يجدوا أبداً أحداً يأخذه منهم » . أشارت الى ذلك «التايمز» (لندن) ، (5 فيفري 1848)ص 4 .

وفي 1851 حصل اللورد لندنديري ، بصعوبة على اذن من وزير الحربية الفرنسي بزيارة الأمير في سجنه . وبعد استجواب طويل مع « الرجل الشجاع . . المحارب القديم » كتب اللورد لندنديري رسالة الى نابليون الثالث (تاريخها ، تور 8 مارس 1851) مذكراً له بأنه (أي لندنديري) هو الذي كان قد كتب الى لويس فيليب في حق اطلاق سراحه (أي نابليون) من السجن ، وبأن الأمير كان في حالة يائسة في سجنه ، وبأنه (أي الأمير) قد سأل اجتماعاً مع نابليون[92] .

وفي جوابه على رسالة اللورد لندنديري ، اعترف نابليون « بأن سجن الأمير لم يفتأ يشغل بالي ويقع كحمل ثقيل على قلبي منذ اليوم الأول لانتخابي » . ثم أكد اللورد بأنه سيفعل كل ما في وسعه لاطلاق سراح الأمير ، ولكنه أصر على أن ذلك لن يكون الا اذا كان لا يسبب اضطراباً في الجزائر ، أما بخصوص الاجتماع مع الأمير فإن نابليون قد أخبر اللورد لندنديري « بأنني لا أستطيع أن أراه الا اذا كنت سأعلن أخباراً سارة[93] » .

وقد جاء « الخبر السار » في 2 ديسمبر 1852 حين ذهب نابليون شخصياً الى قصر أمبواز وأطلق سراح الأمير . ويقال أنه ، بينما أهدى نابليون سيفاً الى الأمير ، وعده هذا وعداً شريفاً بأنه لن يرفع السلاح ضد فرنسا مرة ثانية . ثم أبحر الأمير نحو الشرق الأدنى حيث قضى بقية حياته كاتباً ، معلماً ، متهجداً ، الى وفاته في دمشق سنة 1883 .

بعد سجل طويل من الحرب ضد الأمير قال عنه الجنرال دوفيفي سنة 1842 : « ان القوة الحقيقة للأمير ، تلك القوة التي تقاومنا ، ترجع أصولها الى فكرة . . ان عبد القادر كان أميراً لأن الحرية قد منحته سلاحها . . لقد كان رجل التاريخ ، ان

---

(92) وصف اللورد لندنديري الأمير وصفاً حياً فقال : انفتح الباب على مصراعيه ، فوقف أمامنا المحارب الهمام القديم ، ببرنوس أبيض كالثلج ، ولحية سوداء كالقطران ، وحواجب عريضة مقوسة في نفس اللون ، مع أسنان في بياض العاج ، وعينين سوداوين مهيبتين ، يظهر منهما البياض السائل محيطاً بالمقلة في شكل خاص . ويبدو طويل القامة ، مهيباً ، وتؤدي إشاراته ، وبشاشته ، ووداعته تعبيراً لا يكاد يفسر » . أشارت الى ذلك « التايمز » (لندن) ، (15أبريل، 1851).

(93) «التايمز» (لندن)، (15 أبريل 1851) ، وتاريخ رسالة نابليون هو : الايليزي الوطني ، 29 مارس ، 1851 .

الحرية لن تنساه أبداً ، أنها ستردد اسمه دائماً[94] . أما اليوم فان اسم الأمير قد أطلق على ميادين ، وشوارع ، ومدارس ، ومنشآت عسكرية في بلاده . ان الجزائريين يعتبرونه « بطلاً وطنياً » والحق أن هذا الاعتبار ليس خاصاً بالجزائريين .

ان كثيراً من المؤرخين الأوروبيين ينظرون الى الأمير عبد القادر على أنه زعيم الاستقلال، والوطنية، والحرية في الجزائر. فمارسيل ايميري قد قال عنه أنه «بطل الاستقلال والقومية العربية في الجزائر[95] » . أما الجنرال ديميشال فقد اعتبره « ممثلاً لشرعية جديدة » في الجزائر . ومن جهة أخرى فان تيير ، رجل الدولة الفرنسي ، قد أشار الى الأمير على أنه « الممثل البارز للقومية العربية[96] » كما ذكره ب . بوايي على أنه « القائد الروحي » للجزائر[97] . فأما فرنسا نفسها فقد أهدت الى الأمير ، سنة 1860 ، وساماً ، اعترافاً بتدخله لانقاذ آلاف المسيحيين أثناء الاضطرابات الطائفية في بلاد الشام ، يحمل الكلمات التالية : « الى أمير شمال افريقيا ، والمدافع عن القومية العربية ، وحامي المسيحيين المضطهدين[98] . وقد لوحظ من قبل بأن الكاتب باندا قد اعتبر حكومة الأمير « أول حكومة وطنية حقيقية ممثلة للشعب » في الجزائر[99] .

وهناك زعيم آخر للمقاومة العسكرية الجزائرية ، هو الحاج أحمد ، باي قسنطينة . ذلك أنه عندما أمضى الاتفاق الجزائري الفرنسي سنة 1830 وانهارت

---

(94) أشار الى ذلك باربور ، ص 216 ـ 217 .

(95) ايميري ، ص 148 ـ 149 .

(96) أجرون « بروف » (سبتمبر ، 1964) ، ص 50 .

(97) أشار الى ذلك أرون ، ص 34 .

(98) أشار الى ذلك باربور ، ص 217 .

(99) «ليبر ريفيو» (مارس ـ أبريل ، 1958) ص 37 ، بالاضافة الى البطولة فإن الأمير عبد القادر كان شاعراً ومفكراً ، وقد ترك مجموعة من الشعر التي هي في العموم سجل لمعاركه ، وآماله وفخره الشخصي . وقيل أنه كتب (وشاح الكتائب) الغني في لغته وأفكاره . ولكن أشهر عمل فكري له هو « ذكرى العاقل وتنبيه الغافل » ، الذي بعث به الى باريس كمخطوط سنة 1855 وترجمه الى الفرنسية ج . دوقا سنة 1858 ، وقد ناقش الأمير في هذا الكتاب « بأصالة مشاكل الفلسفة ، والدين ، والاقتصاد واللغة ، والتاريخ ، والسلالات » أنظر مقال هنري بيريس : « الثقافة العربية الكلاسيكية في الجزائر » في « مدخل الى الجزائر » 296 ـ 297 .

الحكومة الجزائرية ، رفض أحمد باي ، الذي كان عندئذ والياً على قسنطينة ، معيناً من الداي ، أن يسلم للسلطات الفرنسية وأعلن الحرب ضدها . وقد استمر في مقاومة الفرنسيين الى سنة 1848[100] . ولما كان أحمد باي ينتمي الى الادارة القديمة ، فقد أعلن نفسه الوارث الشرعي للداي المخلوع وطلب من الخليفة الاسلامي في اسطنبول الاعتراف به . ولكن الباب العالي ، الذي كان مشغولاً بتصفية جنود الانكشارية وحروب محمد علي ، لم يمنح أحمد باي أكثر من التأييد المعنوي ولقب باشا . ومع ذلك فان أحمد باي قد واصل الحرب ضد الفرنسيين بإسم الاسلام والخلافة[101] .

ومن أجل ذلك ، بل لعل من أجل أشياء أخرى ، لا يعتبر كثير من الجزائريين وأكثر المؤرخين ، أحمد باي بطلاً « وطنياً » رغم قدرته الادارية وشجاعته الحربية وقيادته النيرة . فقد تمتعت قسنطينة في عهده بادارة مستقرة واقتصاد متقدم وحياة ثقافية طيبة[102] . ويشير ايميري بأن فرنسا قد أرادت أن تبسط حمايتها فقط على قسنطينة ، ولكن أحمد باي كان يريد أن يحكم وحده[103] . وهكذا منعت الغيرة والصراع من أجل الحكم ، بالإضافة الى سياسة الفرنسين التي كانت تقوم على « فرق تسد » تحالفاً بين قوى الأمير عبد القادر وأحمد باي ، رغم بعض المحاولات من طرف الأمير[104] .

---

(100) في هذا التاريخ سلم وبقي في السجن حتى وفاته سنة 1850 .

(101) عبد الجليل التميمي (اقليم قسنطينة والحاج أحمد باي ، 1830 ـ 1837) ، تونس ، 1978 . انظر كذلك قائمة المصادر والمراجع الجديدة .

(102) يقول جوليان بأن الباب العالي قد بعث بأسطول لمساعدة أحمد باي ولكن قطعة من الأسطول الفرنسي قد منعته من تجاوز مياه طرابلس ، ص 140 .

(103) ايميري ، ص 235 ـ 242 . وقد أشرنا من قبل الى أن خوجة قد قام ببعثة ديبلوماسية « خطيرة » كمفاوض بين الباي والفرنسيين ، ولكن هؤلاء اتهموه (بالتآمر) مع الباي « لاسترجاع الحكم الاسلامي » أنظر ايفير ، «ر.ا.» ، م 57 (1913)، ص 103 ـ 105 . وكان الباي متزوجاً من أخت حمدان خوجة .

(104) يشير ايميري إلى أن فرنسا قد طلبت من الباي أن لا يبعث الجنود لمساعدة عبد القادر . وفي مقابل ذلك ضمنت فرنسا الحرية الداخلية التامة للباي ، ص 240 .
أنظر أيضاً جواب الباي على رسالة الأمير حول العمل المشترك ، ص 263 .

4. ثورات الفلاحين

ان ثورة تقوم بها احدى الجمعيات الدينية كانت في العادة تحت قيادة مرابط يجمع اليه القوى الروحية والدينية والسياسية للمنظمة . وقد كانت شخصيته محترمة جداً ، بل كانت بطريقة خرافية معبودة . كما أن كلمته كانت قانوناً لأتباعه . وكان المرابط عادة جيد الثقافة في المجال التقليدي ، مطلعاً على الأحداث الجارية ، ومشهوراً بالحكمة . وقد أصبحت الجمعيات الدينية ، تحت أمثال هذه الشخصيات ، أحزاباً من الوجهة السياسية ، ومنظمات اقطاعية من الناحية الاقتصادية والاجتماعية ، ومدرسة فكرية وتعليمية من الزاوية الروحية والعقلية .

وكما كان متوقعاً ، فان منظمات من هذا النوع كان يمكن أن تتحالف أو تتحارب ، حسب الظروف الداخلية . كانت بعض الجمعيات الدينية فقيرة وبعضها غنية ، وكان بعضها واسع النفوذ حتى أن سلطته كانت تغطي كامل اقليم ، وبعضها كان محدود السلطة بحيث لا يتجاوز نفوذه مجموعة معينة . كما أن سمعتها وتأثيرها كانتا متوقفتين على مواردها وعلى عدد اتباعها . أما الفلاحون فقد عملوا تحت هذه الجمعيات ، كجنود ، ومزارعين ، ثم خدام مخلصين . وعندما تدخل العالم الخارجي ، اختل في الغالب توازن القوى بين هذه الجمعيات بسبب الغيرة والانتهازية والوصولية ، ونحوها .

وبتدخل الاحتلال بدأت الجمعيات الدينية تلعب دوراً عسكرياً هاماً ، فالأمير عبد القادر نفسه كان على رأس احداها ، كما أن بومعزة وبوبغلة اللذين أشرنا اليهما سابقاً ، كانا زعيمين لِأُخْرَيَيْن منها . وكان هناك زعيم آخر وهو بوزيان الذي قاد ثورة عام 1849 ضد الفرنسيين في منطقة الأوراس .

ففي منطقة الزعاطشة كان بوزيان ينشر دعاية دينية وطنية ضد الفرنسيين ، وكان يحث أتباعه على مهاجمة المعسكر الفرنسي في المنطقة . وعندما وقع الهجوم انهزم المعسكر الفرنسي الذي كان عندئذ تحت قيادة بيير بونابارت[105] . ثم انتشرت الثورة في منطقة الأوراس والزيبان مما هدد المعسكرات الفرنسية في كل من باتنة وقسنطينة.

---

(105) كان بونابارت قد ضرب على صدره بحجر رماه به أحد الجزائريين ، فترك جنده في فوضى وعاد الى فرنسا . انظر « التايمز » (لندن) ، (22 نوفمبر ، 1849) ، ص 5.

لذلك أسرع الفرنسيون باحضار النجدة التي كانت تقدر بأحد عشر ألف جندي . ثم حملوا تحت قيادة كاروبير على الجزائريين . وقد كانت النتيجة هي « المصير المرعب »، احراق واحتي الزعاطشة ونارة ، وقطع الآلاف من أشجار النخيل[106] .

وقد علقت جريدة « كونستيتو سيونيل » الفرنسية على هذا « المصير المرعب » فقالت : « ان هذه هي أول مرة في تاريخ احتلالنا (للجزائر) نواجه بمثل هذه الحالة . ان أحد عشر ألف بندقية تعمل جاهدة للقضاء على مقاومة كلفتنا حتى الآن ثمانمائة رجل بين قتيل وجريح[107] » . ونتيجة لذلك فان بوزيان زعيم الثورة ونائبه الشريف بوعمار ، بالإضافة الى عدد يتراوح بين سبع وثمانمائة وطني « قد أعطيت رقابهم للسيف[108] » .

ونفس المصير المرعب كان ينتظر الوطنيين الذين قاموا بالثورة في منطقة القبائل . وقد أشرنا من قبل الى التمرد الذي كان تحت قيادة بوبغلة (1854) الذي يعتبره بعض المؤرخين «رمزاً وطنياً للمقاومة»[109]. وبعد بوبغلة تولت قيادة المقاومة البطلة لا للافاطمة التي يسميها الكاتب الانكليزي نيفيل باربور « شبيهة جان دارك[110] » . فبين سنوات 1851 ـ 1857 شنت فاطمة حرباً عواناً ضد الفرنسيين الذين التجأوا بدورهم الى طريقة بوجو (الأرض المحترقة) لوضع حد للثورة . وفي عام 1857 كانت منطقة القبائل كلها في حالة ثورة بفضل الجهود الدينية والسياسية التي بذلتها الطريقة الرحمانية ، تحت قيادة فاطمة . وعندما أحس الحاكم العام الفرنسي للجزائر ، الجنرال راندون بالخطر الداهم ، قاد بنفسه حملة تتكون من ثلاثين ألف رجل ضد فاطمة ، وبعد معارك دموية ، نجح راندون في أسر فاطمة وقمع الثورة[111] .

---

(106) أنظر باربور ، ص 218 .

(107) أشارت الى ذلك « التايمز » (لندن) ، (27 نوفمبر ، 1849) ، ص 3 .

(108) نفس المصدر ، (1 ديسمبر ، 1849) ص 9 .

(109) المؤرخ الفرنسي بول غافاريل في كتابه «الجزائر»، (باريس : 1883) كما أشار اليه باربور ، ص 218 .

(110) نفس المصدر .

(111) كارل بروكلمان : « تاريخ الشعوب الاسلامية » ، ترجمة عن الألمانية الى الانكليزية جول كارميشيل =

ولكن هناك ثورة أخرى تعتبر أكثر خطورة تاريخياً وأهمية حدثت عام 1871 بمجرد سقوط فرنسا أمام قوات بسمارك . ذلك أن الجزائريين كانوا يراقبون بعناية الحروب والدعايات الأوروبية متوقعين النصر لأصدقائهم والهزيمة لأعدائهم ومنتظرين الفرصة للثورة على فرنسا اذا خسرت الحرب في أوروبا . فقد اعتاد الفرنسيون منذ عقود أن يخبروا الجزائريين « أساطير » عن فرنسا المعصومة وعن روح جيشها التي لا تنهزم . ولكن بعد 1870 لم تعد هذه « الأساطير » تقنع حتى الجزائريين الخرافيين[112] .

ولما لاحظ الجزائريون الاضطرابات في الادارة الفرنسية في الجزائر عقب حوادث « كومون باريس » وسقوط الامبراطورية الثانية ، شرعوا في نهاية عام 1870 في تنظيم الشرطة الوطنية ونشر كلمة السر للثورة . وقد بدأت لجان الشرطة ، التي كان يتكون كل منها من عشرة الى اثني عشر شخصاً ، في إدارة البلاد محلياً : عزل القياد ، وجمع الضرائب ، ومحاكمة المتعاونين وشراء السلاح والخيول والمعدات ، واقامة لجان الأمن والنظام[113] .

وبالاضافة الى لجان الشرطة التي كانت تدعو الى الثورة ، وأخبار هزيمة الفرنسيين ، كان هناك تمرد جنود « الصبائحية » الجزائريين الذي حدث في جانفي 1871 . وقد شارك المتمردون الشعب واغتالوا ضباطهم الفرنسيين ، ونادوا بالاستقلال ، وأخذوا يرددون : « ان باريس قد سقطت في يد البروسيين وان محي الدين (ابن الأمير عبد القادر) سيأتي من نفطة . . ان الجزائر ستثور كلها وان هذه

= وموشي بيرلمان ، (نيويورك : كابريكورن بوكس ، 1960) ، ص 410 . وخلال هذه المعارك ربط 157 مسبلاً جزائرياً أنفسهم ثم ماتوا جميعاً دفاعاً عن قرية تيشكرت حيث كانت تعيش لاللا فاطمة . أنظر باربور ، ص 218 .

(112) يقول جوليان بأن السلطات الفرنسية قد حاولت أن تمنع انتشار أخبار الهزيمة ولكن الأخبار انتشرت من « فم الى فم ، محورة ومشوهة » في جميع أنحاء الجزائر ، ص 473 .

(113) للحصول على تفاصيل أكثر عن هذه « المنظمات الفلاحية البروليتارية » ، أنظر مقال « تاريخ المقاومة الجزائرية » ، في « المعرفة » ، (نوفمبر ، 1674) ، ص 11 . ويشبه جوليان هذه الشرطة « بلجان الانقاذ الوطني » ص 476 . أنظر أيضاً عن نفس الموضوع باربور ، ص 220 .

فرصة فذة لطرد الفرنسيين[114] » .

وقد كانت هذه التطورات العسكرية مصحوبة بدعاية دينية ـ وطنية ثورية قام بها الشيخ الحداد الذي كان طاعناً في السن (80 سنة) والذي كان قد أصبح زعيماً لجمعية الطريقة الرحمانية . وقد أعلن الشيخ الحداد الجهاد بعد أن ألح عليه ابنه سي عزيز ، ونادى الشعب الى السلاح قائلاً : « ان يوم الخلاص قد حان » . وهكذا انتشرت كلمة الثورة وراجت فكرة الجهاد ضد الفرنسيين في المساجد ، والأسواق ، والمقاهي ، والأماكن العامة بفضل نشاط أتباع الشيخ الحداد . وخلال بضعة أسابيع ساهمت جهة القبائل وحدها بمائة وخمسين ألف رجل[115] .

ولكن الزعيم العسكري لثورة 1871 هو الحاج محمد المقراني الذي كان قد أعد نفسه لهذا الدور منذ وقت طويل ، لقد كان محل ثقة الفرنسيين لشهامته وشخصيته القوية . وقد منحوه لقب « باشاغا » وأعطوه السلطة الادارية في مجانة . ولكن المقراني كان واعياً لدوره ، وكان يراقب التطورات في أوروبا والجزائر باهتمام كبير . ومما يذكر أنه كان قد حصل على سمعة وشعبية واسعة بفضل مساعدته للفلاحين خلال مجاعة 1867 . وعندما بدأت الثورة التي نادى بها الشيخ الحداد دينياً ، غادر المقراني مركزه وانضم الى الثورة في 15 مارس 1871 . وقد انتشرت الثورة من القبائل الى الأوراس والصحراء، وكان لمقراني يتوقع المساعدة من الأمير عبد القادر ، والامبراطورية العثمانية وتونس . ولكن هذه المساعدة لم تتحقق[116] .

غير أن الفرنسيين بعد أن أعادوا الاستقرار لبلادهم ، كرسوا جهودهم لقمع الثورة في الجزائر ووضع حد لها . وكان موت المقراني ، الذي قتل في معركة (ماي 1871) ، قد أضعف الثورة . وقد خلفه في القيادة أخوه بومزراق وسي عزيز ابن

---

(114) أشار الى ذلك جوليان ، ص 476 . ويشير المؤلف أيضاً الى أن الطلبة الجزائريين رفضوا العودة الى المدارس في نهاية العطلة . ويقول بأن الملاحظين قد لاحظوا حركة شراء الأسلحة ، والخيول ، وتهريب البارود ص 475 .

(115) نفس المصدر ، ص 481 ـ 485 . أنظر أيضاً « المعرفة» ، (نوفمبر ، 1964) ، ص 12 .

(116) تذهب أغنية شعبية هكذا : « عبد المجيد (السلطان العثماني) وباي تونس سيأتيان ، نعم ، الى مساعدتنا . . » ، جوليان ، ص 484 ألقى عبد الجليل التميمي أضواء جديدة على هذه النقطة في كتابه (بحوث ووثائق مغربية) ، تونس ، 1972 .

الشيخ الحداد . ولكن القيادة الجديدة ارتكبت خطأين استراتيجيين : الأول كان مد الثورة الى الصحراء حيث النقص في السكان والعتاد والماء . والثاني كان استعمال طريقة الهجوم المباشر ضد الفرنسيين . هذان الخطآن رجحا الكفة لصالح الفرنسيين الذين استطاعوا أن يأسروا بومزراق وسي عزيز في جانفي 1872[117] .

ولما كان الفرنسيون قد أقاموا الادارة المدنية في الجزائر (بعد سقوط الامبراطورية الثانية) فقد استخدموا ، للقضاء على الثورة ، ليس السلاح فقط ولكن الشرطة المدنية أيضاً على نطاق واسع . والحق أن الفرنسيين بدأوا بتطبيق القانون المعروف « بكود دي لانديجينا » (قانون الأهالي) خلال ثورة 1871 . ومن بين الاضطهادات « المرعبة » التي تلت الثورة ما يلي : مائة فرنك ضريبة حرب على كل بندقية محجوزة ، مصادرة خمسة ملايين هكتار من الأرض التي يملكها الثوار ، وتأميم مليونين وخمسمائة ألف هكتار أخرى[118] . اصدار قانون بالمسؤولية الجماعية على كل خسارة ، رفض اللجوء عند المحاكمة الى القانون العام وتعويضه باجراءات غير معروفة للقانون الفرنسي[119] . أما حكام البلديات (الكومون) فقد أعطاهم القانون كل الصلاحيات لمواجهة كل الطوراىء[120] .

وآخر أهم الثورات الوطنية في القرن التاسع عشر هي ثورة أولاد سيدي الشيخ في جنوب الجزائر عام 1881 . والحق أن هذه الثورة قد بدأت عام 1864 حين شرعت فرنسا في التسلل إلى الصحراء .

ففي ذلك التاريخ (1864) انفجرت ثورة تحت قيادة مرابطين قديرين هما سي سليمان وعمه سي الأعلى . ولم يكن في قدرة فرنسا عندئذ قمع هذه الثورة . وخلال ثورة المقراني عام 1871 انضم سي الأعلى بقواته في الجنوب الى الوطنيين في

---

(117) «المعرفة» ، (نوفمبر، 1964) ، ص 13 . كان بومزراق قد نفي الى كاليدونيا الجديدة حيث بقي ثلاثين سنة . وقد سئل سي عزيز أثناء المحاكمة لماذا أعلن الجهاد ، فأجاب : « حين يكون الانسان في حالة ثورة ، يصبح اعلان الجهاد ، مجرد وسيلة للعمل » . جوليان ص 485 .

(118) فافرو ، ص 15 .

(119) أرون ، ص 49 ـ 50 .

(120) نفس المصدر . انظر أيضاً أطروحة يحيى بوعزيز (دور عائلتي المقراني والحداد في ثورة 1871) .

الشمال . ولكن مجاعة 1867 ـ 1869 وقمع ثورة المقراني قد أضعفا كثيراً من ثورة أولاد سيدي الشيخ . غير أنه في عام 1881 ، وبعد معرفة الخطط الفرنسية للاستيلاء على الصحراء تجمعت روح الاستقلال من جديد وانفجرت في شكل ثورة جديدة تحت قيادة الشيخ بوعمامة خليفة سي الأعلى الذي أصبح طاعناً في السن . ان بعض الكتاب يسمي بوعمامة « عبد القادر الثاني[121] » . ورغم أن بعضهم الأخر لا يعطونه كل هذه القيمة ، فانهم يعترفون بأن بوعمامة قد تمتع بسمعة عظيمة بين الجزائريين[122] .

بدأ بوعمامة ثورته بمهاجمة المراكز الفرنسية ، وفي 19 أبريل 1881 تمكن من هزيمة وقتل وينبرينر القائد الفرنسي ، ورغم أن خطة الثورة كانت قد درست طويلاً من قبل ، فإن بعضهم يرى بأن العملية الأولى كانت غير ناضجة[123] . ولكن العملية على أية حال ، كانت ناجحة .

وقد أوقد هذا النجاح نار الأمل في تحرير كل الجزائر من يد الفرنسيين . وهكذا فإن نيران الثورة قد امتدت الى وهران ومنطقة الصحراء والهقار[124] . حتى ان بعض الصحافة الفرنسية قد تعجبت من مبادرة النجاح لهذه الثورة ، فجريدة « ديبا » كتبت تقول : انه لم يحدث قبل بوعمامة « ان زعيماً ثائراً يستولي على ثلاثمائة أسير فرنسي ، وألف غرارة من الشعير والقمح ، وغيرها من الغنائم المتنوعة[125] » .

وقد استغرقت ثورة بوعمامة أطول مدة في تاريخ الثورات الجزائرية ولكنها مع ذلك أقلها جميعاً شهرة . فقد دامت أكثر من عشرين سنة (1881 ـ 1904) ، دون

---

(121) «التايمز» (لندن)، (11 جويليه، 1881) ، ص 5 .

(122) أوغسطين بيرنار ، «بوعمامة» في «ك.د.ك.» ، م 11 (1901) ، ص 622 ـ 623 .

(123) «التايمز» ، (لندن) ، (11 جويليه ، 1881) ، ص 5 . وفي هذه الأثناء أخبرت صحيفة « ريبابليكان » الفرنسية بأن جريدة عربية ، تسمى «لانديباندانت» (المستقبل) أصدرتها ايطالية في صقلية ، كانت تنادي الجزائريين الى الثورة ، وأن كمية كبيرة من الأسلحة قد هربت الى الجزائر ، انظر «التايمز» (لندن)، (25 أوت ، 1880) ، ص 5 . أن نقص المعلومات يجعل من غير الممكن تثبيت أو تكذيب أي علاقة بين هذه القصة وبين ثورة بوعمامة .

(124) في نفس الوقت أسر الجزائريون في الهقار بعثة فرنسية وقتلوا قائدها ، الكولونيل فلاتير . وقد تبع ذلك اضطهاد «بلا رحمة» . أنظر أرون ، ص 50 .

(125) أشارت الى ذلك «التايمز» (لندن)، (11 جويليه ، 1881) ، ص 5 .

أن نحسب ثورة أولاد سيدي الشيخ الأخرى التي كانت تحت قيادة سي سليمان وسي الأعلى والتي كانت قد بدأت عام 1864 كما سبقت الاشارة . وقد ناضل الشيخ بوعمامة أثناء كل هذا العهد الطويل بشجاعة وثبات .

غير أن الفرنسيين تمكنوا من هزيمته بطريقتين ، الأولى : منعه من التسلل الى المناطق الآهلة بالسكان في الشمال ومنع تسرب أخبار الثورة الى الأهالي هناك . والثانية تفوقهم في السلاح ، ولا سيما في المدفعية ، وتصميمهم على التسلل الى الصحراء ، ووضع أهلها تحت نفوذهم . وبالاضافة الى ذلك ، فإن بوعمامة الذي كان قد اعتاد أن يجد ملجأ داخل الحدود المغربية حين يطارده الفرنسيون من الشرق ، قد وجد في النهاية أن هذا الملجأ لم يعد مفتوحاً نظراً لازدياد النفوذ الفرنسي في المغرب وتطور التنافس الأوروبي هناك عشية ما يعرف بأزمة المغرب الأولى (1905) . ومن الممكن أن نضيف الى ذلك بأن كبر سن بوعمامة وحالة صحته العامة قد ساهما في فشله[126] .

وهناك بعض الخصائص المشتركة بين كل هذه الثورات التي أتينا عليها بإختصار . أنها كلها كانت تقاد بمرابط يجمع لديه السلطة السياسية ـ الدينية للجمعية . وكلها قد فشلت في تحقيق هدفها وهو طرد « الرومي » من الجزائر . وكلها قد مثلت روح المقاومة المستمرة عند الجزائريين منذ الإحتلال . وكلها قد كانت تفتقد إلى النظام والحركة المنسقة . وكانت تعتمد على زعامة فردية كانت محلاً للضعف الانساني . وفي جميعها كان الفلاحون الوطنيون هم الجيش الطائع للمرابط . فقد كان الفلاحون يكافحون من أجل الوطن ، والاسلام ، وأرضهم المغتصبة وشرفهم المهان (الشؤون العائلية ، والتشرد الشخصي ، الخ) ولكنهم كانوا ضحايا الخرافات والجهل والانقياد الأعمى الى الجمعية الدينية عموماً والى المرابط خصوصاً . ومع ذلك فانهم بثوراتهم المستمرة ، وحبهم لأرضهم ، وكرههم

(126) كان قد ولد في الفغيغ داخل الحدود المغربية من عائلة أولاد سيدي الشيخ التي امتد تأثيرها الى جميع أنحاء أفريقية الشمالية ، ولاسيما المناطق الداخلية . وكان بوعمامة قد أعد لكي يكون مرابطاً . مات في 7 أكتوبر ، 1908 في دائرة وجدة ، ولا يعرف الناس ، حتى الجزائريون ، عن حياته وثورته الا قليلاً .

للأجانب ، فقد حافظوا على الضمير الوطني حيا ومثلوا استمرار الكيان الجزائري الذي حاول الاحتلال القضاء عليه .

والحق أن مقاومة الأمير عبد القادر العسكرية تدخل في الإطار العام لثورة الفلاحين ، ولكنها من جهة أخرى كانت تختلف عنها ، ومن أجل ذلك تحدثنا عنها منفصلة . فمقاومة الأمير عبد القادر تشترك مع بقية ثورات الفلاحين في كل خصائصها ، ما عدا أن الشعور بالوطنية فيها كان أكثر عمقاً في أمدها ، وانتشارها ، وهدفها .

فالأمير عبد القادر قد أرغم فرنسا على الإعتراف به في معاهدتين مختلفتين كسلطان صاحب سيادة على جزء كبير من الجزائر ، ومقاومته كانت أكثر عمقاً نظراً لعدد الاصطدامات مع الفرنسيين ولقوة الأمير الشخصية ، ولهدفه المحدد : وهو خلق دولة جزائرية وطنية . وبالإضافة الى ذلك فإن مقاومة الأمير قد دامت حوالي خمس عشرة سنة وأثرت على كل أهل الجزائر تقريباً .

5. البيئة الثقافية

لما كان الفرنسيون يعتبرون الجزائر مستعمرة « فذة » . فان حكمهم فيها كان له خاصية « فذة » أيضاً . ففي كل المناطق التي سيطرت عليها فرنسا تقريباً (محميات، مستعمرات ، الخ) حافظ الفرنسيون (أو خلقوا) على بعض الطبقات الاجتماعية (مثلا : الطبقة البورجوازية) ، أو أصلحوها أو تعاونوا معها . أما بالنسبة للجزائر فإن الفرنسيين لم يكتفوا بهزيمة ، ونفي ، وتشريد البورجوازية الوطنية ، بل ضموا الجزائر نفسها الى فرنسا بقرار تعسفي سنة 1834 .

وهكذا فقد نتج عن هذا القرار المحو التام للكيان الجزائري مع كل ما تستلزمه هذه السياسة من نتائج : محو اللغة ، والتاريخ ، والحكومة ، والرموز الوطنية الأخرى . ففرنسا اذن لم تأت الى الجزائر لكي تحافظ (أو تخلق) ، وتصلح أو تتعاون مع أي نظام جزائري لفائدة الأهالي . هذه الحقيقة ، التي قد تصدم الكثيرين ، قد قادت الى رأي « جديد » يجب أن يؤخذ في الاعتبار عند النظر في الحكم الفرنسي وطبيعته « الفذة » في الجزائر . وليس لدينا النية أن ندرس هنا أكثر

هذه النقط لأن هدفنا الرئيسي هو دراسة الإتصال الثقافي بين الجزائريين والفرنسيين ووقعه على الحركة الوطنية الجزائرية ايجاباً وسلباً .

ليس هناك احصاءات محددة عن عدد سكان الجزائر ساعة الاحتلال . فحمدان خوجة الذي كان عارفاً بشؤون بلاده من خلال اطلاعه على سجلات الضرائب للحكومة الجزائرية قد قدر عدد سكان الجزائر عندئذ بعشرة ملايين نسمة . وقد قدر فرحات عباس بأن عدد السكان كان يتراوح بين ستة وسبعة ملايين نسمة . أما بوجو فقد قدره ، سنة 1845 ، بأربعة ملايين كانوا تحت « سلطتنا » . ولكن على الباحث أن يتذكر بأن أوسع المناطق وأكثرها سكاناً في ذلك الوقت كانت ما تزال خارجة عن سلطة الفرنسيين . على أن الاحصاءات المتأخرة (1852) تقدر عدد السكان بـ 2,500,000[127] .

ومهما كان عدد السكان فإنه قد احتوى على طبقة بورجوازية وطنية مكونة من الرسميين ، والعلماء ، والمالكين ، والتجار ، وزعماء الدين على جميع مستوياتهم (مفتيين، قضاة ، أئمة ، الخ) .

ان هذه الطبقة من النخبة التقليدية قد حكم عليها بالاختفاء نتيجة الاحتلال . وقد أشرنا من قبل الى مصير زعماء المقاومة الذين كانوا قد نفوا من بلادهم متهمين بالتآمر . ونفس المصير لقيه كل المثقفين الجزائريين ذوي الرأي والتأثير السياسي بما في ذلك مفتيان يعتبران أعلى سلطة في الشؤون الدينية والسياسية[128] . ان هذه السياسة قد جففت الجزائر من طبقتها الوسطى التي كان من الممكن أن تلعب دوراً حاسماً في الاحتفاظ بالكيان الوطني ، والقيم الثقافية ، والوجود السياسي للجزائر . بل حتى أولئك البورجوازيون الذين تخلفوا سهواً في بلادهم كانوا قد أرغموا اما على

---

(127) أشار الى هذه الاحصاءات عباس ، ص 50 ـ 51 . وقد علق المؤلف على هذا التقدير بأن حوالي نصف السكان كان اما نفي واما اختفى .

(128) للحصول على معلومات أكثر ، أنظر ايفير ، «ر.ا.» ، م 57 (1913) ، ص 129 ـ 131 ، عباس ، ص 83 ، وأوغسطين بيرك « البورجوازية الجزائرية » في « هيسبيريس » ، م 35 ، (1948) ، ص 15 ـ 19 ، ويسرد بيرك أيضاً احصاءات عن «هجرة» الجزائريين «الجماعية الى الشرق الأدنى».

العيش الضنك واما على الهجرة مؤخراً[129] .

والمدافعون عن الحكم الفرنسي يدعون بأنه لم يكن للجزائر طبقة بورجوازية ، قبل الاحتلال . فهم يستدلون على أن الجزائر كانت تشبه أوروبا في العصور الوسطى بلا سكان حضريين ولا طبقة وسطى ، ولا كيان ثقافي . ومن بين هؤلاء جورج مارسي الذي يؤكد بأن سكان الجزائر قبل الاحتلال كانوا « جهلة بكل أشكال حضارة المدن[130] . وهناك مدافع آخر يقول ، لم يكن للجزائر « سكان مدن ما عدا في مدينة تلمسان[131] » . وهناك من ينكر وجود البورجوازية الجزائرية قبل دخول الفرنسيين الى الجزائر ، ثم يعلن بأن ظهورها كان « ظاهرة خاصة بالعهد الفرنسي[132] » .

وقضية الطبقة الوسطى وجودا وعدما ، لها علاقة هامة بالحركة الوطنية فالمدافعون عن الحكم الفرنسي مثل أ . بيرنار ، أ . ف . غوتى ، ج . هـ . بوسكي وغيرهم معروفون بمغالاتهم في الدفاع عن الجزائر « الفرنسية » وبخدمتهم كمستشارين في الادارة الفرنسية . فلو اعترفوا بوجود بورجوازية جزائرية قبل الاحتلال ، لكان ذلك يعني اعترافهم « باختفاء » هذه الطبقة تحت الحكم الفرنسي الذي يعتبرونه فوق النقد[133] . كما يعني أيضاً أنه كان للجزائر شخصية وطيدة كأمة قبل الاحتلال . وهذه حقيقة ينكرها معظم الفرنسيين الرسميين وغير الرسميين .

وبالمقارنة الى رأي المدافعين عن الحكم الفرنسي في الجزائر ، فإن هناك رأياً آخر يصر على أنه كان للجزائر بورجوازية قوية عند الاحتلال مكونة من عناصر ثقافية

---

(129) يذكر بيرك بأنه «خلال خدمته التي استغرقت ربع قرن في الادارة الفرنسية بالجزائر ، قد وجد أن عائلات معروفة جداً ، ذات أسماء مشهورة في الجزائر خلال القرن التاسع عشر كانت في حالة «تعسة» جعلتها تطلب المساعدة المستعجلة . نفس المصدر ، ص 17 . وقد أخبر دي صاد ، الذي كان عضواً في اللجنة الأفريقية ، مجلس النواب بأن عشرة آلاف جزائري قد غادروا الجزائر العاصمة ، بما في ذلك ثلاثمائة عائلة رئيسية . أنظر تقريره في «م.و» (29 أبريل، 1834) .

(130) بيرك ، ص 7 .

(131) ا . ف . غوتي ، كما أشار الى ذلك بيرك .

(132) ج . هـ . بوسكي ، «النخبة الحاكمة في أفريقية الشمالية منذ الاحتلال الفرنسي » ، في «و.ا.»، م 3 (1953) ، ص 26 .

(133) كلمة « اختفاء » من استعمال بيرك ، « هيسبيريس » ، م 35 (1948) ، ص 17 .

وتجارية ، وسياسية . وهذا الرأي لم يكن مؤيداً من الوطنيين الجزائريين فحسب ، بل من بعض المؤرخين الفرنسيين أيضاً .

فقد كتب ب . ل . بوليو في كتابه « الجزائر وتونس »(1894) ، بأنه كان للجزائر حضارة متقدمة ، ومجتمع منتظم ، و« عاطفة ذاتية قوية بكيانها[134] » . أما أليكسيس دي توكفيل فقد صرح أمام المجلس الوطني الفرنسي سنة 1847 بأنه كان للجزائر حضارتها الخاصة ، رغم تخلفها . واعترف « بأننا قد جعلنا المجتمع الاسلامي (الجزائري) أكثر شقاء وأكثر بربرية مما كان عليه قبل وجودنا[135] » . وليس هناك حاجة لاعادة رأي حمدان خوجة ، و ج . ايفير ، أو أ . بيرك عن نفي ، واختفاء ، وسجن قوات الاحتلال للبورجوازية الجزائرية .

والثقافة الجزائرية عانت أيضاً نتيجة للاحتلال . فالمواسم الوطنية ، والتاريخ ، واللغة اما اختفت واما اضطهدت . وكانت المساجد قد حولت الى كنائس ، أو مستشفيات ، أو متاحف . كما أن المثقفين الجزائريين قد فقدوا تدريجياً الاتصال بماضيهم نتيجة لفقدان الكتب والمدارس بلغتهم . أما الفلاحون فقد تركوا للخرافات والجهل[136] . وقد كانت اللغة أكثر النظم الوطنية الجزائرية معاناة ، وبالتالي فإن التربية عموماً قد انضرت .

وهناك دلائل تدل على أن التعليم قد ازدهر في الجزائر قبل الإحتلال. فقد كتب الجنرال فالري سنة 1834 قائلا بأن « كل العرب (الجزائريين) تقريباً يعرفون القراءة والكتابة ، حيث هناك مدرستان في كل قرية » . وفي تقرير الى نابليون الثالث ، كتب الجنرال دوهوتبول سنة 1850 بأن « الدراسات الاسلامية كانت في وضع مزدهر نسبياً » عشية الاحتلال[137] . أما الأستاذ ايميري ، الذي درس طويلاً الحياة الجزائرية في القرن التاسع عشر ، فقد أشار إلى أنه كان في قسنطينة وحدها ، قبل الاحتلال ، خمسة وثلاثون مسجداً تستعمل كمراكز للتعليم ، كما كان هناك سبع

---

(134) أشار الى ذلك عباس ، ص 54.

(135) نفس المصدر ، ص 86 ـ 87 .

(136) باربور ، ص 83 ، 219 . أنظر أيضاً تقرير دي صاد في «م.و.» (29 أبريل ، 1834) .

(137) أشار الى ذلك فانسان مونتاي، «التعريب الثقافي في الجزائر» في «بروف» (جانفي، 1964)، ص 31 ـ 35.

مدارس ثانوية يحضرها ما بين ستمائة وتسعمائة طالب ، ويدرس فيها أساتذة محترمون لهم أجور عالية . أما بخصوص المدارس الابتدائية فقد كان هناك تسعون يحضرها 1350 تلميذاً[138] .

كان التعليم يعطى في المساجد التي كانت أمكنة للعبادة الى جانب اعتبارها مراكز للتربية والتعليم ، وفي الزوايا التي كانت عادة تحت سلطة الجمعيات الدينية ، وفي المدارس الثانوية ، ثم المدارس الابتدائية التي كان بعضها رسمياً وبعضها خاصاً . وقد كان التعليم حراً على جميع المستويات لأن الطلبة ، والأساتذة أيضاً ، كانوا يتقاضون مرتباتهم من الأوقاف .

ولكن الفرنسيين قد استولوا على هذه الأوقاف . وهكذا جرد التعليم الجزائري من أهم موارده . ان هذا الاستيلاء على الأملاك التعليمية والدينية قد حرك حتى أولئك الفرنسيين الذين كانوا يقفون من الجزائريين موقفاً معادياً ، مثل دي توكفيل الذي صرح : « لقد وضعنا أيدينا في كل مكان على هذه الأملاك » (الأوقاف) ثم وجهناها غير الوجهة التي كانت تستعمل فيها في الماضي ، لقد عطلنا المؤسسات الخيرية (وهكذا) تركنا المدارس تموت والندوات العلمية تندثر » . ثم حذر مواطنيه بأن « الأضواء » كانت تموت « لأن تجنيد أهل الدين والقانون قد توقف »[139] .

واختفاء المؤسسات التعليمية كان يعني اضطهاد اللغة الوطنية وهي العربية . فقد اعتبرها الفرنسيون لغة أجنبية وميتة : أجنبية لأن اللغة الفرنسية كانت قد أصبحت لغة الجزائر الرسمية منذ قرار الالحاق سنة 1834 ما دام هذا القرار في حد ذاته كان يعني أن الجزائر نفسها قد أصبحت فرنسية ، وميتة لا لأن مصيرها قد انتهى كمصير

(138) ايميري ، ص 235 . في 1850 كتب الجنرال بيدو في مذكراته بأنه كان في قسنطينة ، سنة 1837 ، تسعون مدرسة ابتدائية يحضرها من ألف وثلاثمائة الى ألف وأربعمائة تلميذ ، ولكن في سنة 1850 ، لم يكن فيها أكثر من ثلاثين مدرسة يحضرها ثلاثمائة وخمسون تلميذاً فقط . أما بخصوص التعليم العالي ، فقد أشار الى أن عدد الطلاب ، سنة 1837 ، كان من ستمائة الى سبعمائة ، ولكن ، سنة 1850 ، انخفض عددهم الى ستين طالباً فقط . أشار الى ذلك مونتاي ، « بروف » (جانفي ، 1964) ، ص 32 .

(139) أشار الى ذلك عباس ، ص 56 ـ 87 .

اللاتينية والاغريقية فقط ، ولكن أيضاً لأنها لن تكون قادرة على أن تصبح لغة حضارة[140] .

وعلى هذا الأساس أهمل الفرنسيون تعليم العربية للجزائريين واكتفوا باستعمالها لأغراض ادارية استعمارية فقط . فقد بدأوا أولاً بازالتها من المدارس الابتدائية والثانوية ، ثم ان تعليمها في الدراسات العليا لم يكن تثقيفاً ولكن فقط لتحضير بعض الاداريين والمترجمين لادارة الجزائريين قصد التعجيل بالاندماج . بل ان مواد التدريس وتجنيد المدرسين كانت تتوقف على اذن السلطات العسكرية . أما الأساتذة الذين عينهم الفرنسيون لتدريس العربية فقد كانوا يسمون « بأساتذة العربية الدارجة[141] » وعندما جاءت الجمهورية الثالثة التي كانت متحمسة لشعارات الاندماج ووصل الجزائر بفرنسا ، أصبحت العربية عقبة في نظر الفرنسيين كما أصبح معلموها أعداء . والقرار الذي صدر في 18 أكتوبر ، سنة 1892 قد أوجب الحصول على رخصة لفتح مدرسة عربية[142] .

ولكن العربية قد حافظت على وجودها من خلال ثلاث قنوات، الأولى هي المدارس القرآنية[143] ، والثانية الوعظ والارشاد في المساجد ، رغم أن هذا العمل كان مراقباً من السلطات الفرنسية حتى لا ينحرف الامام عن الخط الأخلاقي الى موضوعات سياسية ، أما الثالثة فهي خلق ثلاث مدارس ثانوية باللسانين سنة 1850 ، مع التركيز طبعاً على اللسان الفرنسي[144] . وقد قدر لهذه المدارس أن تخرج ، ولا سيما في أواخر القرن الماضي ، عدداً من الجزائريين المختصين في الصحافة والتعليم والترجمة ، (والذين سندرسهم حين نتحدث عن ظهور النخبة) . أما المدارس القرآنية والمساجد فلم تخرج عدداً كبيراً بالنسبة للقيادة ، ولكنها قد نجحت في الاحتفاظ بالعربية حية رغم تواضعها وتخلف مستواها.

---

(140) بوسكي ، « و. ا » ، م 3 (1954)، ص 23 ـ 24 .

(141) ج. ديبارمي ، «رد الفعل اللغوي في الجزائر» ، «س.ج.ا.» ، م 36 (1931). ص 19 .

(142) مونتاي ، « بروف » (جانفي ، 1964) ، ص 32 ـ 33 .

(143) حفظ القرآن من غير أي معرفة بالعلوم الأخرى .

(144) نفس المصدر .

ومن الممكن أن يتوقع الانسان بحق أن فرنسا بعد أن اضطهدت العربية ستعوضها بالفرنسية . غير أن ذلك لم يحدث أيضاً . (فالجزائوي) في العقل الفرنسي ، لم يكن له وجود . فهو لم يكن لا جزائرياً ولا فرنسياً ، ولكنه كان مجرد رعية محتلة . ولذلك فإن معاملته كانت تتماشى مع هذه الفكرة(145) . فالجزائري ، كان ينتمي الى « جنس غير قابل للتصحيح والتثقيف(146) » . ولهذا السبب أهمل الفرنسيون تعليم الجزائريين .

ونحن نجد المؤرخ الفرنسي روبير أرون يشير إلى كيفية الانفصال بين الجزائر وفرنسا كما يظهر في اللغة . فهو يعطي الاحصاءات المصدمة التالية سنة 1948 : من بين الجزائريين نجد 15٪ فقط من الرجال و 6٪ من النساء يستطيعون أن يتكلموا قليلاً من الفرنسية ، ونجد من بينهم 6٪ من الرجال و 2٪ من النساء يستطيعون أن يكتبوا بها(147) . فإذا أضاف الانسان هذه الصورة الكئيبة عن معرفة الجزائريين بالفرنسية الى الصورة الكئيبة الأخرى عن معرفتهم بلغتهم الخاصة ، فإنه يلاحظ الأعمال الحقيقية التي قام بها الفرنسيون في الجزائر ، ومساهمتهم في « تقدم » شعبها . ان المؤرخ للجزائر في القرن التاسع عشر لا يكاد يعثر على عالم جزائري حقيقي واحد ، لا بالعربية ولا بالفرنسية .

وشيئاً فشيئاً اكتشف الفرنسيون أهمية الجمعيات الدينية في الحياة الجزائرية ، ثم بدأوا يساومونها لكي يضغطوا عن طريقها بقبضتهم على الأهالي . فبعد سقوط الحكومة الجزائرية ، وطرد البورجوازية الوطنية ، لم يبق الا الجمعيات الدينية ، كسلطة جزائرية ذات نفوذ . وقد أشرنا من قبل الى دور هذه الجمعيات السياسي ، والعسكري ، والاجتماعي . ومما يذكر أن اكتشاف الفرنسيين لها كان له علاقة بثورة 1845 التي لعبت فيها تلك الجمعيات دوراً حاسماً .

وبعد هذه الثورة فتح الفرنسيون عهداً جديداً مع تلك المنظمات شبه السرية .

---

(145) بخصوص مسألة المواطنة ، أنظر سابقاً .

(146) أشار الى ذلك فافرو ، ص 54 .

(147) قدم المؤلف أيضاً بعض الاحصاءات بخصوص معرفة الكولون بالعربية ، وبناء عليه فقد كان هناك 20٪ من الرجال ، و 10٪ من النساء يستطيعون أن يتحدثوا قليلاً بالعربية ، ولكن لا يكتب بها قليلاً الا 1,7٪ من الرجال و 0,5٪ من النساء أنظر ص 297 .

استعملوا معها أولاً طريقة « فرق تسد » لكي يضعفوا ويمنعوا أي تحالف مستقبل بين الجمعيات . ودخلوا ثانياً مع بعضها في مفاوضات انتهت بإمضاء اتفاقات مشتركة أو تحالفات اعترفت فرنسا بعدها بالسلطة المالية والمعنوية لبعضها بينما وافقت الجمعية المعنية على السيادة الفرنسية وعلى المحافظة على النظام والأمن . وكان ذلك يعني منع اتباعها من الثورة ضد فرنسا[148] .

أما زعماء هذه الجمعيات فيسميهم بعض المؤرخين « النخبة التقليدية » كما يسميهم آخرون « النخبة القديمة[149] » . ومهما كان اللقب الذي يطلق عليهم فقد كان لهم سلطة قوية على أهل الريف ممثلة في عقيدة (المرابطية) التي كانت في العقود الأولى من الاحتلال تجمع بين النظم الدينية والآمال السياسية . فقد كان لكل جمعية زاوية هي مقر للمرابط ، ومركز للتعليم والصدقة ، ومكان للعبادة . أما عندما تقود احدى الجمعيات ثورة ما فإن زاويتها تصبح مجمع الجهاد وملتقى كلمة السر للثورة .

وقد كان دخول فرنسا في اتفاقات مع بعض هذه الجمعيات عامل تجريد لها من القوة السياسية . فلم يبق لها في الحقيقة سوى درجة بسيطة من التأثير الروحي ، ولم تعد تستمد قوتها الا من الغموض والخرافات المهولة . وهكذا فبدل أن يتولى زعماء الجمعيات الأخيرون القيادة الوطنية والسياسية كما فعل الأمير عبد القادر ، انغمسوا في المرابطية تاركين للفرنسيين يداً حرة في الجزائر ، مساعدين لهم ، في الحقيقة ، عن وعي أو عن غير وعي ، بتسلطهم الخرافي على عقلية الفلاحين .

ويتفق المعارضون والمؤيدون لوجود البورجوازية الجزائرية قبل الاحتلال على أنه قد أصبح للجزائر طبقة وسطى جديدة حوالي 1900 . والحق أن تاريخ ميلاد هذه الطبقة ليس مهما كثيراً . فبيرك ، الذي يصر على أنه كان للجزائر بورجوازية خاصة بها قبل الاحتلال ، يوضح بأن طبقة « جديدة » قد ظهرت في الجزائر منذ 1860 (أي بعد جيل من الحكم الفرنسي) . ويضيف بيرك بأن هذه الطبقة تعد واسطة بين اشراف السيف والجماهير . وبناء على رأيه فإن هذه الطبقة الجديدة كانت تتكون من الناجين النادرين من الطبقة الوسطى « القديمة » ، ومن النبلاء الذين أصبحوا تدريجياً

---

(148) بوسكي ، «و.ا.» ، م 3 (1954) ، ص 15 ـ 17 .
(149) نفس المصدر ، أنظر أيضاً أرون ، ص 181 .

بورجوازيين ، ومن أغنياء الفلاحين الجـزائريين الـذين هاجـروا الى أهم المدن ، وخصوصاً الجزائر العاصمة(150) . أما بوسكي الذي ينكر وجود بورجوازية جزائرية قبل الاحتلال فإنه يقول بأن هذه الطبقة من الجزائريين التي خلقها الفرنسيون كانت سيئة الحظ وتفتقر الى التنظيم ، كما كانت قليلة العدد(151) .

وكما أثارت مسألة اختفاء البورجوازية الجزائرية جدلاً بين الكتاب ، فكذلك مسألة ظهورها . فقد نوقشت هذه المسألة من خلال وجهتين متعارضتين تماماً هما : الاستعمار والوطنية . ويبدو من الواضح أن أولئك الذين ينسبون الى فرنسا « خلق » البورجوازية الجزائرية كانوا لا يـريدون تحميـل الفرنسيين مسؤوليـة اختفاء الـطبقة الوسطى الجزائرية عند الاحتلال .

ان هذا الادعاء مؤيد بحقيقة وهي : أنه لا يوجد ، من بين الذين يقولون بأن البورجوازية الجزائرية من مخلوقات فرنسـا من يذكـرالوسيلة التي تمت بهـا عملية الخلق : فهل كانت بالثقافة ؟ لقد رأينا النسبة المئوية من الجزائريين الذين يستطيعون قراءة الفرنسية عام 1948 ، دون أن نذكر شيئاً عن العربية . وهل كانت بالملكية ؟ اننا نعرف أن الاستعمار واغتصاب الأرض قد جعلا من المستحيل على الجزائريين أن يحتفظوا بأملاكهم ، وخصوصاً الأرض . وهل كانت بالانتخاب السياسي ؟ أننا نعرف أن الجزائر لم تملك حق التمثيل البرلماني الا سنة 1947 . وهل كانت بالحصول على الجنسية الفرنسية ؟ أننا نعرف أن القرار المعروف بالسـاناتـوس ـ كونسـولت لعام 1865 قد جعل الجزائريين رعـايا فـرنسيين وقد بقيت هـذه الصفة إلى إنتهـاء الحكم الفرنسي . ان هذه هي الأسئلة والأجوبة التي يجب مراعاتها إذا كان البـاحـث يريـد أن يدرس مشكلة البورجوازية الجزائرية .

وبنفس المقياس يجب أن ينظر الباحث الى تكوين النخبة الجزائرية التي يتصل موضوعها اتصالاً قريباً بمشكلة البورجوازية . فبإنتهاء القرن الماضي أصبح للجزائر عدد قليل جداً ، ولكن نشيط ، من المثقفين الذين كانوا « قد دلكوا دلكاً على محك »

(150) «هيسبيريس» ، 35 (1948) ، ص 18 ـ 19 .
(151) «و.ا.» ، 3(1954) ، ص 26 .

الثقافة الفرنسية[152] والذين قدر لهم أن يلعبوا دوراً حيوياً في تشكيل الحركة الوطنية الجزائرية بمفهوما الجديد . وبناء على ما يقوله أحد الباحثين فان النخبة الجديدة كانت قد تكونت في المدارس الثانوية (فرانكو ـ موزولمان) التي أنشئت بعد 1850 وغيرها من المعاهد الفرنسية التي منحت النخبة مدخلاً الى الثقافة الأوروبية .

ونتيجة لذلك تكونت جماعة من الجزائريين من بينهم المعلمون ، والمترجمون والصحفيون[153] . ولم يكن تكوين هذه الجماعة سهلاً لسببين : الأول أن التعليم كان يعطى بالفرنسية التي لم تكن اللغة الأساسية للثقافة بالنسبة للجزائريين ، والثاني وجود خلاف في البيئة الاجتماعية والنظرية بالنسبة للجزائريين والفرنسيين[154] . فبينما كان يستعمل المتعلم الفرنسي لغته كوسيلة ثقافة ، كان المتعلم الجزائري يستعمل الفرنسية للخبز فقط . وزيادة على ذلك ، فانه بينما كان يوجد تعاون وتنسيق في فرنسا بين المدارس ، والعائلات ، فانه كان في الجزائر انفصال تام بين ما يتعلمه الطفل في المدرسة وما يكسبه من البيئة العائلية[155] . وهكذا نلاحظ بأن التعاون بين المؤسستين (المدرسة والعائلة) كان مفقوداً بالنسبة الى الجزائريين .

كما أن الدور الوطني لكل من النخبة التقليدية والنخبة الجديدة جدير بالذكر . وبالرغم من وشك الاختفاء للنخبة التقليدية فانها لم تمت تماماً في الجزائر . فالقلة المتخلفة ، والمضطهدة والمشردة ، التي بقيت ، قد استمرت في مقاومة الحكم الفرنسي . ونجد من بين الشعراء الوطنيين ، بوثلجة ، الذي مات في معركة ضد الفرنسيين والذي كتب عنه الدوق دورليان سنة 1870 بأنه كان « جندياً فذاً . . مات

---

(152) نفس المصدر .

(153) علي مراد ، «تكوين الصحافة الاسلامية في الجزائر (1919 ـ 1939) ، في «ابـ .لـ .ا. .م 27 (1964) ، ص 13 . وأكثر أعضاء النخبة الجزائرية ذوي اللسانين قد اشتغلوا في تحرير « الأخبار » و«المبشر » ، وكلتاهما صحيفة فرنسية رسمية تنطق باللسانين . والهدف منهما هو تبليغ الجزائريين سياسة فرنسا الرسمية . من بين هذه النخبة ، الحفناوي ، شرشالي ، فخار ، بدوي ، وبريهمات ، وجميعهم اشتغلوا كمحررين في الجرائد .

(154) بوسكي ، «و.ا.» ، م 3 (1954) ، ص 23 ـ 24 .

(155) يشير بوسكي أيضاً الى أن من بين « المعرقلات » لتكوين النخبة هو نقص « الذوق الثقافي » بين أهل أفريقية الشمالية عموماً لأنهم « أجلاف » نفس المصدر ، ص 24 ـ 25 . ولكن رأي بوسكي لا يستند على أي برهان علمي ، وهو بلا شك قائم على « محاباة ثقافية » .

كما مات كورنر في يد فرنسي ، كلاهما ناضل من أجل بلاد كان يحلم بأن يراها عظيمة ، ولكن كلاهما قد تركها في تعاسة(156) » . وقد ناضلت النخبة التقليدية الجزائرية الفرنسيين بواسطة الأدب الشعبي ، والقصص الوطني والتعلق الغامض بالماضي ، ولكن قبل كل شيء ، بواسطة تحميس « الفخر الوطني(157) » .

أما النخبة الجديدة فقد بدأت دورها بالمطالبة بالحقوق للجزائريين بينما كانت تعبر عن ولائها لفرنسا . فلم تناد لا بالثورة ولا بالاستقلال . وقد بقي دورها الوطني الى نهاية القرن الماضي محدوداً . كما أن تكوينها كان « بطيئاً » و « مؤلماً(158) » . وكان أخذها لموقف وطني أيضاً بطيئاً الى درجة الألم .

6. مظاهر ومشاكل الحركة الوطنية :

بعد استسلام الأمير عبد القادر ، قال الجزائريون للجنرال لاموريسيير بأن « فرنسا ستمضي قدما ، ولكنها ستضطر ذات يوم الى التراجع ، وعندئذ سنعود(159) » . ان هذا الوعد قد تردد وبقي حياً في الذاكرة خلال تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية . فالفلاحون الثوريون والباقون من النخبة التقليدية والنخبة الجديدة ، كلهم رددوا تلك الجملة « سنعود » . فالجزائر في نظرهم لم تضع أبدا لمجرد الاحتلال العسكري ، ولم يكن « أسترجاعها » الا مسألة وقت .

ان كل التعريفات تدل على أن الأمة الجزائرية (أو الكيان الجزائري) كانت قائمة على أساس صحيح ومحدد عند الاعتداء الفرنسي ، فقد كانت لها حدودها الجغرافية الخاصة ، وحكومتها ، ورئيس دولتها ، وجيشها ، وعملتها ، وعلمها ، كما كانت لها علاقات ديبلوماسية مع فرنسا نفسها ومع انكلترا ، وأمريكا ، وأسبانيا ، وهولندا ، وغيرها من الدول ، وقد كان لهذه الأمة الجزائرية لغتها الخاصة ، ودينها ،

---

(156) أشار الى ذلك باربور ، ص 219 . لقد كان بوثلجة شاعراً شعبياً وفارساً مغواراً من أهل حجوط . أما كورنر فهو شاعر ألماني وقد مات في احدى المعارك ضد نابليون .

(157) ج . ديبارمي ، « زعماء الرأي في الجزائر » في «ا.ف.» (جانفي ، 1933) . ص 15 .

(158) بوسكي ، «و.ا.» م 3 (1954) ، ص 26 .

(159) أشار الى ذلك بول ـ ايميل ساراسين ، « الأزمة الجزائرية » (باريس : درسيرف ، 1949) . ص 61 .

وتاريخها المشترك ، وعاداتها ، وتقاليدها المشتركة ، وكان لها ، قبل كل شيء ، شعور وطني مشترك . غير أنها ، كجنوب أوروبا ، لم تكن واعية لخصائص وجودها كأمة الا بعد أن أيقظ الاعتداء الأجنبي ضميرها الوطني . فالاعتداء اذن ، كان عاملاً حاسماً في الحركة الوطنية الجزائرية لا لكونه قد « خلقها » ولكن لأنه « أيقظها » .

ولا شك أن هناك تعريفات مختلفة ومتضاربة للأمة والجنسية والقومية، فالعالم الاجتماعي البريطاني ف. هيرتز يعرف الأمة بأنها « جماعة تكونت بإرادة أن تكون أمة »[160] . وقد حاول الأستاذ هانز كوهن أن يعرف القومية تعريفاً موجزاً وصريحاً فقال : « ان القومية هي حالة عقلية يظهر فيها الولاء الأكبر للفرد نحو الدولة - الأمة »[161] .

ومن الممكن الآن تعريف الأمة الجزائرية بأنها، الجماعة التي تسكن القطر الجزائري والتي تشترك في الشعور، والتاريخ، والآمال ، والثقافة ، (اللغة ، الدين ، التقاليد) . أما الوطنية الجزائرية فهي الشعور الوطني المشترك الوفي للجزائري نحو أمته . وهذه « الحالة العقلية » ، كما يقول الأستاذ كوهن ، أو « إرادة أن تكون أمة » كما يقول الأستاذ هيرتز ، قد وجدت بين الجزائريين منذ قرون ، ولكن خطر الاحتلال فقط هو الذي صقلها ووضعها في محتواها التاريخي كقوة سياسية تصارع من أجل البقاء.

ان وجوه الشبه بين الحالة العقلية لبعض شعوب جنوب أوروبا قبل وبعد أخطار الثورة الفرنسية واضطهادات العثمانيين وبين الحالة العقلية للشعب الجزائري عند

---

(160) أشار الى ذلك لـ .لـ . سنايدر ، «العالم في القرن العشرين» (برانستون، نيوجيرزي : فان نوستراند ، 1955) ، ص 22 .

(161) «القومية معناها وتاريخها» (برانستون ، نيوجيرزي : فان نوستيراند ، 1955) ، ص 9 . يعطي الأستاد سنايدر تعريفاً طويلاً ومطاطاً للقومية حاول أن يتناول فيه كل مظاهر القومية ارضاء لجميع الأغراض . ونحن ننقل هذا التعريف نظراً لما يلقيه من ضوء على مختلف مظاهر القومية ، فقد قال سنايدر : « أن القومية هي حالة عقلية ، وشعورية ، أو عاطفية لجماعة من الناس يعيشون في منطقة جغرافية معينة الحدود ، ويتكلمون لغة مشتركة ، ويملكون أدباً يعبر عن آمال الأمة ، ويرتبطون بتقاليد مشتركة وعادات مشتركة ، ويقدسون أبطالهم الخاصين ، ولهم في بعض الأحيان ، دين مشترك » . أنظر سنايدر ، ص 23 .

الاحتلال، جديرة بالملاحظة . ففي الحالتين نجد أن القوات الوطنية قد انطلقت فقط عندما أصبح الخطر الخارجي محدقاً، ولكن بينما نجد في حالة أوروبا خلال 1800 ـ 1830 أن القوات الوطنية قد ربحت من توازن القوى الأوروبية ، نجد القوات الوطنية ، في حالة الجزائر ، معزولة تماماً عند الاحتلال الفرنسي ، كما نجد أن توازن القوى الأوروبية لم يلعب دوراً يذكر في صالح الحركة الوطنية ، كما كانت الحالة في أوروبا والشرق الأدنى[162].

وكان الكيان الجزائري قد لاحظه الجزائريون والفرنسيون على السواء خلال القرن الماضي. ويبدو أن خوجة كان أول جزائري لا يدافع عن الكيان الجزائري فحسب ، ولكن أيضاً يعرفه تعريفاً حديثاً . فهو عنده « عاطفة شهامة (لدى الجماعة الجزائرية) تحركت عندما أصبحت تشعر بالاستبداد من أمة أجنبية »[163] . كما أقام خوجة فكرة الكيان الجزائري في علاقته مع الكيان الفرنسي على الاختلاف في الدين ، واللغة ، والعادات والتقاليد ، فالكيان الجزائري ، بناء على رأيه له حق الوجود « حراً مستقلاً » بوسائل ديموقراطية (الانتخاب) تعتمد على الاسلام والليبرالية الغربية[164].

وقد ساعد خوجة على رأيه مثال القوميات اليونانية ، والبلجيكية ، والبولندية الذي أعطاه حججاً منطقية واضحة . ولما كان خوجة معاصراً لزعيم القومية الايطالية مازيني ، ورائد القومية البولندية ، آدم ميكيوفيتش ، اللذين كانا مثله في المنفى ، فإنه من الممكن اعتباره أباً للحركة الوطنية الجزائرية بمعناها الحديث.

حينما خاطب الأمير عبد القادر الجزائريين قائلاً : « انكم الآن تحت رحمة رومي ، يقاضيكم رومي ، ويدير شؤونكم رومي . . ان يوم يقظتكم قد حان ! هبوا جميعاً عند سماع صوتي ! »[165] كان في الحقيقة، يثير حماسهم ضد الأجنبي، لكي يوحدهم كأمة تحت زعامته ويطرد المعتدين الذين « أهانوا مساجدكم . . وأخذوا

---

(162) ان هذه حقيقة تاريخية يجب التركيز عليها ، لأنها تكاد تكون دائماً مهملة من المؤرخين .

(163) ايفير ، « ر. أ. » ، م 57 (1913) ، ص 128 .

(164) نفس المصدر ، ص 117 ـ 118 .

(165) « التايمز » (لندن) ، (من الأخبار) ، 19 مارس ، 1846 .

أراضيكم . . واشتروا أعراض نسائكم »[166] فالأمير حينئذ ، كان يحاول « إيقاظ » أمته وليس « خلقها » . غير أنه كان واعياً لضعفها ، ولذلك حاول أن يدعم عواطفها بالتركيز على الاسلام ، والأرض ، والحرية ، والشرف (مثلاً : المرأة)[167].

كان الأمير عبد القادر يختلف عن خوجة ، الذي آمن بفكرة القومية الحديثة بمعناها السياسي اللاديني . أما الأمير عبد القادر فقد كان تقليدياً في تفكيره . فالقومية في نظره تقوم على الدين ، والبطولة ، والاقتصاد ، والعاطفة ، وتتحقق عن طريق القوة العسكرية . وبالمقارنة ، نجد خوجة يؤمن بالوسائل السياسية ، مثل الحلول القائمة على المفاوضة لتحقيق برنامجه القومي . ورغم اختلافهما في الوسائل وفي التفكير ، فإن الزعيمين كانا وطنيين متطرفين في تناولهما للقومية ، وكلاهما مات في المنفى ، وكلاهما فشل في برنامجه القومي .

وقد لعب الأدب الشعبي دوراً حاسماً في المحافظة على روح وثقة الكيان الجزائري . ففي الأسواق العامة والمناسبات الاجتماعية ، والمقاهي الشعبية ، كان المداح يقص قصصه وأساطيره ، مثيراً للعواطف ، ومذكراً بالغزوات ، ومحولاً الهزيمة إلى نصر ، ومؤكداً لجمهوره أن إرادة اللّه ستبعث لهم ذات يوم منقذاً على أية حال .

وبالإضافة إلى الأدب الشعبي كان هناك ، خلف أبواب الجمعيات (الطرق) الدينية ، تراث غني من المعتقدات ، والعادات ، والأساطير . التي كانت تنتقل إلى المريدين خلال نظم سرية وقنوات غامضة . ورغم أن هذا التراث كان متخلفاً وخرافياً ، فإنه قد حافظ لا على روح المقاومة فقط ولكن أيضاً على روح البقاء الوطني . ان بعض المؤرخين الفرنسيين يسمي ظاهرة المحافظة على الذات الوطنية « غريزة البقاء » لدى الجزائريين[168] .

---

(166) نفس المصدر . انظر أيضاً تقرير دي صاد إلى المجلس النيابي في « م.و. » (29 أبريل ، 1834) .

(167) ج . ديبارمي ، « س.ج.ا. » ، م 37 (1932) ، ص 446 . بخصوص رد فعل الجزائري عن الإحتلال كما عبر عنه الأدب الشعبي ، انظر ص 444 ـ 456 ، انظر أيضاً جوليان ص 60 .

(168) « الجزائر » (باريس : 1883) ، كما أشار إليه باربور ، ص 217 . .

والحق أن المؤرخين والمثقفين الفرنسيين أنفسهم قد اعترفوا بوجود الكيان الجزائري . فالمؤرخ بول غافاريل قد قال بأن فرنسا كانت تحارب في الجزائر « أمة » مدفوعة بالدين والوطنية . فهو يقول : « ان الحرب قد أعلنت ضد أمة كاملة مدفوعة بعصبية ثنائية : الوطنية والدين[169] . ويقول المؤرخ ب. ل. بوليو ان فرنسا قد استحوذت ، عام 1830 ، على بلاد مرعية ومحمية ، ومسكونة بعدد كبير من المحاربين وبسكان لا يستسلمون . ان « السلالة » الجزائرية ، بناء على رأيه ، كانت قد نشأت هناك منذ قرون ، متمتعة بحضارة متقدمة ومجتمع منظم ، مع « عاطفة » واضحة « بشخصيتها »[170] .

أما الأستاذ م. ايميري ، فيشير الى أن أهم سبب في استمرار وعنف المقاومة الجزائرية هو التلاحم الجماعي الذي لم تكن فرنسا قادرة على فهمه وتجريده من حدته[171] . وفي 17 أوت 1862 كتب الدكتور فيتال ، الذي قضى حياته في الجزائر ، إلى صديقه اسماعيل عربان « بأننا قد ارتكبنا عملاً فاحشاً ، لا أخلاقياً ، لا مثيل له ، مدعين الرد على ضربة مروحة . لقد اغتصبتم جنسية وقطراً »[172] . أما الأستاذ جوليان ، بينما يعترف بأنه كان للجزائر مشاعر وطنية والتصاق بالأرض وحضارة ، فإنه يرى أنها لم تحول هذه الروافد إلى « ضمير وطني » إلاّ بعد الاحتلال[173] .

ولم يكن المؤرخون والمثقفون الفرنسيون هم وحدهم الذين أكدوا وجود الكيان الجزائري ، بل العسكريون ورجال الدولة أيضاً . وعبارة « القومية العربية » كانت

---

(169) « الجزائر وتونس » (باريس : 1894) ، كما أشار إليه عباس ، ص 54 .

(170) أشار إلى ذلك عباس ، ص 54 .

(171) أشار إلى ذلك هـ . برونشفيغ ، « تاريخ أفريقية الشمالية » ، في « ر.هـ. » جويليه - سبتمبر ، 1964 » ، ص 204 من أندري نوشي ، « مراسلات الدكتور أ . فيتال مع ا . عربان 1845 - 1874 (الجزائر : أيمبرت 1958) والدكتور فيتال كان جراحاً عسكرياً فرنسياً ، ولد في 1810 ، وقد مارس مِهْنَتَه في الجزائر من 1837 إلى وفاته سنة 1874 . تقابل أولاً مع عربان سنة 1837 ، عندما قدم الأخير إلى قسنطينة كمترجم إلى الدوق دومال . أصبحا صديقين وتراسلا معاً منذئذ .

(172) جوليان ، ص 19 - 20 ..

(173) أجرون ، « بروتف » (سبتمبر ، 1964) ، ص 44 - 50 .

غالباً ما استعملت من الفرنسيين بعد سنة 1834 بخصوص الجزائر ، فالسياسي الفرنسي تيير نفسه قد اعترف ، عام 1836 ، بأن الأمير عبد القادر كان الممثل البارز « للقومية العربية »[174] . والجنرال ديميشال ، الذي تفاوض ، عام 1834 ، مع الأمير عبد القادر على المعاهدة التي تحمل اسمه ، قد أوصى بإنشاء « حماية » فرنسية مع بقاء الجزائر تحت الأمير باعتباره الممثل الوحيد « للشرعية الجديدة » في الجزائر ، ونادى بإنشاء « دولة عربية » فيها[175] .

أما الدوق دورليان ، الذي كان يصف الوضع في الجزائر بعد إحدى المعارك ، فقد قال انه بالرغم من أن « الجيش العربي قد تشتت . . فإن الشعب قد بقي صامداً بفضل وحدته ، ومعنوياته ، ومهارته »[176] . ويعترف الجنرال دوفوفي ، عام 1842 ، بأن الأمير عبد القادر كان يحارب من أجل فكرة وهي التي كانت السبب في قوته ، لأن « الحرية » قد أعطته ثقتها[177] . حتى الجنرال بوجو ، الذي لم يخف نواياه في تحطيم الكيان الجزائري ، قال عندما كان يعد برنامج استعمار الأرض على نطاق واسع بأن « وجود هذه الأمة القوية المستعدة للحرب ، والمتفوقة ، من هذه الزاوية ، على الجماهير الأوروبية ، يضطرنا إلى أن نسلط عليها (الأمة الجزائرية) ونضع حولها أقوى سكان (أوروبا) » .

كما أن بعض الكتاب الانكليز قد اعترفوا بوجود الأمة الجزائرية . لقد أشرنا من قبل إلى رأي س. بانيستير الذي دافع عن حق هذه الأمة في حكم نفسها ، والذي دعا أوروبا إلى مساعدتها لتحكم نفسها[178] . وفي 1911 استنكر الأستاذ ادوار ج. براوني الحكم الفرنسي الاستعماري لنتائجه اللاأخلاقية . ثم تأسف على الجزائر التي « يقوم مجدها على صراعها من أجل الاستقلال ضد الفرنسيين (والتي) أنتجت بطلاً شهماً وفارساً مثل عبد القادر » . وقد أنهى الأستاذ براوني رسالته بتأسفه على أن

---

(174) نفس المصدر .

(175) أشار إلى ذلك باربور ، ص 216 .

(176) نفس المصدر .

(177) أشار إلى ذلك عباس ، ص 52 . بخصوص موقف نابليون الثالث ، أنظر سابقاً وكذلك بخصوص الوسام الذي أهدته فرنسا إلى الأمير عبد القادر .

(178) أنظر كتابه « نداء لصالح الجزائر وافريقية الشمالية بقلم إنكليزي » . (باريس : 1883) .

الجزائر اليوم (1911) هي « أكثر البلدان التي تثير الشفقة في العالم »[179] ، أما الكاتب الإنكليزي الحديث ، الأستاذ ن. باربور ، فقد لام الفرنسيين على تحطيم « كل رمز وطني » في الجزائر[180].

وباختصار فإن المثقفين والعسكريين الجزائريين والأوروبيين قد اعترفوا بأن الأمة الجزائرية كانت قد وجدت واستمرت ، وأنها قد قاومت الحكم الأجنبي خلال القرن التاسع عشر.

وبمقابلة الآراء السابقة ، نجد أن بعض المؤرخين والسياسيين الفرنسيين قد أنكروا وجود الأمة الجزائرية . فقد ادعوا بأن الجزائر لم تكن مستقلة ، ومتحدة ، وأنه لم يكن لها شخصية تاريخية قبل الاحتلال.

فالمؤرخ ج. سودرون يزعم بأن الجزائر ، عام 1830 ، لم تكن تشكل دولة ، فما بالك بأمة ، وأنه لم يكن لها حدود[181] . ونفس الزعم يردده ر. أرون ، الذي يقول بأن « الجزائر حين وصل الفرنسيون ، لم تكن قطراً مستقلاً »[182]. أما الكاتب بوسكي ، الذي كان معروفاً بآرائه الاستعمارية فقد قال بأنه كان للجزائريين ، عام 1830 ، وطن « لا يشكل تاريخياً واجتماعياً أي شيء » . وبالاضافة الى ذلك ، فإن بوسكي يدعي أن فرنسا قد « خلقت » الجزائر ، بل أنها هي التي قد صنعت اسمها : « الجزائر »[183] . وقد كتب الجنرال كاترو ، الذي كان الممثل الفرنسي في الجزائر

---

(179) « التايمز » (لندن) ، (5 أوت ، 1911) ، ص 3 من رسالة إلى المحرر .

(180) باربور ، ص 43 .

(181) « فرنسا في أفريقية الشمالية » ، كما نقله أرون ، ص 32 . إن هذا الإدعاء يناقض الحقيقة وهي أن فرنسا نفسها قد أقامت مع الدولة الجزائرية علاقات ديبلوماسية ، وتحاربت معها ، وأمضت معها إتفاقات ومعاهدات منذ القرن السادس عشر . أما بخصوص الحدود ، فإن نظرة سريعة إلى الخريطة قبل 1830 تكفي لبيان أن الجزائر تحت فرنسا قد حافظت على « نفس » الحدود من جميع الإتجاهات ما عدا من الجنوب ، حيث كانت الصحراء ، غير واضحة الحدود .

(182) أرون ، ص 31 .

(183) « و.ا. » م 3 (1954) ، ص 21 . « الجزائر » هي الكلمة العربية « لألجيريا » وبالفرنسية الجيري ، التي هي اسم محرف عن الأصل العربي . والجزائريون يطلقون كلمة « الجزائر » على البلاد كلها وعلى العاصمة أيضاً . ولكي يتقوا الخلط يضيفون كلمة «عاصمة» إلى كلمة «الجزائر» فتعني عندئذ « عاصمة الجزائر » ، ويستعمل الفرنسيون كلمة « ألجيري » للبلاد بينما يستعملون كلمة =

عام 1943 ، يقول بأنه لم يكن للجزائر « أبداً لا وحدة ولا شخصية سياسية »(184) . وبعد أن عاد الى الحكم ، أعلن الجنرال دي غول « بأنه منذ بداية العالم لم يكن في الجزائر لا وحدة ولا . . سيادة(185) . غير أن اعتراف دي غول أخيراً بوحدة وسيادة الجزائر يشكل في الحقيقة ، قبولـه لوجود وحدة وسيادة الجزائر كقوة لا تقهر.

ومن المظاهر الهامة للحركة الوطنية الجزائرية في القرن التاسع عشـر هو أن الجزائريين لم يقبلوا أبداً بالهزيمة . فالفرنسيون كانوا يعلمون أنهم قد «انتصروا» على الجـزائريين بقـوة السلاح وليس بعقـد اتفـاق ، أو استسـلام ارادي . وبينمـا كـان الجزائريون يعرفون بأنهم كـانوا منهـزمين ، فإنهم قـد استمروا في مقـاومتهم بكل الوسائل التي يملكونها ، وعلى جميع مستـويات مجتمعهم . فثـورات الفلاحين ، ونظم الجمعيات الدينية السرية ، والأدب الشعبي لم تكن الا بعض مظاهر المقاومة المتواصلة ضد حكم مفروض.

وقد لاحظ الفرنسيون أنفسهم هذه الروح الجزائرية المتطلعة للاستقلال . ففي عام 1864 كتب الدكتور فيتال قائلاً بأن كلمات مثل « الجنسية » و « الاسـلام » ، و « الجهاد » تقع على الجزائريين كما لو كانت « كلمات سحرية »(186)، وفي نبوءته المشهورة أعلن اسماعيل عربان سنة 1884 بأن الجزائريين كانوا « ينتظرون بثقة ساعة الثأر »(187) . وفي عام 1896 اعترف الكاتب جول سوران بأن « بنادقنا ومدافعنا في الجزائر هي التي تمنع ثورة جزائرية أكثر خطورة من ثورة الفلاحين الفرنسيين (الثورة الجاكرية) في القرون الوسطى »(188).

إن مؤرخ الجامعة الاسلامية قد يجد « جذور » هذه الحركة تعود الى الجزائر .

= « ألجي » للعاصمة فقط ، وهما كلمتان تعنيان نفس الشيء في العربية . فالإدعاء بأن فرنسا قد « صنعت » إسم الجزائر يبدو سوء تفسير .

(184) « في معركة البحر الأبيض المتوسط » ، 1940 ـ 1944 (باريس : جولليارد ، 1949) ، 435 .

(185) أشار إلى ذلك عباس ، 47 ـ 48 .

(186) نوشي ، 15 ـ 16 .

(187) أرون ، 50 .

(188) جول سوران ، « مستقبل أفريقية الشمالية » في « ر.ب. » م.ا. (1896) ، ص 318 .

فقبل أن يثمر الاتصال الثقافي بين الأوروبيين والعالم الاسلامي ، كان بعض الجزائريين قد سبقوا بتكوين أفكارهم عن الاصلاح والقومية ، والديموقراطية ، والاسلام في علاقته بالحضارة الحديثة . ومن الممكن أن يعتبر حمدان خوجة أول جزائري عربي مسلم آمن بالمفهوم الحديث للقومية ونادى بإقامة فكرة قومية للأمة العربية ـ الاسلامية . ذلك أن هذه الفكرة الأوروبية للقومية لم تظهر في العالمين العربي والاسلامي الا في آخر القرن التاسع عشر . وقد كان خوجة أيضاً أول عربي مسلم تطرده من بلاده دولة أوروبية من أجل قضية قومية(189) .

وعندما يقابل الباحث بين الأمير عبد القادر ومحمد علي ، والي مصر فإنه يجد أن الأول كان رائداً للجامعة الاسلامية والقومية العربية . فبينما كان محمد علي ، الذي أيدته فرنسا في الوقت الذي كانت تحارب فيه الأمير عبد القادر ، مغامراً ، كان الأمير بطلاً . وبينما كان محمد علي يخلق الاضطرابات الى دولة مسلمة شرعية (الدولة العثمانية) ، كان الأمير يحارب دولة أجنبية معتدية . وقد استغاث محمد علي بالمغامرين والأجانب لمساعدته ، أما الأمير فقد استغاث بالمسلمين وأعلن الجهاد . إن المقابلة بين الرجلين المتعاصرين في علاقتهما بالجامعة الاسلامية والقومية العربية مهمة ، كما أن موقف فرنسا من كلا الزعيمين كان مهماً .

وعلى المستوى الشعبي ، فإن الجزائريين قد تحمسوا الى فكرة الجامعة الاسلامية منذ الاحتلال . فأدبهم الشعبي مملوء بالعواطف الاسلامية والمناداة بالمساعدة والتضامن بين أعضاء العالم الاسلامي ، وغالباً ما انتظروا السلطان العثماني كمنقذ ، ولكن لما كانت الدولة العثمانية دائماً في حالة دفاع أو تراجع ، فلم

---

(189) يحمل كتاب خوجة « المرآة » نصاً من بنجامين كونستانت كفاتحة يقرأ هكذا : « اذا غلب حب النفس على الطغيان ، فليس يدري كيف يفعل بغنائم الطغاة » . فإذا افترضنا أن خوجة قد تبنى رأي كونستانت ، فإن النص المنقول يكشف عن تأثير الليبرالية الأوروبية على خوجة ، ذلك أن هذا الرأي كان جديداً تماماً في بيئة شرقية كبيئة الجزائر . وقد واصل خوجة حملته التنويرية في الشرق الأدنى حيث كتب بالعربية « إتحاف المنصفين والأدباء » الذي أهداه بالشعر إلى السلطان محمود الثاني والذي كان قد ترجم إلى التركية . أنظر أيفير ، « ر.أ. » م 47 (1913) ، ص 122 . ونحن نشعر بانه من المحتمل أن يكون قد ألف كتباً ومذكرات أخرى لأنه كان نشيطاً ومنتجاً . أنظر قائمة المصادر والمراجع الجديدة .

يكن في استطاعة الجزائريين أن يتوقعوا منها الكثير.

إن انتصار السلطان في حرب القرم (على الأقل كما فسره الجزائريون)، حيث حارب الجنود الجزائريون في الجيش الفرنسي، قد أعطى أملاً جديداً للجزائريين الذين كانوا ينتظرون المنقذ. وفي 1854 كتب محمد ابن اسماعيل الجزائري شعراً يشكر فيه الله على نصرة السلطان ويفخر بهذا الحدث الذي تحقق، بناء على رأي الشاعر، بالجهاد والتضامن بين المسلمين. وقد وصف الكاتب الفرنسي ج. ديبارمي، الذي تناول بتوسع الحركة الوطنية الجزائرية والشؤون الاسلامية، أفكار ابن اسماعيل بأنها تمثل «أصل» حركة الجامعة الاسلامية[190].

ونفس رد الفعل قد حدث بعد انتصار الباب العالي على اليونانيين في 1897. كذلك كان احتلال فرنسا لتونس مصدر سخط واثارة في الجزائر. وقد أشرنا من قبل الى أن الثوار الجزائريين، عام 1871، كانوا يتوقعون المساعدة من الباب العالي ومن التضامن الاسلامي. فالسلطان عبد الحميد الثاني قد نشر، بعد توليه الحكم، أفكار الجامعة الاسلامية التي أهاجت الجزائر[191]. وفي التسعينات من القرن الماضي بدأت في الجزائر موجة جديدة من المهاجرين الى الشرق الأدنى نتيجة عدم الرضى ولدعاية الجامعة الاسلامية[192] وهكذا، فإن الجزائر، في نهاية القرن التاسع عشر، كانت داخلياً أرضاً مائجة بالأحداث، كما كانت حقلاً للدعاية من أوروبا والشرق الأدنى.

ويعتقد بعض المؤرخين بأن المقاومة الجزائرية قد انتهت بعد ثورة 1871. فالكاتب الانكليزي باربور، الذي يعطف على الحركة الوطنية، يقول بأن الجزائر، من 1884 الى العشرينات من هذا القرن، كانت ساكنة نتيجة للتعب الجسمي

---

(190) «س.ج.أ.»، م 22 (1917)، ص 15. بخصوص شعر ابن إسماعيل، أنظر ص 10 - 14. كما أشار المؤلف إلى عمل كتبه محمد بن شنب، الذي ترجم هذا الشعر من العربية إلى الفرنسية في «حرب القرم والجزائريون» في «ر.أ.» (1907).

(191) ج. ديبارمي يقول بأن جمعيات سرية كانت تقوم بالدعاية إلى الجامعة الإسلامية في الجزائر منذ السبعينات من القرن الماضي، أنظر نفس المصدر، ص 18.

(192) دور المهاجرين الجزائريين في الشرق الأدنى سيخصص له قسم خاص. كما أن حركة الجامعة الإسلامية وعلاقتها بالحركة الوطنية الجزائرية ستدرس في قسم خاص.

والروحي[193] . أما أندري نوشي ، الذي يعطف أيضاً على الحركة الوطنية ، فإنه يتفق مع الرأي السابق ، ولكنه يعتقد أن الجزائر لم تنتج معارضة عسكرية للحكم الفرنسي بين 1871 ـ 1919 (باستثناء حوادث 1916) ، ثم يدعى أن الجزائر قد رضيت خلال هذا العهد ، بالحكم الفرنسي[194] .

ولكن العكس هو الصحيح . فالمقاومة الجزائرية لم تكن لا ساكنة ولا راضية بالحكم الفرنسي . فمن الوجهة العسكرية كانت هناك ثورة بوعمامة (1881 ـ 1904) التي كانت قوية الى درجة خلق جو من العنف وعدم الاستقرار . كما أن الصحافة والمسؤولين الفرنسيين قد دقوا ناقوس الخطر منذ التسعينات . فصحيفة « فيجي ألجيريان » (9 أبريل ، 1891) وصفت « الهيجان » بين الجزائريين الذي جاء نتيجة زيارة لجنة مجلس الشيوخ الفرنسي بقيادة جول فيري ، لتبحث المشاكل الجزائرية .

وفي نفس الوقت وصلت الى فرنسا تقارير منذرة بالخطر عن « الحالة العامة » لدى الجزائريين في المناطق الجبلية . ففي سنة 1892 كتب جول كامبون ، الحاكم العام للجزائر عندئذ قائلاً بأن : « الحكم الفرنسي قد أصبح مهدداً[195] . وبالاضافة الى ذلك ، فقد اغتنم الجزائريون فرصة وجود « لجنة جول فيري » بينهم (سنة 1892) وتقدموا اليها بمطالب قوية ، بما في ذلك تحوير نظام الضرائب ، واصلاح التمثيل النيابي ، واستعادة القضاء الاسلامي . وفوق ذلك كله ، كما قال فيري نفسه ، فإن الجزائريين قد طلبوا من الفرنسيين أن « دعونا وحدنا » [196] .

وبالاضافة الى لعبة توازن القوى ، وتشكيل تحالفات الجمعيات الدينية ، فإن فرنسا قد عقدت تحالفاً آخر مع طبقة اجتماعية جزائرية وهي العائلات الكبيرة . ويسمي المؤرخون هذه العائلات « أرستقراطية العصور الوسطى » ، والخيام الكبيرة أو النخبة التقليدية المتداعية[197] وعلى أية حال ، فإن فرنسا قد نجحت في كسب

---

(193) باربور ، ص 215 . (194) نوشي ، ص 29 .

(195) ـ أشار إلى ذلك أجرون ، « جول فيري والمشكل الجزائري في 1892 » في « ر.هـ.م.ك. » ، م 10 (أبريل ـ جوان ، 1963) ، ص 133 .

(196) نفس المصدر ، ص 134 .

(197) أرون ، ص 292 .

العائلات الكبيرة ، التي كانت مكونة من الأرستقراطية القديمة ، وقدماء المحاربين ، وأغنياء الملاكين . وقد ضمنت لهم تأييدها لسلطتهم على « رعاياهم » المحليين وعلى خصومهم ، في مقابل أن يعترفوا لها بحق الحضور وحمايتهم . وشيئاً فشيئاً أصبح التعاون بين فرنسا والأرستقراطية القديمة مربحاً للطرف الفرنسي فقط ، ولكن سلبياً بالنسبة للجزائريين.

وقد أرادت فرنسا في الأصل أن تستعمل هذه الطبقة الصغيرة كواسطة بينها وبين الجماهير الجزائرية . ولكن بعد عدة عقود أصبحت الطبقة الأرستقراطية المتداعية نفسها مُتَوقّفة تماماً على فرنسا معنوياً ومادياً بينها فقدت الصلة مع الجماهير. وقد منحت فرنسا الأرض وبعض الأملاك الأخرى إلى رؤساء العائلات الكبيرة، الذين أصبحوا نوعاً من « الكولون » الأهليين[198] لقد منحتهم ألقاباً مثل « القيـاد » و « الأغوات » و « الباشاغات » ، واستعملتهم كمرشدين ، وفي بعض الأحيان كمساعدين للاداريين الفرنسيين . وفي مقابل ذلك ، خدموا هم فرنسا باخلاص في الجيش والادارة ، بل خدموها كمضطهدين لمواطنيهم ، وجواسيس ، ومتعاونين ضد شعبهم نفسه . فالعلاقة بين فرنسا وبين العائلات الكبيرة أصبحت تدريجياً مضرة للحركة الوطنية (ولا سيما بعد 1900) التي كان عليها أن تقوم بحملة ضدهم باعتبارهم عراقيل في طريق التحرير.

من الممكن أن يتصور المرء بأن ، هذه الطبقة الجزائرية ، نظراً لعلاقتها بفرنسا ، كانت مثقفة ومتنورة ، ولكن الحالة لم تكن كذلك . فالعائلات الكبيرة ، كما سبقت الاشارة كانت تقليدية ، بل إن كثيراً منها كان جاهلاً تماماً بالمذاهب الفرنسية وبأفكاره هو الوطنية.

كتب المؤرخ الفرنسي غوتي ذات مرة : « إننا في الجزائر أردنا أن نغرب زاوية من الشرق[199] » . فإلى أي حد كان هذا الرأي صحيحاً في ضوء التاريخ الجزائري الحديث ؟ إذا كانت نية الفرنسيين كما وصفها غوتي ، فإن النتائج كانت عكسية تقريباً . إن التغريب ، فرضياً ، كان يجب أن يتحقق عن طريق تعليم تقدمي . ولكن

---

1) نفس المصدر ، من جان سيرفيي « غدا في الجزائر » ، (بلا تاريخ) .

1) أشار إلى ذلك عباس ، ص 22 .

فرنسا ، لسوء الحظ ، قد أهملت ، أو لم تبال الا قليلاً ، باصلاح حالة الجزائريين في هذا المجال . ورغم أن العائلات الكبيرة الأرستقراطية كانت ذات حظ قليل من التعليم فإن معظم الجزائريين الذين تمتعوا بفرص التربية والتعليم كانوا دائماً تقريباً من أعضاء هذه الطبقة . وفي أحوال نادرة شق شبان فقراء طريقهم الى التعليم رغم كثير من العقبات الاجتماعية والمالية .

إن هؤلاء المحظوظين الجزائريين الذين حصلوا على بعض التعليم الغربي قد قدر لهم أن يلعبوا دوراً هاماً في شؤون بلادهم . فبعضهم قد أصبح وطنياً صلباً ، وبعضهم أصبح مصلحاً معتدلاً ، ولكنهم كانوا جميعاً يؤمنون بتحسين أحوال مواطنيهم .

خلاصة

إلى فاتح القرن الحالي لم تستطع فرنسا أن تهدىء الجزائر لا سياسياً ولا معنوياً ولكنها قد نجحت ، على الجبهة العسكرية ، في السيطرة على الجزائريين الذين استمروا رغم هزيمتهم في اللجوء إلى السلاح ضدها كلما حانت الفرصة . فاستعمال القوة الذي نادى به بعض النظريين الفرنسيين باعتباره الوسيلة الوحيدة لكسب احترام الجزائريين ، والحاق الجزائر بفرنسا عام 1834 ، وسياسة التمييز ضد الجزائريين التي عبر عنها قانون الأهالي (كود دي لانديجينا) ، واغتصاب الأراضي واستعمارها ، كانت كلها ، بالاضافة إلى عوامل أخرى ، قد ساهمت في افشال سياسة التهدئة .

ورغم نداء وتحذير بعض الفرنسيين العاطفين على الجزائريين ، فإن فرنسا لم تحاول أبداً بجدية اصلاح حالة الجزائريين خلال القرن التاسع عشر ، وما دامت الجزائر كانت تعتبر جزءاً من فرنسا ، فإن فكرة الحكم الذاتي كانت غير واردة . أما تعليم الجزائريين بالفرنسية والعربية ، فقد كاد يكون مهملاً . ومن جهة أخرى فلم يكن للجزائريين الحق ، إلى سنة 1947 ، في التمثيل النيابي في المجلس الوطني الفرنسي . ولم تكن وسائل التعبير ، كالصحافة والأحزاب السياسية معروفة في الجزائر خلال القرن الماضي . ولكن فوق ذلك كله ، فإن الجزائريين قد اضطهدوا بقانون 1865 (ساناتوس كونسولت) الذي نص على أنهم لم يكونوا لا رعايا في

« الجزائر » ، ولا مواطنين فرنسيين في فرنسا ، « أم الوطن » . وكما سبقت الاشارة فإن هذا القرار الذي بقي إلى سنة 1947 ، قد جعل من الجزائريين « رعايا » ولكن في الجزائر ، التي كانت « فرنسية » .

إن رد الفعل الجزائري ضد طريقة التهدئة الفرنسية قد أخذ عدة أشكال واستعمل مختلف الوسائل حسب الظروف . فقد عبر عن نفسه في شكل معارضة سياسية ، ومقاومة عسكرية وتعبيرات شعبية غير مباشرة وأفكار رائدة للجامعة الاسلامية ، وهجرات إلى الخارج . وهناك شكل آخر لرد الفعل يتمثل في الاحتجاج للفرنسيين عن طريق العرائض ، التي كان يعدها عادة الأعيان وأهل الرأي في المجتمع الجزائري .

وغياب فكرة توازن القوى بين الدول الأوروبية في الجزائر ، أو أي أيديولوجيات متنافسة ، بالاضافة إلى الفكرة القائلة بأن الجزائر مقاطعة فرنسية ، وليست مستعمرة ، قد ساهمت كلها ، في عزل واضطهاد الحركة الوطنية خلال القرن التاسع عشر . وبافتتاح القرن الحالي أدى ظهور الجامعة الاسلامية كأيديولوجية ، وظهور ألمانيا كقوة منافسة لفرنسا في أفريقية الشمالية ، ونجاح الثورة البولشفية ، ونداء الديمقراطية الويلسونية ، إلى اعطاء الحركة الوطنية الجزائرية أبعاداً جديدة .

وهكذا ، فإن الجزائر في مطلع القرن الحالي كانت ما تزال في « هيجان دائم » . وقد تضاعفت هذه الحالة بعد الزخم الكبير الذي حدث نتيجة ظهور النخبة الجديدة ، ومناداة العلماء التقدميين بالاصلاح ، وظهور الصحافة الوطنية ، وتأثير حركة الجامعة الاسلامية ، وضغوط القومية في مناطق مختلفة من العالم ، وأخيراً امتداد النزاع الأوروبي إلى أفريقية الشمالية .

***



الزخم الكبير
1900 - 1914

1. وراء الستار الفرنسي :

لاحظنا من قبل أن قانون 19 ديسمبر ، 1900 قد أعطى للجزائر الحكم الذاتي . ونظراً لغموض عبارة « الحكم الذاتي » فأن معناها يحتاج الى بعض التوضيح . فهناك من الاداريين والكتاب الفرنسيين من يسمى الحكم الذاتي قانون « اللامركزية[1] » سياسياً . وهناك من يسمى ذلك بقانون « الشخصية المدنية » الجزائرية[2] . ويسمى بعض الجزائريين ذلك سلطة الكولون الحقيقية (دي فاكتو[3]) .

ومهما كان الاسم الذي يطلق على هذا القانون ، فانه يعني ، قبل كل شيء ، أن يداً حرة قد أعطيت الى الكولون لكي يديروا كل الشؤون المالية والاجتماعية والاقتصادية الخاصة بالجزائر . ان ذلك القانون قد أعطاهم قوة مراقبة الميزانية الجزائرية ، وشبكة الخطوط الحديدية ، والمواصلات ، والغاز ، والكهرباء . لقد أذن لهم أن يشرفوا على الأشغال العامة ويطوروا موارد البلاد تحت وفوق الأرض ، وهكذا ، فان الكولون قد حصلوا ، بذلك القانون ، على القوة التي شنوا من أجلها أكثر حملات الضغط السياسي حرارة منذ السبعينات من القرن الماضي .

وتناقض السياسة الفرنسية في هذا الوقت واضح . فبينما كانت الجمهورية

---

(1) هذه العبارة استعملها جونار، الذي شغل منصب الحاكم العام في الجزائر . أنظر أوغسطين بيرنار ، « أفريقية الشمالية خلال الحرب » (باريس : المطبوعات الجامعية الفرنسية ، بلا تاريخ) ، ص 19 .

(2) « ميزانية الجزائر الخاصة » في « أ. ف. » (جانفي ، 1901) ، ص 11 .

(3) عباس ، ص 105 .

الثالثة تحاول ادماج الجزائر في فرنسا ، كانت تمنح الجزائر شخصيتها المحلية أو الحكم الذاتي . وقد يظن البعض أن قانون 1900 قد أعطى الجزائر « الجزائرية » حق تقرير المصير حين خلع عليها الحكم الذاتي . ولكن الحالة ، لسوء الحظ ، لم تكن كذلك .

والحقيقة أن الجزائري ، كانت تحت الحكم الذاتي في حالة أسوأ مما كانت عليه سابقاً . ولذلك فان قانون 1900 كان انتصاراً للجزائر « الفرنسية » لأنه بالاضافة الى منح الكولون السلطة في الميزانية وفي الشؤون الاقتصادية والاجتماعية ، قد منحهم السلطة الكاملة على الأهالي أيضاً . فالمعنى الحقيقي لهذا القانون ، اذن ، يتوقف على نظرة الانسان اليه : فمن وجهة نظر الكولون ، كان انتصاراً كبيراً ، ولكن من وجهة نظر الجزائريين ، كان نكبة قاسية .

وكانت مشكلة التمثيل النيابي للجزائريين أكثر تعقيداً تحت الحكم الذاتي . وقد تناولنا من قبل هيكل البناء الاداري المحلي والوحدات التمثيلية النيابية . ودعنا الآن نتناول تكوين ووظيفة ومشاكل المجالس الجزائرية المحلية .

إن أصغر وحدة للتمثيل النيابي التقليدي هي الجماعة أو مجلس القرية . ولكن الفرنسيين قد ألغوا هذا النظام منذ سنة 1863[4] . أما في المجالس البلدية (أنشئت بقرار سنة 1884) ، ذات الصلاحيات الكاملة فقط ، فقد كان للجزائريين ممثلون معينون تعييناً على أن لا يتجاوز عددهم ربع جملة الأعضاء ، أما الباقون فقد كانوا فرنسيين .

أما على مستوى العمالات (المحافظات) فقد كان هناك ما يسمى بالمجالس العامة . وكان الحاكم العام هو الذي يعين ستة جزائريين في كل مجلس الى سنة 1908 . ومنذ هذا التاريخ أصبح هؤلاء الجزائريون ينتخبون انتخاباً بدل التعيين . أما في المجلس المالي ، الذي أنشىء نتيجة لقرار الحكم الذاتي ، فقد كان للجزائريين فيه سبعة وعشرون شخصاً ، بعضهم معين وبعضهم منتخب ، منهم سبعة عن كل عمالة (ثلاث عمالات) وستة من الجنوب الذي كان منطقة عسكرية . وقانون سنة

---

(4) أعادوه عام 1919 فقط بعد ضغط شديد من الوطنيين . أنظر قرار إعادة نظام الجماعة في كتاب بيرنار « أفريقية الشمالية » ، ص 103 ـ 106 .

1898 قد خلق أيضا المجلس الأعلى للحكومة الذي كان مكوناً من ستين عضوا ، من بينهم سبعة فقط جزائريون ، أما التمثيل النيابي على مستوى المجلس الوطني الفرنسي فلم يكن هناك من يمثل الجزائريين[5] .

وبالمقارنة ، نجد أن الكولون قد تمتعوا بنفس الحقوق التي كان يتمتع بها مواطنوهم في فرنسا نفسها . فقد كانوا ينتخبون الشيوخ والنواب الى المجلس الوطني الفرنسي ، كما كان لهم نظام (كوليج)انتخابي منفصل . كانوا ينتخبون رؤساء البلديات ، ويراقبون رؤساء العمالات ، ويعينون الممثلين في المجلس المالي وفي غيره من المجالس المحلية . وبواسطة هذا الدولاب كان الكولون يشرفون على ميزانية الجزائر ، ويؤثرون على صانعي السياسة الفرنسية في فرنسا ، وهكذا حققوا هدفهم باعتبارهم امتداداً لفرنسا عبر البحر الأبيض المتوسط .

ونتيجة لتلك الطريقة النيابية الملتوية بقي صوت الجزائريين غير مسموع الا في حالات نادرة . والجزائريون الذين كانوا يمثلون مواطنيهم فرضياً يسمون « ببني وي - وي » من طرف الأهالي . لقد كانوا عادة « يختارون بعناية » من جانب الادارة الفرنسية[6] . ولكن كان عليهم قبل اختيارهم ، أن يبرهنوا على « ولائهم » بالتعاون الطيع والتجسس على مواطنيهم أنفسهم ، والخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي عدة سنوات .

وقد كان نظام الانتخاب للجزائريين محدوداً جداً . فالمنتخبون (بالكسر) كانوا مكونين من بعض الاقطاعيين (أعطاهم الفرنسيون الأرض لولائهم لهم) ، ومن الموظفين المدنيين الذين لا تقل أعمارهم عن خمس وعشرين سنة والذين يقيمون في دوائرهم الانتخابية أكثر من سنتين متواصلتين . وبالاضافة الى ذلك ، فلم يكن الجزائريون يملكون حق المشاركة في انتخاب رؤساء البلديات أو مساعديهم .

أما غير المجالس البلدية ، مثل المجلس المالي ومجلس الحكومة الأعلى ،

---

(5) للحصول على دراسة عامة عن تاريخ التمثيل النيابّي للجزائريين أنظر ابن علي فخار ، « تمثيل المسلمين الجزائريين » في « ر.م.م. » ، م 7 (جانفي - أبريل ، 1909 ، ص 1 - 22 . و . ش . ر . اجرون « سياسة جزائرية ليبرالية تحت الجمهورية الثالثة» (1912 - 1919) . في « ر.هـ.م.ك. » م 6 (أبريل - جوان ، 1959) ، ص 121 - 151 ، خصوصاً ص 150 - 151 .

(6) أرون ، ص 53 .

فقد كان عدد الجزائريين فيهما محدوداً (سبعة وعشرون جزائرياً الى ثلاثة وثلاثين فرنسياً في المجلس الأول ، وسبعة جزائريين الى ثلاثة وخمسين فرنسياً في المجلس الثاني) كما كان تأثيرهم محدوداً (نظراً لكونهم معينين تعييناً أو مختارين بعناية)[7] ومن الممكن أن نقول أن الجزائر لم تعرف أبداً التمثيل النيابي الحقيقي . ومن الممكن أيضاً أن يفهم الباحث بسهولة لماذا وضعت الحركة الوطنية مشكلة التمثيل النيابي على رأس مطالبها منذ العقد الثمانين من القرن الماضي .

وبينما كانت وظيفة المجالس البلدية البحث في الشؤون المحلية، فإن وظيفة المجلس المالي ومجلس الحكومة الأعلى كانت البحث في شؤون الجزائر كلها . والمجلس المالي كان عبارة عن هيئة للمناقشة فقط . فالوفود التي تحضره كان لها حق مناقشة ميزانية الجزائر ولكن لا قوة لها في تشريعها . وينص القانون على أن الحاكم العام هو الذي يعد مشروع الميزانية ويتقدم به الى لجنة مختصة منبثقة عن المجلس المالي مكونة من أحد عشر شخصاً ، ثلاثة منهم فقط من الجزائريين المخلصين لفرنسا . وبعد أن يناقش المجلس المالي الميزانية ويصلَ الى اتفاق بشأنها ، يبعث بها الى مجلس الحكومة الأعلى . وللمجلس الأخير أيضاً حق مناقشة الميزانية ولكن لا حق له في أخذ أية مبادرة بشأنها . وأخيراً ترسل الميزانية الى باريس لاقرارها واعلانها ، بعد توصيات خاصة من وزير الداخلية .

فالحكم الذاتي المالي ، اذن ، قد أعطى للكولون سلطة كاملة للاشراف على المداخيل والمصاريف المتعلقة بالميزانية الجزائرية . وقد كان في استطاعتهم أن يستعملوها كما يشاؤون . ونظراً للتمثيل النيابي الذي كان لهم في المجلس الوطني بباريس ، فقد كان في استطاعتهم أيضاً أن يضغطوا بشدة أي يمنعوا أو يحصلوا على القوانين الخاصة بالجزائر . والحكم الذاتي المالي قد جعل منهم أيضاً سادة البلاد الحقيقيين ، لأنهم كانوا يؤثرون على الحاكم العام ، وعلى رؤساء العمالات ورؤساء البلديات بالاضافة الى التحكم في الجزائريين.

---

(7) بخصوص قضية التمثيل النيابي يجب أن يأخذ المرء في الإعتبار نسبة السكان في كل مجموعة ، كهذه النسبة التي كانت حوالي واحد إلى عشرة . أما بخصوص نظرة نقدية عن التمثيل النيابي فانظر فيليب ميللي ، « فرنسا ومشكلاتها الجزائرية » في « القرن التاسع عشر » ، م 73 (أبريل 1913) ، ص 729 ـ 740 .

والجزائريون ، الذين كانوا المصدر الرئيسي لدفع ضرائب ثقيلة ، كانوا دائماً يشكون من الكولون . فهم يقولون بأن هؤلاء ، بحكم اشرافهم على الميزانية ، قد أهملوا حاجات الأهالي الاقتصادية والاجتماعية ووجهوا المصاريف الى مشروعات لا تفيد الا أنفسهم . من ذلك شكوى الجزائريين من أنه « لا وجود للتدريب التقني ، وليس هناك الا مدارس مهنية قليلة ، ولا تعليم للعربية ، ولا قروض فلاحية ، ولا عناية صحية ، ولا مستشفيات لهم »(8).

لم تكن المصروفات فقط هي وحدها مصدر شكوى الجزائريين ، ولكن أيضاً الضرائب الثقيلة المفروضة عليهم . فبينما كان الكولون يدفعون كمية محددة من الضرائب الى الميزانية الجزائرية ، كان الجزائريون يدفعون أنواعاً مختلفة من الضرائب ، بعضها بناء على الشريعة الاسلامية « كالزكاة ، والعشور » وبعضها بناء على نظام الضرائب الفرنسي .

وبالاضافة الى ذلك فإن الجزائريين كانوا يدفعون أنواعاً أخرى من الضرائب التي فرضها عليهم قانون الأهالي . وكان ذلك يشمل الحراسة الليلية أو دفع كمية من النقود شهرياً في مقابل ذلك . كما كان على الجزائريين المقيمين قرب الغابات أن يقوموا بعمل السخرة في شكل حراسة ضد الحرائق وهذا نفسه كان في الحقيقة ضريبة اضافية . وكان عليهم أيضاً أن يدفعوا بعض النقود التي تعرف « بالضرائب الاضافية » حين يقودون قطعانهم عبر الغابات . وزيادة على ذلك ، فقد كان عليهم أن يدفعوا بعض النقود كمنحة ـ ضريبة الى الجزائريين المعينين من فرنسا وهم الذين لا يعرف تعفنهم حدوداً . وبسبب هذا الحمل الثقيل من المدفوعات التي يقدمها الأهالي الى المؤسسات الدينية ، والى الميزانية الفرنسية والى الرسميين الفاسدين ، فإن الوطنيين الجزائريين قد وضعوا قضية الضرائب ضمن مطالبهم المنادية بتصحيح الأوضاع(9).

وهناك شكوى أخرى دائمة ، ولكنها أكثر أهمية ، وهي تختص بقانون الأهالي البغيض(10) . فقد أصدر الفرنسيون هذا القانون بعد فشل ثورة 1871 ثم دعموه

(8) عباس ، ص 96 .

(9) للحصول على معلومات أكثر أنظر ميللي ، « القرن التاسع عشر » ، م 73 (1913) ، ص 733 .

(10) من الممكن تعريف هذا القانون ، باختصار ، بأنه مجموعة قرارات وإجراءات إستثنائية أصدرها الفرنسيون لقهر الشعب الجزائري وإبقائه تحت سلطتهم .

ووسعوا من صلاحياته بعد ثورة 1881 . والحق أن هذا القانون كان أقصى اجراء في الوقائع الاستعمارية يمكن لقوة مستعمرة أن تسنه للضغط على رعاياها ، ولكنه في الوقائع الانسانية يمكن اعتباره بقية من ظلام العصور الوسطى ومحاكم التفتيش . ولهذا السبب استنكره الفرنسيون أنفسهم باعتباره غير قانوني وغير إنساني[11].

وليس هناك من حاجة لتناول محتوى ، وتطبيق ، ومعارضة قانون الأهالي بالتفصيل . غير أن بعض المعلومات تبدو ضرورية لربط هذا المشكل بقضية الحركة الوطنية . استعمل الفرنسيون هذا القانون ضد الجزائريين الذين رفضوا الحراسة الليلية أو اجتمعوا بدون رخصة (حتى من أجل الحج والمناسبات الاجتماعية) ، أو تنقلوا داخل الجزائر من غير اذن ، أو تظاهروا ، أو تأخروا في دفع الضرائب ، أو أهانوا فرنسا .

وبناء على هذا القانون ، فإن الجزائريين كانوا مطالبين جماعياً بتحمل مسؤولية أية خسارة مادية أو شبوب حرائق في الغابات . فإذا ارتكب جزائري مخالفة بسيطة فإنه قد يغرم خمسة عشر فرنكاً ، أو يسجن خمسة أيام بأمر من المسؤول الفرنسي . أما اذا ارتكب مخالفة خطيرة فإنه يحال على محاكم خاصة تسمى « المحاكم الرادعة » ، أو محاكم الجرائم . وبالاضافة الى ذلك فإن الادارة الفرنسية لها الحق ، بأمر من الحاكم العام ، في أن تحتجز أو تطرد ، أو تسجن أي جزائري . ولعل نظام الاحتجاز الذي يسميه بعض الكتاب نظام « الرسائل المختومة » (ليتر دي كاشي) ، هو أسوأ هذه الاجراءات[12].

ورغم أنه قد جرى العمل بقانون الأهالي منذ السبعينات من القرن الماضي ، فإنه قد أحدث انقساماً بين الفرنسيين حين تجديده سنة 1912 . ففي هذا التاريخ وضعت الحكومة مشروعاً أمام المجلس الوطني الفرنسي ينص على مد قانون الأهالي سبع سنوات أخرى . وهنا عارض بعض الفرنسيين الليبراليين ، والمثقفين والانسانيين هذا الاقتراح ، بل كل قانون الأهالي ، لعدم شرعيته .

---

(11) أنظر فافرو ، ص 96 . أنظر أيضاً رسالة الكاتب الإنكليزي براوني في « التايمز » (لندن) (أوت 1911) ، ص 3 .

(12) أنظر ميللي ، « القرن التاسع عشر » ، م 73 (1913) ، ص 733 - 734 . ونظام العمل بالإعتقال =

وقد اقترحت هذه العناصر التقدمية بدلاً من ذلك حلاً ليبرالياً قائماً على الغاء السلطة الخاصة الممنوحة للاداريين الفرنسيين في البلديات المختلطة، وعلى مراعاة النهضة الاسلامية في معالجة المشاكل الجزائرية ، وعلى تحقيق الاندماج عن طريق برنامج يقوم على حسن التفاهم . وقد أنذر أولئك الفرنسيون حكومتهم بأن فرنسا قد تواجه « دعاية انفصالية » في الجزائر إذا لم تلغ قانون الأهالي[13] . ولكن العناصر اليمينية ، مؤيدة من الكولون فازت في النهاية حين جدد القانون ، كما اقترحت الحكومة ، رغم مقاومة الحركة الوطنية الجزائرية .

وفي زحمة عدم الاستقرار في الجزائر والمناقشات الحامية في المجلس الوطني الفرنسي حول شرعية المحاكم الرادعة والحكمة من وراء الاندماج ، زار الجزائر رئيس الجمهورية الفرنسية م. لوبي ، زيارة نادرة اعتاد رجال الدولة الفرنسية أن يقوموا بمثلها عند الحاجة . فقد كان لوبي أول رئيس دولة يزور هذه البلاد منذ نابوليون الثالث . وكان هدفه هو أن يدرس ويرى بنفسه معاينة آثار سياسة الاندماج والالحاق التي كانت تمارسها الجمهورية الثالثة في الجزائر.

وقد دامت رحلة لوبي من 15 إلى 26 أبريل ، سنة 1903 ، زار خلالها الجزائر من أقصاها إلى أقصاها . وقبل رحلته بعدة أيام (10 أبريل) اتصل باستقالة الحاكم العام م . فوارول ، احتجاجاً على الاتهامات التي وجهت ضده من جانب المجلس الوطني على سياسته الاضطهادية في الجزائر . كما ترك الرئيس الفرنسي المجلس في مناقشة حادة عن معاملة الجزائر كمستعمرة أو كأقليم ، وعن أفضل طريقة لمعالجة عدم الاستقرار الجزائري ، ولاسيما بعد ثورة عين التركي ، سنة 1901 ، والاجراءات الرادعة التي صدرت أثرها .

وقد أوضح لوبي في خطبه الى الجزائريين والفرنسيين بأنه كان شخصياً في صالح معاملة الجزائر كمستعمرة مع تركها تحتفظ بتقاليدها الخاصة ، ودينها ،

= السري (ليتر دي كاشي) في فرنسا ألغته الثورة الفرنسية . أنظر أيضاً فافرو ، ص 46 ـ 47 .
أما المحاكم الرادعة فقد أنشئت سنة 1902 نتيجة لثورة عين التركي سنة 1901 .

(13) ش . ديبينس ، « نظام قانون الأهالي الجزائري » في « ر.ب.ب. » 72 ، (1912) ، ص 311 ، ويؤيد ديبينس برنامج الليبراليين الذي كان يرأسهم روزي . ، وللحصول على نظرة معارضة أنظر ي . لارشي ، « نظام قانون الأهالي الجزائري » ، في نفس المصدر ، ص 456 ـ 470 .

وقوانينها ، وشخصيتها . ثم قال مخاطباً الجزائريين ومشيراً الى مشاركتهم في كل الحروب الفرنسية في أوروبا ، وأفريقيا ، وآسيا : « إن دماءكم . . قد سالت على ميدان معاركنا مع دماء الجنود الفرنسيين ، في جميع حروبنا بالقارة الأوروبية . . في الهند الصينية وفي مدغشقر » ، مؤكداً لهم بأن فرنسا ستتركهم أحراراً يبقون على حضارتهم الخاصة (معارضة منه لفكرة الاندماج) ، ومعلناً أيضاً لهم بأن فرنسا « تضمن لكم ممارسة جميع الحريات التي هي عزيزة عليكم » بما في ذلك الابقاء على « تقاليدكم القديمة »[14].

وهكذا ، أيد لوبي بعض آمال الجزائريين الذين كانوا يريدون أن يحتفظوا بشخصيتهم في وجه الاندماج . والحق أن لوبي قد نادى أيضاً بسياسة الجزائر « الجزائرية » التي كان يؤيدها فريق صغير في المجلس الوطني الفرنسي .

ونتيجة لضغط الحركة الوطنية وعلامات عدم الاستقرار المنذرة ، بدأ الرأي العام الفرنسي يظهر القلق بخصوص الحالة في الجزائر . وبالاضافة الى ذلك ، كانت هناك عناصر خارجية من بينها ضغط الجامعة الاسلامية ، وظهور النشاط الألماني في الشرق الأدنى والمغرب الأقصى ، والحرب العثمانية ـ الايطالية ، والاضطرابات في تونس ، زيادة على النقد الخارجي للسياسة الفرنسية في الجزائر . كل هذه العوامل كان لها وقع على الحركة الوطنية وكانت نتيجتها يقظة الرأي العام الفرنسي على خطر حركة « انفصالية » تهدف الى استعادة أرضها الأصلية وتنادي بالحكم الذاتي السياسي[15].

---

(14) أنظر نص خطبة الرئيس الفرنسي في « الرئيس والأهالي » في « أ . ف . » ، (ماي 1903) ، ص 159 .

(15) عبر عن هذا الرأي الإقتصادي الفرنسي شارل جيد ، في « ريفيوبلو » (1913) ، كما أشار إلى ذلك أجرون في « سياسة جزائرية ليبرالية » في « ر.هـ.م.ك. » ، م 6 (1959) ، ص 127 . أما الرأي المتعلق بخطر مواجهة « دعاية إنفصالية » فقد عبر عنه ش . ديبينس في « ر.ب.ب. » م 57 (1912) ، ص 311 . أجرون ، جوليان ، وغيرهما من المؤرخين الفرنسيين المهتمين بالحركة الوطنية الجزائرية يهملون عادة وقع العوامل الخارجية على الرأي العام الفرنسي في المناداة بالإصلاح في الجزائر . كما اعتادوا أن يقللوا من ضغط الحركة الوطنية الجزائرية على هذا الرأي العام . ويبدو أنهم يحاولون بذلك أن يبرهنوا على أن المناداة بالإصلاح في الجزائر كانت قضية تتعلق بالضمير الفرنسي وحده ، ولم تكن نتيجة لضغط الحركة الوطنية أو العوامل الخارجية . ولكن الفرنسيين =

ووسط هذه الانذارات والضغوط والنقد ، بدأت جماعة صغيرة من ذوي الرأي في فرنسا حملة للاصلاح في الجزائر . وقد قاد هذه الحملة بعض النواب والصحفيين المستقلين ، والمثقفين والناشرين . ولكن هدف هذه الحملة لم يكن اعطاء الحرية للجزائر ، بل اسكات النقد والدعاية الخارجية وتهدئة عواطف الوطنيين ، والاحتفاظ بالوجود الفرنسي قوياً في الجزائر . وخلال الحملة اقترح أحد الكتاب الفرنسيين ، سنة 1913 ، خلق كومنويلث فرنسي أو « مجموعة من الأمم » ، تضم فرنسا ومستعمراتها لمنع ظهور حركات انفصالية[16] .

وفي نفس السنة كونت جماعة من الفرنسيين العاطفين على قضية الجزائر ـ مثقفين ، وناشرين ، ونواب ، واسلاميين ـ « الاتحاد الفرنسي ـ الأهلي » الذي كان يرأسه شارل جيد . وقد ضم هذا الاتحاد أشخاصاً مثل ، جوريس ، روزي ، ميسمي ، أ . فيري ، وليغ . وفي نفس الوقت تكونت في المجلس الوطني جماعة تضم خمسة عشر نائباً لدراسة المشكل الجزائري[17] . وفي سنة 1913 اقترح السيد جيد المذكور خلق « أمة جزائرية » مكونة من المجموعتين ، الجزائرية والفرنسية ، كما اقترح توسيع القاعدة الانتخابية والتجنيس بين الجزائريين . وقد أنذر جيد مواطنيه بأنه ، اذا لم يدخلوا اصلاحات هامة، فقد يأتي يوم تصبح فيه « السلالة المقهورة » قادرة على استرجاع أرضها الوطنية واعلان الحكم الذاتي السياسي[18] .

وخلال ذلك شنت جريدة « لوطان » ، ولا سيما محررها فيليب ميللي ، حملة لتنوير الرأي العام الفرنسي عن المشكل الجزائري[19] ، وقد اقترح ميللي اصلاحات

= تاريخياً لم يقوموا بإصلاحات في الجزائر إلا لكي يردوا على عوامل وطنية أو خارجية .

(16) كان هذا رأي الكاتب الفرنسي سان بول ، الذي لعب دوراً هاماً مع حركة « الفتيان الجزائريين » ، أشار إلى ذلك أجرون في « سياسة جزائرية ليبرالية » في « ر.هـ.م.ك. » ، م 6 (1959) ص 128 .

(17) نفس المصدر ، أما بخصوص حركة العاطفين على الجزائريين فانظر شارل أندري جوليان في كتابه « أفريقية الشمالية الزاحفة » (باريس : جوليارد ، 1952) ، ص 208 .

(18) أنظر أجرون « سياسة جزائرية ليبرالية » في « ر.هـ.م.ك. » ، م 6 (1959) ، ص 127 .

(19) في سنة 1913 شكا ميللي من أن الرأي العام الفرنسي كان غير واع للمشكل الجزائري ، بينما كان واعياً لمشكلة المغرب ، بفضل الأزمة العالمية التي صحبت هذه الأخيرة. أنظر « القرن التاسع عشر » م 73 (ـ 1913) ، ص 735 .

تقوم على المساواة بين الجزائريين والفرنسيين في الضرائب ، والغاء نظام الاحتجاز ، ووقف المحاكم الرادعة ، وتوسيع قاعدة الجزائريين الانتخابية وزيادة عدد الجزائريين في المجالس واعطائهم حق انتخاب رؤساء البلديات في البلديات ذات الصلاحيات الكاملة . ولكن ميللي لم يكن في ذلك الوقت في صالح تمثيل الجزائريين في المجلس الوطني الفرنسي[20].

من بين الهجومات المرة ضد النظام الفرنسي في الجزائر ما كتبه المؤرخ والعالم الاجتماعي البريطاني ، الأستاذ براوني . فقد هاجم طريقة « البعثة الحضارية » الفرنسية في « التسرب السلمي » في الجزائر عن طريق الكحول وغيره من الوسائل اللاأخلاقية ، التي ترتكب باسم الحضارة والتقدم . وقد قال براوني بأن هذه السياسة تذكره بأن عصر الايمان « لم يغير الا شكله فقط » . وبناء على رأي براوني ، فإن كل من يقدر « ملامح الشرف والرجولة ، والاستقلال » التي يتميز بها الجزائري ، سيشمئز عندما يراه الآن « . . قد أصبح في حالة دنيا ، مجرداً من المطامح الشرعية ومن الأهداف المثالية ، جاهلاً ، لامبالياً ، ممتعضاً بصفة عامة . . وكثيراً ما لا يجد الملجأ الا في الخمر التي منحته إياها الحضارة كعزاء على حريته واستقلاله الضائعين »[21] . وتجدر الملاحظة الى أن الفرنسيين لم يبدأوا في الدعوة الى الاصلاح في الجزائر الا بعد مثل هذا النقد من الخارج .

وفي هذه الفترة (1900 ـ 1914) كان الكتاب الفرنسيون يتحدثون عن التقدم المادي للجزائر ، وعن مضاعفة حجم التجارة الخارجية ، وعن الثروة الفائضة ، وسيل رأس المال في الجزائر . ولكن القضية ليست ما اذا كانت هناك ثروة ، وتقدم مادي ، ودخل عال ، ورأس مال ، ولكن قضية من يشرف على هذه الوسائل ومن يستفيد منها . فليس هناك من ينكر أن الكولون هم الذين كانوا يشرفون على كل وسائل الانتاج ، ورأس المال ، والتجارة الخارجية والداخلية . كما كانوا يشرفون

---

(20) نفس المصدر ، ص 738 ـ 739 . هذه النقط تكاد تكون متوافقة مع مطالب الجزائريين سنة 1912 ، كحد أدنى لبرنامج الإصلاح . وقد اعترف ميللي بأنه بمقارنة بريطانيا مع مصر فإن فرنسا قد أهملت الإصلاح في الجزائر . ص 735 .

(21) أنظر رسالته إلى « التايمز » (لندن) ، (5 أوت ، 1911) ص 3

على الميزانية لأنهم كانوا يملكون أغلبية الأصوات في المجالس المحلية[22].

وقد عارض الكولون كل تغيير قد ينتج عنه اصلاح ما . فقد وقفوا ضد تعليم الجزائريين ، والغاء الضرائب الخاصة بهم ، وانهاء قانون الأهالي ، وتوزيع الأرباح والمصاريف ، وتجنيس النخبة الجزائرية . ورفضوا السماح للجزائريين في المجالس البلدية أن يشاركوا في انتخاب رؤساء هذه المجالس[23] وبالاضافة الى ذلك فإنهم كانوا ينادون باجراءات اضطهادية أخرى للابقاء على الحالة الراهنة وضمان الهدوء في الجزائر.

وبينما كان الكولون يتمتعون بعهد من الرخاء ، كان الجزائريون ينحدرون الى حالة الطبقة الثالثة . ففي 1893 نظم الفرنسيون لهم برنامج صدقة يعرف باسمه الحقير « جمعيات الأهالي الخيرية » وتنص المادة الأولى منه على أن البرنامج « سيساعد ، مساعدة مؤقتة ، عمال الفلاحة الجزائريين ، وفقراء المزارعين » ، الذين عجزوا بسبب المرض أو العطب ، وسمح ، بقروض سنوية عيناً أو نقداً ، « للفلاحين الجزائريين أو الخماسين أن يبقوا ويطوروا فلاحتهم ، ويصلحوا آلاتهم وقطعانهم[24].

وبناء على قول ميللي ، فإن عام 1910 قد شهد 208 من هذه الجمعيات الخيرية التي بلغت عضويتها حوالي 580,540[25] . وليس هناك من شك في أن هذا البرنامج قد قدم بعض المساعدة المؤقتة ، لاسيما في أوقات المجاعات والأزمات الطبيعية ، ولكنه كان قليلاً جداً بالمقارنة الى البرنامج الذي جلب الرخاء الى الكولون . واسم البرنامج كان يكفي لاشعار الجزائريين بأنهم كانوا ينتمون الى الطبقة الثالثة . وبالاضافة الى ذلك ، فإن المراقبة المالية والادارية لهذا البرنامج كانت في يد الفرنسيين أنفسهم.

وهكذا فإنه بحلول سنة 1914 ، حقق الحكم الذاتي في الشؤون الاقتصادية

---

(22) بخصوص وضع الجزائريين أثناء ما يسمى بعهد الرخاء ، أنظر ميللي « القرن التاسع عشر » 73 (1913) ، ص 732 .

(23) أنظر جوليان « أفريقية الشمالية الزاحفة » ص 107 .

(24) نوشي ، ص 38 .

(25) « القرن التاسع عشر » ، م 73 (1913) ، ص 732 .

والاجتماعية للكولون هدفهم . فالموارد الطبيعية الجزائرية كانت قد طورت واستغلت ، والتقدم المادي قد دعم ، والرخاء الاقتصادي أصبح واضحاً ، أما الحكومة الفرنسية ، بالرغم من معارضة الجزائريين وانذارات الجماعة الفرنسية الصغيرة العاطفة عليهم ، فقد حققت رغبات الكولون بتشريع المحاكم الرادعة وتوسيع مجال قانون الأهالي ، وصرفت الهيجان الوطني على أنه « مجرد تعصب » وزادت قبضتها ضغطاً على الجزائر ، ولا سيما في وجه الأزمة المغربية وتهديد الحرب الأوروبية .

وفي سنة 1910 قرر المجلس الوطني الفرنسي نقل الجنود الجزائريين في الجيش الفرنسي الى أوروبا ، بينما تقرر أن يحل محلهم ما كان يعرف بالجنود السود[26] . وبين عام 1906 و 1912 جرت مناقشة طويلة عن صلاحية فرض التجنيد الاجباري على الجزائريين . وخلال سنة 1912 أصبح قانون التجنيد الاجباري سارياً على الجزائريين خرقاً لاتفاق سنة 1830 ، ورغم معارضة الوطنيين العنيفة . وهكذا فإن عهد الرخاء بالنسبة الى الكولون ، كان عهداً من الهيجان وعدم الاستقرار بالنسبة الى الجزائريين ، ولكنه كان أيضاً عهد ميلاد حركة « الجزائر الفتاة » .

2. ميلاد حركة « الجزائر الفتاة » :

إن الفكرة الشائعة هي أن الحركة الوطنية الجزائرية حديثة العهد . فالكتّاب الذين تناولوا هذا الموضوع يعودون بها عادة الى الثلاثينات فقط من هذا القرن . ذلك أنه خلال هذا الوقت ظهرت الأحزاب السياسية بأهداف واضحة ومحددة ، بما فيها هدف الاستقلال . غير أن بعض الكتاب يعودون بالحركة الوطنية الى الفترة التالية للحرب العالمية الأولى ، وخصوصاً ابتداء من سنة 1926 ، حين أنشئت منظمة « نجم أفريقية الشمالية » ، أو من سنة 1922 ، حين قاد الأمير خالد معركة قوية ضد فرنسا[27] . وليس هناك الا قليل من الكتاب الذين يعودون بالحركة الوطنية الى سنة

(26) « التايمز » لندن ، (22 فيفري ، 1910) ، ص 5 .

(27) هذا هو موقف أرون ، نوشي ، جوليان ، باربور ، فافرو ، وغيرهم ، من الذين قد أشرنا إلى بعض =

1912 حين قدم وفد جزائري بعض المطالب الى الحكومة الفرنسية.

غير أن هذا التناول لأصول الحركة الوطنية الجزائرية مضلل من الوجهة التاريخية، ذلك أن أصحابه ينظرون الى أصول هذه الحركة من خلال وجود الأحزاب السياسية التي أصبحت قوية تستطيع أن تعمل علانية ببرنامج محدد. ولكن تاريخ القومية لا يتفق مع هذا التناول. فنحن نعرف أن معظم الحركات القومية للشعوب المضطهدة، سواء في أوروبا أو في غيرها، قد وجدت أولاً في أشكال أخرى غير الأحزاب المنظمة. فقد ظهرت أولاً كجمعيات سرية وتمردات، وصحافة، وانتعاش أدبي، ونشاطات اجتماعية كالنوادي، ثم بدأت تتحدى مضطهديها بطرق مختلفة، بما في ذلك الأحزاب السياسية.

وقد كانت حركة الجزائر نموذجاً لذلك. فالحركة الوطنية هنا، كما أشرنا سابقاً، كانت تحت اضطهاد شديد من جميع النواحي. ولكي يصل الجزائريون الى مستوى العمل الظاهري (كحزب سياسي)، كان عليهم أن يمروا بمراحل أخرى مثل العمل السري، والتعاون، واقناع الفرنسيين بولائهم المطلق[28] والمناداة بنشر التعليم بين الجماهير كوسيلة لإيقاظها، والدعوة الى احياء التاريخ الوطني، واستعمال الصحافة والنوادي الثقافية لخلق وتعضيد الضمير الوطني.

أعمالهم. أما الكاتب هـ. اسنارد فيدعي بأن الحركة الوطنية الجزائرية لم تبدأ الا قبل الحرب العالمية الثانية بسنوات قليلة. فما حدث في العشرينات من نشاط وطني لم يكن، بناء على رأي اسنارد، سوى «عرض»، أنظر مقاله «في أصول الوطنية الجزائرية» في «أنال» (التقاويم)، م 4 (أكتوبر-ديسمبر، 1959)، ص 463-474.

(28) ان الفرنسيين لم يكونوا غافلين عن طريقة «التقية» الجزائرية. ففي سنة 1913 كتب أحد إختصاصيبهم عن الحركة الوطنية كتاباً اتهم فيه الوطنيين الجزائريين بعداوة فرنسا، وبالتخطيط لرمي الفرنسيين في البحر، وبالطموح، وبالعمل بالتقية، (مثلاً اظهار الإخلاص لفرنسا وإضمار الوطنية). أنظر الشريف بن حبيلس في كتابه «الجزائر الفرنسية كما يراها جزائري» (الجزائر: أورنتال، 1914، ص 125، من كتاب أندري سيرفي «القومية الإسلامية في مصر، وتونس، والجزائر»، (قسنطينة، بويت، 1913). كان سيرفي محرراً لجريدة «ديبيش دي كونستانتين» الواسعة الإنتشار وكان خبيراً بالمشاكل الجزائرية الداخلية، وخلال سنة واحدة أعيد طبع كتابه ثلاث مرات، وهي ظاهرة قد تكون فذة في الجزائر.

وفي نفس الوقت فإن ذلك التناول لأصول الحركة الوطنية الجزائرية مضلل . فأصحابه يتجاهلون عن قصد أو بلا قصد ، تاريخ الجزائر عامة وتاريخ حركتها الوطنية خاصة . فالقول بأن هذه الحركة تعود فقط الى بعض السنوات السابقة للحرب العالمية الثانية أو الى العشرينات ، يعني غض النظر عما رأيناه منها خلال القرن الماضي . لذلك ، فإنه من سوء الحظ أن هؤلاء الكتاب لا يعتبرون كل تلك الحركات العسكرية ، والسياسية ، والعاطفية حتى « أعراضاً » لهذه الحركه .

ومن حق المرء أن يسأل عن معنى الجزائر الفتاة وعن تاريخ ميلادها . وبالمقارنة الى الجزائر القديمة ، فإن الجزائر الفتاة تعني الحركة الوطنية التي كانت تهدف الى تحرير البلاد بطرق شرعية سياسية ، مستعملة ، في أغلب الأحيان ، وسائل غربية . وقد كانت هذه الطريقة تختلف عن طريقة الجزائر القديمة ، التي حاولت ، مع بعض الاستثناءات ، أن تطرد الفرنسيين بوسائل عسكرية وأن تقضي على وجودهم بالأدب الشعبي ، وغموض الجمعيات الدينية ، والدعوة الى الجامعة الاسلامية والى الهجرة.

فالجزائر الفتاة إذن ، أرادت أن تتخلص من الحكم الفرنسي بطرق جديدة . لقد اقتنعت بأن اللجوء الى الثورات غير المنظمة كان بلا فائدة . وفرنسا في أعين رواد هذه الحركة ، رغم أنها لم تكن قادرة على تهدئة الجزائر ، كانت ، بحكم قواتها العسكرية ، وتعاون الكولون ، وطرقها غير الرحيمة في القضاء على الثورات ، واستثماراتها الاقتصادية ، واصرارها على التسلل الى أفريقيا عن طريق الجزائر ـ قوية الى درجة أنها تستطيع أن تحطم أية حركة وطنية تستعمل نفس الطريقة القديمة.

واللجوء الى المناورات الجديدة تبرره عدة أسباب . أولاً ، فشل الثورات السابقة الذي أظهر ضعف الحركة الوطنية . ثانياً ، الاجراءات التعسفية التي استعملتها فرنسا لوقف الثورات الوطنية . ثالثاً ، ظهور النخبة التي أعطت محتوى جديداً للحركة الوطنية وحتمت تغييراً في المناورات . رابعاً ، ظهور ايديولوجيات جديدة على المسرح العالمي ، مثل الجامعة الاسلامية في الشرق الأدنى ، والاشتراكية في أوروبا ، وتنافس الدول الكبرى (الأمبريالية) . كل هذه التيارات كان لها أصداء قوية في الجزائر ، وقد أقنعت الوطنيين بضرورة سلوك طريقة جديدة للتحرير.

معظم المؤرخين يتفقون على أن ميلاد أية حركة هو عملية طويلة ، وفي بعض الأحيان مؤلمة ، قبل أن يستطيع الناس رؤيتها وتقديرها . وحركة الجزائر الفتاة لم تكن استثناء . وقد يلاحظ المرء بأنه لو لم تطرد فرنسا النخبة الجزائرية في الثلاثينات من القرن الماضي لجنبت الحركة الوطنية الألم والعذاب غير الضروريين اللذين يصحبان عادة عملية الميلاد . فقد كان من الممكن ، لو لم يقع ذلك الطرد ، أن يتزعم حزب المقاومة القيادة وأن يمنح « الاستمرار » للحركة الوطنية . ولكن التعطيل خلق « فراغاً » بين الجزائر القديمة والجزائر الجديدة.

وقد لاحظ كثير من الكتاب المعاصرين في أواخر القرن التاسع عشر « أعراض » ميلاد الجزائر الفتاة . فالمؤرخ الفرنسي لوروي - بوليو كتب سنة 1882 عدة مقالات عن المشكل الجزائري طالب فيها بلاده أن تسلك سياسة ليبرالية في الجزائر ، بمنح « الفتيان العرب » حق التمثيل النيابي في المجلس الوطني الفرنسي ، كما نادى بانهاء الاستعمار فيها والغاء قانون الأهالي . وبناء على رأيه ، فان هؤلاء الجزائريين ذوي الثقافة الغربية لا يمكن معاملتهم كرعايا أو مطالبتهم بالتخلي عن دينهم من أجل التمتع بكامل الحقوق السياسية . وقد ختم لوروي - بوليو رأيه بانذار فرنسا بأنها اذا لم ترض هؤلاء « الفتيان العرب » باصلاحات « ضرورية » فانها قد تخلق لنفسها ايرلندا في الجزائر[29].

كما لاحظ جول فيزي ، رجل الدولة الفرنسي المعروف ، الذي قاد لجنة مجلس الشيوخ سنة 1892 لبحث الوضع في الجزائر ، أعراض الجزائر الفتاة ، التي كانت ما تزال في طور التكوين . وبعد أن اتصلت اللجنة بعرائض و «مطالب» من كل طبقات المجتمع الجزائري ، لاحظ فيري بأن التعبير الشائع بين الجزائريين عندئذ هو « اتركونا وحدنا »[30] وقد وصف فيري وصفاً حياً الاستقبال الحماسي الذي خص به الأعيان الجزائريون و « حزب الشباب » المثقفين ثقافة غربية ، اللجنة المذكورة[31] .

---

(29) بول لوري - بوليو ، « إستعمار الجزائر ، أوروبياً وأهلياً » في « ر.د.م. » ، م 53 (1882) ، ص 791 - 792 .

(30) أجرون « جول فيري والمشكل الجزائري في 1892 » في « ر.هـ.م.ك. » ، م 10 (ابريل - جوان ، 1963) ، ص 134 .

(31) نفس المصدر ، ص 130

وبناء على فيري ، فإن أعضاء اللجنة كانوا قد استقبلوا بحفاوة كبيرة كما لو كـانوا مبعوثين من العناية الالهية[32]» .

وفي تقرير الى الحكومة سنة 1899 ، لاحظ الجنرال لارشي نفس الروح . فهو يعتقد أن الجزائريين كانوا مستعدين بشكل واضح للنشاط السياسي . ويضيف قائلاً بأن : « المؤامرات والاضطرابات التي جرت في الجزائر ، قد جعلت العرب يتشاورون فيما بينهم ، أكثر من أي وقت مضى ، للقيام بنشاط سياسي ، انهم الآن مستعدون للتآمر[33] . وهناك ملاحظ فرنسي آخر ، وهو هـ . مارشاند، كتب سنة 1912 قائلاً بأنه إذا نظر الانسان بدون محاباة الى الوضع الجزائري ، فإنه يجد أن « الجزائر الفتاة » قد ولدت فعلاً ولكن مارشاند لم يكن مهتمـاً بتاريـخ ميلاد هـذه الحركة ، غير أنه من الواضح من سياق كلامه أنه كان يتحدث عن الجزائر الفتـاة كحقيقة واضحة وليست كحركة في مرحلة أعراض الميلاد . فهو يؤكد بأن « هنـاك قومية أهلية في طريق التكوين يشهدها الفرنسيون » . وبناء على رأيـه ، فإن هـذه القومية كانت تلعب ، بخبرة فائقة ، ولكن « بسرية » و « غموض » دوراً واعياً وكانت تطالب بجزء كبير من « الوجود السياسي » لتسيير مقادير الجزائر »[34] » .

وبعد سنة واحدة لاحظ كاتبان فرنسيان ميلاد الجزائر الفتاة ، التي لم تعد في هذا الوقت « فتاة » فقط ولكن وطنية أيضاً . وقد أشرنا من قبل الى كتاب سيرفي الذي أكد فيه وجـود الحركـة الوطنيـة الجزائـرية التي أرادت حسب رأيـه ، أن تستعمل المؤامرات ، والتقية ، والجامعة الاسلامية لالقاء الفرنسيين في البحـر . وفي نفس الـوقت قال ميللي ، الـذي انتقد السيـاسـة الفـرنسيـة في الجـزائـر واقتـرح بعض

---

(32) نفس المصدر ، ص 129 .

(33) أشـار إلى ذلك ا . لافيرير ، الذي كان عندئذ حاكماً عاماً للجزائر ، خلال مناقشته في المجلس الوطني الفرنسي . أنظر « الجزائـر » في « أ.ف. » « جويليه ، 1899) ، ص 212 . وفي سنة 1933 ذكر كاتب فرنسي بأنه خلال أزمة فاشودا كان الجزائريون « متحمسين » ومنتظرين « بفـارغ صبر » مساعـدة البريـطانيين على « تحريـرهم » . أنظر ر . ميغـو في « م.ف. » (15 أكتوبـر ، 1933) ، ص 439 .

(34) أنظر هـ . مارشاند « هجرة الجزائريين المسلمين الجماعية » في «ك.د.ك.» م 33 (16 جانفي ، 1912) ، ص.88 .

الاصلاحات ، بأنه كان في الجزائر « سخط سري » قد ينتشر في أي وقت ويصبح خطراً مهدداً[35].

وبينما لجأت الجزائر القديمة غالباً الى الثورات[36] ، استعملت الجزائر الفتاة طريقة العرائض ، والوفود ، والاضرابات ، وصخب الشوارع . إن هذا التكتيك الجديد للضغط ، مع بعض الثورات المتجددة ، قد جعل الجزائر تبدو باستمرار في حالة غليان وعدم استقرار ، وهي حالة قد ميزت في الواقع كل تاريخ هذه البلاد منذ الاحتلال الفرنسي .

3. الغليان الدائم :

شكا الكاتب البريطاني وورثام سنة 1922 ، من أنه لا وجود لبلاد اسلامية يعتبر الانكليز أنفسهم « أنهم أسوأ من يعلم عنها كالجزائر» . وقال بأنه ، ما دامت الجزائر تكتيكياً ، جزءاً من فرنسا ، فإن الفرنسيين قد أوضحوا بأنه « لا حق لنا أن نحلم برؤية شعور وطني ضد الفرنسيين في مقاطعة قسنطينة (مثلًا) أكثر من رؤية ذلك الشعور في مقاطعة سين ـ أي ـ أواز »[37] . فإذا كان الانكليز هم « أسوأ من يعلم » ، فمن يكون اذن أحسن علماً بالجزائر بعد الفرنسيين؟ .

وفي الحقيقة ، أن قول وورثام يعبر عن مظهر واحد فقط من مأساة الجزائر التي بدأت سنة 1834 حين اعتبرها قانون الالحاق الاعتباطي « جـزءاً » (مثلًا : ليست مستعمرة) من فرنسا . فقد نعتت الحركة الوطنية الجزائرية بالعصبية ونعتت زعماءها

(35) ميللي « القرن التاسع عشر » ، م 73 (ابريل ، 1913) ، ص 739 .

(36) اعترف ايميري بأنه ، بينما كان للكولون كل وسائل التعبير ، كالصحافة ، والعرائض ، والمنشورات بل والتمثيل النيابي ، والمظاهرات ، لم يكن للجزائريين شيء من ذلك . ذلك أن مطالبهم قلما وصلت إلى السلطات الفرنسية . والوسيلة الوحيدة التي تركت للجزائريين هي الثورة . أنظر « الحالة الروحية لمسلمي الجزائر *من 1847 ـ 70* » في « ر. هـ.م.ك. » أ (أبريل ـ جوان 1960) ، 103 .

(37) هـ . أ . وورثام « فرنسا والاسلام » في « ليفين ايدج » م 313 (27 ماي ، 1922) ، ص 518 .

بقطاع الطرق المجرمين . أما حين ظهرت ايديولوجيات عالمية أخرى ، فإن الزعماء الوطنيين قد وصفوا بالشيوعيين ، والمتعصبين ، حسب ما تقتضيه الظروف ، ولكن نادراً ما وصفوا بالوطنيين.

أما الأجانب فقد كانوا يعتبرون أشخاصاً غير مرغوب فيهم ، أو لا يزودون الا بالأخبار التي تسمح بها الادارة الفرنسية . وكان عليهم أن لا يكتبوا عن الوطنية ولكن عما حققته فرنسا من سلام ورخاء في الجزائر ، ألم تكن الجزائر « جـزءاً متكملاً » لفرنسا ؟ فوورثام لم يكن في الواقع الا واحداً من الأجانب القليلين الذين حكموا على أساس عوامل أخلاقية بدل أن يقبلوا وضعاً فرض على الجزائر بالقوة.

حقاً ، ان الحقبة التي ندرسها هي أكثر الفترات غموضاً في الوقائع الجزائرية . وأهم العوامل التي ساهمت في غموض هذه الفترة هي قانون الأهالي ، والمحاكم الرادعة ، وعدم وجود ثورة شعبية عنيفة وطويلة المدى ، وظاهرة الإستعمار العالمي ، وتصميم فرنسا على مد حكمها إلى تونس والمغرب الذي كان يعني ، قبل كل شيء تدعيم قوتها في الجزائر كقاعدة لا في أفريقية الشمالية فقط ، ولكن في أجزاء أخرى من أفريقية والبحر الأبيض المتوسط أيضاً .

وعلى أية حال ، فإنه من الممكن أن لا يعتبر المرء الثورات العسكرية العلامات الوحيدة لعدم الإستقرار في بلاد ما . ففي خلال الفترة المدروسة بدأت الجزائر تطبق مناورات جديدة ، بالإضافة إلى الثورات العسكرية . وهذه المناورات قد اشتملت على تقديم العرائض ، وإرسال الوفود إلى باريس والنشاط الصحفي ، والإضرابات ، والمظاهرات . وجميعها أشكال لم تكن معروفة ، على العموم ، في الجزائر . وهذه المناورات الجديدة ، بالإضافة إلى بعض التمردات العسكرية ، قد نتجت عنها حالة عدم استقرار دائمة . ومن مظاهر ذلك ثورة عين التركي سنة 1901 التي تكاد تكون مجهولة[38] . فتحت تأثير يعقوب م . بن الحاج ، ثار سكان قرية عين التركي ضد الفرنسيين ، وأعلنوا الجهاد ، وذهبوا للإنضمام إلى بوعمامة ، الذي كان ما يزال في حالة ثورة . وقد أسر الثوار أولاً قائد المنطقة وبدأوا حملة إرهاب ضد الفرنسيين في

(38) تعرف في بعض الأحيان بثورة مارغريت أو ثورة مليانة ، وهي مدينة تبعد بسبعين ميلاً عن الجزائر .

الناحية . وبسرعة انضم اليهم قرويون آخرون واتجهوا نحو مليانة ، مهاجمين الفرنسيين في طريقهم . ولكن هؤلاء استطاعوا أن يقضوا على الثورة في النهاية بعد نجدة قوية .

وتحديد أسباب هذه الثورة كان محل نزاع . فبعضهم يلوم التعاسة والحالة الإقتصادية الضنكة التي كان يعيشها الجزائريون . ولكن هذا الإدعاء ينفيه ما عرف عن منطقة الثورة من أنها كانت قد استعمرت منذ وقت طويل ، وأنها كانت فرضاً في حالة « رخاء » . ومن جهة أخرى فإن المنطقة المذكورة كانت « هادئة » أيضاً ، وهي حقيقة يقر بها الفرنسيون أنفسهم (39) .

غيرَ أن آخرين يلومون التعصب والجامعة الاسلامية . فهم يشيرون الى أن ابن الحاج ، زعيم الثورة ، كان مرابطاً متعصباً ، وأن الثوار قد أنقذوا حياة الفرنسيين الذين قبلوا بالإسلام ، وأن السلطات الفرنسية قد ألقت القبض ، أثناء الثورة ، على بعض الأفراد الذين جاءوا من بغداد ، والمغرب الأقصى ، وغيرهما(40) .

ولم تكن الحالة الاقتصادية ، والتعصب ، والجامعة الاسلامية فقط هي محل اللوم على الثورة ، ولكن المخبرين الانكليز وغيرهم أيضاً . ففي سنة 1901 تقدم بعض النواب في المجلس الوطني الفرنسي بلائحة يتهمون فيها المخبرين والمبشرين الانكليز في الجزائر بإعداد الثورة وذلك بنشر الحقد ضد الحكم الفرنسي وتوزيع السلاح على الجزائريين لاستعماله ضد الفرنسيين ، وقد طلبت اللائحة من الحكومة الفرنسية أن تطرد أولئك المخبرين والمبشرين الانكليز من الجزائر في الحال(41) . بل

---

(39) بيرنار « حوادث مارغريت » في « ك.د.ك. » 11 (1901) ، ص 617 ـ 618 .

(40) نفس المصدر ، ص 617 ـ 619 . «ويؤكد أسقف كنيسة الجزائر في ذلك الوقت بأن التعصب هو السبب الرئيسي والأول لهذه الثورة » . أشير إلى ذلك في « قضية مارغريت » في « أ.ف. » (جوان ، 1901) ، ش 200 .

(41) أنظر المناقشة في المجلس الوطني الفرنسي كما أشارت إليها « التايمز » (لندن) ، (25 ماي ، 1901) ، ص 7 . أنظر أيضاً بيرنار « حوادث مارغريت » في « ك.د.ك. » م 11 (1901) ص 619 . أنظر أيضاً ر . دي كي « نظام الجزائر » في (أ.ف.) (جويليه في 1901) ، ص 218 .

أن آخرين قد لاموا العاطفين على العرب ، والمسؤولين الفرنسيين ، وغيرهم ، على الثورة[42].

وهذه الاتهامات كانت شائعة بخصوص الثورات الوطنية والتوتر في الجزائر . فقلما أقر الفرنسيون كما لاحظ وورثام ، بأن هناك حركة وطنية وراء الاضطرابات في الجزائر . فهم يلومون على ذلك ، في أغلب الأحيان عناصر خارجية . وقد حافظوا على هذا « المذهب » الى الاستقلال . فإذا أقر الفرنسيون ببعض الأسباب الداخلية ، فإنهم يربطونها عادة بعوامل اقتصادية ، واجتماعية ، وأخلاقية ، ولكن نادراً ما يربطونها بعوامل سياسية أو وطنية . فثورة عين التركي يجب النظر اليها ، اذن في هذا الضوء .

وهناك مجلة فرنسية محافظة ، اعتادت أن تتكلم باسم الكولون ، قد اعترفت بأن ثورة عين التركي كانت نتيجة « لعامل ديني مختلط . . بعامل وطني »[43] . ولكن المجلة حذرت ضد « الخطر الأهلي » ، وقالت أن الجزائريين كانوا ينتظرون اللحظة المواتية لالقاء الفرنسيين في البحر[44] . . ففي مقال عنوانه « اضطرابات الجزائر » كتبت المجلة المذكورة تقول أن « بعض الاضطرابات السياسية » قد تتلو ثورة عين التركي لأن الانسان في الجزائر ، بناء على رأي المجلة ، يعطي المثال للاضطراب لا بالصحافة أو الخطب ولكن بالثورات[45] .

وقد كان لثورة 1901 نتيجتان خطيرتان : أولاهما علامة الاستفهام التي وضعت على سياسة الاندماج في الجزائر . فبعد هذه الثورة ، بدأت مناقشة حادة في المجلس الوطني الفرنسي حول صلاحية الاندماج . ومن بين الذين ساهموا بنشاط في تلك المناقشة رئيس الوزارة الفرنسية عندئذ السيد والديك ـ روسو ، باسم العناصر

(42) وقد لامت بعض الأحزاب السياسية الفرنسية الثورة على سياسة الكولون الضريبية أنظر ر . دي كي في نفس المصدر .

(43) « قضية مارغريت » في « أ.ف. » (جوان ، 1901) ، ص 199 .

(44) نفس المصدر ، ص 199 ـ 200 .

(45) نفس المصدر (ماي ، 1901) ، ص 147 .

الليبرالية . وبناء على رأي الكاتب الفرنسي ر . دي كي ، فإن رئيس الوزارة قد عبر عن « فكرة مبدئية » بخصوص « المرحلة الجديدة » لسياسة فرنسا في الجزائر . وفي صوت غاضب ، صرح والديك ـ روسو بأن « الجزائر مستعمرة وليست امتداداً لفرنسا »(46).

غير أن رئيس الوزارة الفرنسية ، خلافاً لنابليون الثالث قبله ، لم يناد « بمملكة عربية » ولا بجنسية جزائرية ، فقد كان مؤيداً مستميتاً لفكرة الاستعمار . ولكنه نادى « بنظام خاص » في الجزائر يتلاءم مع حضارتها الخاصة . وقد اقترح لذلك الغاء البلديات وتعويضها باداريين معينين (أي العودة الى نظام ما قبل سنة 1870) . كما أوصى بوجوب منح الجزائريين بعض فوائد ضرائبهم واجابة طلبهم الخاص بإعادة القضاء الاسلامي(47) . وقد أشرنا من قبل الى رأي مشابه عبر عنه لوبي رئيس الجمهورية الفرنسية حين زار الجزائر سنة 1903 .

وهكذا ، فإن ثورة عين التركي قد نبهت الفرنسيين الى حقيقة الوضع في الجزائر وخلقت حالة عقلية جعلتهم ينادون بالاصلاح وازالة أسباب السخط . ولكن اتجاه السياسة الفرنسية في ذلك الوقت كان ارضاء أولئك الذين ينادون بالاضطهاد لا الذين ينادون بالاصلاح.

أما النتيجة الثانية لثورة عين التركي فهي انشاء نظام جديد خاص للجزائر يعرف بالمحاكم الرادعة . فقرار 29 مارس ، و28 ماي ـ 1902 ، قد نص على خلق تلك المحاكم . وهذا الاجراء الجديد ، بالاضافة الى قانون الأهالي البغيض ، قد ضرب الجزائريين في القلب. إذ لم يكن لهم حق استئناف الأحكام ، بينما أعطيت سلطات المحاكمة ، والنفي ، والطرد ، والسجن ، الى الحاكم العام ومساعديه . كما أن سلطات الاداريين المحليين قد تضاعفت بشكل ملحوظ . وهكذا ، فإن المنادا بالاصلاح لم يغض عنها النظر فقط ، ولكن وقع أيضاً تحديها باجراءات تعسفيـ

---

(46) نفس المصدر ، (جويليه ، 1901) ، ص 218 .

(47) نفس المصدر ، ص 220 ، ويقول دي كي بأن ثورة عين التركي ، التي « حملت السيف » ، هـ التي جعلت والديك ـ روسو يقدم إقتراحاته . بخصوص كل المناقشة أنظر نفس المصدر ، « الأخبـ الإستعمارية » ، رقم 4 ، ص 74 ـ 48 .

جديدة كانت السبب ، كما سنرى في كثير من الاضطرابات .

لقد أثارت هذه الاجراءات الجديدة عاصفة من الاحتجاج والمعارضة ، ولكن بلا جدوى . فقد أعلن كل من أ . روزي ، وفلاندان ، وغيرهما ، في المجلس الوطني الفرنسي أن المحاكم الرادعة كانت غير شرعية[48] . وفي قسنطينة نشر رجل فرنسي قانوني ، تحت اسم مستعار ، هو البيدي ، كتيباً أعلن فيه أن قرار الردع كان ضد مصالح الفرنسيين والجزائريين معاً[49] . وقد قدم أحد الجزائريين ، كان محكوماً عليه ، طلباً لاستئناف الحكم الى محكمة الاستئناف العليا ، ولكن طلبه كان قد رفض بحجة أنه كان ضد قرار الردع[50] .

أما الكولون فقد اعتبروا ذلك القرار نصراً كبيراً لهم . كما اعتبروا اصداره « هزيمة كبيرة » للذين قاموا بحملة ضده[51] . وهكذا ، فانه ، نتيجة لثورة 1901 ، اضطهد « الخطر الأهلي » ودعم « السلام الفرنسي » .

في أكتوبر ، 1906 كتب أندري ميفيل الفرنسي في « ايكو دي باري » قائلاً : « إن السكان العرب يظهرون أعظم السخط نحو الفرنسيين »[52] . وقد نشرت نفس الجريدة برقيات من الجزائر العاصمة وقسنطينة تصف « الغليان الذي يسود السكان العرب » . وأضافت الصحيفة الانكليزية المحافظة التايمز ، بناء على مراسلات من قسنطينة ، بأن جرأة الجزائريين كانت تزداد يومياً[53] . وقد كانت مناسبة هذا « الغليان » هي ثورة عين بسام التي حدثت في نفس السنة .

فقد هاجم الجزائريون عندئذ الفرنسيين هناك منادين بحقهم في أن يكونوا

---

(48) بخصوص المناقشة ، التي دامت ثلاثة أيام ، عن هذه المشكلة ، أنظر « المحاكم الرادعة في الجزائر » في « ك.د.ك. » م 15 (1903) ، ص 509 ـ 531 . بخصوص نص القرار نفسه أنظر « أ.ف. » (أبريل ، 1902) ، ص 145 ـ 146 .

(49) أشير إلى ذلك في « الجزائر » في « أ.ف. » (أوت ، 1902) ، ص 296 .

(50) هذا الجزائري هو كانتولي س . بن عمر ، الذي قدم مطلبه « بتحريض رجال ذوي شأن في الجزائر » . أنظر « الجزائر » في « أ.ف. » (أكتوبر ، 1902) ، ص 357 . ولزيادة المعلومات أنظر فيكتور ديمونتي « محاكمة مارغريت » في « أ.ف. » (مارس ، 1903) ، ص 105 ـ 112 .

(51) « الجزائر » في « أ.ف. » (أكتوبر ، 1902) ، ص 537 .

(52) أشارت إلى ذلك « التايمز » (لندن) ، (12 أكتوبر ، 1906) ، ص 4 .

(53) نفس المصدر .

الأسياد الشرعيين في أرضهم . وقد حدث الهجوم أولاً على مراكز الدرك الفرنسي ، ثم انتشر منها الى بقية القرى ، تاركاً الجزائر في حالة التوتر التي وصفت أعلاه . وبناء على تقارير ذلك الوقت ، فقد كانت هناك « وقائع يومية عن هجومات جديدة »[54] . ولم تكن تلك الثورة ، كما لاحظت وسائل الاعلام ، نتيجة لتغاضي الادارة الفرنسية ، فنحن نعرف أن قانون الأهالي كان في عنفوانه ، وأن المحاكم الرادعة كانت تعمل بحزم .

فما أسباب هذه الثورة التي أدت الى كل تلك التعاليق ، والتي كان لها محتوى خطير في الجزائر ؟ إن أسباب وطريقة سير هذه الثورة ، مثل الأخريات ، لم تكن معروفة لا للرأي العام ولا للمختصين . ذلك أنه يصعب الحصول على الحقائق في بلاد كانت باستمرار تخضع لشبه قانون طوارىء . فشكوى الكاتب الانكليزي وورثام ، المشار اليها سابقاً ، جديرة بالتذكير . وعلى أية حال ، فإن التعصب والجامعة الاسلامية كانتا محل اللوم ، كالعادة ، في اثارة السكان . فقد قيل بأن مرابطاً كان يدعو الجمهور الى الثورة ضد الفرنسيين خلال تلك الأثناء . بل إن بعضهم قد سمى هذه الثورة جزءاً من « الجرائم التي تحدث الآن في الجزائر » متصلة بانتعاش التعصب الذي يظهر الآن في كامل أفريقية الشمالية[55] .

غير أنه يجب ألا يغيب عن البال من أن ثورة عين بسام ، و« الغليان » بين الجزائريين ، واظهار « أعظم سخط » و« انتعاش التعصب » كانت كلها جزءاً من الصورة المتكاملة في ذلك الوقت . ففي نفس السنة حدث مؤتمر الجسيرة ، ووصل الصراع بين فرنسا وألمانيا على المغرب الى أشده . وقبلها بعام واحد توفي الشيخ محمد عبده ، أحد زعماء حركة الاصلاح الاسلامي ، الذي كان قد زار الجزائر سنة 1903 . وفي سنة 1905 قررت فرنسا فصل الدين عن الدولة ، ثم قررت مده الى الجزائر بعد سنتين . وفي نفس الوقت بدأت فرنسا تخطط لدعوة الجزائريين الى الخدمة العسكرية الاجبارية .

فثورة عين بسام ، اذن يجب أن تدرس في ضوء هذه الأحداث ، لقد كانت

---

(54) نفس المصدر .

(55) نفس المصدر .

جزءاً فقط من سلسلة أحداث متعاقبة متصلة كان لها ، بلا شك ، أصداء قوية في عقول الجزائريين . وفي ضوء ذلك ، فإن الثورة كانت مجرد علامة من العلامات التي تشير الى الزخم الوطني الكبير الذي سماه بعض الملاحظين المعاصرين « انتعاش التعصب » و « الخطر الأهلي » وروح « الغليان » لدى السكان.

وبينما ولدت ثورة 1901 المحاكم الرادعة ، ولـدت ثورة 1906 اجـراءات اضطهادية جديدة تعرف « بمنشور جونار » . فجونار ، الذي كان عندئذ حاكماً عاماً للجزائر ، قد بعث بمنشور الى رؤساء العمالات الثلاث بخصوص الأمن في البلاد . وقد أمرهم فيه أن يغلقوا مقاهي الجزائريين الْمُشْتَبَه فيهم ، وأن يمنعوا المهرجانات الجزائرية في النواحي المشكوك فيها ، وأن يسحبوا كل رخص حمل السلاح ، وأن يسجنوا كل جزائري غير موثوق فيه(56) .

ومرة أخرى ، وقع تدعيم «السلام الفرنسي» والتضحية بالحرية . فالمؤرخون الذين يعتقدون أن الجزائر كانت هادئة وراضية خلال هذا العهد مدعوون الى اعادة النظر في آرائهم على ضوء قانون الأهالي ، والمحاكم الرادعة ، ومنشور جونـار ، وهي التي كانت تسمى في النصوص الرسمية بالسلام الفرنسي.

ولكي يدعم الفرنسيون هذا السلام والأمن في الجزائر ، أصدروا ، بالاضافة الى ما سبق ، اجراءات أخرى . ففي سنة 1908 أصدر الحاكم العام جونار قراراً يمنع فيه الجزائريين من الحج الى مكة(57) . وسبب المنع ، بناء على القرار ، هو وجود داء الطاعون والكوليرا في الشرق الأدنى في ذلك الوقت .

والحق أننا لا نملك في هذه اللحظة ما يثبت هذا التقرير . وكل ما نستطيع أن نؤكده هنا هو أن سنة 1908 كانت سنة الثورة التركية . وكان متوقعاً عندئذ أن يكون هناك طاعون وكوليرا ثورية في الشرق الأدنى . فإذا كان الحـاكم العام يعني هـذا « المرض » عندما منع الجزائريين من الحـج ، فقد كـان مصيباً . وبـالإضافـة إلى ذلك ، فإن الإدارة الفرنسية قد دعمت نفسها بعدد 75,000 ألف جندي وإحـلال

(56) أنظر « التايمز » (لندن) ، (26 أكتوبر ، 1906) ، ص 3 .
(57) « الجزائر » في « أ. ف. » (فيفري ، 1908) ، ص 59 .

الجنود السود الغرباء عن الجزائر ، خوفاً من العدوى الثورية ، محل الجنود الجزائريين[58] .

إن الجرائم والهيجان الوطني ، والمجرمين الوطنيين ، كانت كلمات غالباً ما اختلطت في التعبير الجزائري - الفرنسي . فأولئك الذين تدعوهم الإدارة الفرنسية ثواراً ومجرمين كانوا في نظر الجزائريين وطنيين ومناضلين . وأولئك الذين تدعوهم الإدارة الفرنسية مخلصين وأنصاراً لفرنسا يعتبرهم الجزائريون متعاونين وخونة . وعلى هذا الأساس ، فإن الأمر يختلط على المؤرخ أيضاً ويصعب عليه التوصل إلى الحقيقة . وليس هناك من ينكر أن بعض الجزائريين قد ارتكبوا جرائم ، لأنهم ككل الكائنات الإنسانية لم يكونوا دائماً براء . ولكن من الخطأ أن تعزى كل النشاطات التي هي ضد الفرنسيين إلى دوافع إجرامية .

وإحصاءات « الجرائم » التي نذكرها أسفله ، بقصد التنوير ، تعطي فكرة عن الروح التي كانت سائدة في الجزائر في مفتتح القرن الحالي . وهي تغطي سنتين فقط (1905 - 1907) ، وهو « عهد الغليان » و « أعظم سخط ضد الفرنسيين » ، وثورة عين بسام وأزمة المغرب الأقصى الأولى . والمجلة التي أوردت هذه الإحصاءات كانت تتحدى أولئك الفرنسيين الذين كانوا يدعون إلى إلغاء قانون الأهالي ، والمحاكم الرادعة ، ومنشور جونار . وقد أرادت هذه المجلة الخبيرة ، والمحافظة أن تبين لقرائها « تقدم الجرائم » في الجزائر والحاجة إلى الأمن .

عدد المحكوم عليهم في الجزائر (بالعمالة) 1905 - 1907[59] :

جويليه ، 1905 إلى جوان ، 1906		جويليه ، 1906 إلى جوان ، 1907	
عمالة الجزائر	5,436	عمالة الجزائر	6,971
عمالة وهران	6,128	عمالة وهران	6,170
عمالة قسنطينة	11,765	عمالة قسنطينة	15,059
المجموع	23,329	المجموع	28,200

(58) أنظر « التايمز » (لندن) ، (19 فيفري ، 1910) ، ص 6 .

(59) المصدر : « الجزائر » في « أ. ف. » (نوفمبر ، 1908) ، ص 387 .

ولكي يظهر الجزائريون في هذا العهد تصميمهم على استعادة حريتهم ، عمدوا إلى استعمال طرق جديدة من بينها الاضرابات العامة ، والمظاهرات السياسية في الشوارع ، وحمل العلم الوطني . ففي سنة 1910 حمل الجزائريون ، أثناء إضراب ، العلم الوطني ، لأول مرة ، حسب معلوماتنا ، وساروا به في مظاهرة شعبية استنكروا فيها الحكم الفرنسي وطالبوا بالحرية . وقد نظم الإضراب العمال الجزائريون والأجانب في ميناء سكيكدة . ثم تظاهر المشتركون ، وألقوا الخطب ، واستنكروا الحكم الفرنسي ، وأعلنوا مطالبهم . واضطرت السلطات الفرنسية إلى استعمال الشرطة والجنود لقمع المظاهرة.

ويقول ديمونتي ، الذي كان معروفاً باتجاهه المحافظ ، بأن السلطات العسكرية الفرنسية قد حاولت أن تفتك بـ« العلم (الوطني) الأخضر مع نجمة من أيدي المتظاهرين (الذين استعملوه) شعاراً لمطالب العمال » ، ولكن الجندي الذي حاول أن يفتك بالعلم كان قد « جرح جرحاً خطيراً »[60] ويقول ديمونتي أيضاً بأن خطيباً أجنبياً ، لعله إيطالي ، قد ذكر الجزائريين ، « أبناء البلاد الحرة دائماً (الذين) لن ينسوا أن العلم المثلث سوف لا يعني قريباً أي شيء ، وأن علماً أحمر في لون الدم سيحل محله في النهاية[61] ».

وقد اعتبر الفرنسيون إضراب ومظاهرة سكيكدة ، كما اعتبروا سابقاً ثورتي عين التركي وعين بسام « جرائم » ارتكبها « قطاع طرق أهليون » . ولكن مثل هذه الأحداث كانت في أعين الملاحظين غير الفرنسيين علامات عدم الاستقرار الذي لون كل تاريخ الجزائر وراء الستار الفرنسي . أما في وقائع الحركة الوطنية الجزائرية ، فإن الأحداث المشار إليها كانت مجرد خطوات في طريق التحرير.

ولكن الزخم الكبير له مظاهر كثيرة . من بينها نداء الجامعة الإسلامية إلى الجزائريين .

---

(60) فيكتور ديمونتي « الجزائر » في « أ. ف. » (سبتمبر ، 1910) ، ص 292 .

(61) نفس المصدر ، وفي رسالة بتاريخ 30 نوفمبر 1973 (ذكر لي الأستاذ جيلبير مينيي (جامعة نانسي - فرنسا) أنه قد عثر في الوثائق التاريخية للجيش على صور لعلمٍ « عربي عثماني جزائري » في شكل متصل ومواز للعلم الفرنسي ، ويعود تاريخه ذلك إلى فترة معارضة التجنيد الإجباري (1910 - 1912). وقد أرسل إلى الأستاذ مينيي رسماً للعلم المذكور ولكنه لم يشر إلى الألوان التي يتكون منها.

4. الجامعة الإسلامية والحركة الوطنية الجزائرية :

من الممكن تعريف الجامعة الإسلامية بأنها حركة تدعو إلى تضامن المسلمين من أجل تحقيق الوحدة والقوة بينهم في وجه التوسع الأوروبي . أما وسائلها فتقوم على الإصلاح الديني والإجتماعي ، وذلك بتمجيد العقل والعودة إلى مذهب السلف ، أي العصر الذهبي للإسلام على عهد النبي محمد ، وصحابته ، والتابعين . ومن الشائع أن هذه الحركة قد بدأت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وأصحاب هذه الحركة هم جمال الدين الأفغاني (1838 ـ 1897) وتابعه محمد عبده (1849 ـ 1905) ، ورشيد رضا (1865 ـ 1935) ، وآخرون.

أما على المستوى الرسمي ، فإن عبد الحميد الثاني (سلطان الدولة العثمانية) هو الذي تبنى حركة الجامعة الإسلامية واستغلها . ومن المعروف أن الهدف الرئيسي للجامعة الإسلامية هو وحدة المسلمين تحت خلافة قوية . ولهذا السبب ، رأى عبد الحميد أنه هو الرمز الروحي والسياسي لهذه الحركة.

والاعتقاد الشائع من أن الجامعة الإسلامية قد ظهرت في الشرق الأدنى في آخر القرن التاسع عشر يحتاج إلى مراجعة . ذلك أنه يبدو من المؤكد أن أصل ذلك الاعتقاد مبني على سوء فهم أوروبي وقد قبله الكتاب العرب أيضاً حتى الآن دون مناقشة.

وهناك عاملان مهمان قد ساهما في سوء الفهم . أولاً ، ربط حركة النهضة الإسلامية بالمسألة الشرقية ، أي بالصراع بين الدولة العثمانية المتداعبة وبين ميزان القوة الأوروبي في شرق البحر الأبيض المتوسط . وبناء على هذا الفهم . فإن ظهور الجامعة الإسلامية كان يعني حملة مقاومة ضد التأثير الأوروبي في المنطقة وتدعيم تضامن ووحدة المسلمين ، أما العامل الثاني فهو قبول الكتاب الأوروبيين ، والعرب أيضاً ، لفكرة وحدة الجزائر وفرنسا واقعياً وقانونياً . وعلى أساس هذه الفكرة فإن أفريقيا الشمالية عامة ، والجزائر خاصة قد أهملتا كعاملين في تطور الجامعة الإسلامية والقومية العربية.

أما تاريخياً ، فإنه يجب البحث عن الجامعة الإسلامية ، حسب التعريف السابق ، في المقاومة الجزائرية للاحتلال الفرنسي . فهذا الاعتداء مع كل ما صاحبه

من مظاهر العنف ومحاولات القضاء على الشخصية الجزائرية ، كان أول مجابهة من نوعها بين الشرق والغرب في التاريخ الحديث . ولكن غالباً ما ينسى الباحثون أن هذه المجابهة قد أنتجت عواطف حادة ، وأدت إلى ظهور قيادة جديدة ، وفتحت حدوداً كانت مجهولة لكل من الإسلام ، وأوروبا.

فالجزائريون ، كما أشرنا سابقاً ، كانوا أول من نادى بالتضامن بين المسلمين ، وبإصلاح الإسلام مستفيدين من التجربة الأوروبية ، وبقيادة جديدة في العالم الإسلامي ، وقد كان حمدان خوجة الجزائري أول من نادى بالتفاهم بين الحضارتين الإسلامية والأوروبية ، فهو الذي تحدى الأوروبيين في زمانه مصراً على أن الإسلام لا يتعارض مع المبادىء الأساسية للتجرب الأوروبية . كما برهن الأمير عبد القادر ، كمحارب ومفكر ، انه كان مصلحاً إسلامياً في اتجاهه.

وكلا الزعيمين الجزائريين قد نفته السلطات الفرنسية ، ومات في الشرق الأدنى ، الأول في اسطنبول والثاني في سورية ، وبعد نفيهما، استمر كلاهما في عمله الإسلامي مصلحاً وكاتباً ، وبذلك أثر كل منهما تأثيراً كبيراً على معاصريه وقد درسنا أيضاً من قبل « أصول » الجامعة الإسلامية في الأدب الشعبي الجزائري في الخمسينات من القرن الماضي ، ولسنا بحاجة لإعادة ذلك هنا[62].

ان تاريخ العالمين العربي والإسلامي قد كتب حتى الآن بطريقة مجزأة ، بسبب الأحوال السياسية في كل بلد . مثلاً ان تاريخ الجزائر منذ 1830 قد كتبه غالباً الفرنسيون كجزء من تاريخهم[63] وهناك ضرورة ملحة الآن لإعادة كتابة تاريخ كل البلاد الإسلامية والعربية بطريقة متكاملة . وعندما يتحقق ذلك ، فمن الممكن أن يوضع مشكل التأريخ لحركة الجامعة الإسلامية في ضوء ومحتوى جديدين.

على أن الجامعة الإسلامية « الجزائرية » ، قد واجهت عدة عراقيل . أحدهما

---

(62) يجب أن يتذكر الباحث بأن خوجة ، عندما كان في اسطانبول قد أهدى أحد كتبه إلى السلطان محمود الثاني الذي قضى على الإنكشارية والذي كان معروفاً برأيه الإصلاحي في الدولة العثمانية . أنظر قائمة المصادر الجديدة .

(63) أنظر مقالتي عن « منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر » في مجلة (الأصالة) عدد 14 و 15 ، السنة 3 ، 1973 ، ص 7 ـ 26 . وكذلك كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) ، ط. 2 ، 1982 .

أن هذه الحركة كانت قد اضطرت ، في معظم الأحيان ، إلى أن تقوم بنشاطها في الخارج ، وبذلك اختلطت المساهمة الجزائرية بالجامعة الإسلامية « الشرقية » في شكلها العام . وثانيهما عدم توفر الحرية في الجزائر ، حيث اضطهد الفرنسيون عواطف الجامعة الإسلامية واضطروها إلى استعمال التعبير غير المباشر فقط ، خصوصاً اللجوء إلى الشعر الشعبي . وبالمقارنة ، فإن حركة الجامعة الإسلامية في المشرق قد وجدت حرية التعبير ووسائله كالصحافة ، وتأييد الدوائر المثقفة ، بل والتعضيد الرسمي في بعض الأحيان . وهكذا وجد أصحاب نظرية الجامعة الإسلامية فردوسهم في لبنان ، ومصر ، واسطنبول.

أما المعرقل الثالث الذي واجهته الجامعة الإسلامية في الجزائر فهو عدم التأييد والدعاية من أية أمة أوروبية . فالكتاب كانوا يتناولون الجزائر على أنها جزء من فرنسا ، ولذلك فإن أوروبا لم تصدر أفكاراً جديدة إلى الجزائر ولم تساعد على الإتصال بين الحضارتين فيها . وبالمقارنة ، نجد التنافس الأوروبي في الشرق الأدنى قد ساهم بفعالية في بعث قيم الثقافة المحلية ، وذلك ببناء المدارس ، وتأسيس الصحافة ، وانشاء المطابع ، وبهذه الطريقة ساعد التنافس الثقافي الأوروبي الجامعة الإسلامية ، بصفة قد تكون غير مباشرة ، ولا سيما في إنعاش الأدب العربي . ومؤرخ نهضة الشرق الأدنى الحديث لا تغيب عنه حالة لبنان ومصر ، وسورية ، واسطنبول في القرن التاسع عشر.

ولكن الحالة في الجزائر كانت تختلف ، فالشخصية المحلية هنا كانت تحت اضطهاد مستمر ، والأدب الوطني كان قد هوجم في لغته بدل تنمية قيمه وإعطائه دماً جديداً من التجربة الأوروبية . ولم تكن في الجزائر أيضاً أية محاولة أوروبية لكسب السكان بالتأثير عليهم ثقافياً ، كما كانت الحال بالنسبة لمصر تحت عائلة محمد علي ، وبالنسبة إلى لبنان وسورية ، وحتى اسطنبول . ان هذه العراقيل بالنسبة إلى الجزائر والفرص المتاحة بالنسبة إلى الشرق الأدنى قد ساعدت على خلط مشكلة التاريخ لبداية الجامعة الإسلامية.

ومهما كان مكان ميلادها ، الجزائر أو الشرق الأدنى ، فقد كان للجامعة الإسلامية وقع هام على الحركة الوطنية الجزائرية . والحق أن مجال الدعاية والإثارة كان قد أعد قبل تطور هذه الحركة في الجزائر . فثورتا 1871 و 1881 ، والحركة

التي تلت احتلال تونس ، وأشعار محمد بن اسماعيل حول تأثير حرب القرم ، وأشعار محمد السعيد عن الجامعة الإسلامية سنة 1897[64] ، كانت كلها ، مع غيرها ، علامات عدم استقرار وطني وإسلامي . ورغم غلق أبوابها واضطراب حياتها الوطنية ، فإن الجزائر كانت حقلاً لدعاية الجامعة الإسلامية منذ أواخر الثمانينات من القرن الماضي .

نشرت الصحافة الأوروبية تقريراً سنة 1883 مفاده أن مرابطين ، ومبعوثين من مهدي السودان[65] ، كانوا في طريقهم إلى الجزائر ، وقد حذر التقرير فرنسا ، التي كانت تسحب بعض قواتها من الهند الصينية بأنها قد تواجه « ثورة خطيرة » في الجزائر[66] . ورغم أن هذا التقرير لم يتأكد ، فإنه يوضح أن بعض الحوادث في الشرق ، حتى ولو كانت بعيدة ، كانت لها أصداء في الجزائر . ويبدو تعقيد الحوادث من أن بوعمامة قد أعلن الثورة في الجزائر عندما احتلت فرنسا تونس . واحتلال تونس قد خلق حالة غليان في الجزائر جعل الفرنسيين يتخذون « اجراءات وقائية » خشية وقوع اضطرابات[67] .

وقد كان تولي عبد الحميد الثاني شؤون الدولة العثمانية ، مصدر تدعيم لنشاطات الجامعة الإسلامية في الجزائر . ونتيجة لذلك خلقت جمعيات سرية لنشر فكرة الجامعة الإسلامية . ويقال أن عدداً من الجزائريين انضموا إلى الجمعيات الدينية التي خلقها دعاة السلطان عبد الحميد في المدينة . كما شجع دعاة الجامعة الإسلامية حركة هجرة جزائرية إلى الشرق الأدنى أواخر التسعينات من القرن الماضي[68] . وقد أتيح للمهاجرين الجزائريين ، الذين استقبلوا « بأذرع مفتوحة » ،

---

(64) أشرنا من قبل إلى أشعار محمد بن إسماعيل أما بخصوص أشعار السعيد . فانظر . ج . ديبارمي « العاطفة التركية في الجزائر » في « س.ج.أ. » م 22 (1917) : ص 20 . وقد استنكر السعيد في أشعاره الحكم الفرنسي ونادى بالتدخل العثماني .

(65) ثار المهدي على البريطانيين سنة 1883 في السودان . ويذكر القارىء بأن الجزائر كانت ، عندئذ ، تعيش أحداث ثورة 1881 .

(66) « التايمز » (لندن) ، (29 نوفمبر ، 1883) .

(67) نوشي ، ص 19 ـ 20 .

(68) أنظر . ج. ديبارمي « العاطفة التركية في الجزائر » : في « س.ج.أ. » ، م 22 (1917) ، ص 18 .

أن ينضموا إلى لجان الجامعة الإسلامية التي أنشئت لتمثيل المسلمين الذين كانوا تحت الحكم الأوروبي[69] . ويذكر ديبارمي الفرنسي بأنه قد وجد في منطقة متيجة الجزائرية مجموعة من الشعر المكتوب حوالي سنة 1900 ، وهو عبارة عن « منشورات » موصى بها من الخارج تدعو إلى الجامعة الإسلامية[70].

وقد ذكرنا من قبل أن بعض السلطات الفرنسية قد لامت الجامعة الإسلامية على ثورتي عين التركي سنة 1901 وعين بسام سنة 1906 . كما أشرنا إلى منشور جونار ، الذي أمر رؤساء العمالات الثلاث بغلق المقاهي ، ونفي ، أو طرد ، أو سجن كل الجزائريين المشتبه فيهم . وكانت مناسبة حركة جونار هي الخوف من خطر الجامعة الإسلامية . وفي نفس الوقت نشر « صحفي معتمد » ، وهو أندري ميفيل ، مقالاً في جريدة « ايكو دي باري » عن تأثير الجامعة الإسلامية في الجزائر وفي المغرب الأقصى وقد زعم الكاتب بأنه استقى معلوماته عن هذا الموضوع من « مصدر مطلع » . ويصر ميفيل ، بثقة على أنه كان في الجزائر « غليان موجه من القسطنطينية والقاهرة عبر برلين »[71] .

وبعد شهر واحد فقط اعتقلت السلطات الفرنسية في الجزائر وفداً قبرصياً يضم ثمانية عشر رجلاً وامرأة بتهمة نشر دعاية الجامعة الإسلامية ضد فرنسا ، وبناء على مراسل جريدة « (لو) ماتان » فإن الوفد المذكور كان يتنقل عبر أقصى الجنوب الجزائري بدعوى شراء الإبل . ويضيف هذا المراسل بأن الجزائريين قد استقبلوا المسلمين القبرصيين « بتقديس ».

فإذا صحت هذه القصة ، فإن هؤلاء الدعاة الشرقيين كانوا يبشرون في كل مكان بفكرة اقتراب حكم سلطان اسطنبول . وقد استجوبت السلطات الفرنسية أعضاء الوفد ، واحتفظت بمحضر الاستجواب غامضاً ! ثم أجبرتهم على مغادرة

---

(69) « أفريقيا » في « ك.د.ك. » ، م 30 (1910) ، ص 511 وبعدها . نقلاً عن « جورنال دي ديبا » (أكتوبر ، 1910) .

(70) «العاطفة التركية في الجزائر» في « س.ج.ا. » م 22 (1917) ص 33 . ونص هذه « المنشورات » الشعرية في ص 34 ـ 37 .

(71) أنظر « التايمز » (لندن)، (12 أكتوبر ، 1906) ، ص 4 . وقد قالت الصحيفة بأن ما يعنيه ميفيل « بالمصادر المطلعة » هو جونار نفسه ، الحاكم العام للجزائر عندئذ .

الجزائر[72].

وقد كان عبد الحميد الثاني محبوباً في الجزائر ومنتظراً من الجماهير « كرجل الساعة » . ولا شك أن عواطف الجامعة الإسلامية التي وجدت في الجزائر منذ الاحتلال وسياسة الفرنسيين التعسفية ، وخصوصاً منذ سنة 1901 ، والدعاية من الشرق الأدنى ، كل ذلك زاد من سمعة عبد الحميد في الجزائر كمنقذ منتظر ، وفي سنة 1906 ، التي هي سنة هامة في تاريخ الجزائر ، زارت باخرة عثمانية ميناء عاصمة الجزائر ، وقد صعد بعض الجزائريين على سطحها وطلبوا سرعة قدوم السلطان لإنقاذ الجزائر . وبناء على بعض السلطات ، فإن ممثلي كل الطبقات الجزائرية قد زاروا تلك الباخرة[73] . ويقال أن سقوط عبد الحميد سنة 1908 قد أدهش الجزائريين.

وثورة تركيا الفتاة وجدت مشاعر مختلطة في الجزائر . ورغم عدم وجود البراهين ، فإن الطبقة الجزائرية المحافظة لم تقبل سقوط عبد الحميد الثاني إلّا بتردد ، ولكن النخبة قد اعتبرت سقوطه جزءاً من حركة « التقدم » التي كانت هي نفسها تنادي بها . ويقول أحد هذه النخبة الجزائرية سنة 1909 بأن المرء كان يسمع في كل مكان الهمس بكلمة « حقوق » ، التي كان لها وقع خاص على آذان الجماهير الجزائرية ، ويصر نفس الكاتب على أن فكرة « التقدم كانت مستعملة في الجزائر منذ عدة سنوات »[74] . ولكن إذا تذكرنا هذه السنة (1909) ، فإننا نجد أن الثورة التركية سنة 1908 قد شجعت فكرة التقدم في الجزائر ، وهي الفكرة التي كانت إحدى شعارات هذه الثورة . بل إن بعض الشبان الجزائريين (النخبة) قد بدأوا في استعمال الطربوش ، الذي كان عزيزاً على الشبان الأتراك الثائرين[75].

وقد تمتع بعض زعماء الجامعة الإسلامية في الشرق الأدنى بسمعة عظيمة في

---

(72) نصت على ذلك جريدة « التايمز » (لندن) ، (17 نوفمبر في 1906) ، ص 7 من جريدة (لو « ماتان »).

(73) ج . ديبارمي « العاطفة التركية في الجزائر » في « س.ج.ا. » م 22 (1917) ، ص 60 ـ 61 .

(74) ابن علي فخار « تمثيل المسلمين الجزائريين » في « ر.م.م. » م 7 (جانفي ـ أبريل ، 1909) ، ص 3 .

(75) روبير ميغو « عن الوطنية الجزائرية » في « م.ف. » (15 أكتوبر ، 1933) ، ص 439 .

الجزائر . وقع ذلك حقاً بخصوص الأفغاني ومحمد عبده . بل أن الأخير قد زار الجزائر سنة 1903 ، حوالي سنتين قبل وفاته . وتكلم عبده ، الذي كان أحد أتباع الأفغاني ومفتياً مشهوراً لمصر ومصلحاً دينياً ، أمام بعض الجزائريين عن الإصلاح الإسلامي ، والنهضة في الشرق الأدنى ، وتضامن المسلمين ، وقد تركت اتصالاته مع بعض الجزائريين ، ولا سيما العناصر المحافظة ، انطباعاً استمر وقتاً طويلاً[76]. ويقال ان عبده كان قد اصطدم وحزن من مظاهر التدهور الواضحة بين مسلمي الجزائر ، ولا سيما من مظهر اختفاء اللغة العربية.

ولكن إذا كان عبده شخصياً لم يؤثر كثيراً على الجزائريين ، فإن أفكاره عن الإصلاح الديني وعن الجامعة الإسلامية كانت معروفة في كامل الجزائر . فجريدة « المغرب » (1903) كانت تنشر آراء عبده عن الشؤون الإسلامية[77] . كما نشرت جريدة « ذو الفقار » ، التي كانت تظهر في الجزائر العاصمة (1913 ـ 1914) . أفكاره أيضاً . بل أن محررها قد أعتبر عبده « المدير الديني للجريدة »[78] .

وهناك جريدة أخرى كانت تنشر أفكار عبده عن الجامعة الإسلامية ، وهي « الإحياء » التي ظهرت بالعربية خلال سنة 1906 ـ 1907 .

ورغم الرقابة الرسمية فإن الصحافة والكتب العربية الشرقية كانت تجد طريقها إلى الجزائر[79] . ومن عادة هذه الصحافة أن تحمل دعاية لصالح الجامعة الإسلامية

---

(76) لم ير جوليان تأثيراً كبيراً على الجزائر من زيارة عبده لأن هذا تكلم أمام جمهور صغير ولأن الجزائر « ستبقى لأمد طويل أكثر البلاد الإسلامية إنغلاقاً في وجه الأفكار الجديدة » . أنظر « أفريقيا الشمالية الزاحفة » ، ص 103 . أما علي مراد فإنه ، بعد أن أشار إلى زيارة عبده سنة 1903 ، قال بأن هذه السنة تعتبر « حدثاً هاماً » في تاريخ الجزائر . أنظر « أ. ب. ل. أ. » م 27 (1964) ، ص 15 . وكلا المؤلفين لم يبرهن على قوله بأدلة قاطعة .

(77) علي مراد في « أ. ب. ل. ا. » م 27 (1964) ، ص 15 .

(78) نفس المصدر ، ص 16.

(79) بيستعمل نوشي عبارة « رقابة السلطات الفرنسية » بخصوص الأخبار المتعلقة بالثورة التركية وتطورات أحوال الشرق الأدنى عموماً. أنظر ص 21 . أما أجرون فيقول بأن الصحافة الشرقية كانت ممنوعة رسمياً . أنظر مقالة « سياسة جزائرية ليبرالية » في « ر. هـ. م. ك. » م 6 (أبريل - جوان ، 1959) ، ص 128 .

وضد الحضور الفرنسي . وفي أحوال كثيرة كان المهاجرون الجزائريون ، كما سنرى ، محررين أو مساهمين في هذه الصحافة . وكان الهجوم على فرنسا في هذه الصحافة مركزاً على معاملتها للإسلام والعربية في الجزائر . كما كانت هذه الصحافة تدعو الجزائريين إلى رفض التغريب ، وإلى الإحتفاظ بأحوالهم الشخصية كمسلمين في وجه إمكانية التجنيس[80] .

والكتب أيضاً كانت ترسل أو تهرب من الشرق الأدنى إلى الجزائر وأفريقيا الشمالية . وقد كانت تونس من أهم القناطر التي عبرت عليها دعاية الجامعة الإسلامية إلى الجزائر . ونظراً لحالة الحماية فيها ، ولأبوابها المفتوحة على الشرق الأدنى ، ولسخطها السياسي الدائم ضد فرنسا ، فإن تونس لم تكن فقط فردوساً للمنفيين الجزائريين ، بل كانت أيضاً مبعث الدعاية المضادة لفرنسا ، التي تسربت إلى الجزائر في شكل جرائد ، وكتب ، ومنشورات . ويؤكد السيد طيبال بأن جامعة الأزهر قد ساهمت ، سنة 1913 ، بأحد عشر مليون كتاب إلى أفريقيا الشمالية[81] . وليس لدينا الآن البراهين التي تؤكد أن هذه الكتب المبالغ في حجمها كانت قد وصلت حقاً ، ولكن يبدو من المؤكد أن جزءاً منها ، على الأقل ، كان قد أعطي إلى جامع الزيتونة ، الذي كان يعلم نفس العلوم التي كانت شائعة في الأزهر عندئذ . وقد كان هناك عدد من الطلبة الجزائريين في الزيتونة ، الذين قرأوا ، بلا شك، بعض هذه الكتب وأخذوا بعضهامعهم خلال العطلة الصيفية أو بعد انتهاء دراستهم .

ومن بين الأحداث الهامة التي هزت المشاعر وأثارت عواطف عظيمة في الجزائر هي الحرب العثمانية الإيطالية في ليبيا . وقد أعطت هذه الحرب للجزائريين ، مع ما صاحبها من حماس خاص لفكرة الجامعة الإسلامية ، فرصة التعبير عن أنفسهم علانية . ذلك أن فرنسا ، رغم خوفها من انفجار التعصب[82] ، قد أرخت قبضتها قليلاً عن الجزائريين ، ولعل ذلك كان لأن ايطاليا عندئذ لم تكن

---

(80) انظر أجرون « سياسة جزائرية ليبرالية » في .«ر.هـ.م.ك.» م 6 (أبريل - جوان ، 1959) ، ص 128 . انظر أيضاً طيبال « أفريقيا وسورية » في «أ.ف.س.» (سبتمبر 1921) ص 203 .

(81) «أ.ف.س.» (سبتمبر ، 1921) ، ص 203 .

(82) « التايمز » (لندن) ، (14 نوفمبر ، 1911) ، ص 5 .

حليفتها . فقد رخصت للجزائريين بتنظيم لجان الهـلال الأحمر وجمـع التبرعـات للجرحى الليبيين . وشارك كل من زعماء الدين والنخبة الجزائرية بنشاط في التبرع لتأييد الليبيين والعثمانيين[83] . أما الصحافة الجزائرية الوطنية فقد قادت حملة واسعة ضد ايطاليا ولصالح الليبيين ، والعثمانيين .

وقـد اعتبر بعض الفـرنسيين عندئـذ أن من « الطبيعي والمنـطقي » أن يؤيـد الجزائريون الليبيين ، كما كـان طبيعياً ومنـطقياً أن يؤيـد الايطاليـون المقيمون في الجزائر بلادهم . ويذكر أحد الملاحظين أن الجزائريين اعتادوا أن يتجمعوا ، ملتفين في برانيسهم وعمائمهم، حول مراكـز بيع الصحف لينـظروا في الصور التي تمثـل انتصار الأتراك على الإيطاليين . ويقول أن الجزائريين كانوا يعلقون « بشغف » على الأحـداث ثم يعودون إلى منـازلهم مفعمين بالـرضى . وقد اشتبـك الجـزائـريـون والإيطاليون عدة مرات ، وخصوصاً في الجزائر العاصمة ، وبجاية ، وعنابة . كما علقت منشورات حائطية تدعو الجزائريين إلى مقاطعة الإيطاليين وإلى التظاهر أمام القنصلية الإيطالية في الجزائر ، وإلى التبرع إلى صندوق المساعـدات التي كانت تمنح إلى الحكومة العثمانية[84] .

أما رد الفعل الفرنسي على دعاية الجامعة الإسلامية في الجزائر ، فقد اتخذ عدة أشكال . وقد رأينا أن الفرنسيين ، سنة 1883 ، كانوا يخشون « ثورة خطيرة » . وفي عـام 1906 حاول منشـور جونـار أن يضع حـداً لمثل هـذه النشاطـات بمنح الصلاحيات الكاملة للرسميين الفرنسيين باتخاذ اجراءات مناسبة ضد تلك الدعاية . وفي نفس السنة اعتقلت السلطات الفرنسية وطردت جماعة كانت تدعو إلى الجامعة الإسلامية في الجزائر . وقد أصدرت نفس السلطات ، سنة 1908 ، قراراً منعت فيه الجزائريين من الحج إلى مكة . وفي نفس السنة ، حاولت تلك السلطات أن تمنع وصول أخبار « الثورة التركية » . وأثناء الحـرب الليبية رخصت السلطات الفـرنسية للجزائريين أن يعبروا عن مشاعرهم نحو الجامعة الإسلامية ولكن بشكل محدود.

---

(83) أنظر ابن حبليس ، ص 124 وما بعدها .

(84) أنـظر فيكتور ديمـونتي « الجزائـر » ، في (أ.ف.) (جانفي ، 1912) ، ص 39 . أنـظر أيضاً نوشي ، ص 23 .

ولكن على المستوى الشعبي ، طالب الفرنسيون بوجوب وضع حد لنشاط الجامعة الإسلامية «بتناقضات كافية»[85] (تسطير أصلي)» وقد لام بعض الفرنسيين بلادهم على السماح للصحافة العربية الشرقية بالتسرب إلى الجزائر . وبعضهم حذر الحكومة الفرنسية من أن دعاية الجامعة الإسلامية كانت تأتي إلى الجزائر عبر برلين ، وأنها قد تصبح ذات يوم خطراً على الوجود الفرنسي في أفريقيا الشمالية[86].

وخلال نفس العهد اقترح أحد الكتاب الفرنسيين تشجيع « البربرية » لمنع الجزائر من أن تتأثر بمبادىء الجامعة الإسلامية[87] . ويقول كاتب فرنسي آخر أن « **الأمن في الجزائر في حالة ممتازة** » (تسطير أصلي) بفضل الجيش الفرنسي[88] . وقد رأينا أن معظم الثورات الجزائرية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين قد عزاها الفرنسيون إلى دعاية الجامعة الإسلامية وإلى التعصب.

غير أن تأثير الجامعة الإسلامية على الحركة الوطنية الجزائرية يجب أن لا يبالغ فيه . فالجزائريون كما قال كاتب من النخبة ، كانوا دائماً واعين لعلاقتهم بالعالمين الإسلامي والعربي ، وكانوا دائماً غيورين على انتمائهم الإسلامي . وجزائر سنة 1830 ، بناء على هذا الكاتب ، كانت لا تفكر في حدودها الطبيعية ولكن في الحدود التي تفصل بين الإسلام والمسيحية فقط . فهو يقول أن « الجزائر ، ككل ، كانت جزءاً من كل » ، لأن الإسلام لا يعترف بالحدود الجغرافية[89] . ولكنا نذكر أن الجزائر قد بادرت إلى ريادة الجامعة الإسلامية بزعامة حمدان خوجة ، والأمير عبد القادر ، وابن اسماعيل ، والشيخ الحداد ، والونيسي ، وابن الموهوب . وعندما وصلت النسخة الشرقية من الجامعة الإسلامية إلى الجزائر في أوائل القرن العشرين ، كانت هذه (الجزائر) قد طورت نسختها الخاصة ، التي بدأت في الحقيقة منذ الثلاثينات من القرن الماضي.

---

(85) أنظر طيبال «أ.ف.س.» (سبتمبر في 1921) ، ص 203 .

(86) أ . ميفيل كما أشارت إليه « التايمز » (لندن) ، (12 أكتوبر ، 1906) ، ص 4 .

(87) أنظر أجرون « سياسة جزائرية ليبرالية » في « ر.هـ.م.ك.» م 6 (أبريل - جوان ، 1959) ، ص 128 .

(88) ف . ديمونتي « الجزائر » في « أ.ف. » (جانفي ، 1912) ، ص 39 .

(89) أنظر عباس ، ص 134 .

وقد أخذت مساهمة الجامعة الإسلامية في الحركة الوطنية الجزائرية أشكالاً مختلفة . أولاً ، ان الحركة الوطنية قد حصلت منها على عوض للصراع (مثلاً فرنسا مقابل الجامعة الإسلامية بدل فرنسا مقابل الوطنية) . ثانياً، إنها قدمت إليها أفكاراً وتصورات جديدة من خلال الكتب والصحافة . ثالثاً ، انها شجعت الجزائريين على الهجرة نحو الشرق الأدنى . رابعاً ، انها عرفت بالقضية الجزائرية من خلال مهاجمتها للحكم الفرنسي وتشجيع الجزائريين على رفض التجنيس . خامساً ، انها ضغطت على فرنسا لإدخال إصلاحات جديدة . وأخيراً أنها ساعدت على نقل المشكل الجزائري إلى مجال أوسع بدل خنقه خلف الستار الفرنسي .

وبناء على بعض الآراء المعتمدة ، فإن من بين النتائج المهمة لحركة الجامعة الإسلامية في الجزائر هي حركة الهجرة التي بدأت في العقد الأول من القرن الحالي . فإلى أي حد كان هذا الرأي صحيحاً ؟ .

5. الهجرة الجزائرية : اسبابها ودورها الوطني :

انه « الهلع الحقيقي ، انه يوشك ان يكون وباءً أخلاقياً[90] » وهكذا كتب فكتور ديمونتي ، الكاتب الفرنسي الذي صدمته « هجرة » الجزائريين الجماعية سنة 1911 . وقد حدث هذا الوباء الأخلاقي أثناء صراع عنيف ضد التجنيد الاجباري ، الذي عارضه الجزائريون بشدة.

ولكن المؤرخ الذي يتتبع التاريخ الجزائري منذ سنة 1830 سوف لا تصدمه هذه الحوادث ، كما صدمت ديمونتي . والحق أن موجات هجرة متواصلة ، أو « هلع » أو « وباء أخلاقي » قد حدثت منذ سنة 1830 ، كما سبقت الاشارة عند الحديث عن هذا الموضوع خلال القرن الماضي.

والسبب الرئيسي لهذا الهلع هو ملامح الحكم الفرنسي : فهو لم يكن حكماً تعاونياً ولا متقبلاً للوضع الجزائري ، بل كان قاسياً واضطهادياً .

وهناك أسباب مختلفة للهجرة الجزائرية . وأولها انعدام الحرية . فما دام

(90) ف . ديمونتي « الجزائر » في « أ.ف. » (جانفي ، 1912) ، ص 38 .

القانون كان يعتبر الجزائريين رعايا ، فان الفرنسيين لم يعترفوا لهم بحقهم في التمتع بكامل الحريات المدنية والسياسية كمواطنين . وبالاضافة الى ذلك ، فان الملامح الاضطهادية للحكم الفرنسي (قانون الأهالي كان أسوأها) مع فقدان وسائل التعبير ، قد جعلت الجزائريين يكتشفون بأنه لا يمكنهم البقاء في وطنهم بأية حال . ان هذه الحالة قد لاحظها الفرنسيون المنصفون ، الذين عبروا عن اهتمامهم بذلك الى بلادهم[91] .

وقد كانت الأحوال الاقتصادية سبباً آخر مهماً للهجرة . ذلك أن الجزائريين كانوا يشكون ، منذ سنوات طويلة ، الى السلطات الفرنسية من الضرائب الثقيلة . فقد كانوا يدفعون لا الضرائب القانونية فقط بل الضرائب الدينية ، (مثل الزكاة والعشور) وضريبة السخرة ، كالحراسة الليلية بدون أجر. وبالاضافة الى ذلك فان الجزائريين قد فقدوا أراضيهم بسبب الاستعمار الاستيطاني ، وبقوا ، في أغلب الأحيان ، عمالاً فلاحين ، كما أن التوزيع غير المتكافىء للميزانية ، التي كان الجزائريون يدفعون لها الكثير ، كان مصدراً للسخط المتواصل ، وقد أشرنا من قبل الى أن المساواة في توزيع فوائد الميزانية كان من بين المطالب الرئيسية التي طالب بها الجزائريون خلال تلك الفترة[92] .

ومن بين أسباب الهجرة الرئيسية مراقبة المؤسسات الدينية ، ومصادرة الأوقاف ، وإدارة الشؤون الدينية من طرف فرنسا . وقد أشرنا من قبل إلى أنه ، منذ سنة 1830م صادر الفرنسيون الأملاك الدينية التي كانت تمول المدارس والفقراء . ولذلك أثار هذا لا معارضة الجزائريين فحسب ، ولكن معارضة الفرنسيين أيضاً ، مثل دي توكفيل . ولكن فرنسا لم تكتف بمصادرة الأوقاف فقط ، بل بسطت نفوذها التام على جميع الشؤون الاسلامية . فالعدل ، وتعيين القضاة المسلمين ، وتسمية

---

(91) أنظر ميللي « القرن التاسع عشر » ، م 73 (1913) ، ص 735 . أنظر أيضاً مارشاند « ك.د.ك. » ، م 33 (1912) ، ص 88 .

(92) جوليان في « أفريقية الشمالية الزاحفة » ، ص 104 ـ 105 . وفي سنة 1913 أنذر النائب الفرنسي ، أبيل فيري ، المجلس الوطني بأن الجزائرين ، نظراً لأنهم قد فقدوا ارضهم ، قد يصبحون بروليتاريا ، تقود ، في ضوء الدين والقومية ، إلى انفجار لا نظير له . أنظر ص 106 ـ 107 . وبخصوص السبب الإقتصادي أنظر أيضاً مارشاند « ك.د.ك. » ، م 33 (1912) ، ص 88 .

الأئمة ، واعلان المواسم الدينية ، كلها كانت تحت نفوذ وادارة الفرنسيين .

ومن المعروف أن الادارة الفرنسية قد استمرت في التسلط على كل الأديان في الجزائر الى سنة 1907 . ولكنها ، في هذا التاريخ ، أعلنت فصل الدين عن الدولة . وبينما سحبت سلطتها عن المسيحية واليهودية ، احتفظت بها بشكل فعال بخصوص الاسلام ، بدعوى أنه لا انفصال بين الروحي والدنيوي في الاسلام . فالتمييز بين الأديان ، الذي كان الى سنة 1907 بين الأجناس فقط ، قد أثار السخط والغضب بين الجزائريين . ذلك أنهم كانوا في الماضي يشعرون بعدم الأمن على أراضيهم وحريتهم ، ولكنهم بعد سنة 1907 أصبحوا يشعرون بعدم الأمن حتى على دينهم . ومع الحديث الجهري في المجلس الوطني الفرنسي عن التجنيد الاجباري والتجنيس ، رأى بعض الجزائريين أنه لا مستقبل لهم في بلادهم فذهبوا ينشدون ملجأ لهم في الخارج[93] .

ومن جهة أخرى كانت الجامعة الاسلامية سبباً آخر هاماً في الهجرة الجزائرية . فالرسائل التي كان يبعث بها المهاجرون الجزائريون في القرن التاسع عشر الى ذويهم في الجزائر ، والتي كانت تصف الحرية والاخوة في الشرق الأدنى ، قد جعلت بعض الجزائريين يصدقون ما يقرأون . وقد شجعت سياسة الاضطهاد الفرنسية المتبعة منذ الاحتلال بعض الجزائريين على أن يتعطشوا ويحلموا بحياة أفضل في الخارج ، لذلك جمعوا أمرهم وتوجهوا الى الشرق الأدنى . وقد أضيف الى ذلك دعاية عبد الحميد الثاني منذ الثمانينات من القرن الماضي ، التي أشرنا اليها من قبل . كما نجد أن جرائد ، مثل « المؤيد » و « المهاجر » ، كانت تستنكر ، باسم الجامعة الاسلامية المتحمسة ، الحكم الفرنسي الذي قاد الجزائريين الى العبودية ، وأخضع الشؤون

(93) ان قضية الدين كسبب للهجرة كانت قد أسيء فهمها من بعض الكتاب . فقد ظنوا أن فصل الدين عن الدولة في حد ذاته كان سبب الهجرة . أنظر فخار « ر.م.م. »، 7 (ماي - أبريل 1909) ، ص 2 ، وجوليان « أفريقية الشمالية الزاحفة » ، ص 104 ، نوشي ، ص 21 . والحق أن السبب لم يكن الفصل في حد ذاته ، بل كان سبباً آخر ذا وجهين: الإشراف الفرنسي المباشر على الشؤون الدينية (بما في ذلك الأوقاف) والتمييز بين الأديان الذي زاده قانون الفصل وضوحاً . وسوف نرى بأنه منذ العشرينات من هذا القرن كان فصل الدين (الإسلام) عن الدولة « فرنسا » أحد المطالب الرئيسية للحركة الوطنية .

الاسلامية لسلطته ، وقضى على المؤسسات العربية . وقد دعت هذه الجرائد الجزائريين الى الهجرة الى أرض الحريات والوعود(94) .

وقد كان التجنيد الاجباري من بين الأسباب التي غالباً ما يشار اليها في الحديث عن الهجرة الجزائرية ، ذلك أن التجنيد الاجباري قد جعل الجزائر كلها تعيش في اضطراب . وكل الطبقات الجزائرية عارضت التجنيد الاجباري ، ولكن الأعيان التقليديين كانوا أكثر الناس معارضة . وعندما أصبح واضحاً أن قانون التجنيد الإجباري كان سيصدر لا محالة ، باع هؤلاء أملاكهم ، وأخذوا نساءهم وأطفالهم ، ثم غادروا وطنهم والدموع في عيونهم والذكريات في رؤوسهم . ونظراً لتأثيرهم على بقية السكان ، فان هؤلاء الأعيان التقليديين قد أغروا عدداً كبيراً من الجزائريين أن يفعلوا نفس الشيء . والكاتب الفرنسي ، مارشاند، قد أشار الى أن النخبة الجزائرية كانت أيضاً سبباً في الهجرة نظراً « للوعي » الذي نشرته بين الجزائريين ، في كل من المدن والأرياف(95) .

وهناك أسباب أخرى غالباً ما أشار اليها الكتاب . من ذلك عرقلة المجالس المحلية للتعليم ، والتمثيل النيابي غير الكافي ، وثقل الضرائب والقوانين الاستثنائية ، ومنع السفر الا برخصة ، وفقدان الحقوق السياسية .

ويقول الكاتب الفرنسي ، و . مارسي : ان الحياة الاستعمارية الجديدة كانت من بين الأسباب التي قادت الى الهجرة الجزائرية . فقد كان ذلك يعني أنه لم يعد في استطاعة الجزائريين أن يتمتعوا بحياتهم القديمة كما كانوا سابقاً(96) . ويصف الكاتب نفسه « هجرة » تلمسان الجماعية ، سنة 1911 ، بهذه العبارات : « رغم الصعوبات المختلفة ، ورغم المخاطر ، لم يترددوا (المهاجرون الجزائريون) رجالاً ، ونساءً ، وأطفالاً في مغادرة أرض عاشوا عليها طويلاً ، ودفنوا فيها أجدادهم ، ويظهر فيها كل

---

(94) أنظر مارشاند «ك.د.ك.» ، م 33 (1912 (، ص 86 ـ 88 ، جوليان « أفريقة الشمالية الزاحفة » ، ص 105 ـ 106 ، طيبال « أ.ف.س. » (سبتمبر ، 1921) ، ص 202 .

(95) مارشاند «ك.د.ك.» ، م 33 (1912) ، ص 88 . روبير غوتي « من هجرة تلمسان الجماعية إلى قانون جونار » ، 1912 ـ 1919 ، في « م.د. » (جانفي ، 1964) ولا رقم للصفحات .

(96) جوليان « أفريقة الشمالية الزاحفة » ، ص 105 ـ 106 .

شيء يلح عليهم بالبقاء[97] » .

والهجرة الجماعية لم تكن مقصورة على مدينة أو أقليم ما ، ولكن كانت عامة . فقد غادرت بعض الأسر الكبيرة مدينة مليانة سنة 1899 وسطيف ، سنة 1910 متجهة الى سورية . وفي سنة 1911 غادر مئات من الجزائريين قسنطينة وسطيف ، متجهين نحو سورية أيضاً . وفي نفس السنة امتدت حركة الهجرة الى المدن التالية : تورين (صبرة حالياً) ، ندرومة ، الرمشي ، وسبدو . وفي أغلب الأحيان استقر هؤلاء الجزائريون في سورية .

ولكن الهجرة الجماعية الحقيقية المشهورة كانت من مدينة تلمسان . ففي سنة 1911 غادرت أكثر من ألف ومائتي عائلة هذه المدينة القديمة واتجهت نحو سورية[98] . وقد كان ديمونتي يشير الى هذه الحركة عندما كتب جملته ، المنقولة آنفاً ، عن الهجرة الجماعية بأنها كانت « هلعاً حقيقياً ، بل تكاد تكون وباء أخلاقياً » . كما كتب عنها و . مارسي الوصف المنقول سابقاً . وقد جرى هذا الحدث المرعب بينما كان الفرنسيون ما يزالون يناقشون قانون التجنيد الاجباري . ولما كان هؤلاء الجزائريون غير راضين ، وبائسين ، فقد باعوا ممتلكاتهم الثمينة وذهبوا في جماعات من العشرين الى مائة نحو ميناء مليلة في شمال المغرب ، ومنه أخذوا الباخرة الى الشرق الأدنى .

وبعد صدمة السلطات الفرنسية من هذا الحادث ، أمرت بوقف الهجرة وغلق الحدود الجزائرية . ولكن الهجرة استمرت ، رغم أنها لم تكن جماعية كما كانت من قبل . وبعد غلق الحدود ، عين الحاكم العام لجنة لدراسة الوضع وتقديم تقرير عنه . غير أن اللجنة ، التي كانت تتكون من أربعة أشخاص ، لم تضم أي جزائري[99] .

وبحلول سنة 1911 كان في سورية وحدها 20,000 مهاجر جزائري[100] .

---

(97) نص على ذلك نوشي ، ص 22 من « أ . ف . » أما مارسي فقد كان أستاذاً في مدرسة تلمسان .

(98) مارشاند « ك . د . ك . » ، 23 (1912) ، ص 86 . قد يلاحظ القارىء بأنه بينما كان الجزائريون يذهبون إلى الشرق الأدنى ، كان السوريون يذهبون إلى أمريكا وغيرها من البلاد .

(99) أنظر ف . ديمونتي « الجزائر » في « أ . ف . » (جانفي ، 1912) ، ص 38 ـ 39 . ولم تتخذ الإدارة الفرنسية هذه الخطوة إلا بعد أن تلقت مطالب بلدتي تلمسان ووهران تدعو إلى معالجة الحالة والتحقيق فيها .

(100) نفس المصدر ، ص 39 .

وتشير الاحصاءات الى أن حوالي نفس العدد كان في المغرب الأقصى وتونس سنة 1907[101]. وليس هناك وسيلة في الوقت الحاضر لاعطاء تقدير صحيح عن عدد المهاجرين الجزائريين في غير ذلك من بلاد الشرق الأدنى . ولكن الاحصاءات التالية ستساعد على توضيح هذه النقطة .

فاذا أخذنا في الاعتبار أن حركة الهجرة قد توقفت عند حرب 1914 ـ 1918 ، فاننا نستطيع أن نصل الى عدد تقريبي . فالكاتب طيبال ، الذي كتب سنة 1921 ، قدر بأن عدد مهاجري أفريقيا الشمالية في مصر يبلغ بين 20,000 و 30,000 نسمة ، وفي شبه الجزيرة العربية بين 10,000 و 15,000 ، وفي فلسطين بين 5,000 ، و 6,000 ، وحوالي نفس العدد في سيليسيا، وحوالي نفس العدد في أناضوليا[102] .

ولكن طيبال لم يشر الى اسطنبول . غير أن الكاتب ر . فادالا ، الذي كان قنصلاً فرنسياً في الشرق الأدنى خلال عشرين سنة ، قد لاحظ بأنه كان في اسطنبول جماعة كبيرة من الجزائريين ، رغم أنه لم يعط أي عدد معين[103] . وقد لاحظ أن أهل أفريقيا الشمالية كانوا أيضاً في ايران ، والهند ، بالاضافة الى الولايات العربية من الدولة العثمانية . وما دام الكاتبان ، طيبال ، وفادالا ، يتحدثان عن أهل المغرب عموماً ، فاننا نقدر أن نصف كل عدد كان من الجزائريين ، نظراً للظروف الاستثنائية التي أشرنا اليها سابقاً .

وقد تمتع الجزائريون في الشرق الأدنى بحرية وبسمعة عظيمة ، وتولوا المناصب العالية . ولعلهم حصلوا على هذا الامتياز لشهرتهم كأنصار للجامعة الاسلامية و (مجاهدين) حاربوا « الكفار » الفرنسيين ثم ابتعدوا منهم طالبين الملجأ في الشرق الأدنى كمثال للمسلمين الحقيقيين . وقد تمتع الجزائريون ببعض السمعة المعنوية بين مسيحي الشرق الأدنى ، ولا سيما في سورية ولبنان ، نظراً لموقف الأمير

---

(101) ا.ل.س. « المسلمون الجزائريون » ، في « ر.م.م. » ، م 2 (1907) ، س 507 ـ 508 .
لاحظ بأن هذه الاحصائيات كانت قد جمعت قبل الهجرة الكبيرة التي حدثت بين 1907 ـ 1914 .

(102) « أ.ف.س. » (سبتمبر ، 1921) ص 201 .

(103) ر. فادالا « المغاربة في الشرق » في « أ.ف. » (جانفي ، 1924) ، ص 74 .

عبد القادر سنة 1860 ، حين أنقذ الآلاف منهم من مذبحة أثناء أزمة طائفية . وكانت سورية وحدها تضم 3,342 جزائرياً يعيشون في المدن[104] . أما باقيهم فقد كان يعيش في القرى والمدن الصغيرة . ويقال ان عائلة الأمير عبد القادر وحدها كانت تجمع حولها (3000) جزائري[105] .

ويقر الكتاب الفرنسيون أنفسهم بأن الجزائريين في الشرق الأدنى كانوا يتمتعون بحرية أكثر وتسهيلات أفضل[106] . وليس يهمنا ما اذا كانت هذه الامتيازات قد منحت لهم لأسباب ترجع الى الجامعة الاسلامية . وقد أعطى الجزائريون في الشرق الأدنى الأراضي وتسهيلات أخرى للاقامة . كما أعفوا من الخدمة العسكرية ، وأدخلوا الى كل المؤسسات العثمانية ، بما في ذلك الجيش ، والادارة ، والمدارس[107]. وكان الجزائريون ممثلين في جميع المستويات بعدد من المهندسين، والأطباء ، والضباط ، والكتاب . وقد كان المترجم لدى البلاط العثماني لمدة طويلة ابن أخ للأمير عبد القادر . والجزائريون الذين أقاموا باسطنبول اعتادوا أن يتجمعوا حول جوامع با يزيد ، والفاتح ، وسليمان القانوني . ومعظمهم كانوا عائلات غنية تمارس التجارة والمعاملات المالية . كما اعتادوا أن يستقبلوا أهل أفريقيا الشمالية الذين يأتون إلى الشرق الأدنى كتجار ، وحجاج ، وسياح[108] .

ورغم حريتهم في الشرق الأدنى ، فقد بقي المهاجرون الجزائريون على اتصال مستمر بوطنهم . وباتصالهم المستمر مع ذويهم بالجزائر ، وبما يسقبلونه من أخبار مع الحجاج، والتجار، والسياح. وقد ساهم المهاجرون لا في نشر دعاية الجامعة الإسلامية فقط في الجزائر، بل في تعزيز الروح الوطنية أيضاً. ونظراً لعزلة الجزائر وراء الستار الفرنسي ، فان أخبار المهاجرين ، التي يمكننا أن ندعي بأنها قد اشتملت

---

(104) أ.ل.س. «ر.م.م.» م (1907) ، ص 508 .
(105) طيبال «أ.ف.س.» (سبتمبر، 1921) ، من 201 .
(106) مارشاند «ك.د.ك.» ، م 33 (1912) ، ص 86 ـ 87 . أنظر أيضاً أ.ل.س. «ر.م.» م 2 (1907) ، ص 509.
(107) أن كون بعضهم قد دخل الحيش لا يتناقض مع كونهم كانوا معفيين من الخدمة العسكرية .
(108) فادالا «أ.ف.» (جانفي ، 1924) ، ص 74 .

على معلومات حول التنافس الأوروبي في الشرق الأدنى ، وعلى التقارب العثماني - الألماني ، وعلى ثورة تركيا الفتاة ، كان يمكن أن يعتبرها بعضهم « تخريبية » ولكن هذه الأخبار كانت على أية حال مضيئة للطريق .

ويصر بعض الكتاب الفرنسيين على أن المهاجرين الجزائريين كانوا يضمون متمردين ، ومتعصبين ، وسياسيين . وبناء على ما يقوله فادالا ، القنصل الفرنسي السابق ، فان عدداً كبيراً من الجزائريين اعتاد أن يتجمع حول الشيخ محمد عبده وغيره من زعماء الجامعة الاسلامية[109] .

وقد اعتاد هؤلاء الجزائريون أن يشنوا ، خلال أحاديثهم واتصالاتهم ، « حملة مسمومة » ضد السياسة الفرنسية في الجزائر . فصحافتهم اعتادت أن تصف فرنسا بأنها «أسوأ دولة مضطهدة» للجزائريين. وكانت هجوماتهم مركزة على القوانين الاستثنائية التي يقولون بأنها قد أحالت الجزائريين الى عبيد وبؤساء ، وعلى نظام الاعتقال السري ، وعلى العراقيل التي وضعت في طريق العمل الحر بالدين ، وعلى وضع الأوقاف الاسلامية تحت سلطة الدولة الفرنسية ، وعلى منع الحج الى مكة ، وعلى رفض قبول الجزائريين في الخدمات المدنية ، وعلى تحطيم التقاليد العربية والاسلامية ، وعلى عدم المساواة في توزيع فوائد الضرائب ، وعلى فرض التجنيد الاجباري على الجزائريين[110] .

ولم يكتف الفرنسيون بوقف الهجرة وغلق الحدود بعد « هلع » سنة 1911 ، بل ردوا على دعاية الجامعة الاسلامية بدعايتهم الخاصة ، فالصحيفتان الصادرتان عن الادارة الفرنسية ، « الأخبار » و«المبشر » ، قد ضاعفتا من دعياتهما واصفتين فرنسا بأنها أمة « اسلامية » ومعطيتين معلومات مثبطة عن حالة المهاجرين الجزائريين في

---

(109) نفس المصدر . انظر أيضاً طيبال « أ. ف. س. » (سبتمبر ، 1921) ، ص 201 .

(110) طيبال « أ. ف. س. » (سبتمبر ، 1921) ، ص 202 . بناء على المؤلف ، فإنه أحد صحف المهاجرين كانت تدعى « المهاجر » ، وكان يديرها جزائري « معروف بتعصبه » . والمعروف أن جريدة (المهاجر) كانت تصدر في سورية بإشراف الأمير علي ومحمد شطة . أنظر سعيد الجزائري (مذكراتي) ، ط 2 ، 1968 ، ص 22 . أنظر أيضاً أجرون (الجزائريون المسلمون وفرنسا) . باريس ، 1968 ، ص 1084 حاشية ، 7 . وكذلك (الثقافة) عدد 5 ، نوفمبر 1971 ، ص 108 ـ 118 .

الشرق الأدنى . ونحن نعلم أن صحيفة باسم « فرنسا الاسلامية » قد بدأت بالصدور في الجزائر العاصمة سنة 1913 . وهكذا ، فان عهد الحرب النفسية ، الذي استمر خلال الحرب العالمية الأولى ، قد بدأ .

ولكن حملة الدعاية الفرنسية قد امتدت أيضاً الى الشرق الأدنى . فقد بذل الفرنسيون جهوداً كبيرة لجذب المهاجرين الجزائريين نحو جانب فرنسا . ولذلك وعدوهم بالمعونات ، والأوسمة ، والمعاملة الحسنة . بل ان بعض الجزائريين قد سئلوا أن يتخلوا عن جنسيتهم العثمانية . ونظراً لسمعة وتأثير عائلة الأمير عبد القادر على الجزائريين ، فقد كانت هدفاً للدعاية من جميع النواحي . ويقول أحد الكتاب أن جميع أفراد هذه الأسرة قد أصبحوا مواطنين عثمانيين باستثناء ثلاثة أمراء : أحمد ، عمر ، خالد[111] وقد كان من المقدر للأخير أن يصبح زعيماً وطنياً في العشرينات من هذا القرن .

وتمشياً مع مناوراتها الدبلوماسية ، استدعت فرنسا عام 1911 أحد أبناء الأمير عبد القادر ، وهو الأمير عمر ، إلى باريس لإستلام وسام « ليجون دونور » وقد أعدت لذلك كل وسائل الاحتفالات والإشهار . كما أن وسائل الاعلام الفرنسية والممثلين الفرنسيين في الجزائر والشرق الأدنى قد سخروا دعايتهم ليظهروا أن المهاجرين الجزائريين ، وخصوصاً عائلة الأمير عبد القادر ، لم يكونوا ضد فرنسا[112] . وعزت الصحافة الفرنسية خبراً للأمير عمر يشرح فيه للحكومة الفرنسية (الوضع المؤلم) الذي كان يعيش فيه المهاجرون الجزائريون في سوريا ، وضاغطاً فيه على « الأحوال الصعبة » التي كان هؤلاء الجزائريون يعيشونها[113] .

---

(111) أ.ل.س « ر.م.م. » ، م 2 (1907) ، ص 509 .

(112) إن هذه الخطوة الديبلوماسية قد جاءت عندما كان ابن آخر للأمير عبد القادر وهو الأمير علي ، يتقلد مركز نائب رئيس المجلس (البرلمان) العثماني . وكما سنرى ، فإن الأمير علي كان أيضاً على اتصال مع الألمان . أما فرنسا فإنها قد عينت من جهتها ، نتيجة لمؤتمر الجسيرة (1906) ابن الأمير عبد القادر ، وهو الأمير عبد المالك ، كرئيس للشرطة في طنجة .

(113) أنظر ف . ديمونتي « الجزائر » في « أ. ف. » (جانفي ، 1912) ص 39 . أنظر أيضاً « التايمز » (لندن) ، (9 نوفمبر 1911) ، ص 5 . ويجب أن نذكر بأن زيارة الأمير عمر إلى باريس كانت خلال خريف 1911 ، أي سنة « الهلع » و « الوباء » الأخلاقي في الجزائر .

وبين سنة 1900 1914 كان في فرنسا 10,000 مهاجر جزائري . وحوالي نصف هـذا العدد هـاجـر بين عـامي 1912 ـ 1914 . وبينمـا كـان المهـاجـرون الجزائريون في الشرق الأدنى يعيشون حياتهم في الشرق السهل والكسـول ، كان مـواطنوهـم في فـرنسا يعيشـون حياتهم في أوروبـا الصعبـة ، والنشيـطة ، غيـر أن الجزائريين ، في كلتا الحالتين ، قد وجدوا جواً أكثر حرية ، وأكثر فرصـاً ، وأكثر تنويراً مما في وطنهم.

وقد بدأ الجزائريون في فرنسا يقارنون حياتهم التعسة تحت قانـون الأهالي بالحرية التي وجدوها في مرسيليا ، وبا ـ دي ـ كـالي ، وباريس . ولم يشعـروا ، كعمال ، أنهم كانوا يختلفون كثيراً عن زملائهم عمال فرنسا . وقد أدى بهم الاسهام في الأحزاب السياسية ، والصحافة ، وحرية الاجتماع ، وتبادل الأفكار الى أن يضيفوا ذخيرة جديدة لم يسبق لهم أبداً أن مارسوها ، وبالاضافة الى الفرص المادية والمعنوية التي اقتنوها لوجودهم في فرنسا نفسها ، كانت هناك فوائد عقلية ووطنية . ذلك أنه اذا كـانت طريقـة الحياة في الشـرق الأدنى ليست غريبـة جداً عن طـريقة الحيـاة في الجزائر ، فانها في فرنسا كانت تختلف تماماً .

انه لا يجب على الجزائري في الشرق الأدنى أن يتعلم لغة جديدة ، أو يلبس ثياباً مختلفة ، أو يقتني خبرة خاصة ، أو يسلك سلوكاً مختلفاً ، ولكن ذلك واجب في فرنسا . لذلك بدأ كثير من الجزائريين يدرسون اللغة والثقافة الفرنسية ، ويحضرون المحاضرات العامة كمستمعين جزءا من الوقت ، ويقرأون الصحف ، ويتحدثون عن السياسة ، وهو شيء كان محرماً في بلادهم . فالجزائريون الذين كان عليهم أن لا يسافروا من بلدية الى أخرى داخل بلادهم الا بـرخصة وجـدوا أنفسهـم في فرنسـا يسـافرون ، ويتنـاقشون ، ويجتمعـون ، ويؤلفـون جمعيـات التعـارف ، والتعـاون والاخوة .

والروح المشتركة التي كانت تجمعهم هي أن جميعهم كانوا غـرباء غـادروا والديهم ، ونساءهم وأطفالهم وراءهم . فعاطفة الحنين الوطني كانت جديدة بالنسبة الى هؤلاء الجزائريين الطالبين للفرص في الخـارج . وقد كـانوا يتبـادلون النقـود والرسائل ، ولعل الصحف أيضاً ، مع عائلاتهم في الجزائر . وفي أحيان كثيرة كانت رسائلهم تحتوي على وصف حي، ربما مبالغ فيه، وأفكار مقارنة عن الحياة في فرنسا .

واختلافها عن الحياة في الجزائر .

وقد قادت الحرب العالمية الأولى الى هجرة جزائرية جديدة من العمال ، والجنود الى فرنسا . وكان لهذه الموجة الجديدة نتائج خطيرة على الحركة الوطنية الجزائرية . وسوف نرى حين ندرس العشرينات من هذا القرن أن رواد فترة 1900 ـ 1914 وجنود وعمال فترة 1914 ـ 1917 سيخلقون في باريس أول حزب سياسي جزائري ، وطني ، ثوري ، منظم[114] .

وهكذا هاجر آلاف الجزائريين ، لأسباب سياسية ، واقتصادية ، ودينية ، واجتماعية ، نحو المغرب الأقصى ، تونس ، الشرق الأدنى ، وفرنسا. لقد كانوا يطلبون الحرية ، والاحترام ، والفرص التي لم يجدوها في وطنهم . ونظراً لاتصالات هؤلاء المهاجرين المتواصلة مع عائلاتهم وأقاربهم وللفوائد المعنوية والمادية التي جنوها في الخارج ، فقد ساهموا مساهمة فعالة في تدعيم القضية الوطنية بمهاجمتهم للحكم الفرنسي ، وتنوير مواطنيهم ، والتعريف بالقضية الجزائرية .

ولكن مساهمة المهاجرين في الحركة الوطنية كانت ، مع ذلك ، متواضعة ، ولعل ضعفها الرئيسي يرجع الى أنها كانت مساهمة غير مباشرة وغير حاسمة . غير أنه يجب أن نذكر هنا أن المهاجرين الجزائريين في الشرق الأدنى قد ساهموا بعمق في حركة الجامعة الاسلامية والقومية العربية من خلال صحائفهم ، وقيادتهم ، وسمعتهم كمثال للمجاهدين ، أما المهاجرون الجزائريون في فرنسا فلم يلعبوا دوراً وطنياً هاماً الا بعد الحرب العالمية الأولى .

وهكذا ، فإن الغليان الكبير ، الذي بدأ حوالي 1890 ، كان قد بلغ أوجه سنة 1914 . وبالإضافة إلى عدم الاستقرار الدائم ، وإلى حركة الجامعة الإسلامية ، وإلى حركة الهجرة ، كان هناك عامل جديد على مسرح الحوادث الجزائرية . ذلك أن حركة « الجزائر الفتاة » كانت قد أصبحت حقيقة ، وكانت قد بدأت تلعب دوراً

---

(114) بخصوص الهجرة الجزائرية إلى فرنسا بين 1900 ، 1914 ، أنظر ا . بيرنار « أفريقة الشمالية » ص 9 ، 15 . وقد عارض الكولون الهجرة الجزائرية لأنها تجردهم من اليد العاملة الرخيصة والإستغلال الحر . أنظر كذلك أطروحة عبدالحميد زوزو في نفس الموضوع .

هاماً في توجيه السياسة المحلية . وقد أظهرت نفسها نشيطة بفعالية كحركة نهضة في عدة ميادين كالانعاش الثقافي ، والهيجان السياسي ، والإتجاهات الحديثة والمحافظة في الطبقات الإجتماعية . وسنتناول في الفصل القادم بعض مظاهر هذه النهضة الوطنية .

خلاصة

كان الشعب الجزائري في غليان كبير بين سنوات 1900 ـ 1914 . وقد كانت هناك عوامل كثيرة ساهمت في خلق هذه الظاهرة . فمن الوجهة الداخلية ، شاهدت الجزائر ظهور النخبة المثقفة بالفرنسية ، وانتعاش الثقافة الوطنية عن طريق العلماء ، وميلاد الصحافة الوطنية وتكوين التجمعات السياسية ، ومقاومة عنيفة لفكرة التجنيس والخدمة العسكرية الاجبارية تحت العلم الفرنسي . وقد قاد الى كل هذه التطورات استمرار الاستعمار بطريقة مبالغة ، وحصول الكولون على الحكم الذاتي المالي سنة 1900 ، وخلق المحاكم الرادعة سنة 1902 ، وتجديد قاونون الأهالي ومنشور جونار سنة 1906 الذي كان ضد الحريات المدنية ، وأخيراً اصدار قانون الخدمة العسكرية الاجبارية للجزائريين سنة 1912 .

ومن الوجهة الخارجية كانت هناك أسباب أيضا لهذا الغليان الكبير . فقد تأثر الجزائريون بالوقع النفسي الذي تركته هزيمة فرنسا سنة 1870 ، ونداء الجامعة الاسلامية من الشرق الأدنى ، وصراع الدول الكبرى واحتلال فرنسا للمغرب الأقصى وأزمة فاشودا ، ونشاطات الدعاية العثمانية والألمانية ، وثورة تركيا الفتاة ، وأخيراً حرب ليبيا سنة 1912 .

وهكذا ، فان الحركة الوطنية الجزائرية قد أصبحت عشية الحرب العالمية الأولى ، قوة كبيرة وضعت فرنسا ، منذئذ ، في صف المدافع .. غير أن بدء الحرب ، واعلان حالة الطوارىء ، وقيود الحرب الخاصة قد اضطر هذه الحركة الى سلوك طريق آخر سنتحدث عنه في مناسبة أخرى .



النهضة

1914 - 1900

1. اكتشاف الجزائر من جديد :

بينما لجأت الجزائر القديمة إلى الثورة لمعارضة الحكم الفرنسي ، لجأت الجزائر الفتاة إلى النشاطات الاجتماعية والثقافية لنفس الهدف . وبوحي من روح النهضة ، خلق الجزائريون لأول مرة صحافة وطنية ، ونوادي وجمعيات إصلاحية ، ونادوا بالتحرير عن طريق التعليم . وقد بدأوا لأول مرة أيضاً يحاولون كتابة تاريخ أجدادهم ويبعثون الحياة في وثائق مغطاة بالغبار في لغتهم الوطنية . وهكذا ، فقد شهد العقد الأول من هذا القرن نشاطات حية قادها كل من المحافظين والنخبة.

ذلك أن الكولون قد احتكروا الصحافة إلى سنة 1900 . فعلى المستوى الرسمي كان هناك صحيفتان حكوميتان فقط أنشئتا ووجهتا من الإدارة الفرنسية في الجزائر . فالأولى هي « الأخبار » وهي صحيفة أسبوعية بالفرنسية أسست سنة 1839 . وفي سنة 1909 أصبحت تصدر باللسانين (ست صفحات بالفرنسية وصفحتان بالعربية) . وقد استمرت في الصدور إلى سنة 1934[1] . أما الصحيفة الحكومية الثانية فهي « المبشر » التي أسست سنة 1847 ، وكانت تصدر بالعربية والفرنسية وقد اشتغل عدد من النخبة الجزائرية في إدارة تحريرها في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين[2] .

---

(1) مراد ، «ب.ل.ا.» م 27 (1964) ، ص 10 . ويقول المؤلف أن هذه الجريدة كانت « انتهازية » . ونلاحظ أن عدد 5 يناير سنة 1913 قد جاء فيه أن رئيس تحرير القسم العربي هو السيد عمر بن قدور الجزائري . أما مدير الجريدة عندئذ فقد كان السيد فيكتور باروكان .

(2) لمعرفة محتوى الافتتاحية الأولى ، أنظر نفس المصدر ، ص 10 ـ 11 .

وكان هدف هاتين الصحيفتين الرسميتين هو اطلاع الجزائريين على الأخبار الرسمية وإعطاءهم توجيهاً لصالح فرنسا . ولهذا السبب كانت الصحيفتان أبعد ما تكونان عن التثقيف . وبين 1913 و 1914 خلقت فرنسا صحيفة جديدة بإسم « فرنسا الإسلامية » (لا فرانس اسلاميك) ، التي أنشئت لأغراض دعائية والتي كانت تهدف إلى إعداد الرأي العام الجزائري للحرب العالمية الأولى . ومن سنة 1914 إلى 1918 خلقت فرنسا أيضاً صحيفة « أخبار الحرب » التي كانت ، كما هو متوقع ، للدعاية أيضاً(3) .

ولكن الاحتكار الفرنسي للصحافة انتهى عندما خلق بعض الرواد الجزائريين صحافة وطنية في فاتح هذا القرن . وقد كان هؤلاء الرواد من مختلف الإتجاهات ـ كان بعضهم ليبراليين ينتمون إلى النخبة ، وبعضهم تقليديين مرتبطين بالطبقة القديمة ـ ولكن جميعهم كانوا يريدون استعمال الصحافة كوسيلة للتعبير عن مطالبهم الوطنية .

وقد كان أحد هؤلاء الرواد هو العربي فخار ، الذي خلق جريدة « المصباح » ذات اللسانين ، والتي كانت تتخذ شعار : « جريدة افريقية الصغرى »(4) . وكان هدف هذه الجريدة الإسهام في التفاهم بين المجموعة الجزائرية والمجموعة الفرنسية ، وهناك رائد آخر هو الصادق دندان ، الذي كان يحرر صحيفة « الإسلام » المؤثرة 1912 ذات اللسانين أيضاً . والرائد الثالث هو عمر راسم ، الذي كان يحرر جريدة « الجزائر » الشهرية 1908 ذات اللسان العربي فقط ، وقد كان هدفها هو توعية ، وتثقيف ، وتعليم الجزائريين الوضع العالمي(5) .

ومن بين الجرائد التي أثرت على الرأي العام الجزائري خلال هذا العهد

---

(3) نفس المصدر ، ص 16 . يعطي المؤلف قائمة بأهم الصحف الفرنسية في الجزائر بين 1880 ، 1940 أنظر ص 28 ـ 29 . أقدم جريدة فرنسية غير رسمية استعملت اللغة العربية (والفرنسية أيضاً) هي جريدة (المنتخب) التي صدرت بقسنطينة سنة 1882 ـ 1883 بادارة السيد بول اتيان . وكان من بين المساهمين فيها الشيخ عبد القادر المجاوي .

(4) نفس المصدر ، ص 15 . وقد ظهرت (المصباح) سنة 1904 بوهران ودامت الى سنة 1905 .

(5) « صحيفة جزائرية جديدة » في « ر.م.م. » ، م 6 (1908) ، ص 431 .

(1900 ـ 1914) صحيفة « المغرب » وهي أسبوعية ذات لسان عربي مع اتجاه اصلاحي اسلامي . وكان صاحبها هو السيد بيير فونتانة الفرنسي . ومن الذين كتبوا فيها الشيوخ عبد القادر المجاوي ، والمولود بن الموهوب ، ومحمد بن أبي شنب ، ومحمود كحول ، الخ . وقد استمرت هذه الجريدة عقداً كاملاً (1903 ـ 1913) . ويقال ان محمد عبده الزعيم الإسلامي والمصلح المصري ، قد قال عنها بأنها ، رغم أخطائها : « كانت «مفيدة» للجزائريين الذين جردوا من الصحف العربية الوطنية[6] » . وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك صحف أخرى مؤثرة ، منها جريدة « الفاروق » 1912 التي أصدرها السيد عمر بن قدور الجزائري و« الرشيدي » ، التي كانت بالفرنسية وتستعمل الشعار التالي « بفرنسا للأهالي »[7] ثم جريدة «الحق» .

وهكذا ، فخلال عقد ، خلق الجزائريون صحافة مؤثرة بلغتهم الخاصة . وقد كانت قسنطينة والجزائر ووهران مراكز النشاط الصحفي خلال هذا العهد، ولا شك أن شكل وتكتيك الصحافة الجزائرية الأولى كانا يفتقران إلى شيء ، ولكن روحها ، واتجاهها ، والقضايا المدروسة ، كانت هامة كثيراً في بلورة القضية الوطنية للرأي العام الجزائري.

واعتقاداً منهم بأن للصحافة « رسالة حضارية »[8] ، استعمل الجزائريون صحفهم للهجوم على الإدارة الفرنسية وإيقاظ مواطنيهم الغافلين . وعندما غضب الكولون من هذه الهجومات « العنيفة » اعترف الجزائريون بأن هجوماتهم كانت في صالح فرنسا نفسها[9].

ومن بين القضايا التي أتاحت للصحافة الوطنية فرصة ذهبية للهجوم على الإدارة الفرنسية قضية التجنيد العسكري الإجباري بالنسبة للجزائريين . فقد أثارت هذه

---

(6) نص على ذلك مراد ، «ا.ب.ل.ا.» م 27 (1964) ، ص 15 نقلاً عن « المنار » ، (14 ماي ، 1903) .

(7) أجرون ، « سياسة جزائرية ليبرالية » ، في « ر.هـ.م.ك. » ، م 6 (أبريل ـ جوان ، 1959) ، 128 .

(8) ابن حبيلس ، ص 115 .

(9) نفس المصدر ، ص 116 .

القضية مناقشات حادة في المجلس الوطني الفرنسي ووسط الرأي العام الفرنسي من سنة 1906 إلى 1912 . ولذلك وجدت الصحافة الوطنية ثغرة ضعف في الحكم الفرنسي ووجهت حملة عنيفة ضده ، وأثناء هذه الفترة قال أحد الملاحظين بأن الجزائريين كانوا يوشوشون بكلمتي « الحقوق » و« التقدم »[10].

ولكن الجزائريين كانوا على وعي من أن تهجمات صحافتهم العنيفة المستمرة ضد الإدارة الفرنسية قد لا تخدم قضيتهم جيداً ، لذلك نادوا بسلوك أكثر حكمة وهدوءاً للصحافة . ان بعضهم قد أوصى الصحافة الوطنية بأن تتفادى أولاً ، التهجمات الشخصية والفضائح ، وثانياً ، أن تنقل الأخبار بتحر ، وثالثاً ، أن تكون شجاعة في التعبير عن آرائها وذلك باتقاء استعمال الأسماء المجهولة ، ورابعاً ، أن تثق بأن الإدارة الفرنسية ستقبل مطالبها[11] وباختصار ، فقد طلب هؤلاء الجزائريون من الصحافة أن تكون مسؤولة وممثلة للرأي العام ، لكي تنال الاحترام والتأييد للقضية التي تدعو إليها.

ومن المظاهر الهامة لهذا العهد طبع وإحياء الأعمال التاريخية الجزائرية ، فالعصر الذهبي قد فتح أمام الجيل الجديد ، الذي كان قد نسي في أغلب الأحيان ، مساهمات أجداده في الحضارة الإنسانية . وفي هذا الاحياء للتاريخ الوطني تحقيق للربط بين الأجيال . وبين سنوات 1900 ، 1910 ، نشرت أعمال ابن عمار ، وابن مريم ، والورتلاني ، والغبريني[12] . وكل هذه الأعمال كانت قد كتبت في أو عن العهد الجزائري الذي يوافق العصور الوسطى وعصور النهضة والتقدم في أوروبا . ففي ذلك الوقت كانت الجزائر تتمتع بحياة ثقافية صحية ، واقتصاد زاهر ، وقيادة سياسية قوية تحت أسر ملكية مختلفة . ولا شك أن ناشري تلك الأعمال التاريخية كانوا يعنون ذلك العهد حين فتحوا أمام مواطنيهم الجهلة والمضطهدين الأبواب على بعض أنوار ماضيهم.

---

(10) فخار ، «ر.م.م.» ، م 7 (جانص - أبريل 1909) ، ص 3 .

(11) ابن حبيلس ، ص 132 وما يليها .

(12) هي على التوالي نحلة اللبيب والبستان ونزهة الأنظار وعنوان الدراية . أنظر مقالنا « مدارس الثقافة العربية في المغرب العربي » (مجلة معهد البحوث والدراسات العربية) القاهرة ، عدد 9 ، 1978 ، ص 43 - 79 .

وفي سنة 1907 ألف جزائري مثقف موسوعة تراجم شخصية في مجلدين تناول فيها مشاهير الجزائريين الذين ساهموا في التاريخ السياسي ، والاجتماعي ، والثقافي لبلادهم . وذلك هو أبو القاسم الحفناوي الذي كان معلماً ، وصحفياً ، ومؤرخاً . وعنوان هذه الموسوعة يدل على محتواها فقد سماها « تعريف الخلف برجال السلف »[13] . وحوالي نفس الوقت (1903) نشر في الإسكندرية كتاب هام عن حياة وتراث الأمير عبد القادر بعنوان « تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر » . وقد أعد هذا العمل محمد باشا ، ابن الأمير ، الذي كان يتمتع بمركز محترم وبسمعة واسعة في الشرق الأدنى . ولا شك أن « تحفة الزائر » كان قد أحضر إلى الجزائر وقرأه الجزائريون الذين كانوا متعطشين في هذا الوقت لمعرفة حياة أجدادهم . وفي سنة 1913 نشر الكاتب الفرنسي ، جورج ايفير حياة ومذكرات حمدان خوجة ، الذي سبق لنا الحديث عن مساهمته في الحركة الوطنية الجزائرية . وهكذا فإنه بمطلع سنة 1914 كانت الحياة الثقافية الجزائرية قد بعثت.

وبالإضافة إلى تأثير النهضة الجزائرية على الصحافة والتاريخ ، فإنها قد بدت واضحة وبفعالية في عدد من النوادي والجمعيات الثقافية . وبين سنوات 1890 و 1914 ، كان هناك عدد من هذه المراكز التي كانت تؤدي وظيفة المدرسة ، وخلوة الأحاديث ، وملتقى اجتماعي للرياضة ، والإسعاف والكشافة ، ومقر للنشاط السياسي . وأكثر أسماء هذه المراكز والجمعيات تدل على روحها وعلى برنامجها : مثل التوفيقية ، ودادية العلوم الجديدة ، نادي التقدم ، نادي الشباب الجزائري ، جمعية الهلال ، نادي الاتحاد ، والرشيدية وغيرها.

ومن بين المنظمات الثقافية التي ساهمت في النهضة الجزائرية الجمعية التوفيقية . وقد أنشئت هذه الجمعية سنة 1908 ، ثم أعادت النخبة تنظيمها سنة 1911 . وبعد سنة واحدة كان لها مئتا عضو . وبناء على قانونها الأساسي ، فإن هدفها كان جمع أولئك الجزائريين الذين يرغبون في تثقيف أنفسهم وتطوير الأفكار العلمية والاجتماعية[14] . وقد كان رئيس هذه الجمعية هو الدكتور ابن التهامي ،

(13) ظهر الجزء الأول منه سنة 1906 والثاني سنة 1907 . وكان الحاكم العام شارل جونار هو الذي وجه الحفناوي للقيام بهذه المهمة .

(14) اشار الى ذلك ميللي ، « شباب النخبة الجزائريين » في « ر.ب » ، م 20 (1913) ، ص 165 .

الذي كان أحد زعماء النخبة في ذلك الوقت . أما نائب رئيسها فقد كان السيد محمد صوالح ، الذي كان هو الآخر عضواً نشيطاً في النخبة.

وقد نظمت الجمعية التوفيقية سلسلة من المحاضرات العلمية سنة 1911 قد تساعدنا على فهم العهد الذي نتناوله :

محاضرات نظمتها الجمعية التوفيقية، 1911 (15)

المتكلم	موضوع المحاضرة
بيلتي	فوائد التعارف
بيلتي	القانون الاسلامي العام
قاسمي	الحضارة العربية
صوالح	ملامح العالم الإنساني المعاصر
برانتكي	الأدب المعادي للإسلام
آيت قاسي	عقوبة الموت
معاشو	نابليون في مصر

ولا شك أن هذه الجهود توضح موضوعين هامين : أحدهما دور الجمعية التوفيقية كمنظمة ثقافية ، والثاني الروح التي كانت سائدة في الجزائر في عهد النهضة.

وقد كان إلى جانب الجمعية التوفيقية ، مراكز أخرى لعبت دوراً هاماً خلال هذه الفترة : منها نادي صالح باي في قسنطينة والجمعية الرشيدية في العاصمة . فقد أسس نادي صالح باي بعض المثقفين الجزائريين وأيده الفرنسيون العاطفون على الجزائريين . وليس لدينا الآن الوثائق التي تعطينا تاريخ تأسيس هذا النادي ولكننا نعلم أنه في سنة 1908 كان يضم ألفاً وسبعمائة عضو ، وكان له فروع كثيرة في مدن الجزائر(16) وفي سنة 1911 أخبر ابن الموهوب ، أحد المثقفين الجزائريين البارزين في ذلك الوقت ، مؤسس النادي ، السيد أريب بأن « مناقبكم العالية ، وإخلاصكم ،

---

(15) المرجع : نفس المصدر ، ص 165 ـ 166 .

(16) « نادي صالح باي » في « ر.م.م. » م 7 (1909) ص 125 .

وحرمة إدارتكم (للنادي) بالإضافة إلى حزمكم ، تستحق الاحترام والإعجاب والإعتراف[17].

أما أهداف النادي فقد كانت نشر التعليم والمساعدة على تحرير الجماهير الجزائرية والتوفيق بين المجموعتين الفرنسية والجزائرية . وبناء على قول ابن حبيلس ، الذي كان عضواً في النخبة عندئذ ، فإن أهم أهداف النادي كانت تنظيم دروس في التعليم العام والمهني ، وعقد محاضرات علمية وأدبية ، وخلق جميعات خيرية ، والدعوة إلى العمل والأخوة والتعاون ، ولكن أهداف النادي لم تكن لتتناقض مع مبادىء الإسلام[18] . بل كانت لإزالة البغض ، ومعالجة الأمراض الأخلاقية ، ومحاربة الأنانية والظلم ، ومساعدة الجزائريين على إظهار مواهبهم الأدبية[19].

وقد ساهمت الجمعية الرشيدية أيضاً في النهضة بأهداف وملامح شبيهة بأهداف وملامح نادي صالح باي . أسس هذه الجمعية ، سنة 1894 ، شبان جزائريون من خريجي المدارس الفرنسية الجزائرية ، وبتأييد بعض الفرنسيين العاطفين على الجزائريين . وكانت الجمعية تصدر « نشرة » بالعربية والفرنسية ، وتعقد سلسلة من المحاضرات الهامة ، وتساعد على نشر التعليم والأخوة . وكان لها فروع في كل أنحاء الجزائر . وكان فرع الجزائر وحده يضم 251 عضواً سنة 1910 . وقد كان من بين أعضائها الدكتور ابن التهامي والدكتور ابن بريهمات . ويشير برنامجها إلى أن أهم هدف لها هو مساعدة الشباب الجزائري على العمل ، والتفكير ، والعيش عيشة حديثة[20].

ولعل قائمة المحاضرات التي قامت بها الجمعية الرشيدية ، سنة 1907 ، تساعدنا لا على فهم مساهمتها فقط ، بل على فهم ملامح النهضة الجزائرية أيضاً خلال العهد الذي ندرسه .

---

(17) نص على ذلك ابن حبيلس ، ص 173 من «دبييش دي كونستانتين » ، (11 ماي ، 1911) . ويقول المؤلف بأن ابن العابد كان مؤسساً آخر للنادي . أنظر ص 92 .

(18) نفس المصدر ، ص 92 .

(19) نفس المصدر ، ص 173 ـ 174 . أنظر أيضاً « نادي صالح باي » في « ر.م.م» » (1909) ص 125 .

(20) «الجزائر» في «ر.م.م.»، م 10 (1910)، ص 438 .

المحاضرات التي نظمتها الجمعية الرشيدية ، 1907[21]

عنوان المحاضرة	المتكلم	اللغة
التضامن والأخوة بين المسلمين	ولد عيسى مصطفى	عربية
الكهرباء	قندوز	عربية
تاريخ الطب العربي	ابن بريهمات	فرنسية
التعليم	فتاح	عربية
مرض السل	ابن التهامي	فرنسية
تاريخ الأدب العربي	ع. ابن سماية	عربية
التشريع الإسلامي في الجزائر منذ 1832	ع. الأشرف	عربية
الاسلام واللغات الأجنبية	ابن زكري	عربية
الحضارة العربية قبل وبعد الإسلام	ع. المجاوي	عربية
التنظيم السياسي لفرنسا	بلحاج	عربية
الضوء: ملكيته وتطبيقه	قندوز	عربية
تاريخ التجارة	ابن قتال	فرنسية
التوفيق بين الإسلام والتقدم	ابن رحال	فرنسية
الوضع السياسي والمعنوي	ولد عيسى مصطفى	عربية
فرنسا: الحرية وتفوق اللغة الفرنسية	ب. الحفناوي	عربية

وكل من نادي صالح باي والجمعية الرشيدية والجمعية التوفيقية ساهم مساهمة فعالة في يقظة الجزائر خلال هذه الفترة . ذلك أن زعماءها . بالتركيز على التعليم ، والتقدم ، والتحرر ، قد حاولوا أن يطوروا المجتمع الجزائري وأن يجعلوا منه مجتمعاً حديثاً ومتنوراً بدل مجتمع قديم وتقليدي . كما أن الأفكار الأوروبية قد ساهمت ، خلال النادي والجمعيتين ، في النهضة الجزائرية.

ولكن زعماء هذه المؤسسات لم يكونوا لا ثوريين ولا وطنيين متطرفين بل أنهم لم يحاولوا حتى استعمالها لنشاط معاد لفرنسا : ان بعضهم كانوا يحاولون أن يشجعوا

(21) المرجع : نفس المصدر ، ص 437 ـ 440 .

الإدارة الفرنسية على مساعيها في التعليم والأعمال الخيرية[22] . ونظراً لهذا الموقف المعتدل نحو الإدارة الفرنسية ، فإن زعماء هذه المؤسسات كانوا تحت هجوم العناصر الجزائرية المحافظة في ذلك الوقت . أما الجيل الجزائري الحاضر ، فقد يعتبر أولئك الزعماء متعاونين مع العدو . ولكن الحقيقة التاريخية هي أن معظم أولئك الزعماء كانوا يعملون بكل حمية من أجل تنوير وتقدم بلادهم . لقد كانوا يبشرون « بجزائر فتاة » لا يمكن أن تتحرر الاّ بالتعليم والتقدم والتسامح .

في سنة 1911 كتب فرنسي عارف بشؤون الجزائر قائلاً : ان من بين خمسة ملايين جزائري لا يوجد أكثر من 450 مثقفاً . ويزيد الكاتب فيقول أن من بين هؤلاء المثقفين عدداً لا يتجاوز تعليمه تعلم «مستمع لسان توماس الاكويني»[23] ! ومهما كانت قيمة هذا الرأي فإنه يبرهن على ضعف النخبة الجزائرية في ذلك الوقت .

ان من بين الملامح الصارخة للاحتلال الفرنسي في الجزائر هذا الاهمال المتعمد لتعليم الجزائريين . ان هذه الحقيقة يجب أن تؤكد عليها لأن هناك من ما يزال يعتقد بأن فرنسا كانت تقوم« بِمُهِمَّة حضارية » في الجزائر، وأن الجزائريين قد « استفادوا » من هذه المهمة، في سنة 1913 اعترف الفرنسي أرنول فان جيناب « بأننا قد حضرنا الجزائر جزئياً من الوجهة المادية ، ولكننا لم نفعل شيئاً تقريباً بخصوص الناحية العقلية التي هي أكثر أهمية[24] ».

كان الكولون يحتجون بأن الجزائري « غير قابل للتصحيح » و« غير قابل للتعليم » . فلويس تيرمان ، الذي قضى عقداً (1881 ـ 1891) كحاكم على الجزائر ، قد أخبر مستمعيه ذات مرة قائلاً : « أن التجربة قد دلت على أن . . الأهلين (الجزائريين) الذين أعطيناهم تعليماً كاملاً سوف يصبحون خصوماً لنا[25] » . ولكيلا يرى الجزائريون النور العلمي ، أغلق الكولون أبواب التعليم في وجوههم ، أو اكتفوا حين يسمحون بذلك بتعليم لا تتجاوز قيمته تعليم « مستمع لسان

(22) ابن حبيلس ، ص 92 ، 173 وما يليها .
(23) ج. الود في « المشكل الأهلي الجزائري » ، كما أشار اليه ابن حبيلس ، ص 29 .
(24) انظر « العقلية الأهلية في الجزائر » في «م.ف.» ، م 106 (1913) ، ص 688 .
(25) نص على ذلك أوكتاف ديبون ، « البربر في فرنسا » في (ا.ف.س.) (سبتمبر 1925) ، ص 444 .

توماس الاكويني » كما يقول ألود.

ففي مؤتمرهم الذي عقدوه في عاصمة الجزائر سنة 1908 ، صوّت الكولون في صالح اللائحة التالية بخصوص تعليم الجزائريين : « ان المؤتمر ، نظراً إلى أن تعليم الأهالي (الجزائريين) سيعرض الجزائر إلى خطر حقيقي . . يعبر عن رغبته الآتية وهي : أولاً ، ان التعليم الإبتدائي للأهالي يجب وقفه . . »[26] . وهكذا ، فإن بعض الفرنسيين الرسميين والكولون قد وحدوا جهودهم لمنـع الجزائـريين من التعليم ، خوفاً من أن يقودهم ذلك إلى اليقظة والوطنية .

فإذا أخذنا في الاعتبار عدد الجزائريين ، الذي كـان خمسة مـلايين نسمة ، وعدد الكولون ، الذي كـان حوالي نصف مليـون فقط ، فإن الإحصـاءات التاليـة ستعطي للقارىء فكرة عن قضية التعليم في الجـزائر وكيف عـاملتها فـرنسا . ومن الملاحظ أن هذه الاحصاءات قد أخذت من مصدر معروف بأنه صوت من أصوات الكولون في الجزائر .

قروض (بالفرنك) للتعليم العام في الجزائر، 1902 ـ 1908[27]

السنة	التعليم العام للكولون	التعليم العام للجزائريين
1902	5,081,823	1,389,274
1903	5,558,978	1,179,165
1904	5,732,003	1,299,424
1905	7,847,368	1,314,234
1906	8,189,649	1,385,064
1907	8,955,390	1,549,464
1908	9,923,368	1,617,639

(26) نص على ذلك ادوارد دي بيللي ، « ملاحظات عن السياسة الأهلية » (مارس ، 1914) ، ص 102 ـ 103 .

(27) المرجع : «أ.ف.» ، (جانفي ، 1908) ، ص 23 . ص 23 . ويجب أن نلاحظ أن التعليم كان يدار عن طريق الدولة لا عن طريق خاص .

فإذا عرفنا أن هذه الإحصاءات قد أعدت في وقت « تحسين » التعليم للجزائريين زال استغرابنا من قول ألود من أنه لم يكن هناك أكثر من 450 مثقفاً جزائرياً خلال العهد المدروس.

ويعزو بوسكي ، أحد المدافعين عن الاستعمار الفرنسي ، نقص التعليم بين الجزائريين إلى « الحواجز الشرعية والدستورية »(28) أي إلى قضية الجنسية . فهو يقول ان على المرء أن يكون فرنسياً لكي يتمتع بكل الحقوق ، بما في ذلك التعليم . وما دام قرار مجلس الشيوخ المعروف ـ بسانتوس كونسيلت الصادر عام 1865 قد جعل الجزائريين في حالتهم الشخصية غير متناسبين مع الجنسية الفرنسية ، فلا حق لهم أن يطالبوا بكل الحقوق كمواطنين . ان هذا « الحاجز الشرعي » قد وقف هكذا بين الجزائريين والتعليم . ولكن بوسكي يعرف أن الحواجز التي يتحدث عنها قد أقامها أجداده هو ، وأنها قد بقيت بالقوة منذئذ . كيف اذن يمكن للجزائريين أن يتخلصوا من هذا الحاجز الشرعي المفروض عليهم لكي ينالوا التعليم ، من غير اللجوء إلى وسائل « غير شرعية »(29) » ؟ .

ونظراً إلى أن الحظ فقط هو الذي حالفهم ، فإن أولئك الجزائريين القليلين الذين حصلوا على بعض التعليم كانوا يسمون « بالمحظوظين » ، ففي المدارس نسي هؤلاء « شقاء الشوارع » والأحياء القذرة وكانوا ينظرون إلى أساتذتهم على أنهم « مبشرون » بالحضارة وأنهم قد كرسوا أنفسهم لخدمة التعليم بقطع النظر عن أصل طلابهم ، وكانوا يعجبون بالأفكار الغربية ويثبتون أكثرها في حياتهم الخاصة . ان بعضهم ، ولا سيما أولئك الذين جاءوا من الأحياء القذرة والمناطق الفقيرة في الأرياف الجزائرية كان يذهب به الخيال فيتصور أنه يعيش عهد 1789(30) ، ولكن أية حقيقة مصدمة لهم حين خرجوا من المدارس ليواجهوا واقع المجتمع !

ان التدهور الخطير للتعليم قد هز أولئك الجزائريين سواء كانوا من النخبة أو من

---

(28) «و.ا.» م 3 (1954) ، ص 22 .

(29) ولكن بوسكي اعترف بأن الجزائريين المتجنسين (أي أولئك الذين تخلوا عن أحوالهم الشخصية وقبلوا الجنسية الفرنسية كما حددها قانون سنة 1865) ، لم يتمتعوا بكل الحقوق التي كان يتمتع بها الفرنسيون . أنظر نفس المصدر .

(30) عباس ، ص 114 . ويعني عباس بذلك عهد الثورة الفرنسية رمز الحرية والاخاء والمساواة .

التقليديين . لقد اقتنعوا بأن الجزائر ستعود إلى الخلف إذا لم يعمل شيء في الموضوع . وحين كان الشيخ ابن الموهوب يردد كما سنرى قوله ان الجزائر قد انحدرت إلى هوة التدهور ، فإنه بلا شك كان يقصد هذه الحالة الخطيرة للتعليم .

أما من جهتهم فقد خلق الجزائريون الجمعيات التنويرية والنوادي الثقافية، بالإضافة الى الصحافة ، لكي يساعدوا على انقاذ مواطنيهم من الانحطاط . وزيادة على ذلك ، فقد كانوا دائماً يضغطون على قضية التعليم في مطالبهم من فرنسا . ففي المجالس المحلية والمحاضرات ، والعرائض ، والصحافة كانت هذه القضية تشغل اهتمامهم ، كما أن دعوة الشعب إلى اليقظة والعمل ، والتقدم ، كانت مظهراً آخر لهذه الحملة التعليمية . إن هؤلاء الجزائريين المتنورين ، سواء كانوا من النخبة أو من التقليديين ، قد اقتنعوا بأن النهضة التي كانت قد بدأت تتقدم لا يمكن أن تنجح من غير التعليم .

كما ساهم الشعر ، والأدب الشعبي ، والرسم ، والموسيقى ، والمسرح أيضاً في النهضة الثقافية . ومن بين شعراء هذه الفترة نجد ابن الموهوب ، وكحول ، والمجاوي . ونظراً للإضطهاد السياسي ، فان الأدب الشعبي قد احتل مكاناً بارزاً خلال الفترة المدروسة .

وقد ساهمت عائلة راسم في حقل الرسم ، مع التركيز على الحوادث التاريخية والحياة الاجتماعية . كما أن جماعة من الجزائريين قد خلقت مسرحاً وطنياً ، مستفيدة من التجربة الفرنسية . ان هؤلاء الفنانين قد ساهموا في المحافظة على اللغة والموسيقى الشعبية . كما خدموا قضية التنوير الفكري بمعالجتهم للمشاكل الإجتماعية بطريقة ساخرة وبترجمتهم لبعض الأعمال الأوروبية المشهورة إلى اللغة الوطنية[31] .

وبالإضافة إلى هؤلاء الشعراء ، والفنانين ، والصحافيين ، شارك في النهضة الجزائرية مجموعتان أخريان كبيرتان هما كتلة المحافظين وجماعة النخبة . وقد كانت

---

(31) أنظر سعد الدين بن شنب «الأدب الشعبي» في «مدخل الى الجزائر» ، (باريس :: مكتبة أمريكا والشرق ، 1957) ، ص 307 .

مصالحهما في كثير من الأحيان متضاربة ، ولكن في صراعهما ، وتناقضاتهما ، وحملاتهما من أجل تحرر الجزائر ، كل على طريقته الخاصة ، قد أعطتا للنهضة دفعة قوية . دعنا الآن ندرس طبيعة ، وبرنامج ، والدور الوطني لكل منهما :

2 ـ كتلة المحافظين:

يتفق علماء السياسة على أن عبارة « محافظ » غالباً ما تضلل ، لأنها تغير معناها من مكان إلى مكان ومن وقت إلى آخر . وبخصوص الجزائر فان كلمة « المحافظية » تعني بقاء الحالة الراهنة لمعارضة الأفكار الغربية ، والتجنيس ، والتجنيد الاجباري في الجيش الفرنسي ، وكل الخطط التي قد تدخل تغييرات متطرفة إلى المجتمع الجزائري . أما على المستوى الثقافي فإن المحافظية الجزائرية كانت تعني الإبقاء على النظم الإسلامية ، والتعليم العربي ، والقيم القديمة . ومن الوجهة السياسية كانت تعني الاذعان إلى إرادة الله حتى تحدث معجزة تخلص الجزائري من الرومي .

ان الأحزاب السياسية بالمعنى المتعارف عليه لم تكن معروفة في الجزائر خلال العهد المدروس . وكانت الجماعة السياسية الوحيدة هي « لجنة الدفاع عن مصالح المسلمين » ، التي يبدو أنها كانت قد أنشئت سنة 1908 . أما غير ذلك ، فلم يكن يوجد سوى الهيئات الإجتماعية والثقافية التي تألفت حول بعض النوادي ، كنادي صالح باي في قسنطينة والجمعية الرشيدية في العاصمة . كان هناك بالطبع ، عدد من الجمعيات الاخوانية التي لعبت دوراً شبيهاً بدور الأحزاب السياسية . ولكن بحلول عام 1900 بدأت هذه الجمعيات الاخوانية تفقد قوتها السياسية وأصبحت على العموم نظاماً روحياً غامضاً . فكيف يمكن ، اذن ، أن يدعى الانسان بأنه قد كان في الجزائر خلال الحقبة المدروسة كتلة للمحافظين ؟

نعني « بكتلة المحافظين » كل الطبقات الجزائرية التي قبلت المحافظية بناء على التعريف السابق . كانت هذه الكتلة تتكون من المثقفين التقليديين أو العلماء ، ومن المحاربين القدماء ، ومن زعماء الدين ، وبعض الاقطاعيين والمرابطين . وقد كان بعض هؤلاء معلمين ، اوممثلين نيابيين معينين تعييناً ، ومصلحين يؤمنون بالجامعة الإسلامية ، وصحفيين . كما كان بعضهم ينادون بالتقدم ، والتسامح ، والتعليم .

وبالإضافة إلى ذلك ، فقدْ كان منهم من ترك المقاومة وانغمس في الغموض الديني والسلبية المجردة .

ولكن نلاحظ وجود كثير من الملامح المشتركة بين جميع أعضاء هذه الكتلة . فقد كانوا جميعاً مؤيدين متحمسين للوطنية (بشكلها القديم) والجامعة الإسلامية . كـانوا الأعـداء غير المساومين لفكرة التجنس ، وللخـدمة العسكـريـة تحت العلم الفرنسي ، وللتجديد على الطريقة الغربية . ثم أنهم قد طوروا ، ككتلة ، برنامجاً جديراً بالدراسة . ولم يكن برنامج الكتلة المحافظة معقداً كثيراً . فقد كان يشتمل على النقاط الهامة التالية :

1 ـ المساواة في التمثيل النيابي بين الجزائريين والكولون .

2 ـ المساواة في الضرائب والفوائد من الميزانية .

3 ـ الدعوة إلى الجامعة الإسلامية .

4 ـ معارضة التجنيس والتجنيد العسكري الاجباري .

5 ـ الغاء قانون الأهالي وكل الإجراءات الأخرى التعسفية .

6 ـ استرجاع العمل بنظام القضاء الإسلامي .

7 ـ احترام التقاليد والعادات الجزائرية .

8 ـ نشر وإصلاح وسائل تعليم اللغة العربية .

9 ـ عدم استعمـال العنف .

10 ـ حرية الهجرة ، ولا سيما نحو الشرق الأدنى .

ونظراً إلى أن المحافظين لم يكونوا ينتمون إلى منظمة منضبطة محددة ، فإن برنامجهم لم يكن محدداً بوضوح ، كما كـان غير مفهـوم بالضبط من كـل أعضاء الكتلة . معظم هؤلاء الأعضاء كانوا على اتفاق بأن الجزائر لا تستطيع أن تهزم فرنسا وحدها . لذلك فإن الإبقاء على الشخصية الجزائرية ، ومقاومة كل خطط الفرنسيين لإذابة الجزائر ، والتضامن بين جميع المسلمين ، كانت ، في نظرهم ، هي ضمانات الإنتصار .

كان المحافظون يعتقدون أن فرنسا قد برهنت على أنها لا مبالية وتعسفية منذ 1830 وهم يحتجون بتجربتهم الماضية لكي يظهروا للمتطرفين بأنهم كانوا على خطأ إذا كانوا يعتقدون أن فرنسا ستسلم بسهولة. وبهذا المعنى، فانه يمكن أن يقال أن

المحافظين كانوا وطنيين وأعداء للوطنية في نفس الوقت . ان الكتلة قد عارضت بشدة رأي جماعة النخبة بخصوص التجنيس والتغريب ، ولكنها وقَفَتْ ، على العموم ضد التقدم والتحرر عن طريق التعليم في الجزائر ولهذا السبب ، فإن هذه الكتلة كانت قد استعملت ، في بعض الأحيان ، من الكولون والإدارة الفرنسية كغطاء لمحاربة الحركة الوطنية .

وإلى جانب المرابطين ، والأعيان والإقطاعيين ، فإن الكتلة قد ضمت إليها عدداً صغيراً من المثقفين التقليديين أو العلماء . وقد تكونت هذه الطبقة في المدارس القرآنية ، والمدارس الفرنسية ـ الجزائرية ، ثم في بعض جامعات الشرق الأدنى . ومن بين الشخصيات التي لعبت دوراً هاماً في هذه الطبقة الشيوخ عبد القادر المجاوي[32] ، سعيد بن زكري ، عبد الحليم ابن سماية ، حمدان بن الونيسي ، ومولود بن الموهوب . وقد احتل الأخير مكاناً بارزاً في هذه الطبقة وتقلد دوراً هاماً في شؤون الكتلة . ومن الممكن القول بأنه كان متحدثها غير الرسمي .

وقد كان هؤلاء العلماء الجزائريون بين سنة 1900 ـ 1914 معاصرين للشيخ محمد عبده ، ورشيد رضا ، وزعماء آخرين لحركة الجامعة الإسلامية في الشرق الأدنى . وكان أحدهم ، وهو الشيخ حمدان بن الونيسي ، أستاذ عبد الحميد بن باديس المصلح الجزائري المستقبل ، قد هاجر حوالي 1910 إلى المدينة ، حيث مات . ان هؤلاء العلماء كانوا الممثلين للثقافة الجزائرية القديمة والمتحدثين باسم الجامعة الإسلامية في الجزائر .

ولكن ليس كل زعماء الكتلة كانوا أعداء للإصلاح . واللذين عارضوا التغيير فعلوا ذلك خوفاً من أنه قد يؤدي إلى دمج الجزائر في فرنسا . إن المنادين بالإصلاح كانوا منقسمين إلى جماعتين : فالقسم الأول أراد التغيير ولكن داخل الإطار العربي الإسلامي للجزائر . وبينما رفض أصحاب هذا القسم التجنيس والتعليم الإجباري الفرنسي ، طلبوا من فرنسا تنظيم المدارس العربية، واسترجاع العمل بالقضاء

(32) عن المجاوي أنظر أيضاً ما كتبه حمزة بوكوشة «شيخ الجماعة عبد القادر المجاوي» في مجلة (الثقافة) العدد 10 ، سبتمبر 1972 ، ص 7 ـ 14 . وتوجد ترجمته أيضاً في (التقويم الجزائري) للشيخ كحول ، 1911 ـ 1913 .

الإسلامي بالنسبة للجزائريين ، والمساواة في الحقوق السياسية ، وعدم التدخل في العادات والتقاليد الجزائرية . ان شعار هذا القسم من كتلة المحافظين كان : الإصلاح ، ولكن من خلال المحافظة على الشخصية الجزائرية وتقاليدها . وقد كان أغلب أعضاء الكتلة ينتمون إلى هذا الجناح .

أما القسم الثاني فقد ذهب إلى حد تشجيع التعليم بالفرنسية للجزائريين وحمل رسالة فرنسا الحضارية في الجزائر . ولكن من الغلط أن نسمي هذا الجناح من الكتلة متطرفاً . والحق أن هذا القسم قد عارض أيضاً التجنس ، والخدمة العسكرية الإجبارية ، والإندماج عموماً . لقد قبل أعضاؤه بعض الإصلاحات « المتطرفة » ، ولكن دون تناقض مع الواقع الجزائري . فكان شعار هذا الجناح : الإصلاح بكل الوسائل ، لأن المجتمع الجزائري كان في أحط الدرجات من التدهور . وكان المتحدثون بإسم هذا الجناح هم ابن الموهوب، المجاوي، ابن رحال، وابن سماية.

كان الشيخ عبد القادر المجاوي أحد قادة الإصلاح في الكتلة المحافظة . وكان يتمتع بشعبية واحترام كبيرين بين الجزائريين في وقته ، فقد كان أستاذاً للعربية والشريعة الإسلامية في المدرسة الجزائرية ـ الفرنسية بالعاصمة وقسنطينة مدة سنوات . وفي سنة 1914 اعترف أحد الكتاب الجزائريين بأن الشيخ المجاوي كان في خدمة التعليم منذ أربعين سنة[33] . وقد ساهم المجاوي بفعالية في النهضة الجزائرية بكتبه ، ومحاضراته ، ونشاطه في الصحافة .

ونتيجة لدراسته العربية والفرنسية، أصبح المجاوي على معرفة عميقة بالمجتمع الجزائري والعالم الإسلامي ، بالإضافة إلى الثقافة الأوروبية . وقد كانت معظم كتاباته موجهة ضد الآفات الإجتماعية ، والخرافات ، والعادات القديمة التي كان يراها « في الحقيقة ، مصائب »[34] . وكان ينادي بالإصلاح الإجتماعي ، والتعليم ، واليقظة .

---

(33) ابن حبيلس ، ص 83 . ولد المجاوي في تلمسان سنة 1848 وتوفي بقسنطينة سنة 1914 . وقد علم في هذه المدينة ومدينة الجزائر وتخرج عليه عدد كبير من الطلبة . وله عدة تآليف منها (ارشاد المتعلمين) الذي أثار ضجة عند صدوره سنة 1877 ، أنظر مقالنا (مدارس الثقافة العربية) . في مجلة معهد البحوث والدراسات العربية ، عدد 9 ، سنة 1978 .

(34) نفس المصدر ، ص 92 . عن المجاوي أنظر أيضاً محمد علي دبوز (نهضة الجزائر الحديثة) جـ 1 ، مصر 1965 ص 82 ـ 105 .

ونظراً لشعبيته وشخصيته المحترمة كعالم مثقف وزعيم ديني ، فإن نداءه بالإصلاح كان غالباً موضع ترحيب حتى من جماعة النخبة ، التي كان أعضاؤها خصوماً للمحافظين[35] .

وهناك شخصية أخرى هامة في كتلة المحافظين ، وهو عبد الحليم ابن سماية ، الذي كان أيضاً أستاذاً في المدرسة الجزائرية ـ الفرنسية بالعاصمة . كان ابن سماية أحد الدعاة البارزين للجامعة الإسلامية في الجزائر . فعندما زار المصلح الشيخ محمد عبده الجزائر ، في سبتمبر، 1803 ، كان مضيفه هو ابن سماية . ويتهم الكاتب الفرنسي فيليب ميللي (سنة 1913) ، الذي كان يعطف على جماعة النخبة ضد المحافظين ، ابن سماية بأنه كان على علاقة مع القاهرة واسطنبول (يعني حركة الجامعة الإسلامية في الشرق الأدنى) لزيارته المتكررة هناك[36] . وقد عارض ابن سماية جماعة النخبة في قضية الدين والخدمة العسكرية الإجبارية في الجيش الفرنسي . ونظراً لمكانته كأستاذ في مدرسة رسمية ، ولثقافته العالية العربية والأوروبية ، فإن آراءه كانت في عمومها محترمة من المجتمع الجزائري ، بل حتى من بعض الفرنسيين الرسميين .

وفي سنة 1911 ، خلال الحملة الجزائرية ضد التجنيد العسكري الإجباري في الجيش الفرنسي ، كتب أحد أتباع ابن سماية ، وهو عمر ابن قدور ، محضراً لاجتماع عمومي جرى في العاصمة لمعارضة التجنيد . وقد نشر هذا المحضر في الجريدة العثمانية « الحضارة » ثم نقلته عنها الجريدة التونسية « المشير » (10 سبتمبر ، 1911) . وصف ابن قدور الإجتماع الذي انعقد تحت رئاسة شيخ بلدية الجزائر الذي كان فرنسياً ، وقد تكلم في هذا الإجتماع ابن سماية معارضاً التجنيد .

وبناء على تقرير ابن قدور ، فإن ابن سماية قد سأل الجمهور ، عندما وقف للكلام ، ما إذا كان يرضيهم أن يتكلم باسمهم بخصوص الموضوع . وعندما أجابوا

---

(35) نفس المصدر ، ص 83 ـ 84 . عثرنا على معلومات جديدة تتعلق بحياة المجاوي وابن سماية ومصطفى بن الخوجة وغيرهم من زعماء مدرسة الاصلاح ، سندرجها ان شاء الله في الجزء الثالث من (تاريخ الجزائر الثقافي) .

(36) ميللي ، « شباب النخبة الجزائريين » في « ر.ب. » 20 (1913) .

بالايجاب في صوت واحد ، أخبر شيخ البلدية ورئيس الاجتماع بأن الجزائريين يجب أن يرفضوا الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي ، حتى ولو رضيت فرنسا بتعويضهم بالحقوق السياسية (وهو ما قبلته جماعة النخبة) لأن اجبارهم على الخدمة العسكرية يخالف دينهم . وحين أيد وجهة نظره بآيات من القرآن الكريم ، اتهمه بعض « الفرنسيين المزعومين » (اشارة الى جماعة النخبة كما يسميهم المحافظون) بسوء الفهم . وبعد مشادة كلامية بين المحافظين وجماعة النخبة انتهى الاجتماع ، بناء على رأي ابن قدور ، بالرفض التام للتجنيد الاجباري ، سواءٍ مع الحقوق السياسية أو بدونها(37) .

وهكذا فإن المحافظين قد فازوا ، تحت قيادة ابن سماية ، في المعركة ضد التجنيد الاجباري ، مؤقتاً على الأقل ، ولكن زعامة المحافظين الحقيقية خلال هذا الوقت كانت في يد الشيخ المولود ابن الموهوب . وهو مثل حمدان خوجة ، قد يصعد الى المرتبة الأولى بين مصلحي الشرق الأدنى . كان ابن الموهوب مفتي قسنطينة مدة طويلة(38) ، وهي مكانة لا يتقلدها عادة الا مَن كان ذا سلطة عليا في شؤون الدين والقضايا الشرعية والاجتماعية . وكان في نفس الوقت أستاذ الفلسفة ، والعلوم الدينية ، والأدب العربي في المدرسة الجزائرية ـ الفرنسية بقسنطينة . وقد كانت محاضراته في نادي صالح باي وفي نفس المدينة تجلب اليها مستمعين كثيرين . كما ساعد اعجابه بالتقدم ، والعلوم الحديثة ، والأفكار الأوروبية على تنوير كثير من الجزائريين ، بما في ذلك أعضاء الكتلة التي ينتمي هو اليها ، وعلى التخلص من الاجحاف ، والتعصب ، والجهل . ونظراً لمكانته الدينية ، وتعليمه

(37) نفس المصدر ، ص 175 ـ 176 . أورد ميللي نصوصاً طويلة من أقوال ابن قدور . وقصة هذا المؤتمر دليل آخر على تأثير حركة الجامعة الاسلامية في الجزائر في ذلك الوقت ، ودليل أيضاً على العلاقة بين المحافظين وجماعة النخبة . أنظر عن ابن سماية ما كتبه عن دبوز ، « نهضة الجزائر الحديثة » ، جـ 1 ، ص 106 ـ 127 . انظر عنه أيضاً مقالة لعبد الرحمن الجيلالي ، مجلة (الأصالة) عدد مارس ـ أبريل 1973 ، ص 199 ـ 212 .

(38) تولى الافتاء سنة 1908 وقد عثرنا على نص الخطبة التي ألقاها بمناسبة تنصيبه الرسمي ، وهي بخط يده ، وفي أربع ورقات من الحجم الصغير . وقد تعرضنا إليها في مقالنا عن (مساهمة بعض الجزائريين في الحضارة الاسلامية) . أنظر قائمة المراجع .

الاسلامي والأوروبي ، وبرنامجه التقدمي لتحرر الجزائر ، فإنه قد أثر تأثيراً فعالاً على معاصريه، سواء كانوا محافظين أو ليبراليين ، جزائريين أو فرنسيين .

كان شعار ابن الموهوب أن الجزائر قد وصلت الى أسفل نقطة في سلم التدهور . ولكي تتخلص من هذه الحالة ، يجب عليها أن تؤمن بالتقدم ، والتعليم بكل الوسائل ، والتسامح ، والعودة الى منابع الاسلام الصافية(39) . ولهذا السبب أعلن ابن الموهوب الحرب ضد الجهل ، والاجحاف ، والكسل لكي يحرر الجزائر من حالتها المنحطة . وقد علمه التاريخ أن تحرر أي شعب يتوقف على يقظته العقلية . فهو يرى أن كل الآفات التي كانت متسلطة على الجزائر (مثل قانون الأهالي ، والمحاكم الرادعة) لا تنتهي الا بخلق « المدارس ، المدارس ، ثم المدارس »(40) .

ففي محاضرة ألقاها حوالي عام 1909 بنادي صالح باي أوضح ابن الموهوب الأسباب الحقيقية لما كان يسميه بانحطاط الجزائر ، فهو يقول أنها تشمل المستوى المنخفض للأحوال المادية والعقلية ، وإهمال العناية بالآداب ودراسة الاسلام وتاريخه ، والفقر ، والجهل . وبطريقة بسيطة جداً ، مستعملاً فيها الاشارات غير المباشرة ، يحلل ابن الموهوب الوضع عندئذ بالأسلوب التالي : إن الجزائر كانت عضواً في الجسم الفرنسي ، وأن هذا العضو كان مريضاً ، ولذلك فعلى الجزائريين أن يعالجوه . وقد قال ابن الموهوب لأولئك الذين كانوا يقترحون فصل العضو المريض بأن ذلك جائز ، ولكن يجب أن لا يحدث الا عندما يصبح الوضع ميؤوساً منه . ثم تساءل : هل نحن الآن في حالة يائسة من انتشال الجزائريين من نومهم الطويل ؟ ولكن جوابه كان : لا .

فإذا وضع الباحث هذه الأفكار بطريقة مباشرة ، فإنه سيجد أن هذا المصلح كان يعتقد أنه ما يزال لفرنسا فرصة لمعالجة الحالة وارضاء الجزائريين حتى لا ينشدوا الانفصال عنها . وهذا التفسير واضح من الحقيقة التي هي انذاره لأولئك الفرنسيين

---

(39) علق أحد أعضاء النخبة عندئذ ، وهو ابن حبيلس ، على موضوع ابن الموهوب فقال بأنه « لو كان هناك برنامج سياسي عظيم في بساطته ، لكان هو برنامج ابن الموهوب » . ، ص 2 .

(40) نفس المصدر . وقد كرر ابن الموهوب نفس هذا التعبير في خطبته المشار اليها .

الـذين كانـوا يعارضـون تحسين وضع الجـزائريين بـأن رأيهم لن يقود الا لسيـاسة استعمارية سيئة.

وقد اقترح ابن الموهوب العلاج أيضاً لما كان يسميه بانحطاط الجزائر . أولاً ، يقول ان على فرنسا أن تستمر وتضاعف من عملها الحضاري في الجزائـر . وهذا البرنامج يجب أن يتحقق عن طريق تعليم تقدمي باللغتين العربية والفرنسية . وعلى هذا البرنامج أن يضع أمامه تحقيق مبدأ المساواة التامة بين الجزائريين والكولون ، ولا يمكن لفرنسا أن تتجاهل اصلاح أحوال الجزائريين عندئذ ، لأن العـالم الاسلامي عموماً والجزائر خصوصاً كانا ، كما يقول ، قد بدآ في اليقظة وكانا متفتحين على الأفكار الجديدة.

ثانياً ، إن ابن الموهوب يصر على أن من واجب الجزائريين أن يتخلصوا من الكسـل ، وعدم التسـامح ، والاجحـاف ، وأن يكـرسـوا أنفسهم لـدراسـة العلوم المتقدمة : كالزراعة ، والطبيعة ، والكيمياء ، والرياضيات التي يقول بـأنها كـانت محـل رعايـة دقيقة من أجـدادهم . فهو يقـول ان « احتـرامنـا متـوقف على جـودة عملنا »[41] . وختم ابن الموهوب محاضراته بهذا النداء الدرامي الى الجزائريين : « مزقوا عنكم عالم الظلام وافتحوا أعينكم على عالم مليء بالضوء ! »[42].

وخلال نفس السنة (1909) ألقى ابن الموهوب خطبة بـالعربيـة في افتتاح مدرسة الجزائرية ـ الفرنسية بقسنطينة عنوانها « الجزائريون والحضارة » تحدث فيها عن كل النقط العزيزة على المصلحين المحافظين وجماعة النخبة على السواء. وقد تكلم ابن الموهوب بصراحة في صالح التقدم، والعلوم الحديثة ، والتسامح ، محتجاً بـالنبي محمد ، وفيكتـور هوغـو ، وشيكسبير ، وفـولتير ، وكتـاب آخرين مسلمين وأوروبيين.

وقد رأى ابن الموهوب أن التعصب ، الذي يقول بأنه قد بدأ كنتيجة للحروب

---

(41) نفس المصدر ، ص 189 . ولد ابن الموهوب سنة 1866 . وكان أديباً أيضاً . ومن شيوخه الشاذلي القسنطيني ، أنظر دراستنا (محمد الشاذلي القسنطيني ، دراسة من خلال رسائله وشعره ، الجزائر 1974) ، ومنهم أيضاً عبد القادر المجاوي . ولابن المـوهوب تـرجمة أيضـاً في كتاب (أعيـان المغاربة) ، لغوفيان ، الجزائر 1920 .

(42) ابن حبيلس ، ص 191 . بخصوص نص هذه المحاضرة ، أنظر ص 177 ـ 193 .

الصليبية ، يخالف مبادىء الاسلام . لذلك نصح الجزائريين بالتضامن والتسامح ، مستشهداً بشيكسبير: « إنك قد تحصل بابتسامة على ما كنت تنوي الحصول عليه بالقوة » . وعندما قارن الجزائر تحت الحكم الفرنسي بفرنسا تحت حكم لويس الرابع عشر واليونان تحت حكم الاسكندر الأكبر ، وجد أن الجزائر كانت في أسفل السافلين نظراً لفشلها في العيش طبقاً لتعاليم الاسلام الحقيقية وفي المنافسة للأمم الأوروبية في التعلم والاكتشاف.

ولكن ابن الموهوب لم ينصح الجزائريين بالطفرة ، رغم أنه كان متفائلاً بمستقبلهم . فهو يقول لهم ، مستشهداً بنصيحة رجل سويسري الى أطفاله ، الذين كانوا يحاولون التسلق الى قمة الجبل : « تحركوا ببطء لكي تتسلقوا بسرعة » . وفي نهاية خطبته ، التي ألقاها أمام حشد جزائري فرنسي ، دعا الجزائريين الى أن « استيقظوا وأيقظوا اخوانكم ! » ومرة أخرى ، وفي صوت درامي صرخ فيهم : « ليحيى العلم ! ليسقط الجهل ! »(43).

من الصعب على المرء أن يفهم تعاليم ابن الموهوب دون التعرف على أحوال الجزائر السياسية والاجتماعية ، والعقلية . ذلك أن الجزائريين كانوا مجردين من الحقوق السياسية ، ومن المساواة الاجتماعية ، والاقتصادية مع الكولون . وقد كانت الأمية بينهم تشكل معدلاً مرتفعاً في العالم ، يضاف الى ذلك تراث من الخرافات ، والقدرية ، واللامبالاة . ومن هنا كانت رسالة ابن الموهوب الاصلاحية محاولة. لانتشال الجزائريين من هذا الظلام . وزيادة على ذلك ، فقد كانت الجزائر تعيش تحت قوانين اضطهادية ثقيلة مستعدة أن تمتد الى كل من يشتبه في أمره بدعوى القيام بنشاطات تخريبية . وأن التعرف التام على هذا الطريق الشائك الذي كان ابن الموهوب يمشي فيه سيؤدي الى الاعجاب بشجاعته في ندائه لمواطنيه بأن يأخذوا مكانهم تحت الشمس.

وهذا الموقف الشجاع قد ظهر بوضوح في المحاضرة التي ألقاها سنة 1910 في نادي صالح باي . كان عندئذ يتحدث الى جمهور غفير فقال أن الجزائر كانت

---

(43) نشرت هذه الخطبة صحيفة « ايندبياندانت » ، (1 ماي ، 1909) . أما النص الفرنسي الكامل للخطبة فهو في ابن حبيلس ، ص 143 ـ 154 .

تعيش في « عهد جديد » ، وأن الطريق الوحيد للخروج من عصرها المظلم هو طريق الوحدة ، والتضامن ، والتقدم . وقد استنكر القدرية باعتبارها ضد تعاليم الاسلام والعقل الانساني . ثم أخبر مستمعيه بأن التقدم قد جعل الأمم الأوروبية مجيدة ، سعيدة ، رخية ، بينما بقيت الأمة الجزائرية جاهلة ، كسولة ، ومنكوبة . وصرح بأن أجدادنا قد فعلوا أشياء كثيرة من أجلنا ومن أجل الانسانية . ثم تساءل : ماذا فعلنا نحن لأطفالنا وللأجيال القادمة؟ .

ولما كان ابن الموهوب مؤمناً بالجامعة الاسلامية ، فإنه دعا مستمعيه الجزائريين الى التعاطف ، والتفاهم ، والعمل من أجل الاسلام الحقيقي ، الذي يحتوي على أشياء جميلة ، أخلاقية ، عظيمة . وقد أخبرهم بأن الحضارة لم تكن هي الزنا ، والكحول ، والأفعال الرديئة (كما كانوا يظنون) ، ولكنها برنامج للعناية الصحية ، والعمل ، والعلوم ، والتسامح ، والتضامن ، والتقدم . ولكن على الجزائريين أن يتفهموا القرآن الكريم والحديث الشريف اللذين قادا أجدادهم الى المجد . إن عليهم أن يتبعوا طريق أجدادهم . وكعادته في الدعوة الى اليقظة ، نادى الشيخ ابن الموهوب مواطنيه : « اتحدوا ، وتوادوا ، واعتصموا جميعاً في هذه الجزائر الجميلة بحبل السلام والانسجام المقدس »(44).

ولعل الشعر التالي يعطي اشارة واضحة الى مدى تأثير الشيخ ابن الموهوب بين الجزائريين ، وهو الشعر الذي نظمه لطلابه في نادي صالح باي سنة 1911 . وقد حفظ الطلبة هذا الشعر وأنشدوه عند توزيع الجوائز السنوية . ثم غنته فرقة ابن كوراط وبسطانجي الموسيقية . وفيما يلي ترجمة جزئية عن الأصل العربي(45).

« إن العلم يزدهر بالعمل .

وإن الكسل يقتل موهبة الانسان .

---

(44) ترجمة فرنسية لهذه الخطبة في نفس المصدر ، ص 155 ـ 168 كما نشرت الخطبة بالفرنسية في صحيفة « ديبيش دي كونستانتين » ، (30 نوفمبر ، 1910) .

(45) النص العربي لهذا الشعر في ابن حبيلس ، ص 195 . كما توجد له ترجمة فرنسية حرفية ، ص 194 . وقد نشرت هذا الشعر بالفرنسية « ديبيش دي كونستنتين » ، (جوان ، 1911) . أنظر نصه أيضاً في (شعراء الجزائر في العصر الحاضر) لمحمد الهادي السنوسي ، جـ 2 ، تونس ، 1927 ، ص 34 ـ 35 .

فاعملوا بجد ، أيها الشباب ، لتحصلوا على مكان مشرف .
اطمحوا ، مثل الآخرين ، الى المجد .
لا تيأسوا ، لأن الله يسعف دائماً أولئك الذين يفعلون الخير .
ألستم أنتم نسل شعب عظيم ؟
ألستم أبناء رجال شجعان ؟ » .

والحق أن دور الشيخ ابن الموهوب في النهضة الجزائرية،مازال لم يفهم بعد من الكتاب ، بما في ذلك كتاب الجزائر أنفسهم . ذلك أن الكتاب اعتادوا أن يسلطوا الضوء على الحركة الاصلاحية خلال العشرينات ، والثلاثينات ، عندما بدأ الشيخ عبد الحميد بن باديس وجمعية العلماء حملة الاصلاح .

ورغم انعدام الوثائق في الوقت الحاضر ، فان الأبحاث الأولى تظهر أن ابن الموهوب كان الموضوع (أو المقدمة) لحركة ابن باديس الاصلاحية . وتزداد الصورة وضوحاً عندما نعرف أن الشيخين كانا من مدينة واحدة ، قسنطينة . وبالاضافة الى ذلك ، فانه في الوقت الذي كان فيه ابن الموهوب يبشر بمذهبه الاصلاحي ، كان ابن باديس ما يزال طالباً في فترة المراهقة . ورغم أننا لا نملك الوثائق التي تثبت أن ابن باديس كان من بين مستمعي ابن الموهوب ، فلا يوجد أيضاً ما ينفي ذلك . لذلك يبقى من المحتمل أن يكون المصلح الجزائري في المستقبل ، ابن باديس ، قد حضر محاضرات ابن الموهوب وتأثر بأفكاره .

ان مساهمة ابن الموهوب ، كمصلح ، في الحركة الوطنية الجزائرية والجامعة الاسلامية كانت على أهمية كبيرة . فمنذ حمدان خوجة ، ليس هناك مثقف جزائري آخر قد فهم وأثر على تاريخ بلاده كما فعل ابن الموهوب . فاذا كانت مساهمة خوجة قد قطعت بسبب طرد فرنسا له ، فان دور ابن الموهوب قد قدر له أن يكون أكثر فعالية واستمراراً(46) . فبعد 1918 أخذ فوراً جيل جديد ذلك الدور . وهكذا ، فبينما توقفت أفكار خوجة ومنعت من الانتشار في الجزائر ، استمرت أفكار ابن الموهوب

---

(46) أعترف الآن أن فيّ هذا بعض المبالغة . ولعل هذا الدور أصلح ما يكون بعبد القادر المجاوي أستاذ ابن الموهوب . وقد عاتبني بعض تلاميذ ابن باديس على ما قلته عن ابن الموهوب الذي أصبح خلال العشرينات خصماً لحركة ابن باديس غير أني أرى أن هذه الخصومة كانت شخصية وليست علمية .

في الانتشار في المجتمع الجزائري وفي النمو مع الوقت . فخلال أقل من عقد أصبح مذهب ابن الموهوب في الاصلاح مطبقاً ، معمقاً ، ومقوى من حركة اصلاحية جديدة .

كان دور ابن الموهوب ذا وجهين : وجه وطني ووجه اصلاحي اسلامي . فمناداته للجزائريين باليقظة والتعلم ، والوحدة ، والتنافس مع الأمم الأخرى كانت مساهمة هامة منه في الحركة الوطنية . وقد جاء هذا النداء في الوقت الذي كانت فيه الجزائر تعاني من اجراءات مضادة للحركة الوطنية اتخذتها فرنسا ، وفي الوقت الذي كان فيه العالم جميعاً يمر بتغيير عميق تحت ضغط القومية .

وفي نفس الوقت كان ابن الموهوب مصلحاً بارزاً في حركة الجامعة الاسلامية ، رغم أن أفكاره لم تنشر من جانب الفرنسيين ، مثلما سمحوا بنشر أفكار الأفغاني ، وعبده ، ورضا ، وغيرهم من معاصريه في الشرق الأدنى . وهو مثلهم قد نادى بالتضامن الاسلامي ، والوحدة ، والعودة الى منابع الاسلام الصافية . كما دعا إلى التقدم بواسطة العلوم الحديثة والتسامح باستنكاره للاجحاف . وقد اعتبر القدرية ، والتعصب ، والجهل أكبر خطر يهدد عقل المسلم . ومن بين مواقفه الشجاعة بخصوص هذه المسألة هجومه على الخرافات والتقاليد البالية في مجتمع معروف بصلابته الشديدة ومحافظته مثل المجتمع الجزائري . وقد كان من غير المحتمل أن يجد الحكام الفرنسيون المستعمرون تلك الأفكار مريحة لسياستهم في الجزائر .

وتحت قيادة ابن الموهوب تحولت كتلة المحافظين من مجموعة مفككة وبدون فعالية الى مجموعة نشيطة مؤثرة ، تتمتع ببرنامج اصلاحي معين . على أن بعض المحافظين لم يسايروا آراء ابن الموهوب « المتطرفة » في الاصلاح . فقد اعتصموا بالعادات القديمة واستمروا في معارضة التعصر على أساس أنه خطر على الشخصية الجزائرية . انهم كانوا راضين بأحوالهم لو أن فرنسا لم تتدخل فقط في شؤون الجزائر الاجتماعية والثقافية .

ولكن ابن الموهوب قد نجح في تجنيد تأييد بعض العلماء ، والنواب في المجالس المحلية ، وأعضاء النخبة ، ومعظم الطلبة . فباتقائه الهجوم المباشر على الادارة الفرنسية وحصر نفسه في برنامج اصلاحي ، لم يؤمن ابن الموهوب فقط نفسه

ضد امكانية نصب العراقيل أمامه ، بل كسب عاطفة بعض المثقفين الفرنسيين . كما أن مكانته كمفتي وأستاذ قد تكون حمته من أيدي قانون الأهالي ، التي امتدت الى بقية الجزائريين .

ورغم أن المحافظين بقيادة ابن الموهوب ، قد استطاعوا أن يحرزوا بعض التأييد من جماعة النخبة لبرنامجهم الاصلاحي ، فان الاخيرين قد استمروا في هجومهم المعتاد عليهم . وسوف نرى أن جماعة النخبة اعتادت أن تسمي المحافظين « أصحاب العمائم القديمة » ، والبورجوازية المتكبرة ، والاقطاعيين الكبار . ذلك أن المحافظين ، في عين جماعة النخبة ، كانوا حواجز في طريق التقدم والاندماج لتعصبهم واجحافهم ، وتمسكهم بالتقاليد . ومن هنا اتهموا المحافظين بالكسل ، واثارة الفتن الدينية ، ومعارضة الاسلام الحقيقي ، والفساد ، والأنانية[47] . ولكن جماعة النخبة كانوا يؤمنونُ بأن تلك « الثمار » المتعفنة (أي المحافظين) ستموت « ببطء[48] » .

وكثيراً ما تعرض المحافظون الى الهجوم من خصمهم على أساس أنهم وطنيون ، ومصلحون اسلاميون ، ومتعصبون ، ومستعملون التقية لاخفاء مشاعرهم الحقيقية ضد فرنسا . وقد اتهمهم بذلك الكولون وجماعة النخبة الجزائرية معاً . ومن بين هؤلاء أندري سيرفي ، رئيس تحرير « ديبيش دي كونستانتين » الفرنسي ، الذي اتهم المحافظين بالعداء لفرنسا واخفاء مشاعرهم الحقيقية .

ففي سنة 1914 كتب سيرفي كتاباً عن حركة الجامعة الاسلامية في مصر ، وتونس ، والجزائر ، هاجم فيه الاسلام لكونه معارضاً للتقدم وغير متناسب مع الحضارة الحديثة . وقد اتهم المحافظين الجزائريين أيضاً بالاستسلام لفرنسا مؤقتاً تحت ضغط السلاح فقط . وبناء على رأيه فان المحافظين كانوا يستعملون التقية وينتظرون اللحظة المناسبة للثأر . كما اتهمهم سيرفي باضمار التعصب وبأنهم كانوا ينتمون الى حركة الجامعة الاسلامية[49] .

---

(47) ابن حبيلس ، ص 92 ـ 98 .

(48) نفس المصدر ، ص 105 .

(49) نفس المصدر ، ص 125 ـ 126 . عزا الكولون ومؤيدوهم المشاعر الوطنية الجزائرية (مثلاً عداوة فرنسا) إلى التعصب . حتى عندما بدا الجزائريون المثقفون على الطريقة الأوروبية (النخبة) يلعبون .=

ولكن المحافظين كذبوا أن يكونوا لهم أي علاقة بالجامعة الاسلامية ، وبالقومية . فقد جاء في استجواب أجراه بعض النواب الفرنسيين الذين قدموا الى الجزائر للتحقيق ، مع ابن رحال ، الذي كان من المحافظين المصلحين « انني لا أعرف أن هناك وجوداً لفكرة الجامعة الاسلامية والقومية في الجزائر . فاذا وجدنا ذات يوم فستكونون أنتم (الفرنسيون) الذين خلقتوهما[50] » .

غير أن هذا التكذيب القاطع يجب أن لا يؤخذ على حرفيته. فإذا كان المحافظون قد كذبوا شفوياً مشاركتهم في الحركتين ، فإنهم عملياً كانوا يعملون على تقويتها بشتى الوسائل . ولكن المحافظين قد شعروا بأنهم كانوا ما زالوا ضعفاء عن تحدي الفرنسيين بالاعتراف علناً بإيمانهم بالقومية والجامعة الإسلامية لأنهم لو فعلوا ذلك لفسر موقفهم بعدم الإخلاص لفرنسا . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن المحافظين لم يكونوا سياسيين بالمعنى المعروف للسياسة . لقد كانوا جماعة ثقافية ، دينية ، واجتماعية . والحق أن عدم وجود فهم سياسي ، ومنظمة فعالة لدى المحافظين ، كان يشكل ضعفهم الرئيسي .

حذر بعض الكتاب الفرنسيين بلادهم ، عشية الحرب العالمية الأولى ، من امكانية ثورة في الجزائر يقوم بها المحافظون . فقد تحقق لهؤلاء الكتاب أن « الجمعيات الدينية القوية» مع اتجاهها الاصلاحي ـ الاسلامي ، ضامة الجزائريين بالآلاف في كل مكان في الجزائر ، قد تغتنم فرصة ضعف فرنسا (مثلاً دخولها في حرب أوروبية) لكي ترمي الرومي في البحر»[51] . لقد كان الفرنسيون يخشون أن

دوراً وطنياً محدوداً ، اتهمهم الكولون ، كما سنرى ، بالتعصب . ولكن هذا الإتهام قد برهن على عدم صحته المؤرخون المنصفون أنفسهم . ففي سنة 1954 أورد المؤرخ ايميري عن مصدر « مطلع » بأنه قد أخبر سنة 1842 أن الجزائريين كانوا ، عموماً ، أقل تعصباً من أكثر شعوب جنوب أوروبا . وبناء على هذا المصدر ، فإن الجزائريين يفضلون « العافية » على « الجهاد » وقد أضاف ايميري بأن الجزائريين لم يكونوا يحاربون حرباً مقدسة ، بل كانوا يحاربون ضد حضور جنود أجانب لم يشعروا بأي سبب يرغمهم على التسليم اليهم . أنظر أيميري ، « حالة الجزائر العقلية والمعنوية » في « ر.هـ.م.ك. » ، م أ (جويليه ـ سبتمبر ، 1954) ص 211 ـ 212 .

(50) ابن حبيلس ، ص 127 .

(51) أنظر ميللي ، « القرن التاسع عشر » ، م 73 (1913) ، ص 736 .

المحافظين (بجمعياتهم الدينية ، وعلمائهم ، ونوابهم ، وأسرهم الكبير) قد يترصدون فرصة دخول فرنسا في مصاعب ويعلنون برنامجهم الوطني من ناحية والاصلاحي ـ الاسلامي من ناحية أخرى.

3. جماعة النخبة :

وهناك كتلة أخرى ، كانت منافسة للمحافظين ، تلك هي جماعة النخبة[52] . لقد كان لأعضاء هذه الكتلة برنامجهم ونظرياتهم الخاصة في السياسة الجزائرية . كانوا طموحين ومتفتحي العقل . لذلك فهم جديرون باهتمام خاص نظراً لدورهم الهام في دفع القضية الوطنية خلال عهد النهضة.

في سنة 1911 أراد عضو في جماعة النخبة أن يعرف جماعته فقال انها « ثريات الشبان المتخرجين من الجامعات الفرنسية والذين كانوا قادرين ، بأعمالهم ، أن يصعدوا فوق الجماهير وأن يضعوا أنفسهم في مصاف ناشري الحضارة الحقيقيين »[53] . وقد ميز نفس الكاتب بين « الأغلبية » من الشواش ، والكتاب العاديين ، ومساعدي الصيدليين الفتيان ، وبين « الأقلية » من الشبان الجزائريين الذين حصلوا على « تعليم جاد » والذين كانوا يحتلون مناصب في الخدمة الوطنية ، والجندية والتعليم والقضاء الإسلامي)[54].

أما المستعرب الفرنسي جورج مارسي ، الذي كان مديراً للمدرسة الجزائرية الإسلامية بتلمسان ، فلم يتفق مع هذا التعريف للنخبة الجزائرية . فهو لا يعتبر النخبة تلك الأقلية من الموظفين ، والمحامين ، والصحافيين ، والمعلمين ، ولكن أولئك الجزائريين الذين جمعوا بين الثقافة العربية والثقافة الفرنسية والذين يعرفون في نفس الوقت عن مؤلفي العصر الإسلامي الذهبي وعن كتاب التراث الفرنسي[55] . وقد عبر

(52) نشر هذا الفصل بالإنكليزية مع بعض التعديل في (مجلة الدراسات الافريقية الحديثة) عدد 5 ، 1 (1967) . ص 69 ـ 77 . والمجلة تطبع في بريطانيا .

(53) ابن حبيلس ، ص 107 .

(54) نفس المصدر ، ص 109 ـ 110 .

(55) نفس المصدر ، ص 2 (المقدمة) .

علي مراد عن رأي شبيه بهذا في تعريفه للنخبة الجزائرية إذ قال بأنها جماعة يحسنون اللغتين ، وينتمون إلى الطبقة المثقفة ، أي تلك الجماعة التي درست كلا من الحضارة العربية والفرنسية(56).

ومعظم الكتاب يتفقون على أن النخبة الجزائرية كانت بطيئة في الظهور وصغيرة في العدد ، وقد أشرنا من قبل إلى أن هذه الطبقة قد بدأت في الظهور في أواخر القرن التاسع عشر . فالكاتب الفرنسي بوسكي يصف طريقة ظهور النخبة بأنها كانت « مؤلمة » و« بطيئة » . كما سبقت الإشارة إلى أن الكاتب الفرنسي ، ألود ، قال سنة 1907 بأنه لا يوجد في الجزائر أكثر من 450 مثقفاً جزائرياً . وقد عبر المؤرخ الفرنسي ، لوري ـ بوليو ، على رأي شبيه بذلك حين سمى جماعة النخبة « الجزائريين المتأوربين »(57).

ولم يكن تكوين جماعة النخبة محل اتفاق أيضاً بين الكتاب . فأعضاء هذه الطبقة كانوا يعتبرون أنفسهم أقلية ممتازة منفصلة عن أغلبية ناقصة تتكون من فلاحين جهلة ، ومرابطين خرافيين ، وعلماء رجعيين ، وأعيان مستسلمين . ان بعض الكتاب قد حاولوا توسيع عدد النخبة لكي يشمل المترجمين ، والمحامين ، والأطباء ، والمعلمين ، والقضاة ، والصحفيين ، وبعض التجار ، والعمال الزراعيين ، والطلبة(58) . ويفضل آخرون أن لا يطلقوا اسم « النخبة » إلا على الفئات الست الأول(59).

ويبدو أن الفرق قد جاء من سوء فهم عبارة « النخبة » فالذين أضافوا إلى القائمة

---

(56) « أ.ب.ل.أ » ، م 27 (1964) ، ص 13 .

(57) « فرنسا في أفريقيا الشمالية » ، في « ر.د.م. » (1906) ، ص 60 ـ 62 وتعني العبارة الجزائريين الذين صاروا كالأوروبيين .

(58) نفس المصدر .

(59) ابن حبيلس ، ص 109 ـ 110 . في سنة 1951 قال الكاتب الفرنسي ج . هاردي في كتابه « التاريخ الإجتماعي للإستعمار الفرنسي » بأنه لم يكن هناك أكثر من ألف عضو في جماعة النخبة . أنظر أرون ، ص 296 . أما مؤلفو « البيان الجزائري » سنة 1943 فقد قدروا أن عدد أعضاء جماعة النخبة يبلغ 1655 شخصاً ، مقسمين كالتالي : ألف عامل إختصاصي ، 41 طبيباً ، 22 صيدلياً ، وأطباء أسنان ، 3 مهندسين ، 7 محامين ، 10 معلمين في المدارس الثانوية ، و500 مدرس . أنظر ساراسين ، ص 184 .

بعض التجار ، والعمال الزراعيين وأصحاب المهن الأخرى كانوا يتحدثون عن الطبقة الوسطى الجزائرية عموماً ، بينما أولئك الذين ينعتون النخبة بأنها بعض الأطباء ، والمحامين ، والصحافيين كانوا يتحدثون عن الجماعة الجزائرية ذات الثقافة الفرنسية.

على أن قوة كتلة النخبة لم تكن محل اتفاق بين الكتاب أيضاً ، فالكاتب الفرنسي الاشتراكي جون جوريس قد وصف النخبة الجزائرية بأنهم أناس ضائعون بين الحضارتين العربية والأوروبية . ويقال انه قد قال عنهم : « اننا مزقنا الشبان الجزائريين بين حضارتين : وسرعان ما فقدوا الاتصال بحضارتهم ، ولكنهم غير قادرين على الدخول في حضارتنا إلاّ بصعوبة[60] .

أما سيرفي ، الصحفي والكاتب الفرنسي الذي كان يعيش في الجزائر ، فقد قارن النخبة الجزائرية بجماعة « تركيا الفتاة » وجماعة « مصر الفتاة » في الطموح والآمال في تولي الزعامة السياسية . فقد وصفهم بأنهم فخورون ، واعون لدورهم ، يحملون معهم أفكاراً سيئة (أي أفكاراً معادية لفرنسا) ، غير راضين بالحالة التي هم فيها ، طموحون ، حالمون بدور هام يلعبونه في شؤون بلادهم ، وأنهم في الجزائر بمنزلة جماعة « تركيا الفتاة » ، في تركيا . ولكن سيرفي يتفق على أن جماعة النخبة الجزائرية لم ترفع علم « الجزائر للجزائريين » خلافاً لأعضاء تركيا الفتاة الذين كانوا يحاولون استعادة بناء امبراطوريتهم ، ولأعضاء مصر الفتاة الذين كانوا يطالبون « بمصر للمصريين »[61] .

ان جماعة النخبة لم « يتبنوا أفكار الغرب ، ووسائل عيشه ، وطريقته في العمل . . وثقافته وتعليمه »[62] فقط ، بل أيضاً أرادوا أن يحولوا المجتمع الجزائري إلى مجتمع أوروبي . ونظراً لتعليمهم فقد شعروا بأنهم قطعوا من بقية المجتمع ، الذي كان غريباً عنهم . لقد كانوا يشعرون بعقدة الكمال بالنظر إلى المجتمع

---

(60) نص على ذلك أوكتاف ديبون ، « البربر في فرنسا » في « أ.ف.س. » ، (سبتمبر ، 1925) ، ص 444 .

(61) أشار إلى ذلك ابن حبيلس ، ص 108 ـ 109 .

(62) ساراسين ، ص 184 من نص « البيان الجزائري » ، سنة 1943 .

الجزائري ، ولكن كانوا يشعرون بعقدة النقص بالنظر إلى المجتمع الفرنسي ، ونتيجة لذلك ضاعوا ، كما قال جوريس ، بين المجتمعين.

ولكن جماعة النخبة واصلوا نضالهم . فبعد أن أضاعـوا لغتهم ، وعادات ، واحترام ، وصداقة مجتمعهم أداروا وجوههم نحو الحياة الأوروبية . لذلك تزوجوا في كثير من الأحيان بفرنسيات ، وتكلموا اللغة الفرسية ، وعاشوا مـع المجموعـة الفرنسية ، وأرسلوا أطفالهم إلى المدارس الفرنسية ، محاولين أن يخرجـوهم على الطريقة الفرنسية . غير أن جماعة النخبة لم يكونوا مجرد عامل سلبي في عهد النهضة الجزائرية ، بل كانوا شغوفين في أن يلعبوا دوراً وطنياً قد يجعل المجتمع الجزائري التقليدي والمتخلف مجتمعاً حديثاً متقدماً.

وقد كانت طريقة جمـاعة النخبـة في تطبيق بـرنامجهم بسيـطة . أنهم بدأوا بالتفريق بين فرنسا الديمقراطية وفرنسا الاستبدادية . ثم استغاثوا بالأولى ضد الثانية . كما نادوا الفرنسيين الليبراليين والجمهـوريين ضد الكـولون والمستغلين[63] . وفي نفس الوقت وجهوا غضبهم ضد العلماء ، والأعيان والمرابطين الجزائريين متهمين اياهم بالرجعية ، وبأنهم حواجز في طريق التقدم والحياة الحديثة . وقد قام جماعة النخبة بحملة ضد العـادات القديمـة ، والمرابـطية ، والخـرافات ، والاجحـاف . ولكنهم وجهوا حملتهم أيضاً ضد الكولون ، الذين اتهموهم بالعنصرية ، والاستبداد والتصرفات غير الديمقراطية (مثلاً غير الفرنسية في نظر النخبة)[64].

ولم يكن برنامجهم لا متطرفاً في النظرة ولا صعباً في الطبيعة . كل ما فعله جماعة النخبة هو أنهم طلبوا من فرنسا أن تضع موضع التنفيذ ما كـانت قد كتبتـه على الورق بخصوص الجزائر . فإذا كان القانون الفرنسي قد أعلن أن الجزائر مقـاطعة فرنسية . وإذا كانت الجمهورية الثالثة قد أوضحت أنها تفضل الادماج الكامل لهذه المقاطعة في فرنسا فإن جماعة النخبة قد طالبوا ، بتطبيق هذه القوانين على الجزائر

(63) أنظر عباس ، ص 110 .

(64) إن هذه الحملة قد إمتدت حتى إلى أولئك الفرنسيين الذين حاولوا أن يبقوا على التقاليد الجزائرية ، مثل نابوليون الثالث ، الذي لامه جماعة النخبة على موقفه من « الإحترام المطلق للعقلية والتقاليد الجزائرية » . أنظر ابن حبيلس ، ص 105 .

بالروح وبالحرف . فطالبوا بالمساواة في الحقوق السياسية مع الفرنسيين ، وبإلغاء قانون الأهالي وغيره من القوانين الاستثنائية ، وبالتمثيل النيابي للجزائريين ، والمساواة في التعليم والضرائب ، وفرص العمل . وباختصار فإن جماعة النخبة قد فضلوا التجنيس الكامل ، والاندماج ، وغير ذلك من الاجراءات الأخرى التي قد تساعد على « توحيد » الجزائر مع فرنسا .

ولم يشترط جماعة النخبة على فرنسا الا شرطاً واحداً ـ وهو أن لا تطلب منهم التخلي عن أحوالهم الشخصية كمسلمين . وبعبارة أخرى ، فانهم قد طالبوا بإلغاء قانون الجنسية المعروف بـ «ساناتوس كونسولت » ، 1865 ، الذي نص على أن الجزائري لا يمكن أن يتمتع بامتيازات الجنسية الفرنسية الا عندما يتخلى عن حالته الشخصية كمسلم . وهذا المطلب الموجه لفرنسا من جماعة النخبة ، رغم أنه يبدو بسيطاً جداً ، يمثل رمز تمسكهم بالوطنية . ذلك أنهم ، بينما كانوا يطالبون بكامل الحقوق السياسية كمواطنين فرنسيين ، كانوا يريدون أن يبقوا على كامل حقوقهم السياسية كجزائريين . وقد فهم المشرعون والساسة الفرنسيون هذا التناقض ورفضوا تغيير قوانينهم فيما يتعلق بهذا الموضوع .

وكان جماعة النخبة يعتبرون مطالبهم الاصلاحية حداً أدنى . فهم لم يكونوا خياليين فيطالبوا ، كما قالوا ، بكل امتيازات المواطنين الفرنسيين . إن المذكرة التي قدموها الى الحكومة الفرنسية ، سنة 1912 ، توضح برنامجهم الرسمي . فقد طالبوا فيها ، بالاضافة الى بعض التحويرات في قانون التجنيد الاجباري ، بالغاء الاجراءات الاضطهادية ، وتمثيل نيابي « جدي » و « كاف » للجزائريين في جميع المجالس ، وتوزيع عادل للضرائب ، والمساواة في جميع فوائد الميزانية[65].

وقد أصر جماعة النخبة على أن « آمالنا ومطالبنا كانت . . عادلة وشرعية »[66] . وأوضحوا بأن برنامجهم لم يكن مفيداً للجزائريين فقط ولكنه مفيد

(65) أنظر النص الكامل لهذه المذكرة في ابن حبيلس ، ص 117 ـ 121 .

(66) من رسالة إلى محرر « ديبيش دي كونستانتين » كتبها عضو في جماعة النخبة ، وهو مختار حاج سعيد المحامي ، التي نقلها كاملة نفس المصدر ، ص 128 ـ 131 . وقد ادعى كاتب هذه الرسالة بأنه كان يعبر عن مشاعر جميع أصدقائه .

للادارة الفرنسية أيضاً . فهم يقولون أنه بدل أن تبقى الادارة على رأيها في اعتبار مطالب الجزائريين « خطراً قومياً » ، عليها أن تشرع في تحسين حالتهم وتطوير المجتمع الجزائري تطويراً حديثاً[67].

ومن الحقائق الهامة عن جماعة النخبة اعترافهم بأنه كان للاستعمار في الجزائر بعض المحاسن . ولا شك أن هذا الرأي كان يعتبر ، بعد عقد أو عقدين ، معادياً للوطنية ، ولكن جماعة النخبة ، الذين انفصلوا عن ماضيهم وكانوا جاهلين لتاريخ الاستعمار الفرنسي في الجزائر ، قد اتبعوا وجهة نظر المستعمرين في القول بأن الجزائر ، قبل الاحتلال ، كانت تعيش في « الاضطراب ، وعدم النظام ، والفوضى العامة »[68] . لذلك مدحوا فرنسا على احضار الأمن والهدوء الى الجزائر . وقالوا بأنه كان للاستعمار محاسن اجتماعية واقتصادية . وبناء على هذه النظرية ، فإن الجزائريين قد وجدوا ، بفضل الاستعمار ، العمل ، رغم أن أجرهم كان ضعيفاً ، كما أن وجود الكولون قد أدخل تغييرات على العقلية وطريقة الحياة الجزائرية[69] . ولكن جماعة النخبة لم يعترفوا بأن الاستعمار قد أحضر الى الجزائر المساواة والسعادة . ولهذا السبب هاجموا بشدة الكولون واعتبروهم عنصريين واستبداديين .

وعندما وقف الكولون ضد آمال جماعة النخبة السياسية رد عليهم الأخيرون بأن موقفهم كان غير عادل . فبعضهم اتهم الكولون باضطهاد الأغلبية الجزائرية ، والحصول على أراضي الفلاحين عن طريق سوط الاداريين في البلديات المختلطة[70] . كما اتهم جماعة النخبة الكولون بزرع الحقد وعدم النظام بين المجموعتين الفرنسية والجزائرية . وقد وعدوا بأنهم سيبقون الخصوم السياسيين للكولون الى أن يحصل الجزائريون على مطالبهم العادلة والشرعية[71].

وقد كان التعليم الفرنسي في أعلى قائمة مطالب جماعة النخبة من فرنسا . فقد

(67) نفس المصدر ، ص 138 .
(68) نفس المصدر ، ص 7 .
(69) نفس ، ص 10 وما يليها . أنظر أيضاً اسماعيل حامد « المسلمون الفرنسيون في أفريقية الشمالية » (باريس : كولين ، 1906) كما راجعته « أ.ف.س. » (أوت ، 1906) ، ص 267 ـ 268 .
(70) ابن حبيلس ، ص 3 ـ 4 .
(71) نفس المصدر ، ص 128 وما يليها .

رفضـوا الحجة الاستعمـارية القـائلة بأن الجـزائريين كـانوا غيـر قابلين للتعليم ولا للتصحيح . كانوا ينظرون الى التعليم على أنه ضرورة وخير لا بالنسبة للمنتصرين فقط ، بل بالنسبة للمهزومين أيضاً . كما كذبوا الادعاء القائل بأن الجزائريين كانوا أعداء للمدرسة . وبالاضافة الى ذلك ، فإن جماعة النخبة قد احتجوا بأن التجربة قد أظهرت بأنه لا فرق بين الطلبة الجزائريين ، والفرنسيين في التعليم والذكاء وأصروا على أن الجزائريين قد أظهروا اهتماماً عظيماً بالتعليم منذ سنة 1880 ، وأن لهم احتراماً عميقاً للإنسان المتعلم.

وقد ذكر جماعة النخبة الفرنسيين بأن الحضارة الاسلامية ، التي ينتمي اليها الجـزائريـون ، تكن احترامـاً عاليـاً للتقدم الأخـلاقي والانساني . لـذلك تقـدمـوا بالاقتراحات التالية :

1 ـ وضع برنامج خاص لتعليم الجماهير الجزائرية موضع التنفيذ .

2 ـ اصلاح المدارس الجزائرية ـ الفرنسية ، التي أصبحت مثل أديرة (مونستاري) التعليم الأوروبية خلال العصور الوسطى أو الزوايا الجزائرية .

3 ـ نشر التعليم الفرنسي والثقافة الأوروبية لتطوير المجتمع الجزائري.

وباختصار فإن جماعة النخبة قـد لاموا الفـرنسيين على فعل القليـل ، أو لا شيء ، بخصوص تعليم الجزائريين . لذلك شعروا أن من واجبهم المطالبة بتحسين ومضاعفة الجهود لنشر التعليم.

ومن جهة أخرى وجه جماعة النخبة عنايتهم الى مشكلة الشباب الجزائري . غير أنهم قد ميزوا بين شباب الأرياف ، حيث الخبز أكثر أهمية من الكتب ، وشباب المدن ، حيث المال والحالة العائلية تساعد عادة على الحصول على بعض التعليم الضروري.

وقد اصطدم جماعة النخبة بأميـة ، وكسل ، و« ارتخـاء » ، وضياع شبـاب المدن الجزائري الذي يستيقظ على الساعة الحادية عشرة صباحاً ويقضي الليل باحثاً عن البغايا والمخدرات . لذلك نادوا هذه الفئة من الشعب أن :

1 ـ تحـافظ على « التقاليـد القوميـة » ، ولكن تتذكـر بأن التقـاليد ، مثـل جميـع المخلوقات ، قد تكون جيدة وقد تكون سيئة .

2 ـ تفتح عينيها : لأن الوقت قد حان للاستعداد للمسؤولية .

3 ـ تذهب الى المدارس الثانوية (ليسيات) والمدارس الجزائرية ـ الفرنسية التي كانت متوفرة في المدن ولكن مفقودة في الأرياف .

4 ـ تصرف نقودها في ما هو جيد ومحترم .

وأخيراً ذكر جماعة النخبة شباب المدن الجزائري الأمي ، الكسول ، بأن « سنوات التدهور » قد مضت ، وأن « ذلك يجب أن ينتهي !! »(72).

وبنفس الروح نادى جماعة النخبة باصلاح أحوال الفلاح الجزائري . ذلك أنهم اصطدموا بالحقيقة وهي أن الفلاح قد بقي جاهلاً لا بماضيه المجيد ودينه العظيم فقط ولكن جاهلاً بفكرة الوطن أيضاً بسبب سياسة البلديات المختلطة واستغلال الكولون له . وكان معظم جماعة النخبة يعتقدون أن الفلاح كان مضطهداً وأن أحواله قد بقيت كما كانت قبل 1830 .

ولكي يعالجوا حالة الطبقة الثالثة الجزائرية ، اقترح جماعة النخبة بعض الاقتراحات . وكانت هذه تشتمل على مضاعفة الجمعيات الخيرية ، والمساعدات الطبية ، والعناية بالكبار ، والغاء نظام « الخماسة » الذي كان الفلاحون ، ولا سيما المرأة ضحايا له . ان عضوا من جماعة النخبة قد حاول انهاء نظام الخماسة ، ولكنه اتهم من الكولون بالدعوة إلى الثورة(73).

ومن بين المقترحات التي قدمها جماعة النخبة لتحسين حالة الطبقة الثالثة الجزائرية تسهيل الهجرة الى فرنسا . وفي سنة1912 فتح أحد الجزائريين مكتباً في العاصمة لكي يساعد مواطنيه على الهجرة الى فرنسا . وقد برر جماعة النخبة اقتراحهم بأن الهجرة الى فرنسا ستكون لها فوائد بالنسبة الى الجزائريين والى فرنسا نفسها ، وذلك لأنها :

1 ـ سترفع من حالة الجزائريين المعنوية من خلال الاتصال بالآخرين والتعرف على مجتمعات مختلفة .

2 ـ ستضاعف من تصوراتهم وتجاربهم التي قد يجدونها مفيدة حينما يعودون الى بلادهم .

(72) ابن حبيلس ، ص 103 ـ 104 . من المفهوم أن هذا النداء كان موجهاً إلى شباب الأرستقراطية الجزائرية أو الأسر الكبيرة ، الذين كانوا أغنياء ، ولكن أهملوا التعليم .

(73) نفس المصدر ، ص 61 وما يليها .

3 ـ ستصلح من حالتهم المادية ، بالاضافة الى أحوال عائلاتهم في الجزائر ، لأن الأجور في فرنسا أعلى منها في الجزائر .

4 ـ ستعطي للاقتصاد الفرنسي فرصة اليد العاملة الرخيصة[74].

وقد قبل جماعة النخبة ، من حيث المبدأ ، التجنس بالجنسية الفرنسية والدخول تحت القانون الفرنسي . وكانوا ينظرون الى الدين، الذي وقف حجر عثرة في طريق التجنيس ، على أنه قضية ضمير شخصي ليسَ قانوناً ينظم حياة المسلم . ولكن رأى المجتمع الجزائري بخصوص قضية التجنيس قد منع جماعة النخبة من الدخول في المجتمع الفرنسي ، بدون شرط . وفي نفس الوقت ، كان المتجنسون الجزائريون ، الذين كانوا عادة من جماعة النخبة ، محل تفرقة من طرف الفرنسيين ، بالمقارنة الى المتجنسين الأجانب الآخرين . وبالاضافة الى ذلك فإن المفتيين الجزائريين قد اعتبروا ، باسم الدين ، بأن التجنس يساوي التخلي عن الدين الاسلامي . فالجزائريون الذين قبلوا التجنس كانوا يسمون بالمرتدين وكانوا يعاملون بدون احترام .

وكان موقف جماعة النخبة من ذلك هو السخط على الفرنسيين للتمييز بين المتجنسين ، والحملة ضد المفتيين الجزائريين لتعصبهم الديني ، ولعن المجتمع لقسوته المتناهية . ونظراً لهذا الاجحاف ، اعتبر جماعة النخبة أنفسهم « خارجين عن القانون بالنسبة الى كلتا المجموعتين[75]» . ومن هنا دعوا الى التقارب والتفاهم بين الفرنسيين والجزائريين . ولكي يتغلبوا على الاجحاف ، والتعصب ، وجدران سوء التفاهم العالية ، نادى جماعة النخبة بالزواج بين الطائفتين ، وتبنى الجزائريين لطرق الحياة الفرنسية[76].

وقد وجه جماعة النخبة هجوماتهم أيضاً ضد « العراقيل » الجزائرية في طريق التقدم : كتلة المحافظين . فقد استنكروا مواقف هذه الطبقة واتهموهم بعداوة الوطنية ، ومعارضة التقدم والاسلام الحقيقي . كما أطلقوا عليهم جميع الأسماء

(74) نفس المصدر ، ص 75 وما يليها ، بخصوص هذه المسألة أنظر سابقاً .

(75) نفس المصدر ، ص 111 وما يليها .

(76) أنظر « أ. ف. س. » (أوت، 1906) ص 267 ـ 268 .

المنقصة ، من « حصون الاجحاف » الى «البورجوازية المتعجرفة . . التي ليس لأعضائها أية قيمة سوى كونهم أدوات زينة في المنتزهات وفي الأماكن العامة(77) . إن جماعة النخبة كانوا ينظرون الى هؤلاء الجزائريين الفاسدين، الجهلة ، وغير الشرفاء ، في نظرهم كأدوات استغلال في يد الادارة الفرنسية في البلديات المختلطة، وأيضاً كحواجز بينهم وبين الجمهور ، لأن فرنسا قد استعملت هذه « الأدوات » لتبقى على قبضتها فوق الفلاحين(78).

وبالإضافة إلى ذلك فإن جماعة النخبة قد استنكرت هذه « الطبقة الاقطاعية » الجزائرية متهمة اياها بالتعصب ، والإجحاف ، والرجعية ، واتخاذ شعار : « لا تمس التقاليد » . كما رموهم :

1 ـ بإعلان ثورة 1871 تحت راية الدين .

2 ـ بمعارضة الإسلام الحقيقي ، الذي يهتم بالدرجة الأولى بالتقدم ، والتضامن ، والعمل (وبناء على رأي جماعة النخبة فإن المحافظين قد حولوا الإسلام من نظام رائع إلى مذهب بغيض في أعين الأجانب).

3 ـ بأنهم « أولاد بلاد » ، كسولون ، معفنون(79) . وهكذا فصل جماعة النخبة أنفسهم عن المحافظين الجزائريين ، كما فصلوا أنفسهم عن الكولون الفرنسيين.

ورغم آرائهم اللائكية وتسامحهم ، وثورتهم ضد التعصب ، فإن جماعة النخبة كانوا قد اتهموا من خصومهم الفرنسيين باعتناق فكرة الجامعة الإسلامية ، وبكونهم « فتياناً أتراكاً » ، وبكونهم مستغلين للمشاعر الدينية لدى الجماهير الجزائرية(80).

---

(77) ابن حبيلس ، ص 83 ـ 84 . معظم المحافظين كانوا يلبسون برانس فضفاضة وعمائم ضخمة .

(78) نفس المصدر ، ص 35 وما يليها .

(79) نفس المصدر ، ص 92 وما يليها .

(80) أشار إسماعيل حامد ، سنة 1906 ، بأن الدين كان يتدهور بين الجزائريين ، وإن أغلبيتهم قد أصبحوا لائكيين . أنظر « أ.ف.س. » (أوت ، 1906) ، ص 267 ـ 268 ، وفي سنة 1948 اتهم الكاتب الفرنسي ، ساراسين ، جماعة النخبة « بحمل لواء الدين » لكي يثيروا الجماهير . أنظر ص 78 . كما أن سير في ، الذي أشير إليه في هذا الكتاب ، قد اتهم جماعة النخبة بالايمان بالجامعة الإسلامية وبالتحضير ، على طريقة الفتيان الأتراك ، للتخلص من النير الفرنسي .

وفي دفاعهم ، أنكر جماعة النخبة أن لهم أية علاقة بحركة الجامعة الإسلامية ، وقد أوضحوا بأن :

1 ـ برنامجهم لم يشتمل على أية مطالب عن الجامعة الاسلامية .

2 ـ قبولهم لمبدأ التجنس وللتجنيد العسكري الاجباري قد أظهر عكس ذلك.

3 ـ مناداتهم بالتعليم الفرنسي ، والزواج المختلط ، وعيشتهم « على الطريقة الفرنسية » . وعملهم بالدين بطريقة بسيطة جداً ، كل ذلك يشير إلى أنهم لم يكونوا مصلحين اسلاميين.

4 ـ كون الجزائر لم تعرف هذه الحركة منذ ثلاثين سنة . وقد أصر جماعة النخبة على أنه ، إذا كانت المناقشة حادة بخصوص حركة الجامعة الإسلامية في الجزائر ، فذلك يعود إلى أن هذه الحركة كانت عندئذ موضوعاً شعبياً ، ولكنها لم تكن مذهباً لهم[81].

والحق أن هناك تفسيراً فجا ، رغم أنه مهم لحركة الجامعة الإسلامية عند جماعة النخبة ، ففي رسالة بعث بها إلى محرر « لاديبيش دي كونستانتين » ، سنة 1913 ، تحدث السيد حاج سعيد ، وهو محامٍ من قسنطينة ، عن هذه القضية . يقو السيد حاج سعيد ، باسم « أصدقائه » جماعة النخبة ، بأن هناك مشاعرٍ وعواطف مشتركة بين فلاحي الجزائر وفلاحي الشرق الأدنى ، تماماً كما كانت هناك نفس العواطف بين المسيحيين واليهود . ولكن حاج سعيد يصر على أن هذه العواطف ليس لها مضمون سياسي أو مذهبي في الجزائر.

أما بخصوص ميولهم نحو الخلافة الإسلامية ، فإنهم يقولون ، بناء على رسالة السيد حاج سعيد ، بأنهم ، كمسلمين ، يعتبرون اسطانبول والخلافة بنفس الاعتبار الذي يضفيه المسيحيون على رومة والبابا . وهم يصرون على أن ذلك لم يكن سوى عاطفة دينية تربط الجزائر بالعالم الإسلامي . كما ردوا على الاتهام القائل بأنهم كانوا يتآمرون مع « الفتيان الأتراك » بأن ذلك لا أساس له من الصحة وأنه لا علاقة بينهم وبين الثورة التركية ، غير أنهم اعترفوا بأنهم قاموا بنشاطات مختلفة لصالح الليبيين ولصالح لجنة الوحدة والتقدم التركية خلال الحرب العثمانية ـ الايطالية ، ولكن

(81) ابن حبيلس ، ص 22 ـ 123 .

جماعة النخبة أكدوا بأن تلك النشاطات قد أذنت بها الإدارة الفرنسية نفسها[82].

ولعل تناقض رأي جماعة النخبة ، وفجاجته في بعض الأحيان ، عن الإسلام والقومية ، كان من جهة نتيجة لاضطهاد السياسة الفرنسية ، التي منعتهم من تكوين آرائهم بحرية وصراحة ، وكان من جهة أخرى نتيجة لجهل أكثرهم بأحوال العالم في ذلك الوقت . فبينما كانوا يؤمنون باللائكية ، والتسامح ، وبساطة الدين ، كانوا مصلحين اسلاميين متحمسين لرفضهم التجنس جماعياً إلّا إذا رفعت فرنسا شرطها في المطالبة بالتخلي عن أحوال المسلم الشخصية . وقد فسروا تأييدهم للخلافة على أنه عاطفة أخلاقية ، تشبه العاطفة التي تربط الكاثوليكيين بالبابوية ، ناسين الأهمية السياسية لكل من النظامين (الخلافة والبابوية) . ورغم أن جماعة النخبة قد نصحوا الشباب الجزائري بأن يحافظ على « التقاليد الوطنية » ودافعوا عن كثير من النظم المحلية ، فإنهم قد أيدوا ، على العموم ، النظرية القائلة بأن اللغة العربية كانت غير مثمرة وأوصوا بدراسة العلوم والثقافة باللغة الفرنسية[83].

وبالمقارنة إلى جماعات النخبة الأخرى المعاصرة ، نجد جماعة النخبة الجزائرية تحتل مكاناً خاصاً . فكثير من الكتاب الفرنسيين في ذلك الوقت قد قارنوا « الفتيان الجزائريين » بالفتيان الأتراك ، والتونسيين ، والمصريين ، والهنود . وكان بعض هؤلاء الكتاب يكتفون بمجرد تقرير الحقائق ، ولكن آخرين كانوا يتهمون جماعة النخبة الجزائرية بالقيام بنشاطات ومؤامرات شبيهة بتلك التي كان يقوم بها الفتيان الأتراك أو المصريون.

ولكن كل الكتاب كانوا متفقين على أن عالم الشرق الأدنى عموماً والعالم الإسلامي خاصة كانا في مرحلة يقظة أثناء العقد الأول من هذا القرن . وقد كانت موجة هذه الحركة ، التي كانت قاعدياً سياسية ، قد امتدت من الهند إلى الجزائر . وكان معظم الكتاب يعتقدون أن جماعة النخبة الجزائرية قد لعبوا دوراً هاماً في هذه الظاهرة العامة ، التي كانت تتطور نحو « اتجاه ديني »[84].

---

(82) نفس المصدر ص 128 وما يليها .

(83) أنظر ليروي - بوليو « فرنسا في أفريقية الشمالية » في « ر.د.م.» (1906) ، ص 60 .

(84) ادوارد دي بيللي ، « أ.ف.س.» ، (مارس ، 1914) ، ص 90 ـ 91 .

ان طلب التعليم قد تقدمت به كل حركات النخبة الى السلطات الحاكمة . وبناء على رأي دي بيللي ، فإن كل جماعات النخبة الاسلامية بما في ذلك النخبة الجزائرية ، كانوا ينادون بالتعليم كوسيلة « لاسترجاع مكانتهم الضائعة » . وينص دي بيللي على أن النخبة في مصر قد طالبوا بالتعليم منذ أمد طويل ، ولكن النخبة الجزائرية قد بدأوا هذه الحملة أخيراً فقط . أما بخصوص قضية الحكم الذاتي ، فإن كلا من النخبة الجزائرية والمصرية كان ينشد أن يحكم بنفسه(85) . ولكن جماعة النخبة الجزائرية لم تظهر اتجاهات معادية للأوروبيين كالتي أظهرها الوطنيون المصريون خلال نفس العهد . وقد أنذر بعض الكتاب على أن روح الثورة لدى الجزائر أكثر خطورة من العواطف المعادية للأوروبيين في مصر ، لأن الجزائريين كانوا أكثر حربية ومغامرة من المصريين(86).

وفي سنة 1909 حاول عضو في النخبة الجزائرية أن يقارن طبقته الخاصة بمثيلتها في تونس . وقد وجد أن هناك فرقاً بينهما . فقال ان النخبة في تونس كانوا أكثر قوة لأنهم كانوا يتمتعون بحق التمثيل النيابي ، والاجتماع والتنظيم ، بينما كان النخبة في الجزائر ضعفاء لأنهم كانوا معزولين ، موزعين ، وبدون حقوق سياسية(87) .

وكما فصل النخبة أنفسهم عن الفتيان الأتراك ، كذلك فصلوا أنفسهم عن النخبة التونسية ، الذين كانوا بصراحة يتخذون موقفاً معادياً لفرنسا . ومن بين هؤلاء التونسيين علي باش حانبة ، الذي طرده الفرنسيون من تونس سنة 1912 والذي يقال أنه انضم إلى لجنة الوحدة والتقدم التركية . وقد قاد علي باش حانبة دعاية محكمة من القسطنطينية ضد الحضور الفرنسي في تونس والجزائر . وكان باش حانبة هذا هو زعيم حزب (الشباب التونسي) وهو صاحب جريدة (التونسي) التي كانت تصدر بالفرنسية. وبعد نفيه أسس سنة 1916 في اسطانبول (لجنة تحرير المغرب العربي)(88).

---

(85) نفس المصدر ، ص 97 . أنظر أيضاً فيليب ميللي « القرن التاسع عشر » ، م 73 (1913) ، ص 729 .

(86) ميللي « القرن التاسع عشر » ، م 73 (1913) ، ص 736 .

(87) ابن علي فخار ، « ر.م.م. » ، (1909) ، ص 71 ـ 18 .

(88) بخصوص رأي النخبة في حركة علي باش حانبة ، أنظر ابن حبيلس ، ص 128 ـ 129 . يجب أن =

ان نظرة دقيقة إلى برنامج النخبة الجزائرية ستجعل المرء يقدر دورهم الوطني . كانت هذه الطبقة ما تزال ضعيفة وصغيرة خلال العقد الأول من هذا القرن . وقد ثار النخبة ضد الوضع السائد عندئذ لأنهم واجهوا عراقيل متعددة ، منها طبيعة المجتمع الجزائري ، وسوء التفاهم ، وإجحاف الكولون ، وسياسة الإدارة الفرنسية الاضطهادية . ولكن النخبة لم ينادوا في ثورتهم بالعنف والتطرف ، بل نادوا بالعدل ، والمساواة ، والتسامح . انهم لم يرفضوا المنطق الاستعماري فقط ، بل رفضوا منطق شعبهم أيضاً . لقد أرادوا أن يبنوا مجتمعاً جزائرياً جديداً قائماً على التقدم ، والتسامح ، والمساواة . ان تعليمهم ونظرتهم الشاعرية قد جعلت منهم محامين من أجل (يوتوبيا) لم تر الضوء أبداً . كما جعلهم موقفهم المعتدل يبدون ضعفاء وغير مدعمين في عين الإدارة الفرنسية . ونفس الموقف قد عزلهم أيضاً عن شعبهم ، ولم يكسبهم ثقة الكولون أيضاً.

ولعل الضعف الرئيسي لهذه الطبقة يتمثل في عدم وجود منظمة فعالة وقيادة قديرة . فبرنامج النخبة ، بالرغم من أنه كان معتدلاً ومتناقضاً في بعض الأحيان ، كان جيداً إلى حد أنه كان يصلح أن يكون قاعدة لحركة وطنية جزائرية جديدة ، لو أنهم دعموه بزعماء قادرين ومخلصين ، ومنظمة تحسن استغلال المواقف المناسبة.

ولا شك في أن دورهم الوطني كان هاماً ، رغم أنه لم يكن حاسماً . فصحافتهم ، ووفودهم ، وعرائضهم ، وهجوماتهم على الخرافات ، والإجحاف والاستغلال ، وَبِنِدَائِهم من أجل التعليم العربي ، والتقدم ، والتسامح ، ومساعدة الفلاحين والعجزة ـ كل ذلك أدى إلى أن تخلق جماعة النخبة ضميراً وطنياً جديداً وطريقة جديدة للمقاومة . ورغم تكذيبهم ونقصان الوثائق التاريخية ، فإنه يبدو أن جماعة النخبة قد أعجبوا بثورة الفتيان الأتراك سنة 1908(89) ، من أجل شعارها المنادي بالتقدم والتغيير في مجتمع شبيه بمجتمع الجزائر .

يتذكر القارىء بأنه خلال هذا العهد كان الأمير علي باشا نائباً لرئيس المجلس العثماني (البرلمان) بينما كان باش حانبة التونسي قاضياً في المحكمة العثمانية . وقد توفي باش حانبة سنة 1918 .

(89) لاحظ نوشي ، دون إعطاء دليل ، بأن الجزائريين قد أعجبوا بثورة الفتيان الأتراك ، وتأثروا بحوادث الشرق الأدنى ، وبالمؤتمر العربي الذي عقد في باريس سنة 1913 .

4. المقاومة الجديدة : العرائض والوفود :

أما على الجبهة السياسية ، فإن النهضة قد جربت نفسها في معركة تحد ضد قانون التجنيد الإجباري . وقد ساهم كل من كتلة المحافظين وجماعة النخبة بنشاط في هذه المعركة ، التي سميت بطريقة الجزائر الجديدة في المقاومة ضد الحكم الفرنسي .

ان استعمال العرائض لم يكن جديداً في تاريخ الجزائر تحت حكم فرنسا . فالحق أنه ابتدأ مع المرحلة الأولى للاحتلال . وقد افتتح العمل بهذه الطريقة حزب المقاومة الذي كان يقوده حمدان خوجة . ولكن هناك فرق بين طريقة العرائض القديمة والجديدة . فبينما لجأت الجزائر القديمة عموماً إلى الاحتجاج والشكوى ، عمدت الجزائر الجديدة إلى تقديم مطالب معينة ، موضحة بأنها كانت تطالب بذلك باعتباره حقاً أخلاقياً وسياسياً .

ففي سنة 1860 ، تقدم الجزائريون بعريضة إلى الحكومة الفرنسية محتجين فيها ضد مشروع إنشاء حكم مدني في الجزائر(90) . وبعد ذلك بعقد ، بعثوا بعرائض إلى نابليون الثالث وإلى الإدارة الفرنسية في الجزائر مذكرين بالتزامات فرنسا في اتفاق الجزائر سنة 1830 ، ومطالبين بوضع حد لسلطة الكولون . وقد اشتكى الجزائريون في هذه العرائض بأن أصواتهم كانت لا تبلغ ، بينما كانت أصوات الكولون تسمع(91) .

وقد اغتنم الجزائريون فرصة مناقشة المجلس الوطني الفرنسي ، سنة 1887 ، لمشروع تجنيس الأهالي بطريقة جماعية ، فأرسلوا عريضة ، بالعربية والفرنسية ، إلى المجلس الوطني الفرنسي أعلنوا فيها معارضتهم المطلقة للمشروع . وقد أوضحوا فيها إلى المجلس بأن الدخول في الجنسية الفرنسية بطريقة التجنس كان ضد مصالح الجزائر . وطالبوا بأن تتركهم فرنسا يحتفظون بتقاليدهم ، وقوانينهم ،

---

(90) ايميري ، « الحالة الروحية لمسلمي الجزائر » في «ر.هـ.م.ك.» ، م 8 (أبريل - جوان ، 1960) ، 118 .

(91) نفس المصدر ، ص 118 ـ 120 .

وشخصيتهم الخاصة[92] . أو كما عبر عن ذلك فيري مؤخراً ، « دعونا لحالنا » .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن عريضة سنة 1886 قد احتوت على مطالب معينة من المجلس الوطني الفرنسي . والمطالب هي :

1 ـ تنظيم المدارس العربية ونشر تعليم العربية بين الجزائريين .

2 ـ المساواة في التمثيل النيابي بين الجزائريين والفرنسيين في المجالس البلدية والعمالية .

3 ـ استرجاع العمل بالقضاء الاسلامي ، الذي كان قد الغى بقرار سنة 1866[93].

وهكذا تقدمت الجزائر الفتاة إلى الفرنسيين ببرنامج محدد يتمثل في : الإبقاء على الشخصية الجزائرية (معارضة التجنس) ، والاعتراف بالتعليم الوطني وانعاشه ، واستعادة واحترام القضاء الإسلامي .

وقد فتح قدوم لجنة مجلس الشيوخ آفاقاً جديدة أمام الجزائر الفتاة . فاللجنة ، التي قضت 53 يوماً في الجزائر (19 ـ أبريل 5 جوان 1892) كانت تتكون من سبعة شيوخ برئاسة جول فيري . وقد صادف قدومها شروع الجزائريين في المطالبة بالحقوق السياسية والوطنية ، والتعبير عن معارضتهم لقانون الأهالي وللتدخل الفرنسي في شؤونهم الثقافية والاجتماعية . وبينما كان الكولون ينظرون إلى اللجنة في شك ، استقبلها الجزائريون على أمل أنها ستضع حداً لكل ما يشكون منه . ولكن اللجنة استمعت إلى كل الشكاوي ، واستقبلت ممثلين عن مختلف الطبقات ، واستجوبت عدداً كبيراً من الشخصيات المختلفة في المدن والقرى . ولا شك أن محاضر هذه اللجنة تعتبر من الوثائق الهامة في تاريخ الجزائر .

وبناء على تقرير فيري ، فإن الجزائريين قد قدموا عرائض ومطالب معتدلة ، ومعقولة ، وعملية . وهذه العرائض والمطالب قد اشتملت على معارضة التجنس

---

(92) أنظر مصطفى الأشرف ، « الوطنية الجزائرية : معنى ثورة » في « ت.م. » ، (سبتمبر ـ أكتوبر ، 1956) ، ص 240 ـ 241 . ويقول الأشرف أن المطالب الجزائرية قد وقعت من كل الطبقات . أنظر ص 243 .

(93) نفس المصدر ، ص 241 ـ 242 . أن قرار سنة 1886 قد حد من سلطة القاضي المسلم تمتيناً لسلطة القانون الفرنسي .

(المحافظة على الأحوال الشخصية) ، والتجنيد العسكري الإجباري ، وفرض التعليم بالفرنسية ، والتدخل في الشؤون المدنية[94].

ولكن الجزائريين ، الذين كانوا يشكون من سياسة التفقير والتدهور ، طالبوا « بالإجماع » بما يلي :

1 ـ وضع حد للضرائب الثقيلة .

2 ـ استرجاع العمل بالقضاء الاسلامي .

3 ـ حق الجزائريين في المشاركة في انتخاب رؤساء البلديات .

4 ـ إلغاء قانون الأهالي[95].

وأثناء نفس العهد ، قدم بعض الجزائريين المعينين كممثلين للأهالي لوائح مختلفة إلى الفرنسيين تحتوي على مطالب هامة . فقد طالب أحد الجزائريين ، يدعى لويس خوجة ، سنة 1872 ، بضرورة انتخاب الجزائريين في المجالس المحلية بدلاً من تعيينهم تعييناً من الإدارة الفرنسية . كما نادى أيضاً بإسقاط الشرط الناص على ضرورة معرفة الترشح للغة الفرنسية[96] . وفي سنة 1921 ، ذكر محمد بن رحال ، وهو عضو من كتلة النخبة التقليدية ، بأنه كان قد قرأ « مذكرة » ، سنة 1892 ، أمام فيري توصي بإعادة تنظيم المدارس الجزائرية ـ الفرنسية وإصلاح التعليم العربي[97] .

ويعتقد بعض الكتاب أن لجنة مجلس الشيوخ الفرنسية كانت هامة لأنها ساهمت في يقظة الجزائريين الذين كانوا قد بدأوا يعون مكانتهم . وبناء على رأي مراد ، فإن اللجنة ساهمت أيضاً في التعريف بالقضية الجزائرية عموماً وذلك بعرضها

---

(94) إشارة إلى تبديل أسماء العائلات الذي فرضه قرار 23 مارس ، 1882 .

(95) أنظر أجرون ، « جول فيري والمشكل الجزائري » في « ر. هـ. م. ك. » م 10 « أبريل ـ جوان ، 1963) ، ص 134 ـ 137 .

(96) نفس المصدر ، ص 137 هو السيد لويس خوجة الذي يغلب على الظن أنه كان من المتجنسين الجزائريين ، وكان عندئذ يعمل في محكمة عنابة . ويحتوي جوابه على 61 صفحة . وقد قدم سي سليمان بن خليل ، وابن رحال ، والدكتور ابن العربي مطالب مشابهة . أنظر أيضاً ص 127 .

(97) نفس المصدر ، ص 145 ومن الذين كتبوا تقريراً لهذه اللجنة حميدة بن باديس عم عبد الحميد بن باديس . وقد عثر هذا على تقرير عمه ونشره في مجلة (الشهاب) عدد شهر أفريل 1937 ، ص 62 ـ 71 .

على الرأي العام الفرنسي ، فأعطت بذلك وسائل يستغلها الفرنسيون العاطفون على الـجزائريين[98] . ويقول نوشي بأن حق التمثيل النيابي ، الذي طالب به الجزائريون لدى اللجنة ، قد سجل « تغييراً كبيراً » في آرائهم السياسية[99] . كما أن أجرون قد أعطى أهمية خاصة للجنة . ولكن على المرء أن يتذكر بأنه لم تطبق إلا إجراءات محدودة من توصيات هذه اللجنة .

ووسط أزمة المغرب الأقصى الأولى والتهديد بإمكانية حرب أوروبية ، خلقت فرنسا لجنة خاصة للنظر في تطبيق التجنيد العسكري الإجباري على الجزائريين . وهذه الحركة ، التي حاول الفرنسيون أن يبقوها سراً حتى يصدروا قرارهم الأخير في شأنها ، قد خلقت جواً مكفهراً في الجزائر جعل كثيراً من المعاصرين يصفونه بأنه كان ينذر بالخطر[100] . وقد عارض الجزائريون هذه الخطة بكل شدة نظراً لأنها قد جاءت عندما كانت الجزائر الفتاة تبحث عن مكان لها تحت الشمس.

وكانت طبيعة التجنيد الاجباري المتناقضة واضحة لأسباب مختلفة . أولاً ، أن قانون مجلس الشيوخ ، عام 1865 ، قد جرد الجزائريين من حق الجنسية الفرنسية إلّا إذا تخلوا عن أحوالهم الشخصية كمسلمين . فقد اعتبرهم هذا القانون رعايا ، لا مواطنين ، على أساس أن الجنسية الفرنسية لا تتناسب مع حالة الجزائري كمسلم . والفرنسيون ، الذين يطبق عليهم التجنيد الاجباري ، كانوا يتمتعون بكل الحقـوق كمواطنين . أما الجزائريون فقد كانوا يعتبرون رعايا ، وبالتالي لم تكن لهم حقوق . فتطبيق « واجبات » التجنيد الاجباري على من ليس له « حقوق » كان يبدو للجزائريين متناقضاً.

والسبب الثاني للتناقض هو أن الجزائريين لم يكونوا رعايا فقط ، ولكن أيضاً رعايا « خاصين » . فقد كانوا يعيشـون تحت اجراءات استثنائيـة ممثلة في قانـون الأهالي ، والمحاكم الرادعة ، ومنشور جونار . ولم يكن التجنيد الاجباري في رأيهم سوى حمل جديد يضاف على كاهل الرعايا.

---

(98) «أ.ب.ل.أ.» م 27 (1964) ، ص 14 .

(99) نوشي ، ص 20 .

(100) أنظر « الجزائر » في « أ.ف. » ، (أكتوبر ، 1908) ، ص 342 .

والسبب الثالث للتناقض هو أن التجنيد الإجباري لا يراعي مشاعر الجزائريين الدينية . فهم كمسلمين كانوا ملزمين بأن يعملوا تحت علم قد يأخذهم إلى محاربة اخوانهم في الدين من أجل قضية لم تكن قضيتهم . أما السبب الرابع فهو أن اتفاق الجزائر (1830) قد ضمن الاحترام الكامل للدين ، والقوانين ، والتقاليد الجزائرية . وقد رأى الجزائريون أن التجنيد الاجباري يتناقض مع هذا الاتفاق.

كان الجزائريون مجمعين في معارضتهم للتجنيد الاجباري . فقد وقف ضده المحافظون لمعارضته لنصوص اتفاق 1830 . وأوضحوا أنه كان ضد إرادتهم الدينية التي تحتم عليهم أن لا يعملوا تحت علم غير اسلامي . ووقفوا ضد التجنيد كما وقفوا ضد التجنيس ، لأنهم رأوا أن كلا الخطتين تهدد أحوالهم الشخصية كمسلمين.

كان هناك أربعة أشكال اتخذتها المعارضة الجزائرية للتجنيد العسكري الاجباري : الشغب في الشوارع ، والعرائض ، والوفود ، و« الاختفاء » . وكل هذه الأشكال كانت مؤيدة ، وموجهة ومثيرة بحملة عنيفة قامت بها الصحافة الوطنية . ومن بين الصحف التي شاركت في هذه الحملة : « الحق » ، « الأسلام » ، « الرشيدي »[101] . وكان شغب الشوارع يثار ، بالإضافة إلى الصحافة ، بمنشورات توزع في المقاهي والأسواق داعية للمعارضة ومتهمة فرنسا باختراق اتفاق سنة 1830[102].

وقد جرت في كامل أنحاء الجزائر سنة 1908 مظاهرات تلقائية وجماعية ، ولكن سلمية ، لمعارضة التجنيد الإجباري[103] . وفي بعض الحالات عبر الجزائريون حتى عن آراء « خطيرة » وكانوا يتحدثون عن الثورة[104] . ففي جهة رفيقو وحدها (وهي بلدية ذات صلاحيات كاملة وتدعى حالياً بوقرة) اجتمع 3000 جزائري في البلدية للاحتجاج ضد التجنيد الاجباري . ولم يتفرقوا إلاّ عندما وعدهم رئيس المجلس البلدي بدراسة القضية ، وأعطاهم وعداً خاصاً بأنهم لن يرسلوا

---

(101) نوشي ، ص 23 .

(102) أنظر « الجزائر » في « أ.ف. » ، (جانفي ، 1908) ، ص 22 .

(103) نفس المصدر ، (أكتوبر ، 1908) ، ص 342 .

(104) نفس المصدر ، (جانفي ، 1908) ، ص 22 و (أكتوبر ، 1908) ، ص 342 .

للمحاربة ضد المغرب[105].

ورداً على « الدعاية النشيطة » التي قام بها الجزائريون الذين اتهموا فرنسا بخرق اتفاق 1830 في فرض التجنيد ، أصدر الحاكم العام في الجزائر منشوراً سنة 1908 دافع فيه عن سياسة بلاده . وقد اعترف المنشور بأن الاتفاق قد « وعد الأهالي المسلمين باحترام حريتهم ، ودينهم ، وممتلكاتهم ، وتجارتهم ، وصناعتهم » ، ولكن لم يعدهم أبداً بعدم الخدمة العسكرية، وأضاف المنشور بأن تخلي الجزائريين عن سيادتهم يفهم منه ، على العكس ، تجنيدهم اجبارياً[106].

ولكن الجزائريين لم يقتنعوا بحجة الحاكم العام . فقد واصلوا « دعايتهم النشيطة » في القرى والمدن . وشهدت أهم مدن العمالات الثلاث مظاهرات في الشوارع . وفي مدينة تلمسان وحدها تظاهر ، سنة 1909 ، عشرة آلاف نسمة ضد التجنيد الإجباري[107] . ومما يذكر أن التجنيد لم يصبح بعد قانوناً .

وعندما وافق المجلس الوطني الفرنسي ، في فيفري عام 1912 ، على قانون التجنيد الاجباري ، اضطربت لذلك الجزائر كلها . فالمظاهرات التلقائية الكبيرة لم تعد سلمية . وانتشر العنف في الجزائر بأسرها ، بما في ذلك الاغتيال ، والاصطدامات مع الشرطة ، وتكوين فرق الارهاب . وفي كثير من الأحيان اضطر الفرنسيون إلى إرسال النجدة كاحتياط ضد إمكانية حدوث ثورة . أما الشباب ، الذي كان المقصود بالتجنيد الاجباري ، فقد هرب إلى الجبال ، و« اختفى » ، وبذلك

---

(105) « التايمز » (لندن) ، (14 سبتمبر ، 1908) ، ص 5 . أنظر أيضاً « أ. ف. » . (أكتوبر 1908) ، ص 342 .

(106) أنظر « أ.ف. » ، (أكتوبر ، 1908) ، ص 342 . من الممكن أن نقول أن الحاكم العام كان يستعمل إدعاءات غير صحيحة . أولاً ، أن الجزائريين لم يتخلوا عن سيادتهم ، ولكنهم كانوا قد هزموا عسكرياً . فمن حقهم ، اذن ، أن يعارضوا التجنيد الإجباري الذي كانوا يرونه حملاً آخر من أحمال الإحتلال . ثانياً ، أن التجنيد الإجباري لم يكن متلائماً مع إحترام « الحرية » و« الدين » اللذين يتفق الحاكم العام على أن اتفاق 1830 ينص عليهما . فكيف يمكن لمسلم أن يعمل تحت علم غير مسلم ، باسم قانون إجباري ، دون أن يكون مخالفاً للمبادىء الأولى لدينه ؟ وبالإضافة إلى ذلك ، كيف يمكن ربط حالة « الرعية » التي كان يعيش تحتها الجزائريون بمبدأ « الحرية » الذي نص عليه اتفاق 1830 ؟ .

(107) فخار ، « ر.م.م » ، م 7 (جانفي - أبريل ، 1909) ص 21 .

أصبحت الجزائر ، حسب تقدير الفرنسيين ، في حالة خطر ، بل ان بعض الكولون قد بدأوا يغادرون البلاد خوفاً[108] . وباختصار ، فإن الجزائر الفتاة كانت تظهر تحدياً جديداً لفرنسا .

ولعله من المستحسن اعطاء بعض الإيضاحات عن هذه الحالة . ففي سنة 1912 بعثت فرنسا فرقتين عسكريتين وبعض المدافع إلى عمالة وهران لكي تمنع أية امكانية للثورة . وفي جهة المدية ضُرب الحاكم الاداري الفرنسي بالحجارة ، وجرح مساعده القائد الجزائري . كما ضُرب بالحجارة وأُهين الحاكم الإداري للمعاضيد الواقعة قرب سطيف . ووقعت في ندرومة حوادث « أكثر عنفاً وخطورة » . فقد تظاهر هناك آلاف من الجزائريين أمام مكتب الحاكم الفرنسي للاحتجاج ضد التجنيد . وأثناء ذلك قدم المتظاهرون عريضة إلى الحاكم . وبعد الاجتماع ، الذي يبدو أنه كان بلا نتيجة ، صرخ الجزائريون « صرخات معادية وخطيرة » واصطدموا مع قوات الأمن ، مستعملين المسدسات والعصي[109] .

وفي نفس الوقت « اختفى » الشباب من باتنة ، وندرومة ، وغيرهما من المناطق ، لكي يفروا من التجنيد الاجباري . وقد أنذرت مجلة فرنسية محافظة « بالنتائج الكبيرة » التي قد تنجم عن موقف الجزائريين ، ولا سيما عن اختفاء الشبان المتأثرين بالتجنيد . ثم تعجبت المجلة مرددة : « ذلك هو الخطر ! تلك هي الصعوبة ! »[110] . وقد نصحت جريدة « الحق » ، الجزائريين بالهجرة لكي يتقوا التجنيد الاجباري[111] . ونتيجة لهذه النصيحة « (هاجر) حوالي ألف شاب مجند »[112] .

أما على المستوى الرسمي ، فإن الجزائريين قد قدموا إلى الفرنسيين عرائض ،

---

(108) ديبون (الذي كان بدرجة مساعد ـ كولونيل) ، « الفرق الأهلية وثورة فاس » في « ر.ب. » ، (15 سبتمبر ، 1912) ، ص 296 .

(109) « الجزائر » في « أ.ف. » ، (جوان ، 1912) ، ص 226 .

(110) نفس المصدر . أنظر أيضاً نوشي ، ص 23 وأرون ، ص 61 . وسوف نرى أن أولئك الجزائريين الذين اختفوا سنة 1912 قد قاموا بثورات خلال الحرب العالمية الأولى .

(111) نوشي ، ص 23 .

(112) أرون ، ص 61 .

ورسائل ، ولوائح معبرين فيها عن معارضتهم للتجنيد الاجباري . ففي 25 ديسمبر 1907 ، بعث « المستشارون الأعيان » الجزائريون في البليدة رسالة إلى محرر جريدة « ديبيش ألجيريان » رافضين فيها « رسمياً » التجنيد الاجباري . وقد أكدوا للمحرر بأن جميع الأهالي يؤيدون وجهة نظرهم[113].

والقوة التي كانت وراء معركة العرائض هي « لجنة الدفاع عن مصالح المسلمين (الجزائريين) » التي أنشئت حوالي سنة 1908 ، أو قبل ذلك بقليل[114] . وكانت العرائض توزع بين الجزائريين مطالبة بأن الحصول على الحقوق السياسية شرط في قبول التجنيد الاجباري . ففي عريضة إلى المجلس الوطني الفرنسي ، في ماي 1912 ، ضمنها الجزائريون النقط التالية :

1 ـ أن الجزائريين ، بالمقارنة إلى الفرنسيين ، كانوا يعيشون تحت إجراءات تمييزية ، مثل قانون الأهالي ، وقانون الغابات ، والضرائب الخاصة ، وقانون الجرائم الجماعية ، وفقدان التمثيل النيابي .
2 ـ أن هذه الاجراءات قد جعلتهم يشعرون بأنهم « ناقصون » .
3 ـ أنه لا مبرر لاستمرار هذه الاجراءات .
4 ـ ان على الحكومة الفرنسية أن تمنح الجزائريين كامل الحقوق السياسية كمواطنين ، ولكن بدون أن تطالبهم بالتخلي عن أحوالهم الشخصية .

---

(113) أنظر « الجزائر » في « أ.ف. » ، (جانفي ، 1908) ، ص 22 . كانت هذه الرسالة قد وقعها سبعة جزائريين كانوا يمثلون مختلف الطبقات .

(114) المصدر الوحيد الذي أشار إلى « لجنة الدفاع عن مصالح المسلمين » هو اللائحة التي كانت قد أرسلت إلى السلطات الفرنسية ، سنة 1912 ، من النواب الجزائريين في المجالس المالية معارضة منهم للوفد الوطني الذي ذهب إلى باريس لعرض قضية الجزائر . فقد قالت تلك اللائحة أن « جماعة » من الجزائريين قد أنشأوا لجنة الدفاع عن مصالح المسلمين « منذ بضع سنوات » . وسوف نرى أن وفداً جزائرياً آخر بقيادة عمر بوضربة قد ذهب إلى باريس ، سنة 1908 . واذن ، فإنه من الممكن الإدعاء بأن لجنة الدفاع عن مصالح المسلمين قد خلقت خلال هذه السنة . ولكن يمكن أنها كانت قد خلقت قبل ذلك ، مثل سنة 1903 أو 1906 ، لأن التاريخين كانا هامين : فسنة 1903 قد شهدت مناقشات حادة معارضة لخلق المحاكم الرادعة ، أما سنة 1906 فقد شهدت ميلاد منشور جونار البغيض .

5 ـ عندما تتحقق هذه الشروط ، يكون الجزائريون مستعدين لدفع « ضريبة الدم »[115].

حتى « بنو وي ـ وي » ، الذين كانت الادارة الفرنسية تختارهم بعناية كخدام طائعين ، عارضوا التجنيد الاجباري . ففي 13 ماي 1912 ، صوت الأعضاء الجزائريون في الوفود المالية المحلية على لائحة يطالبون فيها الحكومة الفرنسية أن « تلغي جميع مشاريع التجنيد الاجباري ، ولو كان جزئياً بخصوص الأهالي »[116] . وبدلاً من التجنيد، طالب هؤلاء الجزائريون بزيادة الحقوق الانتخابية التي بدونها سيبقون غير مستعدين للتعاون مع فرنسا . وفي نفس الوقت ، طالب أولئك الجزائريون بتحسين أحوال الأهالي الذين دخلوا الجيش الفرنسي ، بإرادتهم .

ولعل أنشط دور خلال هذه الحملة هو الذي لعبه أعضاء بلدية الجزائر العاصمة . فتحت قيادة « لجنة الدفاع عن مصالح المسلمين » المذكورة سابقاً ناور هؤلاء الأعضاء بحكمة لبسط قضيتهم أمام الرأي العام الجزائري والفرنسي . وفي 27 ماي ، 1912 ، بعث هؤلاء الأعضاء عريضة هامة إلى « حكومة الجمهورية والمجلس الوطني الفرنسي » . وقد عبروا فيها على أن قانون التجنيد الاجباري الصادر في فيفري من نفس العام كان :

1 ـ معادياً للديمقراطية ، لأنه كان مطبقاً على الفقراء فقط .
2 ـ مهيناً للجزائريين ، لأنه وعدهم تعويضاً قدره 250 فرنكاً ، وهو تعويض جعلهم يشعرون بأنهم كانوا « مرتزقة » لا جنوداً « بفخر واحترام » .
3 ـ غير عادل لأنه جعل الجزائريون يعملون في الخدمة العسكرية ثلاث سنوات بدل سنتين مثل الفرنسيين . كما أن ذلك القانون كان غير عادل لأنه فرض على الجزائريين حملاً جديداً دون أن يعطيهم الحقوق السياسية والمدنية التي هي « ضرورية ولا استغناء عنها »[117] .

---

(115) نص هذه العريضة في « الجزائر » في « أ. ف. » ، (ماي ، 1912) ، ص 195 ـ 196 . يجب أن نلاحظ بأن الرأي المعبر عنه في هذه العريضة هو رأي النخبة وليس رأي المحافظين .

(116) نفس المصدر ، ص 196 .

(117) أنظر « الجزائر » في « أ. ف. » ، (جوان ، 1912) ، ص 226 .

وقد احتوت عريضة أعضاء بلدية الجزائر على اقتراحات هامة موجهة إلى الحكومة والمجلس الوطني الفرنسي ، من ذلك :

1 ـ الإلغاء التام لقانون التجنيد الاجباري وتعويضه بقانون آخر مبني على فكرة الحرية ، والعدالة ، والمساواة .

2 ـ نهاية كاملة لقانون الأهالي ، وللمحاكم الرادعة ، وغيرها من الاجراءات الاضطهادية .

3 ـ الاعتراف بمبدأ المساواة على جميع المستويات ، ولا سيما بخصوص المسؤولية ، وتوزيع الضرائب ، وتمثيل نيابي « جاد وكاف » للجزائريين في كل المجالس ، بما في ذلك المجلس الوطني الفرنسي.

4 ـ الاعتراف للجزائريين المجندين بحق اختيار الجنسية الفرنسية بعد التسريح(118) .

ولم تكن حركة الوفود بأقل من معركة العرائض. في أكتوبر 1908 بعثت « لجنة الدفاع عن مصالح المسلمين » المشار إليها وفداً إلى باريس ليعبر للسلطات الفرنسية عن رغبات الجزائريين . قاد الوفد السيد عمر بوضربة ، وهو عضو جزائري في بلدية العاصمة . كان هذا أول وفد جزائري منذ سنة 1833 يعبر البحر الأبيض المتوسط ليشرح القضية الوطنية . وقد قابل الوفد السيد جورج كليمانصو ، الذي كان عندئذ رئيساً للوزارة الفرنسية ، في 3 أكتوبر ، 1908 ، وقدم إليه عريضة باسم الجزائريين . واحتج أعضاء الوفد لديه ضد مشروع التجنيد الاجباري ، وأصر لديه على أن الجزائريين يجب أن يحصلوا على الحقوق السياسية قبل أن يستدعوا للخدمة في الجيش الفرنسي .

وقد أجاب كليمنصو جواباً مشجعاً للوفد الجزائري . فقد وعده :

أولاً : بانتخاب الجزائريين في المجالس العامة للعمالات بدلاً من تعيينهم

---

(118) نفس المصدر . وقع هذه العريضة الأدميرال ، الحاج موسى ، عمر بوضربة ، والدكتور ابن التهامي .

ويجب أن نلاحظ من جديد بأن تحوير قانون التجنيد الإجباري ليشمل تعويضات سياسية هو رأي جماعة النخبة . أما المحافظون فقد رفضوا التجنيد الإجباري من أساسه ، لأنه كان في نظرهم ضد الحرية ، والدين ، والضمير ، والشخصية الجزائرية .

تعييناً من الإدارة الفرنسية ، كما كانت الحالة عندئذ .

ثانياً : بدراسة جدية لقضية منح الحقوق السياسية للجزائريين.

ثالثاً : بعدم فرض « ادماج غير ممكن » على الجزائر . ولكن كليمانصو صارح الوفد بأن قانون التجنيد الإجباري سيطبق على الجزائريين . وقد قبل الوفد ، الذي كان مكوناً من أعضاء ينتمون إلى جماعة النخبة ، المشاركة في « الدفاع الوطني » من ناحية المبدأ(119) .

وبعد أربع سنوات بعث الجزائريون بوفد آخر إلى الحكومة الفرنسية . وقرار إرسال هذا الوفد كان اتخذ عندما أصبح واضحاً أن الفرنسيين كانوا سيصوتون على قانون التجنيد الاجباري دون دراسة قضية الحقوق السياسية للجزائريين . وقد كان الوفد الثاني أكثر أهمية من سابقه . كان يضم أعضاء أكثر عدداً ، وكان يمثل الجزائر كلها ، حيث كان يضم أشخاصاً من جميع أنحاء البلاد . وكان الوفد مهماً أيضاً نظراً للمطالب التي قدمها إلى السلطات الفرنسية ، والتي احتوت على نقاط وأهداف محددة .

ففي 26 جوان 1912 استقبل الوفد الثاني من جانب بوانكاري ، رئيس الجمهورية الفرنسية عندئذ ، وسلم إليه « مذكرة عن مطالب المسلمين الفرنسيين في الجزائر كتعويض عن الخدمة العسكرية »(120) . وقد قالت المذكرة بأن التجنيد العسكري الاجباري قد « أثار مشاعر السخط في كامل الجزائر » ، وأن هذه المشاعر ستستمر ما لم يوجد علاج لها . وقد شعر أعضاء الوفد بأن من واجبهم أن يشرحوا الحالة إلى الحكومة الفرنسية . وكانوا مسلحين بعدد كبير من العرائض التي كتبت من كامل أنحاء الجزائر. لذلك أخبروا الرئيس بوانكاري بأن الجزائريين يعتبرون أن بعض

---

(119) أنظر « الجزائر » في « ا.ف. » (أكتوبر ، 1908) ، ص 341 . أما بيان الوزارة الفرنسية بخصوص الاجتماع بين كليمانصو والوفد الجزائري فيوجد في المرجع المذكور .

(120) ابن حبيلس ، ص 117 . كان هذا الوفد مؤلفاً كما يلي : الدكتور ابن التهامي عن (الجزائر العاصمة) رئيساً للوفد ، مختار حاج سعيد ، الدكتور موسى ، ابن علاوة (عن قسنطينة) ، الحاج عمار ، (عن جيجل) ، جودي (عن بسكرة) ، ابن عثمان (عن يوجو وتدعى حالياً سرايدي) ، ابن ددوش (عن تلمسان) ، قارة علي (عن عنابة) ، أنظر « الجزائر » في « ا.ف. » ، (جويليه ، 1912) ص 276 .

الاجراءات « ضرورية » قبل أن يلتزموا بأي دفاع عن فرنسا.
وقد طالبت مذكرة 1912 بما يلي :
أولاً : إنهاء الاجراءات الإضطهادية والقوانين الإستثنائية .
ثانياً : تمثيل نيابي جاد وكاف للجزائريين في كل المجالس بالجزائر وفرنسا .
ثالثاً : توزيع عادل للضرائب.
رابعاً : توزيع متساو لمصادر الميزانية بين الجزائريين والكولون . كما طالبت بتنقيح قانون التجنيد الاجباري ، وذلك :
أولاً : بتخفيض فترة الخدمة العسكرية للجزائريين من ثلاث سنوات إلى سنتين ، على قدم المساواة مع الفرنسيين.
ثانياً : بتبديل سن التجنيد من 18 إلى 21 ، لأن الجزائري لم يكن قد نَضَجَ طبيعياً وبدنياً في سن 18 .
ثالثاً : بإلغاء مكافأة التجنيد ، التي تمس شرف الأسرة الجزائرية[121] وقد وعد بوانكاري ، كما فعل كليمانصو قبله ، الوفد بدراسة جدية للمشاكل التي تقدم بها.

ولما بدا للإدارة الفرنسية في الجزائر أن الوفد قد حقق نجاحاً ، وخوفاً من وحدة وتضامن الجزائريين ، أوحت إلى « بني وي ـ وي » ، أولئك الجزائريين الأعضاء في المجالس البلدية ، لكي يعارضوا المطالب التي قدمها الوفد في مذكرة جوان 1912[122] . هكذا ففي 8 جوان 1912 صوت الأعضاء الجزائريون في المجالس البلدية على لائحة عبروا فيها عن ولائهم وإخلاصهم لفرنسا باعتبارهم « الممثلين الوحيدين » للأهالي الجزائريين.

---

(121) ابن حبيلس ، ص 117 ـ 118 .

(122) ان مثل هذه المناورات الاستعمارية ستستمر الى استقلال الجزائر سنة 1962 . فمهما وحد الجزائريون أنفسهم حول بعض الوفود أو الأحزاب السياسية لكي يطالبوا بالحقوق السياسية من فرنسا ، رد عليهم الكولون ، مؤيدين عادة من الادارة الفرنسية ، لا بالمعارضة المباشرة لهم فقط ، بل أيضاً باستعمال الجزائريين الذين كانوا قد اختاروهم بعناية لهذا الغرض . وقد قال أرون ، الذي كان يميل الى الكولون ، بأن مطالب 1912 كانت في عين الكولون شيئاً لا يطاق أراد الجزائريون أن يستعملوها كوسيلة للاستقلال . أنظر أرون ، ص 61 .

وقد احتجت اللائحة المذكورة بقوة ضد « حزب الطامحين » الذين يتمثل « هدفهم الانتهازي » الوحيد في خلق الشغب والحصول على مكانة بين الجزائريين . كما احتجت ضد « الجماعة الصغيرة » التي خلقت (لجنة الدفاع عن مصالح المسلمين) والتي أرسلت وفداً إلى فرنسا سنة 1908 ، وضد « الجماعة الأخرى » التي ذهبت في وفد 1912 ، والتي كان لها نفس الهدف . وأخيراً نصحت اللائحة فرنسا بأن « الساعة لم تحن بعد » لكي يطالب الجزائريون بالجنسية الفرنسية(123) .

ومن الغريب أن الكولون قد عارضوا أيضاً التجنيد الاجباري للجزائريين ، ولكن لأسباب مختلفة . فالكولون قد اعتبروا التجنيد كوسيلة يمكن للجزائريين أن يستعملوها للحصول على الحقوق السياسية . ولذلك فعندما عارض الجزائريون جميعاً التجنيد الاجباري سر الكولون وسخروا صحافتهم ونوابهم في المجالس المحلية والمجلس الوطني الفرنسي لشن حملة ضد التجنيد الاجباري تأييداً للجزائريين . ولكن عندما قبل جماعة النخبة التجنيد مبدئياً اثر اجتماعهم بكليمانصو ، سنة 1908 منتظرين تحقيق الحقوق السياسية ـ شعر الكولون بالخطر . ذلك أن الهدف الرئيسي لهم كان الابقاء على الجزائريين على حالتهم كرعايا(124) .

فماذا كان رد الفعل الرسمي لأكثر من أربع سنوات من الحملات والحملات المضادة بخصوص التجنيد الاجباري ، رغم وعود فيري سنة 1892 ، ووعود كليمانصو سنة 1908 ، ووعود بوانكاري سنة 1912 ؟ ان فرنسا لم تتحرك ولو خطوة

---

(123) أنظر ف. ديمونتي « الجزائر » في « ا. ف. » ، (جويليه ، 1912) ، ص 275 ـ 276 . لاحظ أن هذه اللائحة كانت تنتقد المطالبة بالحقوق السياسية وبالجنسية الفرنسية ، وتهمل التجنيد الاجباري الذي كان السبب في كل هذه المناقشة . ونظراً لأن الحقوق السياسية للجزائريين كانت معارضة بكل قوة من الكولون ، ونظراً لأن اللائحة لم تكن موقعة ، فإننا نشعر أنها قد تكون مزورة من الكولون لزرع الخلاف . وبالاضافة إلى ذلك ، فمن المعروف أن النواب الجزائريين في المجالس المالية قد عارضوا ، في ماي 1912 ، التجنيد العسكري الاجباري ، كما فعل الجزائريون الآخرون .

(124) أنظر « الجزائر » في « ا. ف. » ، (جانفي ، 1908) ص 21 ـ 22 . كتبت احدى صحف الكولون قائلة : « إننا 700,000 ضد أربعة ملايين شخص . فإذا أصبح الأهالي (الجزائريون) مسلحين فإن حياتنا ، وأشخاصنا ، وأملاكنا ستكون في خطر » . ولهذا السبب أيد الكولون ، بصفة غير متوقعة ، اتفاق 1830 . أنظر أيضاً نوشي ، ص 23 ـ 24 .

إلى الأمام لإرضاء الآمال الوطنية . بالعكس ، فقد رأينا أن الفترة بين 1890 ، 1912 قد شاهدت تطبيق أسوأ القوانين والاجراءات الاضطهادية منذ الاحتلال . ويبدو أن موقف الفرنسيين غير المرن كان مخيباً للآمال وبلا تفسير عندما نأخذ في الاعتبار أنه قد اتخذ عندما كانت حركة « الجزائر الفتاة » تمر بمرحلة النهضة ، وعندما كانت الحركة القومية العالمية في أوج تطورها.

وعلى أية حال فإن فرنسا قد استمرت في تنفيذ خطتها في خصوص التجنيد الاجباري بقطع النظر عن المعارضة الجزائرية وصرخات الوطنيين للمطالبة بالحقوق السياسية . وبعد أن أصبح التجنيد قانوناً ، في فيفري 1912 ، أصدرت فرنسا قراراً في 19 سبتمبر من نفس العام يحتوي على بعض الاجراءات التي تستهدف تهدئة الجزائريين المتأثرين بقانون التجنيد، والذين كانوا إمّا محتجين أو مهاجرين ، أو « مختفين » .

وقد « وعدت » الاجراءات الجديدة الجزائريين المجندين معاملة أفضل في المستقبل . وهكذا نص قرار 19 سبتمبر على أن أولئك المجندين :

أولاً : لن يخضعوا لقانون الأهالي وغيره من القوانين الاستثنائية ، بعد تسريحهم من الخدمة العسكرية.

ثانياً : فإذا ارتكبوا جرائم ، فسوف يحاكمون أمام محاكم القانون العام (بدلاً من المحاكم الرادعة).

ثالثاً : بناء على طلبهم ، قد يؤذن لهم ، بعد التسريح من الخدمة العسكرية ، أن يشاركوا في انتخابات المجالس البلدية.

رابعاً : بعد أن ينهوا ثلاث سنوات في الخدمة العسكرية ستكون لهم فرصة الوظيفة ، ولكن لن يكون ذلك إلاّ بعد أن يبرهنوا على استعداد جيد للعمل[125].

(125) أنظر نص هذا القرار في ف. ديمونتي ، « الجزائر » في « ا. ف. » ، (أكتوبر ، 1912) ، ص 410 . ورغم تواضع هذه الوعود ، فإنها محددة بقيود جعلتها تكاد تكون مستحيلة التطبيق .

خلاصة

ولدت النهضة الجزائرية نتيجة لثلاثة عوامل :

أولاً : الاتصال المباشر مع الثقافة الأوروبية .

ثانياً : تأثير الشرق الأدنى خلال نداء حركة الجامعة الإسلامية .

ثالثاً : التطورات العالمية كنتيجة للصراع بين القومية والامبريالية .

وهكذا دخلت الجزائر خلال العقد الأول من هذا القرن ، معتمدة على تراث عظيم من المقاومة ، التي شاركت فيها جميع الطبقات الاجتماعية ، في نهضة أثرت على كل حياتها .

أما اتصال الجزائر الثقافي المباشر بالثقافة الأوروبية فإن فرنسا قد منعته بتعمد ، بدعوى أنه قد يؤدي إلى اليقظة وبالتالي إلى الوطنية . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن المقاومة المستمرة التي قام بها الجزائريون أثناء القرن التاسع عشر ، والتي كانت عادة مصحوبة بعمليات عسكرية باهظة ، قد وقفت بين الجزائر والاتصال المباشرة ، لا بالنسبة إلى الثقافة الأوروبية ، بل وأيضاً بالنسبة إلى بقية العالم . وعندما بدأ هذا الاتصال ، كان بطيئاً ومؤلماً ، ومشكوكاً فيه . والتعليم الذي كان العامل الرئيسي في هذا الاتصال ، كان فقيراً وبدون تنظيم ، ومحدوداً لخدمة أهداف إدارية فقط .

ورغم أن فرنسا لم تنو خلق جماعة نخبة وطنية عندما سمحت ببعض التعليم ، فإن النتيجة كانت عكس ما أرادت . فالأفكار الأوروبية ، بما في ذلك فكرة القومية قد دخلت عقول أولئك الجزائريين القلة الذين أصبحوا المتكلمين ، بعد فشلهم في الحصول على المساواة في الحقوق ، باسم « الجزائر الفتاة » ، والتي وان لم تناد بالاستقلال ، فانها أعدت الشروط اللازمة له .

وهناك نتيجة أخرى لم تتوقعها فرنسا ، وهي موقف المحافظين الجزائريين . فمنذ 1845 حاولت فرنسا أن تعقد معاهدات واتفاقات مع أهل هذه الطبقة لكي تؤمن تأييدهم أو على الأقل تضمن حيادهم . وقد نجحت في هذه السياسة ، إلى درجة كبيرة ، خلال القرن التاسع عشر ، عندما كانت الثورات والتمردات تقاد عادة بواسطة العناصر المحافظة في الجمعيات والعائلات الكبيرة .

ولكن بافتتاح القرن الحالي ، أصبح معظم أهل هذه الكتلة لا يثقون في

فرنسا ، وقبلوا حكمها مؤقتاً فقط ، امتثالاً للقوة ، غير أن المحافظين لم ينادوا بالثورة ضد فرنسا ، كما كانوا يفعلون في القرن الماضي . وكان معظمهم ، ولا سيما العلماء ، قد أعجبوا بحركة الجامعة الإسلامية . وقد استعملوا هذا المذهب الجديد لهدفين : اخفاء مشاعرهم الحقيقية ضد فرنسا ، ومعارضة أية تغييرات مشكوك في أنها قد تؤدي إلى دمج الجزائر في فرنسا . كما أن المحافظين قد استعملوا الجامعة الإسلامية للتبشير ببعض الاصلاحات وللدعوة إلى اليقظة ، وخصوصاً تحت قيادة ابن الموهوب ، والمجاوي ، وابن سماية .

وقد أدى التطور العالمي إلى يقظة الجزائريين على حقائق جديدة . فالمنافسة بين فرنسا وألمانيا ، التي بلغت أوجها خلال أزمتي المغرب الأقصى ، قد فتحت أعين الجزائريين على ضعف فرنسا، رغم أنها كانت المنتصرة في مؤتمر الجسيرة (1906) الذي حاول أن يضع حداً للتوتر . ونفس الفكرة يمكن أن تقال عن الخصومة التي نشبت بين « الأختين اللاتينيتين » ، ايطاليا وفرنسا ، بخصوص تونس . ولم تكن حرب ليبيا (أو الصراع بين الدولة العثمانية وإيطاليا) أقل أهمية بالنسبة للجزائريين . وقد وصلت أخبار (المسألة الشرقية) ، بما في ذلك الثورة التركية ، إلى الجزائريين عن طريق الحجاج ، ورسائل المهاجرين ، والصحافة الوطنية والفرنسية .

ظهرت النهضة الجزائرية في أشكال مختلفة . فالانتعاش الثقافي بعث الحياة في الشخصية الوطنية واستعاد الثقة . كما أن المطالب السياسية « للجنة الدفاع عن مصالح المسلمين » قد أدت إلى خلق تعابير جديدة في القاموس الشعبي مثل « الحقوق السياسية » ، « المساواة » ، « الوطن » ، « العدالة » ، « التقدم » . كما أدى إلى الهيجان الاجتماعي الذي حركته الاجراءات التعسفية وقانون التجنيد الاجباري إلى خلق ضمير مشترك جديد بين الجماهير ، وهي حالة عقلية وعاطفية لا بد من تهيئتها لانجاح أية حركة وطنية . فالنهضة ، إذن ، كانت فكرة جماعية للتعبير عن تطورات ثقافية ، وسياسية ، واجتماعية ، لم تكن معروفة من قبل في الجزائر .

وقد اعتمدت هذه النهضة في تعبيرها على الضغط السياسي والابداع الثقافي ، بدل الثورات العسكرية والمقاومة السلبية . فخلال هذه الفترة تيقن الجزائريون أن فرنسا كانت قوة لا يمكن أن تنهزم بالوسائل القديمة . ذلك أن الجزائر قد خضعت ، بعد تطبيق الحكم الذاتي المالي ، لاضطهادات جديدة خوفاً من ظهور الوطنية ، أو

خوفاً من التعصب ، كما كان الفرنسيون يعبرون عندئذ . وتحت هذه الظروف ، كان لا بد للجزائريين من تغيير طريقتهم في المقاومة : لقد كان غير ممكن عندئذ أن ينادوا بالاستقلال ، لأن الجماهير لم تكن محضرة له ، كما أن فرنسا لم تكن مستعدة أن تسمع به . والطريق الوحيد الذي بقي ، دون ثورة فاشلة ، هو المطالبة بالمساواة مع الفرنسيين.

ولكن المساواة التي نادى بها الجزائريون كانت وسيلة أكثر منها غاية . ان المؤرخين الذين تناولوا هذا الموضوع قد أساءوا غالباً فهم المعنى الحقيقي لهذا الطلب . فالجزائريون لم يطالبوا بالمساواة لكي يبقوا فرنسيين ، وانما فعلوا ذلك لكي يسلحوا أنفسهم ضد قانون الأهالي وغيره من القوانين الاستثنائية.

وتوضيحاً لذلك نذكر أن كلا من المحافظين والنخبة رفض قبول التجنس ، كطريق للجنسية الفرنسية ، إلا في حدود أحوالهم الشخصية كمسلمين ، وهو شرط كان ، في الحقيقة معادلاً للمطالبة « بالجنسية الجزائرية » . وقد فهم الفرنسيون هذا التناقض بين الجنسيتين ، ورفضوا أن يعترفوا للجزائريين بحق المساواة ، رغم أن الأخيرين كانوا قانونياً معتبرين فرنسيين.

وأهم مظهر للتحدي السياسي ضد السلطات الفرنسية وقع بسبب قضية التجنيد العسكري الاجباري تحت حماس النهضة الجزائرية وتأثير حركة القومية العالمية . فقد تحدى الجزائريون الفرنسيين بين سنة 1906 و1912 على عدة جبهات . وطالبوا خلال ذلك بالحقوق السياسية ، والتمثيل النيابي الجاد ، والمساواة في الضرائب وأرباح الميزانية ، وانهاء النظام الاستعماري والاقطاعي ، وبرنامج كاف للتعليم ، والغاء القوانين الاستثنائية ، والابقاء على الشخصية الجزائرية . وقد نظمت « لجنة الدفاع عن مصالح المسلمين » حملة من العرائض ، والوفود ، والمظاهرات ، رفع أثناءها العلم الوطني ، كوسيلة للضغط السياسي للحصول على مطالبها . وكل مؤرخ خبير بظهور الحركات القومية سيتفق على أن مطالب « لجنة الدفاع عن مصالح المسلمين » كانت تشكل برنامجاً وطنياً مدعماً يحتوي على كل الخطوات الضرورية للشخصية ، ما عدا الاستقلال.

ومع ذلك ، فإن الجزائر قد فشلت في تحقيق أهدافها عندما حلت سنة 1914 . ولم تكن أسباب هذا الفشل صعبة الفهم . ان أوضح ما نجده هو ضعف

التنظيم ، ونقص التجربة ، وسوء فهم السياسة الفرنسية ، والعزلة . كان السبب الأول مسؤولاً عن تقسيم الرأي العام الجزائري بخصوص قضية التجنيد الاجباري . وكان السببان الثاني والثالث مسؤولين عن الايمان بوعود فيري ، وكليمانصو ، وبوانكاري ، كما لو كانت قوانين في حد ذاتها . أما السبب الرابع ، وهو العزلة . فيحتاج إلى بعض البيان.

لم تكن في الجزائر أية « قوة ثالثة » يمكن أن تشجع أو تساعد الحركة الوطنية . فجيران الجزائر كانوا تحت نفس النظام ، ولا يتوقع المرء منهم أن يمنحوا لا ملجأ ولا سلاحاً . أما « خارج » هذه الحدود المحصنة ، فلم يكن سوى امكانيتين : ألمانيا والدولة العثمانية . فالأولى لم تكن مقتنعة ، كما سنرى ، بقوة الحركة الوطنية الجزائرية . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن ألمانيا كانت مهتمة بإثارة ثورة في الجزائر في حالة حرب أوروبية ، وليس خلال الفترة المدروسة . أما الدولة العثمانية ، فقد كانت مشغولة ، أثناء هذه الحقبة ، بمشاكلها الداخلية . وكل ما كان يمكنها عندئذ هو أن تدعو الجزائريين ، باسم حركة الجامعة الاسلامية ، إلى الهجرة الى الشرق الأدنى.

وقد أدت هذه السياسة ، إلى جانب سياسة فرنسا الاضطهادية ، إلى تشجيع الجزائريين على نشدان ملجأ في الشرق الأدنى ، بل في فرنسا نفسها . ورغم أن المهاجرين قد وجدوا في الخارج حرية وفرصاً أكثر ، فإنهم قد أبقوا على اتصالهم المستمر بوطنهم . فمن الخارج نظموا حملة دعاية ضد الحكم الفرنسي في الجزائر . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن زعماء المهاجرين الجزائريين كانوا هدفاً للدول الكبيرة ، ولا سيما فرنسا ، وألمانيا ، والدولة العثمانية.

ولكن الجزائر كانت ما تزال وراء الستار الفرنسي عندما انفجرت الحرب العالمية الأولى . فماذا كان رد الفعل الجزائري خلال هذه الحرب ؟



نهاية أسطورة
1914 - 1919

1. ولاء او ارهاب :

قبل الحرب العالمية الأولى، كان الفرنسيون يخشون ، أنه في حالة حرب أوروبية ، قد يغتنم الجزائريون فرصة مصاعب فرنسا ويعلنون استقلالهم . فتجربة 1871 ، حين ثار الجزائريون بعد الحرب الفرنسية ـ الألمانية ، لم ينسها لا الفرنسيون ولا الجزائريون .

توقعت بعض الصحف الفرنسية ، سنة 1913 ، ان على فرنسا ، في حالة حرب أوروبية ، أن ترسل الى الجزائر بين 200,000 و 300,000 رجل لكي تمنع ثورة وطنية[1] . وفي العشرينات من هذا القرن لاحظ الخبير الفرنسي في الشؤون الاستعمارية ، أوغسطين بيرنار ، بأن أول مشكل شغل بال الفرنسيين حين ابتدأت الحرب العالمية كان الخوف من ثورة عامة في كامل افريقية الشمالية يقوم بها « أعداء فرنسا[2] » .

وقد كانت علامات امكانية هذه الثورة في الجزائر كثيرة . فالعاصفة التي مرت بالبلاد من جراء التجنيد الاجباري كانت لم تهدأ بعد . والشباب الجزائري الذي كان مقصوداً بذلك القرار كان يهرب الى الجبال فراراً من التجنيد . وكان آباء وممثلو هذا الشباب ما يزالون يطالبون فرنسا بتغيير ذلك القانون وينذرون السلطات الفرنسية

---

(1) ا.ف. غوتيي ، « الجزائر وباريس » من (مراجعة باريسية) . أشار الى ذلك طيبال في « ا.ف.س» ، (سبتمبر ، 1921) ، ص 204 .

(2) « أفريقية الشمالية » ، م.ا. ليس لدينا احصاءات عن حجم الجيش الفرنسي في الجزائر خلال الحرب ، ولكن عدده قدر سنة 1910 بـ 75,000 رجل . أنظر « التايمز » ، (لندن) ، (19 فيفري ، 1910) ، ص 6 .

بالعواقب الخطيرة . كما أن الدعوة الى الاصلاح والى اليقظة التي نادى بها جماعة النخبة كانتا ما تزالان تتعمقان في المجتمع الجزائري يومياً .

ومن جهة أخرى ، استمرت فرنسا في موقفها المتقلب . فهي لم تقم ، الى سنة 1914 ، بأية اشارة لترضية مطالب الجزائريين . بالعكس ، لقد جددت قانون الأهالي البغيض لفترة سبع سنوات أخرى. كما أنها دعمت اجراءً بغيضاً آخر وهو المحاكم الرادعة . وعندما انفجرت الحرب ، صدرت قوانين اضطهادية أخرى ، بما في ذلك قانون الطوارىء والرقابة . كما تسربت الى الجزائر ، من وراء الستار الفرنسي ، رياح الثورة ، والشغب ، والدعاية المهيجة من كل الاتجاهات . ففي المغرب الأقصى كان الصراع قد بدأ بين القوات الوطنية والإستعمارية . وفي نفس الوقت كانت تونس تعيش في حالة شغب سياسي منظم ضد فرنسا . ورغم أن الحرب التي بدأت في ليبيا سنة 1911، كانت قد انتهت رسمياً ، فانها كانت ما تزال مستمرة بين الليبيين والايطاليين .

ومن جهة أخرى كانت حركة الجامعة الاسلامية ، كما دعا اليها الفتيان الأتراك والمبعوثون الألمان ، في أوجها . كانت ألمانيا تبث دعايتها على أن القيصر هو منقذ الأسلام . أما الدولة العثمانية فقد عينت الأمير الجزائري علي باشا (وهو أحد أبناء الأمير عبد القادر) نائباً لرئيس مجلسها الوطني ، وكانت تبسط أفضالها على المهاجرين الجزائريين في الشرق الأدنى . وقد ردت فرنسا ، من جهتها ، على هذه المحاولة بدعوة الأمير عمر باشا الى باريس وتعيين الأمير عبد المالك كرئيس للشرطة في طنجة ، وكلا الرجلين كان جزائرياً من أبناء الأمير عبد القادر . في نفس الوقت ، ضاعفت فرنسا ، كما سبقت الاشارة ، أموالها ودعايتها الى المهاجرين الجزائريين في الشرق الأوسط مزاحمة منها لتركيا . وهكذا فقد كانت الجزائر ، ساعة انفجار الحرب العالمية ، في حالة غليان من الداخل وضغط من الخارج .

استيقظ الفرنسيون ذات يوم من شهر أوث ، 1914 ، فوجدوا ملصوقات على جدران المساجد نصها « هذا زمان الصمت فاذا تكلمت الباطل فستعيش ، ولكنك اذا تكلمت الحق فستموت[3] » . ان هذا الاعلان كان قولاً جزائرياً شعبياً احتجاجاً على

---

(3) ج ديبارمي ، « أغنية الجزائر خلال الحرب الكبرى » ، في «ر.ا.» ، م 73 (1932) ص 55 .

قانون الطوارىء وعلى الرقابة . ولقد كان تعبيراً ساخراً يظهر كيف رد الأدب الشعبي الجزائري على الضغط الاستعماري . لم يذكر ديبارمي ، الذي نقل هذا الاعلان ، من وقع هذه الملصوقات ولكن من الواضح أن الذي فعل ذلك هي العناصر المحافظة التي كان الفرنسيون ، ولا سيما الكولون ، يتهمونها باستعمال التقية وبالاستسلام لفرنسا خوفاً من القوة فقط ، وليس ولاء لها .

وما دام الفرنسيون كانوا يعيشون في حالة رعب من ثورة جزائرية ، فانهم قد أوحوا الى رجالهم « المختارين بعناية فائقة » وهم المسمون « بني وي ـ وي » ، أن يعلنوا ولاءهم المطلق لفرنسا وأن يطلبوا من الأهالي أن يفعلوا مثلهم . وهكذا نشرت كل وسائل الاعلام الفرنسية عدداً ضخماً من البرقيات والرسائل والتصريحات والتقارير عن اجتماعات دارت مع الفرنسيين حضرتها الجمعيات الدينية ، والقياد ، والمرابطون ، والأعيان ، و« الممثلون » في المجالس المحلية . وكان هؤلاء جميعاً ، بناء على وسائل الاعلام الفرنسية ، قد دعوا الأهالي الجزائريين الى أن يؤكدوا ولاءهم لفرنسا ، وأن يأتوا للدفاع عنها . وبناء على التقارير الفرنسية فان الجزائريين لم يعبروا عن ولائهم فقط لفرنسا ، بل أعلنوا أيضاً استعدادهم للحرب ضد ألمانيا والدولة العثمانية . وفي سنة 1918 ، كتب مؤلف فرنسي قائلاً بأن ولاء الجزائريين لفرنسا ، كان « يفوق كل العواطف الأخرى ، حتى العاطفة الدينية[4] » .

وبعد عدة أيام من اعلان الحرب ، كتبت جريدة فرنسية تعطف على الجزائريين قائلة بأن هؤلاء قد وجدوا في الحرب فرصة « فذة » ليعبروا عن ولائهم لفرنسا . وأضافت الجريدة : « ان كل طبقات الأهالي ، سواء كانوا من جماعة النخبة أو من كتلة المحافظين ، قد فهموا بدقة أن الحرب كانت بالنسبة لهم فرصة فذة يبرهنون فيها على ولائهم لفرنسا[5] . وبعد أقل من أسبوعين نشرت نفس الجريدة

---

(4) أنظر غوستاف ميرسي ، «أهالي أفريقية الشمالية والحرب» في «ر.ب.» ، (جويليه ، 1918) ، ص 205 . لقد كان الكاتب يكتب من تجربة شخصية . أنظر أيضاً « الجزائر » في «أ.ف.» ، (جانفي ـ فيفري ، 1915) ، ص 21 ـ 23 .

(5) «لوطان» (17 أوت ، 1914) ، ص 2 . أشارت الصحيفة الى الجمعيات التالية : الرشيدية والاتحاد الفرنسي ـ الأهلي ، التوفيقية ، وقالت أن هذه الجمعيات قد دعت أعضاءها الى أن يحاربوا بجانب فرنسا . ولعل القارىء يذكر أن هذه الجمعيات كانت تدار من جماعة النخبة الجزائرية ، ولكن الصحيفة أشارت الى العناصر المحافظة أيضاً .

تقريراً عن كيف عبر الجزائريون عن ولائهم . لقد عبروا عن ذلك بناء على رأي الجريدة المذكورة ، بثلاث طرق :

أولاً : بتصريحات الجمعيات والشخصيات ذات النفوذ .

ثانياً : بالتطوع في الجيش الفرنسي

ثالثاً : بالاشتراكات لمساعدة هذا الجيش[6] .

ولم تتوقف حملة الولاء لفرنسا مع الأسابيع الأولى للحرب ، فعندما أصدر شيخ الاسلام في اسطنبول ، في أكتوبر من نفس العام (1914) فتوى الى كل المسلمين لكي يحاربوا مع الدولة العثمانية ، قالت الدعاية الفرنسية أن الجزائريين قد عبروا عن سخطهم من هذا العمل . وقالت أيضاً أنهم قد استنكروا موقف ألمانيا (مغتالة النساء والأطفال والشيوخ ، ومحطمة الآثار والمدن) . وقالت أن الجزائريين قد أكدوا أنهم يرون في انتصار الحلفاء انتصاراً للحضارة والعدالة[7] .

في طريق عودته من رحلة استطلاعية للمراكز التبشيرية الميثودية في افريقية الشمالية ، أخبر القسيس الأمريكي ، الدكتور و . ف . أندرسون في نوفمبر ، 1914 ، مراسل جريدة « الديلي كرونيكل » اللندنية بأنه كان قد « تأثر » كثيراً « بولاء » الجزائريين لفرنسا . وقال القسيس أندرسون انه كان قد زار قسنطينة ، وبسكرة ، وبلاد القبائل ، ووهران ، والجزائر العاصمة ، وأنه كان مهتماً بصفة خاصة بتقدير رأي الجزائريين نحو الحرب ونحو فرنسا . وقد ثبت له « من كل جانب » ، أنهم كانوا مخلصين لفرنسا . وقال أيضاً انه كان قد تأثر بفهم الجزائريين « للقضايا الحقيقية المتنازع عليها » في الحرب . وبالإضافة الى ذلك ، قال القسيس أندرسون انه وجد أنهم قد رفضوا فكرة الحرب المقدسة « الجهاد » التي نادى بها شيخ الاسلام في اسطنبول . غير أنهم بناء على رأيه ، كانوا متأسفين أن يجدوا أنفسهم على خلاف مع السلطان[8] .

وشهادة الدكتور أندرسون تستحق تقديراً جدياً كما تتطلب فحصاً دقيقاً :

---

(6) نفس المصدر (31 أوت ، 1914) ، ص 2 .

(7) نفس المصدر (7 نوفمبر ، 1914) ، ص 2 .

(8) أشارت الى ذلك « النيويورك تايمز » (26 نوفمبر ، 1914) ، ص 3 .

أولاً : يبدو أن فهمه للسياسة في أفريقية الشمالية في ذلك الوقت كان سطحياً. فهو يشير ، مثلاً ، الى أن المسلمين في الجزائر وطرابلس كانوا مخلصين لفرنسا[9] . ولا شك أن القارىء يعرف أن طرابلس ، في ذلك الوقت ، ليس لها علاقة بفرنسا ، فما بالك بولائها لها .

ثانياً: أن الدكتور أندرسون كان يجوب الجزائر خلال المرحلة الأولى من الحرب ، أي بمجرد اعلان فرنسا لقانون الطوارىء والرقابة .

ثالثاً : ان القسيس أندرسون لم يكن يعرف الشعار الجزائري : « إذا تكلمت الباطل فستعيش ، ولكن إذا تكلمت الحق فستموت » .

رابعاً : ان الحوادث التالية ستظهر ان حكم الدكتور أندرسون بخصوص ولاء الجزائريين كان سابقاً لأوانه .

وبناء على رأي الكتاب الفرنسيين ، فان جميع الطبقات الاجتماعية الجزائرية قد ساهمت في الحرب . وهذه الطبقات هي :

أولاً : جماعة النخبة الذين انضموا الى فرق المشاة . لقد كان عددهم صغيراً ، ولكن « حبهم لفرنسا كان مخلصاً » .

ثانياً : أهل الجاه وشباب الأسر الكبيرة، الذين انضموا إلى فرق « القومية »، الخيالة .

ثالثاً : الرماة الذين كانوا قد دربوا بعناية كجنود بالمهنة ، والذين كانوا يعملون في وقت السلم كخماسة أو عمال زراعيين .

رابعاً : أبناء الأسر البسيطة ، الذين أذن لهم آباؤهم أن يشاركوا في الحرب لأسباب اقتصادية .

خامساً : وأخيراً : أولئك الذين ليس لهم مأوى أو مهنة دائمة[10] .

ولا شك أن سجل مشاركة الجزائر في هذه الحرب يثير الاندهاش . ان معظم الكتاب الفرنسيين يتفقون على هذه الحقيقة . فالكاتب ميرسي ، الذي كان يحكي

---

(9) نفس المصدر .

(10) ميرسي ، (ر.ب.) (جويليه ، 1918) ، ص 209 وما يليها . أنظر أيضاً « لوطان » (17 أوت ، 1914) ، ص 2 .

تجربة شخصية ، يقول بأن الجزائريين قد لعبوا « دوراً عظيماً » في معارك شارلروا ، والمارن ، وشامبانيو ، وفيردان ، والصوم[11] . وهكذا ، فلم تحن سنة 1916 حتى كانت الجزائر قد ساهمت بأكثر من ثمانين ألف جندي وستين ألف عامل . ويعترف كاتب فرنسي آخر بأن العائلات الجزائرية الغنية قد ساهمت بمئات الآلاف من الفرنكات من أجل الحرب . ان بعض هؤلاء الجزائريين قد دفع 38 ألف فرنك من الذهب لفرنسا ، بالإضافة الى دفع ضرائب ثقيلة وفرت الذهب للميزانية الفرنسية[12] .

ليس هناك رأي متفق عليه بين الكتاب حول مقدار معرفة الجزائريين بمشاكل الحرب . فقد رأينا أن القسيس أندرسون كان قد اندهش من فهمهم « للمشاكل الحقيقية المتنازع عليها » في الحرب . غير أن بعض الكتاب الفرنسيين لا يتفقون مع هذا الرأي فالكاتب ميرسي ، مثلاً ، يقول بأنه لم يكن للجزائريين فكرة واضحة من الحرب . ويستدل على ذلك بأنهم لم يكونوا قد دربوا التدريب الكافي عسكرياً ، وأنهم كانوا يجهلون « تماماً » اللغة الفرنسية . وكل ما كانوا يعلمونه عن الفرنسيين ، بناء على رأيه هو أنهم كانوا « روميين[13] » .

وسواء فهم الجزائريون القضايا الحقيقية للحرب أو لم تكن لهم فكرة واضحة عنها ، فان عدد الجنود والعمال الذين ساهمت بهم الجزائر في الحرب كان عظيماً حقاً . ففي سنة 1919 نشرت المجلة الفرنسية المحافظة ، ولكنها عادة مجلة معتمدة ، « لافريك فرانسيز » احصاءات عن الجزائريين الذين شاركوا في الحرب[14] فكانوا كالآتي :

---

(11) «ر.ب.» (جويليه ، 1918) ، ص 203 .

(12) أنظر ا. سينيوري ، « الجزائر والأهالي خلال الحرب » في «ر.ب. . .» ، م 98 (1919) ، ص 290 . كان المؤلف عامل عمالة شرفياً في الجزائر . وقد عاش ورأى الأحداث التي كان يصفها . لذلك فإن شهادته بخصوص ثورة 1916 تعتبر مهمة . ولكن سينيوري لم يقل ما اذا كان الجزائريون يدفعون الذهب الى فرنسا كتعويض عن الخدمة العسكرية ، وهي حالة كانت شائعة في كلتا الحربين العالميتين . أنظر أيضاً بيرنار ، « أفريقيا الشمالية » ، ص 6 .

(13) ميرسي ، «ر.ب» (جويليه ، 1918) ، ص 207 ـ 208 .

(14) «الأفريقيون في ميدان الشرف» في «ا ف.» ، (جويليه ـ أوت ، 1919) ، ص 221 .

عدد الجزائريين في الحرب العالمية الأولى :

الجند	177,000
العمال	75,000
القتلى	56,000
الجرحى	82,000

هناك كاتب فرنسي آخر كان يكتب في وسط العشرينات من هذا القرن ، قال بأن عدد العمال الجزائريين الذين عملوا في الحرب قد بلغ 119,000 شخص ، من بينهم 89,000 كانوا قد جندوا تجنيداً ، أما الباقون فقد كانوا أحراراً جاءوا الى فرنسا في السنوات السابقة للحرب[15] . وقد قال أحد الكتاب الجزائريين بأن عدد مواطنيه الذين ساهموا في الحرب ، سواء كانوا جنوداً أو عمالاً ، كان أكثر من نصف مليون شخص[16] . أما سينيوري ، وهو كاتب فرنسي أيضاً ، فقد قال بأن مجموع عدد الجزائريين الذين شاركوا في الحرب قد بلغ 250,000 ألف شخص[17] .

ولا شك أن بعض الجزائريين قد شاركوا في الحرب ولعبوا فيها دوراً هاماً كجنود شجعان وعمال صبورين الى جانب الحلفاء ، ولكن الذي يبدو محلاً للشك القوي هو طريقة تجنيد أولئك الجزائريين والأهداف التي كانت تحدوهم من المشاركة في الحرب . والحقيقة التي يجب أن لا تغيب عن الذهن هي أن الجزائريين ، الى جانب أنهم كانوا خاضعين الى القوانين الاستثنائية المعتادة ، كانوا تحت قانون الطوارىء والرقابة اللتين فرضتهما ظروف الحرب ، ولا يمكن ، في تلك الظروف ، أن يعبر الجزائريون عن ارادتهم ببرقية بعثها مرابط خرافي من زاويته

(15) بيرنار « أفريقية الشمالية » ، ص 11 . يقول المؤلف بأن الجزائر قد قدمت 155,000 جندي ، من بينهم 115,000 جندي غادروا البلاد الى أوروبا . وقد قدر بأن الخسائر في الأرواح منهم قد بلغت 22,000 رجل . أنظر ص 1 . وهناك مصدر فرنسي آخر ينص على أن عدد العمال الجزائريين المجندين خلال الحرب قد تجاوز 78,000 رجل . ومن الواضح أن هذا العدد لا يتضمن الجنود والعمال غير المجندين . أنظر راجر جون ـ جاك ، « المسلمون الجزائريون في فرنسا وفي البلاد الاسلامية » في «ر.م.» ، م 8 ، رقم 2 (مارس ـ ابريل ، 1950) ، ص 171 .

(16) عباس ، ص 113 .

(17) أنظر «ر.ب.ب.» ، م 98 (1919) ، ص 287 .

المعزولة ولا برسالة وجهها جزائريون « مخلصون » مختارون بعناية من فرنسا ، وهم المعروفون « ببني وي ـ وي » .

وهناك مسألتان جديرتان بالنظر هنا : أهداف الجزائريين من المشاركة في الحرب ، والطريقة الفرنسية التي استعملت لتجنيدهم ، أو بتعبير آخر ، دراسة الكيفية التي حصلت بها فرنسا على ولاء الجزائريين . أما بخصوص المسألة الأولى ، فان الجزائريين قد عبروا عن أنفسهم بطرق مختلفة ، كانت كلها بعيدة عن الولاء لفرنسا . فمنذ سنة 1892 أوضحوا للفرنسيين ، بالثورات والمظاهرات ، والعرائض والوفود ، « والاختفاء » ، والهجرة ، بأنهم يرفضون أن يعملوا في الجيش الفرنسي لأسباب أشير اليها سابقاً .

وعندما انفجرت الحرب ، علق الجزائريون شعارهم : « هذا زمن الصمت ، الخ . » معبرين ، بطريقة غير مباشرة ، عن اعتقادهم بأنهم كانوا محرومين من قول الحقيقة . وسوف نرى أنهم لجأوا الى الأدب الشعبي للتعبير عن أنفسهم ، كوسيلة غير عسكرية ، لأنهم كانوا يستطيعون أن يخفوا في هذا الشعر مشاعرهم الحقيقية وراء تعابير ساخرة[18] . وقد عبروا عن مشاعرهم أيضاً بثورات محلية ، وصفها لوتو ، الحاكم العام عندئذ ، بأنها قد أعادت الى الجزائر « البربرية القديمة[19] » ولكن طريقة الفرنسيين نفسها تبرهن بوضوح على أن الجزائريين كانوا بعيدين عن الولاء .

ذلك أن الفرنسيين قد استعملوا طريقة العصا والشعير أو الترغيب والترهيب في تجنيد الجزائريين[20] . فلكي تحصل فرنسا على ولاء الجزائريين الذي سخرت له دعاية عريضة ، استعملت بالإضافة إلى الموسيقى ، والولائم ، وغير ذلك من الإجراءات المغرية ، ثلاث طرق :

---

(18) أنظر ديبارمي ، «ر.ا.» ، م 73 (1932) ، 61 . أنظر أيضاً لاحقاً .

(19) « الجزائر » في «ا.ف.» (أفريل ، 1917) ، ص 147 ، من تقرير الحاكم العام الى النواب الماليين . ونص تقريره في نفس المصدر ، ص 146 ـ 147 . أنظر بخصوص التفاصيل عن هذه الثورات لاحقاً .

(20) أنظر سينيوري ، «ر.ب.» ، م 98 (1919)، ص 289 . سنناقش هذا الموضوع بتفصيل أكثر في الفصل التالي .

أولاً : « **إرهاب فعال إلى أقصى حد** » ، (تسطيري الخاص) .

ثانياً : تدعيم فكرة القدرية بين الجزائريين لكي تظهر لهم أن ما حدث كان بإرادة الله وأنهم لا يستطيعون أن يغيروا أي شيء .

ثالثاً : دعاية نشيطة بين الجنود الجزائريين في ميدان المعارك[21] .

* * *

وهناك نقطة هامة في هذا المجال وهي أن الكتاب ورجال الدولة الفرنسيين كانوا يتحدثون عن الولاء الجزائري لا عن الهدوء الجزائري ، خلال فترة الحرب ، فكلهم كانوا متفقين على أن هذه البلاد كانت في حالة غليان كما كانت في السابق . ذلك أن « عدم الإستقرار الدائم » الذي امتاز به التاريخ الجزائري تحت حكم فرنسا كان في قمته زمن الحرب . فإذا كان هذا صحيحاً ، كيف يمكن للجزائر أن تكون مخلصة وغير مستقرة في نفس الوقت .

ونتيجة لعدم الإستقرار المستمر ، أصدرت فرنسا قراراً في 23 أكتوبر ، 1915 ، إسترجعت به قانون 19 مـاي ، 1897 ، الذي كـان قد منح للإداريين الفرنسيين في البلديات المختلطة سلطات إستبدادية أخرى لكي يعالجوا بفعالية وسرعة أي وضع قد ينجم . أما بخصوص الجزائريين في البلديات ذات الصلاحيات الكاملة ، فإن قرار 1915 قد قوى سلطة الشرطة في الإشراف المباشر عليهم[22] .

جاء في تقرير الحاكم العام عندئذ إلى المجلس المالي أن «الجرائم الجماعية» التي أثارت الرأي العام ، قد حتمت استعمـال « القمع » . وقـد اعترف لـوتو أنـه استعمل « وحدات . . شرطة الزواف ، والرماة ، والخيالة (الصبائحية) ، لكي يضع حداً « لجماعات قطاع الطرق » . ثم أضاف بأن « سم (ثورة) 1871 قد أيقظ بعض

---

(21) ميرسي ، «ر.ب.» (جويليه ، 1918) ، ص 221 ـ 212 . اعترف المؤلف أيضاً بأن فرنسا كانت تظهر ألمانيا للجزائريين بمظهر الغليظ البربري ، وقد كان مذهب القدرية شائعاً من قبل في الجزائر ، ولكن فرنسا شجعته منذ الاحتلال كما رأينا لأنه يساعد على بقاء الأهالي في هدوء واستسلام .

(22) أنظر «الجزائر» في «ا.ف.» (جانفي ـ فيفري ، 1916) ، ص 44 . .وقد أعطي قانون الأهالي للاداريين الفرنسيين سلطات خاصة ليعالجوا أي مشكل ، بما في ذلك سلطة الشرطة العدلية .

الأحفاد الثوريين »[23] . ولكن « القمع » الحقيقي الذي كان الحاكم العام يشير إليه ما زال لم يقع بعد .

وهكذا نجحت فرنسا في تجنيد آلاف الجزائريين ، معظمهم كانوا إما من الفلاحين ، وإما من العمال الزراعيين ، وإما من العاطلين عن العمل ، وذلك باستعمال « إرهاب متطرف » ، وقمع شديد ، ودعاية سوداء ، وإغراء مشبوه . وقد دفع بعض الجزائريين ، باعتراف الفرنسيين ، ضرائب ثقيلة ، بما في ذلك الذهب ، لكي يقوا أبناءهم شر التجنيد . وقد وجد بعضهم في الحرب خلاصاً من حالتهم الإقتصادية التعسة . وكان بعض جماعة النخبة يؤمنون بأنهم يدافعون ، بمشاركتهم في الحرب ، عن الحرية والديمقراطية ضد طغيان وبربرية ألمانيا ، كما كانت الدعاية الفرنسية تصفها بمهارة . وهناك آخرون رفضوا أن يخدموا مهما كان الأمر ، قضية فرنسا . وهؤلاء هم الذين « اختفوا » في الجبال وأصبحوا نواة الثورات التي سنتحدث عنها .

أما أولئك الجزائريون الذين كانوا قد جندوا فقد بدأوا يفرون من الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي حالما سنحت لهم الفرصة . فقد فروا في الجزائر ، وفي الشرق الأدنى ، وفي الجبهة الأوروبية زرافات ووحداناً ، والتحقوا بمواطنيهم الثائرين في الجزائر . ومن هناك واصلوا نشاطهم في شكل حرب عصابات وأعلنوا الثورة ضد فرنسا . وقد بقي بعض هؤلاء الفارين خارج الجزائر وخلقوا ، بالتعاون مع بعض التونسيين والمغاربة ، لجاناً وطنية في جنيف ، وبرلين ، واسطنبول لاستقلال أفريقية الشمالية . كما نشروا دعاية واسعة ضد فرنسا ونادوا بالحرية لبلادهم في المجال العالمي .

ورغم ظروف الحرب ، واصل الجزائريون مقاومتهم لفرنسا . ولكن الجماهير بقيت بلا قيادة . فإذا كان تحدي الفرنسيين ممكناً عندئذ من الناحية العسكرية ، فانه من الناحية السياسية كان غير ممكن تقريباً . لقد اختفى خلال الحرب أولئك الزعماء

(23) « الجزائر » في «أ.ف.» (أبريل ، 1917) ، ص 146 ـ 147 . ان كلمة «جريمة» هي الكلمة الفرنسية التي تستعمل لوصف أي نشاط وطني ، وأن عبارات «جماعية» و«جماعات قطاع الطرق» ذات أهمية خاصة في هذا النص .

القلائل ، والأفكار ، والجمعيات ، والصحف التي ظهرت بين سنة 1900 ـ 1914 . وتحت هذه الظروف لا يتوقع المرء من المعارضة السياسية الجزائرية أن تحقق كثيراً . فدعنا الآن نبحث هذا الموضوع .

2. سقوط الستار الفرنسي :

رغم أن الجزائريين كانوا مجردين من القيادة ومن الحريات المدنية ، فإنهم قد قاموا بحملة سياسية عاطفية ضد الفرنسيين في الجزائر وفي الخارج . وقبل أن يلجأوا إلى الثورة حاولوا أولاً المظاهرات ، والإحتجاجات ، والمنشورات ، والأدب الشعبي . لقد قاموا بذلك رغم ادعاء الفرنسيين بأنهم كانوا مخلصين لهم . ونظراً لعدم إخلاصهم ، وصفهم الحاكم العام الفرنسي في الجزائر بالبرابرة والمجرمين .

فحينما أعلنت فرنسا تجنيد الجزائريين ، تظاهر هؤلاء ورفضوا قبول الخدمة العسكرية ، ونادوا بنهاية الحكم الفرنسي . وهكذا انتشرت في أنحاء الجزائر دعاية سرية مفادها أن ألمانيا (عدوة فرنسا) قد خفضت الضرائب ، وأن الأتراك (حلفاء الألمان) قد هاجموا الجزائر من جنوب تونس ، وأن الليبيين قد دخلوا في الجزائر من الجنوب ، وأن فرنسا قد اختفت من الجزائر[24] .

ولا شك أن الاعلان عن نهاية الحكم الفرنسي كان يعني ، قبل كل شيء ، الدعوة إلى استقلال الجزائر . غير أننا لا نملك في هذه اللحظة الوثائق التي تبرهن أن الجزائريين قد أعلنوا الإستقلال عندئذ فعلاً . ولكن الذي لا شك فيه هو أن الجماهير قد فهمت أن دخول فرنسا في حرب ضد ألمانيا كان يعني تحطيم أو اختفاء الأولى ، لأن كثيراً منهم كانوا ما يزالون يذكرون حرب 1870 . فالجماهير الجزائرية المعزولة المضطهدة ، ظنت ، الآن ، أن حكم فرنسا قد انتهى وأن الجزائر كانت في الطريق إلى الحرية .

أثناء الحرب اكتشف الفرنسيون رسالة تاريخها 25 سبتمبر 1914 ، كتبها أحد

---

(24) أنظر «التايمز» ، (لندن) ، (3 نوفمبر ، 1914) ، ص 4 ، بناء على ما نقلته صحيفة « امبريال » التي كانت تصدر في مدريد . أنظر أيضاً ميرسيي ، «ر.ب.» ، (جويليه ، 1918) ، ص 211 .

الجزائريين إلى شخصية إيطالية . وفي هذه الرسالة أكد الكاتب أنه لا يمكنه أن يصف الحالة التعسفية وغير العادلة التي كان الجزائريون يعيشون فيها . وأضافت الرسالة بأن التجنيد العسكري الاجباري فد أدمج الشبان الجزائريين في الجيش الفرنسي ثم بعث بهم إلى الموت في الخطوط الأمامية للمعركة . ثم واصلت الرسالة : « لماذا نحارب ضد الألمان ؟ لأن فرنسا قد جعلت منا حيوانات مفترسة ، وهي تريد الآن أن تدفعنا أفراداً وجماعات لنحارب ضد شعب ليس لنا معه لا علاقة ولا سبب للعداوة . إن هذه هي الوحشية ! ليحيى السلام ! لتحيى أفريقيا الشمالية حرة مستقلة ! »[25] .

ومن السهل أن نعتقد أن هذا الجزائري لم يكن وحده في رأيه . كما أنه من السهل أن نلاحظ أنه كان من جماعة النخبة . ولم يكن في استطاعته ، مثل الجزائريين الآخرين ، أن يعبر عن آرائه بحرية ، لأن سيف قانون الطوارىء والرقابة كان مصلتاً على رقبته . ولكن آراءه قد اكتشفت من الشرطة الفرنسية ، حتى حين عبر عنها في رسالة شخصية . فإذا كانت الجماهير الجزائرية تنادي بنهاية الحكم الفرنسي، فإن الطبقة المثقفة منها قد فهمت بعقلانية واضحة أن انتصار فرنسا لم يكن انتصاراً للجزائر . بالعكس ، ان هذه الطبقة قد رأت أن ذلك سيكون انتصاراً « للوحشية » ، وقمع أفريقية الشمالية كلها .

وفي رسالة أخرى مكتشفة ، وجد الفرنسيون أن جزائرياً قد عبر عن رأيه قائلاً بأن بلاده كانت تعيش في حالة تعسة تماماً . وقد جاء في هذه الرسالة ، المؤرخة في أول ديسمبر 1914 : « انني قد قررت كتابة رواية إجتماعية وتاريخية عن الشعب الجزائري ، وعن الدراما والعذاب اللذين يعانيهما ، هذا الشعب الذي حكم عليه الله أن يبقى تحت نير المجوس »[26] .

وقد كان هذا الهجوم المرير وغير المباشر على الحكم الفرنسي في الجزائر نموذجاً فقط . فالجزائريون كانوا واعين لوضعهم وطموحين للوصول إلى وضع

(25) نص على ذلك نوشي ، ص 26 ، من تقرير عن ثورة 1916 كتبه أوكتاف ديبون . وديبون ، الذي كان موالياً للاستعمار في آرائه وكان من الفرنسيين المعروفين بخبرتهم بالشؤون الجزائرية ، قد درس بتعمق ثورة 1916 .

(26) نفس المصدر ، ص 25 ـ 26 .

أفضل ، ولكن إمكانية تحقيق ذلك ضعيفة . وهناك جزائري آخر قد أخبر فرنسياً رسمياً ، سنة 1914 : « انكم تستطيعون أن تزيدوا في الضرائب منا ، فندفع أملاكنا ، ولكننا لن ندفع لكم أبناءنا »[27] . ولكن فرنسا واصلت تطبيق خطتها في تجنيد آلاف الجزائريين ، بينما كانت تدعى بالخطوط العريضة أنهم كانوا مخلصين لها .

وإعلان الجهاد ضد فرنسا ، الذي أعلنه مفتي اسطنبول ، كان له وقع محدود على الجزائريين . على أن الدعاية الفرنسية حاولت أن تقلل من شأن ذلك الاعلان وأن تمنع انتشاره بينهم . يقول الكاتب الفرنسي ديبون بأن بعض المناطق الجزائرية ، مثل ميزاب ، قد استقبلت اعلان الجهاد بالترحيب . وعندما انفجرت ثورة الهقار ، سنة 1916 أيدها الجزائريون في ميزاب من كل قلوبهم . وبناء على رأي ديبون ، فإن المناطق الأخرى في الجزائر لم تبال بإعلان الجهاد[28] .

ولكن ديبون لم يقل شيئاً عن الوسائل التي استعملتها بلاده لكي تمنع الجزائريين من معرفة إعلان الجهاد واستقباله بترحيب أو بلا ترحيب. ومن بين هذه الوسائل منع الجزائريين من أداء حجتهم السنوية إلى البقاع المقدسة . ذلك أن فرنسا لم ترفع حظرها على الحج إلا بعد ثورة الشريف حسين ، حاكم الحجاز سنة 1916 . وحتى عندئذ لم يكن في استطاعة الجزائريين أن يؤدوا فريضة الحج إلا في نطاق محدود، فقد كانت فرنسا تخشى أن الجزائريين سيقعون تحت تأثير الدعاية العثمانية والألمانية إذا سمح لهم بأداء الحج . ولهذا السبب بعثت فرنسا الجنود الجزائريين إلى أوروبا وليس إلى الشرق الأدنى .

وبتقدم الحرب كان الجزائريون يزدادون غلياناً وعداوة ضد فرنسا . ففي ديسمبر 1914 طالب سكان إقليم قسنطينة بعودة أراضيهم التي كانت قد صودرت بعد ثورة 1871 . فقد تحدوا الكولون بأنهم سيسترجعون أراضيهم بمساعدة ألمانيا[29] ويقال إن الجزائريين قد عبروا عن فرحهم بانتصار القوات المركزية في معركة

---

(27) نفس المصدر .

(28) أوكتاف ديبون ، « تمرد في الجزائر » في «ر.أ.ن.» 1 (1921) ، ص 9 .

(29) نوشي ، ص 25 .

« غاليبولي » وزادوا من عداوتهم ضد فرنسا . بل لقد أنشدوا أناشيد معادية لفرنسا وهللوا لانتصار الملك ويليم الثاني الألماني على الفرنسيين[30] .

وبناء على رأي ديبون ، فان جماعة النخبة الجزائريين قد استعملوا بمهارة القلم بدل السيف لاثارة الأهالي لكي يطالبوا بالتعويض السياسي على الخدمة العسكرية[31] . ولكن هذا يبدو محل شك ، لأن جماعة النخبة لم يبقوا في الجزائر خلال الحرب . وحتى لو بقي بعضهم فان أقلامهم قد تكسرت بعد 1914 . وبالإضافة الى ذلك فانه لم يكن للجزائر صحافة وطنية أثناء الحرب . فأين اذن استعمل جماعة النخبة أقلامهم ؟ فاذا كان ديبون يعني أنهم قد استعملوا هذه الأقلام سرياً في كتابة مناشير خفية ، فقد يكون على حق ، ولكن ذلك سيكون اعترافاً هاماً من فرنسي معروف بعداوته للحركة الوطنية الجزائرية .

وقد كانت سنة 1916 هامة في تاريخ الجزائر : فقد نوقش المشكل الجزائري علانية في جنيف . كما حدث في الجزائر نفسها تمرد يعتبر من أكثر التمردات عنفاً . وكلا القضيتين سيتناول بالتفصيل . ويقول شاهد عيان فرنسي ، كان يكتب خلال نفس السنة ، بأن سكان العاصمة قد وجدوا في صناديق البريد « بطاقات زيارة » بامضاء « رجل الساعة » . وهذه البطاقات ، بالإضافة الى المناشير ، كانت تدعو السكان الى الثورة ضد فرنسا[32] .

وفي 7 سبتمبر 1916 ، أمرت فرنسا بتجنيد الجزائريين اجبارياً بقطع النظر عن الشروط التي نص عليها قانون التجنيد . وفي الرابع عشر من نفس الشهر صدر قانون جديد يفرض التجنيد لا على الجنود فقط بل العمال أيضاً . وقد أثارت هذه الاجراءات غضباً شديداً في الجزائر . حتى أولئك الذين كانوا مخلصين لفرنسا أنذروها بالعواقب الوخيمة . وبعد الاحتجاج ، أعلن الجزائريون معارضتهم المفتوحة للخدمة العسكرية للعمل من أجل فرنسا[33] .

---

(30) سينيوري ، « ر.ب.ب. » م 98 (1919) ، ص 291..
(31) ديبون « ر.أ.ن. » م أ (1921) ، ص 11 .
(32) ديبارمي ، « العاطفة التركية في الجزائر » في « س.ج.أ.ب. » ، م 21 ، (1916) ، ص 3 .
(33) سينيوري ، «ر.ب.ب.» ، م 98 (1919) ، ص 293 ـ 294 .

لقد كان هذا الموقف تمرداً وعصياناً مدنياً في نفس الوقت . وكان ذلك مقدمة للثورة التي حدثت في نفس السنة . فقد انفجر العنف والاضطراب في أجزاء مختلفة من البلاد حيث استنكر الأهالي الحكم الفرنسي وأعلنوا مقاومتهم المفتوحة له . أعلن سكان بريكة رفضهم « المطلق » للاستسلام للسلطات الفرنسية . وفي بعض المناطق الأخرى رفض الأهالي تسليم أسلحتهم وطاعة قرارات سبتمبر 1916[34] . وهكذا أصبحت الجزائر على أبواب الثورة ، التي حدثت بعد عدة أسابيع فقط .

وكان الأدب الشعبي وسيلة أخرى عبر بها الجزائريون عن شعورهم المعادي لفرنسا ، لا سيما أثناء الأوقات التي تتميز باضطهاد استثنائي ، وذلك لأن الأدب الشعبي يعبر عن معنى غامض وغير مباشر، لا يفهمه عادة الا الجزائريون . فقد كانت هناك أغاني ، وأمثال، وغيرها من التعابير الشعبية التي كانت تستعمل « باجماعية وتلقائية » للشكوى الجماعية من الحالة[35] . وفي كثير من الأحيان ، وخوفاً من الانتقام كانت تلك التعابير الشعبية ساخرة وغامضة عن قصد . وقد أشرنا من قبل الى المثل الذي كان قد ألصق على جدران بعض المدن ، سنة 1914 احتجاجاً على قانون الطوراىء .

وفي أغنية سياسية طويلة عبر الجزائريون عن شعورهم الحقيقي نحو فرنسا خلال الحرب . فالكاتب ديبارمي ، الذي كان قد ترجم هذه الأغنية الى الفرنسية والذي قام بتحليلها ، قد اعتبرها « وثيقة هامة » و « أغنية العصر » . كانت هذه الأغنية تتبع أحداث الحرب خطوة خطوة ، بما في ذلك انتصار الأصدقاء وهزيمة الأعداء ، كما أعطت وصفاً حياً عن معاناة الجنود الجزائريين من الحرب ، وعن شعور نسائهم ، وأطفالهم ، وأهلهم في الجزائر ، وعن الأسعار في ذلك الوقت . وانتهت الأغنية بالصلاة الى الله أن يساعد ألمانيا وتركيا وأن يهين فرنسا[36] .

وفي أغنية أخرى أظهر الأدب الشعبي أيضاً كيف شعر الجزائريون نحو فرنسا وأعدائها : ألمانيا وتركيا . ولقد كانوا يأملون أن يسقط الستار الفرنسي عنهم قريباً

(34) نفس المصدر ، ص 295 ـ 296 .

(35) « أغنية الجزائر » في « ر. أ. » م 73 (1922) ، ص 61 .

(36) نفس المصدر ، ص 83 . النصان العربي والفرنسي في ص 62 ـ 83 .

بمساعدة القوات المركزية : « تحية لويليم (الثاني) ، الذي يحلق في طيارة ، ويتحارب مع النجوم . أين المفر ، أيها الرومي (الفرنسيون) ، أيها الانسان الكئيب ؟ ان ويليم لابس دروعاً برونزية ، محاطاً بكل الأمم ، مؤيداً من الأتراك . . انني أؤكد أن الجدران العالية التي تحيط بالجزائر ستسقط قريباً من أساسها[37] » .

ولكي تجيب أولئك الجزائريين الذين كانوا ينادون بنهاية حكمها في الجزائر ، ويدعون الى الثورة ، ويحطمون أساسها بالأدب الساخر « الاجماعي والتلقائي » ، لجأت فرنسا الى العمل القمعي . فقد اتخذ «مجلس النواب » الفرنسي بعض الاجراءات لكي يبرهن للجزائريين بأنهم كانوا مخطئين وأن فرنسا ما تزال هناك . لذلك وجه الفرنسيون حملة من الدعاية تستهدف الحط من قيمة ألمانيا وتركيا واصفين لهما بالبربرية ، واغتيال النساء والأطفال ، والقضاء على الحضارة . كما أن الارهاب قد طبق الى أقصى حد . أما الجماهير فقد كان يكفيها شرب سم القدرية لتنام . وأما الجنود والعمال الجزائريون فقد ضاعف الفرنسيون دعايتهم بينهم . قد رأينا من قبل أن فرنسا قد أصدرت ، في أكتوبر سنة 1915 ، قرارات تدعمُ مجال عمليات الشرطة وقوات الاداريين النظامية[38] . وهكذا حاولت فرنسا أن تكسب ولاء الجزائريين بتلك الطريقة الاستغلالية .

ولكن « الجدران العالية التي تحيط بالجزائر » منذ حوالي قرن كانت قد بدأت تنهار . ان الستار الفرنسي لم يعد في استطاعته أن يمنع الجزائريين من الاستفادة من الأوضاع الجديدة التي نشأت نتيجة للحرب ، فان مؤتمر لوزان عن القوميات ، وفكرة تقرير المصير ، ونداء مبدأ الديموقراطية الذي نادى به الرئيس ويلسون ، والثورة البولشيفية ، كان لها جميعاً تأثيرات على القضية الجزائرية . كما أن ثورة العرب سنة 1916 ضد الأتراك لم تكن أقل أهمية بالنسبة للجزائر .

ففي المؤتمر الثالث للقوميات ، الذي عقد في لوزان سنة 1916 ، مثل قضية الجزائر وتونس الوطنية السيد محمد باش حانبة التونسي . وقد أخبر باش حانبة

(37) نوشي ، ص 27 ـ 28 . لم يشر المؤلف إلى مصدر هذه الأغنية ولا إلى أصلها العربي .

(38) أنظر ميرسي ، « ر.ب. » (جويلين ، 1918) ص 211 ـ 212 ، وكذلك « أ.ف. » ، (جانفي ـ فيفري ، 1916) ، ص 44 .

المؤتمرين بأن الجزائريين الذين أصبحوا فرنسيين ، بعد ثمانين سنة من الاحتلال الفرنسي ، لا يعدون 500 أو 600 شخص . وقد طالب باش حانبة ، باسم القومية ، بالحكم الذاتي لكل افريقية الشمالية[39] .

وقد أنشئت في جنيف خلال هذه الأثناء « لجنة استقلال الجزائر وتونس » ، مكونة من الوطنيين المتمردين من كلا البلدين ، بدأت تصدر دورية بعنوان « مجلة المغرب » . وهكذا أصبحت هذه « المجلة » مركز نشاطات الوطنيين الجزائريين والتونسيين . وفي عددها الثاني كتب أحد الجزائريين قائلاً : « اننا جزائريون مسلمون ، وسنبقى جزائريين مسلمين » جواباً للفرنسيين الذين ادعوا بأن الجزائريين كانوا رعايا فرنسيين[40] .

وهناك « لجنة لاستقلال الجزائر وتونس » أخرى تأسست في برلين تحت قيادة الشيخ صالح الشريف التونسي وبعض الجزائريين الهاربين من الجيش الفرنسي والمهاجرين . وقد قامت هذه اللجنة ، التي كانت مؤيدة من ألمانيا وتركيا ، بحملة دعائية واسعة تثقيفية ووطنية ضد فرنسا[41] . وسوف نرى أن هذه اللجنة قد شجعت هروب جنود أفريقية الشمالية من الجيش الفرنسي ، وعملت على استقبالهم وتكوينهم الفكري ، ثم أرسلت بهم الى بلادهم للثورة أو الى الشرق الأدنى لكي يحاربوا مع تركيا .

وكان الكتاب الفرنسيون المعاصرون على علم بانتشار فكرة القومية بين

(39) من الذين شاركوا في النشاط المعادي لفرنسا الشيخ محمد الخضر حسين (وهو جزائري - تونسي) . فقد اشترك في تأسيس اللجان المضادة والكتابات وتوعية الجنود الهاربين من الخدمة ، وكتابة عريضة إلى مؤتمر الصلح . أنظر محمد مواعدة (محمد الخضر حسين) الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1974 ، ص 224 - 225 .

(40) أنظر أجرون ، « سياسة جزائرية » في « ر.هـ.م.ك. » ، (أبريل - جوان ، 1959) ، ص 139 . أنظر أيضاً بيرنار ، « أفريقية الشمالية » ، ص 90 . وعلي مراد ، « أ.ب.ل.أ. » 27 (1964) ، ص 16 . ديبارمي ، « العاطفة التركية » في « س.ج.أ. » ، م 22 (1917) ، ص 3 وقد صدرت (مجلة المغرب) في ماي 1916 واستمرت في الصدور إلى سنة 1918 . وكان مديرها هو محمد باش حانبة ، أخو علي باش حانبة الذي سبق ذكره . وقد توفي محمد باش حانبة في برلين سنة 1920 .

(41) ديبارمي ، « العاطفة التركية » في « س.ج.أ. » ، م 22 (1917) ، ص 3 .

الجزائريين وبين أهل افريقية الشمالية عموماً . ويقول ديارمي ، الذي كان يكتب سنة 1917 ، بأن مبدأ القومية قد دخل مرحلة جديدة في الجزائر[42] . أما الكاتب شارل جيد ، الذي كان يكتب سنة 1916 فيقول بأن قضية القومية ، كما عبر عنها الحلفاء ، لها بعض الأثر في افريقية الشمالية . ويضيف جيد بأن القضية هي هل فرنسا ستعترف بأن القومية في افريقية الشمالية لها نفس حق الوجود الذي لقومية بولندا وتشيكوسلوفاكيا ، أو هي لا تعترف بهذا الحق ، وفي هذه الحالة ، بناء على رأي جيد ، كيف يمكن رفض الجنسية الفرنسية لأهل أفريقية الشمالية[43] .

وكل من أفكار الرئيس ويلسون عن الديموقراطية وتقرير المصير ، والثورة الروسية كان له مفعول عميق في الجزائر ، وبناء على رأي بعض الكتاب الفرنسيين ، فان الوطنيين الجزائريين كانوا قد تأثروا بكلا الحادثتين . ان أفكار ويلسون ، وخصوصاً فكرة تقرير المصير ، كان لها وقع قوي على الرأي العام الجزائري . وفي سبتمبر 1918 ، نشرت « مجلة المغرب » مذكرة أرسلت الى « مؤتمر السلام » الذي كان منعقداً في باريس مطالبة بتقرير المصير لافريقية الشمالية[44] . أما الثورة البولشيفية فقد كان يراقبها الوطنيون الجزائريون عن كثب ، وكانوا يناقشون ، بناء على رأي أحد الفرنسيين ، تطبيق مبادئها في الجزائر[45] . وليس هناك من شك في أن الدعاية الفرنسية نفسها قد شجعت ونورت الجزائريين ، بلا قصد طبعاً ، على أن يصيغوا مطالبهم الوطنية بطريقة جديدة .

كما أن المهاجرين في الشرق الأدنى قد قاموا بدورهم في الحملة ضد الفرنسيين ، ولا سيما خلال النصف الأول من فترة الحرب . وبتشجيع من تركيا وألمانيا قام المهاجرون « بحملة مسمومة » حسب تعبير طيبال ، ناعتين فرنسا بأنها « أسوأ مضطهد » للجزائريين . وهذه الحملة قام بها الجزائريون المتمردون

---

(42) نفس المصدر .

(43) أشار إلى ذلك أجرون ، « سياسة جزائرية » في « ر.هـ.م.ك. » ، (أبريل - جوان ، 1959) ، ص 138 .

(44) نفس المصدر ، ص 139 وبيرنار ، « أفريقية الشمالية » ، ص 81 . أنظر أيضاً نوشي ، ص 24 . توجد المذكرة وأسماء الموقعين عليها في (مجلة المغرب) ، عدد سبتمبر - ديسمبر 1918 .

(45) أجرون ، « سياسة جزائرية » في « ر.هـ.م.ك. » (أبريل - جوان ، 1959) ص 139 .

و « المتعصبون » الذين هربوا من الجيش الفرنسي أو هاجروا من الجزائر في العقود السابقة . وهكذا فإن المهاجرين قد اتهموا فرنسا ، من اسطنبول ، والحجاز ، ومصر ، وسورية ، بمنع الحج ، واضطهاد التقاليد العربية والاسلامية ، وبمصادرة الأوقاف الجزائرية ، وإجبار الجزائريين على الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي[46].

ولما كان معظم المهاجرين الجزائريين قد أيدوا قضية القوات المركزية ، ولا سيما قضية تركيا ، فان الشريف حسين حاكم الحجاز ، قد طرد عدة آلاف من أهل أفريقيا الشمالية من المدينة ، بعد ثورته ضد السلطان . ولعل ذلك كان تحت ضغط الحلفاء[47] . ولكن سبب الثورة العربية كان قد ارتبط باضطهاد تركيا لبعض الزعماء الجزائريين . فاعلان الاستقلال الذي أصدره الشريف حسين قد اتهم تركيا بشنق الأمير عمر ، و « الاهانة والاعتداء على الشريف الورع الأمير عبد القادر الجزائري »[48] .

وهكذا فإن الحركة الوطنية الجزائرية قد نالت تدعيماً كبيراً خلال الحرب ، داخلياً وخارجياً . ورغم أن فرنسا أرادت أن تظهر للعالم بأن الجزائريين كانوا مخلصين لها ، فإنها كانت قد واجهت إضطرابات سياسية وعاطفية ووطنية مستمرة نجحت في النهاية في إيجاد ثغرة في الستار الفرنسي كما ازدادت قوة بالحرب . وقد فشلت فرنسا أيضاً في محاولتها عزل الحركة الوطنية الجزائرية داخل منطقة النفوذ الفرنسي . ذلك أن القومية سواء في أوروبا أو في الشرق الأدنى ، كانت في حالة هجوم . كما أن التطورات العالمية وظهور أيديولوجيات جديدة قد أعطت الحركة الوطنية الجزائرية دفعاً جديداً . وسوف نرى أنه بحلول سنة 1919 لم يعد في

---

(46) طيبال ، « أ.ف.س. » ، « سبتمبر ، 1921) ، ص 202 ، وقد أشرنا من قبل إلى أن جريدة « المهاجر » كانت من بين الجرائد الجزائرية الهامة التي قامت بحملة دعاية في الشرق الأدنى ضد الفرنسيين .

(47) نفس المصدر ، ص 201 .

(48) أنظر النص العربي الكامل في « عالم في تقدم » (تاريخ الإستعمار والقومية في آسيا وأفريقية الشمالية من فاتح القرن إلى مؤتمر باندونغ) ، أمستردام : 1956 ، ص 95 . كان الأمير عمر هو الذي دعته فرنسا سنة 1911 ، إلى باريس ، وهو كما سبق أحد أبناء الأمير عبد القادر .

استطاعة فرنسا أن تدعى ، حتى لأغراض دعائية ، بأن الجزائريين كانـوا مخلصين لها .

ولكن الحركة الوطنية الجزائرية ، خلال الحرب لم تستعمل النشاط السياسي والعاطفي فقط ، بل لجأت أيضاً إلى المقاومة المسلحة . والحقيقة أن فرنسا كانت ، طيلة الحرب ، تحارب على جبهتين : الجبهة الأوروبية ، التي هي معروفة للجميع ، والجبهة الجزائرية التي هي غير معروفة كثيراً . فدعنا الآن نبحث ما حدث على هذه « الجبهة الأخرى » .

3. الجبهة الأخرى : ثورات واضطهادات :

بدأ الشباب الجزائري يختفي في الجبال ، منذ سنة 1912 ، محاولاً الفرار من العمل في الجيش الفرنسي . وقد أصبح الفرنسيون عندئذ منذرين بالخطر ، كما أن بعض كتابهم قد توقعوا نتـائج وخيمـة . ولكن الفرنسيين استمـروا في خطتهم في التجنيد ، الذي كان قد أصبح أكثر ضرورة بقدوم الحرب . وعندما انفجرت الحرب كان المجندون الأولون لم يكادوا ينتهون من تدريبهم العسكري . ولما كان الجنود الجزائريون آتين من الأرياف فإن معظمهم كانوا أميين وجهلة بالوضع الدولي . لقد حملهم الفرنسيون إلى السواحل الأوروبية ، ثم إلى الجبهة مباشرة .

وخوفاً من ثورة وطنية ، ولمنع الفرار المستمر من الجيش ، قرر الفرنسيون أن يرسلوا بالجنود الجزائريين إلى أوروبا بينما أحلوا محلهم الجنود السود من مستعمرات فرنسا في أفريقيا . ولكن حركة الفرار من الجيش قد استمرت حتى في أوروبا . فمن هناك فر الجنود الجزائريون من وحداتهم الفرنسية تحت تشجيع لجان استقلال أفريقيا الشمالية التي كانت تعمل في جنيف ، وبرلين ، واسطنبول . وقد نجح الفارون في الإنضمام إلى الثوار الذين كانوا قد التحقوا بالجبال من قبل .[1] وقـام الجميع بخلق الخلايا السرية وتنسيق الحركة ضد فرنسا . وهكذا فمن وهران غرباً إلى عنابة شرقاً ، ومن بلاد القبائل شمالاً إلى الهقار جنوباً كانت الجزائر مغطاة بعمليات عسكرية نشيطة بلغت أوجها في ثورة 1916 .

بعد بدء الحرب مباشرة ، قنبلت ألمانيا ، كاشارة إلى إثارة الإضطرابات ضد

فرنسا ، مينائي مدينتي عنابة وسكيكدة الجزائريين . وقد قامت بهذه العملية السفينتان « بريسلو » و« غوين » ، اللتان انسحبتا بسرعة إلى المياه التركية بعد تحقيق هدفهما . ولما كانت ألمانيا ، كما سنرى ، قد قامت بحملة دعاية نشيطة في الجزائر منذ الأزمة المغربية الأولى (1905) وخبيرة بالحالة العامة في المنطقة ، فإنها كانت تتوقع ، كما يبدو ، انفجار ثورة وطنية في أية لحظة . وقد كانت اللحظة المواتية لهذه الثورة هي أوت 1914 ، حينما كانت فرنسا ما تزال في فوضى الأسابيع الأولى للحرب ، وحينما كان العقد المضطرب (1906 ـ 1914) ما يزال في عنفوانه . غير أن هذا التقدير لم يكن صحيحاً تماماً . لأن الثورة العامة لم تحدث ، كما كان متوقعاً ، وكل ما حدث هو نشاطات ثورية على طريقة حرب العصابات .

ورغم أن القوات المركزية لم تتوقع حرب العصابات في الجزائر فإنها كانت هي الطريقة الوحيدة الممكنة عندئذ . فقد كان الكولون يقظين ، وضاغطين دائماً على ضرورة الأمن واتخاذ الإجراءات العميقة ضد الوطنيين . كما أن فرنسا قد أبقت على جيش كبير في الجزائر ، مؤيدة من جنود المستعمرات السود ، الذين كانوا غرباء عن الأهالي . ورغم أن الجماهير قد استيقظت في العقد السابق على نداء جماعة النخبة ونشاطات المصلحين ، فإنها كانت ما تزال معزولة ولا تكاد تعرف عن مبادىء الوطن والقومية إلا القليل . فأكثر المثقفين الجزائريين الذين كان من الممكن أن يقودوا الجماهير في ذلك العهد الحرج إما غادروا الجزائر إلى تونس ، والشرق الأدنى ، وإما التقطهم الفرنسيون للخدمة العسكرية . أما المساعدات الأجنبية فلم تكن لا موجودة ولا موعودة بوضوح . وسوف نرى أن كلا من ألمانيا وتركيا ليس لها خطة واضحة لثورة وطنية في الجزائر أكثر من خلق المصاعب لفرنسا هناك . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الأوضاع الجديدة التي جاءت نتيجة لإعلان الحرب (مثلاً : إعلان حالة الطوارىء) قد جعلت من المستحيل على الوطنيين أن يفجروا ثورة عامة .

وعلى أية حال ، فإن حرب العصابات ، التي كانت تعد منذ 1912 ، قد بدأت بانفجار الحرب العالمية الأولى نفسها . وقد سبقت الإشارة إلى أن بعض الصحف الأوروبية نقلت ، أثناء الأسابيع الأولى للحرب ، أن بعض الإضطرابات قد حدثت في الجزائر وأن بعض الفرنسيين قد قتل .

أما فرنسا ، التي كانت تتوقع ثورة وطنية ، فإنها قد قامت بحملة واسعة النطاق لكي تمنع الجماهير الجزائرية من أن تسقط تحت تأثير الثوار . وقد لاحظنا من قبل أن هؤلاء كانوا ينادون بنهاية فرنسا في الجزائر ، ويعدون بمساعدة ألمانيا وتركيا ، ويطالبون برفض دفع الضرائب إلى الفرنسيين ، ويشجعون على الفرار من الجيش الفرنسي ، ويحثون على الإنضمام إلى المقاومة لتحرير البلاد من فرنسا . ورغم كل جهودها فإن فرنسا قد فشلت في منع التعاون بين الثوار والأهالي .

بدأت الثورة في أكتوبر 1914 . ففي بريقو (المحمدية حالياً) وبني شقران بعمالة وهران هاجم الثوار (14 أكتوبر ، 1914) وحدات الجيش الفرنسي وقتلوا عدداً من الجنود . وقد بعثت السلطات الفرنسية ، نظراً لعنف الثورة ، النجدة وألغت خطة التجنيد التي كانت معدة للجزائريين هناك ، ولكي يعطي الفرنسيون درساً نموذجياً للجزائريين ويمنعوا انتشار الثورة ، عمدوا إلى إستعمال قمع « قوي » و « مبالغ فيه »[49] . وبناء على قول كاتب فرنسي آخر ، فإن الثورة كانت « قد أخمدت بكل حزم »[50] ولكن هذه الإجراءات لم تستطع أن تضع حداً للتمرد . بالعكس ، لقد ضاعفت من قوته .

وقد شهدت سنة 1915 ، نشاطات واسعة من حرب العصابات ضد فرنسا . ذلك أن كثرة الفارين من الجيش الفرنسي قد أعطى معنى جديداً لهذه النشاطات . ففي العمالات الشمالية الثلاث ، اضطرت فرنسا إلى استعمال القوات المسلحة والعمليات البوليسية . وهكذا كان الثوار ، الذين كانوا مسلحين بعناية ، يعملون بفعالية ، على طول جبهة تمتد من تبسة إلى بجاية ، ضد المراكز العسكرية الفرنسية وخطوط المواصلات ، وينشرون الرعب في مدن عنابة ، وسوق أهراس ، والساقية ، وغيرها . وبناء على قول ديبون ، الذي كان قد درس هذه الفترة بتوسع ، فإن الثوار

---

(49) سينيوري ، « ر.ب.ب. » ، م 98 (1919) ، ص 291 . وينص المؤلف على أن الثورة قد دعا إليها مرابطون ومتعصبون . أنظر أيضاً مقالة المهدي البوعبدلي « علاقات الجامع الأزهر بالجزائر » (في الملتقى السابع للفكر الإسلامي - تيزي وزو ، 1973 ، ج ، ص 43 من كَوْنِ الشيخ عثمان الراشدي الأزهري هو بطل ثورة بني شقران » وأنه قد حكم عليه بالإعدام هو وتلاميذه وأقاربه .

(50) ديبون ، « ر.أ.ن » ، م ر أكتوبر ، 1921 ، ص 8 .

كانوا مؤيدين « بتآمر ورضى » القرويين ، بالإضافة إلى بعض الأعيان[51] .

وفي جويليه ، 1915 ، انتقمت فرنسا بلا رحمة ، مستعملة المشاة والخيالة ، إلى جانب الشرطة العسكرية . وقد دامت العملية إلى شهر نوفمبر من نفس العام ، ولكنها انتهت بالفشل ، لأن زعماء حرب العصابات قد فروا . وبناء على الروايات الفرنسية فإن سبعة عشر ثائراً فقط قد وقعوا في الأسر[52] . ولكن المدنيين ، على ما يبدو ، قد عانوا أكثر من هذه العمليات .

وخلال نفس السنة ثم بداية سنة 1916 ، فتح الثوار جبهة أخرى ، تمتد من القبائل شرقاً إلى وهران غرباً . ويصف ديبون نشاطات الثوار في هذه الجهة بأنها كانت « حركات هامة تسببت في اضطرابات خطيرة » في أمن منطقة القبائل[53] . ونفس « الحركات الهامة » قد وقعت في منطقتي وهران وقسنطينة . لقد كان هناك تعاون بين الجنود والعمال الجزائريين شبيها بتعاون جنود وعمال روسيا سنة 1917 . ففي أكتوبر ، 1916 ، هاجمت جماعة من الثوار ، بالتعاون مع عمال المصانع ، مدينة تنس ، وأوقفت ثماني سيارات عسكرية ، وقتلت بعض جنود الدرك الفرنسي ، وحجزت كمية كبيرة من السلاح والعتاد[54] .

وقد تضاعف عدد الثوار نتيجة استمرار الهروب من الجيش الفرنسي خلال سنتي 1915 ـ 1916 . ومعظم الفارين كانوا قد دربوا تدريباً عسكرياً جيداً ، وكثير منهم قد أتوا معهم بالسلاح . وكان أولئك الذين عادوا من أوروبا قد أصبحوا أكثر تفتحاً وأكثر تنويراً من الناحية السياسية ، مع عزيمة تحرير بلادهم من فرنسا . والحق أن تعاون الجنود والعمال ، وتأييد الأهالي وبعض الأعيان المحترمين لهم قد أعطيا نشاطات حرب العصابات مظهر العمل « الشعبي » ، الذي هو عنصر ضروري لأية حركة وطنية واعية .

أما فرنسا فإنها ، بإسم حالة الطوارىء التي خلقتها الحرب ، قد انتقمت بتطبيق

---

(51) نفس المصدر ، ص 10 .
(52) نفس المصدر .
(53) نفس المصدر .
(54) نفس المصدر ، ص 12 ـ 13 .

ما سماه لوتو، الحاكم العام عندئذ، « بالقمع العادل »[55] . وهكذا فإن الجيش والشرطة قد قاما « بعمليات تنظيف » في إقليم القبائل، واعتقل الفرنسيون 142 شخصاً على الأقل ثم أعلنوا أن المنطقة قد « طهرت » من « العناصر السيئة » . وفي منطقة تنس اعتقل الفرنسيون أكثر من 248 ثائراً ثم أتبعوا ذلك بعمليات بوليسية « فظة »[56] .

ولكن حرب العصابات الوطنية قد نجحت، سنة 1916، في فتح جبهتين أخريين، إحداهما في الأوراس في الشمال، وثانيهما في الهقار في الجنوب . والحق أن الحرب على هاتين الجبهتين لا يعرف عنها مؤرخو الحرب العالمية الأولى إلا قليلاً، كما لا يعرف عنها الوطنيون الجزائريون إلا القليل أيضاً . لذلك يبدو من المناسب أن نسلط بعض الضوء على هاته الحوادث .

فثورة الأوراس كان قد نادى بها زعماء، أمثال ابن علي بن نوى، والشيخ مقدم زغانة . فقد نادوا الجزائريين الذين تتراوح أعمارهم بين العشرين والخامسة والأربعين أن ينضموا إلى الثورة . وقد سمى الثوار أنفسهم « مجاهدين »، وأعلنوا الجهاد ضد فرنسا في اجتماعات شعبية عقدت لهذا الغرض . والثورة التي انفجرت أولاً في بريكة أثناء سبتمبر، 1916 سرعان ما انتشرت إلى جهات بللازمة، والحضنة، وعين التوتة، وإلى بقية الإقليم .

وقد انتشر التمرد بين سبتمبر ونوفمبر بطيئاً بفضل الوسائل الفرنسية التي كانت مستعدة وغير رحيمة إلى قمع مثل هذه الحركة . كان عمل الثوار عندئذ يتمثل في اغتيال الإداريين الفرنسيين، والهجوم على مراكز العدو، وتخريب المؤسسات العامة التي كان الفرنسيون سيستعملونها، مثل الطرق الحديدية . ولكن التمرد قد أخذ شكلاً جديداً في منتصف شهر نوفمبر . فقد أصبح عندئذ أكثر عنفاً وأكثر حمية . وكان الثوار مؤيدين من الأهالي، وزعماء الدين، والأعيان في المنطقة[57]. وهاجموا بلدية عين

(55) أشار إلى ذلك ديمونتي، « الجزائر » في « أ. ف. »، « جويليه ـ أوت، 1919)، ص 241 .
(56) أنظر ديبون، « ر. أ. ن. » م (أكتوبر، 1921)، ص 9 ـ 12 .
(57) نفس المصدر، ص 16 ـ 17، ويقول المؤلف، الذي كان المفتش العام للبلديات المختلطة في الحزائر، بأن هناك (تحالفاً) بين الثوار والمرابطين شبيهاً بذلك الذي حدث سنة 1871 . أنظر أيضاً =

التوتة المختلطة وتامارين ، تاركين وراءهم قتلى من الموظفين الفرنسيين وخسائر ضخمة في المراكز العسكرية والعامة الفرنسية . ومن بين الرسميين السامين الذين أغتيلوا ، نائب العامل في مدينة باتنة وحاكم مدينة عين التوتة(58) .

لو كان هناك مبررات ، في نظر الفرنسيين ، لقانون الأهالي البغيض ، وللمحاكم الرادعة ، ولقانون حالة الطوارىء ، لكان هذا هو أوانها . فالثورة قد أخمدت بشدة . وفي تقريره إلى النواب الماليين استنكر الحاكم العام عندئذ هذه الثورة واعتبرها عودة إلى « البربرية القديمة » ، ثم دافع عن الاجراءات التي اتخذها على أساس ، أنها « قمع ضروري » جدير برجال فرنسيين يستحقون هذا الاسم « ويعون دورهم كمعلمين ومانحين لمبدأ الكرم » . وأكد لوتو بأن دور فرنسا في الجزائر كان « تهذيب شعب متخلف » . وفي صوت مليء بالفخر أخبر الحاكم العام مستمعيه بأن « سم (ثورة) 1871 الذي أراد احياءه بعض العناصر المتمردة من الأحفاد » قد قضى عليه نهائياً(59) . فكيف « أنهى » الحاكم العام هذه « البربرية القديمة » تحت غطاء تهذيب شعب متخلف ؟

في الحقيقة لقد أنهاه باتباع بربرية « جديدة » .

ان براهين القمع ليست من مصادر جزائرية بل فرنسية ، وقد اعترف الحاكم العام نفسه ، ربما تحت تأثير هزة اللحظة ، بأنه كان قد أرسل « الشرطة . . . ووحدات من جنود الزواف ، والرماة ، والصبايحية » ضد الثورة . وسمى ذلك اجراءً « ضرورياً »(60) . ويقول مصدر فرنسي آخر بأن فرنسا قد أعطت العناصر السيئة (مثلاً : الوطنيين) « درساً » أكدت به قوتها في اللحظة المناسبة(61) وهناك رأي ثالث

سينيوري « ر.ب.ب. » ، م 98 (1919) ، ص 301 ـ 302 . ويقول سينيوري أن الثوار في عين التوتة وحدها كانوا يتراوحون بين 600 و 700 شخص .

(58) سينيوري ، « ر.ب.ب. » ، م 98 (1919) ، ص 296 .

(59) أنظر نص هذا التقرير في « الجزائر » في « أ.ف. » ، (أبريل ، 1917) ، ص 146 ـ 147 . وقد وصف لوتو الثورة بأنها « جرائم جماعية هزت الرأي العام » . « أما الثوار فقد وصفهم بجماعات من قطاع الطرق » .

(60) نفس المصدر .

(61) ديمونتي « الجزائر » في « أ.ف. » ، (جويلية ـ أوت ، 1919) ، ص 241 .

وهو للعقيد دينو ، الذي مدح بلاده لاستعمالها الطرق الفعالة لاخماد الثورة التي انفجرت بناء على رأيه ، في « فترة حرجة »[62] . ولا شك أن الشهادة التي كتبها السيد سينيوري عن طرق اخماد الثورة تعتبر ذات قيمة خاصة حيث كان الكاتب نفسه عامل عمالة شرفيا على الجزائر.

تحت ستار القيام بدور « المهذب » ، أرادت فرنسا أن تعطي الجزائريين درساً . فبعد انتشار أخبار الثورة مباشرة وضع الحاكم العام منطقة الأوراس تحت الحكم العسكري المباشر ، وألغى ادارتها المدنية ، التي كانت قد أنشئت سنة 1871 . كان هدف الحاكم العام من هذا الاجراء هو التخلص من بعض القيود القانونية التي كانت تطبقها الادارة المدنية والتمكن من التصرف بحرية لقمع ومنع الثورة من الانتشار إلى أجزاء أخرى من البلاد . كما عين الحاكم العام على المنطقة المتأثرة بالثورة مبعوثاً خاصاً ومنحه سلطة اتخاذ الخطوات الضرورية لقمع الثورة . وبالإضافة إلى ذلك عين الحاكم لجنة للأمن والنظام ذات صلاحيات مطلقة وليس لقراراتها استئناف.

وبناء على رأي سينيوري ، الذي كان يكتب عن تجربة شخصية باعتباره مسؤولاً فرنسياً عالياً في الجزائر فإن الاجراءات القمعية التي اتخذتها السلطات الفرنسية في الاقليم كانت « غير شرعية وليس لها سابقة » . ونتيجة لهذه العملية ، ارتكبت كل أنواع المظالم . وقد قال نائب العامل في باتنة بأن « عمليات التنظيف » لم تنقطع أبداً[63]. ويؤكد سينيوري بأن تلك العمليات كانت تعني الاعدام ، والحرق ، والغارات التطهيرية (الغزوات).

والحق أن « عمليات التنظيف » ضد الثورة قد جعلت الجنود الفرنسيين أنفسهم يكتشفون أنهم قد « تجاوزوا الحدود » . فقد كانت الأوامر الصادرة إلى الجيش الفرنسي هي اطلاق النار على كل جزائري يقع أمام النظر . وبناء على هذه الأوامر فإن الجيش الفرنسي قد قام بحملة قمع « بطيئة » و « فظة » . وشملت هذه الحملة حرق منازل الأهالي ، وتفريغ مخازن الحبوب ، وعمليات تنظيف ضد قطعان

---

(62) « خطوط عامة عن المناطق الجنوبية من الجزائر » في « أ.ف.س. » (مار ، 1921) ، ص 119 .
(63) سينيوري ، (ر.ب.ب.) ، م 98 (1919) ، ص 301 ـ 302 .

الماشية وإبادة محاصيل القمح والشعير.

وهكذا توقفت الحياة الاقتصادية تماماً في منطقة الأوراس. فطيلة سنة كاملة بعد الثورة ، كانت الأسواق العامة مغلقة ، وتوقف حصاد الحبوب وقطع الحلفا . وبالإضافة إلى ذلك امتدت الإدارة العسكرية إلى منطقتين أخريين ، هما باتنة وعين مليلة ، وكان هذا يعني الحكم مباشرة بواسطة القرارات . وإلى جانب ذلك قتل من 200 إلى 300 شخص ، معظمهم من النساء والأطفال . أما لجنة الأمن والنظام فقد أعدمت وحكمت على أكثر من 1200 نسمة « للتآمر ضد السلطة أو عصيان السلطة »[64].

ولما سمعت الحكومة الفرنسية في باريس بهذا القمع الذي لا نظير له ، بعث المجلس الوطني الفرنسي لجنة للتحقيق . ورغم أن محاضر هذه اللجنة غير موجودة الآن ، فإن السيد سينيوري يقول بأن اللجنة قد وضعت حداً لهذه الاجراءات « الفظة » . ولكنه يضيف بأن الادارة الفرنسية في الجزائر قد استأنفت « عمليات التنظيف » بمجرد عودة أعضاء اللجنة إلى باريس[65].

أما الجبهة الثانية فقد كانت في منطقة الهقار. فتحت تأثير الأفكار الوطنية والجامعة الاسلامية انفجرت ثورة هناك دامت أكثر من ثلاث سنوات ، وأوشكت على وضع حد للحكم الفرنسي في الصحراء الجزائرية.

ونظراً لقرب منطقة الثورة من حدود ليبيا ، فانها قد تأثرت بالحرب التي كانت تجري بين الايطاليين والليبيين منذ سنة 1911 . وانتشرت أفكار الجامعة الاسلامية ، كما بثّتها الحركة ، إلى المناطق المجاورة ، بما في ذلك منطقة الهقار[66] .

---

(64) نفس المصدر ، ص 301 .

(65) من بين الذين اعتقلوا ، وربما أعدموا ، السيد ابن علي بن نوى ، أحد زعماء الثورة ، أنظر ديبون ، « ر.أ.ن. » ، (أكتوبر ، 1921) ، ص 17 .

(66) سينيوري ، « ر.ب.ب. » ، م 98 (919) ، ص 301 . وقد امتدت يد الرقابة إلى الصحافة الإستعمارية ، مثل « لافريك فرانسيز » ، التي كانت ، بلا شك ، من أحسن المجلات المطلعة على الوضع في الجزائر . فالقارىء سيجد في فهرس هذه المجلة العنوان التالي : « قضية ماكماهون » (عن ثورة 1916) ولكن مكان المقال على الصفحة المعنية كان بياضاً . أنظر « أ. ف. » ، « أكتوبر - ديسمبر ، 1916 » ، ص 400 .

ومع نداء الثورة من الشمال ، حيث كان الجزائريون على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، كما رأينا ، في حالة ثورة . ومن الشرق ، حيث كان الليبيون ، بقيادة السنوسية ، في حالة ثورة أيضاً ، ثار الجزائريون في الهقار وأعلنوا الجهاد ضد فرنسا.

والحق أن سخط الهقاريين قد بدأ سنة 1915 . وفي فيفري 1916 ، أعلن الزعيمان ، أحمد سلطان والشيخ عبد السلام ، الجهاد رسمياً ضد فرنسا . وفي مارس من نفس العام بعث الهقاريون حملة ضد جانيت وحاصروها . وبذلك اضطر المعسكر الفرنسي في المدينة إلى مغادرتها والاحتماء بقلعة شارلي ، التي كانت أكثر حصانة ، ولكن الثوار قد دخلوا هذه القلعة أيضاً وأرغموا المعسكر الفرنسي فيها على الاستسلام.

وشيئاً فشيئاً انتشرت أخبار الثورة والانتصار نحو الشمال ، حيث انفجرت ، في نوفمبر من نفس العام، ثورة الأوراس التي تحدثنا عنها . وقد جاء المتطوعون من ميزاب وخاصة غرداية ومن ورقلة وغيرها من مدن الواحات في وسط الصحراء الجزائرية للانضمام إلى الثورة. وهكذا فلم يحل خريف نفس العام (1916) حتى كان كل الاقليم في حالة ثورة . وفي ديسمبر ، قتل الثوار دي فوكو ، الذي كان معروفاً من بين الفرنسيين برحلاته في الصحراء . وكان ذلك في تامنراست عاصمة المنطقة . ونظراً لقوة الثورة، ولأحداث الأوراس التي جرت في نفس الوقت ، ولبعد المنطقة ، فإن فرنسا لم تستطع أن تخمد ثورة الهقار إلاّ بعد أن انتهت الحرب في أوروبا.

ويتفق الكتاب الفرنسيون على أن سنة 1916 كانت « حرجة » ، ليس في الجزائر القريبة من البحر الأبيض المتوسط فقط ، بل في الجزائر الصحراوية أيضاً(67) . وقد استمرت « تهدئة » الصحراء ، ولا سيما منطقة الهقار ، أكثر من ثلاث سنوات . وفي أوائل سنة 1917 بدأت فرنسا تدعم خطوط مواصلاتها في المنطقة . وكانت الحملات العسكرية ترسل ضد الثوار تحت نفس الأوامر التي تلقاها

---

(67) أنظر بيرنار ، « الصحراء الفرنسية خلال الحرب » ، في (أ.ف.س.) (جانفي ، 1920) ، ص 4 .

الجيش الفرنسي لاخماد ثورة الأوراس. وقد استعمل الفرنسيون قمعاً مشابهاً لما حدث في الشمال ، أيضاً . ويعترف العقيد دينو بأن الجيش الفرنسي كان قد عامل الثوار بكل حزم[68] ، ولكن بالمقارنة إلى مواطنيهم في الشمال ، نجد أن ثوار الجنوب قد وجدوا ملجأ داخل الحدود الليبية ، حيث انضموا إلى السنوسية[69] في حربها ضد ايطاليا . وهكذا استطاعت فرنسا ، بدخول سنة 1919 ، أن تبعث النجدة الى المنطقة المضطربة وأن تضع حداً لتمرد يعتبر من أكثر التمردات عنفاً ولكن أقلها شهرة في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية.

اعتاد الفرنسيون أن يعزوا نشاطات الجزائريين المعادية لفرنسا لا إلى الفكرة القومية ، ولكن إلى عوامل « خارجية » أو « إلى التعصب». ولم تكن الثورات والتمردات والنشاطات السياسية التي حدثت بين سنة 1914 و 1918 استثناء من هذه القاعدة . ففي كثير من الأحيان لام الفرنسيون الدعاية الألمانية والتركية ، إلى جانب التعصب و« البربرية » . كما لاموا أشياء أخرى منها الجامعة الاسلامية ، والفقر ، وأسلوب الاثارة الذي اتبعه جماعة النخبة ، وهزيمة الحلفاء في الدردنيل وشارلروا ، وقرارات التجنيد سنة 1916 ، وكره الفرنسيون[70] . ويضيف ديبون عاملاً آخر لاثارة الجزائريين وهو سخط الفلاحين ، الذين كانوا يشكون من قانون الأهالي البغيض ،

(68) نفس المصدر . أنظر أيضاً العقيد دينو ، « أ. ف. س. » (ماي ، 1921) ، ص 11 .

(69) كان مؤسس هذه الحركة ، وهو محمد بن علي السنوسي ، جزائرياً من نواحي مستغانم . وقد ولد سنة 1796 ثم هاجر من الجزائر ، بعد الإحتلال الفرنسي ، إلى الشرق . وكان ابنه الشيخ المهدي ، الذي قاد سكان ليبيا في الحرب ضد إيطاليا ، قد ولد سنة 1844 ، ومنذ سنة 1900 كان الشيخ المهدي مساعداً من جزائريين بارزين ، أحدهما سيدي محمد البسكري (من بسكرة) ، الذي كان يشغل منصب وزير للمهدي ، وثانيهما سيدي محمد التواتي (من توات) ، الذي كان يشغل لديه منصب قاضٍ وكاتب . أما بخصوص أصل وتطور السنوسية ، فانظر الدراسة الهامة التي كتبها عنها سي محمد الحشائشي . « عند السنوسيين والطوارق» . وقد ترجم هذه الدراسة إلى الفرنسية محمد الأصرم وفيكتور سيريس ، أنظر « ر. ب. » (15 أوت ، 1901) ، ص 278 ـ 709 ثم « 15 سبتمبر ، 1901 » ، ص 408 ـ 422 . ومن الجدير بالذكر أن الجزء الأول من هذه الدراسة كان عن السنوسية ، أما الجزء الثاني فهو عن الطوارق .

(70) أنظر العقيد دينو « أ. ف. س. » (ماي ، 1921) ص 11 . وأيضاً بيرنار « الصحراء الفرنسية خلال الحرب » ، في (أف. ف. س.) ، جانفي ، 1920 ، ص 4 .

والضرائب الثقيلة ، وقوانين المسؤولية الجماعية عند ارتكاب جريمة[71] .

في سنة 1919 كتبت المجلة الفرنسية المحافظة « لافريك فرانسيز » ، قائلة بأن « عمليات التنظيف » كانت ما تزال مستمرة في منطقتي الأوراس والقبائل . وقد سمت المجلة هذه العمليات « تطهيراً » . وبشعور من الفخر والانتصار . لاحظت أنه بفضل « القمع الشديد لعمليات قطع الطرق » (وهذا هو الاسم الفرنسي لنشاطات الوطنيين) ، في حركة منسقة بين الشرطة والعسكريين ، فإن ثمار هذه العمليات تبدو أنها قد أصبحت ناضجة[72].

ولكي تتأكد من « ولاء » الجزائر لفرنسا خلال سنوات حرب 1914 ـ 1918 ، فإنه يبدو من المناسب أن ننظر إلى بعض الاحصاءات التي كانت قد نشرتها المصادر الفرنسية . ويجب أن نتذكر بأن الفرنسيين قد أعطوا هذه الاحصاءات لكي يبرروا « القمع العادل » الذي ارتكبوه ضد « قطاع الطرق » الجزائريين .

هجومات الجزائيين ضد فرنسا ، 1916 ـ 1918[73]

طبيعة الهجوم	السنة	عدد الهجومات
هجومات ضد الاشخاص	1916	377
	1917	270
	1918	274
هجومات ضد الاملاك	1916	1,414
	1917	1,113
	1918	1,036
هجومات أخرى	1916	1,685
	1917	1,952
	1918	1,355

(71) أنظر نفس المصدر ، ص 7 . « طيبال » . « أ.ف.س. » ، (سبتمبر ، 1921) ، ص 199 . وسينيوري ، « ر.ب.ب. » ، م 98 (1919) ، ص 291 . دينو ، « أ.ف.س. » (ماي ، 1921) ، ص 119 .

(72) أشار إلى ذلك نوشي ، ص 25 .

(73) ديمونتي ، « الجزائر » في « أ.ف. » ، (جويليه ـ أوت ، 1919) ، ص 241 ـ 242 .

والحق أن الهدف من تتبع حرب العصابات والثورات التي جرت بالجزائر خلال الحرب العالمية الأولى هو محاولة تقييم مظهرها السياسي الوطني ، وليس العسكري . فمنذ انفجار الحرب سنة 1914 ، عمدت فرنسا الى نشر دعاية واسعة زاعمة بها أن الجزائريين كانوا مخلصين لها أكثر من اخلاصهم لأي شيء آخر . وقد رأينا ، أكثر من ذلك ، أن بعض الكتاب الفرنسيين وغيرهم ، قد ادعوا بأن الجزائر كانت هادئة وراضية بالحكم الفرنسي بين 1871 ـ 1920 .

ان نشاطات حرب العصابات ، وبالإضافة الى ثورتي الأوراس والهقار ، قد أظهرت أن « الولاء » الجزائري لم يكن سوى أسطورة ، أريد منها الدعاية فقط . وفي نفس الوقت أظهر هذا الغليان الدائم أن الفكرة القائلة بأن الجزائر كانت هادئة وراضية لم تكن سوى نتيجة لضعف المعلومات عن الوضع الحقيقي في البلاد .

وقد أظهر الوجه العسكري للحركة الوطنية الجزائرية خلال العهد المدروس ، كما أظهر من قبله الوجه السياسي والعاطفي ، أن الجزائريين كانوا عازمين على استرجاع حريتهم . فالتعاون بين الثوار والعمال ، وتأييد الأهالي للمقاومة المسلحة قد اعترف بهما الكتاب الفرنسيون أنفسهم وحدوث ثورتي الهقار والأوراس في نفس الوقت لم يأت عفوا . ورغم أننا لا نملك الوثائق التي تؤكد وجود تنسيق بين الثورتين ، فانه يبدو مؤكداً أنهما كانتا في تناغم مع نشاطات حرب العصابات الأخرى التي كانت تجري في كامل البلاد .

والقمع المثالي الذي استخدمته الادارة الفرنسية ضد التمرادت الوطنية كان قد استنكر بشدة من الفرنسيين ذوي الضمائر النبيلة . فالاجراءات « التهذيبية » التي اتخذها بعض المسؤولين الفرنسيين لقمع التمردات كانت في الحقيقة خرقاً لحقوق الجزائريين الأساسية في معارضة حكم فرض عليهم بالقوة .

وبينما كانت الجزائر تغلي بالأحداث السياسية والعسكرية ، كانت هناك ثورة أخرى ضد فرنسا ولكن في هذه المرة كانت في المغرب . وكان قائد هذه الثورة هو الأمير عبد المالك ، ابن الأمير عبد القادر الشهير . ورغم أن هذه الثورة لم تجر على أرض جزائرية ، فانها تستحق العناية هنا لاعتبارات أخرى .

4. قصة الأمير عبد المالك :

ان الأمير عبد المالك :[74] هو « صخرة سيزيف بالنسبة الينا ، فكل مرة نرغمه على التقهقر يعود فيسقط على أقدامنا » . هذه العبارة كتبتها مجلة فرنسية محافظة سنة 1917 .

ومن حق القارىء أن يتساءل عن ادخال ثورة الأمير عبد المالك في هذا البحث . ولكن هناك عدة أسباب دفعتنا الى ذلك :

أولاً : ان قائد هذه الثورة كان جزائرياً منحدراً من نسل الأمير عبد القادر ، المحارب القديم .

ثانياً : ان هذه الثورة كانت موجهة ضد فرنسا ، التي حاربها كل من الأب والابن بكل ضراوة .

ثالثاً : لقد حدثت حينما كانت ثورات أخرى وطنية تجري في الجزائر .

وأخيراً ، فان تصريحات الأمير عبد المالك تدل على أن هدفه كان طرد فرنسا من أفريقيا الشمالية كلها .

وعلى أية حال ، فان طموح الأمير عبد المالك السياسي ، وعداوته العميقة لفرنسا ، وتعاونه مع أخيه الأمير علي ومع ابن أخيه الأمير خالد ، بالإضافة الى تصريحاته ، يبدو أنها جميعاً تبرز دمج هذه الثورة في التقاويم العسكرية للنضال الجزائري ضد فرنسا . وأن عدم وجود بعض البراهين يجب أن لا يقف عقبة في متابعة الأهداف التاريخية ، رغم أن ذلك قد يمنع المؤرخ من أن يصدر بعض النتائج النهائية . وعلى هذا الأساس ، اذن ، فان ثورة الأمير عبد المالك التي دامت من 1915 الى 1924 ستدرس على أنها حادث « جزائري » تاركين تقرير خاصيتها « الوطنية » ينتظر براهين أكثر .

وقد أشرنا من قبل الى أن سمعة الأمير عبد القادر كانت قد استغلت من بعض

---

(74) أنظر عنه أيضاً دراستنا « وثائق جديدة عن ثورة الأمير عبد المالك الجزائري بالمغرب » في (المجلة التاريخية المغربية) العدد 1 ـ يناير 1974 ، ص 52 ـ 69 ولم نحاول التوفيق بين هذا الفصل وما عثرنا عليه من وثائق .

الدول الكبرى عشية الحرب العالمية الأولى(75) . كانت عائلة الأمير عبد القادر كبيرة الى درجة أنها كانت تضم حوالي 3000 شخص ، وكان بعض أعضائها قد تقلدوا مراكز عالية في المجلس الوطني العثماني وفي الجيش ، ولا سيما منذ ظهور حركة الجامعة الاسلامية . وحين كانت العلاقات بين فرنسا والدولة العثمانية طبيعية ، تمتع الجزائريون في الشرق الأدنى بالاحترام من الجانبين ودون ضغط كبير لدفع ثمن ذلك .

ولكن عندما تكونت التحالفات بين المعسكرات عشية الحرب ، بدأ الاستغلال والضغط على المهاجرين ، وخصوصاً أعضاء عائلة الأمير عبد القادر ، من فرنسا ، والدولة العثمانية ، وألمانيا ، كل لهدفه الخاص . وقد رأينا كيف أن الدولة العثمانية قد رقت الأمير علي ، ابن الأمير عبد القادر ، من نائب دمشق الى نائب رئيس المجلس الوطني العثماني . ومن جهة أخرى استدعت فرنسا الأمير عمر ، وهو ابن آخر للأمير ، الى باريس وأكرمته بالأوسمة والاحتفالات . ولم تكن ألمانيا بمعزل عما كان يجري فأظهرت هي الأخرى اهتمامها بالموضوع . فقد اتصلت بأمير آخر من العائلة ، وهو عبد المالك ، الذي كان أيضاً ابنا للأمير عبد القادر .

ولما كان مهاجراً فان الأمير عبد المالك قد تلقى تعليمه وتدريبه العسكري في الشرق الادنى . كان قد تعلم في سورية ، في وقت كانت فيه حركة الجامعة الاسلامية واليقظة العربية في عنفوانهما . وعندما كانت « المسألة الشرقية » في مرحلتها الحرجة في أواخر القرن التاسع عشر، كان الأمير عبد المالك عقيداً في الجيش العثماني . ولكي تهدىء المهاجرين الجزائريين وتمنعهم من الدخول في حركة الجامعة الاسلامية ، عرضت فرنسا بعض المناصب في جيشها وادارتها المدنية على بعض الجزائريين ، ومنهم الأمير عبد المالك ، الذي عاد الى الجزائر وأذن له بالدخول في الجيش الفرنسي(76) .

ونتيجة لمؤتمر الجسيرة الذي انعقد سنة 1906 عينت فرنسا الأمير عبد المالك

---

(75) « على الجبهة المغربية » في « أ.ف. » ، (ماي - جويليه ، 1917) ، ص 187 .

(76) المصدر الوحيد الذي أشار إلى هذا هو « أسبانيا في المغرب » في « أ.ف. » ، (ماي ، 1923) ، ص 236 ، بناء على ما نقل عن الصحف الأسبانية . أنظر مقالنا « وثائق جديدة » المشار إليه .

قائداً لقوات الشرطة الشريفية في طنجة . وقد أعطى هذا المنصب للأمير فرصة لتحقيق بعض مطامحه . ولما كان الأمير فخوراً بأجداده ، وطموحاً ، ووارثاً لعداوة مرة ضد الفرنسيين ، الذين كان يعتبرهم « أسوأ أعدائه[77] » ، فقد حاول أن يلعب ورقته . ولا شك أنه كان يحمل معه أيضاً فكرة الجامعة الاسلامية التي تلقاها اما من خلال تعليمه واما من خلال أخيه الأمير علي . وبالإضافة الى ذلك ، فانه يبدو أن الأمير كان غير راض بمنصبه ، الذي كان يعتبره أدنى من همته العالية . وقد أخبر هو بنفسه السيد هاريس بأن الفرنسيين كانوا يضعون باستمرار العراقيل في وجه مطامحه[78] .

وخلال الفترة 1906 ـ 1914 كان المغرب عامة وطنجة خصوصاً ، حقلا للمؤامرات ، والتجسس ، والدعاية التي كانت تقوم بها الدول الكبرى المتنافسة في المنطقة . وقد كانت فرنسا وألمانيا هما الممثلين الرئيسيين على المسرح . ولما كان الأمير عبد المالك رئيساً لقوة الشرطة ، فإنه كان هدفاً مفضلاً لدعاة الدول الكبرى، ولا سيما أولئك الذين يعملون لحساب ألمانيا . وعندما حلت الفرصة حاول الأمير ، الذي كان طموحاً ، وساخطاً ، وفخوراً ، أن يستفيد من الوضع . وفي هذا الجو الخطير يبدو أنه قد تحالف مع أعداء « أسوأ أعدائه » : ألمانيا والدولة العثمانية .

وبعد انفجار الحرب العالمية الأولى طرد الفرنسيون ممثلي القوات المركزية من طنجة. وحين كانت وثيقة طردهم في الأعداد، تلفن الأمير عبد المالك سرياً ، باعتباره قائداً للشرطة، الى القائم بالأعمال الألماني وأعلمه بالخطة[79]. وبفضل هذه المكالمة استطاع هذا الدبلوماسي الألماني أن يحرق الأوراق التي قد تكون فيها ادانة له ولبلاده .

ورغم اتهام الأمير عبد المالك باعلان الجهاد ضد فرنسا، فانه قد بقي في منصبه خلال الشهور الأولى للحرب . ولكنه كان يعد نفسه للثورة . وبعد أن أرسل بعائلته

---

(77) م . هاريس ، « حياة قائد من المغرب العربي » في « التايمز » ، (لندن) ، (11 أوت ، 1924) ، ص 9 . كان هاريس مراسل جريدة « التايمز » في طنجة . ولكن مقاله لم يكن ممضياً ، غير أنه أضافه إلى كتابه : « فرنسا ، أسبانيا ، والريف » ، (لندن : أرنولد ، 1927) .

(78) نفس المصدر ، ويقول هاريس بأنه قد اتصل « ببريد طويل منه ، أعطاه فيه كل قصة أعماله » .

(79) نفس المصدر .

الى اسبانيا ، أعلن ، في مارس 1915 ، الحرب ضد فرنسا . وفي الحال طلبت هذه من اسبانيا ارجاعه ، ولكن السلطات الاسبانية رفضت . وهنا حاولت فرنسا أن ترشي المغاربة لاعادته اليها ، ولكن هذه المحاولة باءت أيضاً بالفشل(80) . ولا شك أن عدم شعبية فرنسا وسمعة الأمير عبد المالك بين المغاربة قد ساهمتا في هذا الفشل.

بدأ الأمير عبد المالك ثورته أولاً في اقليم تازة، شمال شرقي فاس، المدينة التاريخية ، والقريبة من الحدود الغربية للجزائر(81) . وبناء على قول أحد الكتاب فان هدف الأمير عبد المالك كان اعلان نفسه سلطاناً على المغرب وجعل فاس عاصمة له(82).

وقد نجح الأمير عبد المالك في كسب الوطنيين المغاربة الى قضيته . ومن بين هؤلاء زعيم الريف بعد الحرب ، الأمير عبد الكريم الخطابي الشهير ، الذي كان عندئذ ما يزال موظفاً في الادارة الاسبانية في مليلة . وقد عمل الأمير الخطابي كقائم بالاتصالات للأمير عبد المالك مع القوات المركزية ، من خلال أسبانيا ، للحصول على الأسلحة والعتاد(83) . كما أن الأمير عبد المالك قد نسق استراتيجيته الحربية مع الزعماء المغاربة الآخرين الذين كانوا ثائرين ضد فرنسا منذ اعلان الحماية ، مثل الهيبة ، والشنكيطي ، والريسوني .

ولما وجد الأمير عبد المالك نفسه مؤيداً من القوات المركزية واسبانيا، ومشجعاً من

---

(80) نفس المصدر . وهناك دراسة ألمانية هامة عن ثورة الأمير عبد المالك كتبها الألماني ألبيرت بارتيل المعروف (بسي هيرمان) تحت عنوان : « حربي بقبضة يدي »(ليبنتر : هيز وكوهلز ، 1925) . وكان بارتيل نوعاً من لورانس المغربي ، ولكن ضد فرنسا .

(81) نفس المصدر . ويقول الدبلوماسي البريطاني في المغرب في ذلك الوقت ، ج. هـ. سيلوس بأن الأمير عبد المالك قد بدأ عمله ضد فرنسا منذ إقامة الحماية الفرنسية على المغرب. أنظر كتابه، «تعيين في فاس » (لندن : نشر ريتشارد ، 1956) ، ص 27 . أما بارتيل ، الذي قال بأن الأمير مالك كان قد تعلم الحضارة الأوروبية والإسلامية ، فقد قال بأنه كان في باريس سنة 1914 . أنظر كتابه (حربي بقبضة يدي) ، ص 84 .

(82) يجب أن يتذكر القارىء بأن عائلة الأمير عبد المالك كانت من غرب الجزائر. وكان والده الأمير عبد القادر خاض أكثر معاركه من تلك المنطقة وكان غالباً ما حارب داخل الحدود المغربية أيضاً . وليس لدينا الآن الوثائق التي تشير إلى أن الأمير عبد المالك كان له خطط أو إتصالات مع ثوار الجزائر ، في ذلك الوقت .

(83) ليون رولان ، « أسبانيا في المغرب » في « أ . ف . » ، (أوت ، 1924) ، ص 471 .

أخيه ، الأمير علي ، وغيره من المهاجرين الجزائريين في الشرق الأدنى ، بالإضافة الى نشاطات حرب العصابات وحركة الفرار من الجيش الفرنسي في الجزائر ، ومتأكداً من الشعبية والسمعة بين المغاربة ، أعلن الجهاد ضد فرنسا ، ونادى بنفسه « أميراً على فاس » ، ودعا أهل افريقية الشمالية أن ينضموا اليه في ثورة تشرف ذكرى أبيه، الأمير عبد القادر[84]. وفي رسالة إلى أخيه سنة 1916، أخبره فيها بخطته في الاستيلاء على الدار البيضاء وجعلها عاصمة له . كان الأمير مالك يتوقع تدخل ألمانيا وتركيا عسكرياً لصالحه ، ولكن هذين البلدين ، رغم أنهما أيداه بالسلاح والمعدات ، لم يحققا آماله في غير ذلك[85] .

بدأت الدعاية تروج حول اسم الأمير عبد المالك منذ ديسمبر 1914 . ففي 12 ديسمبر ، نقلت جريدة « تريبونا » الايطالية برقية من « غازيت دي فوس » البرلينية مفادها أن الأمير عبد المالك قد احتل مدينة تازة بجيش قدره 15,000 جندي وأنه قد هاجم الدار البيضاء ، حيث خسر الفرنسيون 700 رجل[86] . وفي اسطنبول نشرت جريدة « تصفير افكيار » (25 جانفي ، 1915) رسالة من الأمير عبد المالك قال فيها بأنه أصبح « أمير المغرب » ، وأن الأهالي قد استقبلوا المجاهدين بحماس كبير ، وأن الجهاد كان قد أعلن ، وأن الفرنسيين كانوا يتراجعون[87] . وقد أجاب الفرنسيون على هذه الأخبار بأنها كانت « أكاذيب » ألمانية ، وأن الأمير عبد المالك كان ما يزال في طنجة ، وأنه قد أرسل تمنياته بالنصر إلى الرئيس الفرنسي[88] .

ويبدو أن الأمير علي، أخ الأمير عبد المالك، كان قد لعب دوراً هاماً في قصة أخيه . فقد كان مسافراً ، طيلة الحرب ، بين اسطنبول ، وبرلين ، وجنيف . وكان عضواً في لجنة الإتحاد والتقدم. وكان على اتصال مستمر بالفارين والمساجين الجزائريين

---

(84) نفس المصدر ، أنظر أيضاً هاريس ، « التايمز » ، (لندن) ، (11 أوت ، 1924)، ص 9 .

(85) « النيويورك تايمز » ، (27 نوفمبر ، 1915) ، ص 2 . أنظر أيضاً « المغرب » ، في « أ. ف. » ، (مارس ، 1915) ، ص 75 .

(86) « على الجبهة المغربية » في « أ. ف. » ، (جانفي - فيفري ، 1916) ، ص 5 وما يليها .

(87) أشير إلى ذلك في « المغرب » في « أ. ف. » ، (مارس ، 1915) ، ص 75 .

(88) أشير إلى ذلك في نفس المصدر . ص 76 . ونفس الرسالة كانت قد نشرت في « جورنال دي جنيف » ، (26 جانفي ، 1915) .

في المعسكرات الألمانية . وكان ، كالتونسي محمد باش حانبة ، على اتصال وثيق بلجنة استقلال افريقية الشمالية في كل من جنيف وبرلين . وكان أيضاً ، بلا شك ، على اتصال بالمهاجرين الجزائريين في الشرق الأدنى . ولكن يبدو أن علاقته بأخيه . الأمير عبد المالك ، كانت أوثق صلة . فقد اشتغل كمتحدث رسمي للأمير عبد المالك في الخارج. وهكذا فإن رسائل الأمير عبد المالك ونشاطاته كانت تنقل في الصحف الأجنبية ، ولا سيما في الوكالة الألمانية « وولف » ، بهدف الدعاية . كما أن الأمير علي كان يعطي عادة تصريحات باسم الأمير عبد المالك . ومن الممكن القول بأن الأمير علي كان أيضاً المفاوض الرئيسي باسم الأمير عبد المالك مع المانيا وتركيا[89] .

ومعظم المصادر تتفق على أن الأمير عبد المالك كان يهدف بعيداً. ان أعداءه الفرنسين يصفونه بأنه شخص اعتقد أن الساعة قد حلت لأداء دور تاريخي اسلامي[90] . ورغم أنهم اعتادوا أن يتهموه بأنه كان عميلاً ألمانيا وتركيا ، فانهم متفقون على أنه أراد « بحمية » أن يلعب « دوراً من الدرجة الأولى » في الحوادث التي كانت تجري في العالم الاسلامي[91] فالسيد هاريس ، الذي كان مراسلاً لجريدة « التايمز » اللندنية ، قد كتب أيضاً يقول بأن الأمير عبد المالك كان فخوراً ، غير راض بوضعه ، وطموحاً .

ويؤيد ماضي الأمير عبد المالك هذا الإدعاء . فتعلمه في الشرق الأدنى خلال عهد النهضة العربية ، وتدريبه العسكري ، وعمله في الجيش والشرطة الفرنسية ، ثم

(89) نفس المصدر ، ص 70 ، من بين « الأكاذيب » ما نشرته صحف القوات المركزية ، من أن الأمير ، خالد قد انضم إلى الأمير عبد المالك في 7000 رجل ، آتين من جهة الصحراء الجزائرية. وقد نشرت ذلك جريدة « تربيونا » التي كانت تصدر في روما نقلاً عن « غازيت دي فوس » . ولكن الفرنسيين كذبوا ذلك وأعلنوا أن الأمير خالد كان ضابطاً في كتائب الصبائحية على الجبهة الأوروبية . كما أن الفرنسيين قد نشروا رسالة من الأمير خالد معبراً فيها عن تأييده وتأييد عائلته (عائلة الأمير عبد القادر) لفرنسا ضد ألمانيا وتركيا . فإذا كانت هذه الرسالة صحيحة فإننا نجد أن الأمير خالد ، الذي أصبح زعيم الحركة الوطنية بعد الحرب ، قد تنبأ بأن كل العرب سيثورون ضد مضطهديهم الأتراك . أنظر نص الرسالة في « لوطان » ، (3 جانفي ، 1914) ، ص 2 .

(90) بخصوص الأمير علي وموقف الصحافة من ثورة الأمير مالك ، أنظر « أ . ف . » ، (مارس 1915) ، ص 75 . أنظر أيضاً نفس المصدر ، (جانفي - فيفري ، 1916) ، ص 6 .

(91) نفس المصدر ، (جوان - جويلية ، 1915) ، ص 162 - 163 .

خبرته بأبعاد « المسألة الشرقية » ، بالإضافة إلى « المسألة المغربية » ، قد زودته جميعاً بمعرفة كاملة لمشاكل وقته . وقد فتحت سمعة عائلته ، وتشجيع الوضع في الجزائر والمغرب ، والتأييد الموعود في ألمانيا وتركيا ، أفقاً لامعاً أمام مطامحه التي كانت تحدوه لأن يصبح أمير افريقية الشمالية ، وهو حلم حاول جده أن يحققه ولكنه فشل دونه .

وفي سنة 1917 كان الأمير عبد المالك يشكل «تهديداً خطيراً» لفرنسا. وبناء على رأي هاريس ، فإنه كان يتلقى كمية ضخمة من المال والسلاح والمعدات في ألمانيا[92] . وقد كانت سمعته بين الأهالي عالية ، وهذه الحقيقة هي التي ساعدته على أن يجند ويحتفظ بجيش هام . ورغم بعض النكبات التي لحقت به بعد هزيمة حلفائه الألمان والأتراك ، ولا سيما الأولون ، فإنه كان قادراً على أن يحصل على حليف جديد ، وهو أسبانيا ، وأن يبدأ الحرب من جديد .

وبعد سنة 1921 ، عرض على أسبانيا قيادة الجنود المغاربة في جيشها . وقد رضيت اسبانيا بذلك، وفي ماي 1923 كان الأمير عبد المالك في تطوان يجند الجنود، ولكن فرنسا سرعان ما احتجت لأسبانيا على أساس أنه كان هارباً وأنه كان قد أعلن الجهاد ضد فرنسا . وعندما لم تجد أسبانيا بداً ، طلبت من الأمير التخلي عن مكان القيادة . وفي السنة التالية نجح في تجنيد عدد كبير من الجنود من الريف ثم قادهم في حملة صادف أن كانت آخر حملاته ضد فرنسا . ففي أوت 1924 قتل في معركة ضد عزيب الميداوي بالمغرب[93] . وهكذا انتهت حرب دامت حوالي عشر سنوات . وختمت قصة كانت تحتوي على عناصر كثيرة من الرومانسية الجديرة بإثارة كثير من الخيالات . والتاريخ ، الذي أهمل عامة هذه القصة ، ما زال سيعلم الكثير عنها .

ولكي تضع فرنسا حداً لهذه الثورة ، جندت لها واحداً من أفضل رجالها العسكريين ، وهو الماريشال ليوتي ، المسمى بقاهر المغرب . كما أنها لجأت إلى القمع، واستعمال المال، وطريقة فرق واحكم. وأخيراً كان على فرنسا أن تتحالف

---

(92) نفس المصدر ، (جانفي ـ فيفري ، 1916) ، ص 5 ـ 6 .
(93) « التايمز » . (لندن) ، (11 أوت ، 1924) ، ص 9 .

مع أسبانيا ضد الأمير عبد الكريم، زعيم ثورة الريف، لكي تهزم الأمير عبد المالك. وفي النهاية وحدت، « الأختان اللاتينيتان » جهودهما لهـزيمة الـزعيمين المغربيين . فقـد قتل الأمير عبد المالك سنة 1924، ونفي الأمير عبد الكريم سنة 1926. وقد كتب الـدبلوماسي البـريطاني سيلوس بـأن الزعيمين قـد نالا لـدى الأهالي « مكـانة بـطلين وطنيين من خلال مقاومتهما المسلحة لقوات فرنسا وأسبانيا »[94] .

خـــلاصـــة

خلال الحرب العالمية الأولى حققت الحركة الوطنية الجزائرية خمسة أهداف رئيسية :

أولاً : أنها أنهت ، بتفاعلها السياسي ، والعاطفي ، والعسكري ، الأسطورة المرددة باستمرار والواسعة الإنتشار والقائلة بأن الجزائريين كانوا مخلصين لفرنسا ، وأن بلادهم كانت هادئة وراضية بالحكم الفرنسي .

ثانياً : أنها نجحت في اختراق الستار الفرنسي وذلك بنقل القضية الوطنية من المسرح الجزائري إلى المسرح العالمي .

ثالثاً : إنها دعمت الضمير الـوطني بالتعـاون الفعال بين الثـوار والأهالي من ناحية ، وبين العمال والجنود من ناحية أخرى .

رابعاً : أنها أرغمت فرنسا على إدخال الإصلاحات ، التي تضمنها قانون سنة 1919 .

وأخيراً ، أنها حققت التعاون بين القوات الوطنية في الداخل وبين المهاجرين والجزائريين الآخرين في الخارج في حملة دعائية ضد الفرنسيين .

وفي نفس الوقت ، حصل الجزائريون الذين خدموا في الجيش الفـرنسي ، مرغمين ، على تجربة ثمينة من أجل قضية وطنهم . فمعظم الجزائريين كانوا ، منذ أكثر من ثمانين سنة ، أميين معزولين ، مهملين . وفجأة وجدوا أنفسهم على الجبهة الأوروبية ، يحاربون مع أو ضد الجنود الأوروبيين من أجل قضية لم يكونوا يفهمونها

---

(94) أنظر نفس المصدر ، وكذلك رولان ، « أ. ف. » ، (أوت ، 1924) ، ص 471 .

بوضوح . وهكذا حصلوا على تدريب عسكري ، وانضباط محكم ، وبعض التوجيه السياسي ، نتيجة للدعاية الفرنسية المتواصلة .

ولأول مرة فتح الجنود والعمال الجزائريون ، الذين كان عددهم يتجاوز 252,000 نسمة ، عيونهم على مجتمع كان مختلفاً تماماً عن مجتمعهم . وقد عاشوا على طريقة حياة جديدة حتمتها ظروف الحرب . فارتدوا ثياباً مختلفة ، وأكلوا لحماً غير مذبوح على الطريقة الإسلامية ، وشربوا الخمر ، وتزوجوا بأوروبيات . ولا شك أن علماء الأنثروبولوجيا ، والنفس ، والإجتماع سيتفقون على أن الحياة الجديدة كانت صعبة جداً على هؤلاء الجزائريين في البداية . ولكن لم يكن هناك طريق آخر بالنسبة إليهم . وسوف نرى أن هذه التجربة ستؤدي إلى نتائج خطيرة على الحركة الوطنية الجزائرية بعد الحرب العالمية الثانية ، بل على مستقبل الحياة الجزائرية عامة .

ومعظم الجزائريين الذين حاربوا ضد القوات المركزية كانوا مقتنعين ، سطحياً نوعاً ما ، بأنهم كانوا يحاربون ضد الإستبداد والبربرية ، من أجل انتصار الديمقراطية ، والحرية ، وتقرير المصير ، والعدالة . وقد جهدت الدعاية الفرنسية نفسها في تقديم فرنسا والحلفاء على أنهم أبطال الحضارة ، والإنسانية ، والديموقراطية . فجريدة « لافرانس إسلاميك » (فرنسا الإسلامية) قد صورت فرنسا على أنها المؤيد المتحمس لقضية المسلمين في جميع أنحاء العالم .

وهكذا ضحى أكثر من 56,000 جزائري بحياتهم ، بالإضافة إلى أكثر من 82,000 جرحوا من أجل قضية الديموقراطية ، وتقرير المصير ، والحرية ، والعدالة ، التي كان الحلفاء يبشرون بها لا لجنودهم فقط ، ولكن أيضاً للشعوب المضطهدة في كل مكان ، ولا سيما أولئك الذين كانوا يحاربون من أجل قضيتهم الوطنية . وقد كانت فرنسا ـ في نظر جماعة النخبة ، والجنود ، والعمال الجزائريين الذين ضحوا بحياتهم خلال الحرب ـ غير منطقية حين بدأت ، بعد الحرب ، تضطهد الوطنيين الذين كانوا يطالبونها بالوفاء للمبادىء التي بشرت بها أثناء الحرب .

ورغم الدعاية الفرنسية عن ولاء الجزائريين المطلق ، فإن فرنسا قد استعملت ، بناء على تقارير شاهدي عيان ورسميين فرنسيين ، طرقاً غير إنسانية لإرغام الجزائريين على الخدمة في جيشها . فقد كانت الأوامر اليومية تتمثل في :

« الإرهاب المتطرف » ، وتشجيع فكرة القدرية بين الأهالي ، واستخدام كامل لقانون الأهالي بحجة قانون حالة الطوارىء وظروف الحرب . وفي بعض الأحيان استخدمت فرنسا المرابطين الخرافيين لإصدار فتاوي لصالحها ، وهكذا كانت تستغل الأهالي باسم الدين . وفي أحيان أخرى إستعملت الرشوة ، والحفلات العامة ، والفرق الموسيقية لإغراء الفلاحين الأميين والفقراء على الإنضمام إلى جيشها . فالجزائريون الذين حاربوا مع الحلفاء لم يفعلوا ذلك إذن من أجل قضية فرنسية ، أو لكي يعبروا عن ولائهم لفرنسا ، كما كانت تروج الأسطورة .

كانت الحركة الوطنية نشيطة على جبهتين : الجبهة السياسية ـ العاطفية ، والجبهة العسكرية . فمن الوجهة السياسية ، عبرت الوطنية الجزائرية عن نفسها ، بالرغم من غياب منظمة أو حزب ، في عدد من المظاهرات ، والمناشير المعادية لفرنسا ، ورفض التجنيد العسكري الإجباري ، والإحتجاجات ، ومن الوجهة العاطفية لجأ الجزائريون إلى الأدب الشعبي ، والمراسلات السرية لكي يعبروا عن معارضتهم للحرب ، وتأييد أعداء فرنسا .

وقد سجلت الحركة الوطنية ، في مؤتمر القوميات ، الذي انعقد بجنيف سنة 1916 ، نجاحاً كبيراً بإسماع صوتها في اجتماع عالمي ، لأول مرة حسب معلوماتنا . وبعد إنشاء لجنة استقلال أفريقيا الشمالية ، إستفادت الحركة الوطنية الجزائرية من ذلك ومن نشاطات المهاجرين . وهكذا اخترق الوطنيون الستار الفرنسي الذي كان يحيط بالجزائر منذ 1830 . أما نتائج الثورة البولشفية ومبدأ الديمقراطية الذي نادى به ويلسون فلم تظهر إلا بعد الحرب الأولى .

أما من الوجهة العسكرية فإن الحركة الوطنية الجزائرية قد حققت أيضاً نجاحاً كبيراً ، رغم أن المحاولة على ما يبدو قد باءت بالفشل . فقد قام الوطنيون بين 1914 و 1916 بنشاطات عسكرية في سلسلة من عمليات حرب العصابات ضد المراكز الفرنسية الحيوية . كما كان هناك بعض الثورات بين 1916 ، و 1918 . وأهم الثورات حينئذ هما ثورتا الأوراس والهقار. وكل النشاطات العسكرية قام بها شبان جزائريون كانوا قد هربوا من التجنيد منذ 1912 من الجيش الفرنسي .

وقد عزا الفرنسيون هذه النشاطات السياسية ـ العاطفية والعسكرية الجزائرية إلى تأثير العملاء الأجانب ، ولا سيما الألمان والأتراك . ولكنهم لم ينكروا وجود

شعور معاد لفرنسا بين الجزائريين كما أنهم لاموا التعصب باعتباره أحد دوافع الأهالي للثورات العامة . وقد اعترف الفرنسيون أيضاً بأن قانون الأهالي وغيره من القوانين الإستثنائية قاد إلى الثورات . وغالباً ما كانت المظالم الإقتصادية ، ولا سيما الضرائب الثقيلة ، من بين أسباب الثورات في نظر الفرنسيين . فليس هناك إلا بعض المثقفين الذين اعترفوا بأن عدم الإستقرار الجزائري كان نتيجة ظاهرة عامة تسمى بالقومية ، التي كانت احدى القوى الرئيسية في ذلك الوقت في أوروبا وفي الشرق الأدنى . وبالنظر إلى التطورات التي حدثت بعد الحرب الأولى فإنه من الممكن أن نعتبر الفترة من 1914 إلى 1918 فترة حاسمة في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية .

وتحت ستار « تهذيب شعب متخلف » اتخذت الإدارة الفرنسية إجراءات شديدة لقمع المطامح الوطنية للجزائريين . فحتى لو أننا اعتقدنا مع الحاكم العام أن الجزائريين قد أحيوا « البربرية القديمة » في حملتهم ضد فرنسا ، فإن « القمع الضروري » ، الذي استعمله لوتو لوقف ذلك لم يكن أقل بربرية ، رغم أن إجراءاته كانت « جديدة » . لقد دامت عمليات « التنظيف » العسكري من 1916 إلى 1919 . وتوقفت الحياة الإقتصادية في المناطق المتأثرة بالحوادث خلال سنة على الأقل . وبناء على رأي فرنسي رسمي سام فإن « عمليات التنظيف » قد استمرت إلى أن شعر الجنود الفرنسيون أنفسهم بأنهم قد « تجاوزوا الحدود » .

ويجب أن ننظر إلى ثورة عبد المالك من ثلاث زوايا: جزائرية، مغربية، وعربية. فمن الزاوية الجزائرية كانت ثورة الأمير عبد المالك «وطنية» على أساس أنه قام بها تخليداً لذكرى والده الأمير عبد القادر. وكان الأمير عبد المالك، كوالده يعتبر الفرنسيين « أسوأ أعدائه » وتعهد بالقضاء عليهم بكل الوسائل . ولكنه اتقى غلطة والده فتحالف مع قوة أجنبية . ولسوء حظهِ فإن هذه القوة كانت نفسها قد هزمت . ويبدو أن الأمير عبد المالك قد وجد فرنسا ذات جذور عميقة في الجزائر، لذلك اختار أن يضربها من أضعف مراكزها : المغرب الأقصى . ومن هنا إذن يبدأ دوره كزعيم لأفريقية الشمالية .

فعندما إنفجرت الحرب الأولى كانت فرنسا ما تزال تحاول إقامة حمايتها المهزوزة على المغرب . وقد خلعت السلطان القديم ووضعت مكانه سلطاناً جديداً . ونتيجة لهذه الحوادث كان الأهالي المغاربة في حاله غليان . بل ان حملة واسعة

للمقاومة السياسية والعسكرية ضد فرنسا قد بدأت . وعلى هذا الأساس فإن الأمير لم يخلق المقاومة المغربية ولكنه ضاعف منها وأعطاها فقط محتوى جديداً .

وبعد أن تحالف مع الوطنيين المغاربة في الشمال (المنطقة الاسبانية) وفي الجنوب (المنطقة الفرنسية) ، وتأكد من سمعته العالية ، جعل نفسه زعيماً بدون منازع حتى وفاته . ولا شك أن الأمير عبد الكريم الخطابي الريفي ، الذي اشتغل كمساعد للأمير منذ سنة 1915 ، قد إستفاد من تجربة الأخير . وحين انتهت الحرب العالمية اختلف الزعيمان على الاستراتيجية وعلى الحلفاء . وكانت النتيجة هي ضعف كليهما ، وبذلك أعطيا أعداءهما فرصة هزيمتهما الواحد تلو الآخر . فمساهمة الأمير عبد المالك في الحركة الوطنية المغربية تعتبر كبيرة .

وإذا كان التاريخ لا يعيد نفسه دائماً ، فإنه يبدو أنه يفعل ذلك بعض الأحيان على الأقل . فبين 1832 و 1847 كانت فرنسا تحارب الأمير عبد القادر في الجزائر ، بينما كانت تؤيد محمد علي في مصر ، الذي كان ثائراً ضد الخليفة العثماني . وبين 1915 و 1918 كان فرنسا تشن حرباً لا هوادة فيها ضد الأمير عبد المالك في المغرب ، بينما كانت تؤيد شريف مكة في شبه الجزيرة العربية ، الذي كان قد أعلن الثورة ضد الخليفة العثماني أيضاً . ان الظروف والممثلين يبدون مختلفين ، ولكن النموذج العام كان هو نفسه تقريباً . ففي الحالتين كان هناك تناقض وعدم اتباع لخط واحد من فرنسا .

وقد فكر الأمير عبد المالك، الذي تعلم في بيئة إسلامية عربية، وصقل ودرب في مدارس أوروبية ، بأن الفرصة قد حانت لمساعدة قضية شعبه . ولهذا السبب أعلن الجهاد كوسيلة لتجميع الرأي العام حوله . وقد نادى بتحرير أفريقيا الشمالية ، وهي الفكرة التي حارب من أجلها أجداده.

ويبدو من الوثائق الموجودة أنه لم يكن يحب العثمانيين رغم علاقته بأخيه . فهو لم يناد بنفسه ممثلاً للسلطان ولم يعلن أنه كان يحارب لصالحه . فإذا اعتبر الباحث تنبؤات الأمير خالد في رسالته الى « لوطان » (جانفي 1915) ، بأن كل العرب سيثورون ضد الأتراك ، تعبيراً عن وجهة نظر الأمير مالك أيضاً ، فإنه من الممكن أن يغامر المرء فيعتبر الأخير أحد أبطال القومية العربية في تلك الفترة الحاسمة . وكون

شريف مكة قد ثار ضد الأتراك ، بينما ثار الأمير عبد المالك ضد الفرنسيين ، لا يزيد هذه الفكرة إلا وزنا.

وعندما نأخذ في الاعتبار هذه الزوايا الثلاث فإن الأمير عبد المالك قد يقف بطلاً وليس «مغامراً»، كما كان الفرنسيون يصفونه. ولكن على المرء أن يبقى في شك ولا يحكم برأي نهائي في هذه القصة لأن المعلومات حولها ما زالت بعيدة عن الاكتمال.

كانت الجزائر خلال الحرب العالمية الأولى حقلاً لتيارات من جميع الجهات . وقد ركزنا حتى الآن على دراسة التيارات الوطنية داخل أو خارج حدود الجزائر . ولكن كانت هناك تيارات أخرى ساهمت ، بطريقة أو بأخرى ، في دفع الحركة الوطنية الجزائرية.



أعداء وأصدقاء

1919 - 1914

1. ايادي القيصر والسلطان :

يقول مثل جزائري ان « عدو العدو صديق ، وصديق العدو عدو » . وبناء على هذا الاعتقاد الشعبي ، ما دامت ألمانيا ، ثم تركيا « عدوتين للعدو » فيجب أن تكونا « صديقتين » . ان هذا المنطق ، حتى ولو لم يكن دائماً ناجحاً ، كان قد طبق من الجزائريين خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها.

والواقع أن القصة قد بدأت منذ سنة 1870 ، حين انهزم نابليون الثالث على يد بيسمارك . فقد عزا بعض الكتاب ثورة الجزائر سنة 1871 إلى هزيمة فرنسا في القارة الأوروبية . ورغم أن فرنسا قد هزمت ، فانها سرعان ما استطاعت أن تدعم قوتها ، وتستعيد سمعتها ، وتزيد من احكام قبضتها على الجزائر بما ليس له نظير في السابق . وأثناء عنفوان الاستعمار ، لم تكتف فرنسا بمصادرة أراضي الثوار الجزائريين وبمضاعفة عدد الكولون ، بل قننت أيضاً قانون الأهالي البغيض . وهكذا نجحت فرنسا الجمهورية الثالثة ، في زيادة عزلة الجزائر عن بقية أجزاء العالم.

وأثناء بعض الوقت أصبح الانكليز « أصدقاء » الجزائريين . كان هذا صحيحاً خصوصاً أثناء أزمة فاشودا ، عندما كانت بريطانيا « عدوة العدو » . وبعد ثورة عين التركي سنة 1901 ، اتهم بعض النواب الفرنسيين في المجلس الوطني لندن وبرلين بإثارة الجزائريين . وقد أشرنا من قبل إلى أن ظهور حركة الجامعة الإسلامية قد زادت من أصدقاء الجزائر في الشرق الأدنى ، رغم أن الدولة العثمانية لم تكن بعد عدوة لفرنسا . ولكن بحدوث أزمتي المغرب الأقصى ، وبرحلة ويليام الثاني إلى الشرق الأدنى ، ظهر الأمل بين الجزائريين في أن تلعب ألمانيا دور الصديق لهم.

وعندما نأخذ في الاعتبار تلك التطورات ، فاننا نجد أن الحرب العالمية الأولى وضعت أمام الحركة الوطنية الجزائرية معسكرين : معسكر الأعداء ومعسكر

الأصدقاء . وان فرصة الاختيار ، التي كانت غائبة منذ سنة 1830 ، كانت هي المساهمة الكبيرة التي قدمتها الحرب للجزائر . ولكن علينا أن نتذكر أن هذا الاختيار كان نظرياً أكثر منه عملياً . ونتيجة للملامح « الفذة » للحكم الفرنسي ، فان الجزائر لم تستطع أن تستغل هذا الاختيار كاملاً ، كما فعل ، مثلاً ، التشيكوسلوفاكيون ، والبولنديون ، وعرب الشرق الأدنى .

ومهما كان الأمر ، فان الحرب قد فتحت أمام الحركة الوطنية الجزائرية آفاقاً جديدة بخصوص فكرة توازن القوى . فقد كانت ألمانيا وتركيا ، المنافستان لفرنسا ، صديقتين في نظر الجزائريين . وهناك مثل جزائري آخر يقول : « ان الغريق يحاول التعلق حتى بشعرة » . وبالنسبة للجزائر الغريقة ، فإن ألمانيا وتركيا ، رغم أنهما لا تستطيعان مساعدتها بسفينة انقاذ، فانهما قد يساعدانها بشعرة. والحق أن الجزائريين لم يتوقعوا من ألمانيا أو تركيا أن تنقذهم من فرنسا . وكل ما كانوا يأملون فيه هو أن هاتين القوتين تستطيعان أن تضعفا أو تهزما فرنسا في أوروبا ، وهكذا تعطيان لهم الفرصة « لاكمال » العمل . انه في هذا الضوء يجب أن ينظر المرء إلى الدعاية الألمانية والعثمانية خلال الحرب وإلى رد الفعل الجزائري بخصوصها .

في سنة 1915 كتب أحد الفرنسيين مؤكداً أن ألمانيا قد بدأت دعايتها في الجزائر منذ سنة 1900 . والكاتب يصر على أنه « مقتنع بأن (ألمنة) الجزائر قد بدأت خلال الخمس عشرة سنة الماضية »[1] . ويؤكد المؤلف أيضاً بأن هذه الطريقة قد غطت جميع الميادين : زراعية ، وصناعية ، وتجارية ، ودينية ، وسياسية . وقد قام بعملية (ألمنة) الجزائر أو بث الدعاية الألمانية فيها ، بناء على رأي هذا الكاتب ، السياح ، والتجار ، والمثقفون ، والجواسيس الذين ترددوا على الجزائر قبل الحرب . وبناء على رأي كاتب فرنسي آخر ، فإن هؤلاء الألمان قد حاولوا تدعيم علاقتهم مع الشعب الجزائري . وقد استعملوا كل فرصة لاثارة الجزائريين ضد الفرنسيين[2] .

---

(1) ج. ديبارمي ، « بعض أصداء الدعاية الألمانية في الجزائر (العاصمة) » في « س.ج.ا. » ، م 20 (1915) ، ص 48 .

(2) أوغسطين بيرنار ، « ألمانيا وأفريقية الشمالية » في «ا.ف.» (أبريل ، 1915) ، ص 88 . وقد أضاف بيرنار أن الألمان قد « ندموا » على أنهم لم يأخذوا الجزائر من فرنسا سنة 1871 .

ومنذ 19 مارس، 1913 أوضحت ألمانيا أن هدفها كان المساعدة على احداث ثورة عامة في كامل أفريقية الشمالية ضد فرنسا. ففي مذكرة نشرت في ذلك التاريخ وضعت خطة تستطيع ألمانيا من خلالها خلق الصعوبات في المنطقة عن طريق الزعماء الدينيين والسياسيين[3]. ويعتقد طيبال أن قذف عنابة وسكيكدة بالقنابل كان يتماشى مع هذه الخطة[4]. ففي الرابع من أوت، 1914. ضربت السفينتان « بريسلو » و « غوبن » هاتين المدينتين ثم هربتا إلى المياه التركية. وقد ترك الهجوم « بعض الضحايا »، ولكنه لم يسفر عن « النتائج المعنوية التي توقعها المعتدون ». ويقول لوتو، الحاكم الفرنسي العام للجزائر عندئذ، بأن ضرب الألمان لعنابة قد دام مدة أربع ساعات ولسكيكدة خمس ساعات[5].

وقد بدأ الفرنسيون حملة واسعة من الدعاية عن « فشل » الألمان في اثارة الجزائريين ضد فرنسا. كما اعتبروا ذلك « دليلاً » على أن الجزائريين كانوا مخلصين لفرنسا. ولكن ليس هناك برهان على أن السفينتين الألمانيتين قد أرادتا حقاً أن تعطيا للجزائريين « إشارة » الثورة، كما كانت الدعاية الفرنسية تدّعي.

لا يتفق الدعاة الألمان على مدى قوة الحركة الوطنية الجزائرية. فبعضهم كانوا يعتبرونها ضعيفة جداً بحيث لا تستطيع أن تعلن الاستقلال عن فرنسا. ويعتقد آخرون منهم أنها كانت قوية الى درجة أنها تشكل خطراً على الحكم الفرنسي. وهذان الرأيان يمثلهما أحسن تمثيل المستشرقان الألمانيان: البروفيسور جورج كامفماير، والبروفيسور كارل بيكر. وكلاهما كان مهتماً بالعالم الاسلامي والقضايا الاستعمارية.

ففي سلسلة « ألمانيا والاسلام » نشر كامفماير كتاباً ادعى فيه أنه لا يمكن لألمانيا أن تتوقع ثورة وطنية في الجزائر[6]. وقد دعم رأيه هذا بأن الجزائر لا تستطيع

---

(3) طيبال، «ا.ف.س.» (سبتمبر، 1921)، ص 199. ويسميها المؤلف « مذكرة برلين »، التي قال أنها كانت قد نشرت من السلطات العسكرية الألمانية.

(4) نفس المصدر.

(5) « الجزائر » في «ا.ف.» (جانفي - فيفري، 1915)، ص 19.

(6) أنظر «شمال غرب أفريقيا وألمانيا» (برلين، 1914)، (بالألمانية) كما أشار اليه أوغسطين بيرنار، « ألمانيا وأفريقية الشمالية » في « ا.ف. » (ابريل، 1915)، ص 88.

أن تقوم حتى بثورة مثل ثورة سنة 1871 لأن الاستعمار فيها كان قوياً للغاية . فليس لها ، بناء على رأيه ، حياة وطنية ولا صحافة هامة ولا أدب متقدم ، كما في مصر ، مثلاً . وبالإضافة إلى ذلك فهو يقول أن أعضاء النخبة الجزائرية كانوا قلة وليس لهم تأثير كبير على بقية السكان . ونظراً لأن الحياة الجزائرية كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بفرنسا فإن الحركة الانفصالية في الجزائر لا تستطيع أن تفكر في الاتجاه نحو تركيا . وليس هناك من سبب يجعل هذه الحركة ، بناء على رأيه ، تفضل دولة أخرى أوروبية على فرنسا.

ويؤكد كامفماير أن الجزائريين كانوا يعلمون جيداً أن « الاستقلال كان غير ممكن » . وقال ان فرنسا التي هزمتها ألمانيا قد استطاعت ، سنة 1871 ، أن تضع حداً للثورة الوطنية . أما في سنة 1914 ، فإنه حتى ولو هزمت فرنسا في أوروبا ، فإن للجزائريين حظاً ضئيلاً في تغيير أحوالهم . وقد انتهى كامفماير بهذا الرأي المتشائم : ان أفريقية الشمالية ككل ليس لها ، في ذلك الوقت، « فكرة وطنية ولا عواطف شعبية » . ولذلك فإن ألمانيا ، بناء على رأيه ، ليس لها ما تتوقعه من الاسلام في أفريقيا الشمالية[7].

أما بيكر فله رأي مختلف عن الحركة الوطنية الجزائرية . ففي كتابه عن ألمانيا والاسلام لام بيكر الصحافة الفرنسية لشنها حملة دعائية ضد ألمانيا مدعية ان دعاة ألمانيين كانوا يبثون بين الجزائريين سياسة ألمانيا الاسلامية[8] . وقد استنكر بيكر هذه الحملة على أساس أن أهل أفريقيا الشمالية ليسوا في حاجة إلى إثارة من ألمانيا . وأخبر الدعاة الفرنسيين بأن كثيراً من الألمانيين قد لاحظوا أنهم كانوا « محل ترحيب خاص من أهالي » الجزائر ومصر.

---

(7) أشار اليه بيرنار في نفس المصدر ، ص 88 ـ 89 .

(8) أنظر (ألمانيا والاسلام) (برلين ، 1914) (بالألمانية) ، ص 21. وقد ظهر هذا الكتيب (31 صفحة) في سلسلة « الحرب الألمانية » (بالألمانية) أنظر أيضاً أوغسطين بيرنار ، « ألمانيا والاسلام » في «ا.ف.» (جانفي ـ فيفري ، 1915) ، ص 17 . كان بيكر أستاذاً في جامعة بون ومديراً لمعهد هامبورغ الاستعماري من 1908 الى 1913 . كما كان معروفاً باستشراقه وبتخصصه في القضايا الاسلامية ، أنظر جان ـ جاك واردنبورغ ، « الاسلام في مرآة الغرب » (باريس : موتون وشركاه ، 1962) ، ط 2 .

وكان بيكر مقتنعاً أن الحركة الوطنية الجزائرية كانت « خطراً » على فرنسا . فهو يرى أن معارضة الجزائريين ، « لسادة بلادهم» قد أخذت ، منذ عهد الأمير عبد القادر . شكلاً جديداً وأكثر عصرية ، ولكن الجزائريين ، حتى المثقفين منهم ، قد بقوا خصوماً « للتسلط الفرنسي » . ويرى أن الجزائريين سيكونون مصدر ، « خطر حاد » على « فرنسا مهزومة » . كان بيكر يعتقد أن سياسة فرنسا الاستعمارية في الجزائر قد فشلت[9] .

وتشير الدلائل إلى أن ألمانيا قد اتبعت بيكر ضد رأي كامفماير . ذلك أن ضرب بعض الموانيء الجزائرية في أوت ، 1914 . قد يكون متمشياً مع فكرة بيكر ، أو على الأقل هكذا فسره الفرنسيون . كما أن ارسال الأسلحة ، والنقود ، والعتاد إلى الأمير عبد المالك في المغرب الأقصى كان أيضاً يتماشى مع هذه الفكرة ، وبناء على رأي كاتب فرنسي فان الحركة السنوسية في ليبيا قد دعيت من ألمانيا إلى مساعدة الجزائريين[10] . وقد أرجعت الدعاية الفرنسية حرب العصابات والثورات المسلحة في الجزائر ضد فرنسا إلى العملاء الألمان والأتراك . أما الصحافة والوكالات الألمانية فقد كانت ، من جهتها ، تنشر بعاطفة انتفاضات الجزائريين ضد الفرنسيين[11] .

في ربيع سنة 1915 احتجز الفرنسيون بعض المنشورات الألمانية الموجهة إلى الجنود الجزائريين والمغاربة على الجبهة الأوروبية . وقد تلقى جنود المغرب العربي في خنادقهم في فلاندر بياناً يدعوهم إلى الانضمام إلى أعداء فرنسا . والمنشور ، الذي يبدو أنه كان بالعربية ، قال بأنه منذ سنوات قضى الفرنسيون على مملكتي الجزائر وتونس وفصلوهما عن عالم الاسلام . ثم ذكر الجنود بأن العلماء قد أعلنوا الجهاد ضد الحلفاء وأن من واجبهم ، كمسلمين ، أن يفعلوا نفس الشيء . وقد سأل المنشور جنود المغرب العربي أن ينضموا إلى الألمان ، أعداء فرنسا ، وإلى العثمانيين ، اخوتهم[12] . ويبدو أن هذا المنشور قد وزع لغرض دعائي محض

(9) نفس المصدر . ص 29 ـ 30 . أنظر أيضاً بيرنار ، « ألمانيا » في « ا.ف.» (جانفي ـ فيفري ، 1915) ، ص 17 ـ 18 .

(10) نوشي ، ص 27 :

(11) من بين هذه وكالة «وولف» وجريدة «غازيت دي فوس» .

(12) ديبارمي ، « بعض الأصدقاء » في « س.ج.ا.» ، م 20 (1915) ، ص 70 . وقد ترجم المؤلف هذا =

محاولة لاضعاف معنويات الجيش الفرنسي بواسطة الحرب النفسية . وهناك نشاطات مشابهة أقيمت في برلين للجنود الجزائريين الذين كانوا قد فروا من الجيش الفرنسي ، وللسياسيين الساخطين الذين وجدوا ملجأهم في العاصمة الألمانية .

وقد عامل الألمان الجنود الجزائريين ، سواء منهم الفارون أو المساجين ، معاملة طيبة . فقد أبقوهم في (معسكر الهلال) في وونسدورف ـ زوسن ، قرب برلين . وكانوا قد أعطوهم بذلات عسكري تركية ، وفصلوهم عن ضباطهم الفرنسيين ، ووضعوهم تحت قيادة ضباط ألمان يتكلمون العربية . وبناء على رأي الكتاب الفرنسيين ، فإن الجنود الجزائريين قد عوملوا في ألمانيا « باطراء » . فقد أعطوا الطعام حسب التقاليد الاسلامية ، كما عرضت عليهم النقود والوعود المغرية . ووسط احتفالات كبيرة افتتحت ألمانيا مسجداً لهؤلاء الجنود . وقد حضر الاحتفالات الجزائريون الساخطون على الحكم الفرنسي ، ورجال من المغرب العربي ، والمستشرقون الألمان وشخصيات عثمانية[13] .

وبعد مذهبة هؤلاء الجزائريين بعناية أرسلوا لكي يحاربوا ضد فرنسا . ومن بين الذين ساهموا في عملية المذهبية اللاجئون السياسيون الجزائريون ، وزعماء حركة الجامعة الاسلامية في الشرق الأدنى ، وقادة المهاجرين الجزائريين والمستشرقون الألمان . وقد كان الأمير علي ، ابن الأمير عبد القادر ، الذي كان نائباً لرئيس المجلس الوطني العثماني ، وزعيم المهاجرين الجزائريين والمتحدث باسم أخيه الأمير عبد المالك ، شخصية هامة في تلك الأيام . وبناء على رأي ديبارمي ، فان الأمير علي قد أعد هؤلاء الجنود اعداداً وطنياً . أما الشيخ أحمد الكزبري السوري فقد تولى مذهبتهم في مبادىء الجامعة الاسلامية[14] . وحين تم الاعداد جيداً ، أرسل هؤلاء الجنود الى الجزائر ، أو الى آسيا الصغرى لكي يحاربوا في الجيش العثماني[15] .

المنشور ولكن لم يقل من أية لغة .

(13) أنظر نوشي ، ص 27 ، وطيبال ، (ا.ف.س) (سبتمبر ، 1921) ، ص 200 ، وديبارمي ، « بعض الأصداء » في « س.ج.ا.إ » ، م 20 (1915) ، ص 71 ، وبيرنار ، «أفريقية الشمالية» ، ص 7 .

(14) ديبارمي ، نفس المصدر .

(15) بيرنار ، «أفريقية الشمالية» ، ص 8 .

وقد امتدت الدعاية بين الجزائريين لا إلى النشاطات العسكرية فقط، بل الى النشاطات السياسية أيضاً . فبين سنة 1915 و1916 أنشئت في برلين اللجنة الاسلامية لاستقلال أفريقيا الشمالية . وقد حضر الاحتفالات بانشاء وتسيير هذه اللجنة شخصيات ألمانية وعثمانية ، بالاضافة الى الأمير علي المذكور ، وعدد من الفتيان الجزائريين ، الذين كانوا يضمون مثقفين ساخطين أو متعصبين.

وخلال نفس العهد كتب أحد الجزائريين الفارين من الجيش الفرنسي كتيباً «عنيفاً» تحت عنوان (الاسلام في الجيش الفرنسي) ، نادى فيه الجزائريين بمعارضة الخدمة في الجيش الفرنسي والثورة ضد فرنسا . وفي سنة 1916 اجتمعت لجنة استقلال أفريقيا الشمالية في برلين ووضعت خطة عمل ضد فرنسا في المغرب العربي . وهناك اتصالات جرت مع سلطان المغرب الأقصى المخلوع ، مولاي حفيظ ، الذي كان عندئذ في أسبانيا ، ومع المسؤولين في كل من الجزائر والمغرب الأقصى . وفي نفس الوقت عين السلطان العثماني ، سليمان الباروني[16] كخليفة له في ليبيا مع تعليمات خاصة بتشجيع الثورات في أفريقيا الشمالية[17] .

ولكن بعثة الباروني لم تكن النشاط الوحيد للدعاية العثمانية في الجزائر . ففي القسم الخاص بنشاطات الجامعة الاسلامية أشرنا ألى أن السلطان العثماني والفتيان الأتراك لم يكونوا غرباء في الجزائر . كما أشرنا من قبل الى أن المهاجرين الجزائريين في الشرق الأدنى قد لعبوا دورهم في العلاقات الجزائرية ـ العثمانية . ولم يبق ، حينئذ ، الا دراسة الدور العثماني في الشؤون الجزائرية خلال الحرب العالمية الأولى . ان الفتوى بالجهاد التي صدرت في أكتوبر ، 1914 ، لم تكن موجهة للجزائريين وحدهم ، بل كانت موجهة إلى كل المسلمين . ولكن رد الفعل الجزائري لهذه الفتوى لم يكن ملفتاً للنظر ، على الأقل كما صورته المصادر الفرنسية . فمفهوم الجهاد في الجزائر كان يختلف عما كان السلطان يريد بـه . فبين 1914 و 1918 ثار

---

(16) عاش الباروني سنوات في الجزائر فراراً من حكم عبد الحميد الثاني ، ثم زارها عشية الحرب الأولى واجتمع ببعض أهلها ، ورحبت به بعض صحف ذلك العهد ، أنظر قائمة المراجع الجديدة .

(17) طيبال ، «ا.ف.س.» (سبتمبر ، 1921) ، ص 200 . أنظر أيضاً نوشي ، ص 27 . عن حياة ونشاط الباروني أنظر إبراهيم أبو اليقظان «سليمان الباروني باشا» جزآن ، الجزائر ، 1956 ، وكذلك «صفحات خالدة من الجهاد» جمع زعيمة سليمان الباروني ، مصر ، 1964 .

الجزائريون ضد فرنسا باسم جهادهم « الخاص » ـ الوطنية ـ وليس باسم الجهاد الذي أراده السلطان ـ الجامعة الإسلامية .

ورغم أدعاء الفرنسيين بأن الدعاية الألمانية والتركية كانت وراء كل الاضطرابات في الجزائر ، فان دور الدولة العثمانية لم يكن مهماً . فاذا غض المرء النظر عن نشاطات الأمير علي ، والباروني ، وبعض المهاجرين الجزائريين الآخرين تحت سلطتها ، فانه يجد أن دور الدولة العثمانية كان لا يكاد يذكر .

كانت هناك بعض المناشير والكتيبات ، مع نغمة الجامعة الاسلامية ، قد تسربت الى الجزائر من طرابلس وتونس ، تنادي الجزائريين بالنضال ضد فرنسا . وكانت هذه المطبوعات تثير ذكرى الأمير عبد القادر ، الذي « لم يتوقف عن حرب فرنسا حتى وفاته » . كما قام بعض المهاجرين الجزائريين والفارين من الجيش الفرنسي في الشرق الأدنى بكتابة الكتيبات وتحرير المقالات الصحفية لكي يدعوا مواطنيهم للثورة[18] .

وقد أيّدت الصحافة وغيرها من وسائل الاعلام العثمانية الحركة الوطنية في أفريقية الشمالية . فجرائد اسطنبول ، بالاضافة الى جرائد الأقاليم العربية ، قد نشرت الأخبار المعادية لفرنسا التي تأتي من ذلك الاتجاه ، وكان مصدر الأخبار هو عادة مراسلات الأمير عبد المالك ، زعيم الثورة في المغرب الأقصى ، وأخيه الأمير علي . وهناك مصدر آخر هام للأخبار . وهو الوكالة الألمانية « وولف » . ومنذ سنة 1915 أسست « لجنة الإتحاد والتقدم » العثمانية منظمة في جنيف لكي تنشر الدعاية وتخطط لثورة في أفريقية الشمالية . ولا شك أن لجنتي استقلال أفريقية الشمالية في جنيف وبرلين كانتا على اتصال وثيق بلجنة الإتحاد والتقدم . وبناء على ما تقوله بعض المصادر الفرنسية ، فان لجنة الإتحاد والتقدم قد حاولت أن تؤثر على سلطان المغرب الأقصى المخلوع ، مولاي حفيظ ، الذي كان عندئذ في برشلونة ، لكي يقود أو يمنح تأييده لثورة عامة في أفريقية الشمالية[19] .

---

(18) نوشي ، ص 26 .

(19) نفس المصدر ، ص 27 .

وعند التأمل العميق تظهر الدعاية الألمانية ـ العثمانية في أفريقية الشمالية عموماً ، وفي الجزائر خصوصاً ، سطحية . فالوثائق الموجودة لا تدل على أنه كان هناك أية خطة ثابتة ولا نتائج ايجابية جنيت . ان ألمانيا ، التي كانت تتمتع بسمعة عالية في أفريقية الشمالية منذ فاتح هذا القرن، بإعتبارها منافسة لفرنسا وعاطفة على آمال حركة الجامعة الإسلامية ، لم تستطع أن تنتج أية زعامة هامة في المنطقة . ورغم أن الفرنسيين قد عزوا تقريباً كل الإضطرابات في الجزائر ، إلى الدعاية الألمانية ، فإن حقيقة الأمر هي أن العمل الألماني لم يكن لا واضحاً ولا حاسماً .

لم يكن هناك أي التزام رسمي ألماني نحو الحركة الوطنية الجزائرية . أما على المستوى الشعبي ، فانه يبدو ان المستشرقين والاختصاصيين الألمان لم يكونوا يملكون أية فكرة واضحة عن الدور الذي يمكن أن تلعبه هذه الحركة . ونتيجة لذلك ، فان السمعة الألمانية ، التي كانت تحت هجومات دعائية قوية من فرنسا ، كانت على الجانب الضعيف بخصوص الجزائر . وهذا الأسقف أندرسون الأمريكي قد أخبر أحد محرري جريدة بريطانية بأنه لم « يجد أية علامة عطف نحو ألمانيا » من جانب الجزائريين[20] .

ونفس الشيء كان صحيحاً بالنسبة للدولة العثمانية . فلا اعلان الجهاد ولا النشاطات الدعائية العثمانية قد نجحت في خلق ثورة جزائرية لصالح الجامعة الاسلامية . حتى حرب العصابات والثورات المسلحة التي حدثت في الجزائر خلال الحرب كانت تحت علم الوطنية لا علم الجامعة الاسلامية . بالاضافة الى ذلك ، فانه يبدو أن العثمانيين كانوا قد اصطدموا بثورة العرب ضدهم في الشرق الأدنى . ونتيجة لذلك لم يكونوا متشجعين بحوادث أفريقية الشمالية أيضاً .

ويرجع جزء من فشل القوات المركزية في انتاج ثورة فعالة ضد فرنسا في الجزائر الى نشاطات الدعاية الفرنسية في المنطقة . فتحت علم « فرنسا الاسلامية » ، شنت فرنسا حملة حرب نفسية واسعة ضد ألمانيا وتركيا في الجزائر . دعنا الآن ندرس هذه الظاهرة .

---

(20) «النيويورك تايمس» (26 نوفمبر ، 1914) ، ص 3 .

2. فرنسا الاسلامية :

لكي تقاوم النشاطات العثمانية ـ الألمانية المعادية لها في الجزائر ، طورت فرنسا تكتيكها الخاص في الدعاية . فالسلطان كان ينعت للجزائريين بأنه دمية في الأيدي الألمانية ، وكانت تركيا (وليس الدولة العثمانية) تنعت لهم بعدوة الاسلام وعدوة العرب . وكان القيصر الألماني ينعت بسخرية باسم الحاج ويليام . وهو لقب خاص بالمسلم الذي حج الى مكة . أما ألمانيا فقد كانت توصف بالبربرية وبأنها عدوة للحضارة والانسانية .

وبالاضافة الى ذلك ، فان فرنسا قد بنت مساجد للجنود الجزائريين على الجبهة الأوروبية ، وبعثت اليهم بأئمة مسلمين ليؤموهم في الصلاة ، وليوجهوهم توجيهاً موالياً لفرنسا . أما على المسرح المحلي ، فان كل شيء قد سخر لتحويل أنظار الجزائريين من القوات المركزية الى فرنسا .

وهذه الحملة بدأت بضع سنوات قبل الحرب العالمية الأولى . وقد أشرنا من قبل الى النشاطات الفرنسية في الشرق الأدنى التي كانت تستهدف كسب بعض المهاجرين ذوي الشأن . فالفرنسيون غالباً ما لاموا برلين واسطنبول لعدم الاستقرار الجزائري خلال الفترة من 1900 الى 1914 . وبالاضافة الى صحافة الكولون ، كان للادارة الفرنسية في الجزائر جريدتان هما « الأخبار » و « المبشر » قصد تبليغ الأنباء الرسمية الى السكان .

وعندما وجد الفرنسيون أن هاتين الجريدتين غير كافيتين ، خلقوا ، سنة 1913 ، جريدة أخرى تحمل عنواناً يشير الى برنامجها هي « فرنسا الاسلامية » لمقاومة دعاية الجامعة الاسلامية ولتحضير الجزائريين لامكانية حدوث حرب أوروبية . وفي سنة 1914 خلقوا جريدة أخرى كان هدفها أيضاً دعائياً تحت اسم « أخبار الحرب » التي استمرت حتى سنة 1918 . فحين اندلعت الحرب كانت فرنسا قد أوجدت جهازاً كاملاً للدعاية لا لتقاوم دعاية العدو المضادة لفرنسا فقط ، ولكن للتبشير بارادة فرنسا الخيرة بين الجزائريين أيضاً .

وبعد اعلان الحرب ألقى الحاكم الفرنسي العام في الجزائر ، السيد لوتو ، بيانين منفصلين في 4 أوت ، 1914 ، وجههما الى السكان : أحدهما موجه الى الكولون ، والآخر موجه الى الجزائريين . وقد بدأ لوتو البيان الأول بقوله : « أيها

الجزائريون ! ان اللحظة الفاصلة قد حانت ! » أما في البيان الثاني فقد وجه خطابه الى « الأهالي المسلمين ! » ثم تابع خطابه اليهم قائلاً : ان ألمانيا قد هاجمت فرنسا لأنها كانت تغار من قوتها . ولكي يقنع مستمعيه استشهد لوتو بكلام نبيكم العظيم » الذي قال ان « الله لا يحب الخونة ! » وبناء على رأي الحاكم الفرنسي ، فان الألمان قد نسوا هذا الحديث الشريف عندما ظنوا أن الجزائريين سيخونون فرنسا . وكعلامة للثقة والتهديد أيضاً أخبر لوتو « الأهالي المسلمين » أنه كان متأكداً أن الخونة « لا يوجدون بينكم ! » ولكنه ، ذكرهم بأن فرنسا مصممة على حفظ « النظام والأمن . . فابقوا متعاونين معنا واخوانا لنا[21] » .

ان هذا لم يكن سوى بداية لاستغلال فرنسا للاسلام ضد ألمانيا والدولة العثمانية ، ولكسب ولاء الجزائريين . فبعد الهجوم البحري الألماني على الساحل الجزائري ، ألقى الحاكم العام خطبة قوية وجهها الى الجزائريين ، أخبرهم فيها « ان فخا قد نصب الى الاسلام ، ولكنكم ستكتشفونه بنظرتكم البعيدة وبولائكم المعتاد . وانكم سوف لا تخدعون بهذه المناورات الألمانية . وانكم سوف تضربون عرض الحائط بالاستفزازات النفاقية (لألمانيا ، والدولة العثمانية) التي تريد أن تستغل عواطفكم الدينية » . ثم سأل لوتو الجزائريين أن يكونوا مخلصين لفرنسا وأن « تتبعوا مثال اخوانكم في القاهرة ، والهند ، وأولئك الذين تحميهم روسيا » . وأخيراً طلب منهم أن يصلوا من أجل انتصار العدل وتحطيم ألمانيا[22] .

ان بيان لوتو واضح في أن الحاكم العام كان يستجدي الجزائريين أن يكونوا مخلصين لفرنسا في ذلك الوقت الصعب . ولهذا الهدف استنكر موقف ألمانيا والدولة العثمانية لاستغلال العواطف الدينية في اثارة الجزائريين ضد فرنسا . ولكن الحاكم العام ، الذي كان يمثل أعلى سلطة فرنسية في الجزائر ، كان هو نفسه يستغل

---

(21) أنظر « الجزائر » في «ا. ف.» (جانفي - فيفري ، 1915) ، ص 20 . وبناء على المعلومات التي لدينا ، ليس هناك تأكيد أن النبي محمد قد قال ذلك . ويبدو الحاكم العام قد اختلق هذا القول لأغراض سياسية .

(22) «لوطان» (6 نوفمبر ، 1914) ، ص 3 . أنظر أيضاً « الجزائر » في «ا. ف.» (جانفي - فيفري ، 1915) ص 21 .

العواطف الدينية ، لا في الاستشهاد بحديث النبي محمد فقط ، ولكن أيضاً في وصف ما قامت به ألمانيا من ضرب بعض المدن الجزائرية بأنه ضربة ضد الاسلام . وان هذه السياسة الفرنسية قد ظهرت بشكل أوضح فيما قاله لوتو عشية دخول الدولة العثمانية في الحرب.

ففي هذا البيان أعلن لوتو « للمسلمين الجزائريين » أن تركيا لم تعد قادرة على حماية الاسلام لأنها كانت تحت سلطة الألمان . وأخبرهم أن فرنسا تكره القيصر ، وأن ألمانيا أيضاً لا تقدر على حماية الاسلام . ومحاولة منه ثانية في خلط الدين بالدعاية ، ذكر الحاكم العام الجزائريين بأن : « اخوانكم المسلمين » في روسيا ، والهند ، ومصر ، كانوا ضد تركيا وألمانيا ، وانتهى لوتو بدعوة الجزائريين « أن يتبعوا مثالهم ».

ولكن أكثر ما كان يهم الفرنسيين هو وقف موجة الوطنية الجزائرية . ولذلك فإن كل الوسائل كانت قد استعملت للحط من قيمة القوات المركزية في أعين الجزائريين . وقد استغل الدين لهذا الغرض ليس فقط بواسطة المسؤولين الرسميين ، ولكن أيضاً بالحصول على فتاوي من بعض المرابطين المخلصين . وكانت الدعاية تصور فرنسا على أنها أمة قوية ليس في استطاعة لا ألمانيا ولا الدولة العثمانية أن تهزمها . كما كانت تصورها على أنها أمة اسلامية تعني بالدرجة الأولى بشؤون الإسلام والعالم الإسلامي . واتباعاً لهذا الخط ، أمل الفرنسيون أن يمنعوا أي ثورة وطنية في الجزائر . غير أن هذه الجهود قد فشلت.

حتى الكولون غيروا مناوراتهم نحو الجزائريين حين أصبح الخطر داهماً . ورغم أنهم كانوا ما زالوا يطالبون بالأمن والحماية من « قطاع الطرق » ، فإن الكولون قد فتحوا حملة « تآخ » بينهم وبين الجزائريين . وقد أعلن شيخ بلدية الجزائر العاصمة ، الفرنسي ، خلال الشهور الأولى للحرب أن : « هناك بيننا ، نحن الكولون ، وبين مسلمي أفريقيا الشمالية علاقات وثيقة كونتها أولاً تدريجياً وبتأكد المصالح المشتركة ، ثم ، منذ بداية الحرب ، أصبحت بيننا وبينهم أخوة مؤثرة خلقت في ميدان المعركة في وجه عدو مشترك »[23].

---

(23) «الوطان» (8 نوفمبر ، 1914) ، ص 2 .

ولا شك أن شيخ البلدية كان يعرف أن هذا التآخي لا يمكن أن يخلق بالكلمات ، فهو لم يقترح ، مثلاً ، ارضاء بعض المطالب الوطنية . ان الجزائريين كانوا على يقين من أنه ليس لهم « مصالح مشتركة » ولا « عدو مشترك » مع الكولون .

وكثيراً ما تبادل الفرنسيون والقوات المركزية المهاترات الصحفية بخصوص الجزائر . فمنذ سنة 1914 لام البروفيسور بيكر الصحافة الفرنسية على مغالطة الرأي العام حول سياسة ألمانيا الأسلامية . ومن جهة أخرى اتهم الكتاب والعملاء الفرنسيون، الألمان والعثمانيين بالكذب وتشويه الحقائق في الأخبار بأن الجزائر خصوصاً وأفريقيا الشمالية عموماً كانتا في حالة ثورة ضد فرنسا ، أو انهما كانتا غير مخلصتين لها . وقد كانت ثورة الأمير عبد المالك مثالاً لهذه المهاترات الصحفية . فعندما أخبرت الصحافة الألمانية ، في نهاية سنة 1914 ، ان الأمير عبد المالك قد ثار ضد فرنسا ، أجابت الصحافة الفرنسية بأن ذلك كله كان كذباً وأن الألمان كانوا ينشرون الدعاية من أجل الجامعة الاسلامية ، مشيرة إلى أن الأمير عبد المالك كان في الواقع ما زال في مركزه بطنجة[24] . وان كتابات بيرنار ، وديبارمي ، وميليا ، وغيرهم الذين تناولوا النشاطات الألمانية والعثمانية في الجزائر تظهر أنهم قد تولوا دور مقاومة دعاية العدو بين الجزائريين .

وبين فيفري ، 1915 ، وسبتمبر ، 1916 ، جاءت فرنسا بحوالي 6000 سجين ألماني إلى المغرب الأقصى و 3000 إلى الجزائر لكي تثير الرعب في قلوب أهل المغرب العربي . ولا شك أن الفرنسيين حاولوا أن يشكلوا « مظاهرة » من حضور مساجينهم بين الجزائريين . وقد كانت هذه المظاهرة بالنسبة لرجل الشارع الجزائري تجعل فرنسا تظهر قوية لأنها استطاعت أن تلقي القبض على أعدائها . وهكذا فإن الفرنسيين ، الذين كانوا يبثون بين الجزائريين فكرة القدرية ، قد وجدوا في هؤلاء المساجين سلاحاً نفسياً قوياً لكي يقنعوا الجزائريين أن ثورة وطنية ضد فرنسا ستكون غير ممكنة .

وعلى أية حال ، فإن هذه المظاهرة النفسية لم تنته إلا عندما بعثت ألمانيا 30,000 سجين فرنسي إلى معسكرات انتقامية . ونتيجة لذلك أعادت فرنسا

---

(24) «لوطان» (28 ديسمبر ، 1914) . ونفس المهاترة وقعت بخصوص موقف الأمير خالد .

المساجين الألمان إلى أوروبا[25] . وقد فشلت هذه المناورة، كأكثر النشاطات الدعائية الفرنسية ، في تحقيق هدفها ، لأن سنة 1916 قد شهدت كما سبقت الاشارة ، ثورتين كبيرتين في الجزائر ، بالإضافة إلى نشاط ثوار حرب العصابات المستمر.

وبعد ثورة الأوراس سنة 1916 عمدت فرنسا إلى طريقتين: عمليات التنظيف التي وصفناها سابقاً ، ودعاية قوية للاصلاح . فبعد أن أخبر الحاكم العام ، لوتو ، عن الاجراءات العسكرية التي اتخذها لقمع الثورة ، أعلن أنه سيصلح أحوال اقليم الأوراس ببرنامج سياحي وتربوي . وقد برر عمله بالنقاط التالية :

1 ـ ان ذلك الاقليم كان مهملاً من فرنسا.

2 ـ ان ألمانيا قد اختارته لتفجير ثورة عامة.

3 ـ أنه لم يحتل من قبل أية أمة.

وكان الحاكم العام يأمل أنه بتنفيذ برنامج سيقضي على الدعاية الألمانية التي تقول أن منطقة الأوراس « ليست تحت السلطة الفرنسية »[26] .

ان هدف تصريح لوتو كان تضليل الوطنيين الجزائريين ومقاومة الدعاية الألمانية . ولكن لوتو لم يبرهن على أن ألمانيا قد اختارت ذلك الاقليم لتفجير ثورة عامة ضد فرنسا . ويشير ديبون ، الذي درس ثورة الأوراس بعناية، الى أنه لم يجد دليلاً على تدخل ألمانيا مباشرة فيه . وكل ما أشار إليه الحاكم العام هو أن الألمان كانوا يعرفون أن ثورة 1879 قد حدثت في تلك المنطقة[27] . ولكن هذا ليس دليلاً على وجود تدخل خارجي .

---

(25) بيرنار ، « أفريقية الشمالية » ، ص 8 .

(26) « الجزائر » في «ا.ف.» (أبريل ، 1917) ، ص 147 ـ 148 . والسبب في تسمية هذا البرنامج بالدعاية هو أن لوتو لم يذكر كيف سيطبقه . وبالاضافة الى ذلك ، فنحن نعرف أن الحياة الاقتصادية في المنطقة كانت قد توقفت من 1916 الى 1917 نتيجة للعمليات التالية لثورة 1916 ، وأن السياحة لم تكن عملاً مشاعاً كثيراً أو كلمة شعبية في ذلك الوقت من الحرب ، وأن اقليم أوراس كان قد وضع تحت الحكم العسكري ، بالاضافة الى قانون حالة الطوارىء الذي أعلنه نفس الحاكم العام . فأي نوع من السياحة والتربية ، اذن ، كان لوتو يعنيه ؟

(27) نفس المصدر .

من بين الوسائل التي استعملتها فرنسا لكي تحصل على المجندين الجزائريين اللجوء إلى استعمال الموسيقى، والولائم، ونحو ذلك. ففي نهاية سنة 1915 أصدر قائد الجيش الفرنسي في الجزائر منشوراً يوصي فيه بالتجنيد بطريقة مغرية للجزائريين. وسرعان ما وجد المسؤولون العسكريون بعض هذه المغريات. وهكذا فإن فقراء الجزائريين المدقعين قد عرضت عليهم ولائم وفيرة. وسارت أمام الفلاحين الجهلة والمعزولين «طوابير عسكرية» تعزف الموسيقى وتضرب الدفوف لتلفت أنظارهم. وكانت الحلويات والمشويات، وأطباق الكسكسي معروضة على كل من يريد أن ينضم إلى الطابور. بل ان بعض الفرق العسكرية الفرنسية قد شاركت في «الاستعراض» الذي كان يضم راقصين وموسيقيين لاغراء الجزائريين وللبرهنة على كرم فرنسا[28]. وبهذه الوسائل كان الفرنسيون يأملون في تحويل أنظار الجزائريين عن الدعاية المعادية لفرنسا، وفي جذبهم للخدمة في الجيش الفرنسي.

ولكي تقاوم الدعاية الألمانية بين الجنود الجزائريين، حاولت فرنسا أن ترضي بعض الحاجات الاجتماعية لهؤلاء الجنود. وقد أشرنا قبل إلى أن ألمانيا قد شيدت مسجداً، وأعدت طعاماً خاصاً، ونظمت برنامجاً توجيهياً للجنود والمساجين والهاربين الجزائريين. وقد فعلت فرنسا أشياء مشابهة. ففي جانفي، 1916، رأت أن تبني مسجداً في (نوجون ـ سير ـ مارن) للصلاة واستقبال الجنود الجزائريين الجرحى في أوروبا[29].

وبناء على توصيات الحاكم العام في الجزائر، عين وزير الحربية الفرنسي، سنة 1915، ثلاثة أئمة ملحقين بالجنود الجزائريين على الجبهة الأوروبية[30]. ولما كان هؤلاء الأئمة من خريجي المدارس الفرنسية ـ الجزائرية،

---

(28) أنظر سينيوري، «ر.ب.ب.»، م 98 (1919)، ص 289.

(29) فيكتور ديمونتي، «الجزائر خلال 18 شهراً من الحرب» في «س.ج.ا.»، م 2. (1915)، ص 37.

(30) «النيويورك تايمس» (3 جويليه، 1915)، ص 2. اسمان لهؤلاء الأئمة معروفان وهما: بومزراق المقراني، وقطرانجي عبد الرحمن. أما الثالث فغير معروف. وقد كتب المقراني وقطرانجي كتاباً بعنوان «القول الناصح في مجادلة المائن الكاشح» في الرد باسم فرنسا على رسالة ظهرت في اسطانبول بعنوان (المسلمون في الجيش الفرنسي).

فإنه من الممكن أن يدّعي الباحث أنهم كانوا قد اختيروا بعناية لكي يقوموا لا بأداء الصلاة فقط ، ولكن أيضاً بالدعاية لصالح فرنسا بين اخوانهم في الدين ، لذلك فانهم عندما سئلوا عن انطباعهم ، بعد أن زاروا الجنود الجزائريين في المستشفيات ، صرح هؤلاء الأئمة الموالون لفرنسا بأن كل الجزائريين كانوا مستعدين أن يجودوا بدمائهم من أجل فرنسا(31).

وقد كان رد الفعل الجزائري على هذه الدعاية الفرنسية الدينية حاضراً . فقد سخروا ، من خلال الأدب الشعبي ، وسيلة التعبير غير المباشر والغامض ، من الطريق الفرنسية . وفي « أغنية العصر » ، كما يسميها ديبارمي ، يقرأ المرء ما يلي : « ان الفرنسيين ، أصدقاءنا ، قد بنوا المستشفيات في مساجدنا . تعال واشهد هذه النكبة »(32) . لقد كان الجزائريون يعرفون أن فرنسا لم تكن تعمل من أجل مصالحهم ، ولكن من أجل مصالحها هي . فهم لم يفهموا كيف يستعمل المسجد ، الذي هو مكان للعبادة ، كمستشفى لمعالجة الجنود الجرحى . ولعل رد الفعل المذكور يعكس أيضاً وقع أحوال الحرب على الجزائريين.

وفي نفس الوقت قرر المجلس الوطني الفرنسي ، « بدون مناقشة » ، أن تبني فرنسا داراً للاستقبال في مكة للحجاج الجزائريين . وكان اسمها الرسمي هو « دار الضيوف » . وقد أوضح الفرنسيون أن الهدف منها « حماية » الجزائريين من « دعاية العملاء الألمان والأتراك »(33) . ولكن ليس لدينا برهان على أن هذه الدار كانت قد بنيت تحت سلطة العثمانيين . ويبدو من المشكوك فيه السماح لفرنسا ببناء دار من هذا النوع في تلك الظروف . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن فرنسا ، خوفاً من تأثير فكرة الجامعة الاسلامية والدعاية المضادة للفرنسيين ، لم تأذن للجزائريين خلال سنة 1915 ، أن يقوموا بحجهم السنوي الى مكة . ولم تسمح لهم بالحج إلا بعد ثورة الشريف حسين ، سنة 1916(34).

---

(31) نص عليه نفس المصدر .

(32) ديبارمي ، « أغنية الجزائر » في « ر.ا.» ، م 83 (1932) ، ص 79 . والجملتان مترجمتان من النص العربي .

(33) ديمونتي ، « الجزائر خلال ... الحرب » في «س. ج.ا.» ، م 20 (1915) ، ص 37 ـ 38 .

(34) « الحج الى مكة » في «ا.ف.» (أوت ـ سبتمبر ، 1916) ، ص 321 .

وخلال سنة 1916 لم تسمح فرنسا للجزائريين بالحج فقط ، ولكنها بعثت أيضاً بعثة ديبلوماسية دعائية إلى الشريف حسين . وكان هدفها كسب عطف التأييد العربي ضد الدولة العثمانية ، ونتيجة لذلك التأثير على عواطف الجزائريين نحو السلطان ، الذي كان ما زال في نظرهم زعيم الخلافة الاسلامية . أما الآن فقد شعرت فرنسا بالأمن على الحجاج الجزائريين ، لأن الثورة العربية سنة 1916 قد طردت « العملاء الألمان والأتراك » من مكة .

ورغم مظهرها الدعائي ، فإن هذه البعثة لم تضم سوى 650 حاجاً من أفريقيا الشمالية ، الذين كانوا قد اختيروا من بين الأشخاص المعروفين محلياً ، ولا سيما كبار الأعيان . وقد حملتهم سفينة إلى ميناء جدة . أما الباقون فقد كان عليهم أن يذهبوا عن طريق البر .وكانت البعثة قد أعطيت التعليمات ، وهي أن تعبر للشريف حسين عن سرور الفرنسيين لتحقيق « الاستقلال الكامل للأماكن المقدسة » . كما حملت هذه البعثة الدعائية والديبلوماسية الهدايا إلى الشريف حسين ، باسم الحكومة الفرنسية[35] .

وعندما كانت البعثة مستعدة للرحيل إلى مكة ، خطب لوتو أمام الحجاج الجزائريين ، فخاطبهم « بجزائريينا » ، ثم تعجب ، بطريقة فرنسية ، « يا له من مجمع لا مثيل له أمامنا! » لقد كان يشير إلى الطريقة التي كانوا قد اختيروا بها ، لأنهم قد ضموا المحافظين المخلصين بعمائمهم ، وجماعة النخبة بطرابيشهم . ثم أطرى لوتو مستمعيه باعلامهم أن فرنسا مدينة بانتصارها إليهم ، لأنهم لم ينصتوا إلى النداء الألماني بخيانتها . ولكن الحاكم العام قد أنذر الحجاج ضد عملاء « العدو » و « أكاذيبهم » . وقد نصحهم بأنهم إذا ما لقوا هؤلاء العملاء ، الذين سيواجهونهم « بالأكاذيب » ضد فرنسا ، فليكن جوابهم « لتحيى فرنسا » التي « أصبحت بلادنا الخالدة التي لا تقهر ! »[36] .

وبينما كان لوتو يلقي خطبته « التهذيبية » على الجزائريين المختارين بعناية ،

---

(35) نفس المصدر .

(36) نفس المصدر .

كانت ثورة الهقار في تقدمها ، كما انفجرت ثورة الأوراس بعد عدة أسابيع فقط . وقد تكلم أيضاً إلى « أشعة النخبة الأدبية والعقلية لأهالينا » (الجزائريين)[37] . ولا شك أن هذه البعثة الفرنسية قد فشلت لأن جماعة النخبة لم يعرفوا لا العربية ولا كيف يؤدون طقوس الحج .

في سنة 1934 حكى المؤرخ الفرنسي غوتيي ، المعروف بآرائه الإستعمارية ، قصة هامة حدثت عام 1917 ، بخصوص بعثة فرنسية أخرى إلى مكة . كان غوتيي يتحدث عن البورجوازية الجزائرية ، التي كانت تجهل العربية ، التي قال عنها أنها قد أصبحت بالنسبة إلى البورجوازية ليست لغة ، ولكن لهجة (باتوا) فقط . ويضيف غوتيي أن بلاده قد أرادت ، سنة (1917) ، أن تبرهن عن إرادتها الخيرة واهتمامها بالجزائر إلى العالم الخارجي ، ولا سيما إلى عرب الشرق الأدنى . لذلك اختارت ديبلوماسياً جزائرياً ، لا فرنسياً ، لكي يمثلها لدى الشريف حسين . وبناء على رأي غوتيي ، فإن هذا الجزائري هو الكولونيل قاضي ، خريج مدرسة الصنائع والفنون (بوليتيكنيك) الفرنسية في الجزائر . ولكن غوتيي قد اعترفَ بأن بعثة الكولونيل قاضي قد فشلت لأن هذا لم يكن يعرف العربية . وهكذا لم تثمر الدعاية التي كانت مرجوة منه[38] .

إن رسالة « فرنسنا الإسلامية » كانت أبعد ما تكون عن النجاح . لقد فشلت في منع الجزائريين من الثورة ، وفشلت أيضاً في تحسين صورة الفرنسيين في الخارج ، ولا سيما في العالم العربي . ولكنها نجحت ، بشكل محدود ، في مقاومة الدعاية الألمانية والعثمانية في الجزائر . ورغم المقاومة ، فقد احتفظت فرنسا بالجزائر داخل فلكها ، باستعمال الضغط من ناحية ، والإغراء من ناحية أخرى . فالجزائر سنة 1919 لم تكن مثل بولندا ، أو تشيكوسلوفاكيا ، ولا حتى مصر أو سورية . لقد ظلت تحت نفوذ فرنسا « الفذ » ، فلا هي مستعمرة ولا هي إقليم .

وإذا تأمل الباحث في الوضع من بعيد ، فإنه يجد أن الجزائريين قد كسبوا

(37) نفس المصدر .

(38) أنظر ا. ف. غـويتي ، « أخطار على أفريقية » في «ر.ب.» ، (1 سبتمبر ، 1934) ، ص 44 - 45 .

تأييداً قليلاً من الخارج أثناء الحرب . ولكن كانت هناك نتائج إيجابية أيضاً . فالمقاومة السياسية العاطفية ، بالإضافة إلى الثورات المسلحة وحرب العصابات كانت كلها خطراً دائماً على فرنسا ، ولكي تهدىء الجزائريين ، حاولت فرنسا أن تقوم ببعض الإصلاحات خلال الحرب ، ثم توجتها بقانون سنة 1919 .

3. ذر الرماد في العيون :

تعليقاً على الإصلاحات الفرنسية في الجزائر بعد الحرب ، كتب المؤرخ الإنكليزي ، أرنولد توينبي قائلاً : إن هذه الإصلاحات قد جاءت نتيجة « للمبادرة الفرنسية » . . وليس لضغط (قامت به) أية حركة سياسية منظمة من جانب الأهالي (الجزائريين) . وأضاف توينبي أن فرنسا قد قررت تلك الإصلاحات لكي تظهر « اعترافها بالجميل » للجزائريين(39) .

ولكن تعليق تؤينبي يحتاج إلى مراجعة على ضوء العلاقات الفرنسية الجزائرية خلال الحرب ، التي سبق لنا الحديث عنها . فالإصلاحات المسماة بقرار 4 و 6 فيفري ، 1919 ، كانت محطة نهائية لرحلة طويلة ابتدأت سنة 1914 . كما كانت نتيجة مباشرة لضغط كبير من الحركة الوطنية ، وهو الضغط الذي بدأ منذ الثمانينات من القرن الماضي .

وفي نفس الوقت كانت هناك ضغوط خارجية على الفرنسيين للإصلاح في الجزائر . من هذه الضغوط الدعاية الألمانية ـ العثمانية ، وثورة العرب في الشرق الأدنى ، والثورة البولشفية ، وانتصار الأقليات المضطهدة في أوروبا ، ووقع مبدأ تقرير المصير ، والأحوال العامة التي خلفتها الحرب . وعندما قامت فرنسا ببعض الإصلاحات المتواضعة في الجزائر ، كانت في الحقيقة تستجيب لكل تلك العوامل ولا سيما للضغط الوطني .

ويبدو أن توينبي قد غض النظر عن الدور الذي لعبته الحركة الوطنية الجزائرية قبل وأثناء الحرب . ولكن على المرء أن يعترف بأن الجزائر ، تحت حكم قانون

---

(39) أرنولد توينبي ، « مدخل الى الشؤون العالمية » ، 1925 ، م 1 (العالم الاسلامي) ، (لندن : طبعة جامعة أكسفورد ، 1927) ، ص 180 ـ 181 .

الأهالي ، ونظام الإحتجاز السري ، والمحاكم الرادعة ، وقانون حالة الطوارىء ، لا يمكن أن يكون لها « حركة سياسية منظمة » فكل منظمة سياسية جديرة بهذا الإسم لا توجد إلا في ظروف ديموقراطية ، أو على الأقل نصف ديموقراطية .

أما في الجزائر فإن هذه الظروف كانت غائبة تماماً تقريباً . فالجماهير قد عبرت عن نفسها في المثل : « هذا زمن الصمت ، فإذا تكلمت الباطل تعيش ، وإذا تكلمت الحق تموت » . وكان الزعماء إما هاجروا وإما طوردوا بنظام الإحتجاز السري ، وإما جندوا في الجيش الفرنسي ، وإما طهروا « بعمليات التنظيف » . فكيف إذن يتوقع المرء وجود « حركة سياسية منظمة » ، أو كيف يستطيع أن يقول ان فرنسا قد جاءت بالإصلاحات تحت « شعور الإعتراف بالجميل » ؟

وبالإضافة إلى ذلك ، فإنه يجب تتبع إصلاحات سنة 1919 في عهد ما قبل وأثناء الحرب . وقد أشرنا من قبل إلى مطالب الجزائريين وإلى وعود الفرنسيين بالإصلاح . ولكن ربط هذه المطالب ، والوعود ، ومشاريع ذر الرماد في العيون بقانون سنة 1919 يبدو ضرورياً . والسبب الرئيسي لإقامة هذا الربط هو الإشارة إلى أن فرنسا كانت ، في كل محاولاتها لإدخال الإصلاحات والتخطيط لها في الجزائر ، تستجيب فقط ، وعادة بعد فوات الأوان ، لضغط الحركة الوطنية الجزائرية[40] .

والحق أن الجزائريين قد بدأوا يطالبون بالإصلاح منذ الثمانينات من القرن الماضي . وقد قامت وفود مختلفة بين سنة 1900 و 1914 بتقديم قوائم من المطالب إلى السلطات الفرنسية في باريس . وكانت هذه المطالب تتضمن تخفيض الضرائب ، وإلغاء قانون الأهالي والمحاكم الرادعة ، وزيادة فعالية التمثيل النيابي ، وتحسين التعليم . ومن بين الزعماء الفرنسيين الذين استقبلوا الوفود الجزائرية خلال سنة 1900 و 1914 جورج كليمانصو ، وريمون بوانكاري . وكلاهما قد تقلد

(40) ان كلمة «الضغط» مستعملة هنا لتدل على أي حركة وطنية (مثلاً : الاحتجاجات ، الثورات ، العرائض ، الوفود ، الحملات الصحفية ، الهجرة ، الخ) . كانت تنذر الفرنسيين باستمرار السخط ضدهم . وقد عبر الجزائريون على هذا الضغط أحياناً بواسطة حركة ايجابية ، ومطالب معينة للاصلاح ، ولكن عبروا عنه أحياناً أخرى بواسطة حركة سلبية كاللجوء الى الثورة ، والارهاب ، والهجرة فلو استعمل البروفيسور توينبي كلمة « الضغط » بدل « حركة سياسية منظمة » ، لوجد أن فرنسا كانت قد أرغمت ارغاماً على اصلاحات سنة 1919 .

مناصب هامة أثناء الفترة التي ندرسها (1914 ـ 1918) . وعندما بدأت الحرب كان بعض الجزائريين ما زال يطالب بالإصلاح من فرنسا ، وبعضهم كان قد إصطدم ، وخاب أمله ، فترك ميدان النشاط ، متوجهاً إما إلى الشرق الأدنى أو إلى فرنسا كمهاجر ، وإما إلى الجبال كثائر . وقد كان النوع الأخير ، كما سبقت الإشارة ، مصدر خطر جعل الفرنسيين يعيشون تحت شبح رعب دائم فترة الحرب .

وأكثر من ذلك ، كان هناك بعض الليبراليين ، والإنسانيين ، والعاطفين على الجزائريين من الفرنسيين الذين كانوا يلحون من أجل الإصلاح في الجزائر خلال سنوات 1900 ـ 1914 . وكان من بين هؤلاء روزي ، وليغ ، وميللي ، وموتي ، وفيري ، وبورد ، وجوريس . وقد أنذر بعضهم بأنه إذا لم تقم فرنسا بإصلاحات فإنها قد تواجه إيرلندا في الجزائر ، أو فإن العنصر المقهور قد ينشد الحكم الذاتي السياسي ، أو أن على فرنسا أن تبقى على 300,000 رجل في الجزائر لكي تمنع الثورة في حالة حرب أوروبية . ومن بين الصحف والجمعيات الفرنسية التي نادت بالإصلاح واستنكرت القوانين الإستثنائية في الجزائر قبل الحرب : « لوطان » و« المجلة الأهلية » التي كان يديرها بول بورداري ، و« جمعية حقوق الإنسان » الخ(41) .

وفي نفس الوقت ، دفع المهاجرون الجزائريون ودعاية حركة الجامعة الإسلامية والدعاية الألمانية ، من سنة 1900 إلى 1914 ، فرنسا إلى الإصلاح في الجزائر . « فالحملة المسمومة » ، كما يسميها طيبال ، التي شنها المهاجرون الجزائريون ومؤيدوهم في الشرق الأدنى ضد فرنسا كان لها وقع كبير على الفرنسيين . كما أن الصحافة العربية ، والزوار ، ودعاة الجامعة الإسلامية ، بالإضافة إلى التطورات السياسية في الشرق الأدنى بعد ثورة تركيا الفتاة والحرب الليبية ، قد اقنعت فرنسا أن الوقت ناضج للإصلاح في الجزائر . وزيادة على ذلك ، فان النشاطات الألمانية المعادية لفرنسا في المغرب ، بل ، بناء على المصادر الفرنسية ، في الجزائر نفسها ، قد جعلت فرنسا تتيقن بأنه ليس لها طريق آخر للمحافظة على عنادها

---

(41) أنظر جوليان ، « أفريقية الشمالية » ، ص 33 ـ 34 . أنظر أيضاً روبير غوتيي « م.د. » (جانفي ، 1964) ، وليس هناك رقم للصفحة .

القديم[42] . فمن الواضح إذن أن فرنسا كانت قد دفعت دفعاً نحو الإصلاح في الجزائر بتيارات مختلفة ، بما في ذلك تيار الوطنية . فالقول بأنها قد جاءت بالإصلاحات تحت « شعور الإعتراف بالجميل » ، كما يقول توينبي ، هو قول يغض النظر عن كل هذه الضغوط التي حدثت قبل الحرب .

وبين سنوات 1914 ـ 1918 أقنعت الجزائر فرنسا أن الإحتفاظ بالحالة الراهنة فيها كان غير ممكن . ومن خلال الشغب السياسي الجزائري والمقاومة المسلحة تعلم بعض الفرنسيين أن عليهم أن يذروا الرماد في عيون الجزائريين وذلك بإجراء بعض الإصلاحات . ورغم أن الخطوات التي اتخذت في هذا الشأن لم تكن حاسمة ، فقد كانت هناك محاولات مختلفة أظهرت أن بعض الفرنسيين ذوي النظر البعيد لم يكونوا غير واعين تماماً لمشاكل الجزائر الراهنة .

وخلال سنة 1914 قامت فرنسا بعدة محاولات للاصلاح في الجزائر . ففي 13 جانفي صدر قرار يوسع دائرة القسم الانتخابي الجزائري[43] . وقد تحقق هذا بتوصيات الحاكم العام ووزير الداخلية . وبناء على هذا القرار ، فإن الحكومة الفرنسية قد عدلت قليلاً المادة السابعة من قانون سنة 1884 الخاص بتمثيل الجزائريين في البلدية ذات الصلاحيات الكاملة .

وقد نص القرار الجديد على زيادة عضوية الجزائريين في مجالس هذه البلديات ، على أن لا تتجاوز الزيادة ثلث كامل الأعضاء ، ولا عدد اثني عشر . وكان على المصوت الجزائري ، أن يكون عمره 25 سنة على الأقل ومقيماً باستمرار في بلديته لمدة ثلاث سنوات ، ومحققاً لواحد من الشروط التالية :
1 ـ أن يكون ملاكاً مقيماً في بلديته سنة على الأقل .

(42) بخصوص النشاطات الألمانية في الجزائر ، بالاضافة الى ما أشرنا اليه حتى الآن ، أنظر جان ميليا ، « الجزائر والحرب » (1914 ـ 1918) ، (باريس : بلون ، 1918) ، كما راجعته « ا. ف. » (جانفي ـ مارس ، 1918) ، ص 67 ـ 68 . وقد ناقش ميليا بالتفصيل نشاطات عملاء الألمان والجامعة الاسلامية في الجزائر قبل وخلال الحرب .

(43) بيرنار ، « أفريقية الشمالية » ، ص 78 . وقد قال المؤلف بأن هذا القانون « هام جداً » ، ولكنه لم يشرح رأيه .

2 ـ أن يكون موظفاً عند الدولة ، أو العمالة ، أو البلدية ، أو متقاعداً.
3 ـ أن يكون عضواً في الغرفة الزراعية أو التجارية .
4 ـ أن يكون حاملاً لشهادة ممنوحة له من معهد تربوي فرنسي .
5 ـ أن يكون حاصلاً على وسام فرنسي .
6 ـ أن يكون حاملاً لجائزة زراعية أو تجارية معدة خاصة للجزائريين(44).

ان نظرة قريبة إلى هذا « الاصلاح » ستظهر أن الفرنسيين لم يسيروا شوطاً بعيداً :

أولاً : انهم قبل ذلك بأقل من سنة ، قد جددوا قانون الأهالي لمدة سبع سنوات أخرى.

ثانياً : انهم بعد بضعة شهور فقط ، قد أعلنوا قانون حالة الطوارىء والرقابة نتيجة للحرب ووضعوا هذا « الاصلاح » جانباً.

ثالثاً : ان القرار المذكور كان صدمة عنيفة حتى لأعضاء النخبة الجزائريين الذين كانو سيقبلون سنة 1912 ، بالتجنيد الاجباري لو أن فرنسا منحتهم الحقوق السياسية.

رابعاً : ما دام كليمنصو قد وعد بالاصلاح سنة 1908 وبوانكاري سنة 1912 ، فإن قرار سنة 1914 كان استجابة للضغط الوطني وليس « شعوراً بالاعتراف بالجميل » من فرنسا.

خامساً : ان هذا القرار كان متواضعاً إلى درجة أنه لم يغير حالة التمثيل النيابي الضعيفة بالنسبة إلى الجزائريين في المجالس البلدية لا في العدد ولا في الفعالية . فقد كان على الجزائريين أن لا يكونوا أكثر من ثلث المجموع ولا أكثر من اثني عشر عضواً ، رغم أن عدد السكان كان تقريباً عشرة جزائريين إلى واحد فرنسي.

سادساً : ان القسم الانتخابي كان قد خصص لأولئك الجزائريين الذين برهنوا على ولائهم لفرنسا.

(44) أنظر ديمونتي ، « الجزائر » في «ا.ف.» (فيفري ، 1914) ، ص 93 . وقد أعلن هذا القانون الرئيس بوانكاري الذي استقبل ، سنة 1912 ، وفداً جزائرياً في باريس مطالباً ، بأشياء مختلفة ، من بينها تمثيل نيابي « جاد » .

سابعاً : ان هذا القرار لم يعط للجزائريين حق المساهمة في انتخاب رؤساء البلديات.

ثامناً : ان القرار قد حدد بالبلديات ذات الصلاحيات الكاملة حيث كان الكولون أغلبية.

تاسعاً : ان هذا الاصلاح لم يتناول الا قضية التمثيل النيابي التي لم تكن سوى واحدة من المطالب التي تقدم بها الوطنيون ، ولا سيما الضرائب ، والتعليم ، والتوزيع العادل للميزانية الخ.

ورغم هذه النقائص ، فإن قرار 13 جانفي 1914 قد أظهر أن بعض الفرنسيين كانوا على فهم للوضع وأنهم قد تأكدوا أن الحاجة إلى الاصلاح كانت ملحة.

وخلال نفس السنة ، وبتاريخ 15 جويليه ، خلق مجلس الشيوخ الفرنسي لجنة لدراسة الاصلاحات في الجزائر. فقد صوت هذا المجلس على لائحة أدت إلى خلق لجنة مكونة من ثمانية عشر عضواً . وكان هدفها البحث عن وسائل الاصلاح في الجزائر من « وجهة نظر ثلاثية ، سياسية ، وإدارية ، واقتصادية » . وكان على اللجنة أيضاً أن تقوم باتصالات مع الحكومة لامكانية الاصلاح على ضوء « الوضع الحاضر في الجزائر »(45).

وفي 15 من جويليه صوت المجلس الوطني الفرنسي على قرار عدل به بعض مظاهر قانون الأهالي . وينص هذا القرار على :

1 ـ إلغاء السلطة الادارية المعروفة باسم الاحتجاز السري وتعويضه ، بعد خمس سنوات ، بالمراقبة المشددة.

2 ـ استثناء بعض الجزائريين (أولئك الذين خدموا فرنسا في بعض المجالات) من قانون الأهالي.

3 ـ إعطاء حق المطالبة باستئناف الحكم للجزائريين الذين طبق عليهم هذا القانون(46).

والحق أن هذه التعديلات لم تحدث أي تغييرات أساسية في قانون الأهالي.

---

(45) «الجزائر» في «ا. ف» (أوت ـ ديسمبر ، 1914) ، ص 347 .

(46) نفس المصدر . أنظر نص هذا القانون في ص 345 ـ 347 . وقد أعلنه الرئيس بوانكاري أيضاً .

فهناك من القيود والشروط ما جعل من المستحيل على المعنيين أن يستفيدوا من هذه التعديلات . ان الغاء الاحتجاز السري لم يكن ليطبق في الحال ، ولكن بعد خمس سنوات ، يعوض بعدها بنظام المراقبة المشددة . وكان هذا يعني أن الاحتجاز السري سيغير اسمه فقط . وأكثر من ذلك ، أن قرار 15 جويليه 1914 لم يضع حداً للسلطة الاستثنائية المعطاة للاداريين الفرنسيين في البلديات المختلطة . أما الضرائب الخاصة بالجزائريين ، ونظام السخرة ، والمحاكم الرادعة فقد بقيت على حالها .

وكل ما يمكن أن يقال عن تعديلات سنة 1914 هو أنها كانت تعبر عن الحيرة الفرنسية ازاء الواقع الجزائري عشية الحرب . فنظراً إلى أن الحرب كانت على بعد عدة أيام فقط ، وأن الجزائريين كانوا يفرون إلى الجبال أو يغادرون وطنهم ، فإن الفرنسيين قد شعروا بأن عليهم أن يفعلوا شيئاً لذر الرماد في العيون ، حتى ولو كان ذلك لا يعني أي شيء في الحقيقة .

ولكن اهتمام الفرنسيين بالاصلاح في الجزائر قد ازداد سنة بعد أخرى . فكلما تضاعف ضغط الوطنيين الجزائريين ، تحركت فرنسا نحو الاصلاح . وخلال سنة 1915 ، حين قام الجزائريون بشغب سياسي ، وبحرب العصابات ، وبالفرار من الجيش الفرنسي ، شرعت فرنسا في دراسة مشاريع اصلاحية لهم في باريس ، بينما كانت تطبق ضدهم ، وبلا حدود ، قانون الأهالي في المستعمرة « الفذة » . وهناك بعض الفرنسيين العاطفين على الجزائريين ، الذين كانوا خصوصاً مهتمين بالحالة عبر البحر الأبيض المتوسط ، كانوا يضغطون على بلادهم من أجل الاصلاح ، أو ذر الرماد في العيون ، قبل فوات الأوان . ومن هؤلاء أسماء معروفة : كليمنصو ، وجونار ، وليغ ، وفلاندان ، وفيري ، الذين قاموا بهذه الحملة الاصلاحية من مقاعدهم النيابية(47) .

وفي 24 نوفمبر ، تشكلت لجنة جديدة في مجلس الشيوخ لدراسة المشكل الجزائري . وقد ترأس اللجنة السيد مونيس ، وكان نائبا رئيسها السيدين جونار

---

(47) ا . فيري ، الذي كان عندئذ كاتباً مساعداً للشؤون الخارجية ، قد حث على الشروع في الاصلاحات في الجزائر منذ 25 جانفي . أنظر توينبي ، « مدخل » (1937) ، م . ا ، ص 512 .

وموريل ، كما ضمت السيد فلانداد كمقرر لها . وقد شكرت اللجنة الكولون والمخلصين الجزائريين على « غيرتهم الوطنية » . وتعهدت بأن تدخل إلى الجزائر فكرة « العدالة والحرية » . وكان هذا اشارة إلى شكاوي الجزائريين من القوانين الاستثنائية ، ومن عدم تمتعهم بالحقوق السياسية ، وعدم المساواة في الضرائب ، وغياب الاستفادة من فوائد الميزانية . وقد وضعت اللجنة برنامجاً لدراسة المشكل الجزائري احتوى على نقاط تبدو معروفة منذ ما قبل الحرب ، وهي : قانون الأهالي ، والسياسة الاسلامية (السياسة الفرنسية في الجزائر) ، والقضاء الفرنسي ، والقضاء الاسلامي ، الخ(48).

وهناك خطوة أخرى في اتجاه ذر الرماد في العيون (الاصلاح) جاءت هذه المرة من مستوى عال . ففي 25 من نفس الشهر كتب كليمنصو ، الذي كان عندئذ رئيساً للجنة العلاقات الخارجية في مجلس النواب ، رسالة مشتركة إلى بريان ، رئيس الوزراء ، بخصوص الاصلاح في الجزائر ، ويبدو أن الزعماء الفرنسيين قد استيقظوا على أصوات حرب العصابات التي كانت تجري بين الجزائريين والجيش الفرنسي ، فأرادوا أن يقوموا بحركة ما . وهكذا ألح كل من كليمنصو وليغ على اصلاح « الوضع المعنوي ، والمادي » في الجزائر « بدون تأخير »(49).

وفي رسالتهما إلى بريان أوضح كليمنصو، الذي وعد الجزائريين بالإصلاح منذ سنة 1908، وليغ، الذي كان من قادة الفرنسيين العاطفين على الجزائريين، أنهما يريان : « الساعة الحاضرة هي أفضل ساعة » للاصلاحات في الجزائر ، وقد أخبرا رئيس الوزراء بأن هذه الاصلاحات كانت قد درست منذ عدة سنوات وأنها كانت « ناضجة » للتطبيق.

وقد أوصت رسالة كليمنصو وليغ بما يلي :

1 ـ تجنيس الجزائريين دون مطالبتهم بالتخلي عن أحوالهم الشخصية كمسلمين ، كما كان مشروطاً حتى ذلك الوقت بناء على قانون التجنيس (ساناتوس

---

(48) « الجزائر » في « ا . ف . » (أكتوبر ـ ديسمبر ، 1915) ، ص 330 ـ 331 .

(49) أنظر « الجزائر » في نفس المصدر ، (جانفي ـ فيفري ، 1916) ، ص 43 . ان نص هذه الرسالة ـ البرنامج في ص 43 ـ 44 . أنظر أيضاً نوشي ، ص 28 .

كونسولت) الصادر سنة 1865 .

2 ـ توسيع القسم الانتخابي الجزائري وضمان حرية التعبير.

3 ـ تمثيل الجزائريين في مجلس خاص ينشأ لهذا الغرض في باريس .

4 ـ تطبيق قواعد جديدة لتمثيل الجزائريين في المجالس المحلية ، ولتوزيع ومقارنة الميزانية .

5 ـ إعطاء الجزائريين حق المساهمة في انتخاب رؤساء المجالس في البلديات ذات الصلاحيات الكاملة .

6 ـ اصلاح الضريبة المعروفة باسم الضريبة العربية .

7 ـ اعطاء ضمانات جديدة لاحترام الممتلكات الجزائرية .

8 ـ تحديد سياسة ليبرالية واضحة تأخذ في الاعتبار عواطف الجزائريين ، ومصالح الفرنسيين[50] .

ان هذا البرنامج كان خطوة جديدة للسياسة الفرنسية في الجزائر . فقد اعترف لا بضرورة الاصلاح فقط ، بل احتوى على مواد متعددة كانت تعتبر في ذلك الوقت ليبرالية جداً أو متطرفة . ومن أجل ذلك ، فإن الفرنسيين لم يوافقوا على معظم النقط التي احتوى عليها برنامج سنة 1915 ، « أفضل ساعة » ، ولكن سنة 1944 ، عندما فات الأوان.

لقد حاول برنامج كليمنصو ـ ليغ أن يعدل قانون الجنسية لسنة 1865 ، الذي وضع الجزائريين في حالة رعايا . وحاول كذلك أن يزيد تمثيل الجزائريين ، بما في ذلك اسماع صوتهم في مجلس باريس المقترح ، وهي خطوة قصرت قليلاً عن التمثيل في المجلس الوطني الفرنسي ، التي طالما طالب بها النخبة الجزائريون . ونادى بنهاية الضريبة العربية الخاصة ، واحترام الممتلكات ، وحق الجزائريين في المشاركة في انتخاب رؤساء المجالس البلدية . ولكن الفرنسيين لم يبادروا باقتراح هذا البرنامج ، فإن نقاطه الرئيسية كانت هي مطالب الجزائريين من خلال عدد من الوفود ، والعرائض ، والاحتجاجات ، منذ الثمانينات من القرن الماضي .

وإذا كان برنامج كليمنصو ـ ليغ قد أرضى بعض أعضاء النخبة الجزائرية ، فإنه

---

(50) « الجزائر » في « ا. ف. » (جانفي ـ فيفري ، 1916) ، النص في ص 43 ـ 44 .

كان بعيداً عن إرضاء مطالب الوطنيين . إن أولئك الجزائريين الذين رفعوا السلاح ضد فرنسا في الجبال ، أو كانوا يستعملون الأدب الشعبي ، أو كانوا يحدثون الشعب ضدها في أوروبا وفي الشرق الأدنى لم يكن ليرضيهم أي برنامج لا ينص على جلاء الفرنسيين عن الجزائر . فقد عارضوا التجنيس والتجنيد الإجباري ، وطالبوا لا بتعديل قانون الأهالي وقانون التجنيس ، ولكن بإلغائهما تماماً . كان أولئك الجزائريون يريدون أن تحتفظ بلادهم بشخصيتها وثقافتها في وجه موجة الإندماج العارمة .

ورغم أن برنامج كليمنصو ـ ليغ كان خطوة صائبة ، فإنه فشل في التعرف الكامل على الواقع الجزائري. فهو لم يقدم أي حل بخصوص السلطات الإستثنائية المعطاة للإداريين المحليين ، ولا سيما سلطة الإحتجاز السري ومنع الجزائريين من حق إستئناف الأحكام أمام محاكم القانون العام . وقد أهمل أيضاً مشكلة التعليم . ولكن أهم حقيقة عن هذا البرنامج هي فشله في الإعتراف بالجنسية الجزائرية في وقت كانت فيه القومية ، في أوروبا وآسيا ، تمثل قوة كبيرة وراء الإضطرابات العالمية .

كان مؤلفا هذا البرنامج يأملان منه وقف أي محاولة من الجزائريين في إرغام فرنسا على الإعتراف بحقوقهم الوطنية . وإن المحتوى الدعائي لهذا البرنامج واضح من أنه قد شكر بكل كرم « الجنود الشجعان » الجزائريين الذين أراقوا دمائهم « ببطولة » من أجل « انتصار أشرف المبادىء على الإطلاق »[51] . إن هذا البرنامج كان قد كتب عندما كانت فرنسا في الجزائر « تنظف » وتطهر منازل وأقارب أولئك « الجنود الشجعان » ، بإسم شعار تطهير البلاد من « قطاع الطرق » .

فإذا كان في إستطاعة الإنسان أن يفسر هذه « المبادىء » بأنها كانت تعني الحرية والديموقراطية، فماذا إذن تلقى الجزائريون مقابل خدمتهم « لأشرف المبادىء على الإطلاق » ؟ إن الجواب على هذا يجده المرء في تناقضات السياسة الفرنسية . ذلك ان فرنسا نظرياً كانت تتحدث وتعد بالمشاريع الإصلاحية للجزائريين في باريس ، أما عملياً فقد كانت تقوم باضطهاد وعنصرية ضدهم في الجزائر .

وفي جوابه على رسالة كليمنصو وليغ قال رئيس الوزراء بريان، بأنه كان «على

---

(51) نفس المصدر .

اتفاق تام » معهما في الإقتراحات التي تضمنتها . وأضاف بأن لديه مشروعاً خاصاً فيما يتعلق بالتمثيل « المباشر » للجزائريين . ووعد زميليه بأن برنامجهما سيوضع أمام السلطات المعنية(52) . ويبدو أن بريان كان يعني بالتمثيل « المباشر » أن الجزائريين سيمثلون داخل المجلس الوطني الفرنسي أو في مجلس خاص ينشأ في باريس لهذا الغرض . وقد أيد هذا الرأي أيضاً جونار ، الحاكم العام السابق والمستقبل في الجزائر .

إن جونار ، الذي كان عندئذ عضواً في مجلس الشيوخ الفرنسي ونائب رئيس اللجنة الجديدة المنبثقة عن مجلس الشيوخ (24 نوفمبر ، 1915) لدراسة الأوضاع في الجزائر ، قد كان أيضاً في صالح إصلاحات عاجلة وليبرالية في الجزائر . ففي مقال له نشر في جريدة « بيتي جورنال » بعنوان « من أجل الجزائر » حث على أن الجزائر يجب أن تحتل مكاناً بارزاً في مجلس الشيوخ ووعد بأن اللجنة المنبثقة عنه ستبذل جهدها لتحقيق « سياسة أكثر تحرراً وأكثر ثقة » في الجزائر . ففي مقال له نشر في جريدة « بيتي جورنال » بعنوان « من أجل الجزائر » حث على أن الجزائر يجب أن تحتل مكاناً بارزاً في مجلس الشيوخ ووعد بأن اللجنة المنبثقة عنه ستبذل جهدها لتحقيق « سياسة أكثر تحرراً وأكثر ثقة » في الجزائر . وقد إستعمل عبارات مماثلة لعبارات كليمنصو وليغ ، بما في ذلك المناداة « بإصلاحات معنوية ومادية » لأن الجزائر قد قدمت آلافاً من المحاربين الأبطال من أجل « نصرة أشرف المبادىء على الإطلاق » واستعمل جونار تعبيراً مشابهاً عندما ألح على أن ذلك الوقت كان « أفضل ساعة » للبرهنة للجزائريين على « اعترافنا بالجميل » وعلى « إهتمامنا بهم »(53) .

أما بخصوص الحقوق المدنية والسياسية ، فإن جونار قد أوضح أنه يقف في صالح عمل جديد. فقد أيد دخول الجزائريين إلى الجنسية الفرنسية وحصولهم تدريجياً

(52) « الجزائر » في «أ. ف. » (جانفي - فيفري ، 1916) ص 43 - 44 . وبناء على قول توينبي فان بريان قد قدم لائحة الى المجلس الوطني (10 ديسمبر ، 1915) بخصوص زيادة عدد الأعضاء الجزائريين في اللجنة الوزارية المختلطة للشؤون الاسلامية (الجزائرية) ، أنظر رأيه في « مدخل » (1937) ، م 1 ، ص 513 .

(53) جونار ، « من أجل الجزائر » في «ا. ف. » (أكتوبر - ديسمبر ، 1915)، ص 267 - 268 .

على الحقوق السياسية . ولكن هذا الإصلاح ، بناء على رأيه ، لن يكون بلا حدود . فهو يرى أن الجزائريين لا يستطيعون أن يحققوا أملهم في التحرر الكامل إلا بالتوسع التدريجي لقسمهم الإنتخابي الخاص،وزيادة على ذلك أصر جونار على أن نظام القسمين الإنتخابيين « سيبقى منفصلاً » . وقد إقترح الحاكم العام السابق ، الذي سيعينه كليمنصو في جانفي 1918 في نفس المنصب من جديد ، تمثيل الجزائريين في المجالس المحلية وفي المجلس الأعلى المقترح بباريس . كما كان في صالح مشاركة الجزائريين في القرارات الخاصة بالميزانية . وفي نفس الوقت إقترح جونار ، مثل زملائه ، إلغاء الضريبة العربية المعروفة ، وإحترام الأملاك الجزائرية(54).

ورغم تفهمهم ورأيهم الشجاع ، فإن هؤلاء الزعماء الفرنسيين لم ينجحوا في تنفيذ برنامجهم . فقد فشلوا في تطبيقه « باستعجال » ، حسب تعبير جونار ، أو « بدون تأخير » ، بناء على إقتراح كليمنصو وليغ . وأمام خصومة الجزائريين المستمرة وحرب العصابات التي كانوا يمارسونها ، فإن هذا الفشل سيكون له عواقب خطيرة بالنسبة للفرنسيين . فالسخط الجزائري الذي عبر عن نفسه سنة 1916 قد أقنع ، بلا شك ، أولئك الزعماء الفرنسيين أنهم كانوا على حق عندما نادوا ببعض الإصلاح ، أو ذر الرماد في العيون ، سنة 1915 ، « بدون تأخير » .

ولكن ما يبدو ، حتى الآن ، غير قابل للتفسير ، هو موقف كليمنصو شخصياً نحو هذا المشكل . فعندما كان خارج الحكم ، سنة 1915 ، حث بريان باعتباره رئيساً للحكومة ، على تطبيق إصلاحاته « الناضجة » في الجزائر حالاً ، لكن حين أخذ السلطة بين يديه ، لم يؤخر فقط إصلاحاته ، ولكن فشل أيضاً في جعلها « ليبرالية » كما كانت سنة 1915 . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الجزائر قد عانت ، تحت حكومة كليمنصو ، من إضطهاد لم تشهد مثله منذ السبعينات من القرن الماضي .

وإذا كانت سنة 1915 قد شهدت عدة محاولات للإصلاح ، أو لذر الرماد في العيون ، في باريس ، فإن سنة 1916 قد شهدت قمعاً شديداً في الجزائر . فتحت الحكومة التي أصبح يرأسها كليمنصو، وتحت لوتو كممثل له في الجزائر ، إستعمل

(54) نفس المصدر .

الفرنسيون عنفاً شديداً ضد الجزائريين . ففي إجراءاتهم ضد الثوار وضد المناطق المعنية لم يظهر الفرنسيون أي شعور « بالإعتراف بالجميل » إلى « الجنود الشجعان » الجزائريين الذين كانوا من المفروض يحاربون من أجل أشرف جميع المبادىء ، بل إن الفرنسيين قد تخلوا حتى عن إقتناعهم بأن إصلاحات ليبرالية كانت ضرورية ومستعجلة . وقد أشرنا إلى أن الحكومة الفرنسية ، بعد ثورة الأوراس في خريف 1916 ، قد بعثت بلجنة تحقيق إلى الجزائر . وقد حاولت هذه اللجنة ، التي كانت تضم عدداً من النواب الفرنسيين ، أن تضع حداً لعمليات « التنظيف » العسكرية ، ولكن ما كادت تعود إلى باريس حتى استأنفت السلطات الفرنسية في الجزائر تلك العمليات .

ولكن اللجنة المذكورة قد أوصت في تقريرها أيضاً بإصلاحات « عاجلة » . وتشمل هذه الإصلاحات النقط الآتية :

1 ـ دمج الجزائر في فرنسا مالياً .
2 ـ إلغاء المحاكم الرادعة .
3 ـ إعادة العمل بنظام « الجماعة » في القرى .
4 ـ انتخاب « بدل تعيين » الممثلين الجزائريين ، ومشاركتهم في انتخاب رؤساء المجالس البلدية[55] .

والحق أن هذه الإقتراحات كانت أكثر واقعية من إقتراحات كليمنصو وزملائه . وقد لاحظ أعضاء اللجنة عياناً مصادر الإضطراب في الجزائر وأوصوا بإزالة أسبابها . وبينما كان كليمنصو يحاول ببرنامجه أن يدخل بعض الإصلاحات الجديدة لذر الرماد في العيون ، كان تقرير اللجنة يحاول أولاً وضع حد لأسباب مظالم الجزائريين .

غير أن إقتراحات اللجنة ، مثل برنامج كليمنصو ، لم تنفذ أبداً أثناء الحرب . وقد أشرنا إلى أن الدعاية الفرنسية قد إستمرت في نسبة كل الإضطرابات في الجزائر إلى عملاء « من الخارج » ، ولا سيما الألمان وأنصار حركة الجامعة الإسلامية . وقد واصلت السلطات العسكرية الفرنسية في الجزائر عملياتها التنظيفية ومحاكماتها « الصورية » طيلة سنة 1917 ، حتى لقد شعر الجنود أنفسهم بأنهم قد تجاوزوا

(55) أجرون ، « سياسة ليبرالية جزائرية » في «ر. هـ .م .ك .» (1959) ، ص 139 .

الحدود . وفي بعض المناطق تعطلت الحياة الإقتصادية مدة سنة على الأقل .

ومن الطبيعي أن يعترف المرء بالصعوبات التي كانت تواجه الفرنسيين لتحقيق التنسيق بين الشؤون السياسية والعسكرية زمن الحرب ، ولكن هذه الحقيقة يجب أن لا تحول نظر الباحث عن النقطة الأساسية المدروسة : وهي رد الفعل الفرنسي على الحركة الوطنية الجزائرية . وهكذا ، فإنه حتى سنة 1918 دفن الفرنسيون المناداة بإصلاحات عاجلة في الجزائر ، وانتصروا لفكرة الإضطهاد مكانها . وكان على الحركة الوطنية الجزائرية أن تعاني ، بين سنوات 1916 ، 1918 ، إمتحاناً آخر قاسياً تحت الحكم الفرنسي .

وفي 30 جانفي ، سنة 1918 عين جونار من جديد حاكماً عاماً على الجزائر ، وفي نفس التاريخ أعلن كليمنصو أن وزارته قد قررت أن تضع موضع التنفيذ ، و « بدون تأخير جديد » ، وعد الشرف الذي كان قد أعطى للجزائريين[56] . وقد كرر جونار أيضاً نفس الوعود التي كان قد وعد بها بالجزائر ، منذ سنة 1915 . والحق أن إدارته قد جعلت المجلس المالي يصوت على لائحة يلغي بها الضريبة العربية البغيضة[57] .

وخلال نفس السنة (1918) قدمت الحكومة الفرنسية إلى المجلس الوطني مشروعاً بخصوص الإصلاحات في الجزائر . ففي أول ماي صاغ النائب ماريس موتي هذا المشروع في شكل قانون يتعلق بالحقوق المدنية والسياسية للجزائريين . وقد كان مشروعه في الواقع مبنياً على إقتراحات كليمنصو ، وليغ ، وجونار ، التي تقدموا بها سنة 1915 .

وبعد بعض التعديلات أصبح مشروع موتي قانوناً سنة 1919 . وسوف ندرس هذا القانون في قسم منفصل . غير أن كلا من الوطنيين الجزائريين والكولون لم يرضوا بمشروع موتي . فقد عارضه الأولون لأنه تجاهل وجود الجنسية الجزائرية . وفي (مجلة المغرب) (3 ـ 4 مارس ـ أبريل ، 1918) الصادرة بجنيف ، إحتج الجزائريون على المشروع لأنه لم يكن في مستوى المساهمة الكبيرة التي قدمها

---

(56) توينبي ، « مدخل » (1937) ، م1 ، 513 .

(57) « الجزائر » « ا. ف. » (جويليه ـ أوت ، 1918) ، ص 227 .

الجزائريون لقضية الحلفاء[58] . وخلال نفس السنة شاركوا المغاربة الآخرين في إرسال مذكرة إلى الرئيس ويلسون مطالبين بتطبيق مبادىء تقرير المصير على شمال أفريقيا .

وفي نفس الوقت عارض الكولون المشروع بكل شدة. فقد وجهوا ضده حملة عنيفة في صحافتهم بواسطة ممثليهم في المجلس الوطني الفرنسي . كانوا يخشون أن يصبح الجزائريون أغلبية في المجالس المحلية ، فيخسرون به إمتيازاتهم . كما أنهم كانوا متخوفين من أن المشروع سيعني في النهاية الإعتراف بجنسية جزائرية . وقد هددوا بأنهم إذا لم يكن في إستطاعة فرنسا أن تحميهم ، فإنهم سيتبعون طريقهم الخاص في الجزائر[59] . وسوف يظهرون عداوة أكثر وضوحاً بعد سنة 1919 حين وافق المجلس الوطني الفرنسي رسمياً على بعض الإصلاحات الخاصة بالجزائر .

وبين سنوات 1914 ـ 1918 كان هناك إتجاه واقعي في فرنسا قاد إلى عدة محاولات للإصلاح في الجزائر . وإيماناً بوعودهم غير المحققة قبل الحرب ، وتفطناً منهم لإزدياد الحالة سوءاً في الجزائر خلال الحرب ، كان بعض الزعماء الفرنسيين يخشون خطر الإنفجار هناك في أي وقت . ولذلك قاموا بعدة خطوات في الإتجاه الصحيح لإيجاد حل للمشكل الجزائري .

ولكن محاولاتهم لم تحقق أهدافها . فقد كان ينقص أولئك الزعماء إتخاذ القرار السريع والفهم الكامل للقضايا المطروحة . وبدل أن تشجع ثورة 1917 أولئك الزعماء على وضع برنامجهم موضع التنفيذ ، « بدون تأخير » ، أدت بهم على ما يبدو ، إلى وضعه في ثلاجة . وقد شهدت سنة 1918 احياء لفكرة الإصلاح في الجزائر . فهناك مشروع حكومي وضع أمام المشرعين الذين وافقوا عليه أخيراً ، بعد مناقشات حادة ، في أوائل سنة 1919 . دعنا الآن ندرس هذا القانون ، الذي كان من بين أكثر القوانين إثارة للجدل في التاريخ الجزائري .

---

(58) أجرون ، « سياسة ليبرالية جزائرية » في «ر.م.ك.» (1959) ، ص 142 .
(59) نفس المصدر . أنظر أيضاً أرون ، ص 62 .

4. الاصلاحات غير المرغوب فيها :

كل من يدرس تاريخ الجزائر تحت فرنسا سيتفق على أن قانون فيفري ، سنة 1919 قد مثل حجر الزاوية في العلاقات بين البلدين ، فلأول مرة ، منذ قانون الجنسية (سانتوس كونسلت) في 14 جويلية ، سنة 1865 ، كان هناك مشروع يناقش ويحدد وضع الجزائريين بالنسبة الى الجنسية الفرنسية ، وحق الترشح والتصويت ، وغير ذلك من القضايا المتعلقة بالحقوق المدنية والسياسية . فبفضل نضال الحركة الوطنية الجزائرية وضغوط بعض الفرنسيين ذوي الضمائر الحية ، جاء قانون سنة 1919 أخيراً ببعض المبادىء الخاصة بالعلاقات الجديدة بين الشعبين.

ولكن المرء لا يستطيع أن يتفهم بوضوح مفعول هذا القانون إلا إذا ربطه بسابقه المسمى سانتوس كونسلت . فهذا الأخير قد ميز بين نوعين من الجزائريين : الرعايا ، وهم أولئك الذين حافظوا على حالتهم الشخصية كمسلمين وبقوا يعيشون بالقانون الاسلامي ، ومواطنون ، وهم أولئك الذين تخلوا عن حالتهم الشخصية ورضوا بالدخول تحت أحكام القانون الفرنسي . ولم يكن للجزائريين أصحاب القانون الأول أية حقوق مدنية وسياسية لأنهم كانوا رعايا ، أما الجزائريون أصحاب القسم الثاني فقد كانوا يتمتعون بكل الحقوق لأنهم كانوا مواطنين فرنسيين . ونظراً للشرط (التخلي عن الحالة الشخصية كمسلمين) المربوط بالحصول على الجنسية الفرنسية ، رفض الجزائريون أن يصبحوا مواطنين ورضوا بأن يبقوا رعايا . غير أنهم ، ولا سيما جماعة النخبة ، قد استمروا في مطالبتهم ، منذ أواخر القرن الماضي ، بالحقوق السياسية . ولكن قانون الجنسية ، 1865 ، قد منعهم من الحصول على ما كانوا يريدون . ومن الحقائق الهامة عن قانون سنة 1919 ، أنه أكد هذا الحاجز بين الجزائريين والفرنسيين.

يحمل أحد أقسام قانون ، 1919 ، عنوان : « عن كيفية حصول أهالي الجزائر على الجنسية الفرنسية » . وبناء عليه فإن الجزائري يستطيع أن يرقى الى حالة مواطن فرنسي عند طلبه واذا وفر الشروط التالية :

1 ـ كان عمره 25 سنة .

2 ـ كان غير متزوج .

3 ـ لم يكن قد حكم عليه بجريمة ، أو جرد من حقوقه السياسية[60] . أو كان قد اتهم بعمل ما ضد فرنسا.

4 ـ وأن يكون قد أقام في بلديته (الكومون) سنتين على الأقل .

ولكي يجعل من الصعب على الجزائري الحصول على الجنسية الفرنسية ، وضع أمامه القانون عقبات لا يمكن اجتيازها تقريباً . فإن عليه أن يوفر على الأقل شرطاً واحداً من الشروط الآتية :

1 ـ الخدمة في الجيش والبحرية الفرنسية مع شهادة حسن السلوك من سلطاته العسكرية .

2 ـ معرفة القراءة والكتابة باللغة الفرنسية .

3 ـ ملكية بعض الممتلكات في احدى المدن أو الأرياف .

4 ـ التوظف لدى السلطات الفرنسية أو قبض أجرة التقاعد منها .

5 ـ الانتخاب لشغل منصب عام .

6 ـ الحصول على وسام فرنسي .

7 ـ أو كان عمره 21 سنة ومولوداً لأب جزائري متجنس بالجنسية الفرنسية[61] .

وهناك قسم آخر في هذا القانون عنوانه : « النظام السياسي للأهالي الجزائريين المسلمين الذين ليسوا مواطنين فرنسيين » . وقد نص هذا على أن الجزائريين الذين لا يريدون أن يصبحوا مواطنين فرنسيين سيمثلهم في كل المجالس الاستشارية في الجزائر أعضاء منتخبون . كما نص على أن المستشارين الجزائريين في البلديات ذات الصلاحيات الكاملة سيكون لهم حق المشاركة في انتخاب رؤساء المجالس البلدية ومساعديهم . ومن جهة أخرى فإن الجزائريين الذين يعينهم الفرنسيون (القياد ، والأغوات ، والباشغوات . الخ) قد أصبحوا ممنوعين من تولي منصب انتخابي بالاضافة الى مركزهم المعين . وبناء على القانون الجديد ، فإن الرعايا

---

(60) يبدو أن هذا الشرط لا معنى له ، مادام لم يكن للجزائريين أية حقوق سياسية .

(61) أنظر بيرنار ، « أفريقية الشمالية » ، ص 97 ـ 98. النص الكامل للقانون في نفس المصدر، و «لوطان » (11 فيفري ، 1919) ، ص 2 . ونظراً الى أن هذا القانون لم يزد على تأكيد قانون 1865 ، فقد نص على أن الجزائريين قد يحصلون على الجنسية الفرنسية طبقاً للقانونين كليهما .

الجزائريين (الذين لم يتجنسوا بالجنسية الفرنسية) سيسمح لهم بتقلد بعض الوظائف تحت شروط محددة .

أما بخصوص قضية التمثيل النيابي ، فإن قانون 1919 ، لم يأت بأي تغيير هام . وكل ما نص عليه هو توسيع القسم الانتخابي الخاص بالأهالي بحيث أصبح عدد المنتخبين حوالي 400,000 بدل حوالي 15,000 . ونص على أن عدد الجزائريين في المجالس العمالية يجب أن لا يتجاوز ربع جملة الأعضاء في كل مجلس (أما الأرباع الثلاثة الأخرى فهي فرنسية) . أما المصوتون الجزائريون فقد اشترط فيهم أن يكون عمرهم أكثر من 21 سنة ، وأن لا يكونوا قد حكم ضدهم القانون الفرنسي ، وأن يكونوا قد أقاموا في بلدياتهم سنتين متواصلتين على الأقل .

وبالاضافة الى ذلك ، فإن قانون *1919* ، قد جعل من الضروري على المصوتين الجزائريين أن يحققوا أحد الشروط التالية :

1 ـ الخدمة في الجيش أو البحرية الفرنسية .
2 ـ حيازة الملكية .
3 ـ التوظف لدى الدولة أو العمالة أو البلدية أو تقاضي أجرة التقاعد من السلطات الفرنسية .
4 ـ الحصول على شهادة منحت له من أحد المعاهد الفرنسية .
5 ـ حمل وسام فرنسي .
6 ـ أو نيل جائزة من الفرنسيين .

وبناء على هذا القانون ، فإن القائمة الانتخابية الجزائرية ستضعها وتراجعها لجنة مكونة من رئيس البلدية أو المتصرف الاداري (حسب نوعية البلدية)، ومن مُوفَدٍ إداريٍّ يعينه عامل العمالة ، ومن جزائري يختاره المجلس البلدي (في البلديات ذات الصلاحيات الكاملة) أو تختاره اللجنة البلدية (في البلديات المختلطة)[62].

(62) بيرنار ، « أفريقية الشمالية » ، ص 102 . ان تاريخ هذا القانون هـو3 و7 فيفري ، 1919 . وفي سنة 1914 أعلن الفرنسيون اصلاحاً مشابهاً زاد من عدد المصوتين في الجزائر ، ولكن لم يوضع أبداً موضع التنفيذ ، ولعل ذلك كان بسبب الحرب .

والحق أن قانون ، 1919 ، كان غير ديموقراطي في الروح وفي الحرف . فقد أبقى على نظام القسمين الانتخابيين منفصلين : جزائري (أهلي) وفرنسي . فالأعضاء الجزائريون ، رغم أنهم يمثلون الأغلبية ، كانوا يمثلون بربع جملة الأعضاء . وبالاضافة الى ذلك ، فان الانتخاب في البلديات المختلطة كان بطريقة غير مباشرة بينما كان في البلديات ذات الصلاحيات الكاملة بطريقة مباشرة .

ومن جهة أخرى فإن هذا التصويت كان خاصاً بالعمالات الثلاث المدنية في الشمال . أما منطقة الجنوب ، التي كانت ما تزال تحت الحكم العسكري ، فإن هذا القانون لم يشملها . ثم أنه قد فرق بين الرعايا الفرنسيين (الجزائريين) وبين المواطنين (الفرنسيين) ، بنفس الطريقة التي فرق بينهم بها قانون الجنسية لسنة 1865 . وقد تجاهل الحركة الوطنية الجزائرية وأكد وضع الجزائر باعتبارها مستعمرة « فذة » . كما أنه فشل في وضع حد لقانون الأهالي وغيره من القوانين الاستثنائية . وأخيراً أهمل قضية التمثيل الجزائري في المجلس الوطني الفرنسي أو في مجلس خاص ينشأ في باريس حيث يستطيع الجزائريون أن يعبروا عن مطالبهم وأمانيهم ، وهو المطلب الذي طالما نادى به الجزائريون قبل الحرب واقترحه كليمانصو ، وليغ ، وجونار ، وغيرهم خلال الحرب[63] .

والواقع أنه كان لقانون 1919 ، محاسن وعيوب . فالمظاهر الايجابية فيه هي توسيع القسم الانتخابي الجزائري ، واسترجاع العمل بنظام « الجماعة » ، وحق الجزائريين في المشاركة في انتخاب رؤساء البلديات . ولكن هذه المجالس كانت غير حاسمة وقليلة الى درجة أنها لم ترض لا مطالب الجزائريين قبل الحرب، ولا مشاريع الزعماء الفرنسيين خلال الحرب ، ولا تضحيات الجزائريين من أجل « أشرف جميع المبادىء » ، ولا الأوضاع العالمية الجديدة ، التي خلقت نتيجة للحرب الكبرى . ولهذه الأسباب ، فإن ما يسمى « باصلاحات » 1919 يمكن أن

---

(63) أنظر عباس ، ص 115 ـ 116 . أنظر أيضاً مجلة « فرنسا الحرة » ، م 5 ، رقم 8 (15 أبريل ، 1944) ، ص 292 . وهناك قرار آخر تاريخه 6 فيفري ، 1919 قد أعاد نظام « الجماعة » التقليدي الى القرى المحلية. وبخصوص هذا القرار الأخير، أنظر بيرنار ، « أفريقية الشمالية » ، ص 103 ـ 106 . ويقول توينبي عن هذا النظام (الجماعة) أنه يشكل البذور الأولى للحكم الذاتي . أنظر كتابه « مدخل » (1925) ، م 1 ص 181 .

نوصف بمضادة الديموقراطية ، ومضادة الوطنية ، وغير واقعية .

ومن الواجب أن نقول أن هناك من اعتبر هذا القانون اصلاحاً هاماً ، كما أن هناك من اعتبره عملاً ضئيلاً . فالكاتب بيرنار ، الذي كان أحد المؤيدين البارزين للحكم الفرنسي في الجزائر ، قد قال ان : « أهم الاجراءات التي كان مقدراً لها أن تربط الأهالي (الجزائريين) شيئاً فشيئاً بعملنا الحضاري (في الجزائر) وأن تساعد على تربيتهم السياسيّة هو قانون 1919[64] . وقد برهن على رأيه بأن هذا القانون قد وسع القسم الانتخابي الجزائري من حوالي 15,000 الى حوالي 400,000 . أما شارل أندري جوليان الاشتراكي الفرنسي فقد اعتبر قانون 1919 ، أهم تشريع قبل دستور سنة 1947 ، ولكنه انتقده لوضع العراقيل أمام حصول الجزائريين على الجنسية الفرنسية[65] . وأما المؤرخ البريطاني توينبي فقد قال عنه بأنه تشريع « محافظ » ، وعزا اصداره إلى مبادرة الفرنسيين « لشعورهم بالإعتراف بالجميل » للجزائريين[66] .

ولكن كتاباً آخرين قد انتقدوا هذا التشريع ، بعضهم بشدة ، وبعضهم باعتدال ، فأندري نوشي ، وهو فرنسي يساري ، قال أن قانون 1919 قد منع الجزائريين من الاستفادة من الحقوق السياسية للأسباب الآتية :

1 ـ ان قانون الأهالي لم يلغ ، وبالتالي تستطيع الادارة الفرنسية أن تستعمله ضد الجزائريين في أي وقت .

2 ـ ان الشرط القائل بوجوب كون الناخب مقيماً سنتين على الأقل في بلديته قد منع أولئك الجزائريين الذين تنقلوا داخل البلاد أو هاجروا الى فرنسا من التصويت .

3 ـ أنه كان في صالح أولئك الجزائريين الذين كانت لهم عواطف قوية نحو الفرنسيين ، ولا سيما الجنود السابقون والاقطاعيون .

4 ـ ان المدعي العام للجمهورية الفرنسية أو الحاكم العام الفرنسي للجزائر يستطيع ان يؤثر على قرار المحاكم المدنية ، التي كانت مكلفة بالنظر في مطالب

---

(64) بيرنار ، « أفريقية الشمالية » ، ص 78 .

(65) جوليان « أفريقية الشمالية » ، ص 34 .

(66) توينبي ، « مدخل » (1925) ، م 1 180 ـ 181 .

الجزائريين للحصول على الجنسية الفرنسية(67) .

وهناك انتقاد مشابه وجهه الكاتب روبير غوتيي ، الذي كان أيضاً يسارياً فرنسياً . فقد استنكر قانون 1919 لاشتراطه على الجزائريين التخلي عن أحوالهم الشخصية الاسلامية قبل أن يسمح لهم بالحصول على الجنسية الفرنسية . وبناء على رأي غوتيي فان هذا القانون قد أبقى على قانون الأهالي وغيره من الاجراءات الاستثنائية ، وأبقى على القسمين الانتخابيين منفصلين ، ومنع الجزائريين من التمثيل النيابي في المجلس الوطني الفرنسي ، أما في المجالس المحلية فان تمثيل الجزائريين قد بقي بدون فعالية . كما استنكره لأنه لم ينص على انشاء أية سلطة قضائية تؤكد مراقبة باريس للسلطات المحلية في الجزائر . وبالإضافة الى ذلك ، فان غوتيي قد قال ان قانون 1919 ، لم يوجد أية طريقة عملية لدمج الجزائر في فرنسا . وأعلن هذا الكاتب ان بعض الاصلاحات كانت قد ألغيت حالاً وأن الانتخابات التي جرت في الجزائر طبقاً للاجراءات الجديدة لم تسمح للجزائريين بممارسة ديموقراطية حقيقية(68) .

ولم يكن هذا القانون محل نقد من الفرنسيين فقط ، بل من الجزائريين أيضاً . فعندما كان لا يزال مشروعاً ، سنة 1918 ، رفضه الجزائريون على أساس أنه كان غير كاف ، ولجأوا الى المبادىء التي أعلنها الرئيس ويلسون آنذاك . وقد قال السيد فرحات عباس عنه بأنه كان اصلاحاً متواضعاً ومهلهلاً . ووجه اليه اللوم لابقائه الجزائريين في حالة رعايا واستمرار القوانين منفصلة بالنسبة للمجموعتين الجزائرية والفرنسية . وبناء على رأي عباس فان هذا القانون لم يقدم أي حل لقضية الجنسية(69) .

وهناك رأي نموذجي حول هذا الموضوع عبرت عنه « الاقدام » ، الجريدة الوطنية التي كانت عندئذ حديثة الصدور . ففي احدى افتتاحياتها يقرأ المرء ما يلي : « رغم أن الاصلاحات قد خطت خطوة أمامية بخصوص المشكل الأهالي ، فان

---

(67) نوشي ، ص 54 .

(68) ر . غوتيي ، « م . د . » (جانفي ، 1954) ، ليس هناك رقم الصفحة .

(69) عباس ، ص 115 ـ 116 .

العمل الذي وضعت خطوطه العريضة قبل الحرب ما زال باقياً على حاله»[70]. وقد كتب الأمير خالد ، الذي كان من قدماء المحاربين والذي سندرس نشاطاته بعناية ، مقالاً في جريدة « الأخبار » التي توجهها الحكومة الفرنسية عارض فيه فكرة التجنيس كما عبر عنها قانون 1919 . وعارض خالد أيضاً مبدأ الاندماج الذي كان ينادي به أعضاء النخبة والذي أعطته الاصلاحات الجديدة بعض التسهيلات[71] .

أما أعضاء النخبة فقد شعروا بخيبة أمل بخصوص قانون ، 1919 . فقد كانوا يأملون أنهم بخدمتهم في الجيش الفرنسي وبالتعبير عن ولائهم لفرنسا ، فان الأخيرة « ستعوضهم » بكرم فتمنحهم كامل الحقوق السياسية والمدنية كمواطنين فرنسيين ، ولكن داخل اطار القانون الاسلامي . غير أن هذا الأمل كان بلا جدوى . فبعد تضحيات كبيرة من أعضاء النخبة أثناء الحرب ، وبعد عزلة وإهانة من المجموعتين (الجزائرية والفرنسية) تجاهلت فرنسا مطلب أعضاء النخبة للتجنيس في شكل جماعي .

وبناء على قول بعض الكتاب الفرنسيين ، فان الجماهير الجزائرية كانت راضية بالاصلاحات ، ولكن باعتدال . أما الاقطاعيون الجزائريون وأصحاب الأملاك الآخرون فقد أظهروا قلقاً من امكانية الشغب الذي قد تحدثه هذه الاصلاحات بين الجزائريين والفرنسيين . ولكي يناضلوا من أجل حقوق سياسية أكثر ، أخفى بعض الجزائريين أنفسهم في الحركة الشيوعية الثالثة ، واختفى آخرون في حركة القومية العربية ، وأخيراً لجأ آخرون الى مبادىء الغرب الديموقراطية[72] .

واذا كان أغلب الجزائريين قد وجدوا هذه الاصلاحات ضئيلة جداً ، فان

---

(70) « الاقدام » (7 مارس ، 1919) ، كما أشار إليها أجرون في « سياسة ليبرالية جزائرية » في « ر.هـ.م.ك. » ، (1959) ، ص 146 . وكان مقدراً (للاقدام) أن تصبح الجريدة ـ البرنامج للحركة الوطنية من خلال العشرينات . وكانت قد أنشئت سنة 1919 نتيجة دمج الصحيفتين الوطنيتين : « الإسلام » ، و « الرشيدي » .

(71) أجرون ، نفس المصدر .

(72) أنظر هـ . دي لامارتينيز ، « قبل زيارة الرئيس : المشكل الأهلي في الجزائر بعد الحرب » في « ر.د.م. » (مارس ـ أبريل ، 1922) ، ص 335 ـ 336 . أنظر أيضاً طيبال في « أ.ف.س. » (سبتمبر ، 1921) ، ص 205 .

الكولون قد وجدوها شيئاً عظيماً لا طاقة لهم بقبوله . والحق أنهم قد عارضوا هذا التشريع الجديد قبل ميلاده . وقد سخروا لمهاجمته صحافتهم ، ونوابهم ، وغير ذلك من وسائل الضغط . كما أنهم قد أنذروا بأن ذلك التشريع قد يقود الى « حرب أهلية » بين المجموعتين الفرنسية والجزائرية(73) . ان النص على مشاركة الجزائريين في انتخاب رؤساء المجالس البلدية قد أثار غضب الكولون(74) . وقد اعتقدوا أن الاصلاحات الجديدة قد تعني في النهاية انتصار الحركة الوطنية الجزائرية ، ومعنى ذلك ضياع امتيازاتهم . ولهذا السبب اعتبروا الاصلاحات الجديدة أمراً « خطيراً(75) » .

وفي مؤتمرهم المنعقد سنة 1920 طالب رؤساء البلديات (الذين كانوا جميعاً فرنسيين) في الجزائر « بالعودة الى سياسة جزائرية أكثر عقلانية » تأخذ في الاعتبار « أمن الأهالي في المناطق الداخلية » . كما طالب رؤساء البلديات بتدعيم السلطة النظامية للمسؤولين الاداريين في البلديات المختلطة ، وبتقوية نظام الاحتجاز السري ، وبوقف حق مشاركة الجزائريين في انتخاب رؤساء البلديات . أما ممثلو الكولون في المجلس المالي فقد احتجوا على قانون 1919 ، ونادوا بالعودة الى قوانين ما قبل سنة 1914 . وقد نجح الكولون في طلبهم ، أوت 1920 ، عندما جددت السلطات الفرنسية قانون الأهالي ودعمته(76) .

وهكذا فانه يبدو أن الجميع لم يكونوا يرغبون في اصلاحات سنة 1919 . فالسلطات الفرنسية التي كانت قد وعدت وصاغت المشاريع الاصلاحية منذ سنة 1900 كانت تفعل ذلك لتهدئة الحركة الوطنية الجزائرية في أوقات كانت عصيبة بالنسبة لفرنسا . وعندما لم تكن هناك حاجة لهذه التهدئة ، أي عندما كان في استطاعة فرنسا أن تجند جندها ، وشرطتها ، والكولون ، وقانون الأهالي ضد الحركة الوطنية ، برد اهتمام الفرنسيين بالاصلاح في الجزائر . وخلال سنوات 1914 ـ

---

(73) أجرون ، « ر.هـ.م.ك. » (1959) ، ص 147 .

(74) جوليان ، « أفريقية الشمالية » ، ص 35 .

(75) بيرنار ، « أفريقيا الشمالية » ص 78 .

(76) نوشي ، ص 55 ـ 56 . وقد بقي هذا القانون سارياً إلى سنة 1944 .

1918 ، كانت المشاريع أو الاصلاحات الفرنسية كريمة وواعدة . ولكن عندما عاد السلام الى فرنسا وتحقق النصر (الذي دفع الجزائريون من أجله تضحيات غالية) ، أصبحت الاصلاحات الفرنسية أكثر بخلاً ومخيبة للآمال .

وفي نفس الوقت لم يرد الجزائريون هذه الاصلاحات . فقد كانوا يعتبرون الاجراءات الجديدة عقبات فرنسية أخرى في طريق التحرير . حتى جماعة النخبة الذين لم يطالبوا بالوطنية والاستقلال ولكن بالتجنيس والاندماج ، لم يريدوا هذه الاصلاحات ، لأنها لم تكن في مستوى التضحيات التي بذلوها ولا في مستوى الأمل الذي وضعوه في فرنسا .

ومن جهة أخرى فإن الكولون لم يريدوا هذه الاصلاحات لأنها كانت ، في نظرهم خطيرة ووخيمة العواقب . فليس من العجب اذن أن نعرف أن كل واحد من هذه الجماعات قد بذل جهده خلال العشرينات من هذا القرن لكي يقضي على هذه الاصلاحات .

والجزائر ، كبقية البلدان المتأثرة بالحرب ، قد خرجت من الحرب بأفكار ونظرات جديدة . ورغم أن الحرب قد أضعفتها طبيعياً للخسارة في الأرواح ، والبعثرة المادية ، والمعاناة ، فانها قد منحتها أوضاعاً وتجارب جديدة قد لا يكون في استطاعتها أن تظفر بها بدون المشاركة في الحرب . وهكذا ظهر زعماء جدد من قدماء المحاربين ، وبثت أفكار جديدية نتيجة ازدياد الصراع على المسرح العالمي ، ولا سيما بعد الثورة البولشيفية ، وانتصار القومية في وسط أوروبا ، وحوادث الشرق الأدنى .



آفاق غير محدودة

1919 - 1930

1. المستعمرة « الهادئة » :

ليس هناك اتفاق بين المعاصرين على وصف الحالة العامة في الجزائر بعد الحرب . فقد شهد بعض الكتاب ، سنة 1925 ، ان الجزائر كانت « نقطة هادئة وسط منطقة هائجة »[1] .

وأنذر آخرون بأنها ، بالرغم من أنها تبدو في حالة ركود في أعين العابرين فان « هناك تحركات في الخفاء قد تسبب قريباً تلاطمات على السطح[2] » . وبالاضافة الى ذلك ، فانهم يشيرون الى أن هناك تخوفات من أن الجزائر قد تقع تحت طائلة الاتجاهات الوطنية أو البولشيفية ، أو حركة الجامعة الاسلامية . ولكن بعد بضع سنوات صرف السيد و . ويليامز ، الذي كان مراسلاً لجريدة تعتبر من أحسن الجرائد استقاء للأخبار في ذلك الوقت ، تلك « التخوفات » قائلاً : « بالرغم من التقارير المنذرة التي يرسلها بعض المراسلين الصحفيين عن توقع حدوث الاضطرابات . . فان الجزائر هادئة[3] » .

ولكن عند النظر من بعيد ، نجد أن عقد العشرينات ، كان من أكثر العقود حسماً في تاريخ الجزائر . فرغم أن الحرب لم تحضر أي حل للمشاكل الجزائرية ، فان أحداث ونتائج الحرب قد أثرت على كل مظهر من مظاهر الحياة تقريباً في الجزائر . وهكذا فان وقع الحرب على هذه البلاد كان بلا حدود .

---

(1) توينبي ، « مدخل » (1925) ، م 1 ، ص 181 .

(2) « التايمز » (لندن) ، (9 أبريل ، 1920) ، ص 9 .

(3) « النيويورك تايمس » (19 أبريل ، 1925) القسم الثاني ، ص 3 .

أ ـ وقع الحرب :

يقول أحد الكتاب الفرنسيين : « ان الجزائريين كانوا واعين للفكرة التي كانت تدور من أجلها الحرب » . ويعترف هذا الكاتب أنهم كانوا يعتقدون أن الحرب كانت من أجل أهداف أوروبية امبريالية(4) . وبتعبير آخر ، فقد فهم الجزائريون أن أهداف الحرب لم تكن من أجل مبادىء انسانية وديموقراطية ، كما كانت الدعاية الفرنسية خلال الحرب تدعى . ولكن على المرء أن يتذكر أن ليس كل الجزائريين كانوا قادرين على تعميق أهداف الحرب . فأكثر الفلاحين والدوائر الدينية لم تكن تستطيع أن تعطي تفسيراً عقلياً لأسباب ونتائج الحرب . وقد يكون بعضهم قد اعتقد أن الحرب كانت من أجل أسباب خرافية أو دينية ، ولكن نادراً ما اعتقدوا أنها كانت من أجل أبعاد سياسية واقتصادية . ولم يكن هناك الا قلة من الجزائريين ، مثل بعض أعضاء النخبة المستقلين ، والعلماء المتنورين ، والعمال والجنود المجربين ، كانت لديهم فكرة واضحة عن الأسباب الحقيقية للحرب .

وقد أشرنا من قبل الى أن عدد الجزائريين الذين شاركوا في الحرب كان هائلاً . وسواء كانوا جنوداً على الجبهة الأوروبية ، أو عمالاً في المصانع الفرنسية ، أو أقرباء في الوطن ، فان الجزائريين كانوا مندمجين في الحرب ومتأثرين بها بعمق . ونتيجة لذلك شاعت بينهم أفكار جديدة ، وتعلموا لغات مختلفة ، ومارسوا عادات لم تكن معروفة لديهم ، واستفادوا من تجارب أخرى ، بل ان فكرة الحياة نفسها كانت تمر بمرحلة تغيير أساسي عندهم . واذا كانت هذه الدروس الجديدة لم تعرف قيمتها خلال الحرب ، فانها ستكون ذات قيمة كبيرة في العشرينات من هذا القرن .

وأكثر الكتاب متفقون على أن الجزائريين قد تعلموا من الحرب دروساً لا تقدر بثمن ، ومنذ سنة 1918 قال كاتب فرنسي : ان الجزائريين قد جربوا الحياة الأوروبية ولامست عقولهم أفكار لم تتسرب أبداً الى مخ أجدادهم . وكان من رأي هذا الكاتب أن عودة هؤلاء الجزائريين « الجدد » الى قراهم قد تكون عملاً دعائياً لصالح فرنسا . ولكن نفس الكاتب قد عبر عن خوفه من أن هذه القرى قد تصبح أيضاً مراكز عداوة

---

(4) ديبارمي ، « النهضة » في « أ. ف. » (جويليه ، 1933) ، ص 387 .

ضد فرنسا[5] .

ومن الأفكار الهامة التي تعلمها الجزائريون من الحرب فكرة المساواة . فقد كانوا قد سمعوا عن هذا المبدأ ولكن لم يمارسوه أبداً . وسواء كانوا جنوداً أو عمالاً ، فإنهم لم يتمتعوا فقط ببعض المساواة مع الفرنسيين ، ولكنهم أيضاً رأوا تطبيق مبدأ المساواة بين المواطنين الفرنسيين الأوروبيين أنفسهم . وهذه الحقيقة ستجعلهم كثيري النقد للطريقة الفرنسية في الجزائر عندما يعودون إلى وطنهم[6] . وبالإضافة إلى ذلك فإن الحرب ، بناء على أحد الكتاب الجزائريين ، قد جعلتهم يصبحون واعين أنهم قد ساهموا في إنتصار فرنسا والحلفاء[7] .

ولكن بعض الكتاب يعتقدون أن الحرب لم تغير أي شيء في الجزائر . وهم لا ينفون أن العقد الذي تلا الحرب كان هاماً للبلاد . غير أنهم يعزون التطورات الجديدة هناك لا إلى الحرب نفسها ولكن إلى نتائجها . وهم يشيرون إلى تأثير الأحزاب الفرنسية الثورية واتحادات العمال ، ورحلات الجزائريين إلى فرنسا ، والإهتمام بالحقوق السياسية والإستقلال ـ كل هذه جعلت الجزائريين نشطين وواعين سياسياً . كما أن الأحداث في الشرق الأدنى ، ونقط الرئيس ويلسون الأربع عشرة ، وانتصار القومية في أوروبا ، والثورة البولشفية ، غالباً ما أشار إليها هؤلاء الكتاب على أن لها تأثيراً عميقاً على الجزائريين بعد الحرب[8] .

وليست أحداث الشرق الأدنى ، وحدها ، بل أيضاً الأفكار الديموقراطية التي عبر عنها الرئيس ويلسون قد أثرت على الجزائريين . ففي بلاد لا تكاد تعرف الحقوق السياسية ، وحيث تسود القوانين الإستثنائية ، وحيث العواطف الوطنية مضطهدة ، كانت أفكار ويلسون ، ولا سيما فكرة تقرير المصير ، قد جذبت الجزائريين على ما

---

(5) ميرسي ، « ر.ب. » (1 جويليه ، 1918) ، ص 215 ، 217 .

(6) أنظر أوبيرمان ، « المشكل الجزائري » ، كما أشار إليه أرون ، ص 62 . أنظر أيضاً عباس . ص 114 .

(7) عباس ، ص 113 .

(8) جوليان ، « أفريقية الشمالية » ، ص 108 . بيرنار « أفريقية الشمالية » ، ص 77 ـ 79 . عباس ، ص 117 . أما مؤلفو البيان الجزائري سنة 1943 فقد أعطوا أهمية كبيرة إلى أحداث الشرق الأدنى في الجزائر ، وخصوصاً إلى ثورة كمال أتاتورك . أنظر ساراسان ، ص 185 .

يبدو بدرجة كبيرة ، وقد سبقت الإشارة إلى أن الجزائريين وخصوصاً الطبقة المثقفة ، قد رفضوا إصلاح سنة 1919 وطالبوا بحق تقرير المصير بإسم مبادىء ويلسون[9] .

وبناء على مصدر فرنسي مطلع ، فإن هؤلاء الفتيان الجزائريين ، الذين كانوا يحلمون بالإستقلال ، قد وقعوا على عريضة موجهة إلى ويلسون نادوا فيها بالحكم الذاتي للجزائر وطرد الفرنسيين[10] .

وفي سنة 1934 قالت جريدة « الأمة » ، اللسان الرسمي للحزب الوطني « نجم أفريقية الشمالية » ، مجيبة على الإتهام القائل بأن الحزب كان شيوعياً : « إننا نقولها بصراحة ، إننا وطنيون . . وبإسم مبدأ تقرير المصير للشعوب » كما عبر عنه ويلسون ، « نطالب بالحرية والإستقلال لوطننا »[11] . وهناك كاتب فرنسي آخر قد قال بأنه « نتيجة للمبادىء الويلسونية ، حدث نوع من « الإنفجار . . للآمال الوطنية » في الجزائر ، سنة 1919 ، أثناء الإنتخابات المحلية . وعندما خابت الآمال ، انضم بعض الفتيان الجزائريين إلى الحركة الشيوعية العالمية[12] .

ولكن الثورة الروسية وإنشاء الحركة الشيوعية العالمية الثالثة لم تكن أقل أهمية في نظر الجزائريين من أحداث الشرق الأدنى ، وثورة الريف ، وأفكار ويلسون . وقد أشرنا من قبل إلى أن بعض الجزائريين كانوا يفكرون في استعمال طرق مشابهة لطريقة الثورة الروسية . وسوف نرى ، في الفصل الخاص بالحركة الشيوعية العالمية الثالثة والحركة الوطنية الجزائرية ، كيف تطورت العلاقات بين الحركتين . والهدف من ذكر هذه الأحداث هنا هو التأكيد على أهمية وقعها على الجزائر .

ومن أهم نتائج الحرب زيادة عدد البروليتاريا الجزائرية . فقبل الحرب كان أغلب السكان فلاحين بلا أرض . ولم تغير الحرب كثيراً من حجم هذه الطبقة ،

---

(9) طيبال ، « أ.ف.س. » (سبتمبر ، 1921) ، ص 205 .

(10) ديبون ، « الإضطرابات في أفريقية الشمالية » (ر.ب.ب.) ، م 164 (1935) ، ص 76 . أنظر بهذا الشأن مقالنا « عريضة الأمير خالد إلى الرئيس ويلسون » في (مجلة التاريخ) ، 1981 ، ص 5 ـ 19 .

(11) أشار إلى ذلك ج . مينو ، « الإنتخابات الأهلية » ، في « أ.ف. » (فيفري 1935)، ص 81 من «الأمة» (أكتوبر ، 1934).

(12) طيبال ، «أ.ف.س.» (سبتمبر ، 1921) ، ص 204 ـ 205 . بخصوص تأثير البولشفية .

ولكنها زادت من حجم البروليتاريا . وقد سبق لنا أن أشرنا إلى عدد الجزائريين الذين شاركوا في الحرب ، ولكن من المهم أن نتذكر أن أحد الكتاب يؤكد أن أكثر من نصف مليون جندي وعامل جزائري قد ساهموا في هذه الحرب[13] .

ومهما كان العدد فإن هؤلاء الجزائريين قد تعلموا ، بعد سراحهم من الجندية ، بعض الحرف والتجارب . فكانوا مستعدين للعمل كعمال موانىء ، وعمال يدويين في الصناعات المحلية ، وعمال زراعيين ، وموظفين في القطارات والبريد ، وخدام منازل عند الكولون[14] . ولكن يبدو من الخطأ أن نقول إن الحرب قد خلقت طبقة « جديدة » . وما دام للجزائر بروليتاريا قبل الحرب ، فإنه يبدو أن كل ما فعلته الحرب نفسها هو زيادة اليقظة السياسية ونشاط الضمير الوطني لهذه الطبقة .

إن الوثائق الفرنسية المعاصرة كانت غالباً سريعة في نسبة معظم النشاطات الوطنية في الجزائر إلى الأجانب . وفي سنة 1922 قال أحد الكتاب الفرنسيين أنه عندما وقع وقف إطلاق النار تسرب السياسيون الفرنسيون من الأحزاب اليسارية إلى الجزائر لكي يبثوا أفكارهم . وبناء على هذا الكاتب ، فإن الجماهير الجزائرية كانت غير مهتمة ، ولكن أولئك السياسيين قد نجحوا في الحصول على تأييد بعض إخوانهم في الدين[15] . ومن الممكن القول أن هؤلاء السياسيين كانوا يضمون بعض الجزائريين الذين كانوا أعضاء في الأحزاب السياسية الفرنسية ذات الإتجاهات المختلفة . وقد كان من المتوقع أيضاً أن بلاداً كالجزائر ، حيث يعيش أكثر من نصف مليون فرنسي ، تنتشر فيها الأفكار إلى بقية السكان دون حاجة إلى مبشرين من باريس .

وبالنسبة للفرنسيين ، فإن التأثيرات الأجنبية لا تعني فقط الويلسونية ، والشيوعية ، وفكرة الجامعة الإسلامية ، ولكن أيضاً الأفكار الألمانية ، وكل شيء ، وكل بلاد كانت غير صديقة لفرنسا . لذلك فإن الفرنسيين لم يلوموا فقط موسكو ،

---

(13) عباس ، ص 113 . وقد قال سينيوري أن الجزائر قد ساهمت في الحرب بـ250,000 رجل . أنظر (ر.ب.ب.)، م 98 (1919) ، ص 287 .

(14) ساراسان ، ص 123 ـ 124 .

(15) مارتينيز ، « ر.د.م. » م 8 (مارس ـ أبريل ، 1922) ، ص 331 .

والقاهرة ، وأنقرة ، ولكن برلين أيضاً ، على النشاطات المعادية لبلادهم في الجزائر . وقد كانت « جمعية الشعوب » ، التي كانت تضم بعض الجزائريين والتي كان مركزها في برلين ، في قائمة الفرنسيين السوداء ، سنة 1922 . كما أن المجلة المسماة « الشرق الجديد » الألمانية قد اتهمت من الفرنسيين بالتحامل ضد فرنسا ، والدعاية للقومية الألمانية، وللإشتراكية في الجزائر . وقد عبر كاتب فرنسي في مطلع سنة 1922 ، عن عجبه من أن المرء يجد في كل مكان في الجزائر بطاقات الإنضمام إلى لجان هدفها إدخال الإشتراكية وخدمة آمال الوطنية الجزائرية[16] .

إن وقع الحرب قد خلف تركة جعلت بعض الكتاب يصفون عقد العشرينات بأنه عهد النهضة في الجزائر . فديبارمي يسميه بعهد « الإندفاع الوطني ، والإتجاه نحو الثورة السياسية ، و . . الإصلاح الديني والأخلاقي ، بالإضافة إلى النهضة الأدبية والعلمية » . وبناء على رأي هذا الملاحظ الفرنسي ، فإن بعض الجزائريين المعتدلين كانوا لا يأملون إلا في إنتعاش البلاد وإدخالها في العالم المتحضر . ولكن آخرين قد نظروا إلى هذا العهد على أنه نوع من « بعث المغرب العربي ، وافتكاك أرض الإسلام (من الفرنسيين) ، وإسترجاع سلطة المسلمين القديمة »[17] .

وهكذا فإن الحرب ، والأحداث التي تلتها قد فتحت آفاقاً غير محدودة أمام الجزائريين ، وأدخلتهم إلى عهد جديد . وأن تقدير قيمة وقع الحرب على الجزائر سيظهر في الفصول القادمة حين ندرس الفترة كلها . ولكن إحدى نتائج الحرب الهامة هي ظهور الأحزاب السياسية الجزائرية .

ب ـ ظهور الأحزاب السياسية :

كل الإتجاهات السياسية والإجتماعية التي سيطرت على الحياة الجزائرية حتى حرب الإستقلال كانت تتفاعل خلال العشرينات . وكانت هذه تشمل الإتجاه المحافظ ، الذي كان في ذلك الوقت تحت سيطرة بعض الإقطاعيين الجزائريين

---

(16) نفس المصدر ، ص 659 ـ 660 . وقد تحدث بيرنار أيضاً عن تأثير برلين ، موسكو ، والعالم الإسلامي في الجزائر . أنظر كتابه « أفريقية الشمالية » ، ص 77 ـ 79 .

(17) ديبارمي ، « بيانان » في « أ . ف . » (ديسمبر ، 1933) ، ص 780.

الذين إستفادوا من الحكم الفرنسي وخدموا فرنسا بإخلاص كبير ، والإتجاه المعتدل الـذي كان تحت سيـطرة قسم من جماعـة النخبة ، بعـد إنقسامهم سنـة 1919 ، والإتجاه الليبرالي الذي كان يضم القسم الباقي من جماعة النخبة ، والإتجاه الثوري الذي كان قد تطور عموماً من الأخير ، ثم الإتجاه الإسلامي ـ العربي الذي كان تحت سيطرة العلماء . ولكي نأتي على جميع الإتجاهات يجب ذكر الإتجاهين الشيوعي والإشتراكي أيضاً . وسوف تخصص دراسة مفصلة لمعظم هذه الإتجاهات .

من أهم نتائج إصلاح سنة 1919 إنقسام جماعة النخبة . وقد كانت القضية التي أدت إلى هذا الإنقسام هي الإنـدماج ، أي الخـلاف حول مـا إذا كان يجب المناداة بضم الجزائر إلى فرنسا أو الإحتفاظ بها كياناً منفصلاً . ولكن يجب أن نتذكر أن الرأي الأخير لم يكن يعني فصل الجزائر عن فرنسا . فالقضية ببساطة كانت تتمثل في هل يجب التعجيل بالإندماج كوسيلة للمساواة مع الفرنسيين ، أو يجب الإصرار على المساواة معهم ولكن داخل الأحوال الشخصية للجزائريين .

وقد وقع الإنقسام في قيادة جماعة النخبة سنة 1919 أثناء الإنتخابات البلدية في العاصمة ، التي جرت كنتيجة للإصلاحات الجديدة . وكان الزعيمان المتنافسان هما الدكتور ابن التهامي الذي كان على رأس الإندماجيين ، والأمير خالد ، حفيد الأمير عبد القادر ، الذي كان على رأس المنادين بالمساواة داخل الأحوال الشخصية للجزائريين .

ورغم أن الفكرة الشائعة هي أن الأحزاب السياسية الجزائرية ، بإستثناء نجم أفريقيا الشمالية ، لم تظهر إلا خلال الثلاثينات ، فإن الأوروبيين المعـاصرين قـد لاحظوا وجود هذه الأحزاب الوطنية منذ سنة 1919 . ولم تحن سنة 1922 حتى كان هؤلاء الأوروبيون يتحدثون عن الأحزاب السياسية في الجزائر . وقد قسمها أوغسطين بيرنار كمـا يلي : الحزب المحـافظ ، الذي كـان مكونـاً من العائـلات الإقطاعيـة القديمة ، والحزب الليبرالي ، الذي كان يقوده جماعة النخبة الإندماجية ، والحزب الوطني ، الذي كان يسيطر عليه جماعة النخبة المنادون بالمساواة مع فرنسا[18] .

وهناك كاتب فرنسي آخر قد تحدث أيضاً عن ثلاثة أحزاب سياسية ، ولكنـه

---

(18) بيرنار ، « أفريقية الشمالية » ، ص 78 ـ 79 .

إستعمل طريقة مختلفة في تقسيمها ، وبناء على هذا الكاتب ، فقد كان هناك حزب الفتيان الجزائريين (جماعة الخبة) الذين كانوا ينادون بالإندماج ، والحزب الوطني ـ الإسلامي الذي كان يقوده أولئك الذين ينادون بالمساواة ، ولكن داخل إطار الأحوال الشخصية الجزائرية الإسلامية ، وأخيراً حزب أصحاب « العمائم القديسة » من « بني وي ـ وي » ، أو الإقطاعيين[19] .

أما الكاتب الانكليزي وورثام ، فقد أخبر سنة 1922 ، عن وجود حزبين سياسيين جزائريين . الأول هو « حزب الفتيان الجزائريين المعتدلين » والثاني هو « الحزب الجديد » الذي استوحى برنامجه من القرآن ومن الفكرة الاشتراكية[20] . وقد قال وورثام بأن الحزب الأخير هو « بشكل قاطع حزب وطني »[21] . ولكن المؤلف لم يتحدث عن حزب المحافظين أو الاقطاعيين الذي غالباً ما أشير اليه[22] .

والحق أن الانتخابات البلدية التي جرت في العاصمة في ديسمبر 1919 كانت نقطة انطلاق جديدة في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية فقد أدت من ناحية ، الى تقسيم النخبة الى اندماجيين ومعادين للاندماج . وأدت ، من ناحية أخرى ، الى ظهور زعيم جديد ، هو الأمير خالد ، الذي ساعدته سمعته وماضي أسرته على الانتصار في هذه الانتخابات . كما أدت الى الكشف على حقيقة الرأي العام الجزائري الذي كان ضد الاندماج . وهكذا فبينما حصلت قائمة الأمير خالد ـ الحاج موسى على 940 صوتاً ، حصلت قائمة الدكتور ابن التهامي ـ ولد عيسى على 340 صوتاً فقط[23] .

---

(19) مارتينيز ، «ر.د.م.» ، م 8 (مارس ـ أبريل ، 1922) ، ص 347 .

(20) وورثام ، « مشاكل فرنسا في أفريقية الشمالية » في مجلة « الأطلنطي الشهري »، م 130 (فيفري ، 1922)، ص 556 .

(21) وورثام ، « فرنسا والإسلام » في مجلة « العصر الحي » (27 ماي ، 1922)، ص 519 .

(22) حين درسنا عهد النهضة (1900 ـ 1914) لاحظنا أن إتجاهات ما بعد الحرب كانت كلها تقريباً تعتمل عندئذ . ويبدو أن الفرق الوحيد هو أن إتجاهات ما قبل الحرب لم تأخذ شكل الأحزاب السياسية ، بل كانت منقسمة إلى كتلتين كبيرتين : المحافظين والنخبة . فالحرب إذن لم تزد على أن قوت وصقلت هذه الإتجاهات وفتحت أمامها آفاقاً جديدة وأعطتها قيادة أكثر تجربة .

(23) أجرون ، « سياسة جزائرية » في « ر.هـ.م.ك. »، م 6 (أبريل ـ جوان ، 1959) ، ص 147 .

ومن جهة أخرى ، فإن هذه الانتخابات قد أعطت الجزائريين فرصة ثمينة لاستعمال صندوق الانتخاب كوسيلة للتعبير . ورغم أن اصلاحات 1919 ، قد قيدت القسم الانتخابي الجزائري بعدد قليل من المصوتين ، فإن أولئك الذين شاركوا في الانتخابات قد برهنوا على قدرتهم الاختيارية بفوزهم في الانتخابات . وقد كتب وورثام بخصوص هذه القضية قائلاً : أن الجزائريين قد برهنوا على أنهم « مناورون شجعان في صناديق الانتخابات وأنهم متخصصون في فن الديماغوجية »[24].

ومن بين الأحزاب السياسية التي ظهرت نتيجة لانتخابات سنة 1919 البلدية ، والتي جذبت اليها أنظار المعاصرين ، هو الحزب المعادي للاندماج ، الذي سنطلق عليه من الآن (حزب الاصلاح) ، والذي كان تحت قيادة الأمير خالد[25] . وقد وصف وورثام هذا الحزب بأنه « حزب وطني قطعاً » وأن « عداءه القاطع للفرنسيين هو نفس عداء الوطنيين المصريين للبريطانيين »[26].

وبناء على رأي هذا الكاتب الانكليزي ، فإن حزب الاصلاح كان تحت قيادة اقطاعيين جزائريين أغنياء ، وأعضاء الطبقة الوسطى المثقفة ، والمحامين ، والأطباء ، وبعض الموظفين في الإدارة الفرنسية . ويقول أن الجماهير كانت تتبع هذا الحزب . ذلك أن الاصلاحيين قد وجهوا نداءهم الى كل الطبقات الجزائرية ووعدوا بخدمة مصالحها الوطنية والاقتصادية وقد أصبحوا أقوياء الى درجة أن مرشحيهم قد هزموا الليبراليين في عمالتي قسنطينة والجزائر العاصمة[27].

ورغم أن برنامج هذا الحزب سيدرس بالتفصيل في مناسبة أخرى ، فإنه يبدو

ويقول المؤلف أن الكولون كانوا فرحين برؤية أعداء الإندماج يفوزون ، لأنهم كانوا ضد مطلب جماعة النخبة في تجنيس الجزائريين .

(24) وورثام ، « مشاكل فرنسا » في « الأطلنطي الشهري » ، م 130 (فيفري ، 1922) ، ص 557.

(25) أن العناوين غالباً خداعة . ولكن للتوضيح فإن الإتجاه المطالب بالإندماج مع فرنسا بواسطة تجنيس الجزائريين نطلق عليه إسم « الليبرالي » ، بينما نطلق على ذلك الذي يعارض الإندماج ويقف في صالح مساواة الجزائريين داخل إطار أحوالهم كمسلمين مع الفرنسيين اسم « الإصلاحي » . وقد أشرنا من قبل إلى أن بعض الكتاب يطلق على هذا الأخير (الحزب الوطني ، الإسلامي - الإشتراكي) ، الخ .

(26) وورثام ، « فرنسا والإسلام » في « العصر الحي » (27 ماي ، 1922) ، ص 519 .

(27) نفس المصدر .

من المستحسن اعطاء عرض مختصر عن محتواه هنا . ومنذ سنة 1922 زعم وورثام أن برنامج الحزب الاصلاحي كان مستوحي من القرآن ومبنياً على الاشتراكية. وقال أن هدف هذا الحزب هو إنْهاء الحكم الفرنسي في الجزائر[28].

وعندما ينظر المرء عن قرب إلى برنـامج هـذا الحزب ، فـإنه سيجـده ليس اشتراكياً وليس اسلامياً ، وليس انفصالياً . فالحزب لم يزد على أن ينادي بمساواة الجزائريين ، داخل اطار أحوالهم الشخصية كمسلمين ، مع الفرنسيين .وكان برنامجه يحتوي على النقط التالية :

1 ـ ادماج الجزائريين بدون شرط .

2 ـ الغاء السلطات التأديبية لحكام البلديات المختلطة .

3 ـ المساواة أمام القانون .

4 ـ تحقيق التمثيل النيابي للجزائريين غير المتجنسين .

5 ـ مساواة الجزائريين مع الفرنسيين في الألقاب والترقيات والوظائف الخ[29].

أما الحزب الثاني الذي ولد نتيجة لانتخابات 1919 فهو الحزب الليبرالي ، الذي كان يتوالاه أعضاء النخبة الذين كانوا في صالح الاندماج عن طـريق تجنيس الجزائريين بقطع النظر عن قضية الدين . وكان المتحدث باسم هذا الحزب ، مدة من الوقت ، هو الـدكتور ابن التهـامي ، الذي سبقت الاشـارة الى دوره في عهد النهضة . وقد خسر هذا الحزب الانتخابات بسبب القضية الدينية . وعزا مارتينيـر هزيمة الحزب الى تفكير زعمائه الليبرالي الذي فصلهم عن الجماهير . وقال أيضاً أن الظروف الاسلامية قد عملت لصالح خصوم هذا الحزب[30].

إن الليبراليين كانوا في صالح التعاون مع فرنسا ، مؤمنين بالثقافة الفرنسية ،

---

(28) وورثام ، « مشاكـل فرنسـا » في « الأطلنطي الشهـري » ، م 130 (فيفري ، 1922) ص 556 ـ 557 .

(29) مارتينيز ، « ر.د.م. » (مارس ـ أبريل ، 1922)، ص 348 . وقد أضاف وورثام أنه « لأول مرة » وجد الفرنسيون أنفسهم معارضين « بحزب سياسي وطني اللون قطعاً ، مع موقف واضح في عدائه للفرنسيين » . أنظر وورثام ، « مشاكل فرنسا » في « الأطلنطي الشهري » م 130 « فيفري ، 1922 » ص 556 ـ 557 .

(30) مارتينيز ، «ر.د.م.» ، م 8 (مارس ـ أبريل) 1922 ، ص 347 ـ 348 .

ومعبرين عن رأيهم اللائكي نحو الدين ، والحق أن برنامجهم لم يكن يختلف من حيث المبدأ عن برنامج الاصلاحيين ، فحتى حوالي سنة 1924 كانت القضية الوحيدة التي قسمتهم هي هل يجب الاصرار على حل المشكل الديني بالنظر الى تجنيس الجزائريين ؟ ومنذئذ ، أصبح الاصلاحيون تدريجياً انفصاليين وأصبح الليبراليون تدريجياً اصلاحيين . وسوف نرى أن هذا التحول قد حتمه رفض فرنسا ارضاء مطالب الحزب الاصلاحي .

والحزب الثالث هو الحزب المحافظ ، الذي كان قد سمي أحياناً حزب الاقطاعيين أو « بني وي ـ وي » ، وكان زعماء هذا الحزب هم رؤساء الأسر الكبيرة ، والمحاربون القدماء ، وبعض المرابطين ، وقليل من الاقطاعيين الذين كانوا محظوظين بحكم خدمتهم لفرنسا . فقد كانت هذه تختارهم وتعينهم في مراكز مختلفة كمساعدين لبعض الاداريين الفرنسيين ، أو « ممثلين نيابيين » في مختلف المجالس المحلية ، أو مستشارين للجان فرنسية مختلفة مهتمة بالمشاكل الجزائرية . وكانوا عادة يختارون لولائهم المطلق لفرنسا ، ولجهلهم بأحوال العالم ، ولعدم اهتمامهم بالمشاكل المحلية . ولكن اختيارهم كان على حساب الأهالي .

ولم يكن للمحافظين برنامج خاص بهم لأنهم لم يكونوا يملكون زمام المبادرة . لقد كانوا مستعدين أن يقولوا « نعم » أو « لا » فقط كلما طلب الفرنسيون منهم ذلك . واعتبار هذه الطبقة حزباً سياسياً لا يخرج عن كونه مسألة مريحة فقط . وسوف نشير الى دورهم كلما كان ذلك ضرورياً ، ولكنهم لن يعاملوا ككيان سياسي منفصل[31] .

وشيئاً فشيئاً اختفى الحزب الاصلاحي . فبعد أن نفت السلطات الفرنسية زعيمه ، الأمير خالد ، فقد الحزب قوته الدافعة . وقد أخذ الليبراليون منه شعار المساواة ، بينما أخذ أفكاره الانفصالية نجم افريقية الشمالية ، الذي كان حزباً نضالياً جديداً ظهر سنة 1926 . وسوف نلاحظ أن النجم الذي كان قد أسسه في باريس

(31) اعترف مارتينيز أن المحافظين قد خدموا فرنسا بإخلاص في المجالس المالية . أنظر نفس المصدر ، ص 349 ـ 350 . ولكن الكاتب قال أن برنامج المحافظين كان أساساً إقتصادياً . ويبدو من هذا أنهم كانوا يؤيدون فرنسا مقابل ما يتلقونه منها ، وخصوصاً الأرض ، ومقابل حمايتها لهم .

جماعة من المهاجرين المغاربة ، وخصوصاً الجزائريين . وكان معظم أعضـائه من العمال والجنود السابقين ، الذين بقوا في فرنسا ، بعد السراح من الجندية ، طلباً للعمل.

ونظراً لأن أعضاء النجم قد ضموا أفـراداً ذوي تفكير وطني ، فـإن الزعمـاء الطموحين من المهاجرين قد انضموا أولاً لحزب الاصلاح الذي كان يتـولاه الأمير خالد ، وللمجموعات الشمال أفريقية ، وللأحزاب السياسية الفرنسية ، وخصوصـاً اليسارية منها ، التي كانت برامجها تنـادي بتحسين أحوال الجـزائريين . وقـد كان برنامج النجم ذا مرحلتين : المسـاواة العاجلة بين الجـزائريين والفـرنسيين في كل المجالات ، ثم الاستقلال الكامل للجزائر في النهاية وجلاء القوات الفرنسية عنها . وسوف نناقش هذا البرنامج بالتفصيل في الفصل التالي.

ورغم أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قد خلقت رسمياً في ماي 1931 فإن أصولهـا تعود الى عهـد النهضة (900 ـ 1914) ، أي الى أفكـار الشيوخ : الونيسي ، والمجاوي ، وابن سمـاية ، وابن المـوهوب ، وغيـرهم . وبين 1919 و 1930 وضع العلماء أسس جمعيتهم المستقلة : الصحافة ، والمدارس ، ونوادي الثقافة والدعاية ، ونشر التاريخ الجزائري الخ ، وتحت القيادة الديناميكية للشيخ عبد الحميد بن باديس كان العلماء نشطين بشكل ملحوظ خلال العشـرينات . وسـوف ندرس برنامجهم على حدة في فصل خاص.

وباختصار دعا العلماء الى استرجاع الشخصية الثقافيـة العربيـة ـ الاسلاميـة للجزائر بواسطة التعليم ، والوعظ والارشاد ، والوسائل الشرعية الأخرى . ولما كان تناولها الحالي للمشاكل الجزائرية ثقافياً في شكله ، فإن جمعية العلماء المستقبلة لا تعتبر حزباً سياسياً هكذا . ولكن نتيجة لمساهمة العلماء الواضحة في الحركة الوطنية الجزائرية خلال العشـرينات ، فـإننا سنـدرسهم على أنهم احدى القـوات الوطنيـة الرئيسية .

وإلى سنة 1935 لم يكن هناك حزب شيوعي جزائري . أمـا خلال العشرينات فإن الجزائريين الذين أعجبوا بالشيوعية قد انضموا الى الحزب الشيوعي الفرنسي . والحق أن هذا الانضمام كان نتيجة للشكل « الفذ » الذي كان للجزائر تحت النظام الفرنسي . ولم يكن هنا أيضاً حزب اشتراكي جزائري في ذلك الوقت . وقد انضم

الجزائريون المهتمون بالاشتراكية الى الحزب الاشتراكي الفرنسي . ولكن كان هناك تعاون تكتيكي بين الحزب الشيوعي الفرنسي والحزب الاصلاحي ثم نجم أفـريقيا الشمالية خلال العشرينات.

وهكذا فبحلول سنة 1930 كان للجزائر كل أشكال وظلال الأحزاب السياسية تقريباً ، من أقصى اليمين الى أقصى اليسار . بعض هذه الأحزاب كان يدعو الى تعاون وثيق مع فرنسا وابقاء الجزائر كمقاطعة فرنسية ، والبعض الآخر كان يطالب بوضع حد للحكم الفرنسي وينادي بالاستقلال الكامل للوطن . وبعضها كان في صالح الاسترجاع الثقافي اللاعنفي للشخصية الجزائرية ، بينما كان آخرون يصرون على استعمال الوسائل الثورية السياسية نحو نفس الهدف . وقد رأى البعض الخلاص في تعاون وثيق مع حركة الجامعة الاسلامية والقومية العربية ، بينما رآه آخرون في التعاون التكتيكي مع الشيوعية أو الديموقراطية.

فأهمية العقد التالي للحرب ، اذن ، تظهر في أن كل الاتجاهات الوطنية الهامة في الوقت الحاضر في الجزائر قد ظهرت خلاله . ولكن هذا العقد كان هاماً أيضاً بالنسبة للحركة الوطنية الجزائرية نظراً للقضايا والأفكار الجديدة التي جاء بها .

جـ ـ قضايا وأفكار جديدة :

بمقارنة الحركة الوطنية الجزائرية مع غيرها من الحركات ، انـدهش الكتاب للشكل الخاص الذي كان للأولى . وبعد أن لاحظ أن العالم الاسلامي كله كان في حالة يقظة خلال العشرينات ، اندهش أوغسطين بيرنار أن يرى الجزائريين يطالبون بالاصلاحات والمساواة مع الفرنسيين ، بينما كان الوطنيون في البلدان الأخرى ينادون بالاستقلال لأوطانهم من أسيادهم المستعمرين . وقد كتب يقول : « انه لمدهش حقاً أن الجزائريين ، لا يطالبون بالاستقلال كما يفعل المصريون ، أو بميثاق دستوري كما يفعل التونسيون »[32].

ولكن لو كان بيرنار واقعياً لوجد أن هذا الوضع لم يكن علامة حب أو رضى بالحكم الفرنسي من جانب الجزائريين ، لقد كان وضعاً ضرورياً . فكل من مصر

---

(32) أوغسطين بيرنار ، « أفريقية الشمالية » ص 79 .

وتونس كانت محمية وقد أبقت السلطة الاستعمارية على الكيان « القومي » لكل منهما . أما الجزائر فلم تكن محمية ولا مستعمرة ، بل أعلنت مقاطعة فرنسية . وفي وقائع التطور الانساني يصبح طلب المساواة من « رعايا » في مقاطعة مساوياً لطلب الاستقلال من « مواطنين » في محمية . وبالاضافة الى ذلك ، فإن الزعماء الجزائريين لنجم أفريقية الشمالية قد طالبوا بالاستقلال الكامل لبلادهم منذ سنة 1927[33].

وهناك رأي لكاتب فرنسي آخر أدلى به سنة 1933 يعتبر أكثر واقعية وان كان موضع جدل أيضاً . فعند مقارنته للحركات الوطنية في أفريقية الشمالية ، وجد هذا الكاتب أنه بينما طورت تونس والمغرب ما يسميه « بالوطنية السياسية » ، طورت الجزائر ما يسميه « بالوطنية الدينية » . وبناء على رأيه ، فإن هذه الظاهرة كانت نتيجة وجود الاطارات الوطنية في تونس والمغرب بينما كانت الجزائر تحت سيطرة الاطارات الفرنسية .

هذا هو الجانب الواقعي من رأيه . ولكن الادعاء بأن الجزائر قد طورت « الوطنية الدينية » يبدو مثار جدل . بالطبع أنه يشير بذلك الى جمعية العلماء ، ولكن هذه المنظمة ، كما سنرى ، كانت ثقافية (بما في ذلك الدين) ولكنها على طول المدى ، كانت سياسية في اتجاهها . وبالاضافة الى ذلك ، فمن النهضة الى سنة 1930 كان للجزائر هيئات وأحزاب وطنية سياسية بشكل لا يقبل النقاش[34].

ومن الظواهر الهامة التي جاء بها العقد التالي للحرب هو اعادة ظهور وتدعيم الصحافة الوطنية . فكل اتجاه سياسي وثقافي سبقت الاشارة اليه تقريباً كان له صحافته الخاصة التي تعكس برنامجه . ومن بين الصحف والمجلات المؤثرة خلال العشرينات : « الاقدام » الناطقة باسم الحزب الاصلاحي ، و« المنتقد » و« الشهاب » الناطقتان باسم العلماء ، و« التقدم » الناطقة باسم الحزب الليبرالي ، و« النجاح » التي كانت عندئذ مستقلة . ومعظم هذه الصحف كانت اما بالعربية واما باللغتين[35].

(33) كما طالب وفد جزائري برئاسة الأمير خالد بحق تقرير المصير منذ 1919 . أنظر سابقاً .

(34) لويس أرمون ، « أفريقية الشمالية والشرق الأدنى» ، في « أ.ف. » (أبريل ، 1933) ، ص 204 .

(35) أنظر أجرون ، « سياسة جزائرية » في «ر.هـ.م.ك.» ، م 6 (أبريل - جوان ، 1959) ، =

وقد كانت القضايا التي تطرقها هذه الصحف مهمة بالنسبة للحركة الوطنية الجزائرية . فكانت فرنسا تحت الهجوم لفشلها في ارضاء آمال الوطنيين ، كما فعلت انكلترا في مصر وايطاليا في ليبيا[36] . وكانت هذه الصحافة تدعو الجزائريين للدفاع عن حقوقهم السياسية وأن يكونوا يقظين . وكانت تدافع عن العربية باعتبارها اللغة الوطنية ، وعن الاسلام باعتباره نظام حضارة الجزائر[37]. ومن الموضوعات الهامة التي ناقشتها الصحف أيضاً خلال العشرينات الوحدة بين الجزائريين ، والتعليم ، والتمثيل النيابي الفعال ، والغاء قانون الأهالي ، والمساواة التامة مع الفرنسيين . وفي سنة 1920 وجه نداء الى السكان جاء فيه : « منذ أكثر من قرن والشعب المسلم الجزائري ينتظر ساعة تحريره والاعتراف بحقوقه . . فلنوحد أنفسنا حتى تنجح مطالبنا »[38] .

من بين القضايا المعنية في هذا العهد المناداة بالتعليم العربي واسترجاع العمل بالمبادىء الإسلامية ، لا من العلماء فقط ، ولكن من جماعة النخبة أيضاً . فالكاتب الفرنسي غوتي ، المعروف بدفاعه عن الاستعمار ، قد روى أن البورجوازية الجزائرية قد أصبحت ، منذ الحرب العالمية الأولى ، تشعر بمركب نقص نحو العربية ، وبدأت تتأسف على جهلها بها . وبناء على قول غوتي ، فإن عضواً من جماعة النخبة قد أخبر زميله الفرنسي في المجلس البلدي بالعاصمة « بأنني أشعر بالخجل من

ص 146 . وديبارمي « رد الفعل اللغوي في الجزائر » في «س.ج.أ.» ، م 36 (1931) ، ص 1 وما يليها . وقد فتح بعض الفرنسيين العاطفين على الجزائريين أعمدة صحفهم إلى الوطنيين الجزائريين . وكان فيكتور سبيلمان من بين هؤلاء . ففي جريدتيه ـ « التريبون » و« ترى دونيون » دافع عن القضية الجزائرية . أنظر عباس ، ص 117 . بخصوص معلومات أكثر عن الصحافة الجزائرية خلال 1919 ـ 1939 . أنظر مراد ، « أ.ب.ل.أ »، م 27 (1964) ، ص 17 ـ 27 . أنظر كذلك محمد ناصر : (الصحف العربية الجزائرية) ، الشركة الوطنية الجزائرية ، 1980 .

(36) طيبال ، «أ.ف.س.» (سبتمبر ، 1921) ، ص 204 . ويسمي المؤلف هذا الهجوم : « شبكة واسعة من المؤامرات الألمانية ـ الإسلامية ـ البولشفية » ضد فرنسا في أفريقية الشمالية .

(37) ديبارمي ، «رد الفعل » في «س.ج.أ.» م 37 (1931) ص 1 وما يليها . أنظر أيضاً مارتينيز ، «ر.د.م.» م 8 (مارس ـ أبريل ، 1922)، ص 659 ـ 660 .

(38) أشار إلى ذلك أوكتاب ديبون ، « الإضطرابات » في «ر.ب.ب.» (1935) ، ص 76 .

عربيتي »[39].

وفي سنة 1921 خطب عضو جزائري في المجلس المالي وطلب في خطبته بتطوير الثقافة الاسلامية وببرنامج واسع لتعليم العربية في الجزائر. وبناء على رواية مارتينيير، فإن الخطيب قد دافع عن القرآن باعتباره أفضل معلم للأخلاق، والفلسفة، والحضارة[40]. وسوف نرى أن العلماء، بحكم ماضيهم، وثقافتهم، وبرنامجهم، قد نادوا بإحياء الشخصية الجزائرية الثقافية كوسيلة لاعادة الشخصية السياسية.

ورغم وضوح تسرب الأفكار الخارجية إلى الجزائر، فإن بعض الكتاب يعتقدون أن هذه البلاد قد بقيت مُنْغَلِقَة في وجه جميع « الاهتمامات الأجنبية ». وبناء على رأي كاتب فرنسي، سنة 1933، فإن السوفياتية، والاشتراكية، والإدارة الفرنسية قد حاولت التأثير على الجزائر، ولكن « بلا جدوى »[41]. ويبدو أن هذا الرأي غير واقعي، لأننا أشرنا إلى أن الأفكار الأجنبية قد تسربت إلى الجزائر منذ التسعينات من القرن الماضي. والنهضة نفسها كانت إلى حد ما نتيجة لتأثير خارجي. وطيلة فترة الحرب العالمية الأولى والعقد الذي تلاها تسربت المذاهب الأجنبية إلى الجزائر وتركت، بلا شك، بصمات كثيرة على حياتها. وسوف نرى ومن مناقشة برامج الأحزاب السياسية ان كثيراً منها كان حافلاً بالأفكار الأجنبية.

وهكذا فإن المستعمرة « الهادئة » كانت تعيش تجربة حاسمة خلال العشرينات فوقع الحرب القوي، وظهور الأحزاب السياسية، ودخول الأفكار الجديدة كانت مميزات هذا العهد. ومعظم هذه القضايا ستدرس بالتفصيل في آخر هذا العمل. ولكن قبل فعل ذلك، لا بد من معرفة كيف كانت فرنسا ترد على هذا « الاندفاع الوطني.. والثورة السياسية، والاصلاح الديني، والأخلاقي، بالإضافة إلى النهضة الأدبية والعلمية » حسب تعبير ديبارمي.

---

(39) أ.ف. غوتي، « أخطار » في « ر.ب. » (1 سبتمبر، 1934)، ص 45.

(40) مارتينيز، « ر.د.م. » م 8 (مارس - أبريل، 1922) ص 338 - 339.

(41) ديبارمي، « قادة الرأي العام الأهلي في الجزائر » في « أ.ف. » (جانفي، 1933)، ص 11. وكان جوليان، الذي سبقت الاشارة إلى وجهة نظره، يأخذ موقفاً مشابهاً.

2. فرنسا المعاندة :

إذا كانت الجزائر والعالم كله قد مر بتحول هائل نتيجة للحرب ، فإن فرنسا قد حاولت أن تحتفظ بسياستها الاستعمارية في مستعمرتها الفذة ، والهادئة . وهذا الموقف قد شمل توسيع وتجديد قانون الأهالي المعادي للحركة الوطنية وإحياء نظام الاحتجاز السري ، وصرف ضغوط الحركة الوطنية على أنها مستوحاة من الخارج ، وغير ذلك ، وخلال عقد واحد عينت فرنسا على الأقل أربعة حكام عامين على الجزائر.

كان أحدهم ، وهو جونار ، معروفاً بعطفه القوي على الجزائريين ، وهو الذي أعلن وبارك اصلاحات سنة 1919 . وكان الآخر هو ستيغ الذي مرت الجزائر خلال عهده بمجاعة قاسية سنة 1921 . كما أن ستيغ كان مسؤولاً على تجديد قانون الأهالي . وكان ثالثهم وهو فيوليت، الذي كان إشتراكياً والذي كان مسؤولاً على احياء العمل بنظام الاحتجاز السري وعلى اضطهاد الحركة الوطنية خوفاً من البولشيفية والشيوعية(42) . وقد خلفه في منصبه بورد ، الذي كان يتمتع برضى الكولون والذي أشرف على احتفالات مرور مائة عام على الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1930 .

ان اصلاحات 1919 لم تضع حداً لشغب الوطنيين الجزائريين ، بالعكس لقد شجعته . فعودة الجنود المسرحين والعمال ، وازدياد الهجرة إلى فرنسا ، وعودة بعض المثقفين الجزائريين من تونس والشرق الأدنى ، والأزمة الاقتصادية سنة 1921 ، والتشجيعات الخارجية ، ولا سيما من الحركة الشيوعية ، كل هذه قد جعلت الجزائر تعيش في حالة اضطراب .. وقد كان رد الفعل الفرنسي على هذه الحالة غير متوقع(43).

ووسط مطالبة الجزائريين بحقوق سياسية أكثر ، زار الجزائر ، الاسكندر ميليران ، رئيس الجمهورية الفرنسية عندئذ ، في ربيع سنة 1922 . وقد تجول في

---

(42) خلال الثلاثينات أصبح فيوليت بطل إصلاحات في الجزائر مبنية على فكرة دمج الشعبين الجزائري والفرنسي . فحين وصل ليون بلوم إلى الحكم سنة 1936 ضم فيوليت إلى وزارته .

(43) بناء على « أ.ف. » (فيفري ، 1923) ، كان في الجزائر خلال سنة 1921 وحدها ، 419 ، 1 ادانة ، 6,696 يوماً سجنا ، 15,560 فرنكا غرامة . أنظر ص 86 ـ 87 من نفس المصدر .

العمالات الثلاث واستمع إلى كثير من الشكاوي والمطالب من أجل الاصلاح . ومن بين الجزائريين الذين ألحوا على هذا السؤال الأمير خالد الذي سندرس فيما بعد نشاطاته . وفي اجاباته اعترف ميليران بأن الجزائر قد خدمت القضية الفرنسية والديموقراطية أثناء الحرب . ولكنه أصر على أن اصلاح سنة 1919 كان جهداً « هاماً » قامت به فرنسا.

وقد أخبر ميليران الأمير خالد وغيره من الوطنيين الذين كانوا يستمعون إليه أنه لا شيء سيكون « أكثر خطراً على الجميع (الجزائريين والفرنسيين) من التقدم بسرعة كبيرة » . وبناء على رأي الرئيس الفرنسي ، فإن مطالبة الجزائريين بالتمثيل النيابي ، الذي كان في نظره « سرعة كبيرة » ، سيضطر الشعبين إلى « المشي إلى الخلف » بدلاً من المشي إلى الأمام . ثم سأل ميليران الجزائريين أن يعطوا الفرصة لاصلاح سنة 1919[44] . وهكذا فإن رد ميليران كان سلبياً وغير مرضي . لذلك كان على الحركة الوطنية أن تبحث لها عن طريق أخرى.

والواقع أن فرنسا لم تفشل فقط في ترضية بعض المطالب الأساسية للوطنيين ، بل خرقت أيضاً اصلاح سنة 1919 . فخلال أقل من سنة من زيارة ميليران للجزائر ، مدت فرنسا من عمر قانون الأهالي خمس سنوات أخرى[45] . وخلال نفس العهد اقترح بعض الفرنسيين أن تضع فرنسا الصحافة الوطنية تحت سلطتها وأن تتخذ اجراءات أخرى تصد بها موجة الحركة الوطنية[46] . وتنفيذاً لهذه الاقتراحات ، نفت السلطات الفرنسية سنة 1923 ، زعيم الحركة الوطنية عندئذ ، الأمير خالد . وبعد ثلاث سنوات (فيفري 1926) أحيت وزارة الداخلية الفرنسية نظام الاحتجاز السري بإعلانها أنها قد وضعت تحت «المراقبة الخاصة» عدداً من الجزائريين الذين كانوا

---

(44) « رحلة رئيس الجمهورية » في « أ.ف.س. » (ماي 1922) ص 132 .

(45) « أ.ف. » (فيفري ، 1923) ، ص 86 . أن هذا القانون قد مد فيه سنة 1920 ثم 1922 قبل تجديده رسمياً .

(46) وورثام ، « مشاكل فرنسا » في « الأطلنطي الشهري » ، م.130 (فيفري 1922) ، ص 558 . وفي 29 ديسمبر مثلث فرقة جزائرية مسرحية عربية بعنوان : « من أجل الوطن » ولكن السلطات الفرنسية منعت تمثيلها مرة ثانية . أنظر سعد الدين بن شنب ، « المسرح العربي في الجزائر (العاصمة) في « ر.أ. » م 77 (1935) ، ص 75 .

« ينشرون السياسة ويقومون بالأعمال المعادية للسيادة الفرنسية »[47].

ان هذه الاجراءات الاستفزازية لم تخرق فقط روح اصلاح سنة 1919 بل روح القانون الفرنسي نفسه أيضاً . فالجزائريون ، بناء على هذا القانون ، كانوا فرنسيين ، فلهم الحق ، إذن ، أن يهاجروا إلى فرنسا بدون قيود . ولكن هذا الحق انتزع منهم ، سنة 1924 ، حين حدت السلطات الفرنسية ، نتيجة لضغط الكولون ، من الهجرة الجزائرية إلى فرنسا.

ومنذ سنة 1923 صوت المجلس البلدي في العاصمة . الذي كان تحت سيطرة الكولون ، على لائحة تطالب بتقييد هجرة الجزائريين إلى فرنسا . وقد وافق وزير الداخلية ، شوتان ، على هذه الرغبة بقرار أصدره في 8 أوت 1924[48] . ان هذا الاجراء أثار رد فعل كبير بين الجزائريين الذين طالبوا بإلغاء القرار في الحال . وبعد حادث تراجيدي[49] وقع نتيجة لذلك القيد ، ألغت السلطات الفرنسية في النهاية القرار . ولكن موجة القمع استمرت دون حدود تحت أعذار مختلفة.

فبإسم الادعاء بأن البولشفيين ، والألمان وأنصار الجامعة الاسلامية كانوا يشنون حملة معادية لفرنسا في أفريقيا الشمالية ، أقامت السلطات الفرنسية نوعاً من« محاكم التفتيش » ضد الوطنيين الجزائريين . ومما يثير الاستغراب أن الذي طبق هذه الطريقة هو فيوليت الاشتراكي ، الذي كان حاكماً عاماً والذي سيصبح ، سنة 1936 أحد زعماء الجبهة الشعبية البارزين . ففي 13 أكتوبر 1925 ، روى فيوليت أنه حين وصل إلى الجزائر (1924) وجد « الشغب سائداً في كل مكان تقريباً في البلاد » . وقد عزا هذه الحالة إلى دعاية الحركة الشيوعية العالمية الثالثة التي اتهمها بتوزيع

---

(47) « الجزائر » في «أ. ف.» (مارس 1926) ، ص 124 ـ 125 . بناء على هذا المصدر كان عدد الجزائريين المعتقلين 28 شخصاً .

(48) لويس ميو ، « هجرة العمال الجزائريين إلى باريس » في «أ. ف. س.» (مارس) ، (1925) ص 95 . ويحتوي هذا المصدر أيضاً على لائحة الكولون ونص قرار وزير الداخلية . كان الكولون يخشون ضياع اليد العاملة الرخيصة إذا إستمرت هجرة الجزائريين إلى فرنسا .

(49) عباس ، ص 18 . خلال نفس السنة هرب جماعة من العمال الجزائريين خفية إلى فرنسا في غرفة الوقود للسفينة « سيدي فرج » . وحين وصلت السفينة إلى مرسيليا كان 12 منهم قد اختنقوا وكان الباقون في حالة غير إنسانية .

المناشير . والكتيبات . والصحف بين الجزائريين . وبناء على رأي فيوليت ، فإن هذا « العتاد الثوري » قد جاء من المكتب السوفياتي في فيينا[50].

ولكن القصة النموذجية لهذا العهد هي « قصة الريغي » ، أو « بعثة الريغي » ، كما كانت تسمى في ذلك الوقت . ففي ربيع 1925 اعْتَقَلَتْ السلطات الفرنسية في الجزائر فريقاً من المتآمرين تحت رئاسة رجل اسمه الريغي[51] . كان الريغي وأصدقاؤه قد حوكموا وصدرت أحكام ضدهم بسنتين سجناً و 1000 فرنك غرامة لكل من أعضاء الفريق . كما احتجزت السلطات الفرنسية وثائق « أصيلة » تحتوي على خطة ثورة في الجزائر[52].

وبناء على المصادر الفرنسية ، فإن المتآمرين ، بالتواطؤ مع الحزب الاصلاحي الذي كان يتزعمه الأمير خالد ، الذي كان قد نفى قبل سنتين ، كانوا سيشعلون نار ثورة في الجزائر منسقة مع ثورة الريف في المغرب الأقصى . وكانت خطتهم ، التي كانت مفصلة في كتيب يحتوي على 18 درساً ، تتمثل في خلق منظمة هجومية قوية تتكون من سبعة أقسام (أو دوائر) وأربعين خلية منتشرة في كامل الجزائر.

كانت مهمة المنظمة وضع المذهب الثوري موضع التنفيذ بإنشاء جمهورية جزائرية تحت حكم البروليتاريا والبورجوازية الوطنية . وكان تكتيك ووسائل المتآمرين هو بث روح الثورة في الأرياف (الدواوير) لاقناع السكان بأن قضية المغرب هي قضيتهم ، واقناعهم برفض دفع الضرائب ، وعصيان أوامر الادارة وأن يلجأوا إلى حرب العصابات . وكان المتآمرون أيضاً سيشكلون حركة وطنية بورجوازية حتى ولو كانت تتنافس مع البروليتاريا . وكانوا أخيراً سيقومون بتنسيق التعاون بين حركتي الأمير خالد والأمير عبد الكريم الخطابي .

---

(50) « في الجزائر » في « أ.ف.س. » (أكتوبر ، 1925) ص 500 . وقد قال فيوليت في بيانه أن السوفياتيين قد خلقوا مكتباً في باريس للدعاية في أفريقية ، وآخر في لندن للدعاية في آسيا ، وثالثاً في براغ للدعاية في وسط أوروبا .

(51) ليس لدينا المعلومات التي تؤكد أصل هذا الرجل . وقد قال النائب الشيوعي فاليان ـ كوتوريي ، أثناء مناقشة برلمانية ، أن الريغي كان عضواً في « جمعية حقوق الإنسان » . أنظر « الحملة الشيوعية ضد أفريقية الفرنسية » في « أ.ف. » (جوان ، 1927) ص 233 .

(52) نفس المصدر .

وقد عقدت بعثة الريفي عدة اجتماعات لتحقيق ذلك الهدف[53] . وبناء على وثيقة احتجزها الفرنسيون في منزل فيكتور سبيلمان الذي كان من الألزاس ويعطف على آمال الجزائريين ، فإن المتآمرين كانوا سيعلنون جمهورية جزائرية « يديرها ممثلون عن كل منطقة »[54] . وكانت هذه الخطة متفقة مع برنامج الحزب الاصلاحي .

وكان ظل البولشفية والخوف من ثورة شبيهة بثورة الريف قد استمرا في اعطاء السلطات الفرنسية في الجزائر الأعذار لقمع الحركة الوطنية ، ففي نفس السنة (1925) اعترف فيوليت أنه كان قد أمر باعتقال أولئك الجزائريين الذين تبرعوا وتعاونوا مع حركة الأمير عبد الكريم في الريف . وقد قال انه فعل ذلك لكي يقضي على « الخطر » الذي كان يهدد الجزائر كلها . ثم عبر عن سروره بأن الانتخابات الجزائرية قد سارت بدون متاعب بسبب ذلك الاعتقال ، ولأن الأمير خالد وأصدقاءه الشيوعيين كانوا غائبين[55] .

وبعد قليل من الوقت أعلن فيوليت ووزير الداخلية ، ألبير سارو ، أنهما لن يتسامحا مع النشاطات الشيوعية في الجزائر . وقد أعطى الحاكم الاشتراكي استجواباً إلى صحيفة فرنسية استنكر فيه الدعاية المؤالية للحركة الوطنية التي كان يقوم بها الشيوعيون في الجزائر . وقد أكد فيه أيضاً أنه مصمم على حجز الصحف التي « تتبع هذه الدعاية البشعة » ووعد أن يأتي بالمسؤولين على ذلك أمام المحاكم . وأخبر فيوليت سائله أن موقفه يتفق مع موقف حكومة باريس لأنه لن يكون مسؤولاً على « تسليم الجزائر إلى الحركة الشيوعية العالمية الثالثة »[56] .

---

(53) « في الجزائر » في «أ. ف. س. » (أكتوبر ، 1925) ص 500 ـ 501 . وفي 24 أوت ، 1925 ، نشرت « لومانيتي » تقريراً ينص على أن الجنود الجزائريين في لبنان قد تمردوا على قوادهم الفرنسيين .

(54) أشار إلى ذلك مورينو ، الذي كان نائباً من الجزائر في المجلس الوطني الفرنسي . أنظر « الحملة الشيوعية » في « أ. ف. » (جوان ، 1927) ص 233 .

(55) « في الجزائر » في «ا. ف. س» (أكتوبر ، 1925) ص 501 .

(56) نوشي ، ص 60 . وقد أعطى فيوليت هذا الاستجواب إلى جريدة (لوماتان) (2 ديسمبر ، 1926) .

وقد استعمل سارو ، الذي كان يجوب الجزائر سنة 1927 ، نفس النغمة تقريباً . ففي خطبة له في قسنطينة أعلن أن حكومته لن تتسامح مع « الدعوة إلى الثورة ، والحرب الداخلية ، والتدهور الوطني » . وقد هدد أن الحكومة الفرنسية سوف تستعمل الأسلحة التي لديها « بدون تهاون » ضد المسؤولين عن الشغب »(57).

ليس هناك من ينكر وجود بعض النشاطات الشيوعية في الجزائر خلال العشرينات . وليس هناك من ينكر أيضاً أن الشيوعيين قد حاولوا أن يغتنموا فرصة سخط الوطنيين . وفي نفس الوقت ليس هناك شك في أن بعض الجزائريين قد حاولوا التعاون مع الشيوعيين لأغراض تكتيكية . ولكن ما يبدو محل شك هو طريقة الفرنسيين في معاملة الحركة الوطنية . فبإسم محاربة الشيوعية ، استعمل الفرنسيون كل الوسائل لقمع الحركة الوطنية المائجة . ولهذا السبب جددوا قانون الأهالي ، وقاموا بانتخابات مشكوك فيها ، وقيدوا هجرة الجزائريين إلى فرنسا ، وخرقوا اصلاح 1919 ، بالإضافة إلى خرق المبادىء الديموقراطية . وحين يميز المرء بين الغث والسمين فإنه سيجد أن الحركة الوطنية الجزائرية كانت أساساً ، حتى سنة 1926 ، ما زالت اصلاحية لا ثورية . فالأمير خالد نفسه ، زعيم هذه الحركة الاصلاحية والذي نفاه الفرنسيون سنة 1923 ، قد اتهمه خصومه بأنه كان « مرابطاً » ، ومتعصباً ، ومحافظاً . وهكذا فإنه يبدو أن طريقة الفرنسيين في معاملة الحركة الوطنية لا تستند على مبررات.

ويتفق الملاحظون المعاصرون على أن التأثير الخارجي ، بما في ذلك الشيوعية ، قد بالغ فيه الفرنسيون . ففي سنة 1922 كتب وورثام يقول انه من المشكوك فيه أن الحركة الوطنية الجزائرية قد تأثرت بالبولشيفية والألمانية ، كما يدّعي الفرنسيون . ولكنه اعترف بأن الفرنسيين كانوا دائماً يشتبهون في التأثير الخارجي ، ثم أكد بأن الحركة الجزائرية كانت « وطنية قطعاً »(58) . وفي نفس الوقت كتبت الجريدة الانكليزية المحافظة ، « التايمز » ، سنة 1927 قائلة أن الشغب الشيوعي في الجزائر كان غير فعّال(59) . وقد لاحظ ديبارمي ، الذي كان يكتب سنة 1933 ،

(57) نفس المصدر .

(58) وورثام ، « مشاكل فرنسا » في «الأطلنطي الشهري» ، م 130 (فيفري ، 1922) ص 558 .

(59) « التايمز » (لندن) ، (21 نوفمبر 1927) ص 13 .

ان الجزائر قد بقيت مغلقة في وجه جميع « الاهتمامات الأجنبية ». ثم أضاف « ان كل محاولات التأثير الخارجي كانت بلا جدوى »[60].

وفي خريف سنة 1927 أبدلت السلطات الفرنسية الحاكم العام الاشتراكي فيوليت بالحاكم بيير بورد . كان بورد محبوباً من الكولون لسوابقه في معارضة الحركة الوطنية الجزائرية . وقبل تعيينه حاكماً عاماً كان يشغل منصب عامل عمالة الجزائر . وكان بورد، سنة 1917 (سنة العمليات التنظيفية) في منطقة الأوراس بعد ثورة سنة 1916 ، يشغل منصب عامل عمالة قسنطينة التي كانت تضم منطقة الأوراس. وبين سنة 1919 و 1920 شغل منصب الكاتب العام للإدارة الفرنسية في الجزائر[61] . لكن بورد كان معروفاً أيضاً بأنه المنظم لاحتفال الفرنسيين بمرور مائة سنة على احتلالهم للجزائر سنة 1930 ، وهو الاحتفال الذي صحبته دعاية واسعة ، والذي كان فرصة أثارت بحدة شعور الجزائريين بالإهانة ، والذي كان له نتائج خطيرة على اتجاه الحركة الوطنية الجزائرية.

ليس هناك نية في تخصيص مساحة كبيرة لاحتفال الفرنسيين بالاحتلال . ولكن ما دام ذلك سيبين كيف عاملت فرنسا المشكل الجزائري خلال العشرينات وما دام ذلك قد أحدث رد فعل واسعاً بين الأهالي الجزائريين ، فإن هذه المناسبة يجب أن تدرس ولو باختصار . ولنذكر أن الاستعدادات لهذه المناسبة قد بدأت منذ بداية العقد.

ففي عصر القوميات الثائرة يبدو أن استعمال الفرنسيين للكلمات الرتيبة مثل « منتصرون » و « مهزومون » ، « ممتازون » و « ناقصون » ، الخ ، كان يزرع سوء التفاهم والاستفزاز فقط . منذ سنة 1922 كتبت مجلة فرنسية من الجزائر ما يلي : « اننا نحن الفرنسيين ، في وطننا في الجزائر . لقد أصبحنا أسياد البلاد بالقوة ، وهذا يعني حتماً أن هناك منتصرين ، ومهزومين ، ومنذ أخضعنا الأخيرين استطعنا أن ننظم البلاد . والتنظيم نفسه يؤكد مرة أخرى فكرة امتياز المنتصر على المنهزم ، وامتياز

---

(60) ديبارمي ، (القادة) في « أ.ف» (جانفي ، 1933) ، ص 11 .
(61) « التايمز » (لندن) ، (21 نوفمبر ، 1927) ، ص 13 .

الانسان المتحضر على الانسان الناقص . . اننا المالكون الشرعيون للبلاد »[62].

وقد استمرت الاستفزازات بمختلف الوسائل طيلة العشرينات . فحوالي سنة 1927 أقام الفرنسيون تِمْثَالاً رمزياً للجنرال لامورسيير، الذي شَهِدَ هزيمة الأمير عبد القادر سنة 1847 ، على قاعدة كبيرة في قسنطينة . وكان التمثال يمثله شاهراً سيفه ضد الجزائريين[63] . فإقامة تمثال لامورسيير ، الذي جاء بعد تحضير نشيط للاحتفال بالاحتلال ، وبعد قمع مستمر للحركة الوطنية ، كان بدون شك ، مناسبة لإثارة عواطف حادة لدى الجزائريين.

لقد كلف الاحتفال المئوي بالاحتلال الخزينة الفرنسية ما لا يقل عن 130 مليون فرنك . كان هدف الاحتفال هو الفرح بالاحتلال الذي « قضى على هذه الدولة (الجزائرية) التي كان وجودها مصدر إحراج لأوروبا خلال ثلاثة قرون »[64] . وقد دام الاحتفال أكثر من ستة أشهر ، فقد بدأ في جانفي وانتهى في 5 جولييت 1930 ، تاريخ استسلام حكومة الداي.

وكان البرنامج يشتمل على معارض ، واستعراضات ، ومحاضرات ، وألعاب ، وأفلام ، ومطبوعات ، وجولات سياحية ، وافتتاح منشآت جديدة ، الخ . ومن بين الاستعراضات واحد يعيد كيفية دخول الجيش الفرنسي الى العاصمة سنة 1830 . وكانت الدعوات قد وجهت إلى كثير من الشخصيات والصحف الأجنبية والفرنسية . ولكي تعطى صورة عن انجازات فرنسا في الجزائر ، تولت أكاديمية الجزائر العاصمة طبع سلسلة من الأعمال تحت عنوان « مجموعة الاحتفال المئوي » بهدف جعلها « في متناول جمهور كبير » من المهتمين[65].

---

(62) نص على ذلك عباس ، ص 118 ـ 119 من مجلة « أفريقية اللاتينية » (1922) . وقد علق عباس على ذلك بأن عنوان هذه المجلة كان برنامجاً بنفسه . والواقع أن الانسان يلاحظ بسهولة بذور الفاشية في النص أعلاه .

(63) نفس المصدر ، ص 124 .

(64) « التايمز » (لندن) ، (15 ماي ، 1928) ص 15 . كان مراسل هذه الجريدة يشير الى نص من القائد العام للقوات الفرنسية سنة 1830 ، وهو الكونت دي بورمون .

(65) برنامج الاحتفال المئوي للجزائر في «أ. ف. س» (ماي، 1929) ، ص 326 ـ 327 . ولكي يجعلوه أكثر زخرفة ، أوحى الفرنسيون الى رجالهم في الجزائر ، (بني وي - وي) ، أن يحتفلوا أيضاً بالمناسبة . وفي 14 جوان يوم نزول القوات الفرنسية ، نظم أولئك الجزائريون حفلة حضرها الحاكم =

وبينما كان الفرنسيون يحتفلون بالاحتلال ، كان الجزائريون الوطنيون يهمسون بالكلمات الآتية : « انهم (الفرنسيون) يحتفلون بالقرن الأول ، ولكنهم لن يحتفلوا بالقرن الثاني » . وقد كان هذا التنبؤ « على كل شفة » في البلاد . والواقع أن أولئك الجزائريين كانوا فيما بعد يشيرون الى الاحتفال بأنه « مهازل » سنة 1930(66) . ان رد الفعل الجزائري كان حاضراً . وذلك يدل على أن الفرنسيين كانوا مخطئين حين لم يبالوا بقوة الحركة الوطنية الجزائرية . ولقد وصف الفرنسيون هذه الحركة على أنها استفزازات خارجية . ولعل دراسة مختصرة لرد الفعل الجزائري ستحقق الهدف.

كان نجم افريقية الشمالية باعتباره حزباً ثورياً ، قد سبق إلى استنكار الاحتفال المئوي . فخلال صيف 1928 وزع الحزب منشوراً بالعربية ، والفرنسية في الجزائر بخصوص الاحتلال . كان عنوان المنشور « النضال ضد الامبريالية الفرنسية » . وقد تحدث باسهاب عن الاحتلال ونتائجه ، فاستنكره على أنه « تقتيل النساء والأطفال ، وحرق القرى والمحاصيل ، واختلاس الثروة من جيش عطشان للدم والنهب » . وقد ذكر المنشور الجزائريين أن الفرنسيين « لكي يمنعونا من الصراخ : إلى اللص ! إلى القاتل ! كموا أفواهنا بقانون الأهالي »(67).

وقد نشر النجم أيضاً « بياناً » في جريدته « الاقدام » (جوان ـ جوييه 1928) ، بعنوان « من أجل استقلال أفريقيا الشمالية » . وفي هذا البيان نادى الحزب الجزائريين أن « أعلنوا حقوقكم ؟ » وطالبهم بأن « أعدوا أنفسكم للاحتفال باحتلال بلادكم على طريقتكم الخاصة ، بتنظيم حركة واسعة ضد الامبريالية(68).

ان « مهازل » الفرنسيين سنة 1930 قد جعلت بعض الجزائريين يكتشفون الأخطار التي كانت تحدق بشعبهم . وبناء على قول أحد الفرنسيين ، فإن بعض

العام وغيره من الفرنسيين الرسميين . وقد خطب « ممثلو » الأسر الكبيرة ، والمرابطين ، والمجالس المحلية : كلهم بالطبع قد مدحوا فرنسا . أنظر « الجزائر » في «ا.ف.» (جوليت ، 1930) ، ص 415 ـ 416 .

(66) ج . ديبارمي ، « مساهمة في تاريخ الجزائر المعاصر » في «ا.ف.» (جويلية 1937) ص 355 .

(67) نص على ذلك في « الدعاية الشيوعية في أفريقية الشمالية » في «أ.ف.س.» (أكتوبر 1928) ص 653 .

(68) نفس المصدر ، ص 654 .

الجزائريين كانوا ، أثناء الاحتفال ، يصفون الأحوال السيئة لبلادهم ويتأسفون على « شعبهم الميت الذي تحدثت بتعاسته الركبان ».

أما الجريدة الوطنية « المغرب » (23 جوان ، 1930) فقد وجهت لومها إلى « نخبة الشعب » الذين لم يحركوا ساكناً . ونادت « مفكري » الشعب الجزائري لكي يظهروا للعالم أنهم « قادرون . . . على تكوين كتلة من المناضلين للدفاع عن وجود الأمة »[69].

والحق ان الاحتفال الفرنسي قد ساعد على مضاعفة جهود الحركة الوطنية الجزائرية . ومن بين نتائج هذه المناسبة خلق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931 . ومن ذلك أيضاً تصاعد الروح النضالية بين أعضاء نجم أفريقية الشمالية ، الذين أعلنوا استقلالهم الكامل عن الشيوعيين وبدلوا اسم حزبهم من النجم إلى حزب الشعب الجزائري . وهناك نتيجة ثالثة ، وهي عزل النخبة أو المسمون بالمعتدلين ، الذين غيروا في النهاية موقفهم من متعاونين إلى جماعة ضاغطة . والخصائص الرئيسية لهذه التحولات وردود الفعل الداخلية سوف تلاحظ حين ندرس هذه الجماعات السياسية ، كل على حدة ، في الفصل التالي .

ان موقف الحزب الشيوعي الفرنسي ، الذي كان إلى سنة 1935 يضم الشيوعيين الجزائريين أيضاً ، بخصوص الاحتفال المئوي جدير بالذكر . ففي ماي 1930 ، أصدر الحزب تصريحاً في أربع صفحات في هذه المناسبة . وقد خاطب التصريح الجنود الجزائريين في الجيش الفرنسي بهذه الطريقة : « من أجل استقلال بلادكم ، ومن أجل مطالبكم ، تآخوا مع العمال ».

وقد تضمنت الصحفة الأولى من تصريح الحزب الشيوعي الفرنسي صورة ساخرة (كاريكاتير) تظهر الفرنسيين زمن الاحتلال يحرقون المنازل ويطردون السكان . وبعد تتبع آثار الاستعمار على السكان ، توجه التصريح إلى الجنود الجزائريين وطالبهم بأن يرفضوا المحاربة في « الحروب الامبريالية » في المغرب وسورية . وبناء على التصريح المذكور ، فإن الاحتلال كان من عمل البورجوازية الفرنسية والجزائرية أيضاً.

---

(69) نص على ذلك ج. ديبارمي ، « مقاومة الغرب » في « أ. ف. » (ماي ، 1933) ص 265 .

ثم نادى الحزب الشيوعي الفرنسي الجزائريين أن يسيروا جنباً إلى جنب مع العمال الفرنسيين ، « لكي تدافعوا عن مصالحكم ، ولكي تساعدوا الشعب الجزائري في كفاحه ضد الإمبريالية ، ولكي تحققوا إستقلال الجزائر »(70) . إن المأزق الإستعماري ، والقومي ، والعالمي ، للحزب الشيوعي الفرنسي بخصوص المسألة الجزائرية ، سيكون محل دراسة لاحقة. أما الهدف الرئيسي هنا فهو ملاحظة رأي هذا الحزب إزاء الإحتفال بالإحتلال .

وقد إستنكر إحتفالات سنة 1930 الجزائريون المتمردون في أوروبا أيضاً ، ولا سيما في ألمانيا ، ففي برلين نظمت « لجنة المغرب العربي » ، التي تعتبر نفسها إمتداداً « للجنة الدفاع عن أفريقيا الشمالية » التي أنشئت أثناء الحرب ، مؤتمراً كبيراً للإحتجاج على الإحتفال الفرنسي . وفي هذه المناسبة أصدر المتمردون الجزائريون بياناً بعنوان « قرن من إستعباد المسلمين الجزائريين تحت النير الفرنسي » . وبناء على رأي كاتب فرنسي معاصر ، فإن السلطات الفرنسية قد منعت هذا البيان من دخول أفريقيا الشمالية كلها(71) .

إن الناظر في موقف السياسة الفرنسية نحو الحركة الوطنية الجزائرية سيجد أن عقد العشرينات لم يكن أفضل من سابقه . ويظهر السجل أنه كلما ضغطت هذه الحركة من أجل الإعتراف بها ، أصبح رد فرنسا أكثر جفاء وسلبية . ورغم تواضع إصلاح سنة 1919 فإن الفرنسيين قد خرقوه بتجديد قانون الأهالي والإحتجاز السري ثم بحل نجم أفريقيا الشمالية ، سنة 1929 ، وبإنتخابات مشكوك فيها ، وبتقييد هجرة الجزائريين إلى فرنسا ، وأخيراً باضطهاد الصحافة الوطنية . وقد صرفت السلطات الفرنسية مطالب الوطنيين من أجل الحقوق السياسية على أنها من وحي الدعاية الشيوعية ، والألمانية وحركة الجامعة الإسلامية .

وقد بلغت هذه السياسة السلبية أوجها في إحتفال 1930 . ففي هذه المناسبة فتح الفرنسيون جروحاً قديمة ووجهوا ضربة مصدمة إلى شهامة العنصر المقهور مرة ثانية . وقد دفع الفرنسيون بمهرجاناتهم ، وأفراحهم ، وإستعراضاتهم غير

---

(70) أشير الى ذلك في « الجزائر » في « أ. ف. » (ماي ، 1930) ، ص 21 ـ 278 .

(71) ل. موهندس، «هجوم على أفريقية الفرنسية الشمالية» في (أ. ف.) (ديسمبر. 1934)، ص 701 .

الضرورية ، الجزائريين ، الذين لم ينسوا أبداً أنهم كانوا قد إنهزموا والذين كانوا يعيشون في عهد وصفه بعض المعاصرين بأنه عهد بعث وطني - دفعوهم إلى أن يضغطوا بقوة من أجل حقوقهم وأن يشدوا أحزمتهم إستعداداً لجولة جديدة مع فرنسا . وهكذا فإن سنة 1930 قد مثلت تاريخاً هاماً في العلاقات الجزائرية - الفرنسية .

ولكن عقد العشرينات كان هاماً أيضاً في علاقة الحركة الوطنية الجزائرية بمشاكل أفريقيا الشمالية والمشاكل العربية . فمنذ سنة 1916، كانت هذه المناطق تعيش تحت ظروف جديدة خلقت نتيجة للحرب من جهة ، ولدفع الحركة القومية من جهة أخرى . ونظراً لأن الجزائريين كانوا قد تأثروا بطريقة أو بأخرى بحوادث أفريقيا الشمالية والعالم العربي ، فإن بعض الإنتباه يجب أن يعطى الآن لهذه الناحية .

3. من الرباط إلى بغداد :

إن الهدف من هذا القسم هو وصف رد الفعل الجزائري الشعبي للحوادث التي كانت تجري في أفريقيا الشمالية وفي العالم العربي خلال العشرينات . وسنتتبع في هذا القسم أيضاً ردود فعل هاتين المنطقتين للتطورات التي كانت تحدث في الجزائر في نفس الفترة . وليس هدفنا دراسة هذه الأحداث نفسها في المناطق التي وقعت فيها . فلن نتناول مثلاً ثورة الريف في المغرب ، ولا الإنتداب الفرنسي على سورية ، ولا إستقلال مصر ، ولا الحرب في ليبيا .

وفي سنة 1925 ، لاحظ المؤرخ توينبي ان « الجزائر منطقة من العالم الإسلامي ، حيث كان من الصعب على المجتمع الإسلامي أن يحافظ على قواعده الخاصة »[72] . حقاً أن التأثير الغربي كان بالقوة أقوى في الجزائر منه في أي جزء آخر من العالم الإسلامي . ولكنه واقعياً ، كان ضئيلاً وسطحياً ، لعدة أسباب .

أولاً ، إن الخاصية الرئيسية للحكم الفرنسي في الجزائر كانت الإستغلال لا الحضارة . لقد سبقت الإشارة إلى أن الفرنسيين أنفسهم كانوا يفخرون بأنهم قد

(72) «مدخل» ، 1925 ، م1 ، ص 175 .

إحتلوا الجزائر بالقوة . ولما استقروا هناك ، خلقوا مجتمعين منفصلين ، أحدهما للمواطنين الفرنسيين (المنتصرون) ، وآخر للرعايا الفرنسيين (المنهزمون) . والحق أن المجتمعين قد بقيا منفصلين بإجراءات شرعية وحواجز إجتماعية ـ عنصريّة.

ثانياً ، إن المجتمع الجزائري ، الذي قطع من بقية العالم حوالي قرن ، قد نما جافاً ، ومحافظاً ، ومتشككاً في التسرب الفرنسي . ولم يكن هناك إلا أولئك الجزائريون الذين تلقوا بعض التعليم الغربي ، قد بدأوا يتساءلون عن قيمة العادات ، والتقاليد الإسلامية ، والقيم القديمة . أما بقية الأهالي فقد ظلوا معزولين ، خرافيين ، ومحافظين . وكان حضور المجتمع الفرنسي بينهم قد جعل الجزائريين يعتقدون أن ثقافتهم كانت تحت تهديد مستمر . لذلك أصبح شعار الأغلبية منهم هو المحافظة على التراث الثقافي كما هو ، فقد كانوا يشعرون أن التغيير لن يصلح ثقافتهم بل سيؤدي إلى إحلال ثقافة أجنبية محلها(73) .

إن هذا النوع من رد الفعل الجزائري كان له بعض النتائج . إن قدرة المجتمع الجزائري على الإبقاء على الحالة الراهنة قد أظهرت نفسها في شكل جفاف ومحافظة . وكما لاحظ البروفيسور توينبي ، ان هذا المجتمع قد شعر أن مقاومته للثقافة الفرنسية قد لا تكون نافذة المفعول إذا لم ينشد مساعدات أخرى . وإن هذه المساعدة الخارجية قد أصبحت واضحة بعد الحرب . ففي العشرينات من هذا القرن كان الجزائريون يبحثون في كل مكان عن المساعدة لمقاومة الحكم الفرنسي ، لا سياسياً بل ثقافياً أيضاً ، ولكن توينبي كان على حق حين كتب أن « الحركات الوطنية في مصر ، وفلسطين ، وسورية تجد صدى في تونس والجزائر »(74) . ويجب أن نضيف أن نفس الشيء كان صحيحاً بالنسبة للحركات الوطنية في المغرب ، وليبيا ، وتونس . لقد كان الجزائريون يتتبعون بإهتمام كبير التطورات التي كانت تحدث في تلك المناطق .

وأكثر حادث معروف في أفريقية الشمالية بعد الحرب العالمية الأولى هو ثورة

(73) هذا لا يعني أنه لم يكن هناك مطلب بالاصلاح من الجزائريين . أنه يعني فقط أن كل تغيير يجب أن يكون في اطار الثقافة الوطنية .

(74) نفس المصدر ، ص 95 .

المغرب ضد فرنسا واسبانيا . لقد أشرنا من قبل إلى أن المغـرب كان منـذ إعلان الحماية الفرنسية ، سنة 1912 ، في حالة ثورة . فتحت قيادة الأمير عبـد المالـك الجزائري ، تسبب الوطنيون ، بالمساعدة المعنوية ، وفي بعض الأحيان المادية من القوات المركزية ، في خسائر كبيرة واضطرابات مستمرة لفرنسا طيلة فتـرة الحرب العالمية الأولى . وقد كانت أسبانيا عندئذ محايدة أو عاطفة على الـوطنيين . وبعد الحرب إختلف الأمير عبد المالك ومساعده الأمير عبد الكريم على الإستراتيجية : فالأول كان يريد مواصلة الحرب ضد فرنسا ، بينما أراد الثـاني إعلان الثـورة ضد أسبانيا . وحين قتل الأمير عبد المالك ، سنة 1924 ، واجه الأمير عبد الكريم قوات فرنسا وأسبانيا المتحالفة ، التي اضطرته إلى الإستسلام سنة 1926 .

والحق أن كل المغرب العربي كان قد تأثر بأحداث المغرب . وكان تدخـل الأيديولوجيات الأجنبية ، مثل الشيوعية ، قد أضاف إنتشاراً وإثارة لهذه الأحداث . وقد نادى الأمير عبد الكريم الذي كان قد فتح ، منذ سنة 1925 ، جبهة جديدة ضد فرنسا ، بالإضافة إلى الجبهة الأصلية ضد أسبانيا ، جميع أهل المغرب ليشاركوه في تحرير المنطقة كلها . ومن بين نداءاته نداء 15 أوت ، 1925 . ففي هذا النداء أو البيان ، دعا الأمير عبد الكريم الجنود الجزائريين والتونسيين في الجيش الفرنسي إلى التمرد و « تحطيم نير العبودية ، وطرد المعتدين ، وتحريـر أوطانكم » . وقـد حث الأمير عبد الكريم أيضاً على التعاون مع شعـوب الشرق لتحـرير المغـرب العربي كله[75] .

وتحت سلطة فيـوليت الإشتـراكي ، كحـاكم عـام على الجـزائـر ، عـانى الجزائريون اضطهادات كبيرة نتيجة إتهامهم بوجود علاقة لهم مع ثورة المغـرب . فالأمير خالد كان قد نفي ، ونظام الإحتجاز السري كان قـد أعيد ، والجـزائريـون المشتبه فيهم كانوا قد طوردوا لمنع حدوث أية ثورة مشابهـة في الجزائـر أو تنظيم مساعدة فعالة للمغاربة . وقد أشرنا من قبل إلى أن بعثة الريفي كـانت قد اتهمت بتنظيم ثورة في الجزائر لصالح الأمير عبد الكريم وبث دعاية معادية لفرنسا . كما أن عدداً من الجزائريين كانوا قد اعتلقوا بحجة أنهم قد « دافعوا عن عبد الكريم وتنبأوا

(75) نوشي ، ص 59 .

بوصوله قريباً إلى الجزائر لتخليص شعبها من نير المستعمرين » . كما اتهم جزائريون آخرون بالتعاون مع الشيوعيين في جهودهم لمساعدة الأمير عبد الكريم وتخريب الروح الفرنسية المعنوية في المغرب[76] .

ولم يعان الجزائريون في وطنهم فقط بسبب تأييدهم لثورة المغرب ، بل عانوا أيضاً من أجلها في الخارج . ففي صيف 1925 طردت فرنسا أحمد توفيق المدني ، الجزائري الأصل ، من تونس إلى الجزائر . وقد كان إلمدني ، في وقت طرده ، كاتباً عاماً لحزب الدستور التونسي ، ومحرراً لجريدة « أفريقيا » . كان الفرنسيون قد اتهموه بتأييد الثورة المغربية وإثارة الأهالي بكتاباته[77] . وخلال نفس السنة كتب حسن قلاتي ، المحامي الجزائري الأصل أيضاً في تونس ، سلسلة من المقالات بعنوان « دراسة عن وضع مسلمي الجزائر » في جريدته « النهضة » . وقد منع فيوليت هذه الجريدة من دخول الجزائر ، رغم أنها كانت معروفة باتجاهها المعتدل والمعادي للبولشفية[78] .

وخلال سنة 1924 نظم الجزائريون في باريس حملة دعاية واسعة لصالح الثورة المغربية والقضية الجزائرية . فتحت إشراف منظمة تدعى « الإتحاد العالمي » (التي يبدو أنها كانت تحت تأثير الحركة الشيوعية) عقد الجزائريون عدة مؤتمرات كان فيها الأمير خالد ، الزعيم الوطني المنفي هو المتحدث الرئيسي . وقد احتجوا ضد الأحوال التي كان العمال الجزائريون يعيشون تحتها في فرنسا . كما عبروا عن سرورهم لنجاح الأمير عبد الكريم في المغرب ، وطالبوا بطرد أسبانيا من منطقة الريف . وفي نفس الوقت بعث الأمير خالد تهانيه إلى الأمير عبد الكريم لنجاحه في حربه ضد أسبانيا . وفي 27 سبتمبر ، دعا الجزائريان حاج علي عبد القادر ومحمد بن الأكحل ، إلى إجتماع أهالي المغرب العربي في باريس للمطالبة « بجلاء قتله

(76) نفس المصدر . النص مأخوذ من تقرير وزارة الداخلية الفرنسية .

(77) أنظر « الوضع في تونس » في «أ. ف.» (جويليه ، 1925) ، ص 326 . ان نفس المدني ساهم في نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين . وقد لعب دوراً نشيطاً في الحركة الوطنية الجزائرية بعد طرده من تونس .

(78) «الجزائر» في «أ. ف.» (جوان ، 1925) ، ص 288 . كان قلاتي زعيماً لحزب الاصلاح في تونس ، وكانت « النهضة » هي الصحيفة الرسمية لهذا الحزب .

اخوانهم عن المغرب »[79] .

وقد نشرت جريدة عربية مصورة بإسم « لافابريك » قصصاً مصورة عن السياسة الفرنسية في الجزائر خصوصاً والمغرب العربي عموماً . ومن بين ما إحتوت عليه من القصص المصورة ما يلي : « إن العامل العربي يموت جوعاً بينما يسمن البورجوازي الفرنسي . أنهم (الفرنسيين) يبنون لنا مسجداً في باريس ، ولكن طائراتهم تحطم مساجدنا في المغرب . حين لا يستطيعون أن يقتلونا بضربات عصيهم ، يجعلوننا نموت في ميدان المعارك »[80] .

وفي 7 ديسمبر 1924 ، انعقد أول مؤتمر شمال أفريقي في باريس . وكان المؤتمر مؤيداً من الحزب الشيوعي الفرنسي . وقد حضره 150 عضواً يمثلون 75,000 عامل من المغرب العربي في باريس ، معظمهم جزائريون[81] . وكانت أهداف المؤتمر الرئيسية هي :

1 ـ النضال من أجل إلغاء قانون الأهالي وغيره من القوانين الإستثنائية .

2 ـ الكفاح من أجل حق الإجتماع ، وحرية الصحافة والكلام .

3 ـ تنظيم جولات دعائية بين الأهالي ثم تقديم تقرير عن أحوالهم إلى المؤتمر الجامع[82] .

وفي الختام وافق المؤتمر على بعض الاجراءات الجديدة بالدراسة . فقد بعث ببرقية تأييد وتعاطف الى المغاربة ، والتونسيين ، والمصريين ، والسوفياتيين . وفي برقيته الى « الشعب المغربي والى عبد الكريم » قال المؤتمر انه في هذه « اللحظة التاريخية » يهنيء المحاربين « الاخوة المغاربة وزعيمهم البطل .. على نجاحهم

---

(79) «البولشفية والعمل الاستعماري الفرنسي» في «أ. ف.» (أكتوبر ، 1924) ، ص 532 . وقد نقلت هذه المجلة النص العربي من «لومانيتي» . أنظر أيضاً أوكتاف ديبون ، « البربر في فرنسا » في « أ. ف. س. » (سبتمبر ، 1925) ، ص 437 .

(80) أشار الى ذلك ديبون ، « البربر في فرنسا » في «أ. ف. س.» (سبتمبر ، 1925) ، ص 437 .

(81) «البولشيفية» في «أ. ف.» (نوفمبر، 1924) ، ص 580 . وبناء على هذه المجلة ، فان « لومانيتي » (13 نوفمبر) قد قالت أن هذا المؤتمر كان تحقيقاً للاتحاد بين «البروليتاريا المستعمرة والبروليتاريا الأوروبية» . كان عدد أهالي المغرب العربي في فرنسا كلها قد قدر بحوالي 150,000 .

(82) نفس المصدر (ديسمبر ، 1924) ، ص 624 ـ 625 .

ضد الامبريالية الاسبانية » . وقد أعلن المؤتمر تضامنه الكامل مع المغاربة من أجل « تحرير بلادهم » . وانتهت البرقية بهذه الكلمات « ليحيى استقلال الشعوب المستعمرة ! تسقط الامبريالية الفرنسية ! » .

أما في برقيته إلى الوطنيين المصريين فإن المؤتمر قد أعلن أنه يقف بكل قلب أعضائه وراء «الاخوة المسلمين في مصر « الذين » اعتدى عليهم وهددهم بالمجاعة الاستعمار البربري الذي تقوم به الحكومة البريطانية » . لذلك أيد المؤتمر الاستقلال الكامل لمصر . وفي نفس الوقت أعلن المؤتمر تضامنه مع التونسيين « من أجل موقفهم الشجاع تجاه حكومة كتلة اليسار » الفرنسية . وأخيراً بعث المؤتمر الأول لأهل شمال أفريقيا في باريس برقية تأييد الى اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية[83] .

ان أهمية هذا المؤتمر واضحة من أنه كان مقدمة لانشاء نجم أفريقيا الشمالية ، الذي ولد بعد أقلْ من سنتين من ذلك التاريخ . وليس لدينا في الوقت الحاضر معلومات عما اذا كان الأمير خالد حاضراً هذا المؤتمر . ولكن من المعروف أنه كان في باريس صيف سنة 1924 . وفي نفس الوقت ، فانه يبدو أن مؤسسي النجم ـ ابن الأكحل ، ح ، علي عبد القادر ، عمار ايماش ، وأحمد مصالي ، وغيرهم ـ كانوا قد حضروا مؤتمر أفريقيا الشمالية الأول . وقد ضم المؤتمر ، بالاضافة الى الجزائريين ، مغاربة وتونسيين .

وقد تسببت حرب الفاشيين في ليبيا في تأييد الجزائريين الكامل لجيرانهم الليبيين . وكانت الصحافة الجزائرية تصف موسوليني بأنه « أعظم عدو للاسلام » . أما الحرب نفسها فقد وصفتها نفس الصحافة بأنها « فظائع الاستعمار الايطالي » . وكان المحاربون الليبيون يدعون « بالأبطال المسلمين » . وقد شجب الجزائريون ايطاليا لاعدام البطل الليبي عمر المختار الذي كان محبوباً كثيراً في الجزائر[84] . ومن جهة أخرى ، كان الجزائريون يحاولون اقناع فرنسا بأن ايطاليا كانت أكثر منها

---

(83) نفس المصدر .

(84) ج. ديبارمي ، « العلماء الجزائريون والدعاية الايطالية» في «أ.ف.» (ماي ، 1938) ص 210 ـ 211 .

ليبرالية بادخالها الاصلاحات في ليبيا بينما هي لم تقم بذلك في الجزائر .

وبناء على قول كاتب فرنسي ، فان نوري بك ، أخ أنور باشا التركي ، قد طاف ليبيا وتونس سنة 1920 مؤكداً لمستمعيه أن حرب النار قد انتهت ، ولكن حرب السياسة كانت في بدايتها فقط ، وان الاستقلال كان على وشك التحقيق . ونفس الكاتب الفرنسي قد أكد أن الأحداث في ليبيا كانت لها نتائج هامة في كل من تونس والجزائر[85].

ورغم العقبات الكثيرة التي وضعتها السلطات الفرنسية أمام الصحافة العربية المطبوعة في الشرق الأدنى ، فان هذه الصحافة قد استمرت في التسرب الى الجزائر بشتى الطرق . ولما كانت الصحافة عادة تحت اشراف المتمردين الجزائريين ، والمصلحين الاسلاميين المصممين ، والمؤمنين بالقومية العربية، فإنها قد أبقت الجزائريين على اطلاع بأحوال الشرق الأدنى ، ولا سيما الوطن العربي . فأخبار الثورة السورية ضد فرنسا ، والضغط المصري على بريطانيا من أجل الاستقلال ، وانشاء مملكة فيصل في العراق ، والأحداث في الحجاز ـ كلها قد وصلت الجزائر بواسطة هذه الصحافة ، رغم « كل طرق منعها » ، بناء على قول كاتب فرنسي . وكان للجزائريين طرق أخرى للاطلاع على الأحداث في الشرق الأدنى ، منها الحج ، والمراسلات الخاصة ، والزوار . وبالاضافة الى ذلك ، عاد بعض المهاجرين الجزائريين الى وطنهم من الشرق الأدنى بعد الحرب . وبناء على رأي كاتب فرنسي ، فان كل ما كانت تمر به فرنسا في سورية يترجمه الجزائريون الى أعمال وطنية[86] .

وفي نفس الوقت ساعد الرحالة والصحفيون من الشرق الأدنى على توضيح الحالة الجزائرية الى قرائهم . وكان هؤلاء عادة ينتقدون فرنسا لوقوفها بين الجزائريين وتطورهم الوطني . فتحت عنوان « رسالة من مسافر عراقي » نشرت الجريدة البغدادية « العراق » (18 ديسمبر 1928) عرضاً بقلم مجهول عن رحلة صاحبه الى الجزائر

---

(85) مارتينيز «ر.د.م.» م 8 (مارس ـ أبريل ، 1932) ، ص 663 .

(86) طيبال ، « أ.ف.س.» (سبتمبر ، 1921) ، ص 204 ـ 205 . كتب المؤلف مقاله في الجزائر العاصمة في فيفري من نفس العام .

وتونس . وقد لاحظ كاتب الرسالة أن الروح الوطنية قد انتهت في الجزائر منذ وفاة الأمير عبد القادر ، وأن فرنسا قد قضت على كلمات مثل « الوطن » و « الحرية » في الجزائر . وقد لاحظ أيضاً أن التعليم العربي كان مهملاً من فرنسا ، وأن الجزائريين قبلوا هذا الوضع « غير العادل » الذي فرضه الفرنسيون عليهم .

وقد لاحظ المسافر العراقي كذلك أنه من وقت لآخر يظهر زعيم في الجزائر يطلب من فرنسا لا الاستقلال ولكن معاملة عادلة فقط لشعبه ، غير أن فرنسا ترد بوضع هذا الزعيم في السجن ، منهية بذلك حركته[87] . وقال المسافر العراقي انه في بعض الحالات يذهب الجزائريون الى تونس والشرق الأدنى ، ويتعلمون اللغة العربية والفكرة القومية ، ثم يعودون الى بلادهم ، ولكنهم حين يطلبون من السلطات الفرنسية أن يبنوا المدارس وينشؤوا الصحافة ، لا يجابون لذلك . ومنذ الحرب العالمية الأولى ، بناء على رأي المسافر العراقي ، بدأت السلطات الفرنسية تعطي الرخص بتلك المشاريع ، ولكن بشكل محدود جداً . ولهذا السبب ، كان للجزائر عندئذ (وقت زيارته لها) بعض الصحف والمدارس، والجمعيات الخيرية، والنوادي الثقافية بالعربية . وقد أنهى كاتب الرسالة المجهول ملاحظاته باعلان أن الجزائر كانت في طريق التطور مجارية الخط الذي كان يتطور فيه الشرق الأدنى[88] .

ومن الواضح أن الجزائر لم تعد معزولة خلال العشرينات ، كما كانت قبل الحرب . فالأحداث التي كانت تجري في المغرب العربي ، وفي الشرق الأدنى ، وبين المهاجرين الشمال أفريقيين في فرنسا قد وجدت تجاوباً كبيراً في الجزائر . كانت تلك الأحداث تصل الى الجزائر بطرق مختلفة ، بما في ذلك الصحف الشرقية ، والحج ، والرسائل ، والمسافرين ، الخ .

وقد كانت نشاطات المهاجرين الجزائريين في فرنسا ذات أهمية كبيرة . ولا

---

(87) يبدو أن في هذا اشارة الى الأمير خالد ، الذي لم يطالب بالاستقلال ، ولكن بالمساواة مع الفرنسيين ، وكان مصيره النفي .

(88) نقل ذلك في « المسالمون ضد أفريقية الفرنسية الشمالية » في «أ.ف.س.» (فيفري ، 1929) ص 163 ـ 164 . لاحظ الرحالة العراقي أنه وجد في « نادي عربي » (لعله يقصد نادي الترقي الذي كان قد أنشىء سنة 1927) كل الجرائد الاسلامية والعربية بالعربية . تبين أن هذا العراقي هو يونس بحري الذي كان يوقع مقالاته باسم (السائح العراقي) .

سيما عقد مؤتمر أفريقيا الشمالية الأول ، سنة 1924 ، ونتيجة لتأييد أنصارهم الأوروبيين واتصالاتهم المباشرة مع الأيديولوجيات الجديدة في أوروبا ، كان المهاجرون في طريقهم الى توجيه كل مصير المغرب العربي . وفي نفس الوقت وجدت التطورات الجارية في الجزائر نفسها أصداء لدى الرحالة والملاحظين الأوروبيين والشرقيين الذين انتقدوا فرنسا بشدة على سياستها في الجزائر . ومن بين أولئك الذين هاجموا السياسة الفرنسية في الجزائر خلال هذا العهد هو « الكومينتيرن » أو الحركة الشيوعية العالمية .

دعنا الآن ندرس موقف هذه الحركة من الحركة الوطنية الجزائرية .

4. ظل الكومينتيرن :

الوطنية الجزائرية والحركة الشيوعية العالمية :

في تقريره الى الكونفيدرالية العامة للعمل الموحد (س . ج . ت . ي) . نقل السيد لوبيك ، الذي كان قد عاد حديثاً من زيارة للجزائر ، ان لينين قد قال : « ان الجزائر هي قلعة الثورة[89] » . ان النشاطات التالية ستظهر الى أي مدى حاول الشيوعيون أن يطبقوا قولة لينين ، إذا كان قد قالها حقاً . وبهذه المناسبة ، يجب أن نركز على أن الهدف الرئيسي هو دراسة العلاقة بين الوطنية الجزائرية والكومينتيرن ، أو الحركة الشيوعية العالمية ، خلال العشرينات . فالقضية إذن هي هل استفاد الوطنيون الجزائريون أي شيء من هذه المنظمة ، وإذا كان الجواب بالإيجاب ، فإلى أي مدى .

هناك قناتان اتصلت الحركة الوطنية الجزائرية من خلالهما بالعالم الشيوعي : الحزب الشيوعي الفرنسي والكومينتيرن . ودور الأول ، الذي كان في نفسه بالطبع عضواً في الكومينتيرن ، سيدرس فيما بعد على حدة . نظراً للعلاقة الاستعمارية « الفذة » بين الجزائر وفرنسا ، فان موقف الحزب الشيوعي الفرنسي يجب أن نتناوله مفصلاً . أما في هذا المكان من الكتاب فاننا سنحاول أن نتبع ظل الكومينتيرن حيثما

---

(89) أشار الى ذلك الحاكم العام فيوليت في تقريره عن الحالة العامة في الجزائر . أنظر «أ.ف.س» . (نوفمبر ، 1926) ، ص 541 .

امتد نحو القضية الجزائرية .

قبل أن يولد الكومينتيرن سنة 1919 ، لم يظهر المشكل الجزائري في الكتابات البولشفية عن الاستعمار . وحين أعلن البولشيفيون ، سنة 1919 ، تأييدهم لمبدأ تقرير المصير بالنسبة الى المسلمين الروسيين كانوا يهدفون ليس إلى كسب عاطفة هؤلاء الروس فقط ، بل أيضا الى كسب عاطفة البلاد الاسلامية الأخرى التي كان من بينها ، بناء على رأي بعض الكتاب ، أفريقية الشمالية .

وفي نداء 19 ديسمبر سنة 1917 ، الذي وقعه كل من لينين وستالين والموجه الى المسلمين خارج روسيا ، لم يذكر البولشيفيون أهل أفريقية الشمالية ضمنهم . فقد كان النداء موجهاً الى « مسلمي الشرق ، والايرانيين ، والأتراك ، والعرب ، والهنود ، والى كل أولئك الذين ظلوا منذ قرون هدفاً للمساومات[90] » ، غير أنه من الواضح أن النداء كان موجهاً لشعوب الشرق رغم عبارة « العرب » التي وردت فيه .

ورغم أن الجزائر لم تكن ممثلة من أهلها في المؤتمر الأول للكومينتيرن (الحركة الشيوعية العالمية الثالثة) الذي انعقد في موسكو من 2 الى 19 مارس سنة 1919 ، فان مشاكلها قد أثيرت ، لأول مرة ، في البيان الذي صدر في نهاية المؤتمر[91] . وخلال هذا المؤتمر كان التركيز على أوروبا وليس على آسيا وافريقيا . أما الممثلون من المستعمرات وشبه المستعمرات فقد كانوا مجرد أعضاء مستشارين . كان هؤلاء يضمنون ممثلين من تركيا ، وايران ، وجورجيا ، وتركستان ، والصين ، وكوريا ، وأذربيجان .

أما المشاكل الاستعمارية ، فان المؤتمر لم يكد يتناولها ، وقد أوضح البيان النهائي ، الذي كتبه وقرأه ليون تروتسكي ، ان الثورة البروليتارية في أوروبا كانت ضرورية لتحرير المستعمرات . وبناء على هذا البيان ، فان تحرير الجزائر سيبقى متوقفاً على تحرير فرنسا « ان عمال وفلاحي الجزائر . . لن يحصلوا على امكانية

---

(90) ديميتريو بورسنر ، « البولشيفيون والمشكل القومي والاستعماري » (1927 ـ 1928) ، (جنيف : مكتبة ى . دروز ، 1957) ، ص 64 .

(91) مثل الجزائر رسمياً الحزب الشيوعي الفرنسي باعتبارها مقاطعة فرنسية . وسوف نرى أن هذا كان بداية مأزق طويل المدى لذلك الحزب بالنسبة الى القضايا القومية والاستعمارية .

وجود مستقل الا يوم يتخلص عمال فرنسا من كليمانصو ويـأخذون مقـاليد السلطة بأيديهم[92] .

واستناداً على الوثائق الموجودة ، فان المشكل الجزائري لم يناقش في مؤتمر الكومينتيرن الثاني (موسكو ، جوييه ، 1920) ، ولكن خلال هذا المؤتمر حـول الشيوعيون اهتمامهم من أوروبا الى « البلاد المتخلفة » ، وخصوصاً بلاد الشرق . وقد خطب لينين ، الذي لعب دوراً نشيطاً أثناء هذا المؤتمر ، خطبة طويلة ، أنذر فيها رفقاءه بـأن لا يتحدثوا عن حركات بورجوازية ـ ديموقراطية ولكن عن حركات قومية ـ ثورية فقط . ثم أوصى بأن على الشيوعيين في البلاد المتخلفة أن :

1 ـ يساعدوا حركات التحرر القومي ـ الثوري .

2 ـ أن يكافحوا ضد حركة الجامعة الاسلامية وغيرهـا من الحركـات الأخرى التي تحارب الامبريالية لأغراض رجعية .

3 ـ بينما يساعدون الحركات التحريرية ، يجب أن لا يتحدوا معها ، ولكن يكونون معها أحلافاً مؤقتة فقط[93] .

وكما أن مؤتمر الكومينتيرن الثاني لم يناقش المشكل الجزائري ، كذلك لم يناقشه مؤتمر شعوب الشرق الذي انعقد في مدينة باكو خلال نفس العـام . كانت الدعوات لهذا المؤتمر قد وجهت الى تركيا ، وإيران ، وأرمينيا . وغيرهـا من بلاد الشرق ، ولكن الجزائر وأفريقيا الشمالية عامة قد أهملت[94] . ورغم أن مؤتمر باكو كان قد انعقد تحت شعار لينين ، وهو اعطاء التأييد الكامل للحركات القومية ـ الثورية فقط ، فإن الجزائر ، فيما يبدو ، لم توفر هذا الشرط . فحتى سنة 1926 ، كانت الحركة الوطنية فيها غير ثورية ، ولكن اصـلاحية ، مـع نكهة من حـركة الجـامعة الاسلامية.

---

(92) نفس المصدر ، ص 65 ـ 66 .

(93) نفس المصدر ، ص 84 . وقد اتبع الحزب الشيوعي الفرنسي هذا الخط في الجزائر ، ولا سيما خلال الثلاثينات .

(94) نفس المصدر ، ص 97 . من أحدث الدراسات عن هذا الموضـوع دراسة فؤاد المـرسي خاطـر « مؤتمر باكو للشعوب الشرقية ، سبتمبر 1920) في (بحوث في التاريخ الحديث مهداة الى الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم) ، القاهرة ، 1976 ، 317 ـ 337 .

ورغم الفشل الواضح في مناقشة مشكل استعماري معقد مثل مشكل الجزائر خلال مؤتمرين شيوعيين هامين ، فإن الفرنسيين قد بالغوا في تصوير الدعاية الشيوعية في الجزائر . فقد أشرنا إلى أن النشاطات الوطنية كانت في نظر الفرنسيين عملاً شيوعياً . وكان الجزائريون متهمين بأنهم كانوا يتآمرون ضد فرنسا تحت التأثير البولشيفيكي . وفي نهاية سنة 1920 نشرت صحيفة « لوفر » الفرنسية « عرضاً مثيراً عن مؤامرة » جرت في صفوف الفيلق الأجنبي في الجزائر الذي قام بعض أعضائه الجزائريين بزعامة « المؤامرة »[95] . وهذه الطريقة في الاتهامات قد استمرت خلال العشرينات ولا سيما عندما أصبحت الحركة الوطنية أكثر نضالية.

وخلال نفس السنة (1920) أعلنت الحكومة السوفياتية رسمياً عن عزمها على تشجيع الثورة في الجزائر . وكانت هذه النية قد أعلنت حين وقعت روسيا وتركيا معاهدة مشتركة . وبناء على بعض التقارير فإن البلدين قد تواعدا على التعاون لتشجيع الثورة في الهند ، ومصر ، والجزائر ، والمغرب ، وتونس[96] . وحسبما أشرنا سابقاً ، فإن الحركة الوطنية التركية تحت قيادة مصطفى كمال باشا قد جذبت إليها أنظار كثير من الجزائريين . ونفس الشيء يقال بالنسبة للثورة الروسية . ولكن الأحداث المتعاقبة قد أظهرت أن البلدين لم يكن لهما تدخل مباشر في المشكل الجزائري . ذلك أن تأثير تركيا (مثلا الخلافة الاسلامية قد انتهى في الحقيقة بسقوط الخلافة سنة 1924 . أما روسيا السوفياتية فيبدو أنها قد اكتفت بنشاطها داخل الكومينتيرن والحزب الشيوعي الفرنسي[97] .

وقد فشل المؤتمر الثالث للكومينتيرن (موسكو ، جوان 1921) أيضاً في اتخاذ

---

(95) « التايمز » (لندن)، (14 ديسمبر ، 1920) ، ص 12 .

(96) « النيويورك تايمس » (14 أوت ، 1920) ، ص 21 .

(97) « بناء على بعض التقارير ، فإن السلطات الفرنسية في الجزائر قد اتهمت ، سنة 1928 ، بحارة الباخرة السوفياتية ، « فيغا » ، الذين كانوا يتمتعون بحق زيارة عاصمة الجزائر ، بنشر الدعاية بين الجزائريين والفرنسيين . وقد اتهمتهم باحضار « أكياس من الكتابات الشيوعية » الى الميناء ، وبعقد اجتماعات أظهروا فيها فضائل نظام حكم بلادهم . ونتيجة لذلك ، سحب الفرنسيون من البحارة رخصة النزول الى الميناء . أنظر« النيويورك تايمس » (18 سبتمبر ، 1928) ، ص 32 . وباستثناء هذه الحادثة ، ليس في الوثائق الموجودة ما يدل على تدخل سوفياتي مباشر في المشكل الجزائري خلال العهد المدروس .

اجراءات لصالح المشكل الجزائري . فتحت رئاسة زينوفييف وافق المؤتمر على مبدأ أولوية الثورة الآسيوية بدلاً من الأوروبية . وقد قدم زينوفييف ضيفاً ، وهو مكحول بك ، ليتحدث باسم « لجنة المسلمين الثوريين » وهي منظمة تمثل كل المسلمين . وقد أعطى مكحول بك المؤتمرين « صورة مجيدة » عن الحالة في تركيا ، والمغرب الأقصى ، وطرابلس (ليبيا) ، ومصر(98) . وليس هناك ما يدل على أن الجزائر كانت ضمن هذه « الصورة المجيدة ». وفي نفس الوقت ليس هناك دلالة على أن المؤتمر عامة قد ناقش مشكلها . ولكن على المرء أن يتذكر أن المغرب الذي أشير إليه كان في حالة ثورة تحت زعامة الأمير عبد المالك والأمير عبد الكريم الخطابي .

وخلال سنة 1924 انتقد بافلوفيتش ، وهو أفضل متخصص سوفياتي في شؤون شعوب الشرق ، بشدة المؤتمر الثاني للكومينتيرن، وهو المؤتمر الذي كان تحت تأثير لينين ، لموقفه من المشاكل الاستعمارية بالقياس الى موقف المؤتمر الثالث ، الذي كان تحت تأثير زينوفييف . وبناء على رأي بافلوفيتش ، فإن المؤتمر الثاني لم يستطع أن يدعم حركة ثورية في المغرب ، والجزائر ، وتونس . كما أنه ، بناء على رأيه ، قد فشل في إثارة القارتين السوداء والصفراء ونشر الأفكار التحررية بين الشعوب المستعمرة في آسيا وافريقيا . وقد اتهم بافلوفيتش الاشتراكيين بتفضيل الصمت بالنسبة لارتكاب القوات الفرنسية « المجازر » ضد المسلمين المغاربة(99) .

ان زيارة الرئيس الفرنسي ميليرن إلى الجزائر في ربيع 1922 قد جذبت ، فيما يبدو ، أنظار أعضاء الكومينتيرن إلى المشكل الجزائري . ففي تلك المناسبة أصدرت « اللجنة التنفيذية » للكومينتيرن بياناً « لتحرير » الجزائر وتونس (موسكو ، 20 ماي ، 1922) . وقد وعد البيان الجزائريين بأن فجر التحرير قد أشرق على البروليتاريا العربية التي تخضع لأسوأ أنواع الاستغلال من الأورستقراطية المحلية والمنتصرين الفرنسيين . كما ذكر الجزائريين أن الحضارة الفرنسية قد عبرت عن نفسها في القمع بلا رحمة وفي جباية الضرائب . وأخبرهم أن « النضال من أجل تحرير الجزائر وتونس

---

(98) بورسنر ، ص 109 .

(99) ايفار سبيكتر ، « الاتحاد السوفياتي والعالم الاسلامي ، 1917 ـ 1958 » (سياتل : طبعة جامعة واشنطن ، 1959) ، ص 55 ، يجد القارىء صورة بافلوفيتش على ص 106 .

قد بدأ . وسوف يستمر إلى أن يحقق المستعبدون انتصارهم » . ثم دعا بيان الكومينتيرن الجزائريين إلى الاتحاد تحت راية الحزب الشيوعي الفرنسي . وقد حث الجنود والبحارة الفرنسيين أن لا يطلقوا النار على « اخوانكم » الجزائريين والتونسيين . وأخيراً انتهى البيان بهذه الصرخة : « لتحيي ثورة بروليتاريات الشعوب المستعمرة ! »[100].

وفي نهاية سنة 1922 انعقد المؤتمر الرابع للكومينتيرن في موسكو ، وقد شغل المشكل الجزائري خلاله جزءاً من المناقشة . ويبدو أنه ما دامت الاهتمامات قد جذبت إلى الجزائر بزيارة ميليران ، فإن المؤتمر قد استمر في التركيز على الحالة هناك . ورغم أن الجزائريين لم يكونوا حاضرين في المؤتمر ، فإن الهجوم على الشيوعية « الأوروبية » قد تولاه شيوعي تونسي ، وهو الطاهر بوضنقة . لقد اتهم بوضنقة ، الذي كان عضواً في الفرع التونسي للحزب الشيوعي الفرنسي ، الشيوعيين الأوروبيين بكونهم « ناعمين » نحو المسألة الاستعمارية[101] . كما هاجم اللجنة المركزية لحزبه لعدم نضالها ضد الاستعمار خوفاً من فقد الأصوات الانتخابية . وكان أحد هجومات بوضنقة سبباً في قصة مثيرة عن الحزب الشيوعي الفرنسي خصوصاً والكومينتيرن عموماً.

ذلك أن هذا الشيوعي التونسي قد أثار عجب رفقائه باتهام فرع سيدي بلعباس (الجزائر) للحزب الشيوعي الفرنسي بالانحراف عن مبادىء الكومينتيرن . وبناء على بوضنقة ، فإن هذا الفرع قد اتخذ الموقف التالي : ان الثورة في فرنسا يجب أن تسبق حركة الاستقلال في المستعمرات . لذلك قرر هذا الفرع أن لا يهاجم الاستعمار . وهو قرار يتناقض مع سياسة الكومينتيرن . وكان مما أعلنه فرع سيدي بلعباس : « أن أفضل وسيلة لتقدم حركات التحرير في مستعمرتنا (الجزائر) ليس في التسليم في هذه المستعمرة ، بل على العكس ، يجب أن تكون مهمة الحزب الشيوعي (الفرنسي) هي تدعيم الاتحادات التجارية والحركة الشيوعية (لأن)

---

(100) أشير اليه في « الأزمة التونسية والشيوعية » في «أ. ف. » (جويليه ، 1922) ، ص 330 من جريدة « كوريسبوندنس اينتيرناسيونال » .

(101) بورسنر ، ص 124 .

تحرير أهالي الجزائر لا يمكن أن يتحقق إلا نتيجة الثورة في فرنسا[102] . (تسطيري الخاص).

وهكذا فإن بعض الشيوعيين على الأقل قد تبنوا منطق الكولون في ربط مصير الجزائر بمصير فرنسا . فتحرير الأولى في نظرهم يتوقف على تحرير الثانية . ولما كان بوضنقة شيوعياً مناضلاً فقد طالب بتأديب هؤلاء « المنحرفين » . ولكن المؤتمر الرابع قد ختم أعماله بهذه التوصيات :

1 ـ تكوين جبهة موحدة بين الشيوعيين والوطنيين ـ والبورجوازيين .

2 ـ مضاعفة الدعاية المعادية للاستعمار من جانب الشيوعيين والأوروبيين الذين لبلادهم مستعمرات .

3 ـ ادخال الجزائريين في الحزب الشيوعي الفرنسي[103] .

أما قضية « المنحرفين » الفرنسيين فقد أثيرت من جديد في المؤتمر الخامس حيث تسببت في مناقشة ساخنة .

فالحزب الشيوعي الفرنسي ، الذي كان الى ذلك الوقت ما يزال الممثل للجزائريين أيضاً ، قد واجه هجوماً كبيراً في المؤتمر الخامس للكومينتيرن الذي انعقد بموسكو من 17 جوان إلى 7 جوييه 1924 . وقد كان الهجوم هذه المرة من الوفد السوفياتي . والمؤتمر الذي انعقد تحت شعار النظام الحديدي والمركزية ، قد تميز بتقرير طويل عن المشاكل الاستعمارية قرأه مانويلسكي ، عضو الوفد السوفياتي .

وقد هاجم مانويلسكي ما سماه بالأخطاء الاشتراكية ـ الامبريالية التي ارتكبها فرع سيدي بلعباس للحزب الشيوعي الفرنسي سنة 1922 . وقال ان ذلك كان « قصة مدهشة » ثم اتهم مانويلسكي الحزب الشيوعي الفرنسي لا باهمال « تصحيح » أخطائه فقط ، ولكن أيضاً « بالاستمرار » فيها ، وهاجم الحزب على أنه خائف من شجب سياسة شعبية استعمارية . وقد واجه مانويلسكي رفقاءه الفرنسيين باتهام مباشر ، وهو أنهم خلال مؤتمر حزبهم في ليون (1923) ، بعث الكومينتيرن برقية إلى « العمال الفرنسيين وإلى شعوب المستعمرات » ، ولكن جريدة « لوهيومانيتي »

(102) نفس المصدر ، ص 127 ـ 128 .

(103) نفس المصدر .

قد حذفت ، بناء على رأي مانويلسكي ، الجملة « وإلى شعوب المستعمرات » . وهنا زمجر عضو الوفد الروسي قائلاً : « حتى ولو كنتم أيها الشيوعيون الفرنسيون ، لا تفعلون أي شيء . . فلتكن لديكم على الأقل الشجاعة لتعيشوا تقاليد المصلح العظيم جان جوريس ، الذي لم يتردد أبداً في مهاجمة سياسة بلاده الاستعمارية » . كما اتهم مانويلسكي الشيوعيين الفرنسيين بالفشل في خلق جبهة مشتركة بين العمال البيض والملونين ، التي أوصى بها المؤتمر السابق . وأخيراً ضرب مانويلسكي « مثلاً » بالجزائر على ضعف البروليتاريا أمام « المستغلين »[104].

وفي وجه هذه الاتهامات المباشرة بالانحراف ، والجبن ، والأخطاء غير المصححة ، حاول الشيوعيون الفرنسيون أن يدافعوا عن أنفسهم . وفي إجابتهم لمانويلسكي أعلن الممثل الفرنسي ، سيلي ، أن حزبه قد حرر مجلة مصورة ، معادية للعسكرية ، بالإضافة إلى جرائد شيوعية بالعربية كانت توزع في الجزائر من مناطق المغرب العربي . وقد اقترح سيلي على المؤتمر عقد « اتفاق » بين الشيوعيين الفرنسيين ، والانكليز ، والبلجيكيين للقيام بدعاية مشتركة في أفريقيا والمناطق الأقيانوسية[105].

ونفس الموقف الدفاعي تولاه الشيوعي الفرنسي مارسيل كاشان بعد نهاية المؤتمر . فقد كتب في « لوهيومانيتي » (28 سبتمبر 1924) يشجب السياسة الفرنسية الرأسمالية في المستعمرات . ودافع عن شعوب الهند وأفريقيا الشمالية ، ومصر والصين ، التي « تناضل بحماس شديد وتطالب بحريتها » . وأكد كاشان تضامن الكومينتيرن والبروليتاريا العالمية مع « الشعوب المضطهدة »[106] .

أما في المؤتمر الخامس للكومينتيرين فان المشكل الجزائري قد حصل على بعض الدعم ، الذي لعله كان نتيجة لشعور الحزب الشيوعي الفرنسي « بالذنب » من ناحية ، واتهامات مانويلسكي من ناحية أخرى . فقد خلق المؤتمر « لجنة عن

---

(104) نفس المصدر ، ص 150 ـ 160 ـ 161 ـ 176 .

(105) « الحركة الشيوعية العالمية ضد فرنسا ومستعمراتها » في « كوريسباندان » (10 ماي ، 1925) ، ص 336 .

(106) نوشي ، ص 58 .

الاستعمار » مركزها السري في جنيف . وكانت مهمة هذه اللجنة مضاعفة الدعاية في المستعمرات وتنظيم الثورات القومية . وقد اشتملت هذه اللجنة على أعضاء من الجزائر ، وروسيا (بافلوفيتش ومانويلسكي) ، وبريطانيا ، وفرنسا ، والهند الصينية ، والهند ، وايرلندا ، وأمريكا . وهناك عضوان جزائريان انتخبا لهذه اللجنة ، ربما لأول مرة ، هما عبد القادر ، وسيدي بلسجال محمد(107) .

ولكن المشكل الجزائري لم يحصل على أي انتباه تقريباً من الشيوعيين في « مؤتمر كولونيا » الذي انعقد أيضاً سنة 1924 . ورغم أن الحزب الشيوعي الفرنسي قد مثل الجزائر باعتبارها مقاطعة من فرنسا ، فان الوفود قد منحت تأييدها الى الهند ، والصين ، والمغرب ، وسورية ، والسودان . وقد وافقت هذه الوفود على لائحة تعبر فيها عن « تضامنها الكامل مع الشعوب المستغلة والمضطهدة والمستعمرة في حركاتها القومية التحريرية » . أنه يبدو أن الشيوعيين الأوروبيين قد وقعوا تحت تأثير رفقائهم الفرنسيين الذين كانوا يعتقدون أن المشكل الجزائري مشكل فرنسي ، وليس استعمارياً . وقد نجحوا أيضاً في التأثير على أعضاء الكومينتيرن قبل ذلك لنفس الفكرة(108) .

أما المؤتمر السادس للكومينتيرن ، الذي سيعقد سنة 1925 ، فقد تأجل الى سنة 1928 نتيجة للصراع من أجل السلطة ، الذي نشب في روسيا بعد وفاة لينين ، بين ستالين وتروتسكي . ولكن انعقدت ، بدلاً من ذلك ، ندوة في موسكو من 21 مارس الى 6 أبريل ، 1925 ، وحضرتها وفود مختلفة ، من بينها وفد الشيوعيين الفرنسيين . وقد أعدت هذه الندوة وأشرفت عليها « اللجنة التنفيذية الموسعة » للحركة الشيوعية العالمية ، وجلس في منصة الندوة الرئاسية كل من ستالين ، وبوخارين ، وزينوفييف ، وهذا الأخير هو الذي كان رئيساً للندوة .

---

(107) « البولشيفية والعمل الإستعماري الفرنسي » في «أ. ف.» (أكتوبر ، 1924) ، ص 534 ، نقلاً عن برقية « الجورنال » من موسكو (12 أوت ، 1924) . ويبدو أن عبد القادر هو نفس حاج علي عبد القادر الذي أسس بعد سنتين ، مع جزائريين آخرين نجم أفريقية الشمالية أما الجزائري الثاني فلا نعرف عنه الآن شيئاً .

(108) نفس المصدر ، ص 532 ـ 533 . جمع هذا المؤتمر الأحزاب الشيوعية الأوروبية والمنظمات النقابية المتحالفة معها فقط .

وقد مدح زينوفييف الحزب الشيوعي الفرنسي لتخلصه من ضعفه ، ولكنه تأسف على أن الجبهة المشتركة المقترحة بين الشيوعيين والقوميين الثوريين في المستعمرات مازالت في حاجة الى تنظيم . وجواباً له قال الممثل الشيوعي الفرنسي ، تران ، انه متفق على ذلك ، ولكنه أكد أن حزبه قد حقق « بعض التقدم » بخصوص المشكل الاستعماري . ثم انشأت الندوة لجنة عن المشكل الاستعماري ، ومنحت تأييدها لثورة المغرب ، معتبرة الأمير عبد الكريم « أعظم زعيم لجميع الشعوب المضطهدة في العالم[109] » . وهكذا نجد أن الكومينتيرن قد أيد ثورة يقودها وطني ـ بورجوازي ، لأن الأمير عبد الكريم لم يكن عضواً في البروليتاريا المغربية . ونفس الموقف اتخذه الحزب الشيوعي الفرنسي بخصوص الأمير خالد الجزائري خلال نفسه العهد .

ولكن الكومينتيرن قد اتخذ موقفاً واضحاً بخصوص الجزائر خلال مؤتمره السادس الذي انعقد سنة 1928 . ان الجزائر في ذلك الوقت قد انقلبت من المرحلة الاصلاحية التي كان يمثلها الأمير خالد وحزبه الاصلاحي الى المرحلة الثورية ، التي كان يمثلها نجم أفريقيا الشمالية . وان سياسة الحزب الأخير قد أعلنت في مؤتمر عالمي انعقد في بلجيكا سنة 1927 . فقد حضر زعيم النجم عندئذ ، السيد مصالي ، المؤتمر السادس للكومينتيرن وشرح سياسة حزبه أمام المؤتمرين .

وعندما وجد الكومينتيرن أن نجم أفريقيا الشمالية يتبع سياسة وطنية ، لم يعجب بموقفه . لذلك أوصى المؤتمر السادس بأن على الشيوعيين أن « يعملوا داخل كل المنظمات الوطنية عندئذ . . لتحويل نجم أفريقيا الشمالية من حزب مغلق الى كتلة مناضلة تضم منظمات ثورية مختلفة ، مع انضمام جماعي الى الاتحادات التجارية . . واتحادات الفلاحين[110] » . ويبدو أن الصراع بين فكرة الحزب الوطني الثوري المغلق وفكرة الحزب الشيوعي الثوري المفتوح يعود تاريخه في الجزائر الى هذه الفترة . . وفي وسط الثلاثينات انتهى هذا الصراع وسوء التفاهم بين الوطنيين والشيوعيين بقطيعة نهائية .

---

(109) بورسنر ، 187 ، 190 .

(110) نفس المصدر ، ص 266 ـ 267 .

وفي نفس الوقت نجد أن لائحة هامة وافق عليها مؤتمر الأحزاب الشيوعية العربية سنة 1928 جديرة بالملاحظة هنا . فقد انتقد العرب الشيوعيون رفقاءهم في الجزائر وتونس لعدم استطاعتهم أن يقوموا بتمثيل حقيقي لقضية التحرير لدى الجماهير . فاتهموا الشيوعيين الجزائريين (مثلاً : الحزب الشيوعي الفرنسي) بعدم اتخاذ موقف ضد الامبريالية ، رغم قرار الكومينتيرن الشجاع والواضح بخصوص ذلك .

ولذلك نادى العرب الشيوعيون بالتعاون بين الأحزاب الشيوعية العربية لكي يحققوا « وحدة » الحركة و« فصل » أحزاب المغرب العربي الشيوعية ، في المستقبل ، عن الحزب الشيوعي الفرنسي وجعلها « وحدات مستقلة[111] » . ان الاقتراح الخاص بفصل أحزاب افريقية الشمالية الشيوعية عن الحزب الشيوعي الفرنسي اقتراح مهم . ولكن نلاحظ أن الحزب الشيوعي الجزائري لم يولد الا سنة 1935 .

فخلال العشرينات ، لم يلفت المشكل الجزائري الوطني انتباهاً كبيراً من الكومينتيرن . فهذه المنظمة الشيوعية العالمية ركزت أولاً على أوروبا وشعوب الشرق ، تاركة المشكل الاستعماري الجزائري الى الحزب الشيوعي الفرنسي . وقد لفتت زيارة ميليران الى الجزائر و« القصة المدهشة » التي قام بها فرع سيدي بلعباس للحزب الشيوعي الفرنسي في الجزائر ، بعض الانتباه من الكومينتيرن ، ولكن لم يقدم أي علاج . وقد مرت الدعوات بتكوين جبهة مشتركة والنظام الصارم ، وغير ذلك من الشعارات دون اصغاء .

ومن جهة أخرى فشل الكومينتيرين في التعرف على أن المشكل الجزائري كان أكثر تعقيداً من مجرد مشكل « استعماري » عادي . فبينما عامل هذا المشكل عموماً على أنه استعماري ، نسي ان الحزب الشيوعي الفرنسي كان يعتبره مشكلاً قومياً

---

(111) سبيكتر ، ص 129 ـ 140 . يقول المؤلف أن هذه اللائحة كانت قد نشرت باليابانية في جريدة « ماركسيزم » (طوكيو ، مارس 1928) . وهذا يعني أن اللائحة قد صوت عليها سنة المؤتمر السادس للكومينتيرن ، الذي بدأ الوطنيون الجزائريون خلاله يظهرون سياسة مستقلة عن الحزب الشيوعي الفرنسي .

(مثلاً : فرنسياً) . ورغم أنه كان هناك بعض النقد من الوفود الروسية ، والتونسية والعربية الأخرى ، فان الكومينتيرن قد فشل في « معاقبة » عضوه الفرنسي ، وأخيراً قبل منطقه ووجهة نظره عن المشكل الجزائري .

ثم ان الكومينتيرن قد فشل في خلق حزب شيوعي جزائري ، تاركاً تمثيل الجزائر في أيدي الحزب الشيوعي الفرنسي ، مما يعني أنه قد قبل بالفكرة القائلة ان الجزائر كانت جزءاً من فرنسا . ثم أنه عندما خلق الوطنيون الجزائريون منظمتهم الثورية الخاصة من أجل الاستقلال عن فرنسا، شك فيهم الكومينتيرن واتهمهم بالوطنية الضيقة . كما أنه قد حاول أن يوجه وأن يتسلط على هذه المنظمة لصالح الحركة الشيوعية لا لصالح الحركة الوطنية .

ولعل الأسوأ من ذلك هو موقف الحزب الشيوعي الفرنسي . فبدلاً من نشر الحركة الثورية ضد الاستعمار في الجزائر ، بناء على توصية الكومينتيرن ، لم يستطع الشيوعيون الفرنسيون أن يخلصوا أنفسهم من الادعاء الاستعماري القديم القائل ان الجزائر تمثل جزءاً مكملاً لفرنسا . لكنهم لم يتوقفوا عند ذلك ، بل حاولوا فرض أفكارهم على الوطنيين الجزائريين بدعوتهم الى « التآخي » بين البروليتاريا الجزائرية والفرنسية ، وهي طريقة جديدة لابقاء الحكم الفرنسي في الجزائر ، ولكن تحت الشيوعية الفرنسية هذه المرة بدلاً من الاستعمار الفرنسي القديم . غير أن موقف الحزب الشيوعي الفرنسي في الجزائر يستحق دراسة معمقة خاصة .

5. الحركة الوطنية الجزائرية والحزب الشيوعي الفرنسي :

نظراً للعلاقة الاستعمارية الخاصة بين الجزائر وفرنسا ، فان الأفكار والأيديولوجيات الأوروبية قد وجدت طريقها بسهولة كبيرة الى الأهالي الجزائريين . فالصحافة الفرنسية ، والصراع السياسي ، والمناقشات البرلمانية ، والكتب ، والكتابات الدعائية لمختلف الأحزاب والجماعات تسربت عادة الى الجزائر بدون صعوبة . ولكن الأمية لدى الجماهير الجزائرية كانت حاجزاً قوياً بينهم وبين الأيديولوجيات الأوروبية . ومع ذلك فقد كان هناك مثقفون ونصف مثقفين استطاعوا ، باتصالهم المباشر مع الفرنسيين ، أن يدركوا ويهضموا بعض هذه الأيديولوجيات .

من بين جميع المذاهب الجديدة التي تسربت الى الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى ، كانت الشيوعية أقواها ، على الأقل سطحياً . والحق أن الشيوعيين والمشاغبين الفرنسيين هم الذين كانوا مسؤولين على ادخال الفكرة الشيوعية الى الجزائر . وهناك أحزاب وجماعات فرنسية أخرى جاءت بالاشتراكية ، والفاشية ، والإنسانية ، بل نكاد نقول كل المدارس والمذاهب الفكرية التي ظهرت في أوروبا . أما رد الفعل الجزائري على بعض هذه المذاهب فانه سيدرس في الفصل الخاص بالأحزاب والجماعات الوطنية .

منذ سنة 1919 بدأت السلطات الفرنسية والكتاب العاديون في الجزائر يتهمون الشيوعيين بنقل المعركة الأيديولوجية بين الاستعمار والشيوعية الى الجزائر . ان بعض هذه الاتهامات كانت صحيحة ، ولكن أكثرها كان مجرد مبالغة ، وسوء فهم للحركة الوطنية ، ودعاية موجهة ضد الحركة الشيوعية عامة . ونحن سندرس الى أي مدى كان الشيوعيون نشيطين في الجزائر خلال العشرينات وأي نوع من العلاقة كان بينهم وبين الوطنيين ، أما رد فعل الكولون على ذلك فإننا سندرسه في نهاية هذا الفصل .

وبناء على رأي المعاصرين ، فان الفكرة الشيوعية قد بدأت تتسرب الى الجزائر منذ نهاية الحرب العالمية الأولى . وقد كتب مارتينيير منذ سنة 1922 ، أن منشورات الانضمام الى الحركة الشيوعية العالمية قد عثر عليها في منطقة القبائل . وهذه المنشورات ، التي كانت مطبوعة في مرسيليا ، كانت مدحاً للينين ونظامه . وفي عنابة وقع أحد المعلمين اعلانات ضد زيارة الرئيس ميليران الى الجزائر . وفي وهران نادى عمال الموانىء بالاضراب احتجاجاً ضد السياسة الفرنسية نحو روسيا السوفياتية . وفي قسنطينة قام عمال القطار بعمليات تخريب ذات « نتائج مهلكة » .

وقد جاء المشاغبون الشيوعيون أيضاً الى الجزائر من المغرب ، وتونس ، والشرق الأدنى . وقص مارتينيير أن جندياً جزائرياً سابقاً ، كان قد سكن المدينة المنورة ، قد زار الجزائر قادماً من سورية مع جواز سفر أسباني وتجول هذا المحارب السابق في الجيش الفرنسي في الجزائر من مركز ديني إلى آخر ، متصلاً بالمرابطين ، قاصاً عليهم « أكاذيب » ودعاية غامضة . وأخيراً اعتقلته السلطات

الفرنسية[112] .

ومن الواضح أن مارتينيير كان يحاول أن يظهر العلاقة بين البولشيفية وحركة الجامعة الاسلامية في الجزائر . كان هذا موضوعاً شعبياً في ذلك الوقت لأن الفرنسيين اتهموا الحركتين بالتعاون للقضاء على الحكم الفرنسي هناك . وقد عبر الكاتب الانكليزي وورثام عن رأي مشابه في أوائل سنة 1922 . فقد أكد أن هناك عدة أمثلة تدل على التعاون الشيوعي ـ الاسلامي في الجزائر . وبعد أن ذكر شواهد كان قد أشار اليها مارتينيير ، أضاف وورثام أن بعض التلاميذ الجزائريين اتبعوا البولشيفية ، وان « بروليتاريات أفريقية الشمالية » قد أرسلت مندوبين الى المؤتمر الشيوعي الذي انعقد في مدينة تور . وأنهم قد انضموا الى الحركة الشيوعية العالمية[113] .

ان أعداء الشيوعيين قد اتهموهم بإستغلال الدين والوطنية في الجزائر . وحسب رأي مارتينيير ، فإن الشيوعيين قد التجأوا إلى العواطف الدينية والفكرة الوطنية لإثارة الأهالي . كما أنهم قد استعملوا فكرة الصراع الطبقي لخلق الحقد بين المجموعتين . فهم لم يبشروا بالماركسية هكذا ، ولكن بنوع من المذهب الديني والوطني . وذكر مارتينيير أنه في مؤتمر شعوب الشرق الذي انعقد في باكو أعلن عضو في وفد شرقي أن الثورة ستنتشر ببطء إلى الجزائر والمغرب[114] .

وفي أول ماي ، سنة 1920 ، جرى اضراب عام في أهم المدن الجزائرية . وكان هذا الاضراب الذي جاءت أوامره من باريس ، سياسياً في ملامحه وأهدافه ، ولكن كان له أيضاً نتائج اقتصادية[115] . ففي الجزائر العاصمة وحدها شارك بين

---

(112) مارتينيير ، «ر.د.م.» ، م 8 مارس ـ أبريل ، 1922 ، (ص 662 ـ 663). وقد أضاف المؤلف أن هذا المشاغب كان يتحدث الروسية .

(113) وورثام ، « مشاكل فرنسا » ، في « الأطلنطي الشهري » (فيفري ، 1922) ، ص 558 . ليس هناك ما يدل على أن هذه النشاطات الشيوعية التي أشار إليها المؤلفان قد قام بها الجزائريون فقط . ويبدو من الواضح أن معظم المشاركين في هذه النشاطات كانوا فرنسيين .

(114) مارتينيير، «ر.د.م.» ، م 8 (مارس ـ أبريل ، 1922) ، ص 664 .

(115) يجب أن يتذكر الإنسان أن الجزائر قد جربت خلال 1920 ـ 1921 مجاعة قاسية .

1200 إلى 1500 شخص في استعراض صاخب تميز بانشاد نشيد الحركة الشيوعية العالمية . وفي وهران حدث استعراض كبير « اضطر » زعماؤه ، بناء على رأي الكاتب ديمونتي ، إلى أن يتكلموا بالعربية في خطبهم أمام الجماهير ، مما يدل على أن كثيراً من المشاركين كانوا جزائريين . أما في سوق اهراس فقد أخذت المظاهرات والاستعراضات شكلاً عنيفاً(116) . ان هذا التكتيك كان جديداً في الجزائر . وقد قام الجزائريون قبل وخلال الحرب بالمظاهرات ، ولكن بمبادرتهم وتحت شعاراتهم الخاصة . أما الآن فإن هذه النشاطات المشاغبة كانت مؤيدة ومنظمة من فرنسيين ، ولكن بالطبع لأسباب مختلفة .

أثناء سنة 1922 كتبت جريدة فرنسية محافظة افتتاحية قالت فيها ان الشيوعيين « قد اختاروا الجزائر كحقل تجربة لهم » . وقد اختار الحزب الشيوعي الفرنسي النائب فاليان ـ كوتوريي ممثلاً له في افريقية الشمالية . وبعد أن أوضح كوتوريي في تقريره إلى حزبه كيف يمكن استغلال الجزائر ، أعلن أن « الثورة الشيوعية في الجزائر . . لها نوعان من الخصوم . الزعماء السياسيون ـ الدينيون (الجزائريون) . . . والكولون الأغنياء ، طغاة الجزائر . ويجب على الحزب أن يعمل ضد هاتين الطبقتين المستغلتين »(117) .

وقد أكدت إحدى المجلات الفرنسية المحافظة والموالية للاستعمار أن الشيوعية قد جنت بعض الثمار عندما تظاهر زعماؤها مع الجزائريين ضد منظمة رسمية ، وهي المجلس المالي ، تحت شعار : « يسقط الموتى ! »(118) . وفي ربيع سنة 1922 زار كوتوريي قسنطينة حيث عقد مؤتمراً حضره بعض الجزائريين . وقد أعلن مورينو ، وهو نائب فرنسي محافظ من قسنطينة ، أنه أثر مؤتمر كوتوريي ذهب أحد الجزائريين إلى السوق وأخبر جيرانه « اننا سنأخذ أراضي الكولون »(119) . وكان هدف مورينو الاشارة إلى أي مدى كان الجزائريون بسطاء في فهم « خطر » الشيوعية .

---

(116) ديمونتي ، « الجزائر » في « أ . ف . » (جوان ، 1920) ، ص 210 ـ 211 .

(117) « الخطر الشيوعي » في « أ . ف . » (جوان ، 1922) ص 269 ـ 270 .

(118) نفس المصدر .

(119) « الأزمة التونسية والحركة الشيوعية » في « أ . ف . » (جويليه ، 1922) ، ص 327 .

وخلال سنة 1924 قام الحزب الشيوعي الفرنسي بنشاطات حثيثة في الجزائر ، فبعد « القصة المدهشة » لفرعه في سيدي بعلباس سنة 1922 والهجومات الرعدية عليه من بوضنقة التونسي ومانويلسكي الروسي سنة 1923 و 1924 ، كان الحزب قد دفع إلى أن يفعل بعض الشيء حتى يكذب الاتهامات الموجهة ضده بالانحراف وباتباع سياسة استعمارية في الجزائر . لذلك خلق أولاً « فيدرالية الجزائر » للحزب الشيوعي التي كان مركزها مدينة الجزائر ، وهي خطوة نحو خلق الحزب الشيوعي الجزائري ولكن ذلك لم يتحقق الا بعد عقد كامل منذئذ.

وقد أصدرت الفيدرالية جريدة تحت اسم « لالوت سوسيال » (الصراع الاجتماعي) . ولم يكن لها سياسة مستقلة في الجزائر ، فقد كانت تتبع الأوامر من الأعلى ، وتعامل المشكل الجزائري داخل المشاكل « الفرنسية » الداخلية ، وليس باعتباره مشكلاً « وطنياً » جزائرياً . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الفيدرالية قد شغلت نفسها بالعمال الفرنسيين في المدن الرئيسية ، مهملة الجزائريين الذين كانوا عادة يعيشون في الأرياف[120] .

وثانياً ، بدأ الحزب الشيوعي الفرنسي حملة « لتجنيد » الجزائريين ، وغيرهم من أهالي افريقية الشمالية ، إلى صفوفه . ومن بين أولئك الجزائريين حاج علي عبد القادر ومحمد بن الأكحل . كان الأول ، وهو « بلا سوابق » ، قد عينه الحزب الشيوعي الفرنسي لدخول أنتخابات سنة 1924 عن منطقة باريس . أما الثاني فقد كان قد أدين من السلطات الفرنسية (3 جوان ، 1924) بخمس سنوات أشغالاً شاقة ، ولكن الحكم كان قد خفف في شهر أوت . وكان ابن الأكحل عاملاً في باريس . وليس هناك أدلة على الاتهامات ضده . وقد وصفته جريدة « لوهيومانيتي » بأنه كان « مناضلاً شجاعاً » من البروليتاريا المستعمرة التي كانت تحارب لتحرير نفسها « في اطار الحركة العالمية الثورية » [121] وكل من عبد القادر وابن الأكحل

---

(120) نوشي ، ص 61 .

(121) أشير إلى ذلك في « البولشيفية » في « أ.ف. » (أكتوبر ، 1924) ، ص 531 . في هذا العدد وصف ابن الأكحل بأنه كان « جندياً » ولكن هذا الوصف تغير في العدد التالي إلى « عامل » . أنظر نفس المصدر (نوفمبر، 1924) ، ص 579 .

سيشتركان في تأسيس الحزب الثوري ، نجم افريقية الشمالية سنة 1926 .

ان الحزب الشيوعي الفرنسي لم يقرر فقط تجنيد الجزائريين وغيرهم من أهل أفريقيا الشمالية في صفوفه ، ولكنه قرر أيضاً منح تأييده المعنوي والفعال إلى الوطنيين في تلك المنطقة . فالأمير عبد الكريم المغربي كان قد حصل على تأييد الحزب الشيوعي في كفاحه ضد اسبانيا . (ولم تكن فرنسا قد دخلت بعد الحرب ضد الأمير عبد الكريم). كما اتخذ الحزب بعض الإجراءات للدخول في صلات مع حركة الأمير خالد في الجزائر وحزب الدستور في تونس[122].

واتباعاً لهذا الخط منح الحزب الشيوعي الفرنسي تأييده أيضاً للمؤتمر الأول لأهالي أفريقيا الشمالية ، الذي انعقد في باريس في نهاية سنة 1924 . وقد حضر المؤتمر النائب الشيوعي دوريو وحيّاه الحاضرون « بتصفيق جنوني » . وقد وعد دوريو بتأييد حزبه للشعوب المضطهدة . وطالب ، أمام وفود أفريقيا الشمالية ، بالجلاء عن المغرب ودعا إلى « الصداقة » بين البروليتاريا الفرنسية والشمال الافريقية . وأنهى دوريو خطبته الى المؤتمر بهذه الكلمات :

« ليحيى تحرير الشعوب المضطهدة ! تسقط الامبريالية الفرنسية ! »[123].

وبعد مؤتمر افريقيا الشمالية مباشرة ، كتب دوريو مقالاً في جريدة « لوهيومانتي » لسان الحزب الشيوعي الفرنسي علق فيه على أهمية المؤتمر المذكور . وردد فيه قرار الكومينتيرن خلال نفس السنة الخاص بانشاء « جبهة متحدة » بين الشيوعيين والوطنيين.

وقد كان المؤتمر ، في نظر دوريو ، ناجحاً ، فقد كان الأول من نوعه ، واحتوى برنامجه على « مطالب سياسية واقتصادية لعمال أفريقيا الشمالية في فرنسا وفي بلادهم ». وهو يرى أن المتكلمين قد أظهروا « استيعاباً حياً » لتناول المشاكل التي أمامهم . كما أظهروا « روح الصراع الطبقي بوضوح » في نقاشهم وقراراتهم . بالإضافة إلى ذلك ، فإنهم عبروا عن « حماس كبير » نحو الثورة الروسية ،

---

(122) أشار إلى ذلك هيريو ، رئيس الوزارة الفرنسية أثناء مناقشة في مجلس النواب . أنظر « البولشيفية » في (أ. ف.) (ديسمبر ، 1924) ، ص 623 .

(123) « البولشيفية » في «أ. ف.» (ديسمبر ، 1924)، ص 624 ـ 625 .

والحركات الوطنية المصرية ، والمغربية وغيرها . وقد وصف دوريو المؤتمر بأنه كان مفيداً باعتباره « وسيلة للاتحاد بين الشعوب المضطهدة » ، وتنبأ بأنه سيكون له « نتائج هامة » في كامل أفريقيا الشمالية . وأخيراً قال أن « الجبهة الواحدة » ، التي أوصى بها الكومينتيرين ، بين البروليتاريا الفرنسية والشعوب المستعمرة قد تحققت نتيجة لهذا المؤتمر(124).

وخلال سنة 1925 طارد الحاكم العام الاشتراكي فيوليت الوطنيين والاشتراكيين على السواء . فباحيائه لنظام الاحتجاز السري ، وتعاونه مع وزير الداخلية البير سارو ، ومع الكولون ، حاول فيوليت أن يتخلص من معارضة الحكم الفرنسي في الجزائر ، ناظراً إلى كل لون على أنه أحمر (شعار الشيوعيين) وإلى كل ظل على أنه شبح شيوعي .

وكانت هذه الاجراءات متفقة مع دخول فرنسا للحرب إلى جانب اسبانيا ضد الأمير عبد الكريم في المغرب ، ومع اجراءات مشابهة اتخذها الفرنسيون ضد الوطنيين التونسيين . وخلال فترة قصيرة نجح فيوليت في نفي ، واعتقال ، وتجريد الجزائريين المشتبه في أمرهم من السلاح بحجة أنهم كانوا شيوعيين أو متعاونينَ معهم . ولا شك أنه عرقل النشاطات الشيوعية في الجزائر ، على الأقل بعض وقت ، ولكنه قد ضرب أيضاً الحركة الوطنية بشدة ؛ وهكذا ألزم فيوليت الأخيرة على أن تقوم بنشاطها سرياً في الجزائر أو أن تلتجىء إلى فرنسا نفسها .

ولم يستأنف الشيوعيون نشاطاتهم إلا سنة 1927 ، وهو أيضاً تاريخ تعيين حاكم عام جديد بدلاً من فيوليت . وفي جريدتهم العربية ، « الراية الحمراء » ، التي كانت موجهة إلى أهالي أفريقيا الشمالية ، وإلى السوريين ، واللبنانيين ، أيد الشيوعيون الخط العام الذي اختاره الوطنيون . ففي أحد أعدادها يقرأ المرء ما يلي : « ان الاستعمار ، باغتصابه أفضل أراضي الأهالي ، قد تسبب في فقرهم . يسقط الاستعمار ! ليحيى استقلال الجزائر ! ».

كما يجد المرء صورة ساخرة (كاريكاتير) في هذه الصحيفة تظهر الفلاحين الجزائريين سائرين وراء العلم الشيوعي ، مع المطرقة والمنجل ، ضد الكولون

(124) نفس المصدر ، ص 625 ، نقلاً عن (لوهيومانيتي) (8 ديسمبر ، 1924) .

والجيش الفرنسي . ويقرأ المرء تحت هذا العلم ما يلي : « لكي يحصل الجزائريون على حريتهم واستقلال بلادهم ، وانهاء الاستعمار فليس هناك أكثر فائدة لهم من أن ينظموا أنفسهم وأن يتوحدوا مع العمال الفرنسيين الثوريين » . وهناك صورة ساخرة أخرى تظهر أسرة جزائرية تموت جوعاً على قارعة الطريق(125) .

وفي نفس الوقت استعمل الشوعيون المناشير والاعلانات ، بالإضافة إلى الصحافة ، لنشر أفكارهم بين الجزائريين . فخلال نفس السنة (1927) وزع منشور بالعربية والفرنسية بين الأهالي يدعوهم إلى الانضمام الى حركة « الشباب الشيوعي » « لتحقيق » مطالبهم العاجلة ، كما ظهرت الاعلانات في « كل المدن الرئيسية » الجزائرية داعية الجنود الجزائريين في الجيش الفرنسي « أن لا تطلقوا النار على اخوانكم الذين يناضلون من أجل استقلال الجزائر » ثم طالب الأهالي من جديد بالانضمام إلى حركة « الشباب الشيوعي »(126).

وتمشياً مع توصيات الكومينتيرن ، أصدر الحزبان الشيوعيان الفرنسي والايطالي نداء مشتركاً إلى أهالي أفريقيا الشمالية خلال نفس السنة . وقد حث النداء شعوب المنطقة ، بما في ذلك الليبيون ، على توحيد العمل لاستقلال الجميع . وقد ذكرهم أن الاستعمار والامبريالية كانا عدويهم . ودعا جنود المغرب العربي أن لا يحاربوا ضد اخوانهم الجنود الفرنسيين والإيطاليين. كما دعا النداء الشيوعي المشترك البروليتاريا الفرنسية والايطالية في أفريقيا الشمالية أن تعمل متحدة مع الأهالي المحليين . وانتهى بالشعارات التالية : « ليحيى استقلال طرابلس (ليبيا) وتونس ، والجزائر ، والمغرب ! لتسقط الحرب الامبريالية ! لتحيى الثورة العالمية »(127).

وقد أعطى الاحتفال المئوي بالاحتلال الفرنسي للجزائر (سنة 1930) فرصة رائعة للحزب الشيوعي الفرنسي لمهاجمة الامبريالية الفرنسية وللمناداة بالتآخي

---

(125) أنظر ريني تيري « الهجوم الشيوعي ضد أفريقية الشمالية » في «أ.ف.» (ماي 1927) ، ص 182 ـ 184 . ويبدو أن جريدة « الراية الحمراء » قد ظهرت حوالي سنة 1926 ، وليس هناك ما يدل على مكان ولا أوقات صدورها . ويحمل عنوانها الفرعي عبارة « جريدة شيوعية » . وغالباً ما غيرت اسمها .

(126) «الحملة الشيوعية ضد أفريقية الشمالية » في « أ. ف. » (جوان ، 1927) ، ص 234 .

(127) ريني تيري ، « الهجوم الشيوعي » في «أ.ف.» ماي ، (1927) ، ص 183 .

والصداقة بين البروليتاريا الجزائرية والفرنسية . وقد سبق أن أشرنا إلى بعض حملات الشيوعيين بخصوص هذا الموضوع . وعند وصول رئيس الجمهورية الفرنسية الى الجزائر لحضور الاحتفال المئوي ، وضعت الاعلانات المصورة بالغربية والفرنسية ، على جدران المدن الجزائرية مستنكرة هذه المناسبة بطرق شتى .

ومن بين هذه الاعلانات واحد يمثل الشعب الجزائري مقيداً ، حاملاً عبئاً ثقيلاً ، بينما يهدده سوط وصليب وسيف . وتحت هذه الصورة يقرأ الانسان بالعربية ما يلي : « قرن من الاستعباد تحت الاستعمار الفرنسي في الجزائر » . ويصور اعلان آخر معمراً فرنسياً جسمه في فرنسا ويداه ممتدتان عبر البحر الأبيض المتوسط إلى الجزائر والمغرب . ويقرأ الانسان تحت الصورة بالفرنسية ما يلي : « بمساعدة الحركة الشيوعية العالمية الحمراء ، ناضلوا ضد الإمبريالية الفرنسية »[128] .

ان الحزب الشيوعي الفرنسي كان يعمل في الجزائر خلال عقد كامل ، ولكن نتيجة نشاطاته كادت تكون لا شيء بخصوص الحركة الوطنية الجزائرية . ويعود هذا الفشل من جهة إلى برامجه ومن جهة أخرى إلى الواقع الجزائري . فبالنظر إلى أنه كان متعاوناً مع الكومينتيرن ، اضطر إلى أن يتخذ بعض المواقف بخصوص الحركة الوطنية الجزائرية . وقد شملت هذه المواقف « التحالف » بين الشيوعيين والجماعات الوطنية الثورية ، وخلق « جبهة متحدة » ، و « تجنيد » الجزائريين إلى صفوفه ، وتعاون وثيق مع نجم افريقيا الشمالية . كل هذه الأهداف حاولها الحزب ولكن كانت بلا نتيجة .

فبالإضافة إلى هدفه غير المحدد بخصوص مستقبل الجزائر ، كان الحزب قد وقع في مأزق التوفيق بين أيديولوجيته العالمية وأعماله القومية . وكعضو في الكومنتيرن ، متحدثاً باسم الجزائر ، كان من المفروض أن يحمل هجومه على الاستعمار والامبريالية الفرنسية الى أقصى حد ، حتى ولو أدى ذلك إلى تمزيق الامبراطورية الفرنسية . وقد كان الحزب مستعداً أن يهاجم ، ولكن ليس إلى ذلك الحد ، ولا سيما بالنظر إلى الجزائر التي لم يفتأ أبداً يعتبرها جزءاً من فرنسا . وأن

---

(128) ج . لادربي دي لاشاريير ، « الجزائر » في « أ . ف . » (أبريل ، 1930) ، ص 218 ، 219 .

قصة فرعه في سيدي بلعباس ، وعدم خلق فيدرالية شيوعية جزائرية الا سنة 1924 بدلاً من انشاء حزب مستقل ، وسيطرة الفرنسيين على هذه الفيدرالية بدلاً من الشيوعيين الجزائريين ، وموقف الحزب من نجم أفريقيا الشمالية - كل هذه تظهر المأزق الذي وقع فيه الحزب الشيوعي الفرنسي بالنظر إلى المذهبين المتعارضين في ذلك الوقت : القومية والعالمية.

ولكن جزءاً من فشل الحزب الشيوعي الفرنسي خلال العشرينات يعود إلى الواقع الجزائري . فقد كان هناك ثلاثة اتجاهات وطنية رئيسية في الجزائر خلال العقد الذي ندرسه : اتجاه المعتدلين الموالين لفرنسا ، ويدعى أحياناً باتجاه النخبة . واتجاه المصلحين الذي كانت تمثله حركة الأمير خالد من ناحية وقوة العلماء قبل تأسيس جمعيتهم من ناحية أخرى . ثم الاتجاه الثوري لنجم أفريقيا الشمالية . ولم يستطع الحزب الشيوعي أن يجذب إليه أياً من هذه الاتجاهات.

فمن 1922 إلى 1925 حاول الحزب أن يؤيد حركة الأمير خالد لخلق « جبهة متحدة » مع البورجوازية الوطنية . ولكن الأمير خالد ، الذي كان في حاجة إلى تأييد الشيوعيين لأغراض استراتيجية لم يكن الزعيم المثالي في نظر الشيوعيين . لقد كان وطنياً ، أو اسلامياً ، وبالطبع برجوازياً . أما مؤسسو جمعية العلماء ، بما في ذلك ابن باديس، فقد كانوا مصلحين وطنيين في الميدان الثقافي، وليس على المستوى السياسي . وإلى جانب ذلك ، فإن قيمتهم كقوة لم يكتشفها الشيوعيون إلاّ في الثلاثينات . كما أن العلماء كانوا مصلحين اسلاميين وعروبيين (مثلاً : رجعيين في نظر الشيوعيين) ، وهو اتجاه لم يكن الشيوعيون ليرحبوا به إلا لأسباب تكتيكية.

أما نجم افريقية الشمالية ، الذي أخذ أغلب تكتيك الشيوعيين ، فقد اتهم بالوطنية الضيقة لا من الشيوعيين فحسب ، ولكن من الكومينتيرن أيضاً . ورغم حاجتهم إلى التأييد الشيوعي ، فإن زعماء النجم ، الذين واجهوا ضغطاً لا يطاق للسيطرة عليهم، فقد اضطروا إلى أن يسحبوا من التعاون مع الشيوعيين وأن يتبعوا طريقهم الوطني الثوري الخاص . وقد بدأ سوء التفاهم بين الفريقين منذ مؤتمر بروكسل المنعقد سنة 1927 ، ثم ازداد حدة سنة 1929 حين حلت السلطات الفرنسية النجم.

ومع ذلك فقد جنت الحركة الوطنية الجزائرية بعض الثمار من نشاطات.

الشيوعيين في الجزائر . أولاً : ان هذه النشاطات كانت احدى العوامل التي فتحت ، كما سبقت الاشارة ، آفاقاً جديدة أمام الجزائريين خلال العهد المدروس : ثانياً : ان بعض الجزائريين قد وجدوا ملجأ في الحزب الشيوعي الفرنسي لكي يتقوا تعسف قانون الأهالي وغيره من القوانين الاستثنائية التي كانت موجهة ضدهم . وقد أيدت وسائل اعلام الحزب الوطنيين في مطالبهم بالمساواة في الحقوق ، وإعادة توزيع الأراضي ، وغير ذلك من الاجراءات الاجتماعية والاقتصادية .

ثالثاً : ان مهاجمة الشيوعيين للاستعمار عموماً جذبت اليهم أنظار كثير من الجزائريين ، رغم أن هدف الطرفين كان مختلفاً . رابعاً : ان الجزائريين قد تعلموا تكتيكاً جديداً من الشيوعيين في معارضة الحكم الفرنسي مثل النظام الصارم ، والمناورات السياسية ، وشعارات مختلفة عن الثورة ، والاستعمار ، والامبريالية ، والبورجوازية ، وما شابه ذلك . ولكن على المرء أن يتذكر أن كلا من الشيوعيين والوطنيين كان في حاجة إلى الآخر خلال العشرينات . فقد كان الأولون يحتاجون الأخيرين كجسر يتسربون منه إلى الجزائر . وكان الوطنيون في حاجة إلى الشيوعيين للوسائل التي يملكونها وللتأييد الذي كان في استطاعتهم أن يمنحوه في وجه الضغط من الادارة الفرنسية .

ليس في نيتنا دراسة كل مواقف الأحزاب السياسية الفرنسية نحو الحركة الوطنية الجزائرية . لقد سبق لنا أن أشرنا إلى موقف فيوليت الاشتراكي . وحوالي سنة 1930 أصدر نفس فيوليت كتاباً بعنوان « هل ستعيش الجزائر ؟ » كما أصدر جان مليا ، وهو اشتراكي فرنسي آخر ، حوالي نفس الوقت كتابه « الحالة المحزنة للأهالي المسلمين في الجزائر » . وقد كان للحزب الاشتراكي الفرنسي أيضاً فيدرالية في الجزائر تضم ، بناء على قول لوسيان لوريان الزعيم الاشتراكي الفرنسي ، 400 عضو يدفعون الاشتراكات ، سنة 1928 ، بعضهم جزائريون[129] . وقد اتبعت أحزاب فرنسية أخرى نفس التقليد في الجزائر ، ولكن علاقتها بالحركة الوطنية الجزائرية بقيت محافظة وغير واقعية .

ان العلاقة بين الحركة الوطنية الجزائرية والشيوعية قد درست لسببين :

---

(129) أنظر « النيويورك تايمس » (26 أوت ، 1928) ، قسم 2 ، ص 8 .

أولاً ، لأن الشيوعيين قد عزوا لأنفسهم ، ولا سيما منذ الثلاثينات ، دوراً كبيراً في المشكل الجزائري.

ثانياً ، لأن الكولون ومعظم الرسميين الفرنسيين خلال العهد المدروس قد عزوا النشاطات الوطنية الجزائرية إلى الشيوعية . وقد أوضحنا أن دور كل من الكومينتيرن والحزب الشيوعي الفرنسي في الجزائر كان ضئيلاً ، بل لا يكاد يذكر رغم أن كثيراً من الضوء قد سلط ، فيما يبدو ، على أهمية كليهما . وقد درسنا من قبل ردود فعل الرسميين الفرنسيين في الجزائر ويبدو من المناسب الآن أن ندرس رد فعل الكولون لما كان يجري في الجزائر .

6. رد فعل الكولون :

منذ حرب الاستقلال الجزائرية ، اتجه الكتاب ، سواء كانوا جزائريين أو فرنسيين ، نحو وضع اللوم على كاهل الكولون من أجل العواقب السيئة الحظ للسياسة الفرنسية في الجزائر . ونظراً لذلك ، ولكون الكولون كانوا تقريباً هم المسيطرين الحقيقيين على الشؤون الجزائرية ، فإنه يبدو مستحسناً أن ندرس وجهة نظرهم ، ولا سيما نحو قضية الحركة الوطنية الجزائرية . والحق أن المرء لا يستطيع أن يفهم روح الجزائر خلال العشرينات إلّا إذا فهم رد فعل الكولون للقضايا المطروحة عندئذ.

ومن بين هذه القضايا ظهور حركة وطنية في الجزائر بزعامة الأمير خالد . فخلال الانتخابات البلدية سنة 1919 خسرت جماعة النخبة المعركة الانتخابية لأنهم كانوا ينادون بالاندماج مع فرنسا . أما الأمير خالد ، الذي جمع حوله جماعة نشيطة ، فقد ربح الجولة لوقوفه ضد الاندماج ، والتجنيس . وقد فرح الكولون لهذه النتيجة . فهم لم يرضوا عن سياسة النخبة نحو الاندماج لأنها قد تقود إلى وجود أغلبية جزائرية في المجالس المحلية ، تأخذ المبادرة والقرارات الأخيرة من يذ الكولون . ولكن هؤلاء كانوا حذرين مما كانوا يسمونه بظهور التعصب الاسلامي ، أي اتجاه الأمير خالد الذي رفض الاندماج[130].

(130) أجرون ، « سياسة جزائرية » في (ر.هـ.م.ك.) ، م 6 (أبريل - جوان ، 1959) ، ص 147 .

وحين قدم الأمير خالد برنامجه الاصلاحي الى رئيس الوزارة الفرنسية سنة 1924 ، أخذ الكولون يدعون أن الأمير خالد كان عميلاً للشيوعيين . فقد اتهموه بأنه قد أبرم « اتفاقاً » مع الحزب الشيوعي الفرنسي ، وسخروا من خططه ، وأشاروا بهزء إلى أنه بعد فشله في أن يكون خليفة الاسلام في أفريقية ، حاول أن يكون « المهدي المنتظر للبولشيفية في أفريقيا الشمالية » . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الكولون سموا الأمير خالد « مرابطاً » يريد أن يقود أتباعه إلى « زاوية لينين » . فقد كان الأمير خالد ، في نظرهم ، شخصاً خائب الأمل يحمل معه مطامح لم تتحقق[131].

وفي عنفوان الثورة المغربية ، سنة 1925 ، اتهم الكولون الأمير خالد بالتواطؤ مع الأمير عبد الكريم ، ومع الشيوعيين مرة ثانية . وقد دعوه « بالأمير الأحمق » الذي تقلد لقبه (الأمير) « بدون حق » . ووصفوه بالأنانية والتكبر نظراً لوضع عائلته وقالوا عنه انه كان يبشر بالشيوعية وسط أهالي افريقية الشمالية في فرنسا كآلة في يد الحزب الشيوعي الفرنسي . وقد امتدت هذه الدعاية في الحط من قيمة الأمير خالد ، بسبب نشاطاته الوطنية ، إلى درجة اتهامه « بالتآمر ضد فرنسا »[132].

ولم يكتف الكولون برفض برنامجه الاصلاحي وبالسخرية من شخصه ، بل حاولوا أن يقاوموا حركته باقتراح برنامج آخر كانوا يهدفون منه إلى تأكيد سيادتهم في الجزائر . وقد قدم هذا البرنامج الجديد مورينو ، نائب قسنطينة وأحد زعماء الكولون البارزين . فكان يضم : رفض سياسة الاندماج في الجزائر ، وتطبيق مبدأ اللامركزية هناك ، وزيادة عدد الكولون ، وتدعيم الجيش الفرنسي ، وتنظيم فعال للأمن لسلامة الأشخاص والأملاك ، واصلاحات حكيمة ومتثبتة . وقد حاول مورينو أن يقنع زملاءه المتحفظين في مجلس النواب بباريس بقوله ان « الكولون هم أخلص أصدقاء الأهالي (الجزائريين) . فهم يعاملونهم كما يجب أن يعاملوا ، فكروا في ذلك جيداً »[133].

وحين نظم أهالي أفريقية الشمالية مؤتمرهم الأول في باريس ، خلال ديسمبر سنة 1924 ، كان رد فعل الكولون عليهم سريعاً وساخراً . فقد سموا ذلك « مؤتمر

---

(131) « البولشيفية » في « أ. ف. » (أكتوبر ، 1924) ، ص 530 .
(132) ريني تيري ، « إعتداء الريفيين » في « أ. ف. » (سبتمبر ، 1925) ، ص 469 .
(133) نص على ذلك نوشي ، ص 57 .

بني سيدي »[134] . أما الوفود التي شاركت في هذا المؤتمر فقد أطلقوا عليهم اسم « جنود الجيش الأحمر » ، مشيرين بذلك إلى التأثير الشيوعي بينهم . كما أطلقوا عليهم اسم « انكشارية (مرتزقة) الحزب الشيوعي » الفرنسي ، الذي لا تحتمل أمخاخهم مقاومة « مهيجات السحر الثوري » التي يقوم بها الشيوعيون[135] .

وقد رد الكولون بعاطفة على مؤتمر بروكسيل المعادي للاستعمار ، سنة 1927 حيث مثل الجزائر نجم أفريقيا الشمالية . فأطلقوا على هذا المؤتمر اسم « الاجتماع الألماني البولشيفيكي »[136] . وكتب فرنسوا مارسال ، الذي كان رئيساً للوزارة الفرنسية سابقاً ، في جريدة « لوموند نوفو » (15 مارس 1937) ، أن مؤتمر بروكسل كان « تواطؤاً ألمانياً وروسياً وثيقاً »[137] . وقد نشر الكولون هذه الفكرة وهاجموا المؤتمر لمحاولته تحطيم الحكم الفرنسي في أفريقيا الشمالية .

وخلال سنة 1928 طالب الكولون بوضع حد للصحيفة الوطنية ، « الاقدام » . لقد وقفت هذه الجريدة ، التي ظهرت سنة 1919 . تدافع عن برنامج الحزب الاصلاحي الذي كان يديره الأمير خالد . وحين نفي هذا ، أصبحت الجريدة في يد نجم أفريقيا الشمالية . فكانت تنشر مطالبه ، وبياناته ، وسياسته العامة . ولكن الكولون ، الذين وجدوا هذه الصحيفة غير مريحة لهم ، اتهموها بكونها خطراً وشيوعية . وطالبوا الحكومة الفرنسية بعدم التسامح مع هذه الجريدة « لأنها تسمم الرأي العام لرعايانا ومحمينا أهالي أفريقيا الشمالية وتوجههم ضد الوطن[138] » .

وقد سبق لنا أن تحدثنا عن رد فعل الرسميين الفرنسيين على نشاطات الشيوعيين في الجزائر . أما الكولون فقد شعروا بخطر الشيوعية وقرروا أن يبقوا هذا

---

(134) في المغرب العربي كلمة « سيدي » تعني عادة الإحترام والأدب . وفي إطلاق ذلك الإسم على المؤتمر، حاول الكولون أن يقللوا من تأثيره. ففي نظرهم لم يكن المؤتمر سوى إجتماع جماعة من الناس لكي يقولوا لبعضهم « سيدي » فلان الخ . كما يفعلون في المناسبات الإجتماعية .

(135) « البولشيفية » في «أ. ف. » (ديسمبر ، 1924) ، ص 624 ـ 625 .

(136) « الحملة الشيوعية » في «أ. ف. » (جوان 1927) ، ص 226 .

(137) « أصداء » في « أ. ف. » (أبريل ، 1927) ، ص 149 ـ 150 .

(138) « الدعاية الشيوعية » في « أ. ف. س. » (أكتوبر ، 1928) ، ص 655 . ظهرت (الإقدام) أولاً بالفرنسية بعد دمج جريدتي (الإسلام) و (الرشيدي) . ثم صدرت باللغتين منذ 1920 .

« الخطر » بعيداً عن المستعمرة « الهادئة » . وفي سنة 1922 نشرت جريدة استعمارية محافظة افتتاحية افتخرت فيها بأن الكولون قد نجحوا في القضاء على تسرب فكرة الجامعة الاسلامية الى أفريقيا الشمالية ، وقاوموا بفعالية أي تأثير أتى من مثال الحكم الذاتي المطبق في الهند ومصر ، وليبيا ، ثم قالت الجريدة ان الشيوعية الآن « تعلن الحرب على أفريقيا الشمالية الهادئة » . فالكولون اذن قرروا أن يوقفوا هذا الخطر الجديد . وبناء على هذه الجريدة ، فان الشيوعيين كانوا يستغلون « ضعف مخ » الجزائريين « بغموضهم » الماركسي . وأضافت أن المفكرين الماركسيين كانوا يصبون « كحولهم الدعائي المزيف » في عقول الجزائريين[139] .

وبعد الاشارة الى خطر الشيوعية في الجزائر والمستعمرات ، طالب الكولون ، سنة 1924 ، بأن تأخذ الحكومة الفرنسية اجراءات مناسبة لانقاذ مصالحهم من « الخطر » الشيوعي . وقالوا ان المحافظة على المستعمرات ضد المصل الانتخابي لا يكفي . ولذلك اقترحوا :

1 ـ يجب على الحكومة الفرنسية أن تصر ، في مفاوضتها مع السوفياتيين من أجل الإعتراف بنظامهم ، على أن لا يقوموا بخلق أي اضطراب « للسلام المعنوي الذي تتمتع به مستعمراتنا » وأن لا يبعثوا القناصل السوفياتية الى الجزائر ، أو تونس ، أو الرباط .

2 ـ مراقبة تامة « للمناشير الملتهبة والعملاء ذوي النظرات المشبوهة » الذين كانوا يحاولون استغلال سخط الأهالي في المستعمرات .

وحث الكولون كذلك على وجوب تخليص الأهالي الجزائريين، الذين كانوا قد انقذوا من « الخطر الألماني » من البولشفية أيضاً ، التي ستكون بالنسبة اليهم مثل أفكار « المهدي الثوري[140] » . وقد بعثت لجنة أفريقية الفرنسية أيضا عريضة تحتوي على اقتراحات مشابهة الى رئيس الوزارة الفرنسية ، والى وزير الداخلية ، والى وزير المستعمرات[141] .

---

(139) « الخطر الشيوعي » في « أ. ف. » (جوان ، 1922) ، ص 269 ـ 270 .

(140) « البولشيفية » في « أ. ف. » (أكتوبر ، 1924) ، ص 534 .

(141) نفس المصدر ، (نوفمبر ، 1924) ، ص 575 .

وفي سنة 1925 خلق الكولون « لجنة للدعاية والعمل لأفريقيا الشمالية » ، وكان من أهداف هذه اللجنة دراسة كل المسائل المتعلقة بالابقاء على النظام ، ومساعدة تطور الصناعة والتجارة ، والزراعة الاستعمارية في أفريقيا الشمالية ، بكل الوسائل ، ثم مواصلة العمل الاستعماري ، الخ . وكان على هذه اللجنة أن تقوم « بدعاية نشيطة واسعة لصالح أفريقيا الشمالية (الفرنسية) في فرنسا وخارجها ، في جميع البيئات ، في كل الميادين ، بكل الوسائل » .

وقد ضمت الهيئة الادارية شخصيات سياسية ، ومالية ، وزراعية ، وصناعية ، وأدبية ، كانت لها مصالح في القضايا الاستعمارية . وكان صباتي ، الرئيس السابق للمجلس المالي في الجزائر الذي كان تحت سيطرة الكولون ، هو الذي انتخب رئيساً لهذه اللجنة . أما الحاكم العام في الجزائر والمقيمان العامان في المغرب وتونس فقد انتخبوا أعضاء شرفيين لها . ومن الحقائق الهامة عن هذه اللجنة أنها تحصلت على تعضيد رئيس الجمهورية الفرنسية عندئذ[142] . وكان السبب الظاهري لخلق هذه اللجنة هو محاربة الشيوعية ، ولكن السبب الحقيقي كان القضاء على الحركة الوطنية . فلو أن الكولون أرادوا حقاً وقف الشيوعية في الجزائر لحاربوها في فرنسا نفسها (مثلاً : داخل الحزب الشيوعي الفرنسي) .

وقد استمرت حملة الكولون ضد الشيوعية في الجزائر طيلة العشرينات . وبناء على رواية مجلة « لافريك فرانسيز » ، فان الكولون غالباً ما رددوا « المعادلة المشهورة » التي فاه بها البير سارو ، وزير الداخلية الفرنسي عندئذ ، حين أعلن في خطبة له ألقاها في قسنطينة : « الشيوعية ، ذلك هو العدو ! » .

وفي سنة 1927 مدح الكولون الحاكم العام الاشتراكي فيوليت لاعتقاله أعضاء بعثة الريغي . ونادوا بمنع دخول الصحف ، والمنشورات ، والاعلانات « وما شابهها من المطبوعات » الى أفريقيا الشمالية . وأصر الكولون على ضرورة « حماية » الجماهير الجزائرية من « سموم » النظريات الشيوعية . أما بخصوص أعضاء النخبة ، فان الكولون قد شعروا أن ليس هناك خطر عليهم من الشيوعية لأنهم كانوا أذكياء

---

(142) « لجنة للدعاية والعمل من أجل أفريقية الشمالية » في « أ.ف. » (جوان ، 1925) ، ص 267 - 268. كان المقر الرسمي لهذه اللجنة في باريس .

واعين وعالمين « بأننا قد أنقذنا أفريقية الشمالية من حالتها المتوحشة[143] » . ولم يكن الكولون ضد القومية والشيوعية فقط ، بل كانوا أيضاً ضد مبادىء ويلسون الديموقراطية. فقد أعلنوا أن أفكار ويلسون عن تقرير المصير قد زعزعت « السلام المعنوي » الذي حققته فرنسا قبل وخلال الحرب العالمية الأولى . وادعوا أن مبادىء ويلسون جعلت الانكليز يغيرون سياستهم في الشرق الأدنى بالنسبة الى القومية ، ولا سيما في مصر . وقد انتشرت هذه المبادىء ، بناء على الكولون ، في أفريقية الشمالية أيضاً ، وبذلك أحدثت اضطراباً لفرنسا هناك[144] . ومن رأي الكولون أن الحركة الوطنية الجزائرية قد أثيرت وشجعت بمبادىء ويلسون والمذهب الشيوعي معاً . وسواء كان الكولون يهاجمون الحركة الوطنية مباشرة أو غير مباشرة (من خلال الشيوعية) ، فانهم في الحقيقة قد حاولوا أن يوقفوا تياراً لا يمكن وقفه .

خلاصة

عند النظر من بعيد ، نجد أن الجزائر كانت بعيدة عن كونها « منطقة هادئة » خلال العشرينات . حقا اننا لا نجد ثورة عسكرية هامة قد حدثت خلال هذا العقد ، كما حدث ذلك غالباً في العقود السابقة . ولكن تجربة فترة النهضة والحرب العالمية الأولى قد جعلت الحركة الوطنية الجزائرية تنمو أكثر نضجاً وأكثر حكمة بعد الحرب .

ان التركيز الآن قد أصبح على التنظيم السياسي أكثر من العمليات العسكرية . وقد كان التسرب الى الجماهير ، بتبسيط ونشر البرنامج الرئيسي خاصية أخرى خلال هذا العهد . والخاصية الثالثة كانت عالمية المشكل الجزائري ، التي بدأت في الواقع خلال الحرب . ولكن اللجوء الى النشاطات السياسية داخل الاطار الشرعي لم يمنع فرنسا من مواصلة نفس السياسة القديمة نحو الحركة الوطنية الجزائرية .

وقد ناضلت الجزائر لتؤكد شخصيتها الخاصة في وجه قوات كبيرة : القومية ، والشيوعية ، والاستعمار ، فخلال عقد واحد مرت الحركة الوطنية الجزائرية

---

(143) « الحملة الشيوعية » في «أ.ف.» (جوان ، 1927)، ص 231 ـ 234 .

(144) « البولشيفية » في « أ.ف. » (أكتوبر ، 1924) ، ص 529 .

بمرحلتين : مرحلة المطالبة بالمساواة ثم اعلان الانفصال . وخلال المرحلة الأولى ، ألحت الجزائر على ضرورة الاصلاحات التي تلغي الحواجز بين المجموعتين الجزائرية والفرنسية . وعندما عرقلت هذا عدة عوامل ،اتجهت الحركة الوطنية نحو مرحلة الانفصال تحت شعارات ثورية ، ذلك أن « مهازل » سنة 1930 قد فتحت جروح الماضي ، وذكرت الجزائريين بهزيمتهم ، وشجعت الوطنيين على مواصلة سيرهم نحو اليسار .

ورغم أن الاستعمار كظاهرة عالمية كان في تدهور ، فان الكولون في الجزائر وبعض الرسميين الفرنسيين قد حاولوا بيأس أن يبقوا عليه حياً . وحين وجد هؤلاء الفرنسيون أنفسهم تحت هجوم الحركة الوطنية من جهة والشيوعية من جهة أخرى، فقدوا السيطرة على أعصابهم وشرعوا في حملة تهدف بالدرجة الأولى الى قمع الحركة الوطنية . وفي أثناء ذلك كثيراً ما ديس القانون ، وصدرت بسهولة اجراءات خاصة ضد الوطنيين ، وغالباً ما ضحى بالمبادىء الديمقراطية .

وبدلاً من مكافحة الشيوعية على الجبهة المحلية (في فرنسا) ، حاول أولئك الفرنسيون أن يكافحوها في الجزائر ، ناسين أن ما كان يحدث هنا لم يكن الا صدى لما كان يحدث في فرنسا . وتحت ستار مكافحة الشيوعية ، حاول الكولون ومؤيدوهم بنشاط أن يحافظوا على الحالة الراهنة في الجزائر في وجه مطالبة الوطنيين بالتغيير . وقد كانت النتيجة المباشرة لذلك هي مضاعفة أعمال الحركة الوطنية . ولم تحن سنة 1930 حتى تحولت هذه الحركة بسرعة من مرحلة المساواة ـ الاصلاحية الى مرحلة الانفصال ـ الثورية .

والشيوعية ، التي أدخلها الفرنسيون أنفسهم الى الجزائر فشلت في تحقيق أهدافها . ورغم الأضواء الكثيرة التي سلطت عليها من هذه البلاد ، فان نشاطاتها قد بولغ فيها وان وقعها لا يكاد يذكر . ولم يكن لا الكومينتيرن ولا الحزب الشيوعي الفرنسي قد عامل الجزائر ككيان منفصل عن فرنسا . فالكومينتيرن قد قبل « الأمر الواقع » واعترف بالحزب الشيوعي الفرنسي كممثل شرعي للجزائر أيضاً . وحين ينظر المرء الى أعمال مختلف المؤتمرات التي عقدها الكومينتيرن خلال العهد المدروس ، فانه سيجد أن المشكل الجزائري كان غالباً غائباً من جدول أعمال ، ولوائح ، ودعايات هذه المنظمة .

أما الحزب الشيوعي الفرنسي فانه لم يستطع أن يخلص نفسه من ايديولوجيته القومية ـ الاستعمارية . فطيلة العشرينات عامل هذا الحزب الجزائر كمقاطعة فرنسية . وهذا الموقف هو الذي كان العامل الرئيسي في الطلاق النهائي للشيوعيين والوطنيين الجزائريين . بالطبع ، ان الشيوعيين الفرنسيين قد شجبوا الامبريالية الفرنسية في كتاباتهم ونادوا بالتآخي بين البروليتاريا الجزائرية والفرنسية ، ولكن هذا كان خدمة للثورة العالمية ، وليس للحركة الوطنية الجزائرية .

وهناك ايديولوجيات أخرى ظهرت في الجزائر أيضاً خلال العشرينات فمبادىء ويلسون ، التي تبناها البريطانيون في الشرق الأدنى ورفضها الفرنسون ، قد وجدت صدى قوياً بين الوطنيين الجزائريين . وهناك جماعة أخرى منهم قد اعتبروا مبدأ تقرير المصير أفضل طريقة للجزائريين لكي يستطيعوا التعبير عن أنفسهم . كما أن أكثر أعضاء النخبة والبورجوازية الأهلية قد قبلت بالديمقراطية في شكلها الغربي .

أما حركة الجامعة الاسلامية فقد تلقت صدمة كبيرة بسقوط الخلافة سنة 1924 . فحتى الى ذلك التاريخ كانت الخلافة ترمز لوحدة لعالم الاسلامي ، واذا كان العرب في الشرق قد وجدوا في القومية العربية شعارهم الجامع ، فان الجزائريين كان لهم شعور مختلط . فقليل منهم فقط كانوا مثقفين بالعربية ، بينما كانوا جميعاً مسلمين محافظين . ورغم الإحياء الثقافي الذي بدأه العلماء ، فان الجزائريين حتى الى سنة 1930 كانوا ما يزالون ميالين بقوة نحو حركة الجامعة الاسلامية أكثر من ميلهم الى القومية العربية .

ان سجل تاريخ الجزائر خلال العشرينات يبين أن الكولون لم يكونوا الجماعة الوحيدة التي تلام على سوء تصرف السياسة الفرنسية في الجزائر . فاليوم نجد أكثر الكتاب يعتبرون الكولون هم المسؤولون على كل أخطاء فرنسا في « مقاطعتها » الافريقية . ولكن التاريخ سيروي أنه لا كليمانصو ، ولا ميليران ، ولا هيريو ، ولا فيوليت ، ولا ستيغ ، ولا بوانكاريه ، ولا بورد كان من الكولون . فهناك رسميون فرنسيون آخرون ، وصانعو السياسة ، والمشرعون ، والكتاب يتحملون أيضاً المسؤولية مع الكولون . ان استعمال الكولون ككبش فداء لانقاذ الآخرين أمر ليس واقعياً ، وليس على طول المدى تاريخياً . ولا يمكن لمؤرخ أن ينكر التأثير القوي الذي كان يمارسه الكولون ، باعتبارهم جماعة ضاغطة ، على مصير السياسة الفرنسية .

في الجزائر ، ولكن وضع اللوم عليهم وحدهم لا يستند على منطق .

وحتى الآن كنا نشير الى الأحزاب السياسية والمنظمات الاجتماعية الجزائرية بالاسم فقط في أغلب الأحيان ، مع اعطاء معلومات قليلة عن مذاهب أصحابها ، وأهدافهم ، وقيادتهم ، ومناوراتهم ، وقوتهم . فدعنا نـدرس الآن هذه المنـظمات الوطنية بالتفصيل .

***

الفصل السابع

من المساواة
إلى الانفصال
1919 - 1930

مسح الفصل السابق كل القوى التي كانت تعمل في الجزائر خلال العشرينات ، وهذه القوى ، التي كانت تشمل القومية ، والاستعمار ، والشيوعية ، والديموقراطية وحركة الجامعة الاسلامية ، قد فتحت آفاقاً جديدة أمام الحركة الوطنية الجزائرية . ونفس القوى قد ساهمت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، في انضاج ، وتكتيك ، وتحديد اتجاه الحركة الوطنية . وباختصار فانها قد ساعدت على صقل وتوجيه كل مستقبل الجزائر.

وسواء كانت مرئية أو غير مرئية ، فإن الحركة الوطنية التي وجدت الى جانب تلك القوى ، كانت هي نفسها في زخم مستمر كبير . وقد عبرت عن نفسها في اتجاهات مختلفة . وكانت بعض هذه الاتجاهات تطالب بمساواة معتدلة مع الفرنسيين ، بينما تطالب أخرى بانفصال ثوري عنهم . وسيحاول هذا الفصل أن يتتبع اتجاهات الحركة الوطنية الجزائرية خلال العشرينات .

1. الحزب الليبرالي :

من الوجهة الرسمية ، كان هذا الحزب يدعى « فيدرالية المسلمين الجزائريين المنتخبين » ، وكان قد تأسس في 11 سبتمبر 1927 في الجزائر العاصمة . وبين 1919 و 1927 لم يكن هناك منظمة رسمية تمثل مصالح هذه الجماعة . فكما كان في عهد النهضة ، لم يكن هناك سوى كتلة فضفاضة تدعى جماعة النخبة . وكان أعضاء هذه الكتلة ، في أغلب الأحيان ، مختارين من الادارة الفرنسية ثم يوافق عليهم أو ينتخبهم قسم انتخابي جزائري صغير.

وليس لدينا من سبب في تسمية هذه الجماعة بالحزب الليبرالي ، بدلاً من فيدرالية المسلمين الجزائريين المنتخبين ، سوى توضيح الفكرة . ولكن سنرى أن

معظم أعضاء هذا الحزب كانوا يعتقدون في التعاون مع فرنسا وكانوا أيضاً معتدلين في مطالبهم السياسية والاجتماعية . وفي نفس الوقت ، كانوا مؤيدين متحمسين للاندماج وللثقافة الفرنسية.

ان ميلاد هذا الحزب يربطه بعض الكتاب بانتخابات سنة 1919 . ففي ذلك التاريخ انقسمت كتلة النخبة ، التي كانت قبل الحرب فضفاضة ، إلى جناحين سياسيين : يناديان بأهداف مختلفة على طول المدى . فالليبراليون الذين كانوا يشكلون قسماً كبيراً من النخبة ، نشدوا دمج الجزائر في فرنسا عن طريق التجنيس الجماعي ، بقطع النظر عن القضية الدينية . ونادوا بالتعليم الفرنسي واتباع طريقة الحياة الفرنسية ، وبالمساواة التامة مع الفرنسيين ، وببرنامج معتدل لبعض الاصلاحات الأساسية . ولكن نظراً لموقفهم الموالي للفرنسيين ، خسر الليبراليون الانتخابات . وبتعبير آخر ان الحزب كان « ليبرالياً » فقط لموقفه من الحالة الراهنة التي كان ينادي بها الكولون . وقد رفض الحزب الليبرالي التطرف كطريقة عمل والوطنية كهدف.

وبعد هزيمة سنة 1919 ثم 1922 ، بدأ الليبراليون في التقهقر . فالزعامة كان قد أخذها منهم الجناح اليساري من النخبة ، الذي سنطلق عليه من الآن الحزب الاصلاحي ، والذي كان تحت قيادة الأمير خالد . وقد بدأ الليبراليون يبحثون عن طريق آخر بعد أن وجدوا أنفسهم محل شك من الأهالي الجزائريين ، ومحل خوف من الكولون ، ومتروكين من فرنسا ، ومهاجمين من الاصلاحيين .

وقد اجتمع بعضهم حول جريدة « التقدم » المؤثرة ، التي كان يحررها الدكتور ابن التهامي ، وانضم آخرون منهم إلى جماعة ذات ثقافة أوروبية عالية تسمي نفسها « المستضعفون » ، وهم الذين كانوا يصدرون مجلة « لافوا دي هامبل » أو « صوت المستضعفين » . وكانت هذه الجماعة تنادي « بتحرير » الجزائر « بالمدارس » و « الدفاع عن المساواة في الحقوق » . ولكن جميع الليبراليين كانوا يأملون في فرصة يظهرون خلالها من جديد لكي يستأنفوا دورهم السياسي والاجتماعي النشيط ويربطوا « المسافة » التي تفصل بين الجزائر وأوروبا[1].

وقد حانت الفرصة اللامعة بالنسبة إليهم سنة 1923 . ففي هذا التاريخ نفت

(1) عباس ، ص 120 ، 126 .

فرنسا الأمير خالد وبعض الزعماء البارزين من حزبه . أما الكولون فقد قاموا بانتخابات بلدية مشكوك فيها (1924) حيث ألغوا جميع قائمة الاصلاحيين لصالح الليبراليين . وهكذا فان الليبراليين ، الذين خسروا تأييد الكولون سنة 1919 و 1922 ، وجدوا أنفسهم مباركين بهم سنة 1924 .

أما الفرصة اللامعة الأخرى بالنسبة للحزب الليبرالي ، فقد كانت تعيين « رجل يساري » ، وهو فيوليت ، سنة 1925 ، كحاكم عام للجزائر . وقد ظن الليبراليون أن فيوليت سيستعمل مناسبة الاحتفال المئوي كنقطة انطلاق نحو سياسة واقعية وإنسانية ، بدلاً من استعمارية ، في الجزائر . حتى أنهم تصوروا أن فيوليت كان قد تخلى عن منصبه سنة 1927 لأن الكولون لم يحبوه لسياسته الموالية للجزائر[2] .

وبالإضافة إلى الدكتور ابن التهامي ، كان الليبراليون يضمون بعض المثقفين الآخرين مثل : بلحاج ، والزناتي ، والفاسي ، وطاهرات ، والليشاني ، وفرحات عباس ، والدكتور ابن جلول . وقد لعب الأخيران دوراً نشيطاً عاماً خلال الثلاثينات . أما خلال العشرينات فإن كليهما كان ما يزال غامضاً ، باحثاً له عن مكان في المستقبل .

ولد فرحات عباس سنة 1899 في بلدية الطاهير المختلطة ، ومارس تعليمه الابتدائي في مدينة جيجل ، وتعليمه الثانوي في قسنطينة ، والجامعي في جامعة الجزائر . وقد تخرج منها صيدلياً . وفي سنة 1926 انتخب رئيساً لجمعية الطلبة المسلمين الجزائريين في الجزائر العاصمة .

وتحت الاسم المستعار ، كمال ابن سراج ، كتب عباس سلسلة من المقالات خلال العشرينات كانت عموماً تعكس اتجاه الحزب الليبرالي ومن المهم أن نعرف أن كل ، أو على الأقل جل ، هذه المقالات كانت قد نشرت في جريدة « التقدم » التي كان يحررها الدكتور ابن التهامي . وفي سنة 1931 جمع عباس هذه المقالات ونشرها في كتابه « الشاب الجزائري » الذي أثار جدلاً .

وبناء على رأي أحد الكتّاب ، فإن « الشاب الجزائري » قد سجّل مرحلة خاصة

---

(2) نفس المصدر ، ص 123 ـ 124 .

في تطور النخبة الجزائرية . وقد استقبله الكولون على أنه يمثل وجهة نظر منعزلة ، أما أعضاء النخبة فقد نظروا إليه على أنه خطوة جديدة في تطورهم[3] . والواقع أن ظهور هذا الكتاب يجب أن يرتبط أيضاً « بمهازل » سنة 1930 ، لأن عباس ، بعد ذلك ، بدأ يشارك في حركة طلاب أفريقيا الشمالية . ان ظهور « الشاب الجزائري » ، مثل انشاء جمعية العلماء ، كان شهادة أخرى على أن أحداث سنة 1930 كانت هامة في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية.

وهناك زعيم آخر سيؤثر في حياة الحزب الليبرالي ، وهو الدكتور ابن جلول . ولد ابن جلول في منطقة الأوراس سنة 1894 وواصل تعليمه الثانوي بقسنطينة حيث كان يحصل باستمرار على منح دراسية ، ثم تلقى تعليمه الجامعي في جامعة الجزائر حيث نال شهادة الدكتوراه في الطب حوالي سنة 1924 . وبعد ذلك قام ببعض النشاطات في الانتخابات المحلية والصحافة . وقد أعجب ابن جلول ، الى حد ما ، بالأمير خالد أكثر من اعجابه بالدكتور ابن التهامي[4]. وباعتباره عضواً في جماعة النخبة جذب ابن جلول ، بعد قمع حركة الأمير خالد والتطور التدريجي للحزب الليبرالي ، الى برنامج هذا الحزب . وسوف يكون ، خلال الثلاثينات ، زعيم الليبراليين ، مع برنامج شبيه بذلك الذي وضعه الأمير خالد خلال العشرينات.

ان برنامج الليبراليين كان في ملامحه معتدلاً وعليه طابع المساواة . وبناء على عضو منهم ، فإن مطالبهم القصوى هي :

1 ـ احترام الحضارة الاسلامية.
2 ـ التخلي عن نظرية الامتياز العنصري .
3 ـ المساواة في الحقوق السياسية .
4 ـ تحويل المجتمع الجزائري إلى مجتمع حديث عن طريق جماعة النخبة لا عن طريق الفرنسيين .

---

(3) جوليان ، « أفريقية الشمالية » ، ص 115 . وساراسان ص 74 ـ 75 .
أنظر أيضاً عن نشاط فرحات عباس الطلابي والسياسي في كتابنا (الحركة الوطنية الجزائرية) الجزء 3 ، ط 3 .

(4) ل . موهندس ، « الهجوم » في « أ.ف. » « فيفري ، 1935 » ، ص 93 ـ 94 . أنظر عنه أيضاً كتابنا (الحركة الوطنية الجزائرية) جـ 3 . ط 3 .

5 ـ ان الجزائريين ، كاليابانيين ، يطمحون إلى وضع أنفسهم في المدارس الأوروبية دون أن يفقدوا حضارتهم الخاصة.

أما دور فرنسا فقد كان ، بناء على وجهة نظر الليبراليين يتمثل في مساعدتهم على تحقيق هذه المهمة . وكانت رسالة الليبراليين هي اقناع فرنسا أن تجعل من الجزائر وباريس ملتقى المثقفين العرب حتى تساهم في نهضة العالم الاسلامي[5] . ولكن عندما ظهر أن هذا البرنامج لم يكن سوى حلم ، أصبح الليبراليون راضين ببرنامج « عملي » يحقق التعليم على الطريقة الغربية ، والأمن ، والعدل الاجتماعي.

ان الليبراليين قد كافحوا من أجل وضد عدد من القضايا خلال العشرينات . ومن بين القضايا الهامة التي وقفوا ضدها إجحاف الكولون والخاصة الأبوية للحكم الفرنسي . فهم ، كطبقة مثقفة ، كانوا أكثر وعياً من سواهم بما يجب أن يكون . لقد هزمهم تناقض القانون الفرنسي بالنسبة إلى الجزائريين . فحين يقول الجزائري انه عربي ، يجيبه القضاة الفرنسيون : « لا ، انك فرنسي » . ولكن حين يطالب بحقوق المواطن الفرنسي ، يجيبه نفس القضاة : « لا ، انك عربي »[7].

لذلك نادى الليبراليون بوضع حد لهذا التناقض بمنح الجزائريين كل الحقوق السياسية والمدنية مثل المواطنين الفرنسيين . وقد هاجموا أسطورة الامتياز العنصري ، والنظام الأبوي ، والاستعمار ، والظلم . ونادوا بالتآخي بين المجموعتين الجزائرية والفرنسية . ولم يطالبوا لا بالوطنية الجزائرية ولا بمذهب انفصالي عن فرنسا . بل انهم لم يعترضوا على أن تصبح الجزائر مقاطعة فرنسية . حتى أن بعضهم قد ادعى بأنه ليس في القرآن ما يمنع المسلم من أن يصبح فرنسياً »[8].

كان تحديد هجرة الجزائريين إلى فرنسا سنة 1924 قد خلق رد فعل عاطفي

---

(5) عباس ، ص 121 ـ 122 . وقد عبر المؤلف عن هذا الرأي في مقال نشره سنة 1927 في جريدة « التقدم » الناطقة باسم الحزب الليبرالي .

(6) نفس المصدر ، ص 123 .

(7) نفس المصدر ، ص 110 .

(8) جوليان ، « أفريقية الشمالية ، ص 110 .

كبير بين الليبراليين . فرغم تمسكهم بفرنسا ، لم يستطيعوا أن يتحملوا هذا القيد الجديد من التمييز ضد الجزائريين ، لذلك وجهوا احتجاجات مختلفة من المجالس المحلية ضد هذا الاجراء « الظالم » مطالبين بالغاء القيد الجديد . كما وجهوا « نداء » باسم المنتخبين الجزائريين في المجالس المحلية كان قد نشر في الصحافة . وأعلنوا أن القيد الجديد كانت له صيغة عنصرية (لأنه كان ضد هجرة الجزائريين فقط) ، وأنه لم يراع الحالة الاقتصادية للجزائر ، وأنه كان ضد قانون 14 جويليه ، 1914 الذي أنهى مثل هذا القيد . وقد أنذر نداء الليبراليين أن هذا الاجراء سيكون له « عواقب وخيمة وأنه يمكن أن يحطم السمعة الفرنسية في الجزائر »[9].

ومن بين الأحداث الهامة في حياة الليبراليين خلق منظمتهم الرسمية ، فيدرالية المسلمين الجزائريين المنتخبين . ففي 11 سبتمبر 1927 اجتمع في العاصمة حوالي 150 شخصاً منهم تحت رئاسة بومدين ، الذي كان عضواً في بلدية الجزائر ، لغيبة الدكتور ابن التهامي . وقد أوضح بومدين أن الليبراليين كانوا يحاولون تقليد زملائهم الفرنسيين الذين نظموا جمعية لهم للدفاع عن مصالحهم . وكان هدفهم ، بناء على رأيه ، ايجاد تفاهم مشترك بينهم وبين زملائهم الفرنسيين . وأضاف أن الليبراليين ، الذين تثقفوا في المدارس الفرنسية ، سيبقون مخلصين لفرنسا التي جاءت لهم بالحضارة . وفي هذه المناسبة وعد الليبراليون بالاحترام للسلطات الفرنسية في الجزائر ، وبعثوا ببرقيات الى رئيس الوزارة الفرنسية ، ووزير الداخلية ، والحاكم العام ، وإلى بعض الفرنسيين العاطفين على الجزائر في المجلس الوطني الفرنسي . وعينوا وفداً من ثلاثين عضواً لشرح برنامجهم الى الحكومة الفرنسية في باريس[10].

وإذا أخذنا في الاعتبار الوقت والظروف ، نجد برنامج الليبراليين جديراً بالاهتمام : كانت صحيفتهم « التقدم » هي التي تعلن مطالبهم . ومن بين هذه المطالب : التمثيل النيابي للجزائريين في المجلس الوطني الفرنسي، والمساواة بين الجزائريين والفرنسيين في الخدمة العسكرية. والمساواة في المعاملة وفي التعويض

---

(9) مير ، « هجرة العمال الجزائريين » في « أ. ف. س. » (مارس ، 1925) ، ص 96 . كان هذا النداء قد وقع من تسعة منتخبين جزائريين .

(10) « الجزائر » في «أ. ف. » (نوفمبر ، 1927) ص 463 ـ 464 .

عن العمل. والغاء القيود المعرقلة لهجرة الجزائريين الى فرنسا. والغاء قانون الأهالي. وتطوير التعليم للجزائريين واصلاح تعليمهم المهني. وتطبيق القوانين الاجتماعية الفرنسية على الجزائر، وإعادة النظر في نظام الانتخابات[11].

ومن الملاحظ أن جميع هذه المطالب لم تكن أساساً جديدة. فقد كانت تقريباً هي نفس المطالب التي نادى بها الجزائريون قبل الحرب العالمية الأولى ثم كررها الأمير خالد منذ 1919. ويبدو منها أن الليبراليين كانوا ما يزالون « محافظين » في مطالبهم. ان الوقت لم يعلمهم أنهم كانوا متأخرين أكثر مما ينبغي. ولكن إذا أخذنا في الاعتبار تدهورهم منذ الحرب وغياب الحزب الاصلاحي عن المسرح، فإن موقف الليبراليين الجماعي سنة 1927 كان يبدو نقطة انطلاق هامة. وعندئذ سيتولون دور الاصلاحيين. وسوف نرى أن هؤلاء كانوا مضطهدين أو مضطرين إما إلى أخذ موقف معتدل بمشاركة الليبراليين أو موقف ثوري بالانضمام إلى نجم أفريقيا الشمالية.

وعلى أية حال فإن وفداً من ثلاثين ليبرالياً قد غادر الجزائر متوجهاً إلى فرنسا في 14 نوفمبر 1927، لكي يضع مطالب الفيدرالية مباشرة أمام الحكومة الفرنسية. كان رئيس الوفد هو صالح م. سي هني. وقد قابل الوفد وزير الداخلية البير سارو. ثم أصدر هذا بياناً عقب الزيارة جاء فيه أنه قد استقبل الوفد بسرور وأنه قد عين « لجنة من العدول » لكي « تدرس المشكل المعقد » الذي نتج عن مطالب الجزائريين. ويبدو أن الوفد كان قد عاد إلى الجزائر دون أية نتيجة ايجابية[12].

وفي أقل من سنة بعد خلق الفيدرالية، كان الليبراليون متورطين في قصة هامة مع الادارة الفرنسية في الجزائر. فبعد مناقشة ساخنة عن الاستعمار (اغتصاب الأراضي) في المجلس المالي، تقدم الأعضاء الجزائريون فيه، برئاسة السيد سيسبان، بلائحة (14 جوان 1928) تنص على أن الاستعمار قد أصبح شيئاً من

---

(11) نفس المصدر. أنظر أيضاً نوشي، ص 63. توينبي، « مدخل » (1937)، م 1، ص 514.

(12) « الجزائر » في « أ.ف. » (نوفمبر، 1927)، ص 465، بالإضافة إلى رئيسه، كان الوفد يضم شكيكن، قائد محمود، مصطفى تامزالي، زروق محيي الدين، الخ. وقد قابل أعضاء الفيدرالية أيضاً الحاكم العام فيوليت وطلبوا منه أن يعيد النظر في استقالته. أنظر ص 464 من نفس المصدر.

الماضي ، وأعلنت أن تأميم الأراضي من قبل الفرنسيين كان ضد مصالح الجزائريين . وقد حثت اللائحة الحاكم العام على أن « ينهي بطريقة خاصة . . . تأميم الأراضي كوسيلة للاستعمار »[13].

ولكن الجزء الهام من القصة لم يكن اللائحة في نفسها ، بل ما تلاها ، ففي 20 من جوان بدأت مناقشة حادة بخصوص اللائحة ، أدت إلى تدخل الحاكم العام بورد، شخصياً . وقد أعلن بورد أن الجزائريين كانوا مضللين من أناس معادين للاستعمار في باريس وغير مطلعين على الوضع في الجزائر ، وبناء على الحاكم العام ، فإن هؤلاء الناس قد صوروا الاستعمار على أنه ضد مصالح الجزائريين . وأخيراً سأل الأعضاء الجزائريين أن يعيدوا النظر في اللائحة . وكان هذا يعني ، بطريقة غير مباشرة ، أن بورد يريد من هؤلاء الأعضاء أن يسحبوا لائحتهم.

وهنا كان الليبراليون ممزقين بين امكانيتين متعارضتين: أن يصروا على أن الاستعمار كان شيئاً غير حميد ، فيتخذوا بذلك موقفاً صلباً قد لا يسر الادارة الفرنسية ، أو أن يتراجعوا مفضلين الموقف الناعم ، وأخيراً اختاروا هذا الموقف . فبعد اعادة النظر ، قرروا سحب اللائحة[14] . ولا شك أن هذه القصة تشير أيضاً إلى اعتدال ونعومة الليبراليين نحو الحكم الفرنسي في بلادهم.

ومنذ سنة 1927 شن الليبراليون حملة من أجل تمثيل الجزائريين في المجلس الوطني الفرنسي . وقد امتدت هذه الحملة لا إلى الجزائر فحسب بل إلى فرنسا نفسها أيضاً[15] . ونتيجة لذلك ، عين ألبير سارو وزير الداخلية لجنة أخرى في 6 سبتمبر 1928 ، لكي تدرس « تمثيل أهالي الجزائر وأهالي المستعمرات في المجلس الوطني (الفرنسي) » . وبناء على رأي أحد الكتاب الفرنسيين ، فإن الجزائر قد احتلت « مكاناً هاماً » في اللجنة الجديدة[16].

---

(13) « الجزائر » في « أ. ف. » (جويليه ، 1928) ، ص 298 .

(14) نفس المصدر .

(15) تعقيباً على هذه الحركة التحررية كتبت « التايمز » (21 نوفمبر 1927) أن « ملاحظين جادين » يعتقدون أن الجزائريين « لم يكونوا بعد مستعدين لتحمل هذه المسؤوليات » .

(16) كانت اللجنة الأولى قد عينها ألبير سارو بعد إجتماعه بوفد جزائري في باريس خلال السنة السابقة . وكان هدفها دراسة مطالب الليبرالين ، التي كانت تتضمن مشكلة التمثيل النيابي أيضاً .

ولكن قضية التمثيل النيابي لم تكن بسيطة كما يبدو . فقد كانت تعني أيضاً الجواب عما إذا كان الجزائريون سيكتفون بقسم انتخابي واحد مع الفرنسيين أو سيبقون على نظام القسمين . ويبدو أن الليبراليين قد قبلوا مبدأ الإبقاء على قسم انتخابي منفصل في المجلس الوطني الفرنسي مثل ما كان الحال في المجالس المحلية في الجزائر . وهذا الرأي قد عبرت عنه خصوصاً جريدة « التقدم » . ولكن الليبراليين قد غيروا رأيهم بالنسبة الى الصلاحية الانتخابية . فحتى سنة 1928 كانوا يؤمنون بأن الجزائريين المتجنسين فقط هم الذين لهم صلاحية التصويت إذا أصدرت فرنسا قوانين تعطيهم الحق في انتخاب النواب الى المجلس الوطني الفرنسي .

وقد تحول الليبراليون عن ذلك نتيجة ضغط شديد قام به العلماء . « فالشهاب » ، التي كانت تتكلم باسم هؤلاء ، عبرت عن الرأي بأن لكل الجزائريين ، سواء كانوا متجنسين أو غير متجنسين ، الحق في انتخاب النواب إلى المجلس الوطني[17] . ولكن رغم مضاعفة الحملة في الجزائر وتعيين لجان الدراسة الخاصة في فرنسا ، فإن قضية التمثيل النيابي في المجلس الوطني الفرنسي لم تتحقق قبل سنة 1947 .

والليبراليون ، مثل بقية الجزائريين ، قد هزتهم وأنذرتهم « مهازل » سنة 1930 . فرغم أن بعضهم قد تحدث في تلك المناسبة في صالح الرسالة الحضارية الفرنسية في الجزائر ، فإن الرياح كانت تهب في اتجاه آخر . أن فشلهم في تحقيق برنامجهم المعتدل في التعليم ، والتجنيس ، والتمثيل النيابي في المجلس الوطني الفرنسي ، قد حط من قيمتهم في أعين الأهالي . ومن جهة أخرى تسببت لهم استقالة فيوليت ، الذي كان ينادي بسياسة اندماجية في الجزائر شبيهة بسياستهم ، في أن يخسروا أحد مؤيديهم البارزين . وكان ظهور نجم أفريقيا الشمالية على رأس الاتجاه الوطني ـ الثوري وظهور العلماء على رأس الاتجاه الوطني ـ الثقافي قد ساهما أيضاً في تدهور الليبراليين . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن فرنسا قد عزلتهم بخيبات الأمل المتواصلة ، ولا سيما بحوادث سنة 1930 .

وهكذا كان الليبراليون في نهاية العقد قد خسروا قوتهم الفعالة . لقد كانوا في

---

(17) مارسيل لارنود ، « الجزائر » في « أ. ف. » (ديسمبر ، 1928) ، ص 526..

وضع شبيه كثيراً بذلك الذي كانوا عليه سنة 1919 . ولكي يستعيدوا فعاليتهم كان عليهم أن يقوموا ببعض التغييرات . وقد كان صدور « الشاب الجزائري » سنة 1931 ، وظهور الدكتور ابن جلول وفرحات عباس على المسرح السياسي النشيط ، والملهاة المعروفة باسم « برنامج فيوليت » ، إشارة إلى أن الليبراليين كانوا يتحركون نحو الاتجاه الجديد . ولكن هذه الظواهر تخص حقبة أخرى خارجة عن نطاق هذا الكتاب .

وفي نفس الوقت ، كانت هناك حركة وطنية قوية في الجزائر يقودها الأمير خالد . وبين سنة 1919 ، وحوالي 1925 كانت هذه الحركة ، التي أسميناها في هذا الكتاب بالحزب الاصلاحي ، ذات سمعة كبيرة في السياسة الجزائرية . وبعد نفي زعيمها ، لم تختف ، ولكنها انقسمت إلى جناحين : ثوري ومعتدل ، ذاب كلاهما في الأحزاب السياسية المحلية خلال تلك الفترة : النجم والحزب الليبرالي . ولكن الحزب الاصلاحي يحتاج إلى دراسة أكثر عمقاً .

2. الحزب الاصلاحي:

ان قصة الأمير خالد وحركته مثل ثابت في العلاقة بين الحركة الوطنية الجزائرية وفرنسا منذ الحرب العالمية الأولى . لقد رأى خالد نجمه يعلو عند نهاية الحرب لاعتبارات تعود الى أنه كان من نسل الأمير عبد القادر ، وأنه كان عارفاً بالحضارة الإسلامية والأوروبية ، وأنه كان محارباً قديماً قضى زمن الحرب على الجبهة الأوروبية .

واعتماداً على ذكرى جده الأمير عبد القادر التي لا تنسى ، وعلى أخبار عمه الأمير عبد المالك المثيرة في المغرب وعلى الحركات القومية في أوروبا والشرق الأدنى ، ثم على وجود فراغ في القيادة بالجزائر ، قرر الأمير خالد أن يدخل المعركة السياسية وأن يصبح المتحدث الرسمي باسم الحركة الوطنية الجزائرية وزعيماً ليس في الجزئر فقط بل في العالم الاسلامي أيضاً . وعندما وجدت فرنسا أن الأمير خالد وحركته غير مريحين ، حاربته أولاً عند صناديق الانتخابات ، ثم نفته وقمعت حركته . ولم يكن ذلك سوى نموذج بدأ ، في الحقيقة ، مع حركة حمدان خوجة ولم ينته إلاّ عندما تحقق الاستقلال للجزائر.

ولكن ظهور الأمير خالد لم يكن ظاهرة غريبة في السياسة الجزائرية ، فقبل الحرب كانت كتلة النخبة تحت قيادة الدكتور ابن التهامي ، الذي بالرغم من اختفائه أثناء الحرب ، استأنف زعامته للكتلة عندما انتهت الحرب . أما كتلة المحافظين فقد كانت تحت قيادة رجلين : ابن موهوب وابن سماية ، وكلاهما كان اصلاحياً وغير سياسي . وكلاهما أيضاً اختفى أثناء الحرب . وبعد سنة 1919 بقي الاتجاه الوطني المحافظ بدون زعامة بخلاف كتلة النخبة[18].

ولكن حركة الأمير خالد لم تكن دينية ، بل كانت سياسية وطنية . وفي الحقيقة أن هذه احدى الحالات التي يختلط فيها الدين والوطنية :

أولاً ، بناء على القانون الفرنسي ، فإن الجزائريين ، رغم أنهم كانوا رعايا فرنسيين ، لا يستطيعون أن يكونوا فرنسيين حقيقيين إلا إذا تخلوا عن حالتهم الشخصية كمسلمين . وبرفضهم لذلك (باستثناء قسم صغير من جماعة النخبة) ، دعم الجزائريون الفكرة الانفصالية (الوطنية) بينهم وبين الفرنسيين ، رغم أن هذه الفكرة كانت في الحقيقة مستندة على الدين . فعندما طلب الأمير خالد أن يسمح للجزائريين أن يصبحوا فرنسيين داخل أحوالهم الشخصية كمسلمين ، لم يكن يتحدث باسم الدين ، بل باسم الديموقراطية ، التي تعني حرية العقيدة والتفكير . ان القانون الفرنسي ، بالنسبة الى القضية الجزائرية ، كان معادياً للديموقراطية وغير متسامح .

ثانياً ، ان الأمير خالد ، بتربيته وثقافته ، ينتمي إلى جماعة النخبة ، وليس إلى كتلة المحافظين ، التي كانت تضم عناصر دينية . كانت ثقافته أساساً فرنسية ، وقد خدم في الجيش الفرنسي برتبة قبطان سبائحي خلال الحرب . وفي استجواب مع الجريدة الايطالية « لانازيون » (10 جوان 1922) أشار خالد إلى أنه لم يكن زعيماً دينياً ، فقد قال عندئذ : « ان حركتنا ليست دينية ، ولكنها بالقوة حركة سياسية ، لأن القضية هي قضية استقلال جميع الأقطار الاسلامية »[19] . ولكن المرء لا يستطيع أن

---

(18) أنظر قائمة المراجع الجديدة للتعرف على أحدث الدراسات عن حياة ونشاط الأمير خالد .

(19) نص على ذلك ديبارمي من « ليكودالجي » (27 جوان ، 1922) في مقالة « القادة » في « أ . ف . » (جانفي ، 1931) ، ص 11 . إذا صح ما نسب إلى الأمير خالد فانه يكون قد لمح بإستقلال الجزائر لأنها تدخل ضمن « جميع الأقطار الإسلامية » .

ينكر بأن الأمير خالد قد ركز على قضية الدين في مطالبه الوطنية.

وباعتباره معارضاً لادماج الجزائريين بالتجنيس، فصل الأمير خالد نفسه عن جماعة النخبة سنة 1919. فقد كتب في جريدة «الاقدام» أن الجزائريين لا يستطيعون قبول المواطنة الفرنسية داخل أي اطار غير اطارهم الخاص. وقال انه «حلم» فقط أن نسأل الفرنسيين تغيير شرطهم لأنه أولاً شرط «لا تريده الجماهير»، وثانياً أن فرنسا نفسها «لن تصدر أبداً قراراً بالتجنيس الجماعي»، لأنها تخشى أن ترى الكولون تحت سيطرة خمسة ملايين جزائري. وختم الأمير خالد تحديه إلى جماعة النخبة بقوله: «وإذن لا تتحدثوا عن الاندماج»[20]. وقد برهنت الحوادث التالية على أنه كان مصيباً، لأن فرنسا لم تغير أبداً قانونها الخاص بالتجنيس المشروط بالنسبة للجزائريين.

وبين سنة 1919 و 1921 نادى الأمير خالد ببرنامج اصلاحي قائم على فكرة المساواة بين الجزائريين والفرنسيين. فقد كان في صالح تمثيل نيابي للجزائريين في المجلس الوطني الفرنسي، ووقف القوى العقابية الخاصة التي كانت لحكام البلديات المختلطة، وخلق جامعة جزائرية، والتعليم الاجباري بالعربية والفرنسية، وتطبيق القانون العام على كل سكان الجزائر دون تمييز، والمساواة بين الجزائريين والفرنسيين في الوظيف، الخ.

وقد جذب هذا البرنامج إليه مختلف الطبقات الجزائرية. فقد أرضى أغلبية جماعة النخبة لاعتماده على فكرة المساواة بين المجموعتين وأرضى المحافظين بنغمته المعادية للاندماج. كما جذب اليه الفلاحين بتركيزه على وقف القوى العقابية لحكام البلديات المختلطة. ولكن الكولون ومؤيديهم الذين رأوا حزب الأمير خالد منتصراً في الانتخابات سنة 1919، لم يعودوا قادرين على قبوله. ففي السنة التالية، بينما كان حزب الأمير خالد فائزاً في الانتخابات البلدية للجزائر العاصمة، قرر مجلس رؤساء العمالات الغاء الانتخابات وأعلن عدم كفاءة مرشحي هذا الحزب[21].

---

(20) أشار إلى ذلك أجرون، (سياسة جزائرية) في «ر. هـ. م. ك.»، م 6، (أبريل - جوان، 1959)، ص 147.

(21) نفس المصدر. أنظر أيضاً نوشي، ص 55.

واغتنم الأمير خالد فرصة زيارة الرئيس ميليران للجزائر في ربيع 1922 ، وخطب أمامه باسم جميع السكان الجزائريين ، وبناء على رأي كاتب معاصر ، فقد استمع كل من الجزائريين والكولون الى خطبة الأمير خالد « بهدوء وانتباه عظيمين » . وقد قال الأمير خالد لميليران أن زيارته التي جاءت عشية مرور مائة سنة على الاحتلال كانت هامة . كما أنها هامة لأنها حدثت عندما كان العالم كله يشهد « جائحة بدون سابقة » لتحقيق التوازن الأخلاقي . وأضاف خالد مخاطباً ميليران أن الجزائريين يطالبون « في الحال » ، بالحريات المدنية من فرنسا والترخيص لهم بتقلد جميع المراتب في العائلة الفرنسية بدون شرط.

وقد ذكر الأمير خالد الضيف الفرنسي بأن الجزائريين ، ايماناً منهم « بالتقاليد الشريفة » للأمير عبد القادر ، « حاربوا دفاعاً عن الحق والحرية » بجانب فرنسا زمن الأخطار . وقال بأن الجزائريين يجب أن يحصلوا على تمثيل نيابي في المجلس الوطني الفرنسي لكي يعبروا عن أنفسهم إلى « أم الوطن » . وبلغة مفعمة بالترغيب والترهيب أشار خالد إلى أن أيدي وقلوب الجزائريين متجهة نحو فرنسا وأنه يأمل أن لا تدفع الى اتجاه آخر . ثم أخبره « انكم قد تجدون (في الجزائر) شعباً متخلفاً ، (ولكنكم لن تجدوا) شخصاً واحداً ضد الفرنسيين » وقد ختم خطبته بهتافه « لتحيا فرنسا ! لتحيا الجزائر ! »[22].

ورغم اعتدال مطالبه ، فان الرسميين الفرنسيين كانوا مشتبهين في حركة الأمير خالد ، والحق أن ما طالب به الأمير خالد لم يكن جديداً . فنفس المطالب كانت قد قدمت إلى السلطات الفرنسية في الجزائر وفي فرنسا منذ أواخر القرن الماضي من جهات جزائرية مختلفة . وكل ما فعله الاصلاحيون بقيادة الأمير خالد هو التركيز على قضية « التعويض » .

وقضية التعويض قد أثارها في الأصل جماعة النخبة بين سنة 1900 و 1914 ، حين قبلوا مبدأ الخدمة العسكرية إذا كانت فرنسا مستعدة ، « لتعويضهم » بمنح الجزائريين كل الحقوق التي يتمتع بها الفرنسيون . وفي سنة

---

(22) « رحلة الرئيس » في « أ . ف ا. س. » (ماي ، 1922) ، ص 131 – 132 . أنظر أيضاً نوشي ، ص 56 .

1922 لم يكن خالد سوى مجدد لمطلب قديم . ولكن ميليران لم يكن أكثر تفهماً من زملائه : فيرى ، وكليمانصو وبوانكاريه من قبله . وبناء على رأي كاتب فرنسي ، فان ميليران وستيغ ، الذي كان حاكماً عاماً عندئذ ، ودافيد ، الذي كان نائب كاتب وزارة الداخلية ، كانوا قد أصيبوا « بمرارة » من مطالب الأمير خالد[23] . وقد أشرنا في الفصل السابق إلى أن ميليران قد رد على الأمير خالد بأن اصلاحات سنة 1919 كانت « عظيمة » وان السير « بسرعة كبيرة » قد يؤدي إلى عواقب « وخيمة » .

وعندما أصبحت السلطات الفرنسية قلقة من نشاطات خالد الوطنية ومن اصراره على التعويض ، قررت سنة 1923 نفيه من الجزائر ، كان هذا القرار قد أوصت به بصفة خاصة « فيدرالية رؤساء البلديات والنواب » التي اتهمت الأمير خالد بالقيام بنشاطات معادية لفرنسا[24] . وعندما جرت الانتخابات للمجلس المالي في ربيع سنة 1923 ، أعلنت المجلة الاستعمارية « لافريك فرانسيز » إلى قرائها « فشل الحزب المتطرف » في الجزائر . وقالت ان ذلك كان نتيجة « لتقاعد (الأمير خالد) عن السياسة » وميل الرأي العام الجزائري نحو « المعتدلين »[25] وهكذا أصبح برنامج المساواة الذي نادى به الأمير خالد « متطرفاً » في نظر الكولون ومؤيديهم ، وكان على صاحبه أن يطرد .

ولكن جواب النفي من الرسميين الفرنسيين والاجراءات الاستفزازية من الكولون قد دفعت الأمير خالد ومؤيديه إلى موقف أكثر راديكالية . فبعد نفيه من بلاده ، نقل الأمير خالد معركته إلى فرنسا نفسها . وهناك قام بعقد عدة مؤتمرات واتصالات مع المهاجرين الجزائريين ، وعمال أفريقيا الشمالية ، واليساريين الفرنسيين ، والمنفيين السياسيين من المستعمرات . وقد عقد خلال جوييه ، 1924 ، مؤتمرين في باريس تحت رعاية الاتحاد العالمي ، وهو منظمة يسارية كانت تؤيد القضية الجزائرية .

وفي هذه المؤتمرات احتج الأمير خالد ضد « الأعمال غير الإنسانية

---

(23) بوشي ، ص 58 .

(24) عباس ، ص 117 .

(25) « الجزائر » في « أ.ف. » (ماي ، 1923) ، ص 259 . ان « المعتدلين » هنا هم الذين اسميناهم بالليبراليين في هذا الكتاب .

للاستعمار ، والحالة المأساوية للجزائريين ، والفساد الإداري ، والأكاذيب الامبريالية . وبناء على هذا التقرير ، فان الأمير خالد كان قد أعلن هذه السياسة أمام « آلاف » من الجزائريين وأهالي الغرب الهندي (أمريكا الجنوبية) ، والهند الصينية ، والسود الافريقيين . ثم أعلن خالد انضمامه إلى الاتحاد العالمي المذكور وطالب أعضاءه بالدخول في حركة نشيطة للكفاح من أجل تحقيق مطالبهم . وقد أخبر الأمير خالد الآسيويين ، والافريقيين ، وأهل أمريكا اللاتينية في الاتحاد المذكور بأن « لا تؤلفوا منظمات ذاتية قائمة على السلالات (القوميات) ، ولكن تعاونوا مع اخوتكم الفرنسيين في النقابات والأحزاب التي تدافع عن قضيتكم ! »[26] .

ولكن الأمير وأنصاره كانوا ما يزالون معتدلين ويؤمنون بفكرة المساواة . فهم لم يعلنوا الاستقلال ، أو ينادوا بالعنف والثورة . على أن لغتهم قد أصبحت أكثر حدة ومباشرة . وقد كان مجيء هيريو إلى رئاسة الوزارة سنة 1924 تحت شعار « اتحاد اليسار » فرصة أمل للاصلاحيين في التغيير . لذلك بعث الأمير خالد البرقية التالية من منفاه (جوان ، 1924) إلى رئيس الوزارة « اليساري » : (ان توليكم الحكم يجعلنا نستبشر في أن نرى . . عهداً جديداً لأهالي الجزائر وهو دخولهم في طريق التحرر ، والغاء القوانين الاستثنائية ، والتمثيل النيابي في المجلس الوطني الفرنسي ، والعفو السياسي العام ، وحرية التعليم ، والمساواة في المسؤوليات العسكرية ، لأن الواجبات تعني الحقوق . اننا نأمل ذلك من روحكم الليبرالية)[27] .

---

(26) « البولشيفية » في « أ.ف.» (أكتوبر ، 1924) ، ص 530 ـ 531 . كانت مؤتمرات الأمير خالد تنشر في الجزائر في جريدة « تري دينيون » التي تقوم بطبعها في كتيبات توزع في كامل افريقيا الشمالية حتى مصر ، حسبما يروي هذا المصدر . وكان ابن الأكحل ، الذي كان من مؤسسي نجم افريقية الشمالية ، هو الذي ترأس مؤتمر الأمير خالد في 19 جويلية، 1924.ويقول عباس ان هؤلاء الشمال افريقيين الذين حضروا هذه المؤتمرات كانوا يهتفون : « ليحيى استقلال افريقية الشمالية» . أنظر عباس ، ص 135 .

(27) أشير إلى ذلك في «البولشيفية» في « أ.ف. » (أكتوبر ، 1924) ، ص 503 . وبناء على هذا المصدر ، فان النقاط التي أشار إليها الأمير خالد في برقيته كانت هي نفس المطالب التي تقدم بها الزعيم المصري سعد زغلول إلى الانكليز خلال العهد نفسه .

وبعد حوالي شهر ، بعث الأمير خالد رسالة ـ برقية إلى رئيس الوزارة الفرنسية أيما نشرتها جريدة « لوهيومانيتي » (3 جوييه ، 1924) . وفي هذه الرسالة عبر خالد عن نفسه باعتباره « أحد » المدافعين عن القضية الجزائرية الذي كان قد نفي لدفاعه الصريح عن « المصالح الحيوية » لمواطنيه . ودعا النقاط التي تضمنتها رسالته « برنامج مطالبنا الأساسية » .

وقد احتوى هذا البرنامج على المطالب الآتية :

1 ـ تمثيل الجزائر في المجلس الوطني الفرنسي بنسبة مساوية لنسبة عدد الكولون .

2 ـ الغاء كامل القوانين الاستثنائية والاجراءات المتخذة ضد الجزائريين فقط ، والغاء المحاكم الرادعة . والمحاكم الجنائية ، ونظام المراقبة الادارية (وهو الاسم الفرنسي الجديد للاحتجاز السري ـ ليتر دي كاشي) ، مع عودة كاملة وصريحة إلى العمل بالقانون العام .

3 ـ المساواة في المسؤوليات والحقوق مع الفرنسيين بخصوص الخدمة العسكرية .

4 ـ دخول الجزائريين إلى كل المراتب المدنية والعسكرية دون تمييز غير تمييز الجدارة والقدرة .

5 ـ تطبيق قانون اجبارية التعليم وحرية التعليم على الجزائريين .

6 ـ حرية الصحافة والاجتماع .

7 ـ فصل الإسلام عن الدولة الفرنسية .

8 ـ اعلان العفو العام .

9 ـ تطبيق القوانين الاجتماعية والعمالية الفرنسية على الجزائر .

10 ـ الحرية المطلقة للجزائريين للعمل في فرنسا .

وختم الأمير خالد رسالته ـ البرقية إلى هيريو بقوله ان هذه المطالب لا تتناقض مع « البرنامج الليبرالي لوزارتكم وحزبكم » . وأضاف بأن لديه أملاً مؤكداً في أن هذه « الأماني الشرعية » ستلقى عناية عالية من الحكومة الفرنسية[28] .

---

(28) نفس المصدر . يحتوي هذا المصدر على النص الكامل لرسالة الأمير خالد إلى هيريو ، إلى جانب =

. ومرة أخرى نلاحظ أن هذا البرنامج لم يكن لا ثورياً ولا متطرفاً . فالاصلاحيون كانوا ما يزالون « يأملون » في أن « اتحاد اليسار » يغير سياسته الاستعمارية في الجزائر باعطاء سكانها نفس الواجبات والحقوق التي للفرنسيين . فالاستقلال أو ما يعادله ، مثل الشخصية والكيان الوطني ، لم يشر إليه حتى الآن في وثائق الاصلاحيين .

ولكن الفرنسيين الذين كانوا ما يزالون غير مستعدين أن يسمعوا عن المساواة في الجزائر ، فما بالك بالاستقلال ، ضاعفوا من اجراءاتهم المعادية للديمقراطية ضد الاصلاحيين . ففي سنة 1925 أثاروا ضجة كبيرة حول بعثة الريفي التي كان الهدف منها ، كما اعتقدوا ، خلق جمهورية جزائرية . وكان اسم الأمير خالد قد ارتبط بهذه البعثة وبثورة المغرب تحت قيادة الأمير عبد الكريم . ورغم انتخاب خالد غيابياً إلى بلدية الجزائر العاصمة ، فان اسمه كان قد حذف من قائمة الفائزين من مجلس عمالة العاصمة (15 جويلية ، 1925) بحجة أنه كان غير مقيم (كان قد نفي) . وبالرغم من احتجاج أنصار الأمير خالد ، فان المجلس المذكور لم يبال وحمل قراره إلى نهايته[29] .

والحق أنه منذ ربيع نفس العام نشرت في الجزائر رسالة كان من المفروض أنها ممضاة من الأمير خالد من منفاه . وبناء على هذه الرسالة ، فان خالد قد أخبر الجزائريين أنه لم يعد مهتماً بالسياسة . ولكن خالد ، بعد الاطلاع على الرسالة ، بعث بجوابه من الاسكندرية في مصر (11 ماي ، 1925) ونشره في جريدة الليبراليين « التقدم » . وقد أكد في هذا الجواب أنه كان وسيظل « مخلصاً وخادماً أميناً » للقضية الجزائرية التي من أجلها « ضحيت بجسمي ونفسي »[30] . ولعله كان بفضل هذا الجواب ، وبفضل نشاطات حزبه الاصلاحي ، فاز في الانتخابات البلدية ، رغم أنه كان غائباً ، ورغم معارضة الكولون الذين قرروا أخيراً ازالة اسمه من قائمة الفائزين . ومهما يكن الأمر فبعد هذه الانتخابات المشكوك فيها وبعد

= نص البرقية ، أنظر نوشي ، ص 56 ـ 57 . وعباس ، ص 116 ـ 117 . أنظر أيضاً ملحق رقم 5 .

(29) « الجزائر » في « أ. ف. » (جويلية ، 1925) ، ص 333 .

(30) نفس المصدر .

الاعتقالات التي جرت عقب بعثة الريغي ، أعلن فيوليت الحاكم العام أن انتخابات سنة 1925 ، قد جرت « بانسجام » في الجزائر .

ولكن اضطهاد الفرنسيين للحركة الوطنية لم يقف عند هذه النقطة . فقد حوكم الأمير خالد في الاسكندرية من قبل المحكمة القنصلية الفرنسية في أوت 1925 . وكان قد اتهم بحمل جواز سفر مزور ومحاولة الهروب من منفاه إلى أوروبا . وبناء على تقارير ذلك الوقت ، فان الأمير خالد كان قد اعتقل في مدينة بنها في مصر في طريقه إلى بورسعيد ومنها إلى ايطاليا . وكان خالد قد حصل على جواز سفره من السلطات المصرية وأذن له القنصل الايطالي بدخول ايطاليا . وقد اعترف خالد أثناء المحاكمة بذلك ، ولكنه قال انه كان نتيجة لحالته ولحالة أسرته السيئة . وقال ان مرتب التقاعد الذي كان يتلقاه من فرنسا منذ منفاه سنة 1923 قد توقف وان عائلته كانت في حالة ضنكة . ولكن المحكمة أصدرت حكمها بسجنه خمسة شهور[31] .

لم يسمح لخالد أبداً بدخول الجزائر من جديد . فقد قضى بقية حياته في المنفى ، حيث توفي في دمشق فاتح سنة 1936 . وليس من همنا هنا أن نتتبع نشاطه بعد سنة 1925 ، لأنه ، بعد هذا التاريخ ، لم يعد عاملاً هاماً في الحركة الوطنية . وسوف نرى أن شعار معركته قد تقلده نجم أفريقية الشمالية الذي سنخصص له دراسة مستقلة .

وبناء على الوثائق الموجودة ، فقد كان أيضاً للأمير خالد بعض المطامح السياسية أبعد من الجزائر . وقد أشرنا من قبل إلى أنه تنبأ ، سنة 1914 عندما كان على الجبهة الأوروبية ، ان كل العرب سيثورون ضد مضطهديهم الأتراك . وما دامت الجزائر ، في ذلك الوقت ، لا ترتبط بأية علاقة مع تركيا ، فانه يبدو أنه كان يشير بذلك إلى العرب الذين كانوا ما يزالون تحت السلطة العثمانية . ومن ترجمته الشخصية لا يجد المرء أية اشارة إلى أنه كان مصلحاً إسلامياً أو قومياً عربياً ، رغم

(31) ر . تيري ، « اعتداء الريفيين » في « أ . ف . » (سبتمبر ، 1925) ، ص 469 . نقل المؤلف ذلك من « لوطان » (18 سبتمبر ، 1925) . وبعد استئناف الحكم ، أطلقت سراحه محكمة « ايكس - أون بروفانس » على أساس أنه كان ذاهباً إلى بلاد غير فرنسيّة وانه كان قد حصل على جواز سفره بعلم من السلطات المصرية وبرضى القنصل الايطالي ، أنظر نفس المصدر . (أكتوبر ، 1925) ، ص 540 .

أنه كان عربياً ومسلماً[32] . وكل الدلائل تشير إلى أنه كان عضواً بارزاً في جماعة النخبة الجزائرية . فتربيته ، وخدمته العسكرية ، وكتاباته بالفرنسية ، ومؤتمراته السياسية في الجزائر العاصمة وباريس ، التي كان يلقيها بالفرنسية ، كل ذلك جعله يظهر أكثر قرباً إلى الحضارة الأوروبية منه إلى الحضارة الإسلامية .

ولكن عدم وجود زعامة في الجزائر بعد الحرب ، وتراث وسمعة جده ، والحالة في الشرق الأدنى ، ولاسيما في مصر ، وسورية وتركيا ، منذ سنة 1919 ، كلها جعلت الأمير خالد يتيقن أن هناك حظاً له لكي يلعب دوراً قيادياً في العالم الإسلامي . ولكي يفعل ذلك ، كان عليه أن يصبح معروفاً في الجزائر باستنكاره للاندماج الذي يتعارض مع الدين ، وأن يتبنى فكرة الجامعة الإسلامية كمذهب يجمع حوله به افريقية الشمالية والعالم الإسلامي كله .

ففي الاستجواب السابق الذكر الذي خص به الجريدة الإيطالية ، « لانازيون » والذي كان قد أعيد نشره في جريدة الكولون « ليكودالجي » سنة 1922 ، أوضح الأمير خالد أن الحرب العالمية الأولى « قد خلقت ضميراً إسلامياً » . واعترف أيضاً بأن كل العالم الإسلامي كان موجهاً من « لجنة سرية »[33] . وبعد أن أشار إلى الحركة الوطنية التي كانت تجتاح آسيا وأفريقيا ، أعلن الأمير خالد أن السلطات الاستعمارية المحلية لن تستطيع السيطرة على هذه الحركة لأنها كانت موجهة من « زعماء كبار غامضين » كانوا يعملون في صمت لتحقيق « خطة سوف تتطور مع الظروف » .

ولا شك أن الأمير خالد قد أدخل نفسه في نادي « الزعماء الكبار الغامضين » الذين كانوا يوجهون الحركة الوطنية في آسيا وأفريقيا . وقد ختم استجوابه بالتأكيد على أن « حركتنا ليست دينية ، ولكنها أساساً حركة سياسية ، لأن القضية هي قضية استقلال جميع أقطار العالم الإسلامي »[34] . فإذا فهم المرء أن الجزائر كانت أيضاً

---

(32) من الثابت الآن ان الأمير خالد قد دعي إلى حضور المؤتمر العربي الذي انعقد بباريس سنة 1913 وانه أرسل إليه رسالة اعتذار وتأييد .

(33) في سنة 1921 ، أثناء مؤتمر الكومينتيرن الثالث ، قدم زينوفييف الروسي السيد مكحول بك كخطيب ضيف يتكلم باسم « لجنة المسلمين الثوريين » . فهل كان الأمير خالد يشير إلى هذه المنظمة ؟ أننا لا نستطيع في الوقت الحاضر أن نؤكد ذلك .

(34) أشار إلى ذلك ديبارمي ، « القواد » في « أ. ف. » (جانفي ، 1933) ص 11 .

داخلة في هذا الاستجواب ، فان استعمال كلمة « الاستقلال » بالذّات قد ذكرت لأول مرة ، بناء على الوثائق الموجودة .

ان نشاطات الأمير الخاصة بمطامحه السياسية وحركة الجامعة الإسلامية قد ظهرت في قضية الخلافة . ففي 1924 ، بادر إلى الدعوة إلى عقد مؤتمر إسلامي لمناقشة هذه القضية . وقد اقترح في دعوته أن تكون أفغانستان هي مكان المؤتمر لأنها بناء على رأيه ، كانت البلاد الإسلامية الوحيدة المستقلة . ولكن المؤتمر انعقد نهائياً في مصر . وقد حضره شخصياً ويبدو أنه كان يطمح إلى أن يلعب فيه دوراً قيادياً . ولا شك أنه كان في ذهنه سمعة جده في الشرق الأدنى حين حاول طلب القيادة . كما ركز على نقطة أخرى وهي أنه كان منحدراً من قبيلة هاشم التي انحدر منها النبي محمد أيضاً . ولكن نفيه من فرنسا ، وكونه غير معروف كثيراً للزعماء المسلمين ، وضعفه في البيان العربي ، قد خيب أمل الأمير خالد ليس فقط بفشل المؤتمر في الاعتراف بزعامته ، ولكن أيضاً بفشل الزعماء المسلمين في أن يتفقوا على ايجاد حل لقضية الخلافة[35] .

وبناء على رأي كثير من الكتاب ، فان الأمير خالد قد أعطى للجزائر قيادة جديدة وفعالة خلال العشرينات ، رغم أنه في النهاية قد فشل في تحقيق أهدافه . فالكاتب الفرنسي ر . كوزون قد قال ان الأمير خالد قد حاول أن يوحد جماعة النخبة والجماهير ، وهو جهد نجح فيه بعض الوقت ، ولكنه فشل في النهاية ، لأنه كان يفعل ذلك لدوافع شخصية فقط[36] .

أما ديبارمي ، فيعتبر الأمير خالد الزعيم الذي كان مقتنعاً بفكرة تقرير المصير ومبدأ الديمقراطية الويلسونية لتحقيق تعويض سياسي من فرنسا لبلاده . ويشير ديبارمي إلى أنه عندما تيقن الأمير خالد أن مطالب المساواة التي نادى بها كانت بلا جدوى ، نشد الاستقلال الفوري للجزائر . ويتفق ديبارمي أيضاً على أن الأمير خالد قد فشل في مهمته ولكن لأسباب تختلف عن تلك التي ذكرها كوزون . وبناء على

---

(35) البولشيفية في « أ.ف. » (أكتوبر ، 1924) ، ص 530 .

(36) أشار إلى ذلك عباس ، ص 226 من « مائة سنة على الرأسمالية في الجزائر » (1930) . كان كوزون يعتقد أن الحل الوحيد للجزائر هو الاتحاد بين الجماهير وجماعة النخبة .

رأي ديبارمي ، فان الأمير خالد قد فشل لأنه عزل عنه الكولون والجزائريين معاً . فهو قد هاجم بصراحة السيادة الفرنسية والمحافظين الجزائريين ، وكان على الأمير خالد ، بناء على رأي ديبارمي ، أن يكسب ود الفرنسيين وأن يعد الجزائريين لبرنامجه الوطني . فكان فشله يعود إلى الفرنسيين المخاصمين وإلى الجزائريين غير المستعدين(37) .

وقد أشرنا من قبل إلى موقف الكولون والرسميين الفرنسيين من الأمير خالد وحزبه الاصلاحي . ان الصحافة الاستعمارية غالباً ما صورت الأمير خالد على أنه « شخصية ضجيجية » وعلى أنه انسان قد شوش « السلام المعنوي » الفرنسي في الجزائر . وتتفق هذه الصحافة على أنه كان يقود الحزب الاصلاحي وأنه كان يدعي التحدث باسم كل الجزائريين . وتعترف بأنه كان خطيباً فصيحاً يتمتع الإنسان بالاستماع إليه . وبناء على رأي بعض الصحافة الفرنسية الاستعمارية ، فان مقارنة الأمير خالد بالأمراء « الشرقيين الحمقى » ، الذين كانوا يقومون بمشاغبات في أوطانهم أو يتحدثون في كواليس جمعية الأمم ، تثبت أنه كان أكثرهم « أصالة »(38) . وقد أكد ديبارمي أن الأمير خالد لم يكن أميراً غامضاً لأنه كان معروفاً للرأي العام الجزائري ، ولكنه كان غامضاً في نظر الفرنسيين بسبب « جهلنا باللغة ولامبالاتنا المغرورة التي نؤمن بها نحو الحركات التي تمثل رأي الجماهير الأهلية العام »(39) .

إن حركة الأمير خالد لم تمت نتيجة نفيه ، واعتقال أصحابه ، وعزل حزبه . فقد استمر الأمير خالد ، سواء في باريس أو في الشرق الأدنى ، في ايقاد شعلة نار الحركة الوطنية والوحي إلى اتباعه بحملها إلى الامام . ولم ينتظر أتباعه طويلاً . ففي ربيع سنة 1926 أنشأوا حزباً ثورياً انفصالياً هو نجم أفريقية الشمالية الذي كان مقدراً له أن يلعب دوراً خطيراً في تقرير مصير وتوجيه الحركة الوطنية الجزائرية . وكان

---

(37) ديبارمي ، « مساهمة في تاريخ الجزائر المعاصر » في « أ. ف. » (جويلية ، 1937) ، ص 353
ويعتبر جوليان الأمير خالد أول زعيم جزائري يعمل لصالح استقلال الجزائر قبل سنة 1926 .
انظر كتابه «أفريقية الشمالية » ص 111 .

(38) « البولشيفية » في « أ. ف. » (أكتوبر ، 1924) ، ص 530 .

(39) ديبارمي ، « القواد » في « أ. ف. » (جانفي ، 1933) ، ص 11 .

مذهب النجم أساساً هو نفس مذهب الحزب الاصلاحي للأمير خالد . ولكن شيئاً فشيئاً طور النجم برنامجاً خاصاً تستحق جدته ولونه دراسة مفصلة .

نجم أفريقيا الشمالية :

بين 1919 و 1925 أتبعت فرنسا في الجزائر سياسة قمعية ضد القوات الوطنية الناهضة . ونتيجة لذلك كان على الحركة الوطنية إما أن تعمل في الخفاء وإما أن تخرج من الجزائر وتلتجىء إلى فرنسا نفسها . وقد أصبحت باريس خصوصاً جنة للوطنيين الجزائريين خلال هذا العهد . وحين وجد هؤلاء الوطنيون أعضاء نشيطين من بين العمال الجزائريين كانوا هناك منذ العقود السابقة ، بالاضافة الى عدد من الجنود المسرحين ، ومشجعين من الأحزاب اليسارية الفرنسية ومن اللاجئين السياسيين الأجانب ، ومتمتعين بحرية أكثر مما في وطنهم - قاموا بسلسلة من الحملات ضد الحكم الفرنسي في الجزائر.

وبالتعاون مع الزعماء الآخرين لأفريقيا الشمالية ومع الأوروبيين العاطفين على المشاكل الوطنية ، نظم الجزائريون في فرنسا تجمعات سياسية ، وشكلوا المنظمات الاجتماعية والمدنية ، وخلقوا ووزعوا الصحف الوطنية ، وعقدوا المؤتمرات الصحفية . وعندما نفي الأمير خالد من الجزائر سنة 1923 ، رحب به أتباعه في فرنسا حيث بقي بعض الوقت . وكان أول اجتماع هام تحقق هو انعقاد « مؤتمر الشمال أفريقيين » في ديسمبر 1924 . وكل من حزب الأمير خالد الاصلاحي ومؤتمر الشمال أفريقيين أعطى نجم أفريقية الشمالية نموذجاً وقاعدة.

أنشىء النجم في مارس 1926 في باريس على يد جماعة من أهالي أفريقيا الشمالية ، وكان أكثرهم من الجزائر . وقد أعلن عن الأمير خالد رئيساً شرفياً له . ولكن شيئاً فشيئاً فقد النجم أعضاءه التونسيين والمغاربة وأصبح منظمة جزائرية خالصة . وكان هدفه الصريح هو الدفاع عن المصالح المعنوية والمادية لأهل أفريقيا الشمالية وتثقيف أعضائه . وكان جل أعضائه من العمال ، والجنود السابقين ، وطلبة أفريقيا الشمالية الذين كانوا يعيشون في فرنسا.

وحتى 1930 كان اتصال النجم بالجماهير في الوطن محدوداً جداً . وكان

يتمتع بعطف اليساريين الفرنسيين والأوروبيين والمنظمات المعادية للاستعمار . وكان الهدف الحقيقي للنجم هو تحقيق استقلال أفريقيا الشمالية كلها . وكان أعضاؤه الجزائريون في الادارة هم محمد جفال ، وحاج علي عبد القادر ، ومصالي الحاج ، وأحمد بلغول ، ومحمد بن الأكحل ، وعمار ايماش . وكانت نشاطات النجم تتمثل في المنشورات ، والصحافة ، والمؤتمرات ، وكانت طريقته ثورية ومباشرة . وفي سنة 1928 ، كان لهذا الحزب حوالي 3500 عضواً عاملاً[40]. لقد أعطى النجم لأهالي أفريقيا الشمالية في فرنسا أملاً لامعاً ، حيث وجدوا من خلاله معلومات عن الوطن ، ونقطة انطلاق لمطالبهم ، ووعداً بالحرية وبالحياة الأفضل .

ونظراً للقيود التي اتخذتها السلطات الفرنسية ضد أعضائه في الجزائر ، اعتمد النجم بشكل خاص على الصحافة في الاتصال بالجزائريين ، سواء في الوطن أو في فرنسا . وهناك صحيفتان خدمتا النجم جيداً خلال الفترة المدروسة . أولاهما هي « الاقدام » التي كان قد أنشأها الأمير خالد في الجزائر سنة 1919 . وعندما نفي خالد وفرقت السلطات الفرنسية حزبه ، توقفت « الاقدام » عن الصدور . ثم أعاد النجم اصدارها في فرنسا تحت اسم « الاقدام الباريسي » (الاقدام دي باري)[41] . وكانت هذه الصحيفة شهرية وباللغتين ، مع عنوان فرعي بالعربية يقرأ هكذا : « من أجل الدفاع عن مسلمي أفريقيا الشمالية »[42] . وفي أول فيفري سنة 1927 منعت السلطات الفرنسية توزيع هذه الجريدة لأن الكولون اشتكوا من أنها كانت « خطيرة » على هدوء أفريقية الشمالية . ولكن النجم قد أعاد اصدارها تحت اسم : « الاقدام الشمالي افريقي » ، أو « الاقدام نور أفريكان »[43] .

---

(40) « تونس » في « أ. ف. » (جانفي ، 1928) ص 36 . اعد السيد عبد الحميد زوزو دراسة مفصلة ، تحت اشرافي عن نشاط المهاجرين الوطني في فرنسا ، وخصوصاً منظمة النجم . أنظر قائمة المراجع الجديدة .

(41) هذا دليل على تأثير الأمير خالد على النجم . (جوان ، 1927) ، ص 227 . وكان مركز (الاقدام الباريسي) هو 38 شارع لافرانج أوبيل .

(42) « الحملة الشيوعية » في « أ. ف. » (جوان ، 1927) ص 227 . يحتوي هذا المصدر على صورة للعنوان العربي « للاقدام » .

(43) « تونس » في « أ. ف. » (جانفي ، 1928) ، ص 36 .

وبعد أن حلت السلطات الفرنسية النجم سنة 1929 ، أصدر زعماؤه ، سنة 1930 ، جريدة جديدة بعنوان « الأمة » وهي التي يقرأ عنوانها الفرعي العربي هكذا : « جريدة وطنية وسياسية للدفاع عن حقوق مسلمي أفريقيا الشمالية » . وكان مديرها السياسي هو مصالي الحاج ، الذي كان عندئذ هو المتحدث باسم النجم . أما مديرها ومحررها فقد كان عمار ايماش عضو الهيئة الادارية للنجم . وعلى يمين عنوان « الأمة » يجد الإنسان صورة هلال ونجمة مع الآية الكريمة : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » .

وفي سنة 1933 دعا النجم كل أهالي أفريقيا الشمالية أن يقرأوا « الأمة » لأنها : « تدافع عنكم ، وتعلمكم ، وتثقفكم . انها ستكشف جميع الخونة ، وكل المتعاونين ، وكل أعداء وطننا وقضيتنا . أنها ستقودكم إلى الاتجاه الصحيح دون خوف ودون هزيمة . أنها ستصلكم ، بمعلوماتها ، بكل العالم الإسلامي ، فاجعلوها تعيش ، وساعدوها ، واحموها ، وحثوا غيركم على قراءتها ، وانشروها في كل مكان لكي تصبح الراية والمركز الذي تجتمع من حوله جميع القوى الحية في أفريقيا الشمالية المسلمة »[44] .

وبالاضافة إلى كونها لسان دعاية للنجم ، فان « الأمة » كانت أحد مصادره المالية الرئيسية . فخلايا هذا الحزب كانت تشتريها وتشجع التجار والطلبة ، والمسافرين الجزائريين وغيرهم من أهل أفريقية الشمالية على شرائها . وكان النجم يجمع النقود أيضاً من المهاجرين الجزائريين في فرنسا ، ولا سيما من التجار . وبناء على أحد المصادر الفرنسية ، فان النجم كان يتلقى أيضاً « هدايا هامة » من النقود عن طريق « قناة أجنبية واصلة »[45] .

وكانت بطاقة الاشتراك في النجم تحتوي على ما يلي : « أيها الاخوة المسلمون : اشتركوا وحثوا جميع أصدقائكم على الاشتراك . ان النقود هي عصب

---

(44) نص على ذلك موهندس ، « الهجوم » في « أ. ف. » (أكتوبر ، 1934) ، ص 576 . كان مركز « الأمة » في باريس يقع في 19 شارع داغير . وكانت توزع سنة 1932 ، 12,000 نسخة ، أما في سنة 1934 فقد كانت توزع 44,000 نسخة . أنظر ص 577 من نفس المصدر . أنظر أيضاً رسالة زوزو .

(45) نفس المصدر .

العمل . وهذا العمل ، الذي قد بدأ بكثير من الصعوبات ، يجب أن يتطور ليشمل كل أفريقيا الشمالية . يجب أن نواصل أكثر من أي وقت مضى نضالنا من أجل نيل مطالبنا والحصول على تحررنا . اننا أقوياء ، ولكن وسائلنا المالية ضعيفة في الوقت الراهن . . ساعدوا حركتنا الوطنية معنوياً ومالياً لكي نحقق واجباتنا كمسلمين أصلاء . إلى الأمام ، ان الله معنا »[46] وكانت البطاقة أيضاً تحتوي على نفس الهلال والنجمة مع الآية الكريمة : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » . كما كانت تضم الشعار التقليدي : « حي على الفلاح » .

أما بطاقة العضوية في النجم فقد كانت شبيهة ببطاقة الاشتراك . وكانت تحتوي على نفس الآية الكريمة والأثر التقليدي في جانب ، أما على الجانب الآخر فيقرأ المرء ما يلي : «أيها المسلمون، جزائريون، ومغاربة، وتونسيون، فلنتحد. لنكون كتلة متضامنة حول نجم أفريقيا الشمالية للدفاع عن مصالحنا وعن تحررنا . **ان الاتحاد فقط هو الذي يصنع القوة** »[47] . ورغم أن النغمة الدينية والوطنية في هذه الكتابات واضحة ، فان الفرنسيين كانوا يتهمون النجم بالبولشيفية وبكونه آلة في يد الحزب الشيوعي الفرنسي .

إن مؤسسي وزعماء نجم أفريقية الشمالية كانوا عموماً من العمال الجزائريين ، والجنود السابقين ، والعصاميين الذين كانوا يعيشون في فرنسا . وكانت اتصالاتهم بأوروبا أكثر تأثيراً على عقولهم وحركاتهم ، من الوجهة العملية ، من اتصالاتهم بوطنهم . ولم يبقهم على الاتصال بالحياة الاجتماعية الجزائرية سوى ماضيهم العائلي ، وذكريات طفولتهم ، التي كانت عادة مرة وسيئة . ولم تكن لهم تجربة مع الحياة العائلية المنتظمة والصحية ، ولا مع تربية فعالة .

وكمهاجرين قبل ، وخلال ، وبعد الحرب ، فان هؤلاء الجزائريين وجدوا أنفسهم في أوروبا التي كانت نفسها تمر بتطورات جذرية . وقد تبنوا طريقة الحياة الأوروبية ، وتعلموا ، من بين أشياء أخرى ، الشعارات السياسية ، والمناورات الحزبية ، والنظام والتكنيك الثوري ، وقد وجدوا أيضاً في أوروبا حرية أكثر في

---

(46) نص على ذلك في نفس المصدر .

(47) منقولة في نفس المصدر . والتسطير اصلي .

التعبير كما أكتسبوا هناك أصدقاء لتأييد قضيتهم أكثر مما وجدوا في الجزائر .

وخلال العشرينات كان زعماء النجم ما يزالون منعـزلين عن الوطن . كـان تأثيرهم فعالاً فقط بين المهاجرين في فرنسا وغيرهم من بلدان أوروبا . ولم يستطع هؤلاء الزعماء أن يحملوا برنامجهم بفعالية إلى الجزائر الا خلال الثلاثينات ، نظراً لانقطاعهم عن الوطن بظروف مختلفة ولمعارضة الكولون . وقد أضاف حل نجم أفريقيا الشمالية سنة 1929 ، عشية احتفال الفرنسيين المئوي بالاحتلال ، صعوبات جديدة إلى زعماء النجم .

ورغم أنه كان للنجم عدد كبير من الأعضاء المؤثرين ، فان مصالي الحاج قد أصبح تدريجياً أحسن متحدث رسمي معروف باسم الحـزب ولا سيما منـذ فاتـح الثلاثينات . ولد مصالي في تلمسان ، المدينة التقليدية ، سنة 1898 وحصل على تعليم بسيط في سنواته الأولى(48) . وكان قد جند خلال الحرب العالمية الأولى في الجيش الفرنسي وحارب على الجبهة الأوروبية . وبعـد التسريـح بقي في فرنسـا كعامل . وبين 1919 و 1925 أصبح مصالي مهتماً بالسياسة ، وسرعان ما انجذب إلى حركة الأمير خالد وإلى النشاطات الوطنية لأهالي شمال افريقية في فرنسا . وقد شرع أولاً في تنفيذ برنامج لتثقيف نفسه بحضور المحاضرات في السوربون وكوليج دي فرانس . كما تعلم لعبة الأحزاب السيـاسية بمـلاحظاتـه عن كثب ، بل لعـل بمشاركته ، في بعض الأحزاب السياسية الفرنسية التي كان أغلبهـا يمثل الجـزائر أيضاً(49) .

كان مصالي عضوا في اللجنة التنفيذية لنجم أفريقيا الشمالية عندما أنشىء هذا الحزب في مارس سنة 1926 وحوالي سنة بعد ذلك (فيفري ، 1927) ، مثل هو والشاذلي خير اللّه التونسي ، النجم في المؤتمر المعادي للاستعمار الذي انعقد في بروكسل . ورغم حل السلطات الفرنسية للنجم سنة 1929 ، فان مصالي قد حضر مؤتمر الكومينتيرن ، أو الحركة الشيوعية العالمية ، الذي انعقد في موسكو سنة

---

(48) بالاضافة إلى ذلك تلقى مصالي تعاليم الطريقة الدرقاوية ، وهي التعاليم التي كان لها تأثير عميق على مستقبل شخصيته . انظر بنجامين ستورا : (مصالي الحاج ، 1898 ـ 1974) ، 1982 .

(49) يصر بعض الكتاب الفرنسيين على ان مصالي قد بدأ عمله السياسي في الحزب الشيوعي الفرنسي . أنظر أرون ، ص 64 وساراسان ، ص 99 .

1930[50] وعندما أصدر النجم جريدة « الأمة » خلال نفس السنة ، أصبح مصالي ، كما أشرنا من قبل ، مديرها السياسي .

ولم يتهم الفرنسيون فقط بعض زعماء النجم بالشيوعية ، بل كل المنظمة وقد كتبت مجلة « لافريك فرانسيز » المحافظة ، سنة 1928 ، تقول ان النجم كان « جماعة من الدعاة الثوريين الذين يأخذون تعليماتهم من الحزب الشيوعي الفرنسي[51] . ويقول كاتب فرنسي ان النجم له أصل شيوعي[52] . ويؤكد كاتب فرنسي ثالث أيضاً بأن النجم قد أنشىء في ظل الحزب الشيوعي الفرنسي[53] .

لقد درسنا من قبل العلاقة بين النجم ، والكومينتيرن ، والحزب الشيوعي الفرنسي . وليس هناك من شك في أن الوطنيين كانوا في حاجة إلى تأييد الشيوعيين . وكان هؤلاء من جانبهم يحاولون استغلال العواطف الوطنية لمصالحهم الشيوعية الخاصة . وبالاضافة إلى ذلك ، فان تناقضات الحزب الشيوعي الفرنسي بين مناوراته الاستعمارية والمعادية للاستعمار بخصوص المشكل الجزائري قد أقنعت الوطنيين بأن التعاون بينهم وبين الشيوعيين يجب أن يكون قائماً على التكتيك لا على المذهبية .

وقد سبقت الاشارة أيضاً إلى أن الكومينتيرن قد قرر في مؤتمره السادس ، سنة 1928 ، أن يجعل نجم أفريقيا الشمالية خاضعاً للحزب الشيوعي الفرنسي وأنه قد نصح هذا بمنع النجم من أن يصبح منظمة وطنية . وكان الكومينتيرن ، الذي لعله كان مقتنعاً بوجهة النظر المتناقضة للشيوعيين الفرنسيين ، يريد من النجم أن يكون جبهة مكافحة ضد الأمبريالية الفرنسية في أفريقيا الشمالية تحت راية الشيوعية العالمية لا راية الوطنية[54] . ولكن النجم قد أخذ تدريجياً تكتيك الشيوعيين . ولم

---

(50) فافرو ، ص 66 ـ 67 . وقد سبق القول بأن مصالي قد حضر المؤتمر السادس للكومينترن بموسكو سنة 1928 . أنظر سابقاً .

(51) « تونس » في « أ. ف. » (جانفي ، 1928) ، ص 36 .

(52) أرون ، ص 63 . وقد أشار المؤلف إلى ان الحاج علي عبد القادر ، أحد مؤسسي النجم ، كان عضواً في اللجنة الادارية للحزب الشيوعي الجزائري . والحق انه لم يكن هناك حزب من هذا النوع في ذلك الوقت .

(53) جوليان ، « افريقية الشمالية » ، ص 117 .

(54) غوتيرو ، «البولشيفية» في «المستعمرات والامبريالية الحمراء » كما أشار إليه موهندس ، « الهجوم » =

تحن سنة 1930 حتى كانت العلاقة قد بدأت تبرد بين الشيوعيين والوطنيين . ولم يأت منتصف الثلاثينات حتى كان الأولون يتهمون الأخيرين بالفاشية والنازية .

وعندما وجد النجم نفسه محاطاً من كل جانب بجو معاد للوطنية ، الكولون عن اليمين والشيوعيون عن اليسار ، ناضل وناور لكي يؤكد مذهبه الوطني المستقل . وكان أول انتصار حققه النجم هو مشاركته في مؤتمر بروكسل ، الذي كان قد عقد بين 10 و 15 فيفري 1927 . وقد حضرت هذا المؤتمر ، الذي نظمته « الجمعية المعادية للاضطهاد الاستعماري » ، وفود من آسيا ، وأفريقيا ، وأوروبا ، وأميركا . ومن الشخصيات التي حضرته نهرو عن الهند ، وحتا عن أندونيسيا ، وكان المؤتمر قد عقد في قصر دوغمون بالعاصمة البلجيكية . وهكذا فان النجم ، الذي مثله مصالي الحاج ، كان قد أعطى فرصة هامة لاعلان مطالب الجزائريين أمام التجمع العالمي الذي كان الأول من نوعه[55] .

والحق أنه ليس كل مطالب النجم كانت جديدة . فان أكثرها كان عبارة عن النقط الرئيسية المعروفة التي تقدمت بها إلى الفرنسيين وفود مختلفة خلال فترة النهضة (1900 ـ 1914) ، وحزب الأمير خالد الاصلاحي خلال العشرينات ، ولكن كانت هناك بعض الجدة في الخمس عشرة نقطة التي تقدم بها النجم إلى مؤتمر بروكسل . ولا شك أن القارىء يستطيع بسهولة تمييز المطالب الجديدة .

ويمكن تلخيص كل البرنامج فيما يلي :

1 ـ الاستقلال الكامل للجزائر .

2 ـ جلاء الجيش الفرنسي .

3 ـ انشاء جيش وطني .

4 ـ مصادرة الأملاك الزراعية الكبيرة للكولون والشركات الاقطاعية .

5 ـ احترام الممتلكات المتوسطة والصغيرة للفرنسيين .

6 ـ ارجاع الأراضي والغابات التي أخذتها الدولة الفرنسية إلى الجزائر .

= في « أ. ف. » (أكتوبر ، 1934) ، ص 576 .

(55) « الحملة الشيوعية » في « أ. ف. » (جوان ، 1927) ، ص 226 ـ 229 . أنظر أيضاً نوشي ، ص 61 ـ 62 .

7 ـ الالغاء الفوري لقانون الأهالي وجميع القوانين الاستثنائية الأخرى .
8 ـ العفو العام عن الجزائريين الذين كانوا قد سجنوا، أو نفوا ، أو كانوا يعيشون تحت الرقابة الفرنسية .
9 ـ حرية الصحافة ، والاجتماع ، والتجمع ، ومنح الحقوق السياسية والنقابية كتلك التي منحت للفرنسيين في الجزائر .
10 ـ احلال مجلس وطني جزائري منتخب بطريقة التصويت العام محل المجلس المالي .
11 ـ انشاء مجالس بلدية منتخبة بطريقة التصويت العام .
12 ـ حق الجزائريين في التمتع بجميع مستويات التعليم .
13 ـ خلق المدارس باللغة العربية .
14 ـ تطبيق جميع القوانين الاجتماعية الفرنسية على الجزائر .
15 ـ زيادة القروض الفلاحية الى الفلاحين الجزائريين الصغار(56) .

ومن الواضح أن بعض هذه المطالب كان ثورياً . وكان يمثل نقطة انطلاق جديدة في طريق تحرير الجزائر . لا شك أن استقلال البلاد ، وجلاء القوات الأجنبية ، وتكوين جيش ومجلس وطني ، والانتخابات عن طريق التصويت العام كانت أكثر الأمثلة وضوحاً على نقطة الانطلاق الجديدة . انه من جراء هذه الاندفاعة الوطنية الواضحة أصبح الشيوعيون على حذر من النجم . وبعد سنة واحدة من اعلان برنامجه أوصى الكومينتيرن ضده بالتوصيات المشار اليها سابقاً . كما أن الفرنسيين قد أصبحوا على حذر من مطالب النجم التقدمية . على أنهم لم ينتظروا طويلاً . فقد بدأوا أولاً ، كما أشرنا سابقاً ، بمشاغبة زعمائه ومنشوراته ، ثم في سنة 1929 قرروا حل المنظمة كلية .

وعلى أية حال ، فان وفد نجم أفريقيا الشمالية الى مؤتمر بروكسيل قد عقد اجتماعاً في باريس وقدم تقريراً مفصلاً عن نشاطاته الى مهاجري أفريقيا الشمالية .

(56) كان هذا البرنامج قد نشر في « الراية الحمراء »، الجريدة العربية التي كان يصدرها الحزب الشيوعي الفرنسي . وقد أشار اليهْ ريني تيري « الهجوم الشيوعي » في « أ . ف . » (ماي ، 1927) ص 184 . أنظر أيضا نوشي ، ص 61 ـ 62 .

وقد أخبرهم الوفد أن المؤتمر كان خطوة « واضحة وهامة » نحو الهدف الوطني ، وأنه قد وافق على كل مطالبهم . ثم حيا الحاضرون الزعماء المنفيين للحركة وهم الأمير خالد ، وأخوه الأمير عز الدين[57] ، والأمير عبد الكريم الخطابي المغربي ، والشيخ عبد العزيز الثعالبي التونسي .

ومن جهة أخرى أوضح الوفد أن النجم كان مصمماً على وضع برنامجه موضع التنفيذ . وقال ان حركة الحزب ليست « قصيرة الأجل » كحركة الأمير خالد ، وليست « حركة متعاونة » مثل حركة الدكتور ابن التهامي (زعيم الحزب الليبرالي في الجزائر) وقلاتي (زعيم الحزب الاصلاحي في تونس) . ولكن حركة النجم « حركة عميقة تقوم على كاهل الجماهير المستغلة والمضطهدة» التي أصبحت واعية لقوتها وارادتها في الاستقلال . ثم نادى الوفد كل جماهير أفريقية الشمالية أن تنضم الى الحزب « قبل فوات الأوان[58] » .

ولكي يعمق ويوسع من عمله ، شرع النجم سنة 1927 و 1929 في تحقيق برنامج لاعداد الجماهير وتوهين الحكم الفرنسي في الجزائر خاصة ، وافريقية الشمالية عامة . ففي جوان سنة 1927 وزع منشوراً تحت عنوان « الى اخوتنا في المغرب ، والجزائر ، وتونس » ، دعا فيه المغاربة الى استئناف الحرب بين القوات الريفية والقوات الفرنسية والاسبانية . والى أن يبقوا يقظين ومتحدين لتحرير بلادهم .

أما الجزائريون والتونسيون فقد طالبهم المنشور بما يلي : «أعلنوا حقوقكم . . ناضلوا لكي تحصلوا على حريتكم السياسية ، وعلى تحسين أوضاعكم . . وناشدوا اخوتكم الذين يعملون في الجيش (الفرنسي) أن لا يحاربوا (ضد) اخوتهم المغاربة . . ليحي أبطال استقلال المغرب العربي ! ليحي نضال كل مسلمي أفريقية الشمالية للتحرر ![59] » .

وخلال سنة 1928 نشر النجم بياناً في جريدته « الاقدام » (عدد جوان ـ

(57) المعروف أن للأمير خالد أخاً يدعى مصطفى ، ولا نعرف الآن عن الأمير عز الدين شيئاً .

(58) « الحملة الشيوعية » في « أ . ف . » (جوان ، 1927) ، ص 230 .

(59) نفس المصدر «جويليه» (1927) ، ص 281 ـ 282 . ويجد القارىء النص الكامل للمنشور في هذا المصدر . والمنشور مطبوع في باريس .

جويليه) تحت عنوان : « من أجل استقلال أفريقية الشمالية ، » وكان هـذا البيان شبيهاً في نغمته بالمنشور السابق . وقد حذر الجزائريين من أن يكونوا آلات في يد الامبريالية الفرنسية في المغرب . أما الجنود الجزائريون الذين كانوا يحـاربون في الجيش الفرنسي بالمغرب فقد طلب منهم أن يتركوا « العدو المشترك » ويبقـوا في الجزائر . وناشد الأهالي أن « أعدوا أنفسكم لتحتفلوا بمرور مائة عام على احتلال بلادكم بطريقتكم الخاصة ، وذلك بتنظيم حركة واسعة ضد الامبريالية » . وقد مدح البيان المحاربين المغاربة ودعاهم بابـطال الاستقلال ، ونـاشدهم أن يكـافحوا في « جبهة واحدة » .

كما طالب بيان النجم جميع أهالي أفريقيا الشمالية أن ينشئوا « جبهة واحدة معادية للامبريالية » . ولكنه هاجم حزب الدستـور التونسي على « سيـاسة الصمت (التي) هي بعيدة كل البعد عن خدمة القضية الوطنية (والتي) تشجع الامبريالية على هجومها ضد التونسيين » . وبناء على هذا البيان ، فان الحزب الوطني التونسي قد التجأ الى الصمت منذ سنة 1925 ولكن هـذا الموقف لم يفشـل النجم الذي سيواصل ، حسب وعد البيان ، جهوده لخلق « حزب وطني جماهيري .. للحصول على استقلال تونس[60] » .

وكان تحضير الفرنسيين للاحتفال باحتلالهم للجزائر قد أوحى للنجم في أن يضاعف من حملته المعادية للاستعمار . وخلال نفس الصيف أصدر النجم منشوراً باللغتين عن هذه القضية ، وهو الذي أشرنا اليه سابقاً . وكان عنوان المنشور الجديد « النضال ضد الامبرياليـة الفرنسيـة » . وقد شجب الاحتـلال واعتبره عمـل جيش متعطش للدم والنهب ، أدى الى أسر الجزائريين في قانون الأهالي . وهذا القانون ، بناء على المنشور ، لم يستعمل حتى من قبل الاقطاعيين ، الذين يزعم الكولون أنهـم قد قضوا عليهم . وأصر المنشور على أنه لسوء الحظ أن قانون الأهالي يطبق باسم « الوجه النفاقي للحضارة » .

(60) « الدعاية الشيوعية » في « أ . ف . س . » (أكتوبر ، 1928) ، ص 654 ـ 655 . كان زعيم الحزب الدستوري التونسي هو الشيخ عبد العزيز الثعالبي الذي يبدو أن اعتداله قد جعل من الصعب عليه أن يتخذ الطريق الثوري الذي كان يسلكه النجم. والمعروف ان الثعالبي كان عندئذ منفياً من تونس.

وقد خص النجم بالهجوم « الخونة والموالين المبيعين » من الجزائريين ، الذين كانت الامبريالية الفرنسية الفاسدة تستعملهم لتنفيذ « سياستها الاستعبادية » في الجزائر ، وكان من هؤلاء الدكتور ابن التهامي وشكيكن ، وكلاهما كان عضواً في الحزب الليبرالي . ثم طالب النجم الجماهير « لكي نحسن أحوالنا ، يجب توحيد الجهود والنضال ضد الامبريالية الفرنسية «لأن هذه هي الطريقة الوحيدة لتحقيق أهداف الحزب . وقد دعا المنشور الجزائريين الى « أن ينضموا جماعياً الى نجم أفريقية الشمالية ! ليحي استقلال الجزائر[61] » .

وعشية الاحتفال بالاحتلال ، ونظراً لاندفاعه النشيط ضد الاستعمار ، قررت السلطات الفرنسية أن تحل النجم . والواقع أنه لم يكن هناك أية اتهامات محددة ضد هذه المنظمة . ففي 20 نوفمبر 1929 اتخذت محكمة جنح السين ذلك القرار ، الذي ألغته هي نفسها في 4 جويليه 1935 بحجة أن ما أصدرته أولاً كان غير شرعي . وهكذا فانه نتيجة لقرار سنة 1929 اضطهد زعماء النجم ومنعت جريدته من الصدور .

بناء على رأي بعض الكتاب ، فان حل النجم قد وقع نظراً لدعايته « الخطيرة » المعادية لفرنسا[62] . وقد قال نوشي ان الحكومة قد وجدت نشاطات هذا الحزب مضرة بالسيادة الفرنسية في أفريقيا الشمالية[63] . وأشار مصدر فرنسي آخر الى أن النجم قد حل لتعاونه مع جمعية طلبة أفريقيا الشمالية ، ومع ودادية حماية الشمال أفريقيين بفرنسا ، ومع منظمة المساعدة العالمية الحمراء اليسارية التي كانت أيضاً في فرنسا[64] . ويعزو مصدر جزائري حل النجم الى الضغط الذي قامت به فيدرالية رؤساء البلديات في الجزائر ونواب الكولون في فرنسا[65] . ومهما يكن ذلك القرار ، فانه كان غير ضروري وغير شرعي باعتراف القضاء الفرنسي نفسه .

---

(61) نفس المصدر ، ص 653 .

(62) ج . ل . دي لاشارير ، « غرائب نجم أفريقية الشمالية » في « أ . ف » (أوت ، 1935) ، ص 488 .

(63) نوشي ، ص 62 .

(64) موهندس ، « الهجوم » في « أ . ف . » (أكتوبر ، 1934) ، ص 577 .

(65) عباس ، ص 136 .

ولكن زعماء النجم لم يبقوا مكتوفي الأيدي . فقد لجأوا الى النشاطات السرية . فخلقوا سنة 1930 جريدة « الأمة » التي أصبحت هي نفسها برنامجاً ونقطة انطلاق . وفي سنة 1932 أعادوا تكوين الحزب تحت اسم جديد هو « نجم أفريقيا الشمالية المجيد » . وبعد سنة واحدة نشروا دستورهم الرسمي . وعندما حكمت عليهم نفس المحكمة المذكورة (محكمة جنح السين) ، سنة 1934 ، بالسجن ودفع غرامة نقدية بحجة اعادة خلق منظمة صدر قانون بحلها ، رد هؤلاء الزعماء بخلق حزب الشعب الجزائري ، فاتح سنة 1937 ، الذي لعب دوراً هاماً في الحركة الوطنية منذئذ[66] . وهكذا فان قرار حل النجم سنة 1929 كان قراراً غير حكيم وبلا فائدة .

ان ميلاد نجم أفريقيا الشمالية كان أحد الأحداث العظيمة في التاريخ السياسي للجزائر . فقد ساهم بنطاقه ، واتجاهه الثوري ، وأمده ، في تدعيم وتوجيه الحركة الوطنية الجزائرية بشكل فعال . والنجم ، الذي ولد من رماد كثير من المحاولات الوطنية في العقود السابقة ، والذي كان يشجعه تأييد اليساريين الأوروبيين ، وتطورات الشرق الأدنى ، حاول أن يدخل عناصر جديدة في السياسة الجزائرية ، ولكن مساهمة النجم خلال الفترة المدروسة لم تكن مدهشة كثيراً لانه قد واجه عقبات مختلفة من السلطات الفرنسية وكان محارباً من الشيوعيين لموقفه الوطني الضيق ، وكان يقوم بنشاطه خارج الوطن . وقد ساعد على تثقيف الجماهير سياسياً ، ولا سيما المهاجرون الجزائريون في فرنسا وأوروبا ، بالاضافة الى الطلبة . كما جعل القضية الجزائرية معروفة عالمياً . ولم تحن سنة 1930 حتى بدأ النجم يتسرب الى الجزائر أيضاً .

ومنذ النهضة (1900 ـ 1914) حاولت معظم الجماعات والأفراد الوطنيين أن يوجهوا رسالتهم الى بعض المثقفين والى البورجوازية الجزائرية القليلة . ونفس المذهب طبقه الليبراليون والاصلاحيون خلال العشرينات . وفي هذا المعنى يمكن أن

---

(66) في أكتوبر ، 1934 حكمت هذه المحكمة على زعماء النجم بستة شهور سجناً ، و 2000 فرنك غرامة . ولكي يتقوا السجن فر بعضهم الى سويسرا . أنظر ج . ل . دي شاريير « الغرائب » في « أ . ف . » (أوت ، 1935) ، ص 488 .

نقول ان المساهمة الرئيسية للنجم تتمثل في التحول من التركيز على بعض أعضاء النخبة والطبقة الوسطى الى الفلاحين ، والعمال ، والطلبة ، ولكن هذه السياسة كانت الى العهد المدروس ما تزال « تركيزاً » فقط لأن نتائجها الايجابية لن تصبح معروفة الا في العقود اللاحقة .

ورغم أن برنامج النجم لم يكن كله جديداً ، فانه قد ضغط على ثلاث أفكار هامة : فكرة الوطنية باعلانه الاستقلال الكامل للجزائر ، وجلاء الفرنسيين عنها . وفكرة الاشتراكية بالدعوة الى تأميم الأراضي والممتلكات الكبيرة التي أخذها الكولون . وفكرة العروبة بالمناداة بالتعليم العربي ، واسترجاع مكانة اللغة العربية . ولكن المرء يلاحظ عدم التركيز على فكرة الجامعة الاسلامية في برنامج نجم أفريقيا الشمالية ، بل حتى فصل الدين (الاسلام) عن الدولة (فرنسا) الذي سبق أن نادى به الحزب الاصلاحي قد أهمله زعماء النجم خلال العهد المدروس.

وإلى جانب الليبراليين ، والاصلاحيين ، والنجميين ، ظهرت جماعة أخرى ، هي العلماء الذين بالرغم من أنهم كانوا ما يزالون بدون منظمة رسمية خلال العشرينات فانه كان لهم برنامج مشترك جدير بالدراسة . لقد كان العلماء ثمرة للحركة العقلية والاصلاحية الوطنية ، بالإضافة إلى حركتي الجامعة الاسلامية والقومية العربية العاملتين في الشرق الأدنى. ورغم أن العلماء لم يكونوا جماعة سياسية ، فإنهم قد عملوا بقصد على توهين الحكم الفرنسي في الجزائر بتعليمهم العربي ، وتبشيرهم بالفكرة الاسلامية الجديدة ، وبثهم لمبدأ الاصلاح الاجتماعي الشامل . ونظراً لتأثير العلماء العميق على الحركة الوطنية الجزائرية ، فإن مذهبهم ، وطريقتهم ، وشخصياتهم تستحق منا دراسة أشمل .

4. ظهور العلماء:

غالباً ما تعني عبارة « العلماء » ، اليوم في أوروبا وفي الشرق الأدنى رجال الدين ، والمتخصصين في الشئون الدينية ، ومفسري القانون الاسلامي[67] !. ولكن

(67) نشر هذا الفصل بالانكليزية في (المجلة التاريخية المغربية) ، عدد 2 (يوليو 1974) ص 138 ـ 150 ، والمجلة تصدر بتونس .

هذه العبارة تحمل في الجزائر معنى مختلفاً نوعاً ما . فعبارة العلماء هنا تعني أولئك الجزائريين المثقفين الذين ، بالرغم من تعليمهم العربي وتوجيههم الاسلامي ، أصبحوا هادفين بشكل واضح سياسياً ووطنياً . وهذا التحول من وجهة نظر دينية محضة إلى التدخل السياسي قد حتمته سياسة فرنسا نحو الثقافة والشخصية الجزائرية . فالفرنسيون قد أهملوا ، واضطهدوا هذين المظهرين.

ان تجنيد العلماء قد توقف تقريباً في الجزائر ، كما لاحظ دي توكفيل حوالي منتصف القرن الماضي ، منذ الاحتلال . وقد لاحظنا أن هؤلاء العلماء ، الذين كانوا مهملين ومضطهدين ، قد هاجروا إلى الشرق الأدنى والى الجارتين تونس والمغرب ، وبقي آخرون منهم في الجزائر ولكنهم نموا شاكين في الادارة الفرنسية . وما دام بعض العلماء غرباء في وطنهم ، وطموحين من أجل المعرفة والزعامة ، فانهم قد أصبحوا واعين سياسياً ، ومصلحين ليبراليين دينياً . وعندما سمعوا بحركة الجامعة الاسلامية في أواخر القرن الماضي انجذب بعضهم إلى المذهب الجديد وحاول أن يستعمله من أجل أهداف اصلاحية في الجزائر (أي من أجل يقظة البلاد السياسية والوطنية) . وهكذا فإن الجزائر خلال عهد النهضة كانت تقاد باتجاهين هامين : أحدهما اتجاه جماعة النخبة والآخر اتجاه العلماء وأنصارهم.

وترجع فكرة انشاء منظمة للعلماء الجزائريين الى فترة ما قبل الحرب . وبناء على قول ديبارمي فان هؤلاء المثقفين قد انجذبوا إلى فكرة التعليم والنظام في القرن العشرين وتخلوا عن فكرة حرب العصابات التي كانوا قد تعلموا بها ضد فرنسا في القرن التاسع عشر . وقد أضاف ديبارمي بأن هذا « الضمير الجديد » قد ظهر عندما تعلم العلماء من الزمن أن جهودهم الوطنية في الماضي كانت بلا ثمرة . لذلك بدأوا يعدون من أجل « معركة فاصلة » بينهم وبين الفرنسيين ، معركة تقوم على مناورات جديدة . ويقول أحد مؤسسي جمعية العلماء سنة 1931 أن العلماء الجزائريين كانوا قد تحدثوا عن قضية خلق منظمة لهم قبل الحرب عندما كانوا مقتنعين أن تدهور الجزائر الاجتماعي والديني أصبح منذراً بالخطر . فمنذ حقبة ما قبل الحرب إذن كان العلماء يناقشون ، بناء على هذا المصدر ، دورهم الفعال في قيادة الشعب الى حياة أفضل[68].

(68) ديبارمي ، « القواد » في « أ . ف . » (جانفي ، 1933) ، ص 14 ـ 15 نقلاً عن جريدة « البلاغ الجزائري » .

لقد سبق لنا أن تحدثنا عن بعض زعماء العلماء مثل ابن الموهوب، وابن سماية، والمجاوي . وعشية الحرب العالمية الأولى غادر الجزائر جماعة من العلماء الشبان متوجهين إلى تونس والمغرب ، والشرق الأدنى . ولعل هدفهم كان اتقاء الخدمة العسكرية التي سنتها السلطات الفرنسية اجبارياً للجزائريين . ولعله كان أيضاً الحصول على بعض الثقافة العربية والتوجيه الاسلامي ، اللذين لا يكادون يجدونهما في الجزائر . وقد شملت موجة المهاجرين الشبان زعماء المستقبل لجميعة العلماء : عبد الحميد بن باديس ، ومحمد البشير الابراهيمي ، والطيب العقبي . وقد سبق لنا الحديث عن العلاقة بين ابن الموهوب وابن باديس قبل الحرب الأولى .

وتحت تأثير روح الاصلاح في الجزائر وحركة الجامعة الاسلامية في الشرق الأدنى ، قضى هؤلاء الزعماء المستقبلون كل فترة الحرب (باستثناء ابن باديس) خارج وطنهم . ولما كانوا مهاجرين خلال أكثر العهود انقلابية في هذا القرن ، فانهم قد تعلموا ليس فقط الأفكار النظرية عن الحضارة الاسلامية ، بل أيضاً التصورات العامة عن مشاكل وقوى العالم كله . وعندما وضعت الحرب أوزارها ، رجع نفس المهاجرين الى وطنهم بنظريات معادية للفرنسيين وشرعوا في وضع برنامج اجتماعي وثقافي يستهدف توهين أسس فرنسا في الجزائر.

ان الكتاب الفرنسيين يكادون يتفقون على ارجاع أصل الفكرة الاصلاحية لدى العلماء الى الحركة الوهابية والجامعة الاسلامية في الشرق الأدنى[69] . وعندما أصبحت القومية العربية قوة هامة خلال الثلاثينات ، اعتاد نفس الكتاب أن يشيروا الى العلماء على أنهم ناشروها أيضاً . والحق أن العلماء أنفسهم لم ينكروا علاقتهم بهذه الحركات . فالشيخ الابراهيمي ، الذي أصبح فيما بعد رئيساً لجمعية العلماء ، قد اعترف بأنه كان هناك تأثير كبير من حركة الجامعة الاسلامية على الحركة الإصلاحية الجزائرية . وخص بالمدح زعيمين للجامعة الإسلامية : محمد عبده ، ورشيد رضا . واعتاد أن يسمي الأول « الامام » الذي كان شخصاً « فذا » و « أول من نادى بالاصلاح

(69) أنظر ساراسان ، ص 106 ، وديبارمي ، « المظاهرات » في « أ . ف . » (سبتمبر ، 1934) ، ص 538 . أنظر أيضاً لاشارير ، غضبة المغرب الفرنسي » في « أ . ف . » (مارس ، 1928) ، ص 100 . والحركة الوهابية هي التي قام بها محمد بن عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية في أواخر القرن الثامن عشر ، وكانت تهدف الى تطهير وأحياء الإسلام .

الديني والعقلي في العالم الاسلامي »[70].

ونفس الرأي عبر عنه الابراهيمي بالنسبة الى مساهمة الشيخ رشيد رضا . وبناء عليه ، فإن رضا ، بتحريره لمجلة « المنار » وكتابته ترجمة شخصية لمحمد عبده ، قد أدخل « فكرة جديدة » الى العالم الاسلامي . وأضاف الابراهيمي أن رضا قد ركز جهوده ضد « المستغلين من المسلمين والمتعصبين من المسيحيين » . والابراهيمي ، الذي كان قد تقابل شخصياً مع رضا في سوريا في طريق عودته إلى الجزائر بعد الحرب ، قال ان جمعية العلماء مدينة بالكثير لرضا ولمجلة « المنار » . وأكد أيضاً أن جهود الجمعية لها « جذور عميقة في مبادىء وأعمال رضا »[71] . وهكذا فإن العلماء الجزائريين قد اعترفوا أن لهم « جذوراً عميقة » في الحركة الاصلاحية التي كانت تنمو في نفس الوقت في الشرق الأدنى .

وعند عودتهم الى الجزائر اثر الحرب ، بدأ العلماء ـ الذين كانوا مفعمين بالمطامح والأفكار المعادية للفرنسيين ، والذين وجدوا زملاءهم في الوطن في حالة سبات ، يائسين ، معزولين والذين اكتسبوا تجارب غنية وطوروا وعياً سياسياً ـ جهودهم الاصلاحية في خلق الصحافة ، والمدارس ، والنوادي الثقافية . وهكذا عادت إلى الظهور بينهم فكرة انشاء منظمة تعكس تفكيرهم وتوجة جهودهم .

وبناء على رواية الابراهيمي ، فإن ابن باديس قد زاره في سطيف ، سنة 1924 ، وأخبره بخطته في خلق جمعية للعلماء في قسنطينة ، تحت اسم « جمعية الاخاء العلمي » . وأضاف ابن باديس الى مضيفه ، أن هذه الجمعية ستوحد جهود العلماء الجزائريين وطلابهم ، وانها ستساعد على ربطهم جميعاً ببرنامج مشترك . وقد شجع الابراهيمي الفكرة . ثم عمل الرجلان على وضع خطة تتضمن الدستور ، ومكان الاجتماع ، والمديرين ، بالإضافة إلى خطوات أخرى ، لاعداد الاجتماع التأسيسي ، وعاد ابن باديس الى قسنطينة واستشار زملاءه ومساعديه ، الذين بناء على رأي الابراهيمي ، رحبوا بالفكرة وتبنوا الدستور المؤقت . ولكن ظروفاً جديدة طرأت

---

(70) محمد البشير الإبراهيمي (محرر) « سجل المؤتمر الخامس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين » . (1935) ، (قسنطينة) ، المطبعة الإسلامية الجزائرية ، 1935 ، ص 34 ـ 35 .

(71) نفس المصدر ، ص 36 ـ 38 .

فأخرت المشروع ست سنوات[72] .

ولكن العبارة السحرية « لجمعية الاخاء » انتشرت في كل مكان في الجزائر . فقد استعملها الكتاب في الصحافة . والخطباء في الاجتماعات العامة ، بالاضافة إلى استعمالها في المحادثات الخاصة . وبناء على رأي الابراهيمي ، فان العبارة ، قد جذبت أنظار المثقفين في البلاد كلها . ومع ذلك فان زعماء المشروع قد شعروا أن خلق مثل هذه المنظمة قد يؤدي الى انقسام الطبقة المتعلمة ، اذا لم يسبق ذلك اعداد محكم .

وبناء على رأي الابراهيمي ، فقد كان هناك نوعان من المتعلمين في الجزائر . فقد استعملها الكتاب في الصحافة ، والخطباء في الاجتماعات العامة ، بالاضافة الى استعمالها في المحادثات الخاصة . وبناء على رأي الابراهيمي ، فان العبارة ، قد جذبت أنظار المثقفين في البلاد كلها . ومع ذلك فإن زعماء المشروع قد شعروا أن خلق مثل هذه المنظمة قد يؤدي الى انقسام الطبقة المتعلمة ، اذا لم يسبق ذلك اعداد محكم .

وبناء على رأي الابراهيمي ، فقد كان هنك نوعان من المتعلمين في الجزائر خلال العشرينات : الأول ، العلماء ، أي أولئك المثقفون الذين كانوا واعين سياسياً ولهم اتجاه اصلاحي ، والثاني قليلو الثقافة الذين لهم اتجاه ديني والذين تخرجوا من الزوايا المحلية وغيرها من المراكز الدينية ، وأضاف الابراهيمي بأنه كان في امكان العلماء تأسيس « جمعية للاصلاح الديني » ، ولكنهم لم يريدوا عزل زملائهم المحافظين . لذلك كان العلماء الاصلاحيون مقتنعين أن أية منظمة ناجحة يجب أن تضم المحافظين أيضاً[73] . ولم تتحقق هذه الخطة سوى في سنة 1931 عندما ولدت جمعية كانت تمثل علماء الجزائر من أصحاب الاتجاهين .

وبينما كان العلماء الاصلاحيون ينتظرون فكرة انشاء منظمة مشتركة حتى تنضج ، كان عليهم أن يختاروا بين شيئين في تناولهم للاصلاح . الاختيار الأول هو

(72) نفس المصدر ، ص 46 ـ 47 . لم يشرح الإبراهيمي هذه الظروف ، ولكنه أشار إلى أن الفكرة قد تكون ما زالت غير ناضجة ، وأن الشعب ما زال غير محضر لها .

(73) نفس المصدر ، ص 48 ـ 49 .

التركيز على التعليم، بهدف خلق زعماء جدد ذوي مؤهلات عالية لمواجهة تحدي خصوم الاصلاح . والاختيار الثاني هو مواجهة الوضع حالياً وبصراحة ، دون خوف أو رأفة ، حسب تعبير الابراهيمي ، وذلك بمهاجمة المستغلين للبلاد . وكانت وسيلة الاختيار الثاني هي الاتصال المباشر مع الجماهير لايقاظها ضد مستغليها . ورغم أن الابراهيمي كان في صالح الاختيار الأول فإن الاختيار الثاني هو الذي انتصر لأن ابن باديس كان في صالحه . وسوف نرى أن ابن باديس قد استعمل أولاً سلاحين : الصحافة والمدرسة لكي يهاجم أعداءه ، ولكي يعد الأرض لخلق منظمة وطنية للعلماء[74] . ولكن كان للعلماء تصوراتهم الخاصة عن بداية وتطور الحركة الاصلاحية في الجزائر.

فهم يرون أن الشكل الحديث للحركة الاصلاحية في الجزائر قد ولد بعد الحرب العالمية الأولى . وقد كانت هناك عوامل كثيرة ساهمت في هذا التطور :

أولاً ـ كان هناك تأثير الشيخ عبده (حركة الجامعة الاسلامية) ،. ولا سيما فكرته عن الاجتهاد .

ثانياً ـ تأثير مجلة « المنار » وكتب المصلحين الدينيين ، مثل ابن تيمية ، وابن القيم ، والشوكاني (وهؤلاء كلهم محل اعجاب الوهابيين أيضاً) .

ثالثاً ـ « الثورة التعليمية » التي أحدثها ابن باديس بعد عودته من تونس والمشرق.

رابعاً ـ الوقع النفسي للحرب على الجماهير الجزائرية ، الذي أدى الى تدهور الاعتقادات الخرافية ، بالإضافة إلى تدهور المبادىء « المقدسة » في أعين هذه الجماهير.

خامساً ـ عودة بعض « أبناء (الجزائر) المخلصين المؤمنين « من الحجاز » منبت الاسلام ومركز النهضة الاصلاحية ، بعد أن تعلموا فكرة الاصلاح الناضجة[75] .

ولكن خلق جمعية لكل علماء الجزائر سنة 1931 قد سبقته يقظة عامة للبلاد .

---

(74) نفس المصدر ، ص 43 ـ 45 .

(75) نفس المصدر ، ص 40 ـ 42 . من الواضح أن الإبراهيمي كان يتحدث عن العوامل « الخارجية » التي ساهمت في الحركة الإصلاحية .

وبين 1919 و 1931 غطت هذه اليقظة كل مظهر من مظاهر الحياة الجزائرية . ففي الحقل الاقتصادي كانت هناك منافسة مع الفرنسيين . وفي الميدان الثقافي كان هناك انشاء النوادي ، والجمعيات ، بالإضافة إلى الهجرة للدراسة . وفي ميدان الدين ، كان هناك خلق المساجد الحرة ، بأموال الشعب في المدن والقرى . وفي النطاق النفسي ، كان هناك تفكير جاد ومباشر ، وثقة لدى الأهالي ، بالإضافة إلى اعتقاد راسخ بوجود « الأمة » . وفي الحياة السياسية ، كان هناك شعور خاص نحو الاسلام واللغة العربية . وبناء على رأي العلماء ، فإن هذه التطورات قد جعلت خلق جمعيتهم ممكناً وضرورياً لأن الفكرة كانت ناضجة والأمة كانت مستعدة[76] .

ورغم أن الفكرة كانت ناضجة ، فإن خلق جمعية للعلماء الجزائريين كان سيبقى حلماً لولا قيادة ابن باديس الحيوية والديناميكية . ولعله من الممكن أن نقول انه لا وجود لشخصية في العصر الحديث أثرت على كامل المجتمع الجزائري كما فعل ابن باديس ، ومن جهة أخرى فان حياة ابن باديس تعتبر نموذجاً لأولئك المثقفين الجزائريين الغرباء في بلادهم والذين كان يسميهم بعض الكتاب الفرنسيين « النخبة الأخرى »[77] .

ولد ابن باديس سنة 1889 في قسنطينة ، المدينة ذات المقارنات الكثيرة ، من عائلة تنتمي الى الطبقة الوسطى . وقد حصل على تعليمه الابتدائي في مدرسة قرآنية على يد الشيخ محمد بن المداسي . كما درس العلوم العربية والاسلامية على الشيخ حمدان الونيسي ، الذي سبق أن أشرنا إليه . ويقال ان ابن باديس الشاب قد أخذ عليه أستاذه عهداً بأن لا يقبل منصباً من الادارة الفرنسية . ويقال أيضاً انه هو نفسه كان يطلب من طلابه أن يفعلوا نفس الشيء[78] .

وعندما هاجر أستاذه الونيسي إلى الحجاز سنة 1908 ، ذهب ابن باديس الى تونس للتعلم . حدث هذا عندما كانت الجزائر تعيش في فترة الزخم الكبير .

---

(76) نفس المصدر ، ص 50 .

(77) بوسكي . « و . أ . » ، 3 (1954) ، ص 57 .

(78) حمزة بوكوشة ، « مع ابن باديس في ذكراه » في « المعرفة » أبريل ، 1964 ، ص 13 . منذ تأليف هذا الكتاب ظهرت عدة أبحاث عن ابن باديس وحركة العلماء . أنظر قائمة المصادر .

ولعل ابن باديس كان مدفوعاً بروح النهضة التي كانت تعيشها بلاده عندما دخل جامع الزيتونة بتونس حيث حصل على شهادة التحصيل سنة 1912 ، وخلال نفس السنة رجع الى قسنطينة وبدأ برنامجاً للتعليم ، والاصلاح في جامع سيدي الأخضر للكبار مساء ، وفي جامع سيدي قموش للصغار نهاراً . وكان هدفه الآني هو تعليم اللغة العربية والقرآن إلى الجزائريين ومكافحة الخرافات والأمراض الاجتماعية بينهم ، ولكن هدفه البعيد المدى كان وطنياً وسياسياً[79] .

وعشية الحرب العالمية الأولى ، غادر ابن باديس قسنطينة مرة أخرى الى تونس والشرق الأدنى . وقد يكون فعل ذلك لكي يتقي التجنيد الاجباري ، الذي كان قضية تشغل الرأي العام عندئذ ، ولكي يزيد من تجربته العلمية . وقضى جزءاً من الوقت كطالب ـ معلم في جامع الزيتونة ، وجزءاً منه مسافراً ، وحاجاً ، وطالب معرفة في الشرق الأدنى . وخلال زيارته للحجاز ، زار أستاذه الونيسي ، ويقال انه قد جدد له عهده السابق . وفي طريقه من الحجاز الى أفريقيا الشمالية ، استقبل بحفاوة كبيرة من شيخ جامع الأزهر محمد بخيت ، الذي يقال انه قد أجازه[80] . وفي هذا المجال يجب أن يتذكر المرء أن الحركة الوطنية التونسية التي كانت ، قبل الحرب ، تحت زعامة علي باش حانبه ، وثورة العرب سنة 1916 ضد الأتراك قد تركتا طابعاً دائماً على حياة ابن باديس المستقبلة .

وفي سنة 1935 اعتبر الشيخ علي المغربي ابن باديس أبا النهضة الجزائرية ، وبناء على رأي المغربي ، فان الجزائر ، قبيل سنة 1912 كانت تعاني من التخلف والجهل . ولكن ابن باديس ظهر في ذلك العهد ليفتح لها عهداً جديداً . وقد بدأ يقود البلاد في الطريق الذي تتطور فيه الأمم . فابن باديس اذن جاء ليحمي الروح الوطنية ، ويعلم الشباب ، وينشيء المدارس العربية ، ويحطم الجهل والكسل ، ويخدم دينه ووطنه[81] .

---

(79) نفس المصدر ، أنظر أيضاً ديبارمي ، « مساهمة » في « أ . ف . » (جويليه ، 1937) ، ص 354 .

(80) في ذلك الوقت يستطيع أستاذ مشهور أن يمنح ، بعد تقييم دقيق ، سلطته العلمية والشخصية الى الطلاب الذين يرى فيهم مستقبلاً واعداً . أنظر بوكوشة ، « المعرفة » (أبريل ، 1964) ، ص 13 .

(81) علي المغربي ، « سجل المؤتمر الخامس لجمعية العلماء » (تحرير البشير الإبراهيمي) ، (قسنطينة ، المطبعة الإسلامية الجزائرية ، 1935) ، ص 184 .

ولو أن هذه الشهادة لم يؤكدها الكتّاب الجزائريون والأوروبيون ، لاعتبرت رأياً عاطفياً من أحد أتباع ابن باديس . ففي سنة 1933 كتب ديبارمي يقول ان الجزائريين كانوا يسمون بان باديس « مرشد الأمة » و« امام البلاد » ، وأبا النهضة[82] . وفي الجزائر المستقلة ، يعتبر ابن باديس أحد المساهمين الرئيسيين في الحركة الوطنية الجزائرية ويطلق اسمه على مختلف المؤسسات العامة[83].

ولكن ابن باديس لم يكن وحده في الميدان . فقد كان يساعده أشخاص مخلصون يتقاسمون معه الرأي ، والوسيلة ، والهدف . ومن هؤلاء محمد البشير الابراهيمي ، الكاتب الذي خلفه في رئاسة جمعية العلماء . والطيب العقبي ، الخطيب ، الذي شغل عدة أعمال ، بما في ذلك نيابة رئاسة الجمعية . ومبارك الميلي ، المؤرخ الذي عمل كأمين للمال . والأمين العمودي ، الذي كان يحسن العربية والفرنسية والذي تقلد منصب الكاتب العام . وغيرهم . وليس من هدفنا أن نقدم قائمة بأسماء الأعضاء البارزين من العلماء الذين لم يصعد بعضم الى مكان هام الا بعد الفترة التي ندرسها . على أن نظرة سريعة إلى الزعماء الذين ساهموا في الحركة خلال العشرينات قد تساعد على القاء الضوء على أصول هذه الطبقة المثقفة الوطنية.

وهناك شخصيتان شاركتا ابن باديس كثيراً من المزايا . أولاهما الطيب العقبي . فقد ولد بسيدي عقبة الواقعة قرب بسكرة سنة 1889 . ولم يكد يبلغ الخامسة من عمره حتى هاجرت أسرته كلها الى الحجاز (سنة 1895) . وفي المدينة المنورة حفظ القرآن الكريم ودرس المعارف المتداولة عندئذ وبدأ ينظم الشعر ويكتب في الصحف وهو صغير السن . وبعد الثورة العربية نفاه الأتراك الى الروم ايلي فالأناضول ثم أزمير ، بحجة انتمائه الى فكرة القومية العربية . وعند نهاية الحرب عاد

---

(82) ديبارمي ، «مصلح معاصر في الجزائر» في « أ . ف . » (مارس ، 1933) ، ص 149 ـ 155 . بناء على الكاتب ، فإن خصوم أبن باديس كانوا يسمونه حليف المسيحية والغرب .

(83) توفي أبن باديس في 16 أبريل ، 1940 ، في مسقط رأسه ، قسنطينة . وقد سال حبر كثير في الحديث عن أبن باديس ، ولكن حياته ما زالت لم تدرس ، وليس هناك في الواقع ترجمة شخصية وافية له . ولعل أفضلها ما كتبه علي مراد عنه . أنظر قائمة المراجع .

العقبي الى مكة . وقد عهد اليه الشريف حسين بإدارة جريدة (القبلة) والمطبعة الأميرية.

وفي مارس سنة 1920 عاد العقبي إلى الجزائر ربما لعدم استتباب الأمن في الحجاز . وكان السبب الظاهر لرجوعه هو الاعتداء الذي وقع كما يقول ، على أملاك عائلته في مسقط رأسه . ولذلك عزم على الرجوع الى الحجاز متى استقرت فيه الأحوال واتضح الموقف . وقد ظل العقبي في بسكرة ومنها كان يبث أفكاره عن النهضة العربية والجامعة الاسلامية والاصلاح الديني والاجتماعي . والتف حوله جماعة من الأدباء والمصلحين مثل الشاعر محمد العيد آل خليفة . وقد اشتركوا في انشاء جريدة (صدى الصحراء) سنة 1926 في مدينة بسكرة ، ثم انفرد العقبي بتأسيس جريدة (الاصلاح) سنة 1927 في المدينة نفسها[84] . وكان العقبي ممثلاً للعلماء في الجزائر العاصمة قبل خلق جمعيتهم ، حيث أصبح معروفاً بأنه أكثرهم تأثيراً خطابة[85].

أما الشخصية الثانية التي صاحبت ابن باديس في العشرينات فهو البشير الابراهيمي . وقد ولد في قرية سيدي عبد اللّٰه (أولاد براهم) نواحي سطيف سنة 1889 . وهناك وفي زاوية شلاّطة مارس تعليمه الابتدائي ، وفي سنة 1912 هاجر إلى الحجاز حيث درس وقوى معارفه وأصبح من المدرسين ، وبعد الثورة العربية توجه (سنة 1917) إلى سورية حيث استقر ودرس وتخرج على يديه تلاميذ . وقبل عودته إلى الجزائر حصل الإبراهيمي على معرفة واسعة بالأدب العربي والحضارة الإسلامية . ولا شك أنه تأثر بعمق بحركة الجامعة الإسلامية التي كانت عندئذ في الحجاز وفي الشام قوة سياسية وثقافية هائلة . وبالإضافة إلى ذلك تأثر الإبراهيمي بالحركة السلفية التي كانت تدعو إلى العودة إلى المنابع الصافية للإسلام وهي القرآن

---

(84) ترجم العقبي لنفسه في كتاب (شعراء الجزائر في العصر الحاضر) لمحمد الهادي السنوسي . أنظر جـ 1 ، تونس 1926 ، ص 124 ـ 130 . وقد ترجم له محمد علي دبوز في (نهضة الجزائر) ـ أنظر قائمة المراجع ، وذكر السيد ساراسان أن الجريدة التي أدارها العقبي في الحجاز جريدة سعودية أنظر ص 109 . وهو رأي غير صحيح .

(85) أنظر غوتي ، « أخطار » في ر . ب . (أول سبتمبر ، 1934) ، ص 45 ـ 46 : أنظر أيضاً ديبارمي ، « مساهمة » في « أ . ف . » (جويليه ، 1937) ، ص 354 .

والحديث وتقاليد السلف الصالح .

وبعد عودته إلى الجزائر (1920)، لم يبدأ الابراهيمي بنشر الاصلاح، كما فعل ابن باديس والعقبي . فقد كان عندئذ أديباً أكثر منه مصلحاً نشيطاً . ولكن شيئاً فشيئاً، أثر عليه ابن باديس ، فدخل ميدان المصلحين . ولعل فشله في جذب جمهور أدبي في بلاد كالجزائر تغلب عليها الأمية كان له دور أيضاً في هذا التحول . وتحت تأثير ابن باديس عين الابراهيمي ممثلاً لحركة الاصلاح في تلمسان . والحق أن مساهمته في هذه الحركة كانت ضعيفة خلال العشرينات . ولكنه سيلعب دوراً هاماً في العقود اللاحقة[86] .

ولكن الحركة الاصلاحية الجزائرية لا يمكن أن تفهم أو تقدر دون الاشارة الى شخصية أحمد بن عليوة . ولد ابن عليوة في مدينة مستغانم (موطن السنوسيين) وتلقى تعليمه الدينيّ على أستاذه الشيخ بوزيد الذي كان ينتمي الى الطريقة الدرقاوية . وبعد وفاة الشيخ بوزيد ، سنة 1909 ، هاجر ابن علوية أيضاً الى الشرق الأدنى . وقد تنقل طويلاً بين مصر ، وسورية ، وإيران ، والهند ، وهي الرحلة التي دامت عشر سنوات . وابن عليوة ، كزملائه ، وجد نفسه خارج وطنه أثناء أكثر العهود انقلابية في هذا القرن . ولكن خلافاً لهم ، يبدو أنه سافر أكثر وتورط بعمق في قضايا الساعة ، ولا سيما قضية الدين .

وبعد الحرب عاد ابن عليوة أيضاً الى الجزائر وشرع في حملة واسعة لبث أفكاره . فأوجد أولاً جريدة « البلاغ الجزائري » ، التي كانت من أكثر الجرائد العربية الأسبوعية انتشاراً في ذلك الوقت ، والتي حملت أفكاره ليس فقط داخل الجزائر ، ولكن أيضاً في كامل أفريقيا الشمالية ، والشرق الأدنى ، وانكلترا ، والأمريكيتين[87] . ويسمي أوغسطين بيرك ابن عليوة « مبشراً حديثاً » يجمع الى الثقافة الاسلامية الانضباط الأوروبي .

---

(86) ساراسان ، ص 109 ـ 110 . ظهرت منذ تأليف هذا الكتاب عدة دراسات عن الإبراهيمي ودوره في الحركة الإصلاحية والوطنية . أنظر قائمة المصادر .

(87) أ . بيرك ، « رجل غامض حديث : الشيخ ابن عليوة » في « ر . أ . » . م 79 (1936) ، ص 761 .

وعلى أية حال فان ابن عليوة قد انفصل عن زاويته الدرقاوية وخلق زاوية خاصة به. وبينما كان العلماء الآخرون ما يزالون يفكرون في انشاء منظمة، أسس ابن عليوة زوايا لا في الجزائر فقط، ولكن في فرنسا أيضاً. وقبل وفاته في 14 جويلية 1934، كان لابن عليوة أتباع في تونس، والمغرب، وليبيا، واليمن، وسوريا، بالإضافة إلى الجزائر. وزيادة على كتاباته الصحفية ومحاضراته التوجيهية، كان ابن عليوة ينظم الشعر، ويكتب في الفلسفة، والدين، وقد نشر بعض أعماله، أثناء حياته، في تونس وسوريا. ويصفه بيرك بأنه سيد القلم والحرف، وبأنه كان خطيباً مؤثراً(88). أما معاصروه الجزائريون، وخصوصاً العلماء، فقد أكدوا أن ابن عليوة كان أمياً وأن ما نسب إليه من كتابات كان من انشاء أتباعه.

ويبدو أن ابن عليوة كان مؤمناً بفكرة الجامعة الإسلامية، تحت غطاء جزائري. وبدلاً من طرح مذهبه خلال منظمة اجتماعية - دينية، كما فعل الاصلاحيون، استعمل ابن عليوة الطريقة الجزائرية القديمة: خلق جمعية (طريقة) باسمه الخاص مع زاوية، وطقوس غامضة، ودرجات كهنوتية.

وبناء على رأي بيرك فان ابن عليوة قد نادى بالوحدة الاسلامية بغض النظر عن السلالة أو الشيع. وقد أبقى صلات وثيقة مع زعماء الجامعة الاسلامية والقومية العربية. وكانت جريدته تحتوي على بعض المقالات لهؤلاء الزعماء، بما في ذلك مقالات من عبد العزيز الثعالبي التونسي، والأمير شكيب أرسلان السوري. وشجب معاملة الفرنسيين للجزائريين كسلالة ناقصة، واضطهادهم للنظم العربية. وقد هاجم كلاً من البعثات التبشيرية المسيحية والشيوعية في الجزائر. كما هاجم الحضارة الأوروبية المادية والخطة الفرنسية لتجنيس الجزائريين.

كان ابن عليوة يعتقد أنه يستطيع أن يحارب الحكم الفرنسي بالطريقة الجزائرية خلال القرن التاسع عشر (أي بالطرقية، والصلات السرية، والنظم الدينية). بينما كان العلماء الآخرون يعتقدون أن وقت الطرقية قد انقضى، وأن طريقة التنظيم الحديث قد أصبحت ضرورية(89). ولكن ابن عليوة قد نما شيئاً فشيئاً محافظاً، بينما كان

---

(88) نفس المصدر، ص 692.

(89) نفس المصدر. للحصول على معلومات أكثر، أنظر ص 691 - 776 حيث يعطي بيرك تفاصيل عن =

العلماء يحاولون أن يسايروا الزمن.

فإذا استبعدنا حركة ابن عليوة ، فاننا نجد أن للعلماء برنامجاً بثلاث زوايا : دينية ، واجتماعية ، وسياسية ، رغم أن الزاوية الأخيرة لم تكن صريحة لـديهم . فتحت قيادة ابن باديس ، عملوا من أجل نشر الاسلام بحرية (بطريقتهم الاصلاحية الخاصة) ، وفصل الدين عن الـدولة ، والقضـاء على الطرقيـة ونظمهـا الغامضـة « المرابطية » .

وعلى المستـوى الاجتماعي والثقافي، أسسوا المـدارس العـربيـة الحـرة ، والنوادي الثقافية والمجلات الأدبية ، وحاربوا الأمراض الإجتماعية، مثل الخرافات الغليظة . وأما على المستوى السياسي ، فان العلماء قد وقفوا في صالح كيان (أمة) جـزائري ينفصـل في النهايـة عن فرنسـا ، ودعوا الى القـومية العـربية والجـامعـة الاسلامية ، وعارضوا بشدة تجنيس ودمج الجزائر في فرنسا[90] . ولكن العلماء لم يكونوا ثوريين في تناولهم لهذا الموضوع . كانوا يعتقدون في عدم العنف ويفضلون طريقة الاغراء والاقناع على طريقة الارهاب والثورة.

وتنص المادة الأولى من دستور العلماء على أن الجمعية لن تتدخل في الشؤون السياسية بأية حـال . وتصف نفس المادة الجمعية بأنها منظمة ارشادية وأخـلاقية . وتحدد المادة الثانية أهداف هذه المنظمة بأنها تحارب الأمراض الاجتماعية ، مثل الخمر ، والقمار ، والبطالة ، والجهل ، وكل شيء يمنعه الشرع الاسلامي ، ويحرمه العقل الانساني وتشجعه الممارسة العامة . وأضاف الدستور أن الجمعية ستحقق هذا البرنامج بكل الوسائل التي تراها مناسبة ومفيدة ، والتي هي غير محرمة بالقانون .

حياة أبن عليوة ومذهبه الإصلاحي بالإضافة إلى صورته . كان أبن عليوة متهمـاً من قبل العلمـاء المعاصرين له بأنه يؤمن بمذهـب الحلول ويدعو إلى التقارب المسيحي ـ الإسلامي ، وأن ذلك هو الذي جعل بعض غير المسلمين ينضمون إلى فكرته . كما اتهموا أتباعه بمحاولة إغتيال الشيخ أبن باديس في قصة معروفة .

(90) أنظر ، « العلماء الجزائريون المصلحون » في « ن . ر ف . أ . » م 7 ، 8 (جويليه ، 1955) ، ص 332 ـ 336 . أنظر أيضاً « دستور ومذهب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » (قسنطينة ، المطبعة الإسلامية الجزائرية ، حوالي 1937) ، ص 3 ـ 4 . أنظر أيضاً ديبارمي ، « مساهمة » في « أ . ف . » (جويليه ، 1937 » ، ص 355 .

فمهمتها تتمثل في القيام بحملات توعية وارشاد في كامل البلاد، وفي عقد اجتماعات عامة ، وفي انشاء فروع وهيئات اصلاحية ، ونواد ثقافية ، بالإضافة إلى المدارس الحرة.

وفي سنة 1934 ، حددت « الشهاب » مجلة العلماء غير الرسمية ، في عددها الصادر في ماي ، هدف الجمعية ، فقالت انه يتمثل في : « **اصلاح الشعب الجزائري العربي من الوجهة الدينية، والوطنية، والأدبية والعلمية** »[91] (تسطير أصلي) . والعلماء ، بناء على رأي كاتب فرنسي ، لهم هدفان هامان : أحدهما فوري ، والثاني طويل المدى . فالأول كان يتمثل في تجميع كل القوى المثقفة ، بما في ذلك المحافظون ، مثل ابن عليوة ، تحت راية الاصلاح الاجتماعي . أما الثاني فقد كان يتمثل في فصل الجزائر عن فرنسا تحت علم الوطنية[92].

ان المذهب الديني للعلماء ، الذين كانوا يدعون اليه منذ ظهورهم أوائل العشرينات ، لم يكن صعباً كثيراً على الفهم . فابن باديس الذي كون ونشر هذا المذهب ضمنه دستور الجمعية عند انشائها . ونظراً لأهمية هذا المذهب الوثائقية ، فسوف نذكره في الملحقات . أما حالياً فيكفي أن نعطي فكرة عامة عنه.

اعتقد العلماء وعلموا أن :

1 ـ الاسلام هو دين الله بعث به بواسطة الرسل الذين كان آخرهم محمد.

2 ـ الاسلام هو دين الانسانية قاطبة.

3 ـ القرآن هو كتاب الاسلام .

4 ـ السنة الحقيقية هي تفسير للقرآن .

5 ـ البدعة هي كل شكل من العبادة التي ليس لها أصل في السنة .

6 ـ المصلحة هي ما يحتاجه الناس للتوفيق بين التعاليم الاسلامية والحياة الاجتماعية .

7 ـ محمد هو أفضل الخلق .

8 ـ التوحيد هو أساس الدين .

---

(91) نص على ذلك ديبارمي ، « المظاهرات » في « أ . ف . » (سبتمبر ، 1934) ، ص 538 .

(92) أنظر « العلماء الجزائريون » في « ن . ر . ف . أ . » م 7 ، 8 (جويليه ، 1955) ، ص 331 .

9 ـ الخلاص هو بالعمل الصالح وحده .
10 ـ المرابطية بدعة وهي تعني استغلال الانسان وقتل العقل .
11 ـ في حالة الخطر كل المسلمين عليهم أن يتحدوا وأن ينسوا خلافاتهم(93) .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن العلماء ، قد اعتقدوا أن الاسلام سيصبح عالمياً وأنه « ليس في حاجة الى دعاية » . فقد ادعت احدى الجرائد « النجاح » (27 ماي 1932) ، أنه بعد مائة سنة ، سيصبح العالم كله مسلماً لأن الاسلام « لا يعارض أي تقدم »(94) .

وإذا كان المذهب الديني للعلماء يبدو محل جدل ، فإن عملهم التعليمي والاجتماعي يبدو محل جاذبية ونجاح . فعلى المستوى التعليمي ، كان المبدأ الرئيسي الذي علمه العلماء لطلابهم وأتباعهم هو « الجزائر وطني ، والاسلام ديني ، والعربية لغتي » . وتحت هذه الراية بدأ ابن باديس ومؤيدوه يدعون إلى أفكار وطنية ـ ومذهبية كانت تجتذب انتباهاً كبيراً من الأهالي ، ولا سيما من الجيل الجديد والطبقة الوسطى التي كانت واعية سياسياً . وكانت هذه الحملة الدعائية قد تحققت بعناية خلال سلسلة من المدارس ، والجرائد ، والنوادي الثقافية ، ثم خلال الوعظ والارشاد في المساجد.

وكان المظهر الرئيسي لهذه الحملة الموقظة تأسيس المدارس العربية التي لم تكن تحت سيطرة الفرنسيين . وكانت المساجد في البداية تستعمل لكل من الارشاد والتعليم . وكان فتح المدارس ، مؤيدة بأموال شعبية حرة ، هو صراخ المعركة لدى العلماء بعد الحرب العالمية الأولى . ولكن المساجد بقيت لتعليم الكبار ، كما بقيت ميداناً للوعظ والارشاد الديني . ومن بين مدارس العلماء الرائدة « مدرسة التربية والتعليم » التي أنشأها ابن باديس في قسنطينة في أوائل العشرينات . وقد تخرج من هذه المدرسة جيل جزائري كامل تحت ارشاد ابن باديس.

وكانت الصحافة أيضاً مظهراً هاماً لحملة العلماء من أجل الاصلاح . فقد أنشأ

---

(93) أنظر « الدستور » ، ص 9 ـ 14 وملحق رقم 6 .

(94) أشار إلى ذلك ديبارمي ، « المقاومة » في « أ . ف . » (ماي ، 1933) ، ص 366 ـ 267 . كانت (النجاح) حتى الى ذلك التاريخ في صف العلماء ثم اختارت طريقاً آخر .

ابن باديس (سنة 1925)[95] جريدة عربية أسبوعية باسم « المنتقد » . ولم يظهر من هذه الجريدة سوى ثمانية عشر عدداً قبل أن تمنعها السلطات الفرنسية من الصدور . ومن بين المساهمين فيها المؤرخ مبارك الميلي ، الذي نشر فيها مقالاً بعنوان : « العقل الجزائري في خطر » . وهناك مساهم آخر فيها هو الطيب العقبي . الذي نظم شعراً بعنوان « الى الدين الخالص » .

وبعد منع « المنتقد » من الصدور ، أنشأ ابن باديس، سنة 1925 أيضاً « الشهاب »[96] ، التي كانت من أكبر المجلات الجزائرية تأثيراً خلال عقدين ، والتي كنا قد أشرنا إليها سابقاً . وقد بدأت « الشهاب » تصدر أسبوعية ثم أصبحت شهرية . وكانت تنشر للكتاب والشعراء الجزائريين ، بالإضافة إلى النشر للمفكرين في العالم العربي . ولم تكن « الشهاب » الجريدة الرسمية للعلماء ، حتى بعد خلق جمعيتهم ، ولكنها كانت ميداناً لكل المؤيدين المهتمين بالاصلاح الاجتماعي في الجزائر[97] .

ومن المظاهر الهامة أيضاً انشاء العلماء للنوادي والمراكز الثقافية ، ففي سنة 1934 كتبت جريدة « لالوت سوسيال » (الصّراع الاجتماعي) ، (عدد 1 ـ 15 جوان) تقول انه لا يوجد مكان في الجزائر لم ينشىء فيه العلماء ، « منظمة ، بطريقة أو بأخرى »[98] . وقد قال رحالة عراقي مجهول ، سبق أن أشرنا إلى رسالته ، أن طلاب ابن باديس في قسنطينة قد أنشأوا سنة 1928 ، منظمتين : « الجمعية الخيرية الاسلامية » و « جمعية النيابة العربية » . وأضاف أنه كان قد زار « نادياً عربياً » في العاصمة حيث تنعقد المؤتمرات الثقافية وتوجد الصحف العربية القادمة من الشرق الأدنى[99] .

---

(95) ضبط الشيخ حمزة بوكوشة تاريخ صدورها بـ 2 يوليو 1925 . أنظر مقالته (الشيخ الهادي السنوسي) في مجلة (الثقافة) عدد 24 ، ديسمبر ـ يناير 1975 ص 100 .

(96) صدر عددها الأول بتاريخ 12 نوفمبر 1925 . وتحمل الشعار التالي : « جريدة وطنية تعمل لسعادة الأمة الجزائرية بمساعدة فرنسا الديمقراطية » .

(97) بوكوشة ، « المعرفة » (أبريل ، 1964) ، ص 14 . ديبارمي ، « مساهمة » في « أ . ف . » (جويليه ، 1937) ص 354 .

(98) أشار الى ذلك ديبارمي ، « المظاهرات » في « أ . ف . » (سبتمبر ، 1934) ، ص 538 .

(99) « الإفتراءات ضد أفريقية الفرنسية » في « أ . ف . س . » (فيفري ، 1929) ، ص 164 .

ولا شك أن هذا « النادي العربي » الذي يشير اليـه هو « نادي الترقي » الذي أنشـأه أنصار الاصـلاح سنة 1927 . وكـان ابن بـاديس يعقـد المؤتمـرات ويلقي المحاضرات في هذا النادي كلما زار الجزائر العاصمة. كما أن النادي كان مركز لقـاء الطبقة الجزائرية المثقفة ، والزائرين الأجانب ولا سيما من الشرق الأدنى . ولعله من المهم أن نلاحظ أن جمعية العلماء قد ولدت في هذا النادي[١٠٠].

لاحظ المعاصرون الفرنسيون أن العلماء قد أدخلوا «بيداغوجية وطنية» جديـدة في حملتهم التعليمية . وبناء على رأي ديبارمي ، فإن ابن باديس قد استعمل هذه « الـطريقة » الجـديدة في محـاضراتـه في الجـامـع الأخضـر ، لكي يعـد طـلابـه لمسؤولياتهم الوطنية . فقد علمهم ابن باديس « المحفوظات العربية » و « الأناشيد الوطنية » وكان الطلاب يحفظون ذلك وينشدونه في المناسبات الاجتماعية والدينية ، مثيرين بذلك روح الوطنية ، والتضامن الإسلامي ، والحرية . ويؤكد ديبارمي أن هذه الطريقة لم تكن معروفة في الجزائر قبل الحرب[١٠١].

ولما كانت عمليات التعليم تجري في أماكن مختلفة بما في ذلك المساجد ، والمدارس ، والنوادي ، فقد كان على العلماء أن يبحثوا عن طرق خاصة لاصلاح هذا التعليم طبقاً للمكان الذي يعطى فيه . كانوا ينتقـدون النظام القـديم على أنه ضحل وغير عملي . لذلك اتبعوا في المساجد طريقـة « السلف الصالـح » لتعليم القرآن ، والسنة. وكانوا يدعون الى تناول عملي ومتحرر في تفسير هذين المصدرين الاسلاميين.

أما في المدارس فقد طبق العلماء طريقة سهلة وحديثة في تعليم العربية ، فقد حاولوا أن يطهروا اللغة من الدخيل والاستعمالات الهجينة . كما كانوا يعلمون القرآن

---

(100) بوكوشة ، « المعرفة » (أبريل ، 1964) ، ص 15 . افتتح النادي رسمياً بتاريخ 18 يوليو 1927 ، وحضر ابن باديس حفلة الإفتتاح وخطب فيه أحمد توفيق المدني . أنظر تفاصيل ذلك في مقال محمد العاصمي في « الشهاب » (4 أوت ، 1927) ص 8 ـ 11 . عن نادي الترقي : تاريخه ونشاطه وأهدافه أنظر (تقويم المنصور) لأحمد توفيق المدني ، السنة الخامسة ، (1348 ـ هـ 1929) ص 294 ـ 303 .

(101) ديبارمي ، « الوطنية في مدرسة الأهالي » في « أ . ف . » (أبريل ، 1935) ، ص 229 ـ 230 ، وساراسان، ص 172 . أنظر أيضاً أ . بيرك « أسرى القداسة : المرابطون والعلماء » في « ر . م . » ، (جويليه ـ أوت ، 1951) ، 426 ـ 427 .

في هذه المدارس ، ولكن بتفسير حديث . وأما التعليم في النوادي الثقافية فقد كان العلماء يهدفون منه إلى التربية على الشجاعة، والخطابة، والنظرة العملية. وكانت كتبهم المقررة تختار لفائدتها ، وسهولتها ، وحداثتها . وكان الطلاب يعلمون أفضل الطرق في البحث ، وقراءة التاريخ ، والأدب ، وعلم الاجتماع ، وتراجم أولئك الذين ساهموا في التراث الانساني[102].

ومن المساهمات الهامة التي قام بها العلماء خلال العشرينات خلق وبعث التاريخ الوطني . فبفضلهم نشر الماضي الجزائري وعرفه الطلاب ، وكانوا يدعون الجزائريين إلى اليقظة من سباتهم الطويل[103] . وفي نفس الوقت أدخل العلماء تدريس تاريخ العرب الحديث إلى الجزائر . كانوا يعلمون طلابهم أن جميع سكان أفريقيا الشمالية من أصل عربي . وكانوا ينشرون القول بأن العرب هم الذين اكتشفوا أمريكا وأنهم كانوا أول من حاول الطيران . وكانوا يمجدون الفتوحات ويتذكرون بحزن وشوق انجازات المسلمين في العصر الذهبي للاسلام . وكان العلماء يشعرون بتأخر الجزائريين بالمقارنة إلى الانجازات الأوروبية العلمية ، ولكنهم كانوا يدعون إلى العودة إلى القرآن ، الذي يقولون انه يحتوي على مفتاح التقدم وانه يحث جميع المسلمين على الاكتشاف والبحث[104] .

وفي هذا الصدد فإن ظهور مبارك الميلي كأول مؤرخ جزائري حديث لم يكن محل استغراب . والميلي ، الذي كان هو نفسه تلميذ ابن باديس ، قد حاول أن يعيد كتابة تاريخ الجزائر على أساس وطني . وقد ظهر الجزء الأول من كتابه (تاريخ الجزائر في القديم والحديث) سنة 1928[105] . وباعتبار الميلي عضواً من العلماء ، فقد ركز على فكرتي الإصلاح والوطنية في تاريخه. وقد أهدى كتابه إلى

---

(102) الابراهيمي ، « السجل » ، ص 57 ـ 60 .

(103) ديبارمي ، « ميلاد » في (جويليه ، 1933) ، ص 387 ـ 388 .

(104) ديبارمي ، « تايخ العرب والعلماء الجزائريون » في « أ. ف» (ماي ، 1934) ، ص 274 ـ 281 .

(105) ظهر الجزء الثاني سنة 1932 . وأنهى الميلي كتابه بالقرن السادس عشر . ورغم أنه عاش الى سنة 1943 فإنه لم يصل بكتابه الى العصر الحاضر . غير أن ابنه ، محمد الميلي ، قد أكمله بعد استقلال الجزائر باصداره الجزء الثالث مبنياً على ما وجده من مخطط وأوراق والده .

شعب الجزائر خاصة والمغرب العربي عامة ، بالاضافة إلى « الشباب المفكر ورجال العمل » في المنطقة .

يعرف الميلي التاريخ بأنه « مرآة الماضي ، ومصعد الحاضر ، وشهادة حياة الأمة ، وسجل أعمالها الشريف ، وتذكار عبقريتها ، ورباط وحدتها ، وميزان تقدمها » . وقد تأسف على أن الجزائريين في وقته كانوا يجهلون كل شيء عن تاريخهم ، بينما كانوا يعرفون الكثير عن تاريخ البلاد الأجنبية . وتأسف أيضاً على أن بعض الجزائريين كانوا ينظرون إلى تاريخ بلادهم على أنه قائمة أسماء ما قبل التاريخ ، واعتبروا أجدادهم وحوشاً ، ولكنهم مع ذلك يناقشون مستقبل الجزائر[106] .

كان الميلي يرى أن التاريخ يعني الجنسية والوطنية . فقد كتب قائلاً : « عندما يدرس أبناء أمة تاريخهم ، سيعرفون واقعهم ، واذن سيعرفون أن القومية الموجودة (أي القومية الفرنسية) سوف لا تبتلع قوميتهم » . وبناء على رأيه ، فان هذا الواقع التاريخ هو « فهم مجد ماضيهم ونبالة أجدادهم »[107] .

ولكن تاريخ الميلي ليس عملاً اختصاصياً . فموضوعه الرئيسي هو تمجيد الماضي الجزائري . وكان هدفه أن يظهر أن للجزائريين ، رغم الحكم الأجنبي ، تاريخاً يجب أن يكونوا فخورين به . وبناء على رأي كاتب فرنسي ، فإن الميلي قد عامل الماضي كذكريات من « الشهامة الوطنية » ، التي قد تساعد ، اذا بعثْت، على أن تجعل الجزائريين ينهضون من حالتهم التى يرثى لها . وإذن فإن هدف هذا التاريخ كان سياسياً ووطنياً[108] . ولكن الجزائريين استقبلوا عمل الميلي باعجاب . فقد اعتبر بعضهم الميلي المؤرخ الذي بعث الأمة الجزائرية[109] . وقد كتبت جريدة « النجاح » (2 أكتوبر ، 1932) أن مؤرخي الجزائر الجديدة « نفضوا الغبار عن

---

(106) ديبارمي « ميلاد » في «أ. ف. » (جويليه 1933)، ص 388 .

(107) نص على ذلك نوشي ، ص 67 .

(108) ديبارمي ، « ميلاد » في « أ. ف. » (حويليه ، 1933) ص 388 .

(109) علي المغربي «السجل»، ص 185. وقد احتفل الجزائريون بصدور الجزء التاني من كتاب الميلي. وقد عثرنا في أوراق أحد علماء قسنطينة على دعوة له لحضور حفلة تكريم أقامتها الجمعية الخيرية للمؤلف هناك وتاريخ الحفلة هو 9 يوليو ، 1932

تاريخ أجدادنا . . وبعثوا الحياة في بقايا أجدادنا لكي يجعلوهم يخبروننا بأنفسهم عن ماضيهم العظيم والمجيد(110) » .

وقد شن العلماء أيضاً حملة على المستوى الاجتماعي لم تكن أقل أهمية من الحملة التعليمية والثقافية . فطيلة العشرينات بادر العلماء أو شاركوا بآرائهم في عدد من القضايا التي شغلت الحياة الجزائرية عدة سنوات . وهذه القضايا تضم التجنيس ، والمرابطية والتمثيل النيابي ، والاحتفال الفرنسي بالاحتلال المئوي ، والقوانين الاستثنائية ، وما شابه ذلك . ولعله من المناسب أن نتتبع باختصار موقف العلماء من هذه القضايا خلال عقد من أدق العقود حرجاً في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية .

وأهم قضية عارضها العلماء بشدة هي المرابطية . كانوا يعتبرون الجمعيات الطرقية معارضة للدين والتقدم . وبناء على رأي أحد العلماء ، فإن المرابطية جاءت نتيجة لتدهور الاسلام وانتشار الغموض . وكان زعماء الجمعيات الطرقية قد اتهموا بجهل القرآن ، واستغلال الشعب وخدمة الاستعمار . فقد كتب الابراهيمي ذات مرة قائلاً : « انّ المرابطية هي الاستعمار في معناه الحديث المكشوف ، وهي الاستعباد في صورته الفظيعة(111) » . لذلك أعلن العلماء الحرب على المرابطية تحت راية « لا غموض في الإسلام » لأنها « هي سبب الفساد والأمراض » والانحراف الديني ، والجهل ، والاهمال في الحياة ، والالحاد بين الشباب(112) » . ولهذا السبب عارضوا الموسيقى الصوفية ، والرقص في الاحتفالات الدينية ، وزيارة القبور ، والزنا ، وهدايا النقود إلى رؤساء الجمعيات الطرقية(113) .

وفي نفس الوقت هاجم العلماء بقوة محاولة فرنسا تجنيس الجزائريين . فقد كانوا ينظرون إلى التجنيس على أنه خطة فرنسية لمحو الاسلام وعروبة الجزائر . وكان أولئك الجزائريون الذين قبلوا التجنيس غالباً محل سخرية وشفقة من العلماء . فقد نشرت « لافوادي هامبل » (4 سبتمبر 1930) شكوى من رئيس جمعية

---

(110) أشار الى ذلك ديبارمي ، في ميلاد « أ.ف. » (جويليه 1933) ، ص 388 .

(111) الابراهيمي « السجل » ، ص 26 ـ 27 .

(112) نفس المصدر ، ص 31 ـ 54 .

(113) نفس المصدر ، ص 61 ، 67 ، وساراسان ، ص 118 .

الجزائريين المتجنسين تخص الحالة التي كان يعيشها أعضاء الجمعية . وقد أصر على أن المجتمع الفرنسي كان يرفضهم « بسبب التمييز العنصري » بينما كان يعتبرهم الجزائريون « ملعونين » وطبقة خارج المجتمع[114] .

وقد اغتنم العلماء فرصة هذا الضعف ، وهاجموا في « الشهاب » (أكتوبر 1930) المتجنسين ناظرين إلى شكواهم السابقة على أنها دليل على « الستار الذي يخفي الحقيقة علينا » ، أي أن التجنيس لم يكن شيئاً حميداً للجزائريين . وهناك جريدة اصلاحية أخرى ، وهي « المغرب » (23 ديسمبر 1930) قد أجابت أيضاً تلك الطبقة الجزائرية الخارجة عن المجتمع . وبناء على رأي هذه الجريدة ، فأن الجزائريين كانوا فخورين بتراثهم الاسلامي . وقد هاجمت أولئك الذين كانوا « يسبحون بحمد أوروبا[115] » .

أما بخصوص قضية التمثيل النيابي ، فإن العلماء قد أيدوا الفكرة القائلة ان الجزائريين يجب أن يكونوا ممثلين بكفاية وبفعالية في كامل المجالس ، بما في ذلك المجلس الوطني الفرنسي . وقد كان ذلك بالطبع أبعد مما يأذن به اصلاح سنة 1919 . ومن جهة أخرى بينما كان الليبراليون يؤمنون بأن الجزائريين المتجنسين فقط هم الأهل للتصويت ، أصر العلماء على أن كل جزائري يجب أن يكون له حق التصويت . وفي النهاية غير الليبراليون كما سبقت الاشارة ، وجهة نظرهم وأيدوا فكرة العلماء ، التي كانت في نفس الوقت فكرة نجم أفريقيا الشمالية[116] .

ان العلماء قد أعطوا أهمية خاصة لتعليم وحماية الشباب الجزائري . فقد اصطدموا ، باعتبارهم رجال دين واصلاح ،بانتشار الالحاد بين الشباب . وبناء على وجهة نظرهم ، فإن الالحاد قد انتشر نظراً للتعليم المادي ، والمرابطية ، وتقليد الفرنسيين الأعمى ، واهمال الآباء ، وسياسة الفرنسيين القائمة على التفرقة . كان العلماء يعتبرون الشباب « عصارة الأمة » ، ولذلك أخذوا على عاتقهم « حمايته » من

---

(114) أشار الى ذلك ديبارمي ، « المقاومة » في أ. ف. (ماي، 1933) ص 267 .

(115) نفس المصدر ، ص 267 ـ 268 . صاحب جريدة (المغرب) عندئذ هو الصحفي الشاعر أبو اليقظان ابراهيم بن الحاج عيسى .

(116) مارسيل لارنود ، « الجزائر » في « أ.ف.» (ديسمبر ، 1928) ، 526 . ويشير المؤلف الى رأي العلماء عن التمثيل النيابي من مجلة « الشهاب» .

السقوط في الالحاد واللامبالاة ، عن طريق التعليم الديني ـ العربي والبرامج الإجتماعية الإصلاحية[117] .

وقد رحب الجيل الجزائري الجديد ، من جهته بأفكار العلماء . فأعجب بتفسيرهم الليبرالي للدين وثورتهم على الخرافات وغيرها من الإعتقادات المتأخرة . وما دام هذا الجيل يشترك معهم في الحلم بخلق مجتمع جديد ، فانه قد انجذب إلى تناولهم التقدمي للمشاكل الإجتماعية التي كانتِ تواجه الجزائر في ذلك الوقت[118] .

أما رد فعل العلماء على احتفالات الفرنسيين بإحتلال الجزائر ، فقد سبق أن أشرنا اليه . فعشية هذا الحدث ، دعت صحافة العلماء « نخبة الأمة » إلى اليقظة وانقاذ شعبهم ، « الذي تسير بقصته الحزينة الركبان في كل مكان » . واستنفرتهم إلى أن يظهروا للعالم « انكم قادرون على تكوين كتلة من الوطنيين للدفاع عن وجود الأمة[119] » . ونفس الصحافة أطلقت على الاحتفالات اسم « مهازل » سنة 1930 ورددت العبارة القائلة ان الفرنسيين « لن يحتلفوا بثاني » عيدهم[120] .

ولا شك أن مساهمة العلماء في الحركة الوطنية الجزائرية ، خلال عقد ، كانت عظيمة .

أولاً : لقد أعطوا للشعب الجزائري فكرة الاستمرار ببعثهم وتركيزهم على بعض القيم الإجتماعية والثقافية التي لولاهم لكانت في طي النسيان .

ثانياً : انهم كافحوا ضد الأمية وأعطوا كثيراً من وقتهم وطاقتهم لتحقيق برنامج عن التعليم الوطني ، الذي أساء الفرنسيون معاملته .

ثالثاً : انهم شنوا حملة بلا مساومة ضد المرابطية ، والخرافات ، والإستغلال للجماهير باسم الدين من الجمعيات الطرقية التي كانت عادة مؤيدة من فرنسا .

---

(117) الابراهيمي ، « السجل » ص 62 ـ 64 .

(118) ساراسان ، ص 118 .

(119) أشار الى ذلك ديبارمي ، «المقاومة» في « أ. ف. » (ماي ، 1933) ، ص 265 نقلاً عن جريدة « المغرب » (23 جوان ، 1930) .

(120) ديبارمي ، « مساهمة » في « أ. ف. » (جويليه ، 1937) ، ص 355 .

رابعاً : أنهم بدعوتهم إلى التفسير الديني والتقدمي للمصادر الإسلامية ، قد مهدوا الطريق أمام الوطنيين الآخرين ، ومن أجل الملاءمة بين الوطنية في مفهومها الحديث وبين الأفكار الدينية والإجتماعية التي كانت غالباً ما اعتبرت عقبات في طريق نجاح الوطنية .

خامساً : ان العلماء أعلنوا « جزأرة » الشعب بخلق أو بعث تاريخ الجزائر الوطني ، وأدبها ، وتعليمها واتجاها .

وبالمقارنة إلى الأحزاب السياسية، كان للعلماء الخاصة المتميزة. ولكنهم كانوا، إلى سنة 1931 ، بلا منظمة تمثل برنامجهم وتقرر اتجاههم . ان العلماء لم يكونوا لا ثوريين مثل أصحاب نجم أفريقية الشمالية ، ولا موالين للفرنسيين مثل الليبراليين ، (النخبة) . لقد كانوا قبل كل شيء مصلحين وطنيين . فأيدوا تعليم المرأة ، ولكن رأيهم عن وضعها الاجتماعي قد بقي محافظاً وغير واضح . وكانوا في صالح الأفكار الأوروبية ، ولكنهم قد أعطوا الأولوية للتعليم العربي الإسلامي . وكانوا قد عارضوا بشدة دمج الجزائر في فرنسا ، خلافاً لموقف جماعة النخبة .

لقد وجه العلماء دعوتهم مباشرة إلى الجماهير بقطع النظر عن الطبقة الإجتماعية ، لأن برنامجهم كان يهم تقريباً كل واحد في المجتمع . أما الليبراليون فقد اعتادوا أن يحصروا أنفسهم ، بحكم تعليمهم واتجاههم ، في جماعة النخبة . ومن جهة أخرى ، فإن نجم أفريقيا الشمالية ، الذي توجه أيضاً إلى الجماهير ، كان ما يزال ، إلى سنة 1930 ، محدوداً في عدد الأعضاء ، الذين كانوا غالباً عمالاً ، ومحدوداً في ميدان النشاط الذي كان في غالب الأحيان فرنسا ، ومحدداً في الحركة لأنه كان رسمياً منحلاً منذ سنة 1929 . ومع ذلك فإن وجود هذه الإتجاهات السياسية ، والإجتماعية ، والثقافية جميعاً قد أعطى قوة دفع كبيرة للحركة الوطنية الجزائرية .

خـلاصــة

تكاد جميع الاتجاهات السياسية والايديولوجية الموجودة في الجزائر اليوم تعود الى العشرينات من هذا القرن . فقد ظهرت جماعات وأحزاب مختلفة ، من أقصى اليمين الى أقصى اليسار ، كان مقدراً لها أن تقود الحركة الوطنية الى انفصالها النهائي عن فرنسا سنة 1954 . حقاً ان الزعماء قد ماتوا أو غيروا من آرائهم ومناوراتهم ، ولكن الايديولوجيات الأساسية التي ظهرت في العشرينات قد بقيت تقريباً هي نفسها الى الوقت الحاضر.

على أن مؤسسي هذه الحركة في العقد المذكور لم يبدأوا من لا شيء . فقد كان وراءهم تراث عظيم من عهد النهضة (1900 ـ 1914) ، ومن القيم الاجتماعية والعقلية ، ثم من تجربة غنية جاءت نتيجة طريق طويلة من المحاولة والخطأ. ان زعمـاء العشرينـات قد اكتسبـوا آمالهم الـرئيسيـة من هـذا المـاضي . ولـم تكـن الايديولوجيات العالمية المحيطة بهم سوى مساعد لهم ، وليس مصدر وحي . فكثير من هؤلاء الزعماء كانوا يلتفتون الى العقود السابقة ليتذكروا حمدان خوجة وحملته ضد الوجود الفرنسي ، والأمير عبد القادر وحربـه الطويلة ، والمقـراني وبـوعمامـة ومحاولتهما التحريرية ، والنهضة وزخمها الثقافي ، وأخيـراً حرب العصـابات التي وقعت بين 1914 و 1918 وعواقبها . فالأرض التي كانت تقف عليها الحركة الوطنية كانت ، غنية جداً ، قادرة على أن توحي للزعماء الجدد أن يحددوا أهدافهم ويقيموها على قاعدة ثابتة.

ولكن عندما بدأ هؤلاء يحددون أهدافهم ، واجهوا كـل أنواع العقبـات التي وضعتها فرنسا في طريقهم . ومن النماذج المشهورة في السياسة الجـزائريـة ، أن أولئك الذين كانت لهم الشجاعة أن يعارضوا الحكم الفرنسي اما اعتقلوا واما نفوا ، وكانت منظماتهم اما حلت واما بعثرت ، وكانت صحافتهم اما منعت من الصدور واما أزعجت . فقد نفي زعيم لحزب الاصلاحي ، الأمير خالد ، من الجزائر وتخلص الفرنسيون من حزبه في الانتخابات المحلية . وكان زعيم الحـزب الثوري ، نجم أفريقيا الشمالية ، مصالي الحاج ، قد اعتقل مع أعضاء آخرين من جماعته ، وكان حزبه قد حل اعتباطـاً . أما ابن باديس ، زعيم العلماء ، فرغم أنه لم يتورط مباشرة

في السياسة ، فانه كان هدفاً لمضايقة متواصلة . ولكنه لم يعتقل ولم ينف بسبب مطالبه غير السياسية ، وبسبب خدمة والده في المجالس المحلية ، التي كانت تحت سيطرة الادارة الفرنسية ، ثم بسبب زعامته التي كادت تكون شخصية لأن العلماء لم يكن لهم منظمة رسمية إلّا سنة 1931 .

وقد كانت الصحافة الوطنية ، مثل الأحزاب السياسية وزعمائها ، تحت اضطهاد متواصل . بالإضافة إلى المراقبة النظامية ، فإن أيدي المراقبة الفرنسية قد امتدت الى منع أو حجز الصحف لا لسبب سوى أنها كانت خطيرة على أمن البلاد . وعلى هذا الأساس منعت السلطات الفرنسية الجريدة الاصلاحية « المنتقد » من الصدور . ونفس الاجراء كان قد اتخذ ضد الجريدة الوطنية « الاقدام » ، التي كانت أولاً لسان حال الحزب الاصلاحي في الجزائر وأخيراً لسان حال نجم أفريقية الشمالية في فرنسا . وقد كانت « الإقدام » قد منعت لا من الجزائر فحسب ، ولكن أيضاً من تونس والمغرب « لإثارتها للفوضى »[121] . لذلك كان من الواضح أن الوطنيين قد وضعوا حرية الصحافة ضمن مطالبهم الأساسية من فرنسا .

وكانت نتيجة هذه الحملة القمعية ضد الحركة الوطنية أن الأخيرة قد اضطرت اما أن تعمل في الخفاء وإما أن تعمل في الخارج . كان الليبراليون الموالون لفرنسا ، والعلماء الذين كانوا ما يزالون بدون منظمة رسمية والذين كانوا قد أعلنوا عدم التدخل في السياسة ، هم فقط الذين سمح لهم بالعمل جهرة على الأرض الجزائرية . أما حركة الأمير خالد فقد اضطرت في الأول الى أن تنقل مكان نشاطها الى فرنسا نفسها . ثم نفي خالد الى الشرق الأدنى ، بينما تبنى نجم أفريقيا الشمالية أفكاره الأساسية . والنجم ، الذي ولد في فرنسا ، قد اضطر الى أن يحصر نشاطه بين المهاجرين الجزائريين هناك . أما اتصاله بالشعب الجزائري فلم يسمح به الفرنسيون . ولكنه ، بالرغم من وجوده في فرنسا ، لم يسلم من مصير الحل واعتقال زعمائه .

ومن الممكن أن يلاحظ المرء أن معظم الزعماء الجزائريين خلال العشرينات

---

(121) لادري دي لاشايير ، « الدفاع عن السلام الداخلي في المغرب » في « ا.ف. » (جانفي ، 1928) ، ص 16 . أنظر أيضاً نفس المصدر (28 ماي ، 1927) ، ص 230 .

كانوا قد عاشوا خارج الجزائر أو أنهم كانوا قد تثقفوا في بلاد أخرى غير الجزائر . ان هذه الظاهرة جديرة بالملاحظة لأنها تلقي الضوء على حياة الحركة الوطنية من ناحية وعلاقتها بفرنسا من ناحية أخرى . فقد لاحظنا سابقاً أن ابن باديس ، والابراهيمي ، والعقبي ، وابن عليوة ، كانوا جميعاً قد تثقفوا بطريقة أو بأخرى خارج الجزائر . أما الأمير خالد ، زعيم الحزب الاصلاحي فقد عاش أيضاً خارج الجزائر ، واشتغل في الجيش الفرنسي ، وكان قد تثقف في الشرق الأدنى مِثل أكثر أفراد أسرته ثم في فرنسا . ومن جهة أخرى فإن زعماء نجم أفريقيا الشمالية قد عاشوا أيضاً نفس التجربة ، لأن معظمهم كانوا من الجنود السابقين والعمال ، الذين بقوا في فرنسا ، بعد انتهاء عملهم العسكري . ان هذه الظاهرة تدل على حقيقتين هامتين احداهما : ان الجزائريين لم يجدوا لا التعليم ولا الحرية في وطنهم . وثانيهما ، أن فرنسا كانت دائماً متشككة في الجزائريين « الخارجين » الذين لم يتثقفوا عندها.

لكن هؤلاء « الخارجين » لم يأتوا معهم بأيديولوجيات غريبة الى المجتمع الجزائري . فقد كانوا واعين لقيمة ما تعلموا في الخارج وما ورثوه في وطنهم . لذلك كانت رسالتهم ، على المستوى الاجتماعي ، هي الاصلاح وليس الثورة . فقد أخذوا في اعتبارهم الوضع الاجتماعي الثقافي والسياسي الخاص في الجزائر . فالعلماء نادوا ببعث ، وتطهير ، وعقلنة تفسير التراث الوطني ، ولكنهم لم يرفضوه أو ينتقدوه على أساس ايديولوجي . ونفس الموقف اتخذه الحزب الاصلاحي ، ونجم أفريقيا الشمالية الثوري . مثلاً ، ان الأخير قد رفض الايديولوجيات الأجنبية بدون تعديل ينسجم مع الأوضاع المحلية . وقد قبل النجم موقف العلماء بشأن الاصلاح الاجتماعي . وفي الثلاثينات أصبح النجم بطل فكرة القومية العربية ، والجامعة الاسلامية ، بالإضافة الى الوطنية ، مثله في ذلك مثل العلماء . ولكن النجم قد أدخل الفكرة الاشتراكية الى الجزائر باعتبارها العلاج الوحيد ضد تسلط الكولون خاصة .

ومن الظواهر الهامة للحركة الوطنية الجزائرية خلال هذا العهد أنها تطورت تدريجياً من الاعتدال إلى الثورية . فبعد الحرب بدأت الحركة تتحدى فرنسا مباشرة باصرارها على الاصلاح . وكانت هذه الخطوة قد اتخذت لاقناع الفرنسيين أن التعويض عن مشاركة الجزائريين في الحرب مع فرنسا كان الثمن الوحيد الذي يرضي الوطنيين .

ومع ذلك فان هذه الخطوة لم تؤخذ باسم الوطنية بل لأسباب انسانية وديموقراطية. ونتيجة لذلك ، فإن أولئك الذين كانوا يلحون من أجل الاصلاح لم يطالبوا بفصل الجزائر عن فرنسا ، ولكن بمساواة أهلها بالفرنسيين . وقد طالب الليبراليون ، والاصلاحيون ، والعلماء ، بدرجات مختلفة ، بالمساواة مع الفرنسيين . ولكن عندما فشلت هذه المرحلة في حوالي منتصف عقد العشرينات ، رفع نجم أفريقيا الشمالية ثم العلماء راية انفصال الجزائر عن فرنسا . فبحلول سنة 1930 حلت الحملة الثورية والانفصالية محل الاعتدال والمساواة.

والظاهرة الأخرى ، الجديرة بالملاحظة هي غياب أي ثورة عسكرية ، خلال العشرينات كتلك التي طبعت تاريخ المقاومة الجزائرية لفرنسا منذ 1830 . وكان آخر هذه النشاطات العسكرية قد انتهى سنة 1919 . ويبدو أن الجزائريين عندئذ قد فهموا أن التنظيم السياسي ، ونشر التعليم ، وايقاظ الجماهير كانت أفضل بديل عن النشاط العسكري في مفهومه القديم ، فقد تعلموا من الأحزاب السياسية الأوروبية لعبة المساومة ، والمناورة ، وتكتيك المنظمات الجماهيرية المنظمة باحكام ، بدلاً من ثورات عسكرية غير ناضجة وسيئة التنظيم ، يقودها في العادة مرابطون وشخصيات منعزلة . وفي هذا الخصوص لا شك أن عطف بعض الأحزاب السياسية الأوروبية على الحركة الوطنية الجزائرية قد ساعد أيضاً على توجيه هذه الأخيرة نحو المقاومة السياسية ، لأن الحركة الوطنية لم تعد في حالة يأس كما كانت في الماضي . وقد سخر هؤلاء الأوروبيون العاطفون صحافتهم ونوابهم ، ومحاميهم للدفاع عن الوطنيين وقضيتهم.

وقد لاحظنا في مناسبات مختلفة أن مطالب الحركة الوطنية في العشرينات لم تكن تختلف كثيراً عن مطالب العقود السابقة . ان الذين سيحكمون بجدة هذه المطالب هم فقط أولئك الذين يغضون النظر عن نشاطات ما قبل الحرب . بل حتى المطالبة بالاستقلال وجلاء القوات الفرنسية عن الجزائر لم تكن ظاهرة خاصة بالعشرينات . فالواقع أن الذي طالب بذلك أولاً هو حمدان خوجة وأنصاره . ثم طالب به الأمير عبد القادر وغيره من الزعماء الذين رفعوا السلاح ضد فرنسا . كما أن المطالب الأخرى ، مثل الغاء الاجراءات الاستثنائية ، والمساواة أمام القانون ، وحرية التعبير والتعليم كانت في أعلى القوائم التي تقدمت بها الوفود والشخصيات

الجزائرية الى جول فيري ، وكليمانصو ، وبوانكاريه ، وغيرهم.

ولكن الجديد خلال عقد العشرينات كان المتحدث باسم تلك المطالب . ففي الماضي كان هذا المتحدث شخصاً أو جماعة ، عادة كانت خاضعة للادارة الفرنسية . أما في العشرينات فان المطالب الوطنية كانت تقدم الى الفرنسيين ليس فقط من أشخاص أو وفود ، ولكن أيضاً من منظمات كانت تماماً مستقلة عن الادارة ومستعدة للضغط وللتحدي ، وللدفاع عما تعتبره مطالب شرعية.

وسواء كانت الأحزاب السياسية والمنظمات الاجتماعية الجزائرية معتدلة أو متطرفة ، فان جميعها قد شعر بصدمة من جراء الاحتفالات بمرور مائة سنة على الاحتلال الفرنسي للجزائر ، سنة 1930 . وكانوا جميعاً قد استنتجوا من ذلك عدة نتائج . ولكن وقع هذا الحادث على الحركة الوطنية يخص عهداً آخر ، لا يدخل في نطاق هذا الكتاب . على أن رد الفعل الجزائري عندئذ كان حاضراً . فبعد خلق فيدراليتهم ، ونتيجة لهجوم نجم أفريقيا الشمالية عليهم ، تحول الليبراليون نحو برنامج اصلاحي يعتبر أكثر رادكالية من برنامجهم السابق . وفي سنة 1930 أرسلوا وفداً الى باريس برئاسة الدكتور ابن جلول ليضغط من أجل الاصلاح ، ولكن شوطان ، الذي كان عندئذ وزيراً للداخلية ، رفض مقابلة الوفد[122] . وقد تعلم الليبراليون من هذه الصفعة أن الوقت قد حان للعمل الموحد والتحول نحو الوسط على الأقل . وفي الحقيقة أن ظهور ابن جلول ، الذي أصبح زعيم الليبراليين خلال الثلاثينات ، يرجع الى رحلته الفاشلة الى فرنسا . وبعد سنة واحدة نشر فرحات عباس ، أحد زعماء الليبراليين المستقلين ، كتابه « الشاب الجزائري » الذي أثار كثيراً من الجدل.

ورغم أن نجم أفريقيا الشمالية كان رسمياً منحلاً ، فانه قد عارض بكل قوة الاحتفال بالاحتلال ، وضاعف من نشاطاته السرية . ففي سنة 1930 خلق جريدة « الأمة » التي كانت من أكثر الصحف تأثيراً كما أن اسمها كان يدل على برنامج كامل . وخلال أقل من سنتين بعد ذلك أعاد تنظيم نفسه تحت اسم « نجم أفريقيا

(122) فافرو ، ص 67 .

الشمالية المجيد » الذي أصبح منذ فاتح سنة 1937 يسمى « حزب الشعب الجزائري ».

أما العلماء فقد أطلقوا ، من جهتهم ، على الاحتفال الفرنسي اسم « مهازل » سنة 1930 . وبعد أن استنكروا هذا الحادث ، بدأوا في تنظيم أنفسهم في جمعية محددة ورسمية . وقد نجحوا سنة 1931 في خلق منظمتهم الخاصة التي كان مقدراً لها أن تؤثر على حياة الثقافة الجزائرية لعدة عقود.

وهكذا فان سنة 1930 كانت هامة لعواقبها بعيدة المدى على الحركة الوطنية الجزائرية . ولكن دراسة هذه العواقب تعتبر خارجة عن نطاق هذا الكتاب .

الخاتمة

بعد أن وصلنا إلى هذه النقطة من الكتاب ، يجب أن نقف قليلاً للنظر في بعض القضايا . لقد اخترنا الفترة 1900 ـ 1930 ، لأنها غالباً ما كانت مهملة . فرغم ادعاء بعض المؤرخين أن الجزائر كانت هادئة وراضية خلال هذه الفترة ، فقد أصبح واضحاً أنها كانت تعيش ثقافياً نهضة نشيطة نسبياً ، وتعيش سياسياً في زخم كبير . فسنة 1900 سجلت انتصار المتطرفين المؤيدين للجزائر « الفرنسية » ، الذين احتفلوا اذ ذاك بالنظام المعروف « بالحكم الذاتي المالي » للكولون . أما سنة 1930 فقد سجلت فشل الجزائريين المنادين بالمساواة وظهور الانفصاليين الذين كانوا مشجعين بالصدمات ، والخيبات التي تقلوها في العقود السابقة وشعروا بالإهانة البالغة من جراء الإحتفال المئوي بالإحتلال .

ولكن قضية المساواة مع الفرنسيين قد قادت بعض الكتاب إلى أن يزعموا أن الجزائريين لم يكونوا « وطنيين » عندما طالبوا بذلك من فرنسا .

ولكن هذا الزعم مضلل ، لأنه يتجاهل عاملين هامين :

1 ـ ملامح الحكم الفرنسي .

2 ـ معنى المساواة التي نادى بها الجزائريون .

بخصوص النقطة الأولى ، يجب أن يتذكر المرء أن الجزائر قد أعلنت ، بقانون الحاق اعتباطي ، مقاطعة من فرنسا ، وليست محمية ، أو حتى مستعمرة . فقانون سنة 1865 المعروف بساناتوس ـ كونسولت قد جعل الجزائريين رعايا فرنسيين ، وليسوا مواطنين . وبالإضافة إلى ذلك ، فإنهم كانوا خاضعين ، منذ السبعينات من القرن الماضي ، إلى قوانين استثنائية تعرف في مجموعها بإسم « قانون الأهالي » .

وإذا كان الجزائريون قد التجأوا إلى السلاح خلال القرن التاسع عشر ، فانهم بحلول سنة 1900 لم يعودوا قادرين على أن يفعلوا ذلك للأسباب الآتية :

1 ـ مضي سبعين سنة من العزلة ، والبعثرة ، واضطهاد المقدسات الوطنية .

2 ـ مضاعفة وتدعيم الاستعمار منذ السبعينات من القرن الماضي .

3 ـ حضور أكثر من نصف مليون معمر (كولون) .

4 ـ زيادة الجيش الفرنسي بعد أن أصبحت الجزائر قاعدة للتوسع الفرنسي في شمال وغرب أفريقيا .

5 ـ عدم وجود قيادة وطنية مثقفة نتيجة لإضطهاد النظم الجزائرية .

6 ـ غياب أية قوة دولية ثالثة لمزاحمة فرنسا ومنافستها على الظفر بالجزائريين ايديولوجياً ، أو سياسياً ، أوغيرذلك .

وأمام هذه الحالة ، كان لدى الجزائريين أربع امكانيات لمقاومة الحكم الفرنسي :

(أ) رفع السلاح ، ولكن هذا كان غير ممكن طبيعياً وسياسياً (رغم وقوع بعض الثورات) .

(ب) الهجرة ، وقد فعل بعضهم ذلك .

(جـ) الانغماس في الغموض (المرابطية) ، والقدرية ، والعزلة ، وقد فعل بعضهم ذلك أيضاً .

(د) المطالبة بالمساواة مع الفرنسيين .

وخلال هذا العهد نجد ان حركة وطنية انفصالية قائمة على المعارضة السياسية كانت غير ممكنة اطلاقاً تحت الأوضاع التي وصفناها سابقاً . وعندما طالب الجزائريون بالمساواة ، فعلوا ذلك في الحقيقة لكي يسلحوا أنفسهم ضد قانون الأهالي . فالمساواة في الواقع كانت وسيلة لتحقيق بعض الأهداف السياسية التي كان الحصول عليها غير ممكن بدون ذلك .

وفي هذا الاطار طالب أعضاء النخبة الجزائريون بالإندماج لكي ينالوا الحقوق السياسية الكاملة كمواطنين. ولكنهم أصروا على أن هذا المطلب يجب أن يتحقق بدون شرط ـ أي بدون أن يطلب منهم التخلي عن أحوالهم الشخصية كمسلمين ، كما كان ينص القانون الفرنسي . وبرفض جماعة النخبة تعديل موقفهم إزاء هذه

القضية الحيوية ، كانوا في الحقيقة «وطنيين » أقوياء ، لأن الإحتفاظ بأحوالهم الشخصية كان يعني ، قبل كل شيء ، المحافظة على « الكيان الجزائري » . وقد فهم المشرعون الفرنسيون هذا التناقض ، ورفضوا رفع اشتراط التخلي عن الأحوال الشخصية الإسلامية كشرط مسبق للإندماج .

ورغم أن الكتاب المعاصرين يؤرخون للحركة الوطنية الجزائرية ابتداء من عقود متأخرة ، فإن هذه الدراسة ، قد أظهرت أن الحركة الوطنية ترجع الى الثلاثينات من القرن الماضي . فهؤلاء الكتاب لم يتجاهلوا فقط حركة حمدان خوجة ، ودور الأدب الشعبي والجمعيات الإخوانية ، والمقاومة النموذجية للأمير عبد القادر والفلاحين ، وعدم الاستقرار الدائم ، ولكنهم أيضاً أهملوا العهد الذي أطلقنا عليه في هذا الكتاب حقبة النهضة . وفي نفس الوقت أهمل هؤلاء الكتاب وضع الحركة الوطنية الجزائرية خلال الحرب العالمية الأولى ، بالإضافة إلى دور الأحزاب السياسية والمنظمات الإجتماعية خلال العشرينات .

وهناك شكلان من أشكال الحركة الوطنية الجزائرية تناولتهما هذه الدراسة فالأول عولج بإختصار في الفصل التمهيدي . وقد سمي بالشكل القديم ، الذي كان قد تميز (باستثناء حركة حمدان خوجة) بتصور محلي للمحافظة على الذات ، مستعملاً السلاح العسكري والنظم الغامضة لمعارضة الحكم الفرنسي . كما كانت الهجرة إلى الخارج ميزة أخرى من هذا الشكل . ولكن بآخر القرن الماضي ولدت حركة جزائرية شابة نتيجة لظهور طبقة مثقفة بالفرنسية (النخبة) وليقظة بعض المثقفين المحافظين (العلماء) . وقد أدى هذا إلى ميلاد وطنية جديدة قائمة على التصور الأوروبي للتنظيم السياسي ، والإنضباط ، والضغط الإجتماعي . وتميز هذا الشكل بنهضة ثقافية ـ سياسية أوقفتها الحرب ، ولكنها أستأنفت نشاطها سنة 1919 . ومن الممكن أن نقول أن هذه الدراسة تركز على الشكل الثاني من الحركة الوطنية الجزائرية ، الذي لعب خلاله كل من العلماء والنخبة دوراً هاماً .

ورغم أصالتها ، فإن الحركة الوطنية الجزائرية كانت قد تأثرت بايديولوجيات مختلفة ، بما في ذلك حركة الجامعة الإسلامية ، والشيوعية ، والإشتراكية ، والديموقراطية . فكل من هذه المذاهب قد جذب إليه الجزائريين بطريقة أو بأخرى لكي يشكلوا آراءهم عن كيفية مقاومة الحكم الفرنسي . ولكن دور هذه

الايديولوجيات لم يكن حاسماً . غير أنها قد أمدت الجزائريين بعوض يخفف عنهم من الضغط الإستعماري وذلك بمنحهم درعاً ايديولوجياً .

ان مؤرخ حركة الجامعة الإسلامية والقومية العربية يمكنه أن يجد أصول الحركتين في الجزائر ، فهذه ، باعتبارها جزءاً من العالم الإسلامي والعربي ، كانت أول جزء تحتله أمة أوروبية ، ونتيجة لذلك ، فإن الجزائريين كانوا أول من نادى بالوحدة وبالتضامن العربي الإسلامي . ويمكننا أن نقول أن حمدان خوجة يعتبر رائد الوطنية بمفهومها الحديث في العالم العربي ـ الإسلامي . وفي هذا المجال لا بد أن ننوه بالمساهمة الهامة التي قام بها الأمير عبد القادر ، وابن الموهوب ، وابن باديس في حركتي القومية العربية والجامعة الإسلامية . ولكن نتيجة لإعتبارات استعمارية وقلة المعلومات ، فإن دور الجزائريين في هاتين الحركتين قد أهمله الكتاب .

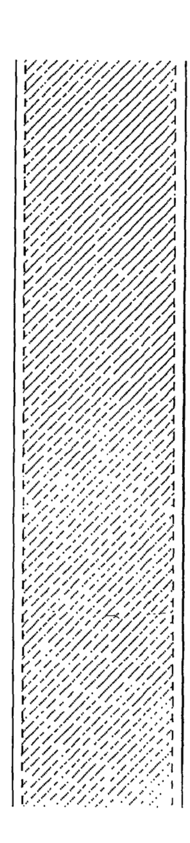
هناك اتجاه بين الكتاب الفرنسيين اليوم . يتبناه بعض الجزائريين أيضاً ، يضع اللوم على سوء التصرف الفرنسي في الجزائر، على كاهل الكولون فقط. ولا يستطيع أحد أن ينكر أن هؤلاء كان بأيديهم قوة هامة باعتبارهم جماعة ضاغطة ، ولكن مسؤولية فشل السياسة الإستعمارية في الجزائر يجب أن توضع على كاهل الفرنسيين الآخرين أيضاً ، فهم الذين كانوا ، بإعتبارهم قواداً عسكريين ورجال دولة ، مسؤولين على الإحتلال ، والاستعمار ، وسن قانون الأهالي ، والخ . كما أن الرأي العام الفرنسي قد فشل أيضاً في اتخاذ موقف ضد هذه الحالة . ولم يكن هناك سوى جماعة صغيرة من الإنسانيين ذوي الضمائر الحية ، ومن أعضاء المجلس الوطني ، ومن الصحفيين ، أعلنوا معارضتهم لذلك الوضع .

والفرنسيون « المنتصرون » كما يسمون أنفسهم ، قد أعلنوا ، عشية ظهور الحركة الوطنية الجزائرية كظاهرة عالمية ، أن الجزائر « جزء مكمل » لفرنسا وجعلوا همهم الدائب وقف تيار هذه الحركة . وهكذا أنكروا وجود الأمة الجزائرية قبل وبعد الإحتلال ، وقضوا على حركة المقاومة ونفوا زعماءها ، كما قضوا بدون رحمة على الثورات العسكرية وأطلقوا على زعمائها اسم المجرمين وعملاء الدول الأجنبية ، وبعثروا الجمعيات الاخوانية والمنظمات الإجتماعية وأبقوها مشغولة ببعضها مطبقين نحوها مبدأ « فرق تسد » ، واضطهدوا الثقافة الوطنية .

ونفس المصير قد لحق الحركة الوطنية خلال العشرينات . فبإستعمال نظام

الاحتجاز السري (ليتردي كاشي) ، وقانون الأهالي ، أجبر الفرنسيون هذه الحركة أن تعمل خفية أو تهاجر مرة واحدة من البلاد . وهكذا قمعوا حزب الأمير خالد ونفوه هو شخصياً ، وحلوا نجم أفريقيا الشمالية واعتقلوا وحاكموا زعماءه ، ومنعوا جرائد العلماء وضايقوا ابن باديس نفسه . ولعلها حقيقة هامة بالنسبة للمؤرخ وهي أن كل زعماء الحركة الوطنية الجزائرية تقريباً كانوا قد تثقفوا خارج وطنهم ، وان كلهم تقريباً ، كانوا قد نفوا ، أو اعتقلوا ، أو كانوا هدفاً للمضايقة .

ان حوادث سنة 1930 ، وخلق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931 ، وإعادة تنظيم نجم أفريقيا الشمالية بإسم حزب الشعب الجزائري سنة 1937 ، ومجيء الجبهة الشعبية ، قد أدى الى ميلاد مرحلة ثالثة في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية . ولعل هذه المرحلة ستكون موضوعاً هاماً لبحث جديد .



الملاحق

ملحق (1)
بيان فرنسا إلى الجزائريين عشية الإحتلال سنة1830

إلى القضاة ، والعلية ، والعلماء ، وشرفاء المشايخ ، ومشاهير الناس المحترمين . . أن ملك فرنسا ، قد عينني (كونت دي برمونت) قائداً أعلى . . أن الباشا (الداي حسين) ، حاكمكم ، قد أهان علم فرنسا الجدير بكل احترام ، وبسبب هذا الفعل غير الحكيم قد تسبب في أن تعانوا كل أنواع المصائب والمصاعب ، بما في ذلك الحرب معنا . . (ولذلك) ، فإنه من الضروري أن الباشا يلاقي المصير الذي يستحقه لعماه ولسوء تقديره ، أنه هو الذي قد استدعى الثأر المهول على نفسه .

(ولكن) ثقوا بأني لم آت لمحاربتكم ، فابقوا راضين ومسالمين حيث أنتم . اعملوا عملكم المعتاد بثقة . اني أضمن لكم بأنه ليس منا من ينوي مضرتكم ، لا في ممتلكاتكم ولا في عائلاتكم . انني أضمن لكم أيضاً بأن بلادكم ، وأراضيكم ، ومزارعكم ، ودكاكينكم ، وكل شيء ينتمي اليكم ، صغيراً أو كبيراً سيبقى على ما هو عليه . ليس هناك من سيتدخل ، بأية وسيلة في شيء من شؤونكم . ان شؤونكم ستبقى دائماً تحت أيديكم ثقوا بوعدي .

اننا نضمن لكم أيضاً ، معطينكم وعداً شريفاً وصريحاً لا يقبل التغيير ولا التفسير ، بأن جوامعكم ومساجدكم ستكون محترمة ، فهي لن تبقى مفتوحة فقط الى العابدين كما هي الآن ولكن ستصلح أيضاً . ونضمن بأن لا أحد منا سيتدخل في شؤونكم الدينية ، لأن هدف وجودنا في بلادكم ليس لشن الحرب عليكم ولكن على مسؤولكم ، الداي . .

انه من الواضح أن هذا الباشا يخطط لتخريب بلادكم ، وممتلكاتكم ، وحياتكم . ان كل أحد يعلم أنه يريد أن يجعلكم منكوبين ، فقراء ، مضطهدين

ومتألمين . . فيا للعجب كيف أنكم غير متفطنين بأن هذا الباشا لا يسعى سوى من أجل مصالحه الخاصة .

يا أصدقاءنا . . ان الله لم يسمح للباشا الظالم أن يرتكب أفعاله السوداء الاّ لكي يجعل من سقوطه نهاية لاضطهادكم ومصاعبكم . . لذلك ، سارعوا واغتنموا (فرصة وجودنا) . افتحوا أعينكم على ضوء الرخاء والخلاص المبعوث اليكم من عند الله . اعرفوا أين تقع مصالحكم . استيقظوا لكي تتركوا الباشا وتتبعوا طريقنا ، التي ستقودكم الى الخير والسعادة . .

ولكن ، اذا اخترتم أن تحاربوا وأن تقاومونا ، فإنكم ستكونون مسؤولين على كل شيء قد يحدث لكم . وفي هذه الحالة ، لا تلومونا ، بل لوموا أنفسكم . . فإذا عارضتمونا ، فإنكم ستفنون عن آخركم[1] الخ .

(1) هذه مقتطفات من البيان الذي عنوانه « نداء الى الشعب الجزائري من القائد الأعلى للجيش الفرنسي » . وقد ظهرت الطبعة الأولى للنص العربي الأصلي ، مع ترجمة حرفية فرنسية ، في مجلة « ريفيو أفريكان » ، م 6 (1862) ، ص 147 ـ 153 .

(ونود أن يلاحظ القارىء بأن النص الذي بين يديه ليس مأخوذاً مباشرة من النص العربي ، ولكنه مترجم عن النص الانكليزي كما ظهر في الأطروحة) .

ملحق (2)
الاتفاق الجزائري الفرنسي، 5 جويليه 1830

المادة 5 :

1 ـ النص العربي :

ان الدين المحمدي سيبقى معمولاً به كما كان سابقاً . انه سيبقى على ما هو عليه ، وان حرية أهل البلاد ، مهما كانت طبقتهم ، ستبقى محترمة ، وان دين هذا الشعب ، وممتلكاته ، وتجارته ، وصناعته ، بالإضافة إلى نسائه ستبقى محترمة أيضا ، الخ .

2 ـ النص الفرنسي :

ان العمل بالدين المحمدي سيكون حراً ، وحرية السكان ، مهما كانت طبقاتهم ، ودينهم ، وممتلكاتهم ، وتجارتهم ، وصناعتهم لن تخرق ، وأن نساءهم ستحترم ، الخ[1].

---

(1) نشر النصين الأصليين ميشيل هابار، «حقائق وأكاذيب 5 جويليه، 1830» في « نوفمبر » ، م 10 (أبريل - ماي ، 1964) . أما المواد 1 ، 2 ، 3 ، 4 فإنها تناقش كيفية احتلال الفرنسيين لبعض الحصون في عاصمة الجزائر وسلامة الداي .

ملحق (3)
رسالة حمدان خوجة الى « اللجنة الافريقية » سنة 1833

(نتيجة للضغط المتواصل من حزب المقاومة بزعامة حمدان خوجة ، عينت الحكومة الفرنسية اللجنة المعروفة ، « باللجنة الافريقيـة » لكي تحقق في الوضـع بالجزائر معاينة . وقد ظن خوجة ان هذه الحركة تعني النصر لـلانسانيـة والعدل ، بالإضافة الى حرية واستقلال الجزائر ، فبعث بنسخة من كتابه « المرآة » و « مذكرة » طويلة الى أعضاء اللجنة ، وقد أضاف الى هاتين الوثيقتين الرسالة التالية أيضاً ، عبر فيها عن الأمل في أن فرنسا ستعامل الجزائر كما عاملت اليونان وبلجيكا) .

باريس في 26 اكتوبر 1833 . .

أيها السادة :

كصديق للانسانية وجزائري ، فان لدي معرفة عميقة بالمشكل الجزائـري ، وبأصول عيوبه ، وبسبب الحرب ، وبالوضع الحقيقي للبـلاد قبل وبعـد الاحتلال الفرنسي .

وبعد أن تنقلت في أوروبا ، وقدرت فضيلة الدول المتحضرة الحرة، وفائدة الصحافة ، وبعد أن أعجبت بمبادىء الكرم والانسانية التي تشكل ملامح الانسـان الفرنسي ، فاني لا أخشى أن أنبه فرنسـا الى مصالحهـا الحيويـة ، ففي المدخـل التاريخي (المرآة) ، الذي يوضع اليوم أمام الرأي العام ، شرحت الوضع الحقيقي في الجزائر ، واني سأعتبر نفسي أسعد انسان اذا كانت الأمة (الفرنسية) العظيمة ، التي أخاطبها بثقة كبيرة ، ستنظر بحب وعطف الى مواطني المنكوبين.

اذا كان ما يجري في الجزائر منذ ثلاث سنوات سيستمر ، فان الشرف الفرنسي سيكون في خطر ، ووعياً لذلك بعثت حكومة جلالة ملك الفرنسيين (لويس فيليب) لجنة تتكون من رجال شرفاء ليختبروا عن قرب الحالة معاينة . ان الانسان لينتظر من هذه اللجنة انتصار العدل والانسانية . اذن ، فاني أجرؤ على ارسال نسخة من عملي

(المرآة والمذكرة) الى هذه اللجنة ، لا ادعاء للتأثير على تقريرها وأعمالها ، ولكن لاني مقتنع تماماً بأن ملاحظاتي حول الأخطاء التي ارتكبت في الجزائر قد تساعد اللجنة على رأب الصدع ، وخصوصاً على معرفة الحقيقة .

انه من المؤلم أن نقول ، بل أكثر ايلاماً أن نفكر ، بأن الادارة الفرنسية قد وقفت ثقيلة ، كحمل من الرصاص ، على هذه البلاد (الجزائر) ، فماذا كانت النتيجة ؟ ان حاجزاً لا يمكن اجتيازه قد أقيم في الجزائر بين الشعبين اللذين لا يمكن أن يتكلما نفس اللغة ، ولا يعتنقا نفس الدين ، ولا يلبسا نفس الثياب ، ولا يمارسا نفس طريقة الحياة ، ولا يمكن اليوم استرجاع الروح التي لم تزدها سنوات العناء الا صلابة قوية .

كل شيء يحدثني بأن أعضاء هذه اللجنة ، نظراً لما اتخذوه من الوسائل لازالة الحمل عن مواطنينا المنكوبين ، متشبعون بعواطف الانصاف ، والأمانة ، والعدل الصحيح ، كل شيء يحدثني أيضاً بأن لهم قلوباً فرنسية ، وان شرفهم الوطني هو في مكان الصدارة لأفعالهم . انه لهؤلاء الأشخاص المعروفين بمشاعرهم (الانسانية) قد قمت بعملي ، وليس لأصحاب الصالونات الذين لا يشعرون بشيء والذين ليسوا تقريباً دائماً قادرين على استيعاب أي شيء .

اني حين أفكر بأن اليونانيين مدينون باستقلالهم الى الفرنسيين وان البلجيكيين مدينون بحريتهم اليهم . وان كل الشعوب الفخورة والمنكوبة قد وجدت دائماً منهم أعظم عاطفة كريمة ، فاني أهنىء نفسي على الخطوة الشريفة التي خطوتها . لا ، (أيها السادة) ، ان الجزائريين لا يستحقون أن يرمى بهم خارج المجموعة (العالمية) ، انهم جزء من العائلة الانسانية . وان الدم الذي يجري في عروقهم ، أيها السادة ، له نفس الحرارة التي في دمكم .

فهل ستشفقون على حالتهم ؟ ليس هناك أي حل سوى تغيير الوضع لاستعادة النظام وميلاد ثقة جديدة في الجزائر ، ان مساعدتكم المتنورة قد أصبحت ضرورية ، وان الجزائريين واضعون كل ثقتهم فيكم .

لذلك أرجو أن تحققوا آمالهم التي هي أيضاً آمالي[1] . (عبارات ختامية) .

---

(1) نقلها جورج ايفير « سي حمدان بن عثمان خوجة » ، في « ر. أ. » ، م 7 (1913) ، من « أرشيف حكومة الجزائر » ، ي ، 61 .

ملحق (4)
مطالب الجزائريين من فرنسا سنة 1912

(كانت الجزائر خلال الفترة 1907 ـ 1912 في شغب كبير نتيجة تخطيط الفرنسيين لتطبيق قوانين التجنيد العسكري الاجباري على الجزائريين لأول مرة . وعندما وافق المجلس الوطني الفرنسي رسمياً على قانون التجنيد ، عارضه الجزائريون بالكتابات الصحفية ، والهجرة الجماعية ، والفرار الى الجبال . وأمام هذه الحالة ، ألف زعماء الطبقة المثقفة (النخبة) وفداً وقدموا الى الحكومة الفرنسية في باريس (بياناً) طويلاً . وقد احتوى هذا البيان على المطالب الآتية :

ان قرار 3 فيفري 1912 الخاص بتطبيق قانون التجنيد العسكري الاجباري على الأهالي الجزائريين قد أثار مشاعر سخط عظيمة في كل أنحاء البلاد . انها مشاعر تهدد بالاستمرار اذا لم يوضع حد سريع للقرار الذي كان السبب في اثارتها.

وأمام هذه الحالة ، فان الأعيان الممضين أسفله ، المعبرين عن رأي الأغلبية من مواطنيهم يعتقدون أنه من المفيد أن يقوموا بتوضيح الوضع الى الحكومة (الفرنسية) في باريس وذلك باطلاعها على رغبات المسلمين (الجزائريين) الذين يشعرون بأن هذا الحمل الجديد (قانون التجنيد) الذي أضيف الى أحمال أخرى سابقة ثقيلة ، يجب أن يصحبه ، بالمقابل تحسين لأحوالهم.

وان أعضاء الوفد ، بوحي من عدد ضخم من العرائض التي كتبت في جميع أنحاء الجزائر ، وباقتناع منهم بأن جميع أبناء فرنسا يجب أن يستجيبوا ، دائماً لندائها ، يعلنون أن أهالي الجزائر مستعدون للقيام بكل واجباتهم ، كأبناء مخلصين ، نحو أم الوطن.

ولكنهم من جهة يعتبرون الأمور التالية ضرورة :

(أ) ان الخدمة العسكرية يجب أن تخفض الى سنتين (بدل ثلاث) ، على قدم المساواة مع الفرنسيين الآخرين .

(ب) أن يكون سن التجنيد واحداً وعشرين ، بدل ثمانية عشر ، لأن المجندين في هذا العمر (18) لم يتكونوا جسمياً بصفة كاملة.
(جـ) ان مقابل الخدمة يجب وقفه ، لأن العائلات (الجزائرية) ستكون فخورة أن ترى أبناءها يعملون في صفوف الجيش الفرنسي بدون تعويض مالي.

وهم ، من جهة أخرى يطالبون بالحصول على تعويض فعال ممثل في التالي :

1 ـ تغيير الاجراءات الاضطهادية.
2 ـ تمثيل نيابي جاد وكاف في المجالس الجزائرية والباريسية .
3 ـ تطبيق عادل للضرائب .
4 ـ توزيع متساو لمواد الميزانية بين العناصر المختلفة من سكان الجزائر .

1 ـ الاجراءات الاضطهادية :

ان الأهالي (الجزائريين) يخضعون بخصوص الجرائم والهجمات ، والاعتداءات لقوانين استثنائية يبدو من الواضح أنها لا تراعي القانون العام . وهكذا فان المسمى (بقانون) الأهالي قد خلق بالنسبة اليهم مخالفات خاصة لا تحكم فيها التشريعات العادية ولكن يحكم فيها رجال من النظام الاداري المحلي ، وهي حالة تشكل خرقاً لمبدأ الفصل بين السلطات.

ومن جهة أخرى فإن الأهالي يشكون من المحاكم المسماة بالرادعة ومحاكم الجنايات التي لا تضمن طريقتها التحقيقات العادية . ودعنا نلاحظ ان هذه القوانين والمحاكم الاستثنائية ليس لها أصل في عهد الاحتلال . لقد خلقت فقط منذ سنة 1881 (قانون الأهالي) وسنة 1903 (المحاكم الرادعة والمحاكم الجنائية).

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن هناك عقوبة خاصة (لا) تطبق (الا) على الأهالي ، وهي الاحتجاز السري (ليتر دي كاشي) الذي لم ينص عليه أي قانون (شرعي) والذي لا يتبع تطبيقه أية طريقة قضائية . وفي الحقيقة فإن أمراً من الحاكم العام كاف لاعتقال أي انسان ، حتى ولو كان من أكابر الأعيان ، وأبعاده عن عائلته دون السماح له بشرح وضعه والدفاع عن نفسه ، ثم يؤخذ لمدة غير محددة الى معتقل خاص أو الى جهة بعيدة عن مسكنه وعمله وتسلط عليه الاقامة الجبرية . (لذلك) فان الأهالي الجزائريين يطالبون بتغيير كامل لهذه الحالة.

2 ـ التمثيل النيابي للأهالي :

ان في الجزائر مجالس من المفروض ان الأهالي ممثلون فيها. فالقانون يسمح لهم بالحصول على ربع المقاعد في المجالس البلدية (البلديات ذات الصلاحيات الكاملة) . ولكن دون أن يتجاوز عدد ممثليهم ستة . أما في المجالس العامة (العمالية) فإن عدد ممثلي الأهالي قد حدد بستة دون استثناء . وأما بخصوص المجلس المالي (العام) الذي يبلغ أعضاؤه 69 عضواً فإن ممثلي الأهالي فيه يشغلون 21 مقعداً فقط : منهم 15 ينتخبون انتخاباً عن العمالات الثلاث (الشمالية) و 6 عن منطقة (الجنوب) العسكرية يعينهم الحاكم تعييناً . وأما فيما يتعلق بالمجلس الأعلى (للحكومة) الذي يضم 59 عضواً منتخبين أو معينين فانه لا يوجد فيه أكثر من 7 أعضاء أهليين ، من بينهم 4 ينتخبهم المجلس المالي ، و 3 يعينهم الحاكم العام عن المنطقة العسكرية.

ومن الواضح أن الأهالي لا يتمتعون بتمثيل فعال ومفيد في المجالس المحلية . فالعدد القليل لم يسمح لممثلي الأهالي المنتخبين أن يشكلوا في كل مجلس سوى أقلية صغيرة لا تستطيع أن تمارس أي تأثير عند التصويت . وبالإضافة إلى ذلك ، فانه نظراً الى أن هؤلاء النواب الجزائريين لا يسمح لهم القانون بانتخاب لا رؤساء البلديات ولا مساعديهم ، فانهم لا يستطيعون أن يقوموا بأي عمل في توجيه ادارة البلدية.

أما بخصوص طريقة الانتخاب فان ممثلي الأهالي قد جاءوا من قسم انتخابي مقيد جداً لا يأذن لهم بأي ضمان في أن يكونوا مستقلين . والحق ان القانون الانتخابي الخاص بالأهالي قد تضمن الشروط التالية :

(أ) بخصوص المجالس البلدية : الموظفون ، والمتقاعدون ، والملاكون لأملاك فلاحية ومالية ، والحاملون لوسام الشرف (ليجون دونور) أو لأي ميدالية تذكارية (هم فقط الذين لهم صلاحيات الترشح) ، أما التجار والصناع وأصحاب المهن الحرة ، مثل الأطباء والمحامين ورجال الأعمال ، فانهم جميعاً مستثنون من حق الترشح للانتخاب.

(ب) وأما بخصوص المجالس العامة فان القانون الانتخابي قد حصر المنتخبين في

أفراد الأهالي المستشارين والمساعدين في المجالس البلدية . ولكن نظراً إلى أن كل هؤلاء المساعدين موظفون مسؤولون مباشرة لعامل العمالة ، ونظراً إلى انهم يشكلون الأغلبية في كل الدوائر الجزائرية الانتخابية ، فانه لا يمكن لمرشح غير مؤيد من الادارة أن يفوز . وهذا أيضاً يفسر لماذا نجد تسعة من عشرة من ممثلي الأهالي في المجالس العامة وفي المجلس المالي ، من الموظفين ، نتيجة لتبعيتهم الكاملة للادارة . والحق أن ممثلي الأهالي في المجالس العامة ما زالوا ، كما كانوا في الماضي ، يعينون من الادارة .

هذا هو واقع التمثيل النيابي بالنسبة للأهالي . (لذلك) فإن السكان المسلمين (الجزائريين) يطالبون بما يلي :

1 ـ توسيع قانون الانتخاب الخاص بالأهالي لكي يضمن فعالية وصلاحية التصويت .
2 ـ زيادة عدد ممثلي الأهالي في المجالس الجزائرية بنسبة خمسي عضويتهم .
3 ـ يجب توحيد قانون اجراء الانتخابات لكل المجالس الجزائرية . وفي ضرورة اجراء انتخاب من الدرجة الثانية لانتخاب المستشارين العامين وأعضاء المجلس المالي ، يجب اعطاء حق التصويت الى المستشارين المنتخبين في المجالس البلدية واستثناء المساعدين الأهليين .
4 ـ يجب أن يكون للمستشارين الأهليين في البلديات حق انتخاب رؤساء المجالس البلدية ومساعديهم .
5 ـ يجب أن تكون النيابية غير متناسبة مع وظيفة القياد والمساعدين الأهليين .
6 ـ يجب تمثيل الأهالي في المجلس الوطني الفرنسي ، أو في مجلس (خاص) يخلق في باريس حيث يمثل الأهالي نواب ينتخبونهم بأنفسهم .
7 ـ يجب أن يكون لأولئك الأهالي الذين يقبلون الخدمة العسكرية اجبارياً ، أو بطريقة التجنيد ، أو التطوع ، الحق في اختيار الجنسية الفرنسية ، بناء على طلب بسيط ، دون اللجوء الى الطرق الحاضرة (المعقدة) .

3 ـ اصلاح الضرائب :

ان (الجزائريين يطالبون) بتعديل النظام المالي تعديلاً مبنياً على مبدأ المساواة في تعويض الأثمان .

4 ـ توزيع الموارد المالية :

ان المجموعة الفرنسية (الكولون) التي تتمتع وحدها في الوقت الحاضر بتمثيل نيابي جاد وفعال في المجالس المحلية في الجزائر وفي المجلس الوطني الفرنسي في فرنسا ، هي الوحيدة التي تستطيع أن تتصرف في الميزانية . وهكذا فإن معظم الموارد المالية تصرف بطريقة تكاد تكون تامة على مصالح العناصر الأوروبية (الكولون) . ان أعظم حاجات الأهالي الحاحاً لم يظفر بأية ترضية تقريباً ، بل ان نفقات كبيرة قد خصصت لكثير من البلديات ، بينما بقيت أعمال في الدرجة الأولى من الأهمية بالنسبة للأهالي المسلمين تعاني (الاهمال) .

ان هذه الحالة بصفة خاصة ، غير عادية ، وذلك لأن الميزانية العامة ، بالإضافة الى الميزانية البلدية والعمالية ، تمول في أغلب الأحيان من ضرائب يدفعها الأهالي . وان إحداث نظام تمثيلي جاد للأهالي هو الذي سيسمح بخلق توازن في التعويضات من الموارد المالية.

هذه هي الرغبات التي صاغها أعضاء الوفد الأهلي الممضين أسفله ، الذين تملأهم الثقة في روح عدل وكرم وحكومة الجمهورية . وأن في تحقيق هذه الرغبات عظمة وخير كل من فرنسا والجزائر[1] .

باريس ـ جوان 1912

---

(1) طبع هذا النص ، دون امضاءات ، في كتاب الشريف بن حبيلس « الجزائر الفرنسية كما يراها أحد الأهالي » ، (الجزائر : أوريانتال ، 1914) . وهذه ترجمة عن النص الانكليزي كما ظهر في الأطروحة . وكل كلام بين قوسين في هذا النص من وضعي الخاص .

ملحق (5)
رسالة الأمير خالد إلى م. هيريو، 1924

برنامج الحزب الاصلاحي

سيادة الرئيس،

ان الجزائريين ينظرون الى توليكم الحكم على أنه طالع سعد، وعهد جديد لدخولهم في طريق التحرر. وباعتباري أحد المدافعين المتواضعين عن قضية أهالي الجزائر، منفياً لأنني دافعت عن مصالحهم الحيوية بصراحة، فإن لي الشرف أن أقدم الى رئيس الحكومة الفرنسية الجديدة برنامج مطالبنا الأساسية :

1 ـ تمثيل (الجزائريين) في المجلس الوطني الفرنسي بنسبة متعادلة مع الأوروبيين الجزائريين .

2 ـ إلغاء كامل ونهائي للقوانين والاجراءات الاستثنائية، وللمحاكم الجنائية، وللرقابة الادارية (ليتردي كاشي)، مع العودة التامة البسيطة الى القانون العام .

3 ـ نفس الواجبات ونفس الحقوق (للجزائريين) مثل الفرنسيين بخصوص الخدمة العسكرية .

4 ـ ترقي الجزائريين إلى كل الدرجات المدنية والعسكرية دون أي تمييز ما عدا الجدارة والقدرات الشخصية .

5 ـ تطبيق كامل لقانون التعليم الاجباري على الجزائريين، مع حرية نشر التعليم .

6 ـ حرية الصحافة والاجتماع .

7 ـ تطبيق قانون الفصل بين الكنيسة والدولة بالنسبة للدين الاسلامي .

8 ـ العفو العام .

9 ـ تطبيق القوانين الاجتماعية والعمالية على الجزائريين .

10 ـ الحرية المطلقة للعمال الجزائريين ، مهما كانت مراتبهم ، في الذهاب الى فرنسا .

وبالتأكيد ، ليس هناك تناقض بين هذه (المطالب) وبين البرنامج الليبرالي لوزارتكم وحزبكم . فدعونا إذن نحمل أملاً راسخاً في أن رغباتنا الشرعية ، المشار إليها سابقاً ، ستحظى بتقدير عال . وأرجو أن تتفضلوا ، سيادة الرئيس ، بقبول فائق تقديري[1] .

الأمير خالد، من المنفى

(1) المصدر : « البولشيفية والعمل الفرنسي الاستعماري » في « أ. ف. » (أكتوبر ، 1924) ، ص 530 ، نقلاً عن جريدة « لوهيومانيتي » (3 جويليه ، 1924).

ملحق (6)
القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومبادئها الاصلاحية[1]

الفصل الأول : تأسست في عاصمة الجزائر جمعية ارشادية تهذيبية تحت اسم « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » الخ .

الفصل الثالث : لا يسوغ لهذه الجمعية بأي حال من الأحوال أن تخوض أو تتداخل في المسائل السياسية .

الفصل الرابع : القصد من هذه الجمعية هو محاربة الآفات الاجتماعية كالخمر والميسر والبطالة والجهل وكل ما يحرمه صريح الشرع وينكره العقل وتحجره القوانين الجاري بها العمل .

الفصل الخامس : تتذرع الجمعية للوصول الى غايتها بكل ما تراه صالحاً نافعاً لها غير مخالف للقوانين المعمول بها ، ومنها أنها تقوم بجولات في القطر في الأوقات المناسبة .

الفصل السادس : للجمعية أن تؤسس شعباً في القطر وأن تفتح نوادي ومكاتب حرة للتعليم الابتدائي .

الفصل الثاني عشر : الأعضاء العاملون هم الذين يصح أن يطلق عليهم لقب عالم بالقطر الجزائري بدون تفريق بين الذين تعلموا ونالوا الاجازات بالمدارس الرسمية الجزائرية والذين تعلموا بالمعاهد الاسلامية الأخرى .

الفصل الثالث عشر : الأعضاء المؤيدون والأعضاء المساعدون يشملون كل

---

(1) يحتوي القانون الأساسي على ثلاثة وعشرين فصلاً . وقد اكتفيت هنا ، كما فعلت في الأطروحة بالفصول التي تمثل اتجاه مبادىء الجمعية . أما الفصول المحذوفة فلا تكاد تخرج عن المسائل المالية والادارية . وأود أن أذكر بأن هذا النص مأخوذ مباشرة من النص العربي ، اذ لا حاجة الى ترجمته من النص الانكليزي ما دام أصله بالعربية موجوداً .

من راق له مشروع الجمعية من غير الطبقة المبينة بالفصل المتقدم وأراد أن يساعدها بماله وأعماله على نشر دعوتها الاصلاحية .

دعوة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأصولها(2) :

1 ـ الاسلام ـ هو دين الله الذي وضعه لهداية عباده ، وأرسل به جميع رسله ، وكمله على يد نبيه محمد الذي لا نبي من بعده .

2 ـ الاسلام ـ هو دين البشرية الذي لا تسعد الا به وذلك لأنه :

أولاً: كما يدعو الى الأخوة الاسلامية بين جميع المسلمين ، يذكر بالأخوة بين البشر أجمعين .

ثانياً : يسوي في الكرامة البشرية والحقوق الانسانية بين جميع الأجناس والألوان .

ثالثاً : لأنه يفرض العدل فرضاً عاماً بين جميع الناس بلا أدنى تمييز .

رابعاً : يدعو الى الاحسان العام .

خامساً : يحرم الظلم بجميع وجوهه وبأقل قليله من أي أحد على أي أحد من الناس .

سادساً : يمجد العقل ويدعو إلى بناء الحياة كلها على التفكير .

سابعاً : ينشر دعوته بالحجة والاقناع لا بالختل والاكراه .

ثامناً : يترك لأهل كل دين دينهم يفهمونه ويطبقونه كما يشاءون .

تاسعاً : شرك الفقراء مع الأغنياء في الأموال وشرع مثل القراض والمزارعة والمغارسة مما يظهر به التعاون العادل بين العمال وأرباب الأراضي والأموال .

عاشراً : يدعو إلى رحمة الضعيف فيكفي العاجز ويعلم الجاهل ويرشد الضال ويعان المضطر ويغاث الملهوف وينصر المظلوم ويؤخذ على يد الظالم .

حادي عشر : يحرم الاستعباد والجبروت بجميع وجوهه .

ثاني عشر : يجعل الحكم شورى ليس فيه استبداد ولو لأعدل الناس .

3 ـ القرآن : هو كتاب الاسلام .

---

(2) هذا النص من الأصل العربي مباشرة أيضاً . وقد أوردناه ، بدون حذف .

4 ـ السنة « القولية والفعلية » الصحيحة تفسير وبيان للقرآن .
5 ـ سلوك السلف الصالح « الصحابة والتابعين وأتباع التابعين » تطبيق صحيح لهدى الاسلام .
6 ـ فهوم أئمة السلف الصالح أصدق الفهوم لحقائق الاسلام ونصوص الكتاب والسنة .
7 ـ البدعة : كل ما أحدث على أنه عبادة وقربة ولم يثبت عن النبي صلى اللّٰه عليه وسلم فعله . وكل بدعة ضلالة .
8 ـ المصلحة : كل ما اقتضته حاجة الناس في أمر دنياهم ونظام معيشتهم وضبط شؤونهم وتقدم عمرانهم مما تقره أصول الشريعة .
9 ـ أفضل الخلق هو محمد صلى اللّٰه عليه وسلم لأنه :
أولاً : اختاره اللّٰه لتبليغ أكمل شريعة الى الناس عامة .
ثانياً : كان على أكمل أخلاق البشرية .
ثالثاً : بلغ الرسالة ومثل كمالها بذاته وسيرته .
رابعاً : عاش مجاهداً في كل لحظة من حياته في سبيل سعادة البشرية جمعاء حتى خرج من الدنيا ودرعه مرهونة .
10 ـ أفضل أمته بعده هم السلف الصالح لكمال أتباعهم له .
11 ـ أفضل المؤمنين هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ، وهم الأولياء ، والصالحون فحظ كل مؤمن من ولاية اللّٰه على قدر حظه من تقوى اللّٰه .
12 ـ التوحيد أساس الدين فكل شرك « في الاعتقاد أو في القول أو في الفعل » فهو باطل مردود على صاحبه .
13 ـ العمل الصالح المبني على التوحيد ، به وحدة النجاة والسعادة عند اللّٰه فلا النسب ولا الحسب ولا الحظ بالذي يغني عن الظالم شيئاً .
14 ـ اعتقاد تصرف أحد من الخلق مع اللّٰه في شيء ما ، شرك وضلال ومنه اعتقاد الغوث والديوان .
15 ـ بناء القباب على القبور ، ووقد السرج عليها والذبح عنها لأجلها والاستغاثة بأهلها ضلال من أعمال الجاهلية ومضاهاة لأعمال المشركين . فمن فعله جهلاً يعلم ومن أقره ممن ينتسب الى العلم فهو مضل .

16 ـ الأوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السلف ومبناها كلها على الغلو في الشيخ والتحيز لأتباع الشيخ وخدمة دار الشيخ وأولاد الشيخ الى ما هنالك من استغلال واذلال لأهل الاذلال . . والاستغلال . . ومن تجميد للعقول واماتة للهمم وقتل للشعور وغير ذلك من الشرور .

17 ـ ندعو الى ما دعا اليه الاسلام وما بيناه من الأحكام بالكتاب والسنة وهدى السلف الصالح من الأئمة ، مع الرحمة والاحسان دون عداوة أو عدوان .

18 ـ الجاهلون والمغرورون أحق الناس بالرحمة .

19 ـ المعاندون والمستغلون أحق الناس بكل مشروع من الشدة والقسوة .

20 ـ عند المصلحة العامة من مصالح الأمة ، يجب تناسي كل خلاف يفرق الكلمة ويصدع الوحدة ويوجد للشر الثغرة . ويتحتم التآزر والتكاتف حتى تنفرج الأزمة وتزول الشدة بإذن الله ثم بقوة الحق وادراع الصبر وسلاح العلم والعمل والحكمة .

قل هذه سبيلي : أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين .

عبد الحميد باديس
بقسنطينة بالجامع الأخضر
اثر صلاة الجمعة 4 ربيع الأول 1356

ملحق (7)
برنامج نجم أفريقيا الشمالية ، 1933

ان برنامجنا السياسي لنجم أفريقيا الشمالية ، بعد أن درسته بعناية وحللته بعمق اللجنة الإدارية المؤقتة السابقة ، قد قدم وقرىء ، وصودق عليه من كل الأعضاء المنضمين إلى منظمتنا ، الذين اجتمعوا في جلسة عمومية ، يوم 28 ماي ، 1933 ، على الساعة الرابعة ، في 49 شارع دي بريتانو ، باريس (3) .

وان محتوى مواده بسيط ، ومفهوم جداً . وهو ، بالخصوص ، يستجيب كلية إلى آمال الشعب الجزائري .

وانه من المؤكد ان نوصي بأن يقرأه الشعب الجزائري باهتمام ، وأن يفهمه ، وأن ينفذه ويجب أن نعتبره نحن حلفاً وطنياً ، رابطاً جامعاً لكل الأهالي المسلمين الجزائريين ، عاملاً بإخلاص وتضحية من أجل الدفاع عن مصالحنا ، ومطالبنا العاجلة ، واستقلال بلادنا .

ومن أجل خلاصنا ، ومن أجل مستقبلنا ، ولكي نحتل مكاناً جديراً بسلالتنا في العالم ، فلنقسم جميعاً على القرآن وبالإسلام أن نعمل حتى النهاية لتحقيقه (البرنامج) ولانتصاره الأخير .

القسم الأول

1 ـ محو قانون الأهالي البغيض في الحال والغاء جميع القوانين الإستثنائية .

2 ـ العفو العام عن كل أولئك الذين كانوا قد سجنوا ، أو وضعوا تحت الرقابة الخاصة ، أو نفوا لارتكابهم شيئاً ضد قانون الأهالي أو قاموا بجرائم سياسية .

3 ـ الحرية المطلقة في السفر إلى فرنسا وإلى غيرها من البلاد الأجنبية .

4 ـ حرية الصحافة ، والإجتماع ، والتجمع ، وتوفير الحقوق السياسية والنقابية .

5 ـ احلال مجلس وطني جزائري منتخب عن طريق التصويت العام محل المجلس المالي ، الذي لا ينتخب الاّ عن طريق التصويت المحدود.

6 ـ الغاء البلديات المختلطة والمناطق العسكرية وإحلال محلها مجالس بلدية منتخبة عن طريق التصويت العام .

7 ـ حق الجزائريين في تقلد جميع الوظائف العامة دون أي تمييز ، مع المساواة في العمل وفي المعاملة للجميع .

8 ـ التعليم الإجباري للغة العربية . وحق (كل الجزائريين) في التعليم على جميع المستويات . وخلق مدارس عربية جديدة . كل الأعمال الرسمية يجب نشرها بالعربية والفرنسية في نفس الوقت .

9 ـ بخصوص الخدمة العسكرية (من الجزائريين في الجيش الفرنسي) ، يجب الإحترام الكامل للآية الكريمة « ومن يقتل مؤمناً متعمداً . . » .

10 ـ تطبيق القوانين الإجتماعية والعمل « على الجزائريين أيضاً) . وحق العائلات الجزائرية في الجزائر في الحصول على المساعدة من جراء البطالة ، وفي المنح العائلية . الغاء تام للتأمينات الإجتماعية .

11 ـ زيادة القروض الفلاحية الى الفلاحين الصغار . وتنظيم أكثر عقلانية لنظام الري . وتطوير وسائل المواصلات ، والمساعدة الحكومية ، غير المعوضة ، إلى ضحايا المجاعات الدورية .

القسم الثاني

1 ـ استقلال الجزائر الكامل .

2 ـ جلاء تام لجيش الاحتلال

3 ـ تكوين جيش وطني .

حكومة وطنية ثورية :

1 ـ مجلس تأسيسي منتخب عن طريق التصويت العام .

2 ـ التصويت العام في كافة الدرجات . وصلاحية (الترشح) إلى كل المجالس بالنسبة لجميع سكان الجزائر .

3 ، ستكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية .

4 ، تسليم جميع الممتلكات إلى الدولة الجزائرية ، بما في ذلك البنوك ، والمناجم ، والطرق الحديدية ، والموانىء ، والمؤسسات التي اغتصبها المحتلون .

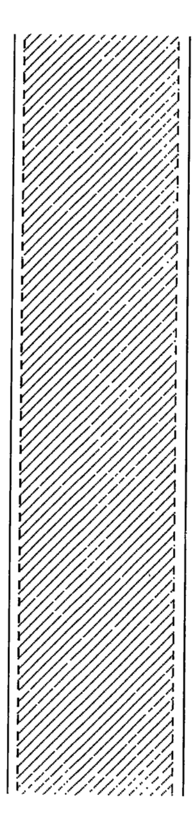
5 ـ تأميم الأملاك الكبيرة التى اغتصبها الإقطاعيون ، حلفاء المحتلين ، والكولون ، والشركات الرأسمالية ، وتسليم الأراضي المؤممة إلى الفلاحين . واحترام الأملاك المتوسطة والصغيرة . وإعادة الأراضي والغابات التي أخذتها الدولة الفرنسية إلى الدولة الجزائرية .

6 ـ حرية التعليم بالعربية واجباريته على جميع المستويات .

7 ـ تعترف الدولة الجزائرية بحق تشكيل الإتحادات ، والتحالفات ، وحق الاضراب ، وهي تتعهد بمناقشة القوانين الاجتماعية .

8 ـ المساعدة العاجلة للفلاحين بتخصيص قروض للفلاحة دون فائدة من أجل شراء الآلات ، والبذار ، والسماد ، وتنظيم الري ، وتحسين وسائل المواصلات ، الخ[1].

(1) نقله ل . موهندس ، « الهجوم على أفريقية الشمالية الفرنسية » في « أ . ف . » (أكتوبر ، 1934) ، ص 575 ـ 576 .



المصادر والفهارس

ملاحظة عن المصادر(*)

ليس هناك مصادر جيدة حديثة عن الجزائر . هناك العمل الكبير الذي قام به السير لامبيرت بليفير ، « مصادر عن الجزائر من حملة شارل الخامس سنة 1541 إلى سنة 1887 » ، الذي نشرته في انكلترا الجمعية الملكية الجغرافية (دون تاريخ) ، مع « ملحق إلى مصادر عن الجزائر من أقدم العصور إلى سنة 1895) المطبوع سنة 1898 . وفي سنة 1930 نشرت وزارة الحرب الفرنسية مصادر عسكرية بعنوان « أفريقيا الشمالية الفرنسية » خصصت منها الجزأين الأول والثاني إلى الجزائر من 1830 إلى 1926 .

وفي سنة 1925 كتب الفرنسي شارل تيار عمله بالمصادر المعلق عليها بعنوان « الجزائر في الأدب الفرنسي » الذي نشرته في باريس المكتبة القديمة . وهناك عمل فرنسي هام هو « بسطة عن وضع المؤسسات الفرنسية في الجزائر » الذي بدىء نشره سنة 1838 عن طريق وزارة الحرب الفرنسية . ويحتوي كتاب شارل اندري جوليان ، « تاريخ الجزائر المعاصرة » ، م 1 ، 1827 ـ 1871 (باريس : طبعة صحافة فرنسا الجامعية ، 1964) على مصادر قيمة عن الجزائر خلال القرن التاسع عشر (81 صفحة) .

وهناك أيضاً أعمال أقل أهمية عن الجزائر خلال القرن العشرين ولعل أفضلهما عمل ج . د . بيرسون ، « الفهرس الإسلامي : 1906 ـ 1955 » (انكلترا : و . هيفر وأبناؤه ، 1958) . فهو يحتوي على مقالات تعالج مظاهر مختلفة عن الجزائر مأخوذة من دوريات متعددة . وفي سنة 1962 جمع المكتب الجزائري في نيويورك « مصادر عن الجزائر » (وثائق رقم 62 ـ 3) من سبع صفحات على الآلة الكاتبة .

(*) أنظر المختصر .

وخلال نفس العام أعد الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين (فرع امريكا) قائمة « بخلاصة المصادر » (بالفرنسية) عن الجزائر تضم ثلاث عشرة صفحة على الآلة الكاتبة أيضاً . كما أعدت نفس المنظمة قائمة منسقة حسب الموضوعات بعنوان « كاتالوغ المكتبة » (بالانكليزية) من ثماني عشرة صفحة عن نفس الموضوع. وفي سنة 1957 جمعت السيدة هيلين ف . كونوفر قائمة بالمصادر المختارة والمعلق عليها باسم « شمال وشمال ـ شرق أفريقيا : 1951 ـ 1957 » (واشنطن : 1957) .

من الكتابات الانكليزية التي انتقد أو علق أصحابها على المصادر الفرنسية عن الجزائر ما يلي : مقال مانفريد هالبيرن ، « الكتب الحديثة عن العلاقات بين المسلمين والفرنسيين في الجزائر » الذي نشره في « مجلة الشرق الأوسط » ، م 3 (أبريل ، 1949) ، ص 211 ـ 216 ومقال كتبه اندرو هيغوي ، « مصادر التاريخ الجزائري خلال القرن التاسع عشر : مقالة نقدية » المنشور في مجلة « العالم الإسلامي » م 54 (أكتوبر 1964) ، ص 292 ـ 299 . ثم مقال دوغلاس جونسون ، « الجزائر : بعض مشاكل التاريخ الحديث » المنشور في « مجلة التاريخ الإفريقي » م 5 (1964) ، ص 221 ـ 242 .

ان المجلات والجرائد الآتية قد ساعدت مساعدة هامة على كتابة هذا العمل ، وهي في نفس الوقت ذات أهمية خاصة كمصدر للتاريخ ، الجزائري. وهي : « ريفيو أفريكان » ، و« لافريك فرانسيز » ، و« سوسيتي دي جيوغرافي دالجي أي دي لافريك دونور » و« التايمز » (لندن) ، و« النيويورك تايمس » ، و« الشهاب » ، و « الاقدام » ، و« لوطان » .

ان هذه المصادر لا تضم الا المواد التي اعتقدنا أنها ذات قيمة لزيادة التعمق في القراءة عن موضوع الحركة الوطنية الجزائرية . وقد فكرنا أولاً في تقسيمها إلى مصادر أولية ومصادر ثانوية ، ولكنا عدنا عن هذه الخطة لطبيعة الموضوع والمواد . فباستثناء بعض الأعمال القليلة العامة ، فإنه يمكن أن نقول ان جل هذه المصادر يدخل في قسم المصادر الأولية . وقد شعرنا بأنه قد يكون أكثر مناسبة أن نقسم المصادر إلى « دراسات خاصة » تناقش القضايا الوطنية السياسية الجزائرية ، وإلى « أعمال عامة » تعالج بعض المظاهر المتعلقة بتلك القضايا ، مثل الأحوال الإقتصادية ، والفن والمرأة ، والتعليم ، وشؤون أفريقيا الشمالية ، الخ . .

المصادر العربية

(أ) الاطروحات والوثائق ، والكتب :

الابراهيمي، محمد البشير (محرر):
سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين . قسنطينة ، المطبعة الجزائرية الاسلامية ، 1935 .

الابراهيمي، محمد البشير:
عيون البصائر. مصر، دار المعارف ط1 ، 1963 .

ابن أبي طالب ، أبو بكر أحمد:
روضة الأخبار ونزهة الأفكار. الجزائر، 1901 .

ابن باديس، عبد الحميد:
القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومبادئها الاصلاحية. قسنطينة، المطبعة الجزائرية الاسلامية ، 1937 .

ابن رويلة، قدور:
وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب . تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم . الشركة الوطنية الجزئرية ، الجزائر ، 1968 .

ابن سليمان، يحيى شريف أحمد:
جواب الى لجنة الشيوخ عن المسألة الجزائرية سنة 1891 . سطيف ، مطبعة روكة ، 1891 .

ابن عبد القادر ، محمد (الأمير) باشا:
تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر ، جزآن في مجلد ، المطبعة التجارية ، الاسكندرية، 1903 .

ابن عبد الكريم، محمد:

حمدان بن عثمان خوجة الجزائري ومذكراته. دار الثقافة ، بيروت ، 1972 .

ابن الموهوب ، المولود:

خطبة قبول منصب الفتيا بخطه، سنة 1908 .

اوزقان ، عمار:

الجهاد الأفضل . دار الطليعة ، بيروت ، 1962 .

أيوب ، عبد الله جندي:

الاستيطان الفرنسي في الجزائر 1830 ـ 1919 . رسالة دكتوراه ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ، 1969 (مخطوطة).

الباروني، سليمان:

صفحات خالدة من الجهاد ، جمع وترتيب زعيمة سليمان الباروني. القاهرة ، 1964 .

بفايفر ، سيمون:

مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر . ترجمة أبو العيد دودو . الشركة الوطنية الجزائرية ، 1974 .

بوعزيز، يحيى:

« دور عائلتي المقراني والحداد في ثورة 1871 » . اطروحة ، كلية الآداب . جامعة الجزائر . (طبعت).

بيرم، محمد (الخامس):

صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار ، الجزء الرابع ، ط. مصر 1303هـ.

تشرشل، شارل هنري:

حياة الأمير عبد القادر . ترجمة أبو القاسم سعد اللّه . الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1974 . ط. 2، الجزائر ، 1982 .

التميمي، عبد الجليل:

بحوث ووثائق في التاريخ المغربي ، 1816 ـ 1871 . الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1972 .

الجزائري ، أحمد:
كيف دخل الفرنسيون الجزائر . نشر وتقديم صلاح الدين المنجد . دار الكتاب الجديد . بيروت 1962 .
الجيلالي ، عبد الرحمن:
ذكرى الدكتور محمد بن أبي شنب . الجزائر ، 1933 .
الجيلالي، محمد بن العابد:
تقويم الأخلاق . المطبعة الجزائرية، 1927 .
الحاج ابراهيم، أبو اليقظان:
سليمان الباروني باشا في أطوار حياته ، جزآن ، الجزائر ، 1957 .
الحاجري ، محمد طه:
جوانب من الحياة العقلية والأدبية في الجزائر . معهد البحوث والدراسات العربية . القاهرة ، 1968 .
الحداد، عزيز، والحداد، محمد:
اعلان الى العلماء والاخوان وكبراء الأعراش (باسم والدهما الشيخ محمد امزيان بن الحداد) . مطبعة مارل ، قسنطينة ، 1290هـ.
الحشائشي، محمد بن عثمان:
رحلة الحشائشي الى ليبيا . تقديم وتحقيق علي مصطفى المصراتي. دار لبنان ، بيروت ، 1965 .
خرفي ، صالح:
شعراء من الجزائر (الحلقة الأولى) . معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، 1969 .
الخضر حسين، محمد:
السعادة العظمى، جمع وتحقيق علي الرضا التونسي. دمشق، 1973. فيه فصل عن (الرحلة الجزائرية) .
الخطيب، عدنان:
الشيخ طاهر الجزائري ، رائد النهضة العلمية في بلاد الشام وأعلام من خريجي مدرسته . معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، 1971 .

خوجة، حمدان:
اتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس عن الوباء . تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم. الشركة الوطنية الجزائرية، الجزائر ، 1968 .
خوجة، حمدان:
المرآة . ترجمة وتقديم وتعليق محمد بن عبد الكريم ، بيروت ، 1972 . وللعربي الزبيري ترجمة لنفس الكتاب.
دبوز، محمد علي:
اعلام الاصلاح في الجزائر، جـ 1 ، الجزائر ، 1974 .
دبوز، محمد علي:
نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة . ثلاثة أجزاء :
جـ 1 : مصر 1965 .
جـ 2 : الجزائر 1971 .
جـ 3 : الجزائر 1969 .
رابح ، تركي:
الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم (1900 ـ 1940) . الجزائر ، الشركة الوطنية الجزائرية ، 1969 .
زوزو، عبد الحميد:
« دور المهاجرين الجزائريين بفرنسا في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين 1919 ـ 1939 » اطروحة ، (كلية الآداب ـ جامعة الجزائر ـ 1974) . (طبعت).
الزبيري، محمد العربي:
مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة . الشركة الوطنية الجزائرية ، الجزائر ، 1973 (ترجمة) .
سعد الله، أبو القاسم:
تاريخ الجزائر الحديث ـ بداية الاحتلال . معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، 1970. ط. 3، الجزائر 1982 .

سعد الله، أبو القاسم:

محمد الشاذلي القسنطيني ، 1807 ـ 1877 . دراسة من خلال رسائله وشعره ـ الشركة الوطنية الجزائرية ، 1974.

سعد الله ، أبو القاسم:

محمد العيد آل خليفة ، رائد الشعر الجزائري الحديث . دار المعارف . مصر ، 1961. ط 2. 1976.

سعيد (الأمير) بن عبد القادر الجزائري:

تاريخ حياة طيب الذكر الأمير علي بن الأمير عبد القادر ، مطبعة الترقي ، دمشق ، 1918.

سعيد، الأمير محمد:

مذكرات. دار مكتبة الشركة الجزائرية ، ط 2، دمشق ، 1968.

السنوسي، محمد الهادي:

شعراء الجزائر في العصر الحاضر . جزآن . تونس ، 1926 ، 1927.

سيف الاسلام، الزبير:

تاريخ الصحافة في الجزائر . الشركة الوطنية الجزائرية ، الجزائر ، 1971.

شريط ، عبد الله ، الميلي ، محمد:

الجزائر في مرآة التاريخ. قسنطينة، 1965.

الشريف، صالح، والصفائحي، اسماعيل:

التسجيل على فرنسا في قطر تونس والجزائر : بيان توحش فرنسا في القطر التونسي والجزائري والاستنجاد إليه . (بدون مكان نشر ولا تاريخ ، ولعله سنة 1916).

الطالبي، عمار:

ابن باديس، حياته وآثاره . مكتبة الشركة الجزائرية ، أربعة أجزاء (أنظر الجزء الأول منه) 1968.

عباس، فرحات:

ليل الاستعمار ، تعريب أبو بكر رحال . المحمدية ، المغرب ، 1962.

عبد القادر ، نور الدين :
صفحات في تاريخ مدينة الجزائر ، كلية الآداب ، جامعة الجزائر ، 1965 .
العقاد، صلاح :
المغرب العربي . مكتبة الانجلو المصرية ، ط 2 ، القاهرة ، 1966 .
فارس، محمد خير :
تاريخ الجزائر الحديث ، من الفتح العثماني الى الاحتلال الفرنسي . دمشق ، 1969 .
الفاسي، علال :
الحركات الاستقلالية في المغرب العربي . طنجة (بدون تاريخ).
فريد، محمد بك :
من مصر الى مصر (رحلة محمد فريد الى ايطاليا وتونس والجزائر وطرابلس الغرب ومالطة) . ط. مصر سنة 1902 .
كحول، محمود :
التقويم الجزائري ، سنوات 1911، 1912، 1913 .
كوران، أرجمند :
السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر (1827 ـ 1847). ترجمة عبد الجليل التميمي . ط 2، تونس، 1974 .
ماكماهون (المارشال) :
فتح الجزائر (مذكرات المارشال ماكماهون) . ترجمة حامد مصطفى . بغداد ، بدون تاريخ .
المدني، أحمد توفيق :
كتاب الجزائر. ط 2، دار المعارف ، القاهرة ، 1963 .
المدني، أحمد توفيق :
هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1957 .
المشرفي، أبو حامد العربي :
طرس الأخبار بما جرى. . . للمسلمين مع الكفار في عتو الحاج عبد القادر وأهل دائرته الفجار (مخطوط).

المقراني، بـومزراق، وقطرانجي عبد الرحمن:
القول الناصح في مجادلة المائن الكاشح. في الرد، باسم فرنسا، على رسالة ظهرت في اسطانبـول بعنوان (المسلمـون في الجيش الفرنسـاوي بالحـرب الحاضرة ـ الحرب العالمية الأولى) بدون تاريخ ولا مكان طبع.

مواعدة، محمد:
محمد الخضر حسين، حياته وآثاره. الدار التونسية للنشر، 1974.

الميلي، مبارك:
تاريخ الجزائر في القديم والحديث. ثلاث أجزاء (أنظر منه الجزء الثالث). مكتبة النهضة الجزائرية، 1964.

ناصر، محمد:
«المقالة الصحفية الجزائرية». اطروحة مخـطوطة، كليـة الآداب ـ جامعـة الجزائر، 1972. (طبعت).

نجم، ماري:
«الابراهيمي في حياته وبعض آثاره المنشورة والمخطوطة». رسالة دبلوم لـم تناقش، كلية الآداب، جامعة الجزائر، الجزائر، 1972.

يحيى، جلال:
السياسة الفرنسية في الجزائر 1830 ـ 1959. القاهرة، 1959.

(ب) المقالات:

ابن أبي شنب، سعد الدين:
«النهضة العربية بالجزائر في النصف الأول من القرن الرابع عشر للهجرة. **مجلة كلية الآداب** (جامعة الجزائر). العدد الأول، السنة الأولى، 1964. ص 44 ـ 66.

ابن باديس، حميدة:
«الى لجنـة الشيوخ» (سنة1891). تقرير نشـره عبـد الحميـد بن بـاديس في (**الشهاب**)، ابريل 1937. ص 62 ـ 71.

ابن قدور، عمر (الجزائري) :

« الخدمة العسكرية الفرنسية والرفض الأخير » . مقال نشره المؤلف في جريدة (**الحضارة**) بالآستانة (8 أوت 1911) ونقله صالح خرفي في مجلة (**الثقافة**) ، عدد 3، السنة الأولى ، يوليو ، 1971 . ص 126 ـ 132 .

أوزفان، عمار :

الجهاد الأفضل ، مراجعة مجلة (**المعرفة**) الجزائرية ، ديسمبر 1963 . ص 52 ـ 61 .

بوعزيز، يحيى :

« ثورة محمد المقراني والشيخ ابن الحداد » **الاصالة** العدد 2، ماي 1971 . ص 22 ـ 29 .

بوكوشة، حمزة :

« شيخ الجماعة عبد القادر المجاوي » . **الثقافة** ، العدد 10 ، السنة 2 ، سبتمبر 1972 . ص 6 ـ 14 .

بوكوشة، حمزة :

« مع ابن باديس في ذكراه » ، في **المعرفة الجزائرية** ، (أبريل، 1964) ، ص 13 ـ 22 .

« تاريخ المقاومة الجزائرية » . **المعرفة الجزائرية** ، عدد 16 ، السنة 2 ، (نوفمبر 1964) ص 5 ـ 15 .

التميمي، عبد الجليل :

« التفكير الديني والتبشيري لدى عدد من المسؤولين الفرنسيين في الجزائر في القرن التاسع عشر » . **المجلة التاريخية المغربية** ، عدد 1 جانفي ، 1974 . ص 12 ـ 24 .

ثابتي ، مصطفى :

« الجنود الجزائريون والحرب » في (**ريفو افريكان**)، م 60 (1919) . ص 509 ـ 520 . شعر بالعربية نشرة محمد صوالح مع ترجمة فرنسية .

الجيلالي، عبد الرحمن :

« جوانب من كفاح الشيخ عبد الحليم بن سماية السياسي والثقافي » . الأصالة ، العدد 13 (السنة 3) . مارس ـ أبريل 1973 . ص 199 ـ 212 .

حموتن، حسن :
« لالا فاطمة نسومر ، 1830 ـ 1863 ». **الأصالة** ، عدد 16 (سبتمبر ـ اكتوبر ، 1973) . ص 161 ـ 165 .
حرفي، صالح :
« أبو اليقظان رائد الصحافة العربية الجزائرية . في (**المعرفة**) الجزائرية (أوت ، 1964) . ص 22 ـ 32 .
حرفي، صالح (إعداد وتعليق) :
« المهاجر ، جريدة أصدرها الجزائريون في الشام قبل الحرب العالمية الأولى » . **الثقافة** ، عدد 5 ، نوفمبر 1971 . ص 108 ـ 121 .
الرافعي، عبد الرحمن (المحامي) :
« فرنسا في الجزائر » . مجلة **المنهاج** (جـ 7 ، م 1) ، رجب ، سنة 1344هـ) . ص 394 ـ 402 . والمقال منقول عن مجلة (الهداية) .
الركيبي، عبد اللّه :
« جذور الفكر الاشتراكي في الجزائر » . **المجاهد الثقافي** ، عدد 11 (1970) . ص 47 ـ 53 . وعدد 12 (1970) . ص 33 ـ 37 .
سعد اللّه ، أبو القاسم :
« الأستاذ جوليان والتاريخ الجزائري » . مجلة **المعرفة** الجزائرية ، عدد 19 . السنة 2 ، (ماي ـ جوان ، 1965) . ص 10 ـ 23 .
سعد اللّه ، أبو القاسم :
« أول بيان فرنسي للشعب الجزائري ، ظروفه ونصه ، سنة 1830 » . **المعرفة الجزائرية** ، عدد 17 . السنة 2 ، مارس 1965 . ص 5 ـ 13 .
سعد اللّه ، أبو القاسم :
« مدارس الثقافة العربية في المغرب العربي : 1830 ـ 1954 » **في مجلة معهد البحوث والدراسات العربية** (**مصر**) : عدد 9 ، 1978 ص 43 ـ 79 .
سعد اللّه ، أبو القاسم :
« منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر » . **الأصالة** ، عدد 14 ، و 15 ، 1973 . ص 7 ـ 26 .

سعد الله، أبو القاسم:

« وثائق جديدة عن ثورة الأمير عبد المالك الجزائري بالمغرب » . **المجلة التاريخية المغربية** ، عدد 1 ، جانفي ، 1974 ، ص 52 ـ 69 . (مع صور).

العاصمي ، محمد :

« نادي الترقي بعاصمة الجزائر » . **تقويم المنصور** ، السنة الخامسة ، 1348هـ . ص 294 ـ 303 .

العدوي، ابراهيم أحمد:

« التطور التاريخي للحركة الوطنية الجزائرية » . **المجاهد الثقافي** . عدد 14 و 15، يوليو، 1970 . ص 81 ـ 95 .

قنافش، محمد:

« الايديولوجية الثورية في الحركة الوطنية الجزائرية » . **الأصالة** العدد 11 ، نوفمبر ـ ديسمبر 1972 . ص 25 ـ 30 .

قداش، محفوظ:

« الأمير خالد ونشاطه السياسي بين 1919 و 1925 » . **مجلة تاريخ وحضارة المغرب** ، عدد 4، يناير 1968 . ص 19 ـ 39 .

قداش، محفوظ:

« انتفاضة 1871 : مقاومة شعب يحركه الايمان » **الأصالة** ، العدد 2 ، ماي 1971 ص 16 ـ 21 .

قداش، محفوظ:

« صور من حياة الأمير خالد في شبابه». ترجمة حنفي بن عيسى . **الثقافة** ، عدد 13، فيفري ـ مارس، 1973 . ص 11 ـ 22 ، (مع صورة الأمير في شبابه).

المدني، أحمد توفيق:

« أضواء على التاريخ الاسلامي في الجزائر» . **المعرفة الجزائرية** ، عدد 5، السنة الأولى ، (اكتوبر 1963) . ص 4 ـ 17 .

المدني، أحمد توفيق:

« الأمير خالد الهاشمي » . **المجاهد الأسبوعي** ، عدد 3، يوليو 1966 .

المدني، أحمد توفيق:

« الثورات الجزائرية عبر التاريخ » . **المعرفة الجزائرية** ، عدد 6، السنة الأولى (نوفمبر 1963) . ص 3 ـ 14.

ناصر، محمد:

« الصحافة العربية الجزائرية والاستعمار الفرنسي » . **الثقافة** ، العدد (19 ، السنة 4) . فيفري ـ مارس ، 1974 . ص 67 ـ 74.

المصادر الأجنبية

1 ـ دراسات خاصة

أ ـ كتب ووثائق ونشرات :

ABBAS, Farhat. - *Le Jeune Algrien.* Paris: Parque, 1931. 2éd. 1981.
La Nuit coloniale, Guerre et Révolution d'Algérie. Paris: Julliard, 1962.

AZAN, Colonel Paul.- *L'Emir Abd El Kader.* Algiers? Hachette, 1925.

BENHABILES, Chérif.- *L'Algérie française vue par un indigène.*
Algiers: Orientale, 1914.

BEN MAWHUB, Mohamed Al-Mawlud. - «Speeches and Conferences» as printed in *Ibid.,* 144-195.

BANNABI, Malik. - *Discours sur les conditions de la renaissance algérienne.* Algiers: Editions algériennes. 1949.

BUDARBA, Ahmed. - «Mémoire» published by George Yver under «Mémoire de Bouderba» in *R.A.* LVII (1913); 218-244.

EMERIT, Marcel. - *L'Algérie à l'époque d'Abd-el-Kader,* Paris, Larose 1951.

FACI, S. - *L'Algérie sous l'égide de la France contre la féodalité algérienne.* Toulouse, 1936.

THE FRANCO. - Algerian Convention of July 5, 1830 as printed by Michel Habart. «Vérités et mensonges du 5 Juillet 1830, Novembre. I (April-May, 1964), 16-17».

HAMIT (Hamid), Ismail. - *Les Musulmans de l'Afrique du Nord.* Paris: 1906.

JULIEN, Charles-André. - *L'Afrique du Nord en marche.* Paris: Julliard 1952.

KHALID, Emir (Amir). - La situation des Musulmans d'Algérie. Algiers: 1924.

- «Letter - program» to M. Herriot as printed in *A.F.* (October 1924), 530.

KHUJA, Hamdan. - *«Mémoire»* as published by George Yver, R.A., LVII (1913), 122-138.

- Letter to the *Commission d'Afrique. (1833) in Ibid.*

- *«Manifeste du peuple Algérien»*, (1943) as printed in Paul-Emille Sarrasin.

La Crise algérienne. Paris: Du Cerf, 1949, 174-192.

«Note» of 1912, containing the demands of Algerians from France as printed in Chérif Benhabiles, *L'Algérie française.* Algers: Orientale, 1914, 117-121.

NOUSCHI, André. - *La naissance du nationalisme algérien.* Paris: De Minuit, 1962.

La nouvelle critique. (January, 1960). Special issue on the Algerian culture.

«The ordinance of march 7, 1944», on french reforms in Algeria as published in *Free France* (March 15, 1944), 227.

«Proclamation» of France to the Algerians on the eve of occupation 1830 as published in Arabic and French by R.A. VI (1862), 147-156.

SARRASIN, Paul-Emile. - *La crise algérienne.* Paris: Du Cerf, 1949.

SAVARY, Alain.- *Nationalisme algérien et grandeur française,* Paris: 1960.

SERVIER, André. - *Le nationalisme musulman en Egypte, en Tunisie, en Algérie.* 3ème Edition, Constantine: Boet. 1913.

Statute of l'Etoile Nord Africaine as printed in *A.F.* (October 1934), 575-576.

Text of the french reform of 1919 as printed in A. Bernard, *L'Afrique du Nord pendant la guerre.* Paris: Presses Universitaires de France, 1927?, 97-106.

YACINE. Kateb. - *Abdelkader et l'indépendance algérienne.* Algiers: Editions algériennes, 1949?

ب ـ مقالات عن دراسات خاصة :

AGERON, Charles - Robert. - *«Jules Ferry et la question algérienne en 1892»*, R.H.M.C.,X (April-June, 1963), 127-146.

- *«Une politique algérienne libérale sous la Troisième République* (1912-1919) *Etude historique de la Loi du 4 Février 1919»*, .H.M.C., VI (April-June, 1949), 121-151.

- *«L'Algérie algérienne sous Napoléon III»*, Preuves (February, 1961), 3-13.

- *«Jaurès et les socialistes Français devant la question algérienne* (1895-1914) ,» M.S. (January, 1963), 3-29.

«Le nationalisme algérien: de l'Islam à la révolution», R.S. (July, 1956), 126-134.

A.L.C. - *«Les Musulmans Algériens au Maroc et en Syrie»*, R.M.M., II (March-July, 1907), 499-512.

BERNARD , Augustin . - *«Les événements de Margueritte»*, Q.D.C., XI (May 15, 1901), 617-621.

- *«Le Sabara français pendant la guerre»*,A.F.S.,(January,1920),3-9.

BERQUE, Augustin. - *«Esquisse d'une histoire de la Seigneurie algérienne»*, R.M., VII (January-February, 1949), 18-34; (March-April, 1949), 168-180.

- *«Les Capteurs de Divin: Marabouts, Ulémas»*, R.M., X,XI (May-June, 1951), 286-302; (July-August, 1951), 417-429.

- *«Un mystique moderniste: le Cheikh Benalioua»*, R.A., LXXIX (1936), 691-776.

- *«La bourgeoisie algérienne»*. Hespéris XXXV (1948), 1-29.

- *«Les intellectuels Algériens»*, R.A. XCI (1947), 123-151.

BERQUE, Jacques. - *«Cent-vint-cinq ans de sociologie maghrébine»*, Annales (July-September, 1956), 296-324.

- *«La sainteté au Maghreb»*, Annales (July-September, 1955), 367-371.

BILLY, Edward de. - *«Notes sur la politique indigène»*, A.F.S., (March, 1914), 89-112.

«Le bolchévisme et l'œuvre coloniale française», A.F., (october, 1924), 529-535.

BOUVREUIL, A.G. - *«Agitation politique et religieuse chez les Musulmans d'Algérie»*, A.F. (november, 1936), 580-590.

«La campagne communiste contre l'Afrique française», A.F. (June, 1927), 226-235.

CASTELLI, Fausto. - *«Il nazionalismo algerino»*, R. S .P.I. , XXVI (1959), 77-86.

CHARLES ROUX, François. - *«Ferdinand de Lesseps et Abd-el-Kader»*, R.M., XV (november-december, 1955), 568-584; (january-february, 1956), 3-23; (march-april, 1956), 115-132.

DEMONTES, Victor. - *«Les procés de Margueritte»*, A.F. (March, 1903), 105-112.

DEPONT, Octave. - *«Une insurrection en Algérie pendant la guerre»*, R.A.N., I (october, 1921), 5-19.

- *«Les troubles en Afrique du Nord et les franchises indigènes en Algérie»*, R.P.P. CLXIV (1945), 70-95.

DESPARMET, J. - *«Quelques échos de la propagande allemande à Alger»*, S.G.A., XX (1915), 46-73.

- *«L'œuvre de la France en Algérie jugée par les indigènes»*, S.G.A., XV (1910), 167-186, 417-436.

- *«La turcophilie en Algérie»*, S.G.A., XXI, XXII (1916), 1-45; (1917), 1-83.

- *«La réaction linguistique en Algérie»*, S.G.A. XXXVI (1931), 1-33.

- *«Les réactions nationalitaires en Algérie»*, S.G.A. XXXVII (1932), 173-184, 437-456.

-*«La chanson d'Alger pendant la grande guerre»*, R.A. LXXIII (1932), 54-83.

- *«Un réformateur contemporain en Algérie», A.F.* (March, 1933), 149-156. On Ben Badis.

- *«Les Oulémas Algériens et la propagande italienne«*, A.F. (May, 1938), 210-214.

- *«Le panarabisme et l'Algérie»*, A.F. (June, 1936), 321-317.

- *«L'Histoire des Arabes et les Oulémas d'Algérie»*, A.F. (May, 1934) 274-281.

- *«La Résistance à l'Occident»*, A.F. (May, 1933), 265-269.

- *«Naissance d'une histoire nationale de l'Algérie»*, A.F. (July, 1933), 387-392.

- *«Deux manifestes indigènes»*, A.F. (December 1933), 780-783.

- *«Les guides de l'opinion indigène en Algérie»*, A.F. (January, 1933), 11-16.

- *«Contribution à l'histoire contemporaine de l'Algérie»*, A.F. (July, 1937), 352-358; (August, September, 1937), 423-428; (November, 1937), 523-527; (December, 1937), 557-561.

EMERIT, Marcel, - *«L'Etat d'esprit des Musulmans d'Algérie de 1847-70»*, R.H.M.C., VIII (April-June, 1960), 103-120.

- *«L'Etat intellectuel et moral de l'Algérie en 1830»*, R.H.M.C., I (July-September, 1954), 199-212.

- *«Le problème de la conversion des Musulmans d'Algérie sous le Second Empire»*, R.H. CCXXIII (January-March, 1960), 63-84.

FEKAR, Benali. - *«La représentation des Musulmans Algériens»*, R.M.M., VII (January-April, 1909), 1-22.

GALISSOT, René - *«Abdelkader et la nationalité algérienne»*, R.H., (April-June, 1965), 339-368.

GAUTIER, E.-F. - *«Menaces sur l'Afrique»* R.P., (September 1, 1934), 38-56.

GAUTHIER, Robert. - *«De l'exode de Tlemcen à la Loi Jonnart, 1912-1919: Un premier dérapage de la politique algérienne»*, M.D., (January, 1964), No page number.

HABART, Michel. - *«Vérités et mensonges du 5 Juillet 1830»*, Novembre I (Aprit-May, 1964), 11-20.

HAMIT, (Hamid), Ismael. - *«Les Musulmans de l'Afrique du Nord»*, R.M.M., XXII, XXIII, (March-June, 1913), 280-295.

HALPERN, Manfred. - *«The Algerian uprising of 1945»*, The Middle East Journal, II (April, 1948), 191-202.

- *«Recent books on moslem - French relations in Algeria»*, The Middle East Journal, III (April, 1949), 211 - 215.

ISNARD, Hildebert. - *«Aux origines du nationalisme algérien»*, Annales, IV (October, December, 1949), 463-474.

JARAY, Gabriel-Louis. - *«La politique indigène en Algérie: conflits récents et causes profondes»*, M.F. (November 1, 1938), 566-585.

JOHNSON, Douglas. - *«Algeria: Some problems of modern history»*, The Journal of African History, V (1964), 221-242.

KIVA. - *«Un Marabout Algérien: bou Amama»*, R.I: V (1889), 701-709.

LACHERAF, Mostefa. - *«Réflexions sociologiques sur le nationalisme et la culture en Algérie»*, T.M. (March, 1964), 1629-1660.

- *«Le Nationalisme Algérien: Sens d'une Révolution»*, T.M. (September-October, 1956), 214-255.

- *«L'Avenir de la culture algérienne»*, T.M. (October, 1963), 720-745.

- *«Constantes politiques et militaires dans les guerres coloniales d'Algérie»*, (1830-1960), T.M. (December, 1960, January, 1916), 727-800.

MARCHAND, H. - *«L'Exode des Musulmans Algériens»*, Q.D.C., XXXIII (January 16, 1912), 86-94.

MARTINIERE, H. de la. - *«Avant le voyage du Président: La question indigène en algérie au lendemain de la guerre»*, R.D.M. (March-April, 1922), 326-351, 659-684.

MERAD, Ali. - *«L'enseignement politique de Mohamed Abduh aux Algériens (1903)»*, Orient, XXVIII (1963), 75-123.

- *«La formation de la presse musulmane en Algérie* (1919-1939)», I.B.L.A. XXVII (1964), 9-29.

MIGOT, Robert. - *«Sur le nationalisme indigène»*, M.F. (October 15, 1933), 436-440.

MILLET, Philippe. - *«Les jeunes Algériens»*, R.P. XX (November 1, 1913), 158-180.

- *«France and her Algerian problem»*, The Nineteenth Century and After, LXXIII (April, 1913), 729-740.

MONHANDIS; L. - *«A l'assaut de l'Afrique française du Nord»*, A.F. (September, 1934), 518-534; (October, 1934), 574-580. A documentary account on the nationalist movement.

- *«A l'assaut de l'Afrique française du Nord»*, A.F.S. (April, 1935), 19-25.

MONTAGNE, Robert. - *«Evolution in Algeria»*, trans, G.K. Agnew, International Affairs (January, 1947), 42-21.

- *«Les Musulmans français et la guerre»*, R.M.M., XXIXXXX (December, 1914- 1915), 173- 174, Arabic and French text related to the Algerian's reaction to the war.

PICQUET, Victor. - *«Les réformes en Algérie et le statut des indigènes»*, R.P. (November, 1918), 421- 448.

PROBSTER G. - *«Abdalqadir und die Eroberung Algeriens»*, W.I., XXII (1940), 132- 148.

- *«Le projet de loi sur l'accession de indigènes Algériens aux droits politiques»*, A.F.S. (July- August, 1918), 114- 120.

RAYNAUD, B. - *«Les réformes algériennes de 1918»*, R.E.P., XXXIII (1919), 66- 70.

- *«Le régime de l'indigénat: la loi du 5 juillet 1914»*, A.F. (August December, 1914), 345- 347.

- *«La révolte de Margueritte»*, A.F. (May, 1901), 141- 145.

RICHEMONT, F. de. - *«L'Islam et la nationalité française»*, R.P.P. (October, 10, 1937), 9- 24.

SABATIER, E. - *«Les droits electoraux des indigènes musulmans d'Algérie»*, R.D.M., XLIV (March, 1938), 197-206.

SEIGNOURET, E. - *«L'Algérie et les indigènes pendant la guerre»*, R.P.P., XCVIII (1919), 285-303.

SOUALAH, Mohamed. - *«Nos troupes d'Afrique et l'Allemagne»*, R.A., LX (1919), 494-520.

THIERRY, René. - *«L'offensive communiste contre l'Afrique française»*, A.F. (May, 1927), 181- 187. On l'Etoite's activities.

- *«Les Ulémas Algériens réformistes»*, N.R.F.O. VII- VIII (July, 1955), 328- 337.

VOINOT, L. - *«La menace de Oulad Sidi Cheikh contre le Tell algérien et les dangers de leur intrigues au Marco»*, (1870-1871),R.A., LXI (1920), 62- 133.

WORTHAM, H.E. - *«France's problems in North Africa»*, The Atlantic Monthly (February, 1922), 549- 558.

YVER, George. - *«Si Hamdan Ben Othman Khodja»*, R.A., LVII (1913), 96- 138.

2 ـ دراسات عامة

أ ـ كتب ونشرات :

AGERON, Charles- Robert. - *Histoire de l'Algérie contemporaine*, 1830- 1964. Paris: Presses Universitaires de France, 1964.

ALAZARD J. and Others. - *Iinitiation à l'Algérie*, Paris, Amérique et Orient, 1957.

ALFASSI, Allal. - *The independence movement in Arab North Africa*, trans. H.Z. Nuseibeh. Washington, D.C., 1954.

ARON, Robert and Others. - *Les origines de la guerre d'Algérie*, Paris: Fayard, 1962.

BARBOUR, Nevill (ed.). - *Survery of North West Africa (The maghrib)*. London: Oxford University Press, 1962, 2 ed.

BARTELS, Albert (Si Hermann). - Mein Krieg auf eigne faust. Leipzig: Hase and Koehler, 1925.

BECKER, Carl H. - *Deutschland und de Islam*, Berlin Deutsche berlags, 1914.

BERNARD, Augustin. - *L'Afrique du Nord pendant la guerre*, Paris, Presses Universitaires de France, 1927.

- *L'Algérie in histoire des colonies françaises et de l'expansion de la France dans le monde.* II, (éd.), G. Hanotaux, Paris, 1930.

BERQUE, Jacques. - *Le Maghreb entre deux guerres*, Paris, Seuil, 1962.

BOERSNER, Demetrio. - *The bolscheviks and the national and colonial question*, 1917 - 1928, Paris, Minard, 1957.

LA DELEGATION GENERALE. - *L'organisation de l'enseignement de la langue arabe en Algérie*, Algiers, Officiell, 1961.

DEPINCE, Ch. (éd.). - *Congrès de l'Afrique du Nord*, 2 vol., Paris, 1909.

DUPUY, Aime. - *L'Algérie dans les lettres d'expression française*, Paris, Editions Universitaires, 1956.

FAVROD, Charles Henri. - *La révolution algérienne*, Paris, Plon, 1959.

GABERIELI, Francesco. - *The Arab revival*, New York, Random House, 1961.

GERMAIN, Roger. - *La politique indigène de Bugeaud*, Paris, 1955.

GILLESPIE, Joan. - *Algeria rebellion and revolution*, New York, Praeger, 1960.

GORDON, David, C. - *North Africa's french legacy*, 1954- 1962. Massachusetts, Harvard University Press, 1962.

GOUTOR, Jacques R. - *Algeria and France*, 1830- 1963, Indiana, Ball States University, 1965.

HAHN, Lorna. - *North Africa, nationalism to nationhood*, Washington, D.C.: Public Affairs Press, 1960.

HAIM, Sylvia, (éd.). - *Arab nationalism, an anthology*, California, University of California Press, 1962.

JEANSON, C. and F. - *L'Algérie hors la loi*, Paris, 1955.

JULIEN, Charles- André. - *Histoire de l'Algérie contemporaine*, 1830- 1870, Paris, Presses Universitaires de France, 1964.

KIRK, George. - *Survey of international affairs* 1939- 1946. *The Middle East in the war*, ed. Arnold Toynbee, London, Oxford University Prss, 1954.

KOHN, Hans. - *Nationalism: Its meaning and history*, New York, Van Nostrand, 1955.

LACOSTE, Yves and others. - *L'Algérie, passé et présent*, Paris, Editions socialistes, 1960.

LE TOURNEAU, Roger. - *Evolution politique de l'Afrique du Nord musulmane*, 1920- 1961, Paris, Colin, 1962.

LIEBESNY, Herbert J. - *The goverment of the French North Africa*, Philadelphia, University of Pennsylvania Press, 1943.

LUETHEY, Harbert. - *France against herself*, New York, Praeger, 1955.

MANSELL, Gerand. - *Tragedy in Algeria*, London, Oxford University Press, 196.

MARTIN, Claude. - *Histoire de l'Algérie française*, 1930- 1962, Paris, Aymon, 1963.

MAUGHAM, Robin. - *North African notebook*, London, Chapman, 1948.

MELIA, Jean. - *L'Algérie et la guerre*, 1914- 1918, Paris, Plon 1918.

- *La Patrie algérienne*, Algiers, Maison des Livres, 1952.

MERLO, M. - *L'organisation administrative de l'Algérie*, 2 éd. Algiers, Ferraris, 1953.

MINER HORACE, M. and DE VOS, George. - *Oasis and Casbah: Algerian and personality in change*, Ann. Arbor, University of Michigan, 1960.

«North Africa», *Current History*, (April, 1954), (January, 1963). Special issues on this area.

NIOUSHCHI, André - *Correspondance du Dr. A. Vital avec I. Urbain* (1845- 1974). Algiers, Imbert, 1958.

ROGER, Jean- Jacques. - *Les Musulmans Algériens en France et dans les pays islamiques*, Paris, Les Belles Lettres, 1950.

RINN, Louis. - *Histioire de l'Insurrection de 1971 en Algérie*, Algiers, Jourdan, 1891.

RUHL, Alfred. - *Von Wistschaftsgeist im Orient*, Leipzig, Meyer, 1925. On the role of Islam in Algeria.

SHAFER, Boyd, G. - *Nationalism, myth and reality, New York, Harvest Book, 1955.*

SPECTOR, Ivar. - *The Soviet Union and the Muslim world*, 1917-1958. Seatle: University of Washington Press, 1959.

TAILLIART, Charles. - *L'Algérie dans la littérature française*, Paris, Ancienne, 1925.

TILLION, Germaine. - *Algeria the realities*, trans. Roland Matthew. New York, Alfred Knopf, 1958.

TOYNBEE, Arnold. - *Survey of international Affairs*. 1925, I, *The Islamic World. London*: Oxford University Press, 1927.

- Survey, 1937, I, 1938.

VIOLETTE, M. - *L'Algérie vivra-t-elle?* Paris: 1931.

WAHL, M. - *L'Algérie*. Paris: Ancienne, 1903 4ème éd.

- *A world on the move*: a history of colonialism and nationalism in Asia and North Africa from the turn of the century to the Bandung Conference. Amsterdam, 1956.

ب ـ مقالات عن دراسات عامة :

AGERON, Charles- Robert. - *«Brève histoire de la politique d'assimilation en Algérie»*, R.S. (March, 1956), 225- 236.

BALCH, T.W. - *«French colonization in North Africa»*, The American political science review. III (November, 1909), 539- 551.

BANDA, Michael. - *«Marxism and the Algerian Revolution»*, Labour Review. (London), (March - April, 1958), 37 - 44.

BEN SHANAB, SAADEDDINE. - *«Le théâtre arabe d'alger»*. R.A. LXXVII (1935), 72- 85.

BAZIN, René. - *«Charles de Foucauld et les Musulmans»*, R.D.M. (December 1, 1924), 481- 506.

BARBOUR, Nevil. - *«Variations of Arabe national feeling in French North Africa»*, The Midle East Journal, VIII (Summer, 1954), 308-320.

BERNARD, Augustin. - *«L'Allemagne et l'Afrique du Nord»*, A.F. (April, 1915), 88- 90.

BERNARD, Paul. - *«L'Enseignement primaire des indigènes musulmans de l'Algérie»*, R.M.M. I (November- February, 1906- 1907), 5-21.

BOUSQUET, George H. - *«Les élites gouvernantes en Afrique du Nord depuis la conquête française»*, W.I., III (1954), 15- 33.

BOUTHOUL, Gaston. - *«Le malaise algérien»*, R.P. (July 1, 1935), 118- 134.

BROWN, Garl Leon. - *«The Islamic reformist movement in north Africa»*, The journal of modern african studies. II (March, 1964), 55-63.

BUGEJA, Marie. - *«A travers l'Algérie, impression sur la femme musulmane», S.G.A., XXIV (1919), 70- 86.*

- *«Vers la renaissance des arts algériens», S.G.A. XXVIII (1923), 379- 399.*

BUSSON, Jonssens Le G. - *«L'indépendance du culte musulman en Algérie»*, R.J.P.U.F. (July- September, 1951), 305- 339.

CAHNMAN, Werner. - *«France in Algerian - A problem of culture contact»*, The review of politics, VII (July, 1945), 333- 357.

C.E.S. - *«Politics and economics in Algeria», The world today, IV (February, 1948), 83- 92.*

CHADWICK, *M.C.* - *«Africa, the Arabs and France»*, Dublin review (July, 1927), 71- 92.

COLLIEZ, A. - *«La politique de prestige et les colonies»*, R.P. (January 15, 1938), 367- 389.

COLOMBE, Marcel. - *«Islam et nationalisme arabe à la veille de la première Guerre mondiale»*, R.H. CCXXIII (January- March, 1960), 85- 98.

CORRIERAS, J. - *«De l'enseignement des indigènes en Algérie»*, Q.D.C., XXVII (1910), 591- 611.

COWAN, Gray. L. - *«The new face of Algeria: political and administrative development»*, Political Science Quarterly, LXVI (September-December, 1951), 340- 365; 507- 531.

DAVID, Robert. - *«L'alarme nord africaine»*, R.F., XIV (December, 1934), 428- 440.

DEBON, Lieutenant- colonel. - *«Troupes indigènes et révolte de Fez»*, R.P. (September 15, 1912), 292- 302.

DEMONTES, Victor. - *«l'Algérie pendant ces 18 mois de guerre»*, S.G.A., XX (1915), 1- 45.

DEPINCE, Ch. - *«Le re'gime de l'indigénat algérien»*, R.P.P., LXXII (1912), 288-311.

DEPONT Octave. - *«Les berbères en France»*, A.F.S. (September, 1925), 429- 448.

DE SADE. - *«Report on the situation in Algeria»* delivred before the chamber, M.U., (April 29, 1834), 1063 - 1066.

DESPARMET, J. - *«Le II[e] Congrès de Etudiants Musulmans Nord Africains», A.F. (October, 1932), 572- 575.*

Desthieux, J. - *«Les Elites de l'Afrique du Nord»*, M.F. (July, 1939), 161 - 164.

ERMONT, Louis. - *«Afrique du Nord et Proche- Orient»*, A.F. (April, 1933), 197- 205.

FALCK, F. - *«L'Algérie Pendant la guerre»*, J.E. LX (1918), 314-329.

F.R. - *«Les arts indigènes algèriens en* 1924», S.G.A., XXX (1925), 152-156.

FERRY, Jules.- *«Organisation et attributions du gouvernement général de l'Algérie»*, J.O., Senat, Documents, 1892, 491- 498.

FURLONG, Charles Wellingtoon. - *«The white fathers of North Africa»*, Scribers Magazine, XLI (February, 1907), 140- 151.

GAUTIER, E.- F. - *«La famine en Algérie»*, R.P. (June 1, 1921), 624- 646.

«Le Général Voirol et la Commission d'Enquête de 1833», S.G.A., XII (1907), 79- 188.

GENIAUX, Charles. - *«En Kabylie, les Pères Blancs pendant la guerre»*, R.D.M., CCLIV (1916), 399- 425.

- *«Nos écoles indigènes d'Algérie et la paix française»*, R.P. (Décenbre 15, 1916), 857-877.

GIBSON, H. - *«Mission of Algeria»* Month,' LIX (March, 1887), 379- 392: LX (June, 1887), 213- 227: (July, 1897), 363- 374.

GODCHOT, Colonel. - *«Moscou et l'Afrique du Nord»*, J.E. (May, 1926), 196- 204; (June, 1926), 328- 341; (July, 1926), 51- 62.

GOUBEAU, Capitaine F. - *«L'nfanterie indigène en Algérie»*, R.P. (September 15, 1911), 425- 488.

- *«Great Britain and France in northern Africa»*, The round table. XIX (December, 1928- September, 1929), 717- 738.

H.E.M. - *«A Saint in Algeria»*, The month and catholic review, XXIX (February, 1877), 225- 236: (March, 1877), 286- 300 On Missionary activities.

EL- HACHAICHI, SI Mohamed. - *«Chez les Senoussis et les Touaregs»*, trans, from Arabic by Victor Serres and Mohamed Lasram, R.P. (August 15, 1901), 678- 709; (September 15, 1901), 408- 422.

HANOTAUX, G. - *«L'Algérie: son rôle actuel et futur»*, R.D.M. (October 15, 1932), 767- 793.

HEGGOY, Alf Andrew. - *«The sources of nineteenth century algerian history: a critical essay»*, Muslim world, LIV (October, 1964), 292- 299.

HOWE, Sonia. - *«Charles de foucauld, explorer of Morocco and knight Errant of Christ»*, Muslim world, XVIII (April, 1928), 124- 146. Foucauld was killed during the hoggar revolt of 1916- 1919.

«La III^e Internationale contre la France et les colonies», correspondant (May 10, 1925), 321- 339. Under the title (Documentation soviétique).

JULIEN, Charles- André. - *«France and Islam»*, Foreign Affairs. XVIII (1939- 1940), 680- 699.

KAID- HAMMOUND, M. - *«La France et l'Islam dans le Nord de l'Afrique»*, R.A.N., I (January- April, 1922), 246- 252.

KNIGHT, M.M. - *«The Algerian revolt: Some underlying factors»*, The Midle East Journal, X (Autumn, 1956), 355- 367.

LARCHER, E. - *«Les imperfections de la législation algérienne»*, R.P.P., LXXXVI (1916), 61- 73.

LEROY- BEAULIEU, Paul. - *«La colonisation de l'Algérie, Européens et indigènes»*, R.D.M., LIII (1882), 758- 792.

- *«La France dans l'Afrique du Nord, indigènes et colons»*, R.D.M. CIXCV (1906), 45- 83.

- *«La France dans l'Afrique du Nord»*. R.D.M. CCXXX (1912), 815- 858.

LE TOURNEAU, Roger. - *«North Africa: Rigorism and Bewilderment»*, in Unity and variety in Muslim civilization. Ed. G.E. Von Gruneboum, Chicago: 1955.

LORIN, H.- *«Dix ans d'autonomie financière, l'Algérie depuis 1901»*, R.D.M., CCXXV (1911), 415- 444.

- *«Nos sujets indigènes: Etudes de politique coloniale»*, R.P.P., XXXV (1903), 367- 384.

- *«L'évolution de l'Afrique du Nord»*, Q.D.C., XXVIII (1909), 321- 331.

LUETHEY, Harbert. - *«Cross- Tides of North African Revolt»*, Commentary, XIV (November, 1952), 433- 449.

LUTAUD, Charles (Former Governor General). - *«L'Algrie pendant la guerre»*, A.F.S. (June- July, 1915), 105- 122.

- *«La situation générale de la colonie»*, A.F. (April, 1917), 144- 148. A report to the financial delegations.

MACHEFER , Philippe . - *«Autour du problème algérien en* 1936- 1938: *La doctrine algérienne du P.S.F.: le P.S.F. et le Projet Blum- Violette»*, R.H.M.C., X (April- June, 1963), 147 156.

MAITROT, Commandant. - *«Les Allemands au Maghreb»*, S.G.A., XXVI, XXVII (1921), 441- 471; (1922), 556- 573.

MARÇAIS, George. - *«Nostalgie de Fellahs»*, R.P. (October 15, 1919), 788-807.

MARAÇAIS, Philippe W. - *«Peoples and cultures of North Africa»*, The Annals, trans. G. Horner and M. Karp, (March, 1955), 21- 29.

MERCIER, Gustave. - *«Les indigènes nord- africains et la guerre»*, R.P. (july 1, 1918), 203- 222.

MESSIMY, A. - *«Ressources militaires de l'Afrique du Nord»*, R.P., (November 15, 1910), 333- 346.

MEYNIER, Général. O. - *«La guerre sainte des Senoussya dans l'Afrique française* (1915-1918)», R.A., LXXXIII (1939), 227-275, 323-357.

Largely on the Hoggar revolt and relation between the Senoussya fraternity and the Central Powers.

- *«La guerre sainte des Senoussya en Afrique,* (1914- 1918)», R.M.F. (May, 1932), 176- 204; (December, 1932), 432: (January, 1933), 121- 144; (February, 1933), 244- 254; (March, 1933), 391- 402; (October, 1933), 120- 142; (December, 1933), (337- 353) February, (1934), 214 - 237, (This protion is written by Commandant Filio); (March, 1934), 399 - 426.

MILLIOT, L. - *« L'Exode des travailleurs Algériens vers la Métropole»*, A.F.S. (March, 1925), 94- 97.

MONTAGNE, R. - *«French policy in North Africa and in Syria»*, International Affairs (March, 1937), 263- 279.

MONTEIL, Vincent. - *«L'arabisation culturelle de l'Algérie»*, Preuves. (January, 1964), 31- 35.

«Nationalism in North Africa», The Round Table (March, 1938), 279- 296.

NIESSEL, Général. - *«Panislamisme et panarabisme»*, R.D.M. (March, 1938), 295 - 305.

O'CONNOR, R.F. - *«The French conquest of Algeria»*, The American catholic quarterly review. (July, 1906), 457- 485..

PAYSANT, M.L. - *«Le service militaire obligatoire pour les indigènes en Algérie»*, R.A., LII (1908), 115- 148.

PINON, René - *«La séparation des églises et de l'Etat en Algérie»*, R.D.M., (Décembre 15, 1907), 866- 896.

«Le problème militaire nord africain», Correspondant (June 25, 1925), 801- 816.

«La propagande d'Abd-el-Krim dans l'Afrique du Nord», A.F., (January , 1926), 15- 17.

R.F. - *«Nationalism and the trade unions in french North Africa»*, The World Today (June, 1952), 249- 257.

ROGER, Jean-Jacques. - *«Les Musulmans algériens en France et dans les pays islamiques»*. R.M. (March- April, 1950), 169- 190.

RAYMOND, A. - *«La situation des indigènes et le crédit agricole en Algérie»*, R.D.M., (May 1, 1912), 116- 139.

«Le régime de l'Algérie au début du XXe siècle», R.D.M. (April, 1, 1903), 610- 643; (April 15, 1903), 867- 904; (May 1, 1903), 150- 190.

RICHEMONT, F. de. - *«Une politique agraire pour l'Afrique du Nord»*, R.P.P. CLXXIV (1938), 257- 263.

RINN, Louis. - *«Les grands tournants de l'histoire de l'Algérie»*, S.G.A., VIII (1903), 1- 24.

RIVLIN, Benjamin. - *«Cultural conflicts in French North Africa»*, The Annals (July, 1956), 4- 9.

- *«Context and sources of political tensions in French North Africa»*, Ibid. (March, 1955), 109- 116.

ROBERT - RAYNAU . - *«La propagande communiste dans l'Afrique du Nord»*, A.F.S. (January, 1926), 14 - 48.

ROUIER, M. - *«Les indigènes Algériens»*, R.D.M. (January 15, 1909), 410- 441: (April 1, 1909), 615- 649.

- *«Les colons de l'Algérie»*, R.D.M. (September 15, 1901), 339- 374- 865- 904.

ROUSSEL, Ch. - *«La naturalisation des indigènes en Algérie»* R.D.M. (August 15, 1875), 895 - 921.

SABATIER, Camile. -*«Du recrutement des indigènes Algériens»*, R.P.P. LIX (1909), 25 - 39.

SABATIER, E. - *«Les grands problèmes Nord Africains»*, R.D.M. (March, 1939), 156- 181.

SHARP, William. - *«Cardinal Lavigerie's Work in North Africa»*, The Atlantic Monthly, LXXIV (August, 1894), 214- 227.

SHINAR, Pessah, - *«Abd Al-Qadir and Abd Al-Krim»*, Studies in Islam, I (July, 1964), 135- 164.

STEEG, F. (Former Governor General). - *«La situation de l'Algérie»*, A.F.S. (June, 1923), 211- 215.

TEBBAL. - *«Afrique et Syrie»*, A.F.S. (September, 1921), 198- 206.

TOURNADE, H. - *«Souvenirs d'Algérie, l'insurrection du Sud Oranais de 1881»*, N.R., LXVIII (1923), 25- 37, 153- 163.

VALBERT, G. - *«La question algérienne et le rapport de M. Jules Ferry»*, R.D.M., CXVI (1893), 197- 208.

VAN GENNEP, Arnold. - *«La mentalité indigène en Algérie»*, M.F., CVI (1931), 673- 699.

VIOLLETTE, M. (former Governor General). - *«La situation générale de l'Algérie»*, A.F., (November, 1926), 537- 542.

- *«La situation générale de l'Algérie»*, A.F.S. (April, 1927), 141-145.

- *«La situation de l'Algérie»*, A.F.S., (July, 1925), 335- 339.

«Le voyage du Président de la République dans l'Afrique du Nord», A.F.S. (May, 1922), 121- 142. On Millerand's visit to Algérie.

WARREN, G. Edward de. - *«L'opinion publique française et le Monde Musulman Africain»*, R.P.P., LXXIV (1912), 473- 493.

YACONO, X. - *«Peut-on évaluer la population de l'Algérie vers 1830?»*, R.A., IXCVIII (1944), 277- 307.

ZIADEH, N.A. - *«Cultural trends in North Africa»*, Journal of World History VII (1962). 109- 133.

مختصر

(مختصر عناوين المجلات والجرائد غير الانكليزية)

(تشمل هذه القائمة مختصر عناوين المجلات والجرائد غير الانكليزية التي يحتوي عنوانها على أكثر من كلمة واحدة) .

A.F.	L'Afrique française	أفريقية الفرنسية	«أ. ف.»
A.F.S.	L'Afrique Française-sup.	أفريقية الفرنسية ـ اضافي	«أ. ف. س»
I.B.L.A.	Institut de Belle-Lettres Arabes	معهد الآداب العربية	«أ. ب. ل. أ»
J.E.	Journal des Economistes	جريدة الاقتصاديين	«ج. أ.»
J.O.	Journal Officiel	الجريدة الرسمية	«ج. أ.»
M.D.	Le Monde Diplomatique	العالم الديبلوماسي	«م. د.»
M.F.	Mercure de France	عطارد فرنسا	«م. ف.»
M.S	Le Mouvement Social	الحركة الاجتماعية	«م. س.»
M.U.	Le Moniteur Universel	المرشد العالمي	«م. و.»
N.R.	Nouvelle Revue	المجلة الجديدة	«ن. ر.»
N.R.F.O.	La Nouvelle Revue Française d'Outre-Mer	المجلة الجديدة الفرنسية لما وراء البحار	«ن. ر.»
Q.D.C.	Questions Diplomatiques et Coloniales	المشاكل الديبلوماسية والاستعمارية	«ك. د. ك.»
R.A.	Revue Africaine	المجلة الافريقية	«ر. أ.»
R.A.N.	Revue de l'Afrique du Nord	مجلة أفريقية الشمالية	«ر. أ. ن.»
R.D.M.	Revue des Deux Mondes	مجلة العالمين	«ر. د. م.»
R.E.P.	Revue d'Economie Politique	مجلة الاقتصاد السياسي	«ر. أ. ب»
R.F.	Revnue de France	مجلة فرنسا	«ر. ف.»
R.H.	Revue Historique	المجلة التاريخية	«ر. هـ.»

R.H.M.C.	Revue Historique Moderne et Contemporaine	«ر. هـ. م. ك» مجلة التاريخ الحديث والمعاصر
R.I.	Revue d'Infanterie	«ر. أ.» مجلة المشاة
R.J.P.U.F.	Revue Juridique et Politique de l'Union Française	«ر. ج. ب. و.» المجلة العدلية والسياسية للاتحاد الفرنسي
R.M.	Revue de la Méditerranée	«ر. م.» مجلة البحر الأبيض المتوسط
R.M.F.	Revue Militaire Française	«ر. م. ف» المجلة العسكرية الفرنسية
R.M.M.	Revuc du Monde Musulman	«ر. م. م» مجلة العالم الاسلامي
R.P.	Revue de Paris	«ر. ب.» مجلة باريس
R.P.P.	Revue Politique et Parlementaire	«ر. ب. ب.» المجلة السياسية والبرلمانية
R.S.	Revue Socialiste	«ر. س.» المجلة الاشتراكية
R.S.P.I.	Rivista di studi politici Internazionali	«ر. س. ب. أ.» مجلة الدراسات السياسية العالمية
S.G.A.	Société de Géographie d'Alger et de l'Afrique du Nord	«س. ج. أ» الجمعية الجغرافية للجزائر (العاصمة) وأفريقية الشمالية
T.m	Les Temps Modernes	«ت. م.» الأزمنة الحديثة
W.I.	Die Welt des Islams	«و. أ.» عالم الاسلام

* * *

إحصاءات

فهرس الجرائد والدوريات والكتب

***

فهرس الأعلام

ـ ت ـ

ـ ث ـ

ـ ج ـ

ـ ح ـ

ـ غ ـ

ـ ف ـ

ـ ق ـ

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

فهرس الأماكن والبلدان

ـ ب ـ

ـ ت ـ

- ج -

- ح -

- د -

- ر -

- ز -

ـ ش ـ

ـ ص ، ط ، ظ ـ

ـ ع ، غ ـ

***

المحتوى

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**





دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان

لصاحبها الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود

تلفون : 340131 - 340132 - ص . ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.:113-5787 - Beyrouth - Liban

الرقم :	1992-1-2000-206
التنضيد:	سامو برس - بيروت
الطباعة:	دار صادر - بيروت

Aboul-Kassem Saadallaah
Université d'Alger

LE MOUVEMENT NATIONAL ALGERIEN
1900-1930

Tome II



DAR AL - GHARB AL - ISLAMI
1992

ABOUL-KASSEM SAADALLAAH

LE MOUVEMENT NATIONAL ALGERIEN
1900 - 1930

TOME II



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI